رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منشورات جامعة حلب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المفصّل
في علوم البلاغة العربيّة

المعاني - البيان - البديع

تأليف

د. عيسى علي العاكوب
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة حلب

لطلاب السنة الأولى والثانية

قسم اللغة العربية

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المفصل

في علوم البلاغة العربية

المعاني - البيان - البديع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمدُ لِلّه ربّ العالمين، والصلاةُ والسّلام على نبيّه الهادي الأمين. اللهّم بكَ أستعينُ، وبكَ أستبين، وعليك أتوكّلُ.

أمّا بعدُ، فإنه ليس في مقدور أيّ مثقّف أن ينكر ما للدّرس البلاغيّ العربيّ من أهميةٍ في إدراك بنْيةِ الكلام العربيّ، والأسسِ التي ينهض عليها إنشاءُ نماذجه الممتازة. ولا نذيعُ سرّاً حين نذهب إلى القول إنّه توافر لهذا الدّرس ـ عبر ما يربو على ثمانية قرون ـ ذِهْنيّاتٌ موهوبة وضعت نصبَ أعينها أن تتبيّن تلك الأسرارَ التي تجعل ضربًا من الكلام مقدَّمًا مرموقًا مموقًا. إذ تدلّ البِدايات التي قُيِّض لنا أن نعرفها في مسيرة الحياة العقلية للإنسان العربيّ على أنّ هذا الإنسان كان راقيًا عقليًا ووجدانيًا منذ أن استخفّته تلك الصوّرُ الكلاميةُ الرفيعة التي انطوى عليها شعرُ العرب وخَطابتُهم وحِكَمُهم وأسجاعُهم قبلَ الإسلام. وحين بزغ فجرُ الإسلام كان العربيّ بعيش في صحرائه في متحفٍ لروائع الفنّ الأدبيّ العربيّ؛ وهي روائعُ أبدعتْها قرائحُ أساطينَ أمثالِ امرىء القيس والنّابغةِ وزهير وطرفة وعنترة ولبيد وقُسّ بن ساعدة وسواهم. ويَشاء الحكيمُ الخبير أن يكون إعجازُ أخرى الرّسالات إعجازًا بيانيًا، وقف أمامه العربيّ مشدوهًا مبهورًا، ينطق باسمه الوليدُ بن المغيرة حين يقول عن الذكر الحكيم: «إنّهُ لَيعلُو ولا يُعلىٰ عليه». وشهادةُ العدوّ بالفضل لا تُرَدّ في محكمة تبيُّنِ الحقيقة الناصعة وتلمّسِ الطريقة النافعة. وطبيعيّ أن يضاعِف التنزيلُ إحساسَ العربيّ

المسلم بالجمال الذي لا يعدِله جمالٌ وبالرّوعة التي تجوز طوقَ الخيال. ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أنّ أسلوب الذّكر الحكيم شكّل بدءًا من منتصف القرن الأول الهجريّ أفقًا جماليًا عاليًا أسهم - مع عوامل أخر - في إذكاء الذهنية العربية الإسلامية في وِجْهتين:

- الأولى وجهةٌ إبداعيّة فنّية تمثّلت في توقٍ إلى محاكاة نماذج البيان العالي في الذكر الحكيم؛ وهو توقٌ وجد تعبيرَه في محاولاتٍ نُسبت إلى ابن المقفّع وغيره مِمّن قيل إنّهم حاولوا مضاهاة البيان القرآني. وأيًا كان القولُ في صحّة هذه المحاولات فإنّ ما هو حقيقَةٌ لا يدانيها الشكُّ أنّ الأفق الجماليّ القرآنيّ كان ماثلاً في الذهنية العربية على مدى عدة قرون، وقد عمل في صورة الحافزِ المنشِّط على الارتقاء بنماذج البيان العربيّ جملةً.

- الثانية وجهة درْسية جعلت همّها في محاولة الإجابة عن هذا السؤال: ما الذي يجعلُ بعضَ صور الكلام خيرًا من بعضٍ، ومن ثم: ما هذا الذي يجعل أسلوبَ القرآن الكريم «يَعلُو ولا يُعلى عليه»؟

وقد نُصيب في القول إنّ السؤال عن ماهيّة البلاغة قد بدأ في أواخر القرن الهجريّ الأوّل ومطلعِ القرن الثاني. ثمّ إنّه بين الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) تطوّر درسُ البيان العربيّ تطوُّرًا كبيرًا، احتلّ فيه عبدُ القاهر عُلْيا درجات السّلم. وقد ألّف - في جملة ما ألّف - كتابَيْنِ في صميم الدّرس البلاغيّ المتميّز: دلائل الإعجاز، أسرار البلاغة. والحقّ أنّ عبد القاهر كان، حتى وقتِ تأليفه الكتابَيْن، خيرَ من تلمّس أُسُسَ البيان العربيّ، وحدّد جماليّاتِ الفنّ الأدبيّ عند العرب في دِلالاتِ التراكيب وفي التصوير البيانيّ المتمثّل في التشبيه والمجاز والكناية. ثم جاء بعده عالِمٌ آخرُ لا يقلّ عنه، هو أبو يعقوب يوسفُ السكاكي (ت٦٢٦هـ) الذي خصّ الدَّرْس

البلاغيّ العربيّ بشطرٍ من كتابه القيّم «مفتاح العلوم». ويتمثّل إسهامُه في تهذيب مسائل البلاغة وترتيبِ أبوابها وفقَ عقليّةٍ منطقيّة تتّسم بقدْرٍ كبير من التعمّق والتقصّي، وإن ضاعف ذلك الابتعادَ عن النصّ والإغراق في التجريد، وظلّ منْ جاء بعده يدور في فلكه ويعشو إلى ضوء ناره.

ومهما يكن، فإنّ ضرورة إلمام دراس العربية بقواعد البلاغة العربية تتجلّى في عدّة أمور:

١ ـ أن الإلمام بهذه القواعد يمكّن الدارسَ من إدراك حقيقة التفوّق الذي تحظىٰ به العربيةُ بين اللّغات جميعًا. ذلك أنّ جمهرة العرب والمسلمين يقولون بهذا التفوّق، لكنّ رأيهم هذا محكومٌ بنظرةٍ عاطفية مبعثُها احترامٌ لكتابِ الله وأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام التي صيغت بهذه اللغة الكريمة. لكنّ قليلين هم الذين يدركون حقّا جمالَ العربية وأسرارَها وقدرَتها التعبيرية العالية. ولعلّ نفرًا محدودًا من المتحدّثين بالعربية اليومَ يدركون أنّ العربية تعبّر من خلال الصّياغة والتراكيب إلى جانب تعبيرها من خلال الدّلالات اللغوية للمفردات، وهي تنفرد بهذا بين لغات الأرض، فيما نعلم.

٢ ـ أنّ الإلمام بهذه القواعد يساعد المسلمَ، أو الدارسَ جملةً، على فهْم كتاب الله سبحانه وإدراك شيءٍ من الجمال والجلال في أساليبه. وما هذا بالمطلب الهيّن؛ فإنّه من هذه النقطةِ انطلق ركبُ الحقّ على هذه الأرض، ومن هذه الومضةِ أشرقت الأرضُ بنور ربّها، ومن هذه الرّحمةِ استظلّت الإنسانيةُ بعدالة السماء. فالعربُ الذين غيّروا وجهَ الدّنيا في قليلٍ من السنين كان قد ازدهاهم قبل ذلك البيانُ القرآنيُّ الذي كان يأتيهم به محمّدٌ عليه الصلاة والسلام، فإذا بهم يغدون فرسانَ النّهار رهبانَ الليل؛ وما ذلك إلاّ لأنّ العربيّ فهِم النصَّ القرآنيّ

فهمًا خاصًا جعله مستيقنًا تمامًا أنّ هذا الكلام ليس في طوْق البشر، وأنّه من عند قيّوم السمٰوات والأرض محالةَ، وأنّ الأوامرَ والنّواهي التي ينطوي عليها ينبغي أن تنفَّذ بأقصى قدْرٍ من الدقّة. ولا نخال ذلك يغيب عن دارسٍ لأسلوب الذّكر الحكيم مقارنٍ بين صورته المكيّة وصورته المدنيّة. ففي مستطاعنا القولُ دون حرجٍ أنّ التنزيلَ المكّيّ بخاصة صاغ نفوسَ المسلمين الأوائل صياغةً جديدةً بعد أن اقتلع منها نوازع الشّرك والوثنيّة، وأعدّها لتلقّي التّنزيل المدنيّ في أسلوبه الهادىء الرزين الجامع بين وَداعةِ الإيمان وبَرْد اليقين.

٣ ـ أنّ الإلمام بهذه القواعد يمكّن المدرِّسَ أو الباحثَ من توصيل ما يريد توصيلَه من فِكَرٍ إلى الآخرين، وكذا إدراك حقيقة ما يريده الآخرون فيما يحاضرون ويؤلّفون. وقد نكون غير مخطئين إن نحن قلنا إنّنا نستخدم في لغتنا المَحْكيّة معظمَ القواعد البلاغية دون قصْدٍ إلى ذلك، لكنّنا حين نشرع في المحاضرة والتّأليف نجد صعوبة بالغة في ذلك؛ لانشغالنا بضرورة أن يأتي كلامُنا فصيحًا؛ ممّا هو على قدْرٍ كبير من الصعوبة بالنسبة إلى معظمنا.

٤ ـ أنّ الإلمام بهذه القواعد يبصّر جمهرةَ العرب والمسلمين بقيمة هذه اللّغة، وحين يعرفون هذه القيمةَ يلزمون هذه اللغةَ ويعضّون عليها بالنواجذ وفقَ قول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «يا ابن عبّاس، عرفتَ فالزمْ». وحين يلزمون جميعًا هذه اللغةَ ويؤدّون ما لها من حقوقٍ عليهم يكونون قد قوّوا آصرةً من أقوى الأواصر تشدّ بنيَانهم وتسدُّ كيانَهم، وهي آصرةُ اللغة الواحدة الأثيرة إلى القلوب، التي شاء سبحانه أن تكون لغةَ خطابه للبشر.

وقد هيّأ الله ـ سبحانه ـ أن أُعِدَّ هذا الكتابَ لدارسي البلاغة العربية من طلبة أقسام اللغة العربية في الجامعات وسواهم ممَّن ينشُدُون

تعرُّفَ البيان العربيّ والوقوفَ على أسراره. وراعيتُ أمرًا أراه على قدر كبير من الأهمية؛ وهو إيضاحُ القاعدة البلاغية وإبانة الأساس الذي قامت عليه أو استُنبطت منه، وأكثرْتُ من الشواهد والأمثلة التي تنتصر للقاعدة وتشدّ أَزْرَها. وآثرتُ أن تكون الشواهدُ موزّعةً بين الذكر الحكيم وروائع الشعر العربيّ. وعمَدْتُ في الأعمّ الأغلب إلى تلخيص القضيّة البلاغيّة المعروضة بعد تفصيلِ القول فيها ممّا يساعد على التحصيل. وختمْتُ كلَّ مبحث بطائفةٍ لا بأس بها من الأسئلة تمثّل لمادّة البحث المقدَّمة، وأثبتُّ إجابات هذه الأسئلة على الترتيب الذي جاءت عليه الأسئلة نفسُها. ولديّ يقينٌ من أنّ مثل هذا المسلك سيجعل الدارسَ أقدرَ على التمكّن من إدراك المعلومات المقدّمة وأجرأَ على ممارسة القاعدة في تضاعيف ما ينشىء من الكلام.

وواقعُ الحال أنّ الدّارسَ كان ماثلاً أمامي عند إثبات كلّ معلومة سُقْتُها في هذا الكتاب؛ فهو الهدف الأولُ والهدفُ الأخير.

وأستطيعُ أن أقول مطمئنًّا إنّ هذا الكتاب قد أتى على كلّ مباحث ما عُرف في عصرنا بـ «علوم البلاغة العربية»؛ ومن هنا جاءت تسميتي إيّاه: «المفصَّل في علوم البلاغة العربية».

وقد قدّمتُ للكتاب بموجزٍ تناولْتُ فيه تاريخَ التأليف البلاغي عند العرب ومقدّمةٍ عن دلالة كلٍّ من الفصاحة والبلاغة جعلتُها بمثابة التمهيد لعرْض قضايا البلاغة العربية. وجعلت الكتابَ نفسه في ثلاثة أقسام، أطلقتُ على كلّ منها اسمَ «كتاب»؛ ومن هنا كنتَ أمام: الكتاب الأول في علم المعاني، والكتاب الثاني في علم البيان، والكتاب الثالث في علم البديع. وفي مباحث علم البديع بخاصّةٍ كان لي إسهامٌ واضحُ المعالم في الحديث عن جماليّات كلِّ محسِّنٍ معنويّ ولفظيّ، مما لا يظفر به كتاب آخر، فيما أعلم.

وقد حرصتُ على أن أقدِّم للدّارس مفصّلاً لعناصر المادّة المقدَّمة في كلّ مبحث قبلَ البدء بالمبحث نفسه، ممّا يمكن أن يسمّى فِهْرِسًا داخليًا فضلاً عن الفهرس الجامع في أول الكتاب.

وإن بقيت لي من كلمة أقولها هنا فهي أنّي أطمحُ في تأليف هذا الكتاب إلى خدمة لغة القرآن الكريم ورفْعِ راية البيان العربيّ. وإنّ ما أنْشُدُه نُشْدانَ البدويّ لضالّته هو أن يُفيد محبُّو العربية من هذا الجهد المتواضع، «وما ذلكَ على الله بعزيز».

اللّهمّ، اجعلْ خيرَ أعمالِنا خواتيمَها، وخيرَ أيّامِنا يومَ نلقاك، والحمدُ لِلَّهِ أولاً وآخرًا.

غرّة رمضان المبارك ١٤١٦هـ.

المؤلف

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
إطلالة على تاريخ التأليف البلاغي عند العرب	٢٣
الفصاحة والبلاغة (تحديد وبيان)	٣٥
الكتاب الأول: علم المعاني	٦١
مقدمة في تعريف علم المعاني ومباحثه	٦٣
المبحث الأول: أحوال الإسناد الخبري	٦٥
ـ طرفا الكلام: المسندُ إليه والمسند	٦٧
ـ النسبة بين هذين الطرفين	٦٧
ـ تقسيم الكلام تبعًا للنسبة على خبرٍ وإنشاء	٦٨
ـ الفروق الأساسيّة بين الخبر والإنشاء	٦٩
ـ احتمال الخبر للصدّق والكذب	٧٤
ـ الخبر الصادق والخبر الكاذب	٧٤
ـ الإسناد الخبريّ «تعريفه»	٧٥
ـ صور طرفي الإسناد	٧٥
ـ مواضع المسند إليه والمسند في سياق الجملة العربية	٧٦
ـ قصْد المخبِرِ في إلقاء الخبر	٧٧
ـ خروج الخبر عن غرضيه الأساسيَّيْنِ	٧٨
ـ أحوال متلقّي الخبر	٨٠
ـ أحوال متلقّي الخبر تحدّدُ صِيغَ الخبر الملقى إليه: المقامُ يحدّد المقال ...	٨٢

الموضوع	الصفحة
ـ إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر	٨٤
ـ مؤكّدات الخبر	٨٨
ـ أسئلة وأجوبتها	٨٩
المبحث الثاني: أحوال المسند إليه	٩٥
ـ حذف المسند إليه	٩٧
ـ ذكر المسند إليه	١٠١
ـ تعريف المسند إليه	١٠٥
ـ إيراد المسند إليه ضميرًا	١٠٥
ـ إيراده علَمًا	١٠٨
ـ إيراده اسم إشارة	١١٠
ـ إيراده اسمًا موصولاً	١١٣
ـ إيراده معرّفًا بـ «أَلْ»	١١٨
ـ إيراده معرّفًا بالإضافة	١٢٢
ـ تنكير المسند إليه	١٢٥
ـ تقييد المسند إليه	١٢٨
ـ إيراد المسند إليه متبوعًا بوصف	١٢٨
ـ إيراده مؤكَّدًا	١٣٠
ـ إيراده مبدلًا منه	١٣١
ـ إيراده متبوعًا بعطف بيان	١٣٢
ـ إيراده متبوعًا بعطف نَسَق	١٣٣
ـ إيراده معقَبًا بضمير فصل	١٣٦
ـ تقديم المسند إليه	١٣٧
ـ تأخير المسند إليه	١٤٤
ـ تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في المسند إليه:	١٤٥
ـ وضع المُضمَر موضعَ المُظهَر	١٤٦

الموضوع	الصفحة

- وضع المظهَرِ موضعَ المضمَرِ ١٤٨
- تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في غير المسند إليه: ١٥٢
- الالتفات ١٥٢
- أسلوب الحكيم ١٥٥
- القَلْب ١٥٧
- التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي ١٦٠
- التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل ١٦١
- مخالفة السياق في صيغ الأفعال ١٦٢
- أسئلة وأجوبتها ١٦٤

المبحث الثالث: أحوال المسند ١٨٥

- المسند ومواضعه ١٨٧
- أحوال المسند - وهي: ١٨٧

أولًا: ذكر المسند ١٨٨

ثانيًا: ترك المسند ١٨٩

ثالثًا: إيراد المسند فعلاً ١٩٠

رابعًا: إيراد المسند اسمًا ١٩١

خامسًا: إيراد المسند الفعلِ وما يشبهه مقيَّدًا بأحد المفاعيل ونحوها ١٩٢

سادسًا: إيراد المسند فعلاً غير مقيَّد بشيء ممَا تقدَّم ١٩٣

سابعًا: إيراد المسند فعلاً مقيَّدًا بالشرط: ١٩٤

- الفرق بين «إنْ» و «إذا» و «لَوْ» ١٩٤
- الأغراض البلاغية لاستخدام «إنْ» في مقام الجزم بوقوع الشرط ١٩٥
- استخدام «إذا» في الشَرْط المشكوك في ثبوته أو نفيه ١٩٧
- العدول عن استقبالية جملتي الشرط والجواب لفظًا ومعنى إلى استقباليتهما معنى فقط ١٩٨

الموضوع	الصفحة

- الأغراض البلاغية لدخول «لو» على الجملة المضارعية ٢٠٠
ثامنًا: إيراد المسند معرفةً ٢٠١
تاسعًا: إيراد المسند نكِرةً ٢٠٣
عاشرًا: إيراد المسند مقدَّمًا ٢٠٤
- أسئلة وأجوبتها ٢٠٧

المبحث الرابع: أحوال متعلّقات الفعل ٢١٣

- دواعي تقديم بعض المعمولات على بعضٍ ٢١٥
- أغراض حذف المفعول ٢١٦
- أغراض تقديم المفعول ونحوه على الفعل ٢٢٠
- أسئلة وأجوبتها ٢٢٣

المبحث الخامس: أسلوبُ القَصْر ٢٢٧

- تعريف القَصْر لغةً واصطلاحًا ٢٢٩
- مكوِّنات أسلوب القصر ٢٢٩
- موضوعات البحث في هذا الأسلوب: ٢٢٩
١ - تقسيم القصر تبعًا لغرض المتكلِّم ٢٣٠
٢ - تقسيم القصر تبعًا لحال المقصور ٢٣١
٣ - تقسيم القصر الإضافي تبعًا لحال المخاطب ٢٣١
٤ - طرق القصر ٢٣٢
٥ - مواقع القصر في الجملة ٢٣٧
٦ - الأغراض البلاغية للقصر ٢٣٧
- أسئلة وأجوبتها ٢٣٩

المبحث السادس: الأساليبُ الإنشائية ٢٤٥

- الإنشاءُ لغةً واصطلاحًا ٢٤٧
- قِسْما الإنشاء (غير الطَّلَبيّ - الطَّلبي) ٢٤٧

الموضوع	الصفحة

- الإنشاء الطَلَبيّ وأنواعه: ٢٤٩
١ ـ الأمر (صِيَغُهُ ـ خروج صِيَغِهِ عن دلالتها الأصلية) ٢٥١
٢ ـ النّهي (صيغته ـ الدّلالات المجازية لصيغته) ٢٥٧
٣ ـ الاستفهام (أدوات الاستفهام: الهمزة ـ هل ـ أدواته الأُخَر ـ الدلالات المجازيّة لأدوات الاستفهام) ٢٦٣
٤ ـ التَمنّي (صيغته ـ استخدام ليتَ في الترجّي لغرضٍ بلاغيّ) ٢٧٨
٥ ـ النّداء (صِيَغ النداء ـ تنزيلُ البعيد منزلةَ القريب ـ تنزيلُ القريب منزلةَ البعيد ـ خروج النداء عن دلالته الحقيقية إلى دلالات مجازيّة) ٢٨٥
- وقوع الخبر موقعَ الإنشاء والأغراضُ البلاغيّة لذلك ٢٩٠
- أسئلة وأجوبتها ٢٩٢
المبحث السابع: الفَصْل والوَصْل ٢٩٥
- تمهيد في حاجة البليغ إلى إدراك مواطن الفصْلِ والوَصْل في الكلام ٢٩٧
- تعريف الفَصْل والوصْل ٢٩٧
- شرطُ قبول الوصْل وجودُ الجهة الجامعة ٢٩٨
- تأتّي بلاغةِ الوصْل بـ «الواو» دون بقيّة حروف العطف ٢٩٨
- مواضعُ الفَصْلِ: ٢٩٩
١ ـ كمالُ الاتّصال ٢٩٩
٢ ـ كمال الانقطاع ٣٠٠
٣ ـ شِبْهُ كمالِ الاتّصال ٣٠١
٤ ـ شِبْهُ كمالِ الانقطاع ٣٠٢
٥ ـ التوسُّطُ بين الكمالَيْنِ ٣٠٣
- مواضع الوَصْل ٣٠٥
١ ـ كمالُ الانقطاع مع إيهام الفصْلِ خلافَ المراد ٣٠٥
٢ ـ التوسُّطُ بين الكمالَيْنِ مع عدم وجود مانعٍ من الوصل ٣٠٦
٣ ـ إشراك الجملة الثانية في المحلّ الإعرابيّ للأولى ٣٠٧

الموضوع	الصفحة
ـ محسّنات الوصل	٣٠٧
ـ العدول عن تناسبِ الجُمَل المتّصلة لغرضٍ بلاغيّ	٣٠٩
ـ أسئلةٌ وأجوبتُها	٣١١
المبحث الثامن: المعنى وطولُ العِبارةِ عنه: المُساواةُ ـ الإيجازُ ـ الإطْنابُ	٣١٧
ـ تقديم في دِلالة المساواةِ والإيجاز والإطناب	٣١٩
ـ المساواةُ (حدُّها ـ أمثلةٌ لها)	٣٢٠
الإيجاز (نوعاهُ: إيجاز القِصَر ـ إيجاز الحَذْف ـ وجها المحذوف)	٣٢١
ـ الإطناب (أنواعُه: الإيضاحُ بعد الإُبهام ـ التوشيعُ ـ عطْفُ الخاصّ على العامّ ـ عطفُ العامّ على الخاصّ ـ الإيغالُ ـ التكريرُ وأغراضُه ـ التكميلُ أو الاحتراس ـ التتميمُ ـ التذييلُ وقسماه وجمالياته ـ الاعتراض وأغراضه)	٣٢٧
ـ أسئلة وأجوبتها	٣٤١
الكتاب الثاني: علم البيان	٣٤٧
ـ مقدّمة في دلالة البيان لغة واصطلاحًا	٣٤٩
ـ مباحث علم البيان:	٣٥١
المبحث الأوّل: التشبيه	٣٥٣
تعريف التّشبيه لغةً واصطلاحًا	٣٥٥
ـ أركان التّشبيه الأربعة	٣٥٥
ـ تقسيم طرفي التشبيه:	٣٥٨
أولًا: تقسيم الطرفين من حيث الحسّية والعقلية (حسّيان ـ عقليّان ـ المشبه عقليّ والمشبه به حسّي ـ المشبّه حسّي والمشبه به عقلي)	٣٥٨
ثانيًا: تقسيم الطرفين من حيث إفرادهما وتركيبهما (مفردان ـ مركبان ـ المشبه مفرد والمشبه به مركب ـ المشبه مركّب والمشبه به مفرد)	٣٦١
ثالثًا: تقسيم الطرفين من حيث تعدّدهما أو تعدّد أحدهما (التّشبيه الملفوف ـ التشبيه المفروق ـ تشبيه التسوية ـ تشبيه الجمع)	٣٦٥

الموضوع	الصفحة

وجه الشبه: ٣٦٨
- تعريف وجه الشبه ٣٦٨
- تقسيمات وجه الشبه ٣٦٩
أولًا: التحقيقيّ والتخييلي ٣٦٩
ثانيًا: المفرد والمركّب والمتعدّد ٣٧٣
ثالثًا: الحسّي والعقليّ والمختلف ٣٧٥
- اعتداد المركّب من حسّي وعقليّ عقليًا - طرفا الحسّي التامّ والجزئيّ حسّيان - طرفا العقلي عقليان أو حسّيان أو مختلفان. جمالية الوجه المركّب الحسّي ٣٧٩
- أقسام التشبيه تبعًا لوجه الشّبه (تشبيه تمثيل - تشبيه غير تمثيل - تشبيه مفصّل - تشبيه مجمل - تشبيه قريب مبتذل - تشبيه بعيد غريب) ٣٨٥
- تشبيه التمثيل (تعريفه - تقسيمه من حيث الأداة - أوضاعه في الكلام - تأثير التمثيل في إدراك المعاني) ٣٩٧
- أدوات التشبيه (الكاف وكأنّ - الأفعال - الأسماء) - تقسيم التشبيه تبعًا للأداة: مرسَل - مؤكّد ٤٠٥
- أغراض التشبيه: ٤١١
- الأغراض الراجعة إلى المشبه ٤١١
- الأغراض الراجعة إلى المشبه به ٤١٨
- تقسيم التشبيه تبعًا للغرض (المقبول - المردود) ٤١٩
- درجات التشبيه في قوة المبالغة ووضوح الدّلالة ٤٢١
- التّشبيه الضّمنيّ ٤٢٣
- التّشبيه المقلوب ٤٢٦
- جماليّات التشبيه ٤٢٩
- أسئلة وأجوبتها ٤٣٥
المبحث الثاني: المجاز ٤٤٥
- مقدمة في معنى الحقيقة والمجاز ٤٤٧

الموضوع	الصفحة

ـ نوعا المجاز: المجاز المفرد، المجاز المركّب ٤٤٩

ـ المجاز العقلي ٤٤٩

١ ـ المجاز المفرد وقسماه: ٤٥٠

الاستعارة ـ المجاز المرسل ٤٥٠

* الاستعارة: ٤٥٢

تعريفها لغة واصطلاحًا ٤٥٢

ـ أركانها ٤٥٣

ـ شروط تحقيق الاستعارة ٤٥٤

ـ قرينة الاستعارة ٤٥٥

ـ تقسيمات الاستعارة: ٤٥٧

أولًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للطرفين (الوفاقيّة، العناديّة، قسْما الاستعارة العناديّة: التهكميّة ـ التلميحية) ٤٥٧

ثانيًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للجامع (الدّاخلية ـ غير الدّاخلية ـ العاميّة ـ الخاصيّة، تغريب الاستعارة المبتذلة) ٤٦٢

ثالثًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للطرفين والجامع ٤٦٦

رابعًا: تقسيم الاستعارة تبعًا لذكر أحد طرفيها (التصريحية ـ المكنية) ٤٦٨

ـ الاستعارة التصريحية تبعًا للفظ المستعار: أصلية، تبعيّة ـ قرينة التبعية ٤٧٠

ـ الاستعارة التصريحية تبعًا للملائم: مرشّحة، مجرّدة، مطلقة ٤٨١

ـ الاستعارة المكنية (تعريفها ـ أمثلة لها ـ قرينتها ـ تقسيماتها: أصلية، تبعيّة، مرشّحة، مجرّدة، مطلقة) ٤٨٨

ـ محسّنات الاستعارة ٤٩٢

ـ أسئلة وإجاباتها ٤٩٤

* المجاز المرسل: ٥٠٠

ـ تعريفه: ٥٠٠

ـ أمثلة له ٥٠٠

الموضوع	الصفحة

ـ علاقاته (السببيّة ـ المسبّبة ـ اللاّزمية ـ الملزومية ـ الكليّة ـ الجزئية ـ الحالّيّة ـ المحلّية ـ الآلية ـ اعتبار ما كان ـ اعتبار ما يكون ـ المجاورة ـ العموم ـ الخصوص ـ التعلّق الاشتقاقي ٥٠٢
ـ أسئلة وإجاباتها ٥٠٩
٢ ـ المجاز المركّب: ٥١٣
ـ تعريفه ٥١٣
ـ قسماه: ٥١٣
١ ـ الاستعارة التمثيلية ٥١٣
٢ ـ المجاز المركّب المرسل ٥١٦
ـ أسئلة وإجاباتها ٥١٩
ـ المجاز العقليّ (المراد منه ـ صُوَره وعلاقاته ـ جمالياته) ٥٢٢
ـ أسئلة وأجوبتها ٥٢٩
المبحث الثالث: فنّ الكناية ٥٣٣
ـ في تعريف الكناية ٥٣٥
ـ أمثلة للكناية ٥٣٥
ـ أقسام الكناية من حيث طبيعة مدلولها: ٥٣٧
أولاً: الكناية التي يُراد بها صفة ٥٣٧
ثانيًا: الكناية التي يراد بها موصوف ٥٤٠
ثالثًا: الكناية التي يراد بها نِسْبة ٥٤١
ـ أقسام الكناية تبعًا للوسائط: ٥٤٣
١ ـ التعريض ٥٤٣
٢ ـ التّلويح ٥٤٤
٣ ـ الرمز ٥٤٤
٤ ـ الإيماء أو الإشارة ٥٤٤
ـ جماليات الأسلوب الكنائي وبلاغته ٥٤٦

الموضوع	الصفحة

- أسئلة وأجوبتها ٥٤٩

الكتاب الثالث: علم البديع ٥٥٣

- مقدمة في دلالة البديع لغة واصطلاحًا ٥٥٥

- مباحث علم البديع، وهما اثنان: ٥٥٦

المبحث الأول: المحسنات المعنوية ٥٥٧

١ ـ المطابقة ٥٥٩

٢ ـ المقابلة ٥٦٢

٣ ـ مراعاة النظير ٥٦٤

٤ ـ الإرصاد ٥٦٦

٥ ـ المشاكلة ٥٦٧

٦ـ المزاوجة ٥٦٩

٧ ـ العكْس ٥٧٠

٨ ـ التورية ٥٧٢

٩ ـ الاستخدام ٥٧٦

١٠ ـ الطيّ والنشر ٥٧٨

١١ ـ الجمع ٥٨٠

١٢ ـ التفريق ٥٨١

١٣ ـ التقسيم ٥٨٢

١٤ ـ الجمع مع التفريق ٥٨٤

١٥ ـ الجمع مع التقسيم ٥٨٥

١٦ ـ التجريد ٥٨٦

١٧ ـ المبالغة ٥٩٠

١٨ ـ المذهب الكلامي ٥٩٤

١٩ ـ حُسْن التعليل ٥٩٥

الموضوع	الصفحة

٢٠ ـ التفريع ٥٩٩
٢١ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذمّ ٦٠٠
٢٢ ـ تأكيد الذمّ بما يشبه المدح ٦٠٢
٢٣ ـ الاستتباع ٦٠٣
٢٤ ـ الإدماج ٦٠٥
٢٥ ـ التوجيه ٦٠٦
٢٦ ـ الهزل الذي يراد به الجِدّ ٦٠٧
٢٧ ـ تجاهل العارف ٦٠٨
٢٨ ـ القول بالموجب ٦١١
٢٩ ـ الاطّراد ٦١٢
٣٠ ـ الأسلوب الحكيم ٦١٣
٣١ ـ تشابه الأطراف ٦١٦
٣٢ ـ موافقة اللفظ للمعنى ٦١٧
٣٣ ـ حُسْن الابتداء ٦١٩
٣٤ ـ حُسْن الختام ٦٢١
ـ أسئلة وأجوبتها ٦٢٣
المبحث الثاني: المحسّنات اللفظيّة ٦٢٩
١ ـ الجناس ٦٣٢
٢ ـ ردّ العجز على الصّدر ٦٤١
٣ ـ السّجع ٦٤٥
٤ ـ الموازنة ٦٥٠
٥ ـ القلْب ٦٥١
٦ ـ التشريع ٦٥٢
٧ ـ لزوم ما لا يلزم ٦٥٣

الموضوع	الصفحة

٨ ـ الموازبة ٦٥٥

٩ ـ تآلف الألفاظ ٦٥٥

١٠ ـ التسميط ٦٥٦

١١ ـ الاكتفاء ٦٥٧

ـ أسئلة وأجوبتها ٦٥٩

ـ فهرس المصادر والمراجع المعتمدة في تأليف الكتاب ٦٦٢

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إطلالةٌ على تاريخ التأليف البلاغيّ عند العرب

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

موجَزُ تاريخ التأليف البلاغيّ عند العرب:

عُرفتِ الأحكامُ الجماليّةُ على إبداعات الشّعراء. ومدى إصابتهم الأغراضَ التي يقصدون إليها في القول، قبلَ الإسلام بغير يسير من الزّمان. فإنّ الأخبار تذكر أنّ النّابغة الذّبياني كانت تُضربُ له قبّةُ أَدَم في سوق عكاظ، فتأتيهِ الشعراءُ، فتعرض عليه أشعارَها، فيُصدِر عليها أحكامَه التي تصوِّر الدّرجةَ التي بلغها تجويدُ الشّاعر. وحديثُه مع الأعشى وحسّانَ والخنساء مشهورٌ متداول. وأيًّا كان حظُّ أمثال هذه الرّوايات من الصّحة ففيها إشارةٌ إلى أنّ الرعيل الأوّل من العلماء الذين روَوا أشعارَ العرب في جاهليّتها كانوا على شِبْه يقين من أنّه كان بين عرب الجاهلية مَنْ ينظر في الأشعار ويُعْمِل مَلكَته النّقدية في تمييز جيِّدها من رديئها؛ وإن لم يتجاوز ذلك الانطباعاتِ الذوقية الأوّلية التي يُعوزها في معظم الأحوال التّعليلُ والتّفسير. وليس لنا طبعًا أن نطلب من القوم ما لا يُنتظر من أمثالهم.

وما نخاله صحيحًا كلَّ الصّحة أنّ العرب الذين حلّ التنزيلُ بين ظهرانَيْهِم أدركوا قدْرًا هائلاً من جماليّات البيان العالي في أسلوب القرآن الكريم؛ وهو ذلك القدرُ الذي يجعل منهم بُصَراءَ بموالج الكلام ومخارجه، ومدركين بعضَ مناسبات التراكيب للأحوال التي تُقال فيها.

ومنذ مطلع النّصف الثّاني من القرن الهجريّ الأول تقريبًا يلحظ الدّارسُ اندياحَ دائرة الأحكام الجماليّة على روائع الشعر العربيّ. إذ يُخبرنا المؤرّخون عمّا يشبه «المنتدَياتِ الأدبيّة» أو المجالس التي تضمّ في جنباتها عددًا من جهابذةِ الفنّ الشعريّ وأساطينِ البيان. وما حديثُ

اجتماع جرير والفرزدق وكثيِّر وجميل ونُصَيب في ضيافة السيّدة سُكَينة بنت الحسين بن عليّ في المدينة وحُكْمها على نماذج من أشعارهم، بالحديث المرجَّم. وكذا الشأنُ في الأحكام التي أصدرها ابنُ أبي عتيق، ناقدُ الحجاز، على أشعار عمر بن أبي ربيعة وسواه.

وبدءًا من آخر القرن الهجريّ الأول تقريبًا كنتَ تلحظ التفاتَ أنظار العلماء قبل كلِّ شيء إلى تبيُّنِ مزيّة القرآن الكريم على كلّ قول، والبحثِ عن مصدر الخِلابة والرّوعة في آي الذكر الحكيم؛ حتى تطوّر ذلك فيما بعدُ إلى الاستدلال على ماهيّة الإعجاز البيانيّ في كتاب اللّهِ سبحانه. وطبيعيّ أن يعمل ذلك كلُّه على توجيه الأذهان إلى معرفة الخاصّيّاتِ الأسلوبية لأنواع الكلام، وتغيّرِ الدّلالات تبعًا لأنواع المقال، والمزايا التي تنفرد بها الصُّورُ الكلامية المختلفة. وكان من ذلك كلّه بداياتٌ لما يشكّل اليومَ «علومَ البلاغة العربية». وإليك بعضَ النّقاط المضيئة في الطريق الذي سلكه البحثُ البلاغيّ العربيّ حتى آل إلى صورته التي هو عليها اليوم:

- **في القرنين الثّاني والثّالث الهجريّين** برز في ساحة البحث البلاغي ثلاثةُ أساتيذ أغنَوا هذا البحثَ بمؤلّفاتٍ على قدرٍ كبير من الأهمية. وهؤلاءِ هم:

١ ـ أبو عبيدةَ، مَعْمَرُ بنُ المثنّى (ت٢٠٩هـ):

وهو لغويّ بصريّ، تتلمذ على يونسَ بنِ حبيب شيخِ سيبويه، وتتلمذ عليه نفرٌ من علماء العربية الكبار كأبي عبيد القاسمِ بن سلّام، وأبي حاتم، والمازنيّ.

ويتمثّل جهدُه في البلاغة العربية في مصنّفه المسمّى «مجاز القرآن»، الذي عرض فيه طرائقَ تأدية المعاني في القرآن الكريم، أو ما يمسّى «الأساليب». والمجازُ عنده أعمّ كثيرًا مما نفهمه منه اليومَ.

٢ ـ أبو عثمانَ، عَمْرُو بن بَحْر الجاحظُ (ت٢٥٥هـ):

وهو رأسٌ من رؤوس الاعتزال، وصاحبُ قلمٍ سيّال، أثرى المكتبةَ العربية بأنفَس ما تتباهى به، والجاحظ عبقريّةٌ عربية تركت من المؤلّفات الجمَّ الغفير. وينطوي كتابُه الرائع «البيان والتبيين» على ما يُعدُّ أصولًا ممتازة لعلم البلاغة. فقد ضمّنه حديثًا عن الفصاحة والبلاغة والطّبْع والصَّنْعة، ونماذجَ من البيان العالي في كلام العرب الفصحاء وأشعارهم وخُطَبهم وأسجاعهم إلى نُبَذ من كلام الأعراب. وكان في تضاعيفه مدافعًا ممتازًا عن بلاغة العرب وبيانهم، ويُنسب إليه أيضًا كتابٌ في «نَظْم القرآن» لم يُظْفَر به إلى اليوم، فيما نعلم. ويوحي العنوانُ بانتساب هذا المصنّف إلى فئة الكتب المهتمة بطرائق التعبير، كما لا تخلو كتبه الأُخَرُ من حديثٍ عن البيان وآلاته.

٣ ـ أبو العبّاسِ، عبدُ الله بنُ المعتزّ بن المتوكّل (ت٢٩٦هـ):

تتلمذ على شيخي المدرستين: المبرّد وثعلب، واحتلَّ في الشعر منزلًا عليًا، وكان من أدباء عصره الذين تجتليهم الأعينُ شرقًا وغربًا.

ألّف كتاب «البديع»، وجمع فيه سبعة عشر نوعًا بديعيًا. وقال مُفْتَتَحه: «وما جمَع قبلي فنونَ البديع أحدٌ».

ـ **في القرن الرابع الهجريّ**: نهض بأعباء الدّرس البلاغيّ ثلاثةُ أعلام أيضًا، وهم:

١ ـ قُدامةُ بن جعفر (ت٣٣٧هـ):

وهو مؤلّف كتاب «نَقْد الشعر»، الذي عرض فيه حدَّه للشعر، وأسبابَ تقديمه، والنعوتَ المستحسنة لكلٍّ من اللفظ والوزن والقافية؛ وخصَّ الترصيع بعناية خاصّة. ثم عرض للمعاني التي يدلّ عليها الشّعرُ، والمستجادِ في كلّ معنى. وأضاف إلى ما ذكر ابنُ المعتز من

أنواع البديع ثلاثة عشر نوعًا هي: التقسيمُ، والترصيعُ، والمقابلاتُ، والتّفسيرُ، والمساواةُ، والإشارةُ، وائتلافُ اللفظِ مع الوزن، والتمثيلُ، والتوشيحُ، والإيغالُ، وائتلافُ المعنى مع الوزنِ، وائتلافُ القافية، والإردافُ.

أمّا كتابُه «جواهرُ الألفاظ» فقد جمع فيه ألفاظًا وعباراتٍ مترادفة مع تساوقها في الوزن أو القافية، أو في الاثنين معًا. وذكَر في مقدّمته طائفةً من الأنواع البديعية.

ويُنسب إليه كتابٌ ثالثٌ هو «نَقْد النّثر» وقد عرض فيه لكثير من الأنواع.

٢ ـ أبو الحسن، عليُّ بنُ عبد العزيز، الشهير بالقاضي الجرجانيّ (ت٣٦٦هـ):

شاعِرٌ مبدِعٌ، وناقدٌ بصير، ألّف في نقد الشعر كتابه «الوَساطة بين المتنبّي وخصومه». وهو من الكتب القيّمة في بابه، وقصد من تأليفه الحدَّ من غلواء الهجوم على المتنبّي من جانب ناقدي شعره. وقد عرض لأخطاء فحول شعراء الجاهلية وأثبت بعض النماذج المستجادة لديه من أشعار العرب. وركّز اهتمامه على شواهد الاستعارة الحسنة والقبيحة، وعرَض لضروبٍ من الجِناس والتقسيم، ومثّل لكلّ منها، وأوضح كثيرًا من محاسن الشعر وعيوبِه، ووقف عند التشبيه، وعرضَ بعضَ نماذجه الممتازة، وأنهى الكتابَ بالحديث عن السَّرِقات الشعرية.

٣ ـ أبو هلال، الحسَنُ بنُ عبدِ الله العسكريّ (ت٣٩٥هـ):

وهو مؤلّف كتاب «الصناعتَيْن»؛ أي صناعة المنثور وصناعة المنظوم. وقد ضمّن كتابه حديثًا عن البلاغة والاختلاف في المراد

منها. وجعل الكتابَ أبوابًا تناول فيها: تمييزَ جيِّد الكلام من رديئه، ومعرفةَ صناعةِ الكلام، وحسْنَ السَّبك وجودة الرّصف، والإيجازَ والإطناب، والسّرقاتِ الشعرية، والتشبيهَ، والسَّجْع والازدواج. وفي مجال البديع أضاف إلى ما أتى به سابقوه سبعةَ أنواعٍ هي: التشطيرُ، والمجاورةُ، والتطريزُ، والمضاعفة، والاستشهاد، والتلطّف، والمشتقّ.

ـ **في القرن الخامس وفي أواخر الرابع** يصادفنا أربعة علماء كان لهم فضلٌ كبير على الدّرس البلاغيّ، وهؤلاءِ هم:

١ ـ القاضي أبو بكر، محمد بن الطّيب الباقِلّاني (ت٤٠٣هـ):

وهو مؤلّف كتاب «إعجاز القرآن» الذي قصد منه أن يبيِّن جوانب الإعجاز البيانيّ في كتاب الله سبحانه. وعرض، فيما يتصل بالبلاغة، للاستعارة، وحسن التشبيه، والغلوّ، والمماثلة، والتجنيس، والمقابلة، والموازنة، والمساواة، والإشارة، والإيغال، والتوشيح، والتكافؤ، والكناية، والتعريض، والعكْس، والتبديل، والاعتراض، والرجوع، والتذييل، والاستطراد، والتكرار. وذكر لكلّ نوع من هذه الأنواع شواهد وأمثلة.

٢ ـ أبو الحسن، محمّدُ بن الطّاهر المعروف بالشريف الرَّضِيّ (ت٤٠٦هـ):

ألّف فيما ينتسب إلى العلوم البلاغية كتابين رائعين هما: «تلخيصُ البيان عن مجازات القرآن» و «المجازات النّبوية». وقد جمع في الأخير طائفةً من كلام المصطفى عليه الصلاة والسلام مما لم يُسبَق إليه. ويدير حديثه فيه حول الدلالة الوضعية للّفظ، ثمّ الدّلالة المجازية التي أكسبه إيّاها الاستعمالُ اللاحق.

٣ ـ أبو عليّ، الحسنُ بن رشيق القَيْروانيّ (ت٤٥٦هـ):

ألّف كتاب «العُمْدَة في محاسن الشعر وآدابه». وقد ضمّنه طائفةً

من الآراء في معاني الشعر ومحاسنه وآدابه. وعرض لفضل الشعر، ومَنْ رفعه الشعرُ ومَن وضَعَه، ومن قضى له ومن قضى عليه، وشفاعات الشعراء، واعتداد القبائل بشعرائها، والفَأل والطِّيَرة في الشعر. وخصّ بأبوابٍ مستقلة كلاًّ من البلاغة، والإيجاز، والبيان، والنّظم، والبديع، والمجاز، والتّمثيل والتّشبيه، والإشارة وأنواعها، والتّتبيع، والتّجنيس، والتَّصدير، والمطابقة، والمقابلة، والموازنة، والتقسيم. . . إلخ.

٤ ـ الإمام عبدُ القاهر الجُرجانيّ (ت٤٧١هـ):

صنّف في البلاغة كتابَيْن من أجود ما كُتِب في الموضوع إلى اليوم، وهما: «دلائلُ الإعجاز» و«أسرارُ البلاغة». وإليه يعود الفضلُ في تفصيل كثيرٍ من المباحث فيما يُعرف اليومَ باسْم «علم المعاني» و«علم البيان»، على نحوٍ لا تجد نظيرًا له فيه. وعن صَنيعِ الجرجانيّ في أسرار البلاغة يقول المستشرقُ هِلْموت ريتر محقِّقُ الكتاب في مقدّمته القيّمة له باللّغة الإنجليزية: «وهكذا فإنّ الكتابَ رائعةُ الأدبِ العربيّ، لا مِنْ حيثُ مضمونُه وتحليلُه العميقُ للإبداعِ الشعريّ فحسبُ، بل من حيث أسلوبُه أيضًا».

والحقُ أنّ ما أتى به الشيخُ عبدُ القاهر في الدّلائل والأسرار خليقٌ بأن يجعل منه واضِعَ أساسِ البُنْيانِ لِعِلْمَي المعاني والبيان.

ـ **وفي القرن السادس** جاد الزّمان بنابغة عصره الذي أضاف إلى البلاغة العربية ما يزدان به جيدُها إلى اليوم. وذلك هو جارُ الله محمودُ بنُ عمر الزمخشريّ (ت٥٣٨هـ).

والزَّمَخْشَرِيُّ هو صاحب تفسير القرآن الكريم المسمّى بـ «الكشّاف»، ومؤلّف كتاب «أساس البلاغة». ويُعدّ الكشَّاف خيرَ مصدرٍ

لدراسة أسرار العربية وأساليبها في الحقيقة، والمجاز، والاستعارة، والتشبيه، بل يُعَدُّ كشفًا في الدَّرْسِ البلاغي التطبيقيّ.

أمّا كتابُه الثّاني «أساس البلاغة» فقد انفرد في نوعه، وعمد فيه الزمخشريّ إلى موادِّ اللغة العربية واحدة فواحدة، يوضح في كلّ مادّة الاستعمالاتِ الحقيقية لها، ثم يبيّن تطوّرَها الدّلاليّ بطريق المجاز. وقد استحقّ الزمخشريُّ أن يقال فيه وفي السّكاكيّ: «لولا الأعرجانِ لجُهِلتْ بلاغةُ القرآن».

- **في القرن السابع** يتقدّم لخدمةِ البلاغة العربية عالِمانِ كبيران أسهما في تطوّر الدّرْس البلاغيّ على نحو واضح؛ وهما أبو يعقوبَ يوسُفُ السّكاكيّ (ت٦٢٦هـ)، وضياءُ الدّين بنُ الأثير الجَزَرِيّ (ت٦٣٧هـ).

أمّا السّكاكيّ فقد كان متأثرًا بالدَّرْس الفلسفيّ الذي شبّ على تلقّيه وأُولِع به كثيرًا فترك مياسمَ واضحةً في كلّ ما ترك من مؤلّفات. وكان مأخوذًا بضرورة أن يكون التعريفُ الذي يقدّمه لأية قضيّة جامعًا مانعًا، كما يقول أهلُ الاستدلال.

ومهما قيل في شأن الاتجاه المنطقيّ المسرف في تناوله للبلاغة، فإنه يظلّ - بأهليّةٍ تامّة - صاحبَ السَّبْق إلى دراسة علوم البلاغة بوصفها مادّةً علمية لها أصولٌ وقواعدُ وضوابط. وقد أسدى للبلاغة ما ظلّت مدينةً له به إلى اليوم؛ حين حدّد الأنواعَ وضَبطَها على نحو دقيق، وأرجع كلّ فرع إلى أصله مِمّا لا يُبقي زيادةً لمُستزيد. وقد جاء إسهامُه الممتاز هذا في تضاعيف كتابه «مفتاح العلوم» الذي أودعه خُلاصةً رائعة لعلم الصَّرْف، وعلم النحو، وعلوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع)، وعلم الاستدلال (المنطق)، وعلم العروض والقافية.

وإن أُخِذ على الرجل شيءٌ فهو أنّه مال إلى التّجريد ونأى نسبيًا عن النصوص الحيّة الممثّلة للقواعد؛ ممّا جعل الدّارسين في العصور التالية يأنسون في أسلوبه أَثارةً من جفاف المنطق وبرودة التقعيد.

وأمّا ضياءُ الدّين بن الأثير، فقد ألّف، فيما له صلةٌ بالبلاغة، كتابَه المشهورَ «المثَلُ السّائرُ في أدبِ الكاتبِ والشّاعرِ» وكتابًا آخر هو «الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور». وقد تضمّن «المثلُ السائر» مقدّمة ومقالتين، انطوت المقدّمة على حديث عن أصول البيان، وتضمّنت المقالتانِ الحديثَ عن فروع البيان؛ وقد خصّص الأولى للصّناعة اللفظية والثانية للصناعة المعنوية. أمّا «الجامع الكبير» فقد انطوى على كثير من المباحث البلاغية. وقد سمّى ضياءُ الدّين مباحثَ البلاغة جميعًا «عِلْمَ البيان».

- **وفي القرن الثامن شهد** تاريخُ البحث البلاغيّ انعطافًا نحو الشرح والتعليق والإيضاح، يجعل بعضَ مصنّفات السابقين أساسًا يُبنى عليه ويضاف إليه. وفي طليعة مَنْ نهج هذا النّهْجَ في التأليف البلاغي في هذا القرن الإمامُ جلالُ الدين، قاضي القضاة، محمد بن عبد الرحمٰن، المعروف بالخطيب القَزْويني (ت٧٣٩هـ). وقد بدا له أنّ التأليف بين طريقتَي عبدِ القاهر في «الدلائل» و«الأسرار»، والسّكاكيّ في «المفتاح» يمكن أن يفيد الدّرْسَ البلاغيّ كثيرًا. وهكذا باشر عمله بتلخيص القسم الثالث من «مفتاح العلوم» للسّكاكيّ، وضمّنه ما يُحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ورتّبه على نحوٍ يجعله أقربَ تناولًا؛ وأغنى ذلك بكثيرٍ من الفوائد التي انطوت عليها كتبُ القوم. وسمّى ملخّصَه «تلخيص المِفْتاح»، وعُرف اختصارًا بـ «التلخيص». وبعد الانتهاء من التلخيص رأى أنه بالغَ في الاختصار حتى كادت الفائدةُ المرجوّة

تذهبُ، فوضع كتابًا آخر أطلق عليه اسم «الإيضاح». ومما قاله في مقدّمته: «أمّا بعد، فهذا كتابٌ في علم البلاغة وتوابعها ترجمْتُه بالإيضاح، وجعلتُه على ترتيبِ مختصري الذي سمّيتُهُ تلخيصَ المفتاح، وبسطتُ فيه القولَ؛ ليكون كالشَّرْح له، فأوضحتُ مواضِعَه المشكِلَة، وفصَّلتُ معانِيَه المجملة، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصَر مما تضمّنه مفتاحُ العلوم، وإلى ما خلا عنه المفتاحُ من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجانيّ رحمه الله في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وإلى ما تيسّر النظرُ فيه من كلام غيرهما، فاستخرجتُ زبدةَ ذلك كلّه وهذّبتُها ورتّبتُها..»:

وقد توقّف الإبداعُ في التأليف البلاغيّ عند النقطة التي انتهى إليها الخطيبُ، وتقاصرت هِمَمُ القوم عند اختصار كتابٍ مسهَبٍ أو إطالة كتابٍ مختصر. وتلك حال جميع شرّاح «تلخيص المفتاح» على كثرتهم.

أمّا في عملنا في هذا الكتاب فقد اعتمدنا «التلخيصَ» وجعلناه الأساسَ الذي بنينا عليه في المادّة العلمية وفي الترتيب، وأضفنا إلى ذلك إضافات استمددناها من بطون المصادر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصاحة والبلاغة
تحديد وبيان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تمهيد في معنى الفصاحة والبلاغة:

لا غنى لدارس البلاغة العربيّة عن الإلمام بمفهوم كلّ من الفصاحة والبلاغة؛ لأنّ الكلام المتحقّق بهاتين الصفتَيْن صنفٌ ممتازٌ من الكلام، والمتكلّم المتحلّي بهاتين الخَلّتين ظافرٌ بشَرَفٍ لا يدانيهِ شرف. ومن هنا قال المصطفى عليه الصلاة والسلام: «أنا أفصحُ العربِ بَيْدَ أنّي مِنْ قُرَيش».

الفصاحة:

أمّا الفصاحةُ ـ لغةً ـ فتدلّ على جملة معانٍ، تدور جميعًا في فلك البيان والوضوح؛ إذ تقول العربُ: يومٌ فِصْحٌ ومُفْصِحٌ؛ أي لا غيمَ فيه ولا قُرّ. وأفصَح اللّبَنُ، أي ذهبتْ رَغْوتُه أو انقطع اللِّبَأُ عنه. وأفصح الصّبحُ: استبان. وأفصحَ الرجلُ: بَيّن. وفي سياق الحديث عن الكلام والمتكلّم يقولون: الفصاحةُ: البيانُ. واللفظُ الفصيحُ: ما يُدْرَك حُسْنُه بالسّمع. وفصُحَ الأعجميُّ: تكلّم بالعربيّة وفُهِم عنه، أو كان عربيًا فازداد فصاحةً.

ويُستفاد من الدِّلالة اللغويّة في الأمثلة السابقة أنّ الفصاحة تعني: **الانكشافَ والظهورَ والوضوح في الأشياء**. أمّا في الصَّنْعةِ الكلامية فتعني: **انكشافَ دِلالة الكلام، وظهورَ حُسْنه لمتلقّيه.**

وعند البلاغيّين يوصف بصفة الفصاحة ثلاثة أشياء:

الكلمة والكلام والمتكلّم.

فيقال: كلمةٌ فصيحةٌ، وكلامٌ فصيحٌ، وكاتبٌ فصيحٌ، وشاعرٌ فصيحٌ. وإليك تفصيلَ القول في كلّ منها:

فصاحة الكلمة:

تعني فصاحةُ الكلمة عند البلاغيين براءتَها من خمسة أشياء يعدّونها عيوبًا:

أولًا: تنافر الحروف: وهو وصْفٌ في الكلمة ينشأ عنه ثِقَلُ الكلمة على اللّسان وعُسْرُ النُطق بها. وغالبًا ما يكون مبعثُ ذلك تقاربَ مخارج حروف الكلمة. على أنّ التنافر ضربان:

أ ـ شديدٌ يصعب معه النُطقُ بالكلمة، كألفاظ «الظُشّ» بمعنى الموضع الخشن، و«الهُعْخُع» وهي كلمة جاءت في قول أحد الأعراب وقد سُئل عن ناقته فقال: «تركتُها ترعى الهُعْخُعَ». وقد تكون كلمة «الهُعْخُع» مخترعةً للتدليل على ثِقَل بعض نماذج الكَلِم. فقد ذهب بعضُهم إلى القول إنّ «هذه الكلمة معاياةٌ، ولا أصلَ لها».

ب ـ خفيفٌ لا يأنس النّاطقُ بالكلمة المنطوية عليه صعوبةً كبيرة في نطقها، كلفظ «مُسْتَشْزِرَات» في قول امرىء القيس يصف شَعرَ حبيبته:

غدائرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلى العُلا تضِلُّ العِقاصُ في مثنًّى ومرسَلِ

«مُسْتَشْزِراتٌ» أي مرفوعات. يصف الشاعر شَعْر ابنة عمّه بالغزارة فيذكر أنّ غدائره مشدودةٌ على الرأس، وأنّ مجموع الشعر منه عِقاصٌ أو غدائر، ومنه مُثنًى (مفتول)، ومنه مرسَلٌ دون فتْل، وأنّ العِقاصَ تغيب في الأخِيرَيْن. ومراد الشاعر على الجملة: وُفورُ شَعْرِها، وجمالُ وضْعِه. وقد لاحظ بعضُ الدّارسين أنّ في صوت كلمة «مُسْتَشْزِرَات» تصويرًا دقيقًا لمعناها؛ أي إنّ التفشّي الذي نلحظه في صوت الشين وانتشار الهواء وامتلاء الفم عند النطق به توحي بانتشار الشّعر وتشعيثه وذهابه في كلّ وِجْهةٍ.

ثانيًا: الغرابة: وهي أن تكون الكلمةُ حُوشِيَّةً غيرَ ظاهرة المعنى. ومصدرُ الغرابة أمران:

أ ـ عدمُ تداولِ الكلمة في كلام العرب الفصحاء؛ ممّا يقتضي التّنقيبَ عن معناها في معاجم اللغة. وقد تُسْعِفُ المعاجمُ ببيان معنى الكلمة الغريبة، كالذي نجده في كلمتي «تَكَأْكَأْتُم» و«افرَنْقِعوا» اللتين جاءتا في قول عيسى بن عمر النحويّ، وقد سقط عن دابّته، فاجتمع عليه النّاسُ فقال: «ما لَكُم تَكَأْكَأْتُمْ عليّ كتَكَأْكُئِكُمْ على ذي جِنّةٍ، افْرَنْقِعُوا عنّي». ومعنى «تَكَأْكَأْتُم» اجتمعتُم، ومعنى «افرَنْقِعُوا» انصرفوا. وكالذي نجده في كلمة «رَخَاخ» في قول العرب: «نحنُ في رَخَاخٍ من العيش» أي: رَغَدٍ وهناءة. وربّما لا تُسعف المعاجم ببيان معنى الكلمة الموسومة بهذه الصفة، كما في كلمة «جَخْلَنْجَع» التي جاءت في قول أعرابيّ:

ـ مِنْ طَمْحَةٍ صَبِيرُهَا جَخْلَنْجع ـ.

ويبدو أنه لم يُعثر على معنًى لهذه الكلمة حتى الآن.

ب ـ صعوبة إدراك المراد منها في السّياق الذي ترد فيه، مثل كلمة «مُسَرَّجًا» في قول العجّاج:

أَيامَ أبدَتْ واضحًا مُفَلَّجا ... أغرَّ بَرّاقًا وطَرْفًا أَدْعَجا

ومقلةً وحاجِبًا مُزَجَّجا ... وفاحِمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجا

فقد وصف الشاعرُ حاجبَ محبوبته بأنّه مدقّق طويلٌ، وشَعْرَها بأنّه حالِكٌ كالفحم، وأنفَها «المَرْسِن» بأنّه «مُسرَّج». ويصعب على المتلقّي أن يدرك بدقةٍ ما يريدُ الشاعرُ بهذه الصفة «مسرَّج». وهذه الصعوبةُ جعلت المفسّرين القدماءَ يذهبون إلى التّأويل: فقال فريقٌ إنّ الشاعر شبّه أنف محبوبته في الدقة والاستواء بنوع من السّيوف يُعرف بـ

«السُّرَيجيّ»؛ نسبةً إلى حدّاد مشهور يسمّى «سُرَيْجا». وذهب فريق آخر إلى أنّه شبّه أنفها في البريق واللمعان بالسِّراج. ومهما يكن، فإنّ الكلمة غيرُ ظاهرة المعنى: وهي من ثَمّ غريبةٌ مفتقرة إلى صفة الفصاحة.

ثالثًا: مخالفة الوَضْع: وهي أن تكون الكلمةُ مخالفةً لاستعمال الواضع الأوّل سواءٌ أكانت مخالفةً للقياس الصّرْفي أو لا. وممّا جاء مخالفًا للوضع والقياس معًا كلمةُ «بُوقَات» في قول المتنبّي يمدح سيف الدولة الحَمْدانيّ:

فإنْ يكُ بعضُ النّاسِ سيفًا لدولةٍ ... ففي النّاسِ «بُوقَاتٌ» لَهَا وطُبولُ

و«بوقات» في البيت جمع «بُوق» بمعنى المزمار. وعلى الجملة فكلمة «بوقات» هنا غيرُ فصيحة؛ لمخالفتِها ما ثبت عن واضع الألفاظ للمعاني ومخالفتِها القياسَ الصرْفي؛ إذ يقضي كلٌّ منهما بأن تُجْمَع على «أبواق».

ومثلها كلمة «حِنَات» جمع «إحْنَة» في قول الطِّرِمّاح:

وأكرهُ أن يعيبَ عليّ قومي ... هِجايَ الأرذلينَ ذوي «الحِناتِ»

أراد بالحِنات الأحقاد. لكنّ هذه الكلمة غيرُ فصيحة؛ لمخالفتها ما ثبت عن الواضع ومخالفتها القياسَ الصّرفيّ؛ إذ يقضي كلٌّ منهما بأن تُجمع على «إحَن».

وتظلّ الكلمةُ غيرَ فصيحة عندما توافقُ القياسَ، ولكنّها تخالفُ ما ثبت عن الواضع؛ كالفعل «يَأْبِي» مضارع «أَبَى»؛ إذ هو غير فصيح لمخالفته ما ثبت عن الواضع، حيث الثابت عنه «يأبىٰ» بفتح الباء لا بكسرها، هذا رغم موافقته للقياس الصّرفي.

رابعًا: الكراهة في السّمع: وهي أن تكون بِنْيةُ الكلمة من

أصواتٍ يشكّل التئامُها صيغةً لفظية تأنفُها الأذواقُ وتمجُّها الأسماعُ؛ مثل كلمة «النُقاخ» (أي الماء العذب) في قول الشاعر:

وأحمق مِمّنْ يكرعُ الماءَ قال لي: دَعِ الخمرَ، واشربْ من نُقاخٍ مبرَّدِ

ومثل كلمة «الجِرِشّىٰ» (أي النَّفْس) في قول المتنبيّ يمدح سيفَ الدولة:

مباركُ الاسمِ أَغَرُّ اللَّقبْ كريمُ «الجِرِشّىٰ» شريفُ النَّسَبْ

فكلِمتا «النُّقاخ» و«الجِرِشّىٰ» مِمّا لا يستسيغه الذوقُ.

خامسًا ـ الابتذال: وهو أن تكون الكلمةُ سوقيّةً أبلاها التكرارُ ولاكتْها الألسنُ حتى مجّها الذوقُ، وعافها الطّبعُ السليم. ومنْ ذلك الفعلُ «تَفَرْعَنَ» في قول أبي تمام:

جلَيْتَ والموتُ مُبْدٍ حُرَّ صفحتِهِ وقدْ تَفَرْعَنَ في أفعالِهِ الأجَلُ

فالفعلُ «تَفَرْعنَ» المشتقُّ من اسمِ «فِرْعَوْن» من ألفاظ العامة؛ إذ من عادتهم أن يقولوا: «تَفَرْعَنَ فلانٌ». ومن ذلك أيضًا كلِمةُ «قابري» في قول أبي تمّام:

قد قلتُ لمّا لَجَّ في صَدِّهِ: إعطِفْ على عبدِكَ يا قابري

يقول ابنُ سِنانٍ الخفاجيّ: «قابري: من ألفاظ عوامّ النّساء وأشباههنّ».

ومعنى قابري: قاتلي ومُدْخِلي القبرَ.

وجملةُ القولِ أنّ فصاحةَ الكلمةِ تعني كما يقول بعضُهم:

أن تكونَ لينةً سهلةَ النطقِ تتجاورُ أصواتُها تجاورًا هادئًا تتجاوب فيه وتتلاقى أنغامُها، وأن تكون مألوفةً جرت على الألسنة ورنّت أصداؤها في محافل الشعر والأدب، وأن تكون واردةً على قواعد تصريف الكلمات.

فصاحةُ الكلام:

يريد البلاغيون بفصاحة الكلام أمرين:

١ ـ فصاحة مفرداته؛ بسلامتها من عيوب الكلمة التي تقدّم ذكرُها.

٢ ـ تآلف هذه المفردات فيما بينها، وتساوقها، وسهولة إدراك العقل معانيها. ويرون أنّ ذلك مشروطٌ ببراءة الكلام من ستّة عيوب:

أولًا: تنافر المفردات داخلَ السياق: وهو وصفٌ في كلمات التركيب الواحد، ينشأ عنه تعثّرُ اللّسان في النطق به؛ لصعوبة تدفّق كلماتِه على اللّسان مجتمعةً. ومصدرُه: إمّا تجاور كلماتٍ متقاربةِ الحروف، وإمّا تكرار كلمةٍ واحدة. وقد تبيّن البلاغيون أن تنافر المفردات على ضربين.

أ ـ شديد الثّقَل، كعَجُزِ هذا البيت:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ   وليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ

فكلماتُ الشّطرِ الثاني متنافرةٌ تمامًا، حتى إنّ اللّسانَ ليَجْهَدُ في النطق بها.

ومِثْلُه قولُ الشاعر:

ـ في رَفْعِ عَرْشِ الشّرعِ مِثْلُك يَشْرَعُ ـ.

ب ـ خفيف الثّقل، كصدر هذا البيت لأبي تمّام يعتذر لممدوحه:

كريمٌ متى أمدَحْهُ أمدَحْهُ والورى   معي وإذا ما لُمتُه لمتُهُ وحدي

قوله: «أمْدَحْهُ أمْدَحْهُ» يثقلُ على اللّسان النطقُ به.

ثانيًا ـ ضعف التأليف: وهو أن يكون تركيبُ الكلام مخالفًا

للمشهور من قوانين النحو. ومن ذلك وصْلُ الضميرَيْن، وتقديمُ غير الأعرف منهما على الأعرف، كما في قول المتنبّي:

خَلَتِ البلادُ منَ الغزالةِ ليلَها «فأعاضَهاكَ» اللَّهُ كي لا تحزنا

الغَزالةُ: الشمس. أراد: خَلَتِ البلادُ من الشمس ليلاً فعوّضها الله عن الشمس بك؛ لكي لا تحزن. وقوله في عجز البيت «أعاضهاك» مخالفٌ للمشهور من قوانين النحو، التي تقضي بالفصل بين الضميرين في مثل هذه الحال. ومن ثمّ هذا الكلامُ غيرُ فصيحٍ؛ لضعف التأليف فيه.

ومن ضَعْفِ التأليف الإتيانُ بالضمير قبلَ ذكر مرجعه لفظًا ورتبةً وحكمًا، كما في قول حسّان بن ثابت يرثي مُطْعِمَ بنَ عَدِيٍّ:

ولَوْ أنّ مجدًا أخلدَ الدهرَ واحدًا من الناسِ أبقى مجدُه الدهرَ مطعِمَا

ففي عجُزِ البيت أتى الشاعرُ بالضمير (الهاء في مجده) قبل ذكر مرجعه «مُطْعِما». وهكذا فعجزُ البيتِ غيرُ فصيحٍ لضعف التأليف فيه.

ثالثًا ـ التعقيد اللفظيّ: وهو أن يكون الكلامُ غيرَ ظاهر الدلالة على المعنى المراد منه، لعدم ترتيب ألفاظه على ترتيب معانيه. ومبعثُ ذلك في الكلام تقديمٌ أو تأخيرٌ أو حذفٌ، أو غيرُ ذلك مما ينشأ عنه صعوبةُ فهم المراد. وهو على ضربين:

١ ـ شديد، كالذي يتراءى في قول الفرزدق يمدح إبراهيمَ المخزومِيَّ خَالَ هشامِ بن عبد الملك:

وما مِثْلُهُ في الناسِ إلّا مملَّكًا أبو أمِّهِ حيٌّ أبوهُ يقارِبُهْ

كلُّ الذي أراد الشاعر أن يقوله هو: ليس مثلُ هذا الممدوح في الناس حيٌّ يقاربه في الفضائل إلاّ ملِكًا هو ابنُ أختِ هذا الممدوح. ومصدرُ خفاءِ دِلالة البيت عدمُ ترتيبِ الألفاظ وَفْقَ ترتيبِ المعاني في الذهن؛ وذلك بسبب:

أ ـ وجود فاصل كبير بين البدلِ «حيّ» والمبدَلِ منه «مثله».

ب ـ تقديم المستثنى «مملَّكًا» على المستثنى منه «حيّ».

جـ ـ الفصل بين المبتدأ والخبر «أبو أمّه ـ أبوه» بـ «حيّ».

د ـ الفصل بين الصفة «حيّ» والموصوف «يقاربه» بـ «أبوه».

ويذهب نفرٌ من الباحثين إلى أنّ الفرزدق ـ الشاعرَ الفَحْل الخبير بطبائع اللغة وعوائد التراكيب ـ إنما قصد إلى التعقيد تهكُّمًا بالمَدْحِ والممدوح. وعداء الفرزدق لبني أمية معروف.

ومن صوره أيضًا قولُ الشاعر يصف دارًا باليةً:

فأصبحتْ بعدَ خطَّ بهجتِها كأنّ قَفرًا رسومَها قَلَما

والترتيبُ الصحيح على هذا النحو: فأصبحت بعد بهجتها قفرًا كأنّ قلمًا خطّ رسومَها.

٢ ـ خفيف، كالذي يرسمُ لكَ ملامحَه قولُ المتنبّي:

جَفَخَتْ وهمْ لا يجفخونَ بها بِهِمْ شِيَمٌ على الحسَبِ الأغرّ دلائلُ

أراد: جَفَخَتْ (افتخرت) بهم شِيَمٌ دلائلُ على الحسَبِ الأغرّ، وهم لا يجفخون بها. وواضحٌ أنّه فصَل بين الفعل (جَفَخَتْ) والفاعلِ (شيمٌ) بجملة «وهم لا يجفخون بها»؛ وفصل بين الموصوف «شيمٌ» والصّفة «دلائلُ» بالجارّ والمجرور؛ وبين الفعل «جفخت» والجارّ والمجرور المتعلّقَيْن به «بهم» بالجملة «وهم لا يجفخون بها».

ومثلُه قول الفرزدق:

إلى مَلِكٍ ما أُمُّهُ مِنْ محاربٍ أبوهُ، ولا كانتْ كُلَيْبٌ تصاهِرُهْ

وأصلُ هذا التركيب: إلى ملك أبوهُ ما أمُّهُ من محاربٍ.

ونخلُصُ من هذا إلى القول: **التّعقيدُ اللفظيّ هو عدمُ وضوح دلالة الكلام؛ لخللٍ في نَظْمِه؛ والتّراكيبُ التي تنطوي عليه غيرُ فصيحةٍ؛ لكونها لا تشِفُّ عن معانيها.**

رابعًا ـ التعقيد المعنويّ: وهو أن يكون الكلامُ خفيَّ الدلالة على المراد لتعثّر انتقال الذهنِ من المعنى اللغويّ للكلمة إلى المعنى الكنائي المقصود. والمثالُ التقليديّ لذلك بيتُ العبّاس بن الأحنف:

سأطلُبُ بُعْدَ الدّارِ عنكمْ لتقرُبوا   وتسكُبُ عينايَ الدُّموعَ لِتَجْمُدا

يشير الشيخُ عبد القاهر الجُرْجانيّ إلى أنّ معنى البيت: «إنّي اليومَ أَطِيبُ نفسًا بالبعد والفراق، وأوطِّنُها على مقاساةِ الأحزان والأشواق، وأتجرّع غُصَصَها وأتحمّل لأجلها حُزنًا يُفيض الدموعَ من عينيّ؛ لأتسبّب بذلك إلى وصْلٍ يدوم ومسرّة لا تزول؛ فإنّ الصّبْرَ مفتاحُ الفَرَج، ولكلّ بدايةٍ نهاية، ومع كلّ عسْر يُسْرا». ومعنى التحمّل في سبيل الوصول أمرٌ معروفٌ عند العرب حتّى قال عروةُ بن الورد:

تقول سُلَيمى لَوْ أقمتَ بأرضِنا   ولم تدرِ أنّي للمُقامِ أطوفُ

وإلى اليوم تقول العامّةُ «كلّما جُعْتَ أكلتَ طيِّبا». وفي عجز البيت كنايتان: كنّى بسَكْبِ الدّموع عن الكآبة والحزن الناشِئَيْنِ عن فراقِ الأحبّة، وهي كنايةٌ واضحةٌ وصحيحة؛ لأنّ العادة كذلك. ثم كنّى بجُمودِ العَيْنِ عن الفرح والسرور الناشِئَيْنِ عن دوام اللقاء، وهذه الكنايةُ غامضةٌ وغير صحيحة؛ لأنّه لا يُنْتَقلُ من المعنى اللغويّ لجُمودِ العين ـ أي شُحّها بالدّموع عند إرادة البكاء ـ إلى المعنى الكنائيّ وهو السرورُ الناشىءُ عن اللقاء. والمحصّلةُ أنّه: أراد التعبير بجمود العين عن معنى السرور فأخطأ السبيلَ؛ لأنّ العرب تستخدمُ جمودَ العين لتعبّر عن عدم بكائها وسَكْبِها للدمع عندما يريد منها صاحبُها ذلك، ولا تعبّر بجمود العين عن السرور كما فعل ابنُ الأحنف. وعند العرب

تعبيرانِ جميلانِ عن حالين للعَيْن عند إرادة البكاء على عزيز: أن تنهلَّ الدّموعُ عند إرادة البكاء ويسمّون هذا «الإِسْعادَ»؛ كأنّهم يشيرون إلى مساعدة العين وإسعافها بالدّمع المطلوب. وأن لا تنهلّ الدموعُ، وتنضُبَ، مع إرادة الإنسان ذلك، ويسمّون هذا «الجُمُودَ». ولذلك قالت الخنساء:

أَعَيْنَيَّ جُودَا ولا تَجْمُدا ألا تَبْكِيانِ لِصَخْرِ النَدىٰ؟

وجملةُ القول أنّ التعقيدَ المعنويَّ: هو **خفاءُ دِلالةِ الكلام على المراد منه؛ لخللٍ مبعثُه عدمُ قدرة الذّهن على الرّبط بين الدِّلالةِ اللغويّة والدّلالة الكنائية المرادة من العبارة.**

خامسًا ـ كثرة التكرار، ومثالُها قولُ المتنبّي:

وتُسْعِدُني في غَمْرةٍ بَعْدَ غَمْرةٍ سَبُوحٌ لها منها عليها شَواهِدُ

وصف فرسَه بسَلاسةِ العَدْوِ وسهولته حتى كأنها تعوم في الماء. و«لها» جارٌّ ومجرورٌ متعلّقانِ بمحذوف خَبَرٍ مقدَّم. و«مِنْها» حالٌ من شواهد، و«عليها» جارٌّ ومجرورٌ متعلقان بـ «شواهد»، و«شواهِدُ» مبتدأٌ مؤخَّر.

والشاهدُ في عَجُزِ البيت، حيث أخلّ تكرارُ الضّمير بفصاحة شطر البيت. ومِثْلُ هذا قولُ الشاعر:

إنّي وأسْطَارٍ سُطِرْنَ سَطْرا لقائلٌ: يا نَصْرُ نَصْرًا نَصْرَا

وواضحٌ أنّ تكرارَ مادّةٍ لغويةٍ واحدةٍ في كلّ شطرٍ من أشطار البيت يحرمه صفةَ الفصاحة.

سادسًا ـ تتابع الإضافات، ومثالُه قولُ ابنِ بابَك يخاطب حمامةً:

حَمامةَ جَرْعىٰ حَوْمةِ الجَنْدلِ اسْجَعِي فأنتِ بمرأى مِنْ سُعادَ ومَسْمَعِ

يسأل الشاعرُ حمامةَ هذا الموضع أن تسجع وتطرّب إعجابًا

بمحبوبته وسرورًا بها؛ لأنها في هذا الموضع الذي تراها فيه سعادُ وتسمع صوتها.

والشاهد في صدر البيت؛ حيث أضاف حمامةَ إلى «جَرْعى» (وهي أرضٌ ذاتُ رمْلٍ عديمةُ النَّبْت)، وأضاف (جرعى) إلى حَوْمة (معظم الشيء)، و«حومة» إلى «الجندل» (الأرض ذات الحجارة). ومِثْلُ هذه الإضافاتِ المتتابعة مُخِلٌّ بفصاحة الكلام.

وجملة القول أنّ فصاحةَ الكلام تعني:

فصاحةَ مفرداته، وسلامتَه من تنافر كلِماتِه مجتمِعةً، ومن ضَعْفِ التأليف، وتعقيد الألفاظ، والمعاني، ونأْيَهُ عن كثرةِ التكرار، وتلاحقِ الإضافات.

فصاحةُ المتكلّم:

يعرِّف الخطيبُ القَزْوينيّ فصاحةَ المتكلِّم بأنها:

مَلَكةٌ يُقتدَرُ بها على التعبير عن المقصود بلفظٍ فصيح.

ويعني ذلك أن يكون المتكلّمُ قادرًا دائمًا على التعبير عمّا يشاء من الأفكار والمقاصد في الوقت الذي يشاء، بألفاظٍ فصيحة. ويُفهَمُ من السِّياقات التي تخلعُ فيها العربُ هذه الصِّفةَ على المتكلِّم أنّ الفصيحَ عندهم: **هو ذلك المتكلّمُ القادرُ على التَّصرُّفِ في فنون الكلام متى شاء ذلك، وبأداء لغويّ فصيح.**

وقال: إنّ الفصاحةَ تقتضي أمرَيْنِ أساسيّين؛ صفاء في الذهنِ يُدرِك المناسبةَ بين الفِكَرِ، ثمّ يُسْرًا في تشكيلِ هذه الفِكَر في قوالبَ كلاميةٍ تشفّ عن هذه الفِكَر وتُبِين عنها خيرَ إبانةٍ؛ فقولنا فصيحةٌ يعني أنّها مُبينة.

البلاغة:

البلاغةُ ـ لغةً ـ بلوغُ الرَّجُلِ بعبارته كُنْهَ ضميره؛ تقول: بَلُغ عبدُ الحميد أي: صار قادرًا على التعبير عمّا يريد. وتخلع العربُ صفةَ البلاغة على اثنين: الكلامِ، والمتكلّم. فتقول: هذا كلامٌ بليغٌ وغايةٌ في البلاغة؛ كما تقول: هذا متكلِّم بليغٌ. ولم يُسمعْ عن العربِ وصْفُها الكلمةَ الواحدةَ بالبلاغة.

وهاكَ تفصيلَ القولِ في بلاغة الكلام وبلاغة المتكلِّم:

بلاغة الكلام:

يقول الخطيبُ القزوينيّ:

البلاغة في الكلام مطابقتُهُ لمقتضىٰ الحالِ مع فصاحته.

وفي التعريف ثلاثةُ أشياءَ تستدعي التّحديدَ؛ وهي: الحالُ، ومقتضىٰ الحالِ، ومطابقةُ الكلامِ لمقتضى الحال.

أ ـ الحال:

يراعي البليغُ في كلامه طبيعةَ مَنْ يسوقُ حديثَه إليه، والظّرفَ المحيطَ به، والجوَّ النفسيّ الذي يعيشُ تحت وطأته. ونحسّ، نحن المتحدّثين العاديين، بأثر ذلك في كلامنا؛ إذ نُعِدُّ كلامَنا دائمًا على نحوٍ يناسبُ الإطارَ الذي يُقال فيه. ويأخذُ كلامُنا صورًا مختلفة تبعًا لطبيعة من نتكلّم معهم؛ فكلامنا مع الوالدَيْنِ غيرُ كلامِنا مع الأشقّاء، وكلامُنا مع معلّمينا غيرُ كلامِنا مع زملائنا، وكلامُنا مع الذكيّ اللمّاحِ مِنْ زملائِنا نكتفي فيه بالإشارة السّريعة، ومع متوسّط الذكاء نعْمِدُ إلى الشّرح والتبسيط، ونمعن في ذلك حين يُملىٰ علينا أن نحدّث مَنْ لم يؤتَ حظًّا من الإدراك السّريع. وكثيرًا ما نردّد في مواقفِ الفهم والإفهام: اللّبيبُ يفهمُ من الإشارة؛ الحرُّ تكفيهِ الإشارةُ... إلخ. هذه

الأوضاعُ التي نقدّم فيها كلامَنا، وتؤثّر في صياغتِنا إيّاهُ وفي صَبِّه في قوالِبَ خاصّة تسمّىٰ «أحوالًا» أو «مقاماتٍ» أو «سياقات». ويعرّف البلاغيّون الحالَ بأنه:

الأمرُ الحاملُ للمتكلِّم علىٰ إيرادِ كلامهِ في صورةٍ خاصّة - أو:

الأمرُ الدّاعي لأنْ يعتبرَ المتكلِّمُ في كلامه خصوصيةً ما.

ب - مقتضىٰ الحال:

ويعرِّفه البلاغيون بأنّه:

الكلامُ الكُلِّي الموسومُ بطابعٍ خاصّ:

ويعني هذا التعريفُ أنّ الذين نقّبوا في كلام البلغاء وفي البيان العالي في القرآن الكريم، تبيّن لهم أنّ للكلام صورًا خاصّة وصياغاتٍ محدّدة وهيئاتٍ ثابتة، وأنّ كلَّ صورةٍ وصياغةٍ وهيئةٍ تُستخدمُ في حالٍ خاصة ومقامٍ محدّد وإطار معين.

وتبيّن لهم بعد ذلك ترابطٌ متينٌ بين هذه الصّور والصياغات والهيئات الكلامية وبين الأحوال والمقامات التي تُقال فيها، فخلصوا من ذلك إلى القول إنّ هذه الأحوالَ الخاصّة والمقاماتِ المحدّدة هي التي اقتضت تلك الصّورَ والصياغاتِ والهيئاتِ الكلاميّة؛ ومن ثم سمّوا تلك الصورَ والصّياغاتِ والهيئات مقتضياتٍ كلاميةً للأحوال؛ لأنّ هذه الأحوالَ أو المقامات هي التي أملَتْها. وإليك التمثيلَ لذلك:

- الكلامُ المؤكّدُ بأيةِ طريقةٍ من طرقِ التأكيد هو مقتضىٰ حالِ الإنكار عند المتلقّي؛ أي إنّ صورةَ التأكيدِ في الكلام هي أمرٌ تقتضيهِ حالُ الإنكار عند المتلقّي.

- الكلامُ الموجزُ المختصرُ هو مقتضى حالِ الذّكاءِ عند المتلقّي؛

أي إنّ صورةَ الاختصار في الكلام هي أمرٌ يستدعيه الذّكاءُ عند المتلقّي.

ـ الكلامُ المطنَبُ المُسْهَبُ هو مقتضى حالِ الغَباءِ وصعوبةِ الفهم عند المتلقّي. وعلى الجُملةِ فالكلامُ المؤكّدُ، والكلامُ الموجَزُ، والكلامُ المُطْنَب، وغير ذلك ممّا لا حَصْر له من صورِ الكلام، هذه جميعًا مقتضياتٌ أملتْها أحوالٌ خاصّة وعاداتٌ يعرفها المتكلّمون عندَ مَنْ يوجّهون إليهم كلامهم. وهيئاتُ كلامِنا كلُّها استجاباتٌ لتصوّرِنا حالَ مَنْ نكلّمهم؛ ومن هنا جاءت الحكمةُ: كَلِّموا الناسَ على أقدارِ عقولهم. وشأنُ البليغِ شأنُ الطّبيب الذي يتعرّف داءَ مريضه فيعطيه «قائمةَ الدواء» المناسبة. وصفوةُ القول أنّ مقتضىٰ الحال هو:

كيفيةٌ كلاميةٌ يعرفها المتكلّمُ، ويعرف الحالَ التي تقتضيها عند المخاطَبِ، وتبقى في ذهنِه في صورةِ فكرةٍ كامنةٍ وتصوُّرٍ عقليّ، حتى إذا جاءت الحالُ التي تقتضيها أثناءَ التخاطبِ أخرج كلامه وفقًا لها. وقانونُها العامّ: لكلِّ كلمةٍ مع صاحبتها مقامٌ.

جـ ـ مطابقةُ الكلام للمُقتضىٰ:

وهي ظهورُ كلامِ المتكلّم وَفْقَ الصورةِ التي تقتضيها الحالُ التي يُقال فيها؛ أي تطبيقُ المتكلّمِ في كلامِه ما تفرضه عليه حالُ مخاطَبِهِ من مقتضًى؛ أي كيفية خاصّة.

وإليك مثالًا يجعلك على المَحَجّةِ الواضحة إن شاء الله:

قال بشّار يذكر جاريتَه رَبَابَةَ:

رَبَابَةُ ربَّةُ البيتِ ... تَصُبُّ الخلَّ في الزّيتِ
لها عشْرُ دجاجاتٍ ... وديكٌ حَسَنُ الصّوتِ

وقال مفتخرًا:

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً   هتكْنا حِجابَ الشَّمسِ أو قَطَرَتْ دَمَا
إذا ما أعرنا سيِّدًا من قَبيلةٍ   ذُرا مِنْبرٍ صلّى علينا وسلَّما

لن يغيب عنك التباينُ الواضحُ بين هذين القولَيْن من حيث البساطةُ والوضوحُ وتناولُ المعاني العادية وإيثارُ الوزنِ الأكثرِ رزانةً وثِقلًا في بيتَي الفخر. وإنّك لتتساءل بعد هذا: لِمَ هذا الاختلافُ بين الكلاَمين، وما سببُ مباينةِ الصّورة الأولىٰ للثانية؟

يقول مَنْطِق البلاغة وقانونُها العامّ: إنّ كونَ جارية بشّار إنسانًا بسيطًا يرضى بالقليل، وتروقُهُ كلمةُ ثناءٍ محبّب أيًّا كانت صورتُها، «حالٌ» أو «مقامٌ» لمخاطَبِ بشّار.

وهذه الحالُ من السّذاجة والبساطةِ والابتهاج باليسير تقتضي كلامًا ظاهرَ المعاني، عاديَّ الفِكَر، تدركه جاريةٌ مثلُ «ربابَةَ» بيُسْرٍ فتُسَرّ له وتبتهج به، وهو عندها خيرٌ من معلّقةٍ من المعلّقات. ومن ثَمّ فالكلامُ المبسَّطُ الظاهرُ المعاني العاديُّ الأفكار هو «مقتضىٰ حال» الخطاب الموجّه لإنسانٍ ثقافتُه محدودةٌ، واهتمامُه لا يتجاوز آفاقَ خدمةِ سيِّده وتلبيةِ مطالبه وإدخالِ السّرور إلى قلبه. وهذا المقتضىٰ هو قانون لغويٌّ يختزِنُه ذهنُ المتكلّم ولا يستخدمه إلا عند الشُّروع بالكلام؛ أي إنّه في حالة كمون. أمّا ظهورُ كلام بشّار على الصّورةِ التي ظهر عليها في البيتين - أي تنفيذ قانون المقتضى - فهو «مطابقةٌ لمقتضىٰ الحال». وفي مقابلِ بيتي ربابة كان التفاخرُ والتباهي والتعالي «حالًا» في بيتي الفخر؛ وهي حالٌ تقتضي كلامًا قويَّ الألفاظِ فَخْمَ المعاني حافلًا بصور الكبرياء والقوة والأنفة. ومثلُ هذه الكيفية للكلام «مقتضىٰ حالِ» متكلّمٍ جائشِ النفس ثائرِ الخواطر، دواؤه كلامٌ له هذه الكيفيّة. أمّا ظهورُ كلامِ بشّار على الصّورة التي ظهر عليها - أي تطبيقه قانون المقتضى الذي يعرفُه جيدًا - فهو «مطابقةٌ لمقتضى الحال».

وعليكَ أن تعلم جيّداً أنّ: **مقتضىٰ الحال هذا ـ أو الاعتبار المناسب كما يسمّى أحيانًا ـ يختلفُ باختلافِ الحالِ، وفقًا للقانون البلاغيّ العامّ: لكلّ مقامٍ مقالٌ؛ الذي يساوي القولَ: لكلّ حالٍ مقتضًى. ويصِحُّ العكسُ وهو أن تقول: لكلّ كلمةٍ مع صاحبتها مقامٌ؛ الذي يساوى القول: لكلّ مقالٍ حالٌ يُقالُ فيها**: فحالُ الإنكارِ عند المخاطب مقتضاها الكلامُ المؤكّدُ، وحالُ الذّكاء عند المخاطب مقتضاها الكلامُ الموجَزُ؛ وحالُ البلادةِ والغباوةِ مقتضاها الكلامُ المُطْنَب الموضَّح؛ وحالُ الاعتذار من المخاطَب مُقتضاها الكلامُ المُسْهَبُ المليءُ بالمسوّغات والأعذار التي تسلّ الضغينة، وتحمل على الإعتاب والصَّفْح. . . وهكذا. . .

تفاوتُ مراتبِ البلاغة:

تتابين درجاتُ البلاغة علوًّا وانحطاطًا. وفي هذا يقول الخطيبُ القزويني: «ولها طرفانِ: أعلى وهو حدُّ الإعجاز وما يقرُبُ منه، وأسفلُ وهو ما إذا غُيِّرَ الكلامُ عنه إلى ما دونه التحق عند البلغاءِ بأصواتِ الحيوانات؛ وبينهما مراتبُ كثيرة».

ومهما يكن، فإنّ ارتفاعَ شأنِ الكلام في الحُسْنِ والقَبولِ إنما يكون بمطابقته لمقتضى الحال أو الاعتبار المناسب، وذلك بعد أن يكون أداؤه ـ لغته ـ فصيحًا مُبينًا خيرَ إبانةٍ، ضمنَ شروطِ الفصاحة التي عرفْتَها. .

بين البلاغة والفصاحة:

يذهبُ البلاغيّون إلى أنّ البلاغةَ هي تطبيقُ الكلام على مقتضىٰ الحال مع فصاحته، وهكذا فشَرْطُ الكلام البليغ أن يسْلَمَ من العيوب المُخِلّة بفصاحتِه وفصاحةِ أجزائه. ويَنْتِجُ عن هذا أنّ البلاغة أعمُّ من

الفصاحة؛ إذ كلُّ كلامٍ بليغٍ فصيحٌ لا محالةَ؛ وليس كلُّ كلامٍ فصيحٍ بليغًا؛ فقد يكون فصيحًا لكنّه غيرُ مطابقٍ لمقتضى الحال. وهكذا فبين الاثنتين علاقةُ عمومٍ وخصوص.

بلاغةُ المتكلّم:

بلاغةُ المتكلّم عند البلاغيّين ـ **ملَكَةٌ في النفسِ يقْتدِرُ بها صاحبُها على تأليفِ كلامٍ بليغٍ: مطابقٍ لمقتضىٰ الحال، وسليم من نواقضِ الفصاحة، في أيِّ معنًى قصَدَه. والملَكاتُ عندهم هي الصِّفاتُ الراسخةُ التي تحصل بتكرار الشيء.**

هذا والمتكلّمُ البليغُ أخصُّ من الفصيح؛ لأنّ المتكلّمَ البليغَ مَنْ يتحلّى بمَلَكةِ الإتيان بالكلام البليغ، وقد عرفنا أنّ الكلامَ البليغَ ينبغي أن يكون فصيحًا؛ أمّا المتكلّمُ الفصيحُ فيَفْقِدُ صفةَ البلاغة بأن يأتي بكلام فصيح ولكنّه غيرُ مطابقٍ لمقتضى الحال. وقد سُئِل عربيٌّ: ما هذه البلاغةُ فِيكمْ؟ فأجاب: «شيءٌ تجيشُ به صدورُنا فتقذِفُه على ألسنتِنا». ويُفهَم من هذا أنّ البلاغة تشملُ التفكيرَ في المعاني التي تدور في الذّهن وتهيئتَها وإعدادَها، ثم اختيارَ القوالب الكلامية التي تصوِّرُ هذه المعانيَ خيرَ تصويرٍ، مراعًى في صياغتها شَرْطا البلاغةِ الأساسيّانِ: مطابقةُ مقتضى الحال، والفصاحةُ. ويصف البُحْتُرِيُّ بلاغةَ محمّدِ بنِ عبد الملك الزّيّات فيقول:

ومَعَانٍ لَوْ فصّلَتْها القَوافي هجّنَتْ شِعْرَ جَرْوَلٍ ولبيدِ
حُزْنَ مستعمَلَ الكلامِ اختيارًا وتجنّبْنَ ظُلْمةَ التعقيدِ
ورَكِبْنَ اللّفظَ القريبَ فأدركْـ ـنَ بهِ غايةَ المُرادِ البعيدِ

الأمران اللّذان يتوقّف عليهما حصولُ البلاغة:

الأولُ ـ تشكيلُ المعنى المرادِ بصورةِ أداءٍ كلاميٍّ مناسبٍ للحالِ

التي يُقال فيها، حتى لا يؤدّىٰ المعنى المرادُ بلفظٍ فصيحٍ، لكنّه غيرُ مطابقٍ لمقتضى الحال.

الثاني ـ التزامُ الأداءِ اللغويّ الفصيح؛ حتى لا يخرُجَ الكلامُ المطابق لمقتضىٰ الحال بأداءٍ لغويٍّ غيرِ فصيح.

والسُّؤالُ الحاسمُ هو: كيف يتأتّى لنا تجنّبُ العيوبِ المُخِلّةِ بالفصاحة وتحقيقُ شروط البلاغة؟

كان الأجدادُ يكتسبون الفصاحةَ والبلاغةَ بالعيش بين ظَهْرانَي الفصحاءِ الأَبِيناء في مجتمعٍ يقيم كبيرَ وزْنٍ لِمَنْ يسوِّي كلامَه وينفي عنه أقذاءَ الرَّطانة والهُجْنةِ. وهم من ثَمّ يرضعونَها مع حليب أمّهاتهم ويتنفّسونها مع أنسامِ صحرائهم. أمّا اليومَ، وقد بَعُدَ بنا العهدُ عن صفاءِ اللغة وضجّت مجتمعاتُنا بالرّطانة، فثمّةَ وسائلُ تمكّننا من تنميةِ مَلَكةِ الفصاحةِ والبلاغة عندنا وتحاشي العيوب التي تُزرِي بمَنْطِقِنا. وإليكَ بيانَ ذلك:

١ ـ الغرابةُ ـ ونتجنّبُها بالاطّلاعِ على عِلْم مَتْنِ اللّغةِ، وتتبّعِ الكتب المتداولة، والإحاطةِ بمعاني المفردات المأنوسة. وبذلك يكون في مقدورنا إدراكُ ما هو غريبٌ حُوشِيٌّ واجبٌ نفيُه من كلامنا.

٢ ـ المخالَفةُ ـ ونتجنّبُها بالإحاطة بما ثبَتَ عن الواضعِ في معاجم اللّغة، وبمعرفة علمِ التصريف الذي تكفّلتْ قواعدُه بإيضاح صِيَغ المفرداتِ وطرائقِ استعمالها.

٣ ـ ضَعْفُ التأليفِ والتعقيدُ اللّفظي ـ ونتجنبهما بالإلمامِ بقواعد علم النّحو؛ إذ شأنُه بيانُ طرقِ استعمالِ المركّباتِ على النحو الصحيح.

٤ ـ التنافر ـ ويُدْرَك بالذّوق السّليم المقوّىٰ بالمِرانِ والدُّرْبة؛ فهو

الذي يتحسّس ما في الألفاظ المفردةِ والتراكيب من صُوَرِ التنافر أو التأليف.

٥ ـ الاحترازُ عن الخطأ في تأدية المعنى المراد بالصّورة اللفظية المناسبة، وتمكّننا منه دِراسةُ «عِلْمِ المعاني» وفهمُ مقاصده وتوجيهاته.

٦ ـ التعقيدُ المعنويُّ ـ نتعرّفُه بدراسة «عِلْم البيان»؛ فمن استوعبَ مفرداتِ هذا العلم استبانَ السّبيلَ المثلىٰ لعَرْض المعاني واضحةً بيّنة لا تشكو تعقيدًا ولا عِوَجًا ولا أمْتا.

٧ ـ حاجةُ الكلامِ إلى المُحَسّناتِ والجماليّاتِ التي تخلع عليه فخامةً ورُواءً وتزيده طَلَاوةً وبهاءً ـ وتُعْرَفُ بدراسةِ «عِلْم البديع»؛ فمَنْ ألمّ بمباحثه عرف وجوهَ تحسين اللّفظ والمعنى، كما ستعرف ذلك إن شاء الله.

علوم البلاغة:

تُعْرَفُ العلومُ الثلاثةُ الأخيرة ـ التي أشرنا إليها قبلَ قليل ـ بأنّها «علومُ البلاغة» ويسمُّيها كثيرونَ «عِلْمَ البَيان»، كما يسمّيها بعضُهم «عِلْمَ البديع». وهناك فريقٌ من الدّارسين يسمّي العِلْم الذي يُحترَزُ به عن الخطأ في تأديةِ المعنى المراد «عِلْمَ المعاني»، ويسمّي البيانَ والبديعَ «عِلْمَ البيان».

أمّا نحنُ فقد آثرنا التّسميةَ المشهورةَ لمجموعِ هذه العلوم، وهي «علومُ البلاغةِ». وبدا لنا أن نسمّي كتابنا:

المفصّل في علومِ البلاغة العربية ـ المعاني ـ البيان ـ البديع.

تفاؤلاً بأنْ يكون ـ إن شاء اللّهُ ـ ملبّيًا حاجةَ طالبِ العِلْمِ وراغبِ الغُنْم. وسيأتيكَ حديثُ هذه العلوم مرتّبةً هكذا: علم المعاني ـ علم البيان ـ علم البديع.

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ فصاحةِ الكلمة:

ـ حدّد ما أخلَّ بفصاحةِ الكلماتِ الموضوعةِ بين قوسَيْن في الأبياتِ والعباراتِ الآتية:

١ ـ ومَا أرضىٰ لِمُقْلتِهِ بحُلْمٍ إذا انتبهتْ توهّمَهُ (ابتشاكا)[١]

٢ ـ لم يَلْقَها إلاّ بِشكّةِ باسِلٍ يخشىٰ الحوادثَ حازم (مُسْتَغْدِدِ)

٣ ـ إنَّ بَنِيَّ لَلِئامٌ زَهَدَهْ ما لِيَ في صدورِهِمْ مِنْ (مَوْدَدَه)

٤ ـ يومٌ (عَصَبْصَبٌ)[٢] و(هِلَّوْفٌ)[٣] ملأ السَّجْسَجَ[٤] طَلًّا

٥ ـ قد قلتُ لمّا (اطلخمَّ)[٥] الأمرُ وانبعثتْ عَشْواءُ تالِيةً غُبْسًا[٦] دَهَارِيسا[٧]

٦ ـ لا نَسَبَ اليومَ ولا خُلَّةٌ (إتّسعَ) الفَتْقُ على الرّاقعِ

٧ ـ كتب بعضُ أمراءِ بغدادَ رقعةً طرحها في المسجد الجامع حين مرِضَتْ أمُّه فقال: صِينَ امرُؤٌ ورُعِيَ دعا لامرأةٍ (إنْقَحْلةٍ)[٨]، (مُقْسَئِنَّةٍ)[٩]؛ فقد مُنِيتْ بأكْلِ الطُّرْموقِ[١٠] فأصابها من أجله (الاستمصالُ)[١١] أن يَمُنَّ اللّهُ عليها (بالاطْرِغْشاشِ)[١٢] والابْرِغْشاش)[١٣].

---

(١) الابتشاكُ: الكذبُ والخلطُ في كلّ شيء.

(٢)(٣) عَصَبْصَبٌ وهِلَّوْفٌ: شديدُ البَرْد في الاثنين.

(٤) السَّجْسَج: الأرضُ التي ليست بسهلةٍ ولا صُلْبة.

(٥) اطلخمّ: اشتدّ وعظم.

(٦) الغُبْسُ: جمع أغْبَس وغَبْساء: الشديد الظلام.

(٧) الدّهاريس: جمع دَهْريس بمعنى الداهية.

(٨) إنْقَحْلة: يَبِس جِلْدُها على عظمها.

(٩) مُقْسَئِنّة: كبيرة وعاسية.

(١٠) الطُّرمُوق: الخُفّاش.

(١١) الاستمصالُ: الإسهال.

(١٢) الأطْرِغْشَاش: التماثل للشفاء.

(١٣) كسابقه.

٨ ـ فَأيقَنتُ أنّي عِندَ ذلِكَ ثائرٌ غداتَئِذٍ، أو هالِكٌ في (الهَوالِكِ)

٩ ـ قال امرؤُ القيس:

«رُبَّ جَفْنةٍ (مُثْعَنْجِرةٍ)[1] وطَعْنَةٍ (مُسْحَنْفِرةٍ)[2]، وخُطْبةٍ مستحضرةٍ، وقصيدةٍ محبَّرةٍ، تبقى غدًا بِأَنْقِرَةَ».

١٠ ـ وأحمق مِمّن يكْرَعُ الماءَ قال لي: دَعِ الخَمْرَ واشربْ مِنْ (نُقَاخٍ)[3] مبرَّدِ

الإجابات:

١ ـ كلمةُ «الابتشاك» غيرُ فصيحة لغرابتها؛ إذ هي قليلةُ الاستعمال.

٢ ـ كلمة «مُسْتَعْدِد» غيرُ فصيحةٍ لمخالفتها القياسَ؛ فالقياسُ أن تكون «مستعدّ».

٣ ـ كلمةُ «مَوْدَدَة» غيرُ فصيحة لمخالفتها القياسَ؛ فالقياسُ أن تكون «مودّة» بالإدغام.

٤ ـ عَصَبْصَبٌ وهِلَّوْفٌ غيرُ فصيحتين لغرابتهما؛ إذْ هما قليلتا الاستعمال.

٥ ـ كلمة «اطْلَخَمّ» غيرُ فصيحة؛ لغرابتها وغِلَظها في السمع. ومِثْلُها «دهاريس».

٦ ـ كلمةُ «إِتّسع» غيرُ فصيحة لمخالفتها القياسَ؛ إذِ القياسُ؛ «اِتَّسع» بهمزة وصل.

٧ ـ كلمة «إِنْقَخْلَة» غيرُ فصيحة لغرابتها وتنافرها. وكلمةُ «مُقْسَئِنَّة» غيرُ فصيحةٍ لغرابتها، وتنافرها؛ إذ هي قليلةُ الاستعمال ثقيلةُ النّطق.

---

(١) صفة للجفنة بمعنى السائلة.

(٢) مسحنفرة: النافذة بسرعة.

(٣) عَذْب.

٨ ـ كلمةُ «الهوالِك» غيرُ فصيحةٍ لمخالفتها القياسَ؛ إذ القياسُ «الهالكين».

٩ ـ كلِمةُ «مُتْعَنْجِرة» غيرُ فصيحةٍ لتنافرها، ومِثْلُها «مُسْحَنْفِرة»، وهما قليلتا الاستعمال وثقيلتان في النطق.

١٠ ـ كلِمةُ «نُقَاخِ» غيرُ فصيحةٍ لغرابتها؛ إذ هي قليلةُ الاستعمال وَحْشيّةٌ.

أسئلةٌ وإجاباتها حولَ فصاحة الكلام:

ـ حدِّدْ ما أخلّ بفصاحة الكلام فيما يأتي:

١ ـ تعالَ فإنْ عاهدتَني لا تخونُني نكنْ مثلَ مَنْ يا ذِئبُ يصطحبانِ
٢ ـ لمّا رأى طالِبُوهُ مُصْعَبًا ذُعِرُوا وكادَ لو ساعدَ المقدورُ ينتصِرُ
٣ ـ لو كُنتَ كُنتَ كتَمْتَ السِّرَّ كنتَ كما كُنّا وكُنتَ، ولكنْ ذاكَ لم يكنِ
٤ ـ لمّا عصىٰ أصحابُهُ مُصْعَبًا أدّوا إليهِ الكَيْلَ كَيْلاً بِصَاعْ
٥ ـ ولمْ أرَ مِثْلَ جيراني ومِثْلي لمِثْلي عندَ مِثْلِهِمُ مُقامُ
٦ ـ وازْوَرَّ مَنْ كانَ لهُ زائرًا وعافَ عافي العُرْفِ عِزْفانَهُ
٧ ـ أنّى يكونُ أبَا البَرَايا آدمُ وأبوكَ والثَّقَلانِ أنتَ محمّدُ
٨ ـ والمَجْدُ لا يَرْضىٰ بِأَنْ ترضىٰ بِأَنْ يَرْضىٰ المُعاشِرُ مِنْكَ إلاّ بالرِّضا
٩ ـ ولِذَا اسْمُ أغْطِيةِ العيونِ جُفونُها مِنْ أنّها عَمَلَ السّيوفِ عَوامِلُ
١٠ ـ ألا ليتَ شِعْري هَلْ يلومَنّ قومُهُ زهيرًا على ما جرَّ مِنْ كُلّ جانبِ

الإجابات:

١ ـ في البيت تعقيدٌ لفظي؛ إذ إنّ التقدير: نكن يا ذئبُ مثلَ مَنْ يصطحبانِ.

٢ ـ في البيت ضعفُ التأليف؛ لأنّ الهاء في «طالبوه» تعود على مصعب وهو متأخِّرٌ لفظًا ورتبةً.

٣ ـ في البيتِ تنافرُ الكلماتِ، الناشىءُ عن تكرار لفظ «كُنْتَ».

٤ ـ في البيت ضعفُ التأليف؛ لأنّ الهاء في «أصحابه» تعود على مصعب المتأخّر لفظًا ورتبةً.

٥ ـ في البيت تنافرٌ في الكلمات؛ مصدره تكرار لفظ «مثل».

٦ ـ في البيت تنافرٌ في الكلمات، مصدره التكرار. ومعنى هذا البيت:

انصرف عنه مَنْ كان يزوره، وكره طالبُ معروفه معرفته.

٧ ـ في البيتِ تعقيدٌ لفظيّ، ناشىءٌ عن الفَصْلِ بين المبتدأ والخبَر وهما: أبوكَ محمّدُ، وتقديم الخبر على المبتدأ «والثّقلانِ أنتَ»؛ وتقديرُ الكلام: كيف يكون آدَمُ أَبا البرايا، وأبوكَ محمدٌ، وأنتَ الثّقلانِ؟

٨ ـ في البيت تنافرٌ في الكلماتِ؛ مصدرُه تكرار لفظ «ترضى».

٩ ـ في البيت تعقيدٌ لفظيّ؛ إذ إنّ تقدير الكلام هكذا: لأنّ العيونَ عوامِلُ عمَلَ السّيوف سُمِّيتْ أغطيتُها جفونًا.

١٠ ـ في البيت ضَعْفُ التأليفِ؛ لأنّ الهاءَ في «قومُه» تعود على متأخّرٍ لفظًا ورتبةً.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الكتابُ الأوّل

عِلم المَعَانِي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدّمة في تعريف علم المعاني ومباحثه:

ـ تعريفُ عِلْم المعاني:

يقول السّكاكيُ في تعريف هذا العلم:

هو تتبّعُ خواصِّ تراكيبِ الكلام في الإفادة وما يتّصِلُ بها من الاستحسانِ وغيره، ليُحترَزَ بالوقوف عليه عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحالُ ذكرَه.

وعرّفه الخطيبُ القزوينيّ بالقول:

هو علمٌ تُعْرَف بِهِ أحوالُ اللّفظِ العربيّ التي بها يطابقُ مقتضى الحال.

وليس ثمّة تباينٌ بين التعريفين فيما يبدو لنا. وفي مقدورنا تبسيطُ التعبير عن دِلالتهما المشتركة بالقول، إنّ علم المعاني هو العلمُ الذي يعرّفنا صياغةَ العبارة صياغةً تُناسِبُ تمامًا المقامَ الذي تُقالُ فيه، وتعبّر تعبيرًا دقيقًا عن القَصْد الذي نبتغيه. ذلك أنّ «مهارةَ الأديب، ونبوغَ الشاعر، وعبقريّةَ اللّغة، كلّ هذا يكمن فيما بين الكَلِم من ترابطٍ وصلات؛ فحِذْقُ الأديب الشّاعر يظهَرُ في مقدرته الفائقة على صياغة كَلِم اللغة صياغةً بصيرةً واعية، تصف كلَّ خاطرة من خواطرِ نفسه، وتُفصِح عن كلّ فكرةٍ تومِضُ في كيانه، أو شعورٍ يختلج في مطاويه؛ وعبقريّةُ اللغة تكمنُ في مرونتِها، وطواعيتِها وإفادتِها دقيقَ المعاني، بوجوهٍ وفنون الصياغة، فتصِفُ بهيئةِ الكلمة وتشير بـخصوصيّةِ التركيب». (د. محمد أبو موسىٰ: دلالات التراكيب).

وعلى نَحْوٍ أوضح نقول: إنّ علمَ المعاني هو الذي يقول لنا ـ مثلاً ـ إنّ تنكيرَ الخبر في الجملة الاسميّة يُناسِبُ حالًا خاصّةً ومقامًا متميزًا، وتعريفَه يناسِبُ حالًا أخرى، وإنّ «إذا» تُسْتَخدَم في الشَّرْط

عند كون المتكلّم متأكّدًا من حصول الشّرط؛ و «إنْ» تُستخدَم عند كونه غيرَ متأكّد. فقانوناه الأساسيّان:

لكلِّ مقام مقالٌ، ولكلِّ كلمةٍ مع صاحبتِها مقامٌ.

ـ مباحثُ عِلْمِ المعاني:

يبحث علمُ المعاني في أحوالِ اللّفظ، أو صياغاتِه التي يكون فيها مستجيبًا لمقتضى الحال. وغنيٌّ عن الذّكر أنّ «عِلْمَ النَّحْو» يدرس أحوالَ اللفظِ من تنكيرٍ وتعريفٍ، وتقديمٍ وتأخيرٍ، وحذفٍ وذِكْرٍ. . . إلخ. لكنّه يدرسُها من وجهة مغايرة لِمَا عليه الأمرُ في علم المعاني؛ فهو يتبيّن جوازَ التقديم وامتناعَه ووجوبَه، وجوازَ الحَذْف وامتناعَه ووجوبه، ويتكلّم على التعريف والتنكيرِ والتأكيدِ وعدمه، لكنّه لا يعالجها من حيث إنّها تلبّي مطلبًا فنيًّا يقتضيه المقامُ وتستدعيه الحال، فقد تكفّل بذلك عِلْمُ المعاني.

ويتناول علمُ المعاني ثمانية مباحث هي:

- أحوال الإسْنادِ الخبريّ.
- أحوال المُسْندِ إليه.
- أحوال المسنَد.
- أحوال متعلّقات الفعل.
- القَصْر.
- الإنشاء.
- الفَصْل والوصْل.
- الإيجازُ والإطنابُ والمساواة.

وسيأتيك حديثُها ـ إن شاء الله ـ على النحو الذي يَشْرَح الصَّدْرَ ويُزيل النَّفر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأوّل

أحوالُ الإسناد الخبريّ

ويتضمّن:

- طرفا الكلام: المُسْنَدُ إليه والمُسْنَدُ.
- النسبة بين هذين الطرفين.
- تقسيم الكلام تبعًا للنِّسبة على خبرٍ وإنشاء.
- الفروق الأساسيّة بين الخبر والإنشاء.
- احتمالُ الخبرِ للصّدق والكَذِب.
- الخبرُ الصّادق والخبر الكاذِب.
- الإسنادُ الخبريّ «تعريفه».
- صوَرُ طرفَي الإسناد.
- مواضعُ المسندِ إليه والمسندِ في سياق الجملة العربية.
- قَصْدُ المُخْبِر في إلقاء الخبر.
- خروجُ الخبر عن غرضيه الأساسيَّيْن.
- أحوالُ متلقّى الخبر.
- أحوالُ متلقّي الخبرِ تحدّد صِيَغَ الخبر الملقىٰ إليه: المَقامُ يحدِّد المَقالَ.
- إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.
- مؤكِّدات الخبر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

طرفا الكلام: المُسْنَدُ إليه والمُسْنَدُ:

يقول الشيخ عبدُ القاهر الجُرْجانيّ: «مُخْتَصَرُ كلِّ أمرٍ أنّه لا يكونُ كلامٌ من جزءٍ واحدٍ، وإنّه لا بدّ من مُسْنَدٍ إليه ومسنَدٍ».

هذه حقيقةُ الحقائق التي يعيها كلُّ عاقل؛ فلكلّ كلام تامٍّ طرفان: المسندُ إليه والمسنَدُ. تقول: محمدٌ صادقٌ، فيكون «محمّدٌ» مسندًا إليه و«صادقٌ» مسندًا. وتقول: «جاء الضَّيفُ» فيكون «الصيفُ» مُسْندًا إليه، و «جاء» مُسْنَدًا. وتقول: «إقْرَأْ يا محمّدُ» فيكون «الفاعلُ الضميرُ المستتر أنتَ» مسندًا إليه، و«اقرأْ» مسندًا. هذا ويسمّي البلاغيون المُثْبَتَ له «مسندًا إليه» أو محدَّثًا عنه، ويسمّون المثْبتَ «مسندًا» أو «حديثًا».

ـ النسبة بين الطّرفين:

في الأمثلة المتقدّمة لا بدَّ من وجود رابطٍ يربط بين طرفي الكلام التامّ. وهذا الرّابطُ يسمّىٰ «النِّسْبَةَ»؛ أي نسبة شيء إلى آخر. ففي المثال الأول نَسَبْنا الصّدقَ إلى محمّدٍ، وفي المثال الثاني نَسَبْنا المجيءَ إلى الضَّيْفِ، وفي المثال الثّالث نَسَبْنا القراءةَ إلى محمّدٍ على جهةِ طَلَبِنا قِيامَه بها. **والنسبة هي: تعلّقُ أحدِ الطرفَينِ بالآخرِ على سبيلِ الحُكْمِ به عليه إيجابًا أو سَلْبًا، أو على سبيل الطّلب.**

وإذا أدركنا هذا نقول إنّ هذه النِّسْبةَ على ثلاثة أنواع من حيث الجهةُ التي توجدُ فيها:

١ ـ النِّسبةُ الكلاميّة ـ وهي تعلّقُ أحدِ الطرفين بالآخر تعلُّقًا نفهمه من الصِّيغة الكلاميّة؛ أو هي مؤدّى الكلامِ أو معنى الكلام.

٢ ـ النِّسبةُ الذهنيّة ـ وهي تعلّقُ أحدِ الطرفَيْنِ بالآخرِ تعلّقًا يقوم في ذهن المتكلّم؛ أو هي التصوُّرُ الذّهنيّ للمتكلّم حول تعلّق أحد الطرفين بالآخر.

٣ ـ النِّسْبةُ الخارجية ـ وهي تعلّقُ أحدِ الطرفَيْنِ بالآخر تعلّقًا قائمًا في الخارج.

بيان ذلك أنّ قولنا:

«الشّجرةُ مُزْهِرةٌ».

يتضمّن ثلاثةَ أنواعِ النسبةِ المشار إليها، وهي:

ـ نسبةٌ كلاميّةٌ تتمثَّلُ في معنى إِزْهارِ الشجرة، أو نسبةِ الإزهار إلى الشّجرة، التي فهمناها من هذا القول أو هذه الجملة.

ـ نسبةٌ ذهنيّة تتمثَّلُ في تصوّر إزهار الشجرة، أو نسبة الإزْهار إلى الشّجرة، تلك النسبةُ القائمةُ في ذهن المتكلّم أو تصوُّرِه.

ـ نسبةٌ خارجية تتمثَّل في إِزْهارِ الشجرة الحادثِ في الواقع العِيانيّ المُشَاهَد.

ـ تقسيم الكلام، تبعًا للنسبة، إلى خبر وإنشاء:

الكلامُ تبعًا لنسبته نوعانِ:

الأوّلُ ـ ما له نسبةٌ خارجيّةٌ أو صورةٌ واقعيّة يمكن أن يتعرّفها الآخرون؛ أي ذلك الكلامُ الذي له واقعٌ يُحاكيه، ويصوّره، ويتحدّث عنه؛ **ويسمّىٰ هذا الكلامُ «خَبَرًا»؛ لأن المتكلّمَ في هذا الضرب من الكلامِ يُخبِرُ بشيءٍ لهُ وجودٌ خارجيّ.**

الثّاني ـ ما ليس له نسبةٌ خارجيّةٌ أو صورةٌ واقعيّة يمكن أن يتعرّفها الآخرون؛ أي ذلك الكلام الذي لا واقعَ له يُحاكيه. **ويسمّى**

هذا الكلامُ «إنشاءٌ»؛ لأن المتكلِّمَ يبتدِئُه ابتداءً، أو ينشيء معناه بلفظٍ من عنده، ولا يصوِّر فيه شيئًا له وجودٌ خارجيّ. وابتغاءَ مزيدِ إيضاحٍ إليكَ القولَ في:

الفروق الأساسية بين الخبر والإنشاء:

١ ـ الخَبَرُ قولٌ يحتمِلُ الصِّدقَ والكَذِبَ لذاته؛ لأنّه صيغةٌ كلامية تحكي نسبةً حاصلةً في الواقع أو غيرَ حاصلةٍ. فقولُ المتكلّم: «الشّجرةُ مُزْهِرَةٌ» يحتمِلُ أن يكون صِدْقًا؛ وذلك حين تكونُ الشجرةُ المعنيّةُ مُزْهِرةً حقيقةً في الواقع المُعَايِنِ. ويحتمِلُ أن يكون كَذِبًا؛ وذلك حين تكون الشّجرةُ المعنّيةُ غيرَ مزهرةٍ في الواقع المُعَايَنِ. وكلُّ الأخبارِ تحتمل الصّدقَ والكَذِبَ لِذَاتِها، كقولنا: السماءُ صافيةٌ، واللّيلةُ مُقْمِرَةٌ، والوطنُ عزيزٌ، وجاء الحقُّ، وزهَقَ الباطِلُ، واتّحدَ العربُ.

أمّا الإنشاءُ فقولٌ لا يَحْتَمِلُ الصّدقَ والكَذِبَ لذاته؛ لأنّه صيغةٌ كلاميّةٌ لا تحكي نسبةً خارجيّةً، بل هو إنشاءُ معنًى بلفظٍ يقارِنُه في الوجود. . فقولُنا: «أُدرسْ يا أحمدُ» إنشاءٌ، يعني: طلَبَ الدراسة منه. وهو لا يحتمِلُ الصّدقَ والكَذِبَ؛ لأنه ليس له نسبةٌ خارجية تُطابِقُه أو لا تطابقه.

٢ ـ حصولُ معنى الخبرِ لا يتوقّف على النُّطْقِ به؛ فمعنى قولك: «أحمدُ ناجِحٌ» ـ وهو نسبةُ النجاحِ إلى أحمدَ ـ حاصِلٌ سواءٌ أنطقتَ بهذا الخبر أم لم تنطِقْ به. أمّا حصولُ معنى الإنشاء فمتوقّفٌ على النُّطْقِ به؛ فمعنى قولِكَ: «ادرسْ يا أحمدُ» ـ وهو طلبُ حصولِ الدّراسةِ منه ـ متوقّفٌ على النطق بهذا الطلَب.

٣ ـ مدلولُ الخبرِ يُرادُ به أن يكونَ حكايةً عن أمرٍ حاصِلٍ في الواقعِ، أو يراد منه مُطابقةُ النّسبةِ الكلاميّة للنِّسْبةِ الخارجية. فقولُنا:

«السّماءُ صافيةٌ» خبَرٌ يُراد منه أن يَحْكِيَ أمرًا حاصِلاً في الواقع هو صفاءُ السّماء.

أمّا مدلولُ الإنشاءِ فيُراد به إيجادُ أمرٍ لم يحصُلْ، أو إنشاءُ معنًى بلفظٍ يُقارِبُه في الوجودِ؛ فقولُكَ: «هل رأيتَ أحمدَ؟» إنشاءٌ لا يُرادُ منه حكايةٌ لرؤيةٍ حاصلةٍ منك لأحمدَ، بل المرادُ به طَلَبُ إحداثِ مدلوله؛ أي الاستفهامُ عن الرؤيةِ: هل حَصَلَتْ منك لأحمد. وعلى الجملة نقول:

النِّسَبُ الخبريَّةُ حاكِيةٌ لأمرٍ حاصِلٍ في الواقع، والنِّسَبُ الإنشائيَّةُ مُوجِدةٌ لِمَعْناها بألفاظِها.

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ الطرفين والنّسبة:

حدِّدْ طرفَي الإسنادِ، والنّسبةَ بينهما بأنواعها الثلاثةِ في العبارات الآتية:

١ ـ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

٣ ـ تكلّمْ يا غلامُ.

٤ ـ لا تنهَ عن خلقٍ وتأتِيَ مثلَه.

٥ ـ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾.

٦ ـ ليتَ الشبابَ يعودُ يومًا!

الإجابات:

١ ـ الطرفان هنا هما: محمدٌ ورسولُ اللّهِ. وتعلُّقُ الرّسالةِ بمحمّدٍ ـ عليه الصلاةُ والسّلامُ ـ هو النّسبةُ. وهذا التعلّقُ، تبعًا لفهمه من الكلامِ، نسبةٌ كلاميّة؛ وتبعًا لقيامه في ذهن المتكلّم نِسْبَةٌ ذهنيّة، وتبعًا لحصوله في الخارج نِسْبَةٌ خارجيّة.

٢ ـ الطرفان هما: محمّدٌ، عليه الصّلاة والسّلام، والأُبُوّةُ. وتعلُّقُ الأبوّةِ بمحمّدٍ ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ من حيثُ سَلْبُها عنه هو النّسْبةُ. وهو تبعًا لفهمه من الكلام نِسْبَةٌ كلاميّة، وتبعًا لحضوره في الذهن نسبةٌ ذهنيةٌ، وتبعًا لحصوله في الخارج نِسْبَةٌ خارجية.

٣ ـ الطّرفانِ هما: التكلّمُ والفاعِلُ الضمير المستتر «أنتَ». وتعلّقُ

التكلّم بالفاعل من حيث طلَبُه منه هو النِّسْبةُ. وهو تبعًا لفهمه من الكلام نِسْبَةٌ كلاميّة، وتبعًا لقيامه في ذهن المتكلّم نِسْبَةٌ ذهنية، وتبعًا لقيامه في نفس المتكلّم نسبةٌ خارجية.

٤ ـ الطّرفانِ هما: لا تَنْهَ، والفاعلُ الضميرُ المستتر «أنتَ». وتعلّقُ النّهي بالفاعل من حيثُ طلبُ عدمِ حصوله منه هو النسبة. وهذا التعلّقُ تبعًا لفهمه من الكلام نِسْبةٌ كلامية، وتبعًا لحضوره في ذهن المتكلّم نِسْبةٌ ذهنية، وتبعًا لِقِيامه في نفسِ المتكلّمِ واتّصافِها به نِسْبَةٌ خارجية.

٥ ـ الطّرفان هما: أَتاكَ، وحديثُ الغاشية، وتعلّقُ الإتيانِ بحديثِ الغاشيةِ من حيث طلبُ فَهْمِ حصولِه منه هو النّسبةُ. وهو تبعًا لفهمه من الكلام نِسْبَةٌ كلاميّة، وتبعًا لحضوره في ذهن المتكلم نِسْبَةٌ ذهنيّة، وتبعًا لقيامِهِ في نَفْسِ المتكلّم واتصافِها به نِسْبَةٌ خارجيّة.

٦ ـ الطّرفانِ هما: الشّبابُ ويعودُ، وتعلُّقُ العودةِ بالشّباب من حيثُ طَلَبُ حصولِها على جهة التمنّي هو النِّسْبَةُ. وهو تبعًا لِفَهْمِه من الكلامِ نِسْبَةٌ كلاميّة، وتبعًا لحضوره في ذهن المتكلّمِ نِسْبَةٌ ذهنيّة، وتبعًا لقيامه في نَفْسِ المتكلّم نِسْبةٌ خارجية.

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ الجملِ الخبرية والإنشائية:

ـ حدّدْ في العباراتِ الآتية الجُمَلَ الخبريّةَ والجملَ الإنشائيّةَ مع بيانِ المُسْنَدِ إليه والمسْنَدِ في كلٍّ منها:

لا تكنْ صُلْبًا فتُكسرَ. إنّ للشّبابِ نَشْوَةً. إنّ الشّبابَ جُنُونٌ بُرْؤُه الكِبَرُ. لا يُغلَبُ مَنْ كانَ اللّهُ معَه. لا تُصاحِبِ الأشرارَ. صبرًا جميلاً. شتّانَ ما بينَ زَيْدٍ وأخيه. أحسِنْ إلى النّاسِ. هَلْ قابلْتَ صديقَك؟ الصّبرُ جميلٌ.

الإجابات:

- لا تكنْ صُلْبًا فتُكْسرَ: هذه الجملةُ إنشائيةٌ، المُسْنَدُ إليه فيها اسمُ كان الضميرُ المستتِرُ «أنتَ»، والمُسْنَدُ الفِعْلُ الناقص «كان».

- إنّ للشّبابِ نشوةً: هذه الجملةُ خبريّةٌ، المُسْنَدُ إليه فيها اِسْمُ إنّ المؤخّر «نشوةً» والمُسْنَدُ خبَرُها «متعلّقُ الجارّ».

- إنَّ الشبابَ جنونٌ بُرْؤُه الكِبَرُ: هاتان الجملتان خبريّتان، المُسْنَدُ إليه فيهما هو «الشَّبابُ - برؤه»، والمُسْنَدُ هو «جنونٌ - الكِبَر».

- لا يُغْلَبُ مَنْ كان اللّهُ معَه: جملةٌ خبريّة، المسندُ إليه فيها نَائبُ الفاعلِ «مَنْ» والمُسْنَدُ هو الفعلُ «يُغْلَبُ».

- لا تُصاحبِ الأشرارَ: جملةٌ إنشائية، المسندُ إليه فيها ضميرُ الفاعل «أنتَ»، والمُسْنَدُ هو الفعل «تصاحِبْ».

- صَبْرًا جميلاً: جملةٌ إنشائية، المسند إليه فيها الضميرُ المستتر في صبْرًا وتقديره «أنْتَ»، والمسندُ «صَبْرًا».

- شتّانَ ما بينَ زيدٍ وأخيه: جملةٌ خبرية، المسندُ إليه فيها الفاعلُ، وهو لفظُ «مَا» والمسندُ «شتّانَ».

- أَحْسِنْ إلى النّاس: جُمْلَةٌ إنشائية، المسندُ إليه فيها الضميرُ المستتِرُ في أحْسِنْ «أنتَ»، والمسندُ «أحْسِنْ».

- هل قابلتَ صديقَك: جملةٌ إنشائية، المسندُ إليه فيها التّاءُ في «قابلتَ»، والمسندُ «قابل».

- الصّبرُ جميلٌ: جملةٌ خبرية، المسند إليه فيها المبتدأُ «الصّبرُ»، والمسندُ هو الخبَرُ «جميلٌ».

احتمالُ الخبرِ للصِّدقِ والكَذِب:

في تمييزنا «الخبرَ» بأنّه قولٌ يحتَمِلُ الصِّدْقَ والكذِبَ لا بدّ من الانتباه إلى أنّ هذا الاحتمالَ يُنظَر فيه إلى «الجملة الخبريّة نفسِها» بصَرْفِ النّظر عمّن قالَها وعن الواقع؛ ولذا يضع البلاغيون قَيْدَ «لِذَاتِه» عند تعريف الخبر. ومبعثُ هذا التنبيه أنّنا حين ننظرُ إلى المُخْبِر أو إلى الواقع تكون بعضُ الأخبار صِدْقًا لا محالةَ وبعضُها كذِبًا لا محالة. فأخبارُ اللّهِ تعالى، وأخبارُ رُسُلِه، والبديهياتُ المقرّرةُ نَحْوُ: السَّماءُ فوقَنا، والأرضُ تحتَنا، والحليبُ أبيضُ.. هذه جميعًا أخبارٌ صادقة لا تحتمل كَذِبًا البتّةَ. عكْسُ هذا أخبارُ المتنبّئينَ في دعوىٰ النبوّة، وأقوالُنا المخالِفةُ للقانون الثّابت كقولنا: الجَهْلُ نافعٌ، والعِلْمُ ضارٌّ، والأرضُ ثابتةٌ؛ فهذه جميعًا أخبارٌ كاذبةٌ لا تحتمل صِدْقًا البتّة. ومختصرُ القَوْلِ: **إنّ احتمالَ الصّدقِ والكَذِبِ في الأخبار يُنظَر فيه إلى الكلامِ نفسِه بِقَطْعِ النّظرِ عن خصوصِ المُخْبِر أو خصوصِ الخبر.**

الخبرُ الصّادقُ والخبرُ الكاذبُ:

أسلفْنا أنّ لِلْكلامِ الخبريّ نسبةً كلاميّة ونسبة خارجيّة، وأنّ نِسَبَ الخَبَرِ حاكِيَةٌ لأمرٍ حاصِلٍ خارجًا. ونتقدّمُ من هاتين المقدّمتين إلى القول:

إذا طابقتِ النِّسْبةُ الكلاميّةُ النسبةَ الخارجيَّةَ كان الخبرُ صادقًا، كما إذا كانتِ الشجرةُ مزهرةً حقيقةً في قولِنا «الشجرةُ مزهرةٌ».

وإذا لم تطابقِ النسبةُ الكلاميّةُ النِّسْبَةَ الخارجيَّةَ كان الخبرُ كاذِبًا، كما إذا كانتِ الشّجرةُ غيرَ مُزْهِرَةٍ حقيقةً في مثالِنا السابق. وجملةُ القول أنّ:

صِدْقَ الخبرِ مطابقتُه للواقعِ الذي يُحاكيه.

وكَذِبَ الخبرِ عدَمُ مطابقتِه للواقع الذي يحاكيه.

وهذا رَأيُ الجُمْهورِ، وهو المرجَّحُ، وفي المسألة آراء لا نشاءُ الخوضَ فيها.

الإسنادُ الخبريُّ:

يعرّف البلاغيونَ الإسنادَ الخبريُّ بأنّه:

ضمُّ كَلِمةٍ أو ما يجري مجراها إلى أخرى أو ما يجري مجراها، بحيث يفيدُ الحُكْمُ أنّ مفهومَ إحداهما ثابتٌ لمفهوم الأخرى أو منفيٌّ عنه.

كأن تقول: «المتنبّي شاعرٌ»، و«ابنُ المُقَفَّعِ ليس بشاعرٍ». ففي المثالِ الأول إسنادٌ خبريّ ضمَمْتَ فيه كلمةَ «شاعر» إلى كلمة أخرى هي «المتنبّي». وحُكْمُك هذا أفاد أنّ مفهوم «الشاعريّة» ثابتٌ لـ «المتنبّي». وفي المثال الثّاني إسنادٌ خبريٌّ ضمَمْتَ فيه كَلِمةَ «ليسَ بشاعرٍ» إلى كلمةٍ أخرى هي «ابنُ المُقَفَّعِ». وحُكْمُكَ هذا أفاد أنّ مفهومَ الشاعريّة منفيٌّ عن «ابن المقفّع».

بقي أن نشيرَ إلى أنّ الكلمة المضمومَ إليها، أو المحكومَ عليها، أو المُخْبَرَ عنها، تسمّى «مُسْندًا إليه». والكلمةَ المضمومةَ، أو المحكومَ بها، أو المخبرَ بها تسمّى «مُسْندًا». والنّسبةَ بينهما تسمّى «إسنادًا». ولا يختلف مدلولُ الإسناد عن مدلول «النّسبة».

أمّا ما يجري مجرى الكَلِمةِ ـ ممّا جاء في تعريف الإسناد قبلَ قليلٍ ـ فيعني الجُمْلةَ الواقعة موقعَ المفردِ أوالمؤوّلة بمفرد.

صُور طرفي الإسناد:

يأخذ طرفا الإسنادِ أربعَ صُوَرٍ:

١ ـ أن يكونا مفردَيْن، كقولِهِمْ في المثَلِ: «الحَقُّ أبْلَجُ، والباطِلُ لَجْلَجٌ»، وقولِهِمْ: «آن الأوانُ»، و «قُضِيَ الأمرُ».

٢ ـ أن يكونا جملتَيْنِ، مثل: «لا إلٰهَ إلّا اللّهُ ينجو صاحبُها من النّار».

٣ ـ أن يكون المُسْنَدُ إليه مفردًا حقيقةً والمسندُ جملةً، كقولِهم في المثَلِ: «يَداك أوكْتا، وفوكَ نَفَخ».

٤ ـ أن يكون المسندُ إليه جملةً والمسندُ مفردًا حقيقةً، كقولك: «عاشَ الوطنُ شعارُنا على الزّمنِ».

مواضِعُ المسندِ إليه والمسندِ في سياق الجملة:

أسلفْنا أنّ المسندَ إليه والمسندَ هما رُكْنا الجملةِ الأساسيّان. ونقول ههنا إنّ لهما مواضعَ يحتلّانها في سياق الجملة العربية. وهاكَ مفصَّلَ القولِ:

أوّلًا ـ مواضعُ المسندِ إليه، وهي:

١ ـ فاعِلُ الفِعْلِ التامّ أو شِبْهِه، كقولِكَ: «طلَعَ **البدرُ** المضيءُ **نورُهُ**»، فكلٌّ من «البَدْر» و«نورُه» مسندٌ إليه؛ لأنّ الأوّلَ فاعِلُ الفِعْلِ التامّ «طلَعَ»، والثّاني فاعِلُ شِبْهِ الفعلِ التّام «المضيء»، وهو اسمُ فاعل.

٢ ـ نائبُ الفِعْلِ، كَلَفْظِ «الأمر»، و«الأمور» في قوله سبحانه: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

٣ ـ المبتدأُ الذي ذُكِر خبرُهُ، كلفظِ «الحقّ» و«الباطل» في قولك: «**الحقُّ** فائقٌ **والباطِلُ** زاهقٌ».

٤ ـ ما أصلُه المبتدأُ، كأسماءِ الأدوات الناسخة، مثل لفظ الجلالة «الله» في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وكهذا اللّفظِ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾، وكالمفعول

الأول لظنَّ وأخواتها، ومنه لفظُ «السّاعةَ» في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، والمفعول الثاني لـ «أرى» وأخواتها، ومنه لفظُ «الحقّ» في قولك: «أريتُكَ الحقَّ واضِحًا».

ثانيًا: مواضِعُ المسنَد، وهي:

١ ـ الفعلُ التامُّ كلفظِ «جاء» في قوله سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

٢ ـ اِسْمُ الفعلِ، كقولك: «**هيهاتَ** الحياةُ الهانئةُ»، و«**شتّان** ما بين باطلِهِمْ وحقّك»، و«إيهِ يا أحمدُ».

٣ ـ المبتدأُ المُكتفي بمرفوعه عن الخبر، كَلَفْظِ «راغبٌ» في قوله سبحانه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي﴾، ولفظِ «مُهان» في قولِكَ: «ما مُهانٌ أخوهُ كريمٌ».

٤ ـ خبرُ المبتدأِ، كلفظ «داحضة» في قوله سبحانه: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

٥ ـ ما أصْلُهُ خبرُ المبتدأ، كأخبار الأدوات الناسخة، مثل لفظ «أمّةً» في قوله سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، ولفظ «واقع» في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ والمفعول الثاني لظنّ وأخواتها، مثل «عَمْرًا» في قولك «ظننتُ **عَمْرًا** مجتهدًا»، والمفعول الثّالث لـ «أرى» وأخواتها، مثل «واضحًا» في قولك: «أَرَيْتُكَ الحقَّ واضحًا».

٦ ـ المصدرُ النائب عن فعل الأمر، كلفظ «صَبْرًا» في قولك: «**صَبْرًا** على نوائبِ الدّهرِ»، ولفظ «ضرْبًا»، في قولك: «**ضرْبًا** العدوَّ».

قصْدُ المخبرِ من إلقاء الخبر:

يقول السّكاكيُّ: «إن حُكْمَ العقلِ حالَ إطلاق اللّسان هو أن يُفرِغَ

المتكلّمُ في قالَبِ الإفادة ما ينطِقُ به تحاشيًا عن وصْمَة اللاّغية، فإذا اندفعَ في الكلام مُخْبِرًا لَزِمَ أن يكونَ قصْدُه في حُكْمِه بالمُسْنَدِ للمسندِ إليه في خبره ذَاكَ إفادتَه للمخاطب». ومهما يكن، فإنّ المُخْبِرَ يقْصِدُ بإلقائه الخبرَ على مُخاطَبِهِ واحِدًا من أمرين:

الأولُ - إعلامُ المخاطَبِ بِالحُكْم الذي تضمّنتْهُ الجملةُ الخبريّةُ حين يكون جاهلاً به. ويُسمّى هذا الحُكْمُ الذي يُقصَدُ إعلامُ المخاطَبِ به «فائدةَ الخبَر». كأن تقولَ لِمَنْ يجهلُ نجاحَ أخيه: «نجحَ أخوكَ». فأنتَ هنا تَقْصِدُ إعلامَه بالحُكْمِ الذي تضمّنه الخبرُ، وهو «نجاحُ أخيه». وكأنْ تقولَ لِمَنْ يجهل زمانَ قدومِك: «قدِمْتُ البارحةَ». وكلُّ خبَرٍ قصَدْتَ أن تُفيد فيه مخاطَبَك بحُكْم يجهلُه تكون قد قصَدْتَ فيه إفادتَه «فائدةَ الخبر». **وسُمّي هذا الحكمُ «فائدةَ الخبرِ»؛ لأنّه المقصودُ بالخبرِ المستفادُ منه.**

الثاني - إعلامُ المخاطَبِ أنّ المُخْبِرَ عالِمٌ بالحُكْم الذي دلّت عليه الجملةُ الخبرية، حين يكونُ المخاطَبُ عالِمًا بالحُكْمِ ولكنّه يجهل أنّ المتكلّمَ يعلَمُه أيضًا. كقولِكَ لِمَنْ حفِظَ القرآنَ الكريم: «قد حَفِظْتَ القرآنَ الكريم». وكأن تقولَ لِمَنْ حقّق نجاحًا كبيرًا في سباق الدرّاجات: «حقّقْتَ اليومَ نجاحًا كبيرًا». وكقولِكَ لِمَنْ أجهدَ نفسَه في عملٍ ما: «أجْهَدْتَ نفسَكَ». وأنتَ في هذه الأمثلة جميعًا تقصِدُ إفادَتَه أنّك عالِمٌ بالحُكْم، وهو «حِفْظُه القرآنَ الكريم»، و«تحقيقُه نجاحًا كبيرًا»، و«إجهادُ نفسه». **ويسمّى عِلْمُ المُخْبِرِ بالحُكْم «لازمَ الفائدة»؛ لأن كلَّ مَنْ أفدْتَه حُكْمًا لزِمَ أن تفيده أنّك عالمٌ به أيضًا.**

خروجُ الخبرِ عن الغرضَينِ السّابقين:

يحدُثُ ألاّ يكونَ قصْدُ المُخبِرِ إفادةَ المخاطَبِ الحُكْمَ الذي

تضمّنته الجملةُ الخبرية ولا إفادته عِلْمَ المتكلّم بهذا الحُكْم، بل يكون مرادُ المخبِر غرَضًا آخرَ يتبيّن من سياق الكلام، وتدلّ عليه القرائنُ. على أنّ أهمّ الأغراض التي يخرج إليها الخبَرُ:

١ ـ الاسترحامُ والاستعطافُ؛ كقوله سبحانه: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

٢ ـ تحريكُ الهمّة إلى أمرٍ يجب تحصيلُه. كقول القائل: «مَنْ سَعىٰ رعىٰ ومَنْ لزِمَ المنامَ رأى الأحلامَ».

٣ ـ إظهارُ الضّعفِ، كما في قوله سبحانه حكايةً عن زكريّا عليه السّلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

٤ ـ إظهارُ التحسّر على شيءٍ محبوب، كما في قوله سبحانه حكايةً عن امرأةِ عمرانَ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾. فأُمُّ مَرْيَمَ لا تُريدُ الإعلامَ بمضمون الخبر ولا بلازمه؛ لأنّها تخاطب الباريءَ ـ سبحانه ـ وهو تعالى عليمٌ بكلّ شيء؛ وإنما تريد التعبيرَ عن تحسُّرِها لخيبةِ رجائها في وِلادةِ ولَدٍ تَهَبُه لبَيْتِ المقْدِس.

٥ ـ الفرَحُ بمُقْبِلٍ والشَّماتةُ بمُدْبِرٍ، كما في قوله سبحانه: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

٦ ـ التّوبيخُ، كقولِكَ لمُسْلِمٍ تاركٍ للصّلاة: «الصّلاةُ عِمادُ الدِّين». فأنت لا تريد إعلامَه بمضمون هذا الخبر، وهو كونُ الصّلاة أساسَ الدين، فهو يعرف ذلك، بل تقْصِدُ تقريعَه على ترْكِه ما هو خليقٌ بأن يتمسّك به.

٧ ـ التّذكيرُ بما بين المراتبِ من التّفاوتِ، كقوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

ومنه قولي من قصيدة أتذكّرُ فيها بلدي «الرّقّة»:

لـيـسَ كـلُّ الـبُـلْـدانِ خَـلْـقًـا سـواءً   مِـثْـلَـمـا مـا الـزّمـانُ خَـلْـقٌ وحـيـدُ

٨ ـ التحذيرُ، كقول المصطفى عليه الصلاةُ والسّلام: «أبغضُ الحلالِ إلى اللهِ الطّلاقُ».

٩ ـ الفَخْرُ، كقولِ المصطفى عليه الصلاةُ والسلام: «إنّ اللّهَ اصطفاني من قُرَيْش».

١٠ ـ المَدْحُ، كقول الفَرَزْدَقِ أو غيرِهِ في مَدْحِ عليّ زين العابدين بنِ الحسين رضي الله عنهما:

يُغْضِي حياءً ويُغضىٰ مِنْ مهابَتِه   فـمـا يُـكـلَّـمُ إلّا وهـو يـبْـتَـسِـمُ

١١ ـ الحضُّ على الصَّبْر، كقولِكَ لِمَنْ لم يحقّق ما أرادَه: «الخيرُ فيما اختارَه اللّهُ». و«أنت شابٌّ في أوّلِ عُمُرِكَ».

١٢ ـ إظهارُ العَجْزِ، كقولهم: «العَيْنُ بصيرةٌ، واليدُ قصيرةٌ». و: «اللّهُ غالبٌ».

١٣ ـ التَّهديدُ.، كقولِهم: «أنا وراءَكَ والزّمنُ طويلٌ». و«يأتي الامتحانُ».

والصّحيح أنّ الأغراضَ التي يخرُجُ إليها الخبَرُ كثيرةٌ كثرةً بالغة، والمَرْجِعُ في إدراكها الذّوقُ الحسّاسُ المميِّز المدرِكُ لمجيء الصيغة الخبرية في غير إرادةِ إفادةِ مضمون الخبر أو لازمه.

أحوالُ متلقّي الخبرِ (المخاطَب):

اللّغةُ وسيلتُنا المثلى للاتصالِ بالآخرين وإعلامِهم بما نريد التّعبيرَ عنه من مقاصدِ الكلام المختلفة. وفي التواصل الكلاميّ هناك دائمًا ثلاثةُ عناصر أساسية:

المُرْسِلُ - الرّسالة - المتلقّي.

أمّا المُرْسِلُ فهو منشئُ الكلامِ أو المعبِّر بالكلام، الذي يرمي إلى إعلام المتلقي بما يريد.

وأمّا الرّسالةُ فهي المادّةُ الكلاميّةُ التي يوجّهها المرسِلُ إلى المتلقّي. وقد تبيّنّا أنّ قصْدَ المُخْبِرِ أحدُ أمرين: إفادة المتلقّي (المخاطب) مضمونَ الجملةِ الخبريّة «فائدة الخبر»، أو لازم هذا المضمون «لازم فائدة الخبر». والرّسالةُ أداةُ توصيل هذا القصْد.

وأمّا المتلقّي (المخاطب) فهو مَنْ يقصِدُ المُرْسِلُ توجيهَ الرسالة إليه. هذا المتلقّي ينبغي أن يفكِّر فيه المرسِلُ قبلَ أن يوجِّه كلامَه إليه، ويتبيّنَ موقفَه إزاءَ مضمونِ الخبر الذي يُلْقِيه إليه، ثم يصوغ خبرَه الموجَّه إليه صياغةً دقيقةً، على نحوٍ يكون فيه مكيَّفًا بكيفيّةٍ مخصوصة، كما يقول السكاكيّ، مناسِبةٍ لموقفه العقليّ إزاءَ الخبرِ الذي يلقيه إليه. إذ لكلّ مقامٍ مقالٌ، أو لكلّ حالٍ من أحوال المتلقّي مقالٌ مكيَّفٌ بكيفيّةٍ مخصوصةٍ من جانب المرسِل.

وقد تبيّن البلاغيّون أنّ المتلقّي (المخاطَب) إزاءَ الخبرِ الذي يُلقىٰ إليه واحدٌ من ثلاثة:

١ - أن يكون خالِيَ الذّهن تمامًا من الخبرِ غيرَ متردِّدٍ فيه ولا مُنْكِرٍ له.

٢ - أن يكون دارِيًا بالخبرِ متردّدًا فيه، طالبًا الوصولَ إلى اليقين فيه.

٣ - أن يكون مُنْكِرًا للخبرِ المرادِ إلقاؤه إليه معتقدًا عكسَ ما تُلْقِيه إليه.

وهذه - على الحقيقة - صُوَرٌ لِذِهْنِ متلقّي الخبر يتصوّرُ المرسِلُ أو المتكلِّمُ أنّ متلقّيَهُ على واحدةٍ منها. وهو يستشفّ ذلك استشفافًا أو يتراءى له من مقدّماتٍ أو قرائنِ أحوال.

أحوالُ متلقّى الخبرِ تحدّدُ صِيَغَ الخبرِ الملقىٰ إليه ـ أي: «لكلّ مقامٍ صيغةُ مَقَال»:

تبيّنّا في تعريف عِلْم المعاني ـ عند السّكاكيّ ـ أنّه عبارةٌ عن تتبّع خواصّ تراكيبِ البلغاء في الإفادة والاستحسانِ. وقد دلّ تتبّعُ تراكيبِ البلغاءِ وتراكيبِ البيان العالي في كتاب الله سبحانه على أنّ بعضَ التراكيبِ أكثرُ إفادةً وأكثرُ قبولاً عند المتلقّين في مقامات خاصةٍ وأحوال محدّدة. ويقول قانونُ عِلْمِ المعاني إنّ إفادةَ الكلام (بلاغتَه) وجماليّتَه تتوقّفانِ على مناسبته للمقامِ الذي يُقال فيه أو لحالِ متلقّيه. ولأنّ أحوال المتلقّي ثلاثٌ فإنّ صِيَغَ الخبرِ الملقىٰ إليه ثلاثٌ أيضًا؛ وتُختار له الصّيغةُ المناسِبةُ لحاله. وإليكَ توضيحَ الأمر:

١ ـ المتلقّي الخالي الذّهن من الخبَرِ، الذي لم يسمع به قبلُ، يُلقى عليه الخبرُ خاليًا من أدواتِ التأكيد؛ لعدم حاجته إلى التأكيد، فإنّ من طبيعةِ النفس أن تتلقّى الأخبارَ التي لا عِلْمَ لها بها بالقبول والتصديق. ولذلك قال الشاعِرُ:

أتاني هَواها قبْلَ أنْ أعرِفَ الهَوىٰ　　فصادفَ قلبًا فارِغًا فتمكّنا

مِثالُ ذلك قولُكَ لِمَنْ لا يعلم نجاحَ أخيه: «نجحَ أخوكَ». تُلقِي إليه الخبرَ هكذا خِلْوًا من التّأكيد. ومِثْلُه قولُه سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وقولُه سبحانه: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، وقولُه سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾. ويسمّىٰ هذا الضّربُ من الخبرِ **«الخبرَ الابتدائيّ»؛ لأنه الصّيغةُ اللّغويةُ، أو الكيفيّةُ اللّغويةُ المخصوصةُ المُطابِقةُ لحالِ متلقٍّ تَبْدَؤه بالخبرِ ابتداءً.**

٢ ـ المتلقّي المتردِّدُ في الخبر، الذي يطلُبُ الوصولَ إلى معرفتِه وتبيُّنِ حقيقتِه يُستَحْسَنُ أن يؤكَّد له الخبرُ الملقىٰ إليه بأداةِ تأكيدٍ واحدة؛ ليُزال التردّدُ من نفسِه ويُقوّىٰ الحُكْمُ في ذهنه. مِثالُ ذلك

قولُكَ لِمَنْ سمع بنجاح أخيه ولكنّه مترددٌ في تصديقه طالبٌ تبيُّنَ حقيقةِ الأمرِ: «قد نجحَ أخوكَ»؛ تُلقي إليه الخبرَ مؤكَّدًا بمؤكِّدٍ واحد هو «قد». وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾؛ فالجملة الأولى مؤكّدةٌ بـ «إنّ»، والثانية بـ «لام الابتداء». وكذا قولُه سبحانه: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾. ويسمَّى هذا الضَّرْبُ من الخبر «الخبرَ الطَّلَبيَّ»؛ **لأنّه الصِّيغةُ اللغويّةُ أو الكيفيّةُ اللغويّةُ المخصوصةُ المطابقةُ لحالِ متلقٍّ متردِّدٍ طالبِ معرفةِ الحقيقة.**

٣ ـ المتلقّي المُنْكِرُ للخبرِ المرادِ إلقاؤه إليه، المعتقِدُ خلافَه، يجب تأكيدُ الخبرِ له تأكيدًا يتناسب مع درجة إنكاره له؛ لإزالة هذا الإنكار. وذلك كقولِكَ لِمَنْ ترامى إليه نبأُ نجاحِ أخيه، فأنكر هذا النجاحَ معتقدًا رسوبَ أخيه لسببٍ من الأسباب: «إنَّ أخاكَ لناجحٌ»؛ تُلْقِي إليه الخبرَ مؤكَّدًا بمؤكِّدَيْن: «إنّ» و«اللام المُزَحْلَقة». ومِثْلُ ذلك قولُه سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، وقولُه سبحانه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ وقولُه سبحانه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ﴾. ويسمّى هذا الضَّرْبُ من الخبر «**الخبرَ الإنكاريَّ**»؛ **لأنّه الصِّيغةُ اللّغويّةُ، أو الكيفيّةُ اللّغويّة المخصوصةُ المطابقةُ لحالِ متلقٍّ منكرٍ لمضمونِ الخبر.**

وممّا يصوِّر لكَ تحديدَ أحوالِ المتلقّي لصِيَغِ الخبر الملقاةِ إليه ما رَوَوا مِنْ أنّ أبا إسحاقٍ الكِنْديّ مضى إلى أبي العبّاس المبرِّد أو غيرِه يسأله: «إنّي لأجِدُ في كلامِ العرب حَشْوا. فقال أبو العبّاس: أين وجدْتَ ذلك؟. قالَ: أجِدُهم يقولون: «عبدُ اللّهِ قائمٌ»، ثمّ يقولون: «إنّ عبدَ اللّهِ قائمٌ»، ثم يقولون: «إنّ عبدَ اللّهِ لقائمٌ»؛ فالألفاظُ مختلفةٌ والمعنى واحد. فأجاب أبو العبّاس: بل المعاني مختلفةٌ؛ فالأوّل إخبارٌ

عن قيامه، والثّاني جوابٌ عن سؤالِ سائلٍ، والثّالثُ جوابٌ عن إنكارِ مُنْكِرٍ؛ فقد اختلفتِ الألفاظ لاختلاف المعاني. فما أحار الكنديّ جوابًا».

وهكذا نخلصُ إلى القانون البلاغيِّ الحاسمِ الذي يُعْلِنُ:

يجبُ أن يأتيَ الإسنادُ في الجملةِ الخبريّة مطابقًا لحالِ المتلقّي:

خاليًا من التأكيدِ للمتلقّي الخالِي الذهن.

مقوًى بمؤكِّدٍ واحدٍ للمتلقّي المتردِّد.

مؤكَّدًا بأكثرَ من مؤكِّدٍ للمتلقّي المنكِر.

ويسمّي البلاغيونَ إخراجَ الكلامِ على الوجوهِ المذكورة إخراجًا للكلامِ على مقتضى ظاهر الحال. وقد يخرُج الكلامُ على خلاف هذا المقتضى، كما سيأتيكَ.

إخراجُ الكلام على خلافِ مقتضى الظاهر:

ينبغي أن يُعْلَم أنّ المرسِلَ (المتكلِّم) قد يصرِفُ النّظرَ عن ظاهر حال المتلقّي ويراعي أمرًا آخر غيرَ ما ظهرَ له من حال المتلقّي لسببٍ من الأسباب. والأسبابُ التي يلحظها المتكلِّمُ في المتلقّي، وتجعله يُخْرِجُ كلامَه له على خلافِ مقتضى الظاهر، أساسُها دائمًا تصرّفُ المتلَقي تصرّفًا يخالِفُ مقتضى عِلْمِه بالخبر. فإنّ تردّدَ المتلقّي في مضمون الخبرِ أو إنكارَه له يترتّب عليه تصرّفٌ لائقٌ أو مناسِبٌ لكلٍّ منهما؛ أي إنّه ينبغي أن يعْمَل بمُقتضى عِلْمِه. ولكنّه ربّما لا يعملُ بمقتضى هذا العِلْمِ فيُلقي إليه المتكلِّمُ خبرَه على خلافِ مقتضى حاله؛ أي يعامله على أَساس تصرّفِه لا على أساس عِلْمه. ويقول البلاغيون: إنّ كمالَ العِلْمِ بمضمون الخبرِ حصولُ مقتضاه، فإذا لم يحصُلْ لم يحصل كمالُ العِلْم. وخيْرُ ما يصوّرُ لنا ذلك قولُ المصطفي عليه

الصّلاة والسّلام لابن عبّاس: «يا ابنَ عبّاس، عَرَفْتَ فالزَمْ»؛ فالمعرفةُ ـ أو العِلْمُ ـ تقتضي اللّزومَ أي التنفيذَ لمقتضاها؛ وإن لم يعملِ العالِمُ بما عَلِم عُدّ جاهِلاً، ويُعامَلُ في الخطابِ معاملةَ الجاهل.

ويتّخذ إخراجُ الكلام على خلاف مقتضى الظاهر صورًا متعددّة، إليكَ القولَ في أهمِّها:

١ ـ تنزيلُ العالِم بفائدةِ الخبر أو بلازمِها، أو بهما معًا، منزلةَ الجاهلِ بذلك؛ لعدمِ عمَلِه بمتقضى عِلْمه، كقولِكَ لطالبٍ يعرفُ قُرْبَ موعدِ الامتحان ولا يستعِدُّ لذلك: «الامتحانُ على الأبواب». عَرَفَ ولم يعملْ بمقتضى ما عرفَ فَنَزَّلْتَه منزلةَ مَنْ لم يعرف، وألقيتَ عليه الخبرَ رغم معرفته له؛ توبيخًا له وتقبيحًا لِمَسْلَكِه. وكقولِكَ لِمَنْ يعترض على إسرافِك في الإنفاق: «المالُ مالي». وكقولِكَ لِمَنْ يلومُك على البكاء على عزيزٍ: «الدّمعُ دمعي والعيونُ عيوني». ومن تنزيلِ العالم بلازم فائدة الخبر منزلةَ الجاهلِ أنّ صديقًا لكَ ساعدَك في أمرٍ فشكرْتَ له صنيعَه، لكنّ ذلك الصديقَ المُحْسِنَ دأبَ على إخبار الآخرين بمساعدته إياكَ. إذْ ذاكَ تقولُ له: «ساعَدْتَني، أوقّعُ لك بالعَشَرة». فمقتضى الظاهرِ ألاّ تُلقيَ إليه الخبر البتّة لعِلْمِه به، ولكنّه عندما لم يعمل بمقتضى ما عَلِمَ أحوجَك إلى أن تُنَزّلَه منزلةَ الجاهل توبيخًا وتقريعًا.

٢ ـ تنزيلُ الخالي الذّهنِ منزلَةَ السّائلِ المتردِّد، إذا تقدّم في الكلام ما يُشير إلى جِنْسِ الخبر، كقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾. جاء الخبرُ مؤكّدًا رغم أنّه موجّهٌ إلى خالي الذهن الذي لا ينبغي أن يؤكَّد له الخبر. ومبعثُ هذا الإخراجِ للكلام على خلاف مقتضى الظاهر أنّه تقدّم فيه ما يلوّح لخالي الذهن هذا بالخبرِ ويومىء له إليه، وهو قوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾. ومن ثَمّ صار المتلقّي الخالي الذهنِ يتطلّع إلى هذا الخبر تطلّعَ الطّالبِ له المتردِّدِ

بشأنه المتسائِل: لِماذا لا يبرّىء نفسَه، وهل لذلك من سبب؟ ومِثْلُه أيضًا قولُه سبحانه في خطابِ نُوحٍ عليه السّلامُ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴾. لَمّا أمَرَ الباريءُ ـ سبحانه ـ نبيَّه أولاً بصُنْع الفُلْكِ، ونهاه ثانيًا عن مخاطبته بالشفاعة فيهم، صار نوحٌ ـ عليه السلام ـ في مقام السّائل المتردّد، وإن لم يكن سائلاً متردِّدًا حقيقةً، وأُخْرِج له الخبَرُ مؤكَّدًا هكذا: «إنَّهم مُغرقون» على خلاف مقتضى الظاهر. ومنه أيضًا قولُه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾. وقولُه سبحانه: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾.

٣ ـ تنزيلُ غيرِ المُنْكِرِ منزلةَ المنكِرِ إذا لاح عليه شيءٌ من أمارات الإنكار، كقولِكَ لِمَنْ يؤذي جارَه: «إنّ فلانًا لَجارُكَ». فهو عالِمٌ بذلك غيرُ منكرٍ له ولكنّ سلوكَه إزاءَ جاره سلوكُ المنكِرِ، فخوطب بالكيفيّة اللّغويّة المخصوصةِ المطابقةِ لِحالِ المنكِر. ومنه في الذّكر الحكيم قولهُ سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾. أكّد إثباتَ الموتِ تأكيدَيْن وإن كان ممّا لا يُنكِرُه أحدٌ؛ وذلك لتنزيل المخاطَبينَ منزلةَ من ينكِرُ الموتَ إنكارًا شديدًا لتماديهم في الغَفْلة وعدمِ الإعداد لما بعدَ الموتِ؛ ومن ثَمّ أُخْرِجَ لهم الكلامُ على خلاف مقتضى الظاهر. وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا ﴾، وقوله سبحانه في خطابِ المصطفى عليه الصلاةُ والسلام: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾.

ومنه في الشّعر قولُ حَجَل بن نَضْلةَ القيسيّ (وهو من أولاد عمّ شقيق):

جـاءَ شـقِـيـقٌ عـارِضًـا رُمْـحَـه   إنّ بـنـي عـمّـكَ فـيـهـم رِمَـاحْ

فإنّ هيئة مجيءِ شقيقٍ مُظْهِرًا شجاعتَه، قد وضَعَ رُمْحَه عَرْضًا

كَفِعْل مَنْ لا يُقيم أيَّ وزنٍ لِمَنْ همْ أمامَه من الفرسان، دليلٌ على أنّه يعتقد أنَّ لا رمحَ فيهم، بل كلُّهم عُزْلٌ لا سِلاَحٌ معهم. وجليّ أنّه لا يُنْكِرُ حقيقةَ أنّ في بني عمّه رماحًا، لكنّ مجيئَه على هذه الصورة يوحي بذلك. ومن ثمّ عومِلَ على أساسِ منظره لا على أساس مَخْبَرِه؛ فخُوطِبَ مخاطبةَ المُنْكِرِ؛ حيث أُكِّد له القول بـ «إنّ».

وكذا قولُ طَرَفةَ بنِ العَبْد:

لَعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى   لَكَالطِّوَلِ المُرْخىٰ وثِنْياهُ باليدِ

٤ ـ تنزيلُ المتردِّد في الخبر منزلَةَ المنكِرِ، كقولك لِمَنْ يتردّد في مجيء أخيه من السفر، ولكنّه يرجِّح عدمَ مجيئه: «إنّ أخاكَ لقادمٌ». ألقيتَ إليه صورةَ الخبر التي تُلقىٰ إلى المنكِر، رغم أنّه غيرُ منكِر بل متردِّدٌ فحسبُ؛ لأنّه يرجِّح عدمَ مجيء أخيه، فصار بمنزلة المُنْكِر لمجيئه.

٥ ـ تنزيلُ المنكِر منزلةَ المتردّد، كقولك لِمَنْ ينكِرُ فضْلَ العِلْم: «إنّ العِلْمَ نافعٌ». ألقيتَ إليه صورةَ الخبر المناسبةَ للمتردّد رغم أنّه منكِر؛ لأنّ إنكاره ضعيفٌ يزول بأدنى تأكيد.

٦ ـ تنزيلُ المنكِر منزلةَ خالي الذّهن حين يكون أمامه من الأدِلّة ما لو تأمّله لتركَ الإنكارَ، كقوله سبحانَه مخاطِبًا مُنْكِرَ الوحدانيّة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أُلقِيتْ إلى المنكِرينَ صورةُ الخبرِ المناسبةُ لخالي الذهن (الخلوّ من التأكيد) لكثرة الأدلّة الماثلة أمامَ المنكرين على هذه الوحْدانيّة، التي لو كان منهم أدنى تأمّل لها لعزفوا عن إنكارهم. ومن هذا قولُه سبحانه يخاطب المؤمنين والمنكرين: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وقولُه سبحانه: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

إضافات وفوائد:

١ ـ يعني التّوكيدُ في المقام الذي نحن فيه تمكينَ الحُكْم في النّفس وتقريرَه وتقويتَه، على نحوٍ يُزيلُ شكّ المخاطب فيما تُخبِرُه إيّاه، ويجعله أكثر اطمئنانًا إلى ما تُلقيه عليه. والتّوكيدُ المرادُ هنا هو توكيد الحُكْم، لا توكيد المسند إليه ولا توكيد المسند.

٢ ـ يؤكّدُ الحُكْمُ الذي تؤدّيهِ الجملةُ الاسميّةُ بـ «إنّ» أو بـ «إنّ واللاّم»، أو بـ «إنّ واللاّم والقَسَم»، تقول: «إنّهُ أخي، إنّه لأَخي، واللّهِ إنّه لأخي». ويؤكّدُ الحُكْمُ الذي تؤدّيه الجملةُ الفعلية بـ «قد» أو بـ «قد والقَسَمِ». تقول: قد أثارني حديثُك أمسِ، ولقد أثارني حديثُك أمس.

٣ ـ أشهَرُ أدواتِ التوكيد هي: إنَّ، أنَّ، لامُ الابتداء، نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة، القَسَمُ، أمّا: حرفُ الشَّرْط والتّفصيل، أحرفُ التنبيه، أحرفُ الزّيادة، ضميرُ الفَصْل، تقديمُ ما هو فاعلٌ في المعنى كقولِكَ: أحمدُ يدرِّس اللغةَ العربية، السّينُ وسَوْفَ الدّاخلتانِ على فعلٍ في مقام وَعْدٍ أو وعيدٍ، قد التحقيقيّة، تكرير الفعل، إنّما.

٤ ـ الجملةُ الاِسْميّةُ آكدُ من الجملة الفعليّة، فحين يُرادُ الإخبارُ وحْدَه يُؤتىٰ بالفعليّة، وحينُ يُرادُ التّأكيدُ يُعْمَدُ إلى الاسميّة وحْدَها، أو مع غيرها حسبَ درجةِ الحاجة إلى التّأكيد.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول أغراض الخبر:

- حدِّدْ غرَضَ الخبَرِ فيما يأتي:

١ ـ هناءً محا ذاكَ العزاءَ المُقدَّما فمَا عَبَسَ المحزونُ حتّى تبسَّما

٢ ـ أُصِبْتُ بسَادةٍ كانُوا عُيُونًا بِهِمْ نُسْقَى إذا انقطعَ الغَمامُ

٣ ـ إلهي، عبدُكَ العاصي أتاكا مُقِرًّا بالذنوبِ وقد دعاكا

٤ ـ الباطلُ مخصومٌ وإن قُضِي له، والحقُّ مُفْلِجٌ وإن قُضي عليه.

٥ ـ أ ـ أنتَ نَجحْتَ (لِمَنْ يعلمُ ذلك). ب ـ أخوكَ نجح (لِمَنْ لا يعلم). جـ ـ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾.

٦ ـ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٧ ـ ذهبَ الشّبابُ فمَا لَهُ من عَوْدةٍ وأتى المشيبُ فأينَ مِنْهُ المَهْرَبُ

٨ ـ أ ـ قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحْسِنُ، ب ـ الجزاءُ من جنسِ العمل.

٩ ـ ذهبَ الذينَ يُعاشُ في أكنافِهِمْ وبقيتُ في خَلْفٍ كجِلْدِ الأجرب

١٠ ـ أ ـ لا يستوي كَسْلانُ ونشيطٌ. ب ـ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾. جـ ـ الشّمْسُ طالعةٌ (تُقالُ لِلْعَاثِرِ).

الإجابات:

١ ـ الفرَحُ بالمُقْبِل ونسيانُ المدبر.

٢ ـ التأسّفُ والتحزّن على فِقْدانِ أولئك السّادة.

٣ ـ الخشوعُ والضَّعْف.

٤ ـ التنشيطُ وتحريكُ الهِمّة نَحْوَ مجانبةِ الباطلِ والتزامِ جادّة الحقّ.

٥ ـ أ ـ إفادةُ المخاطَبِ لازِمَ الحُكْمِ. ب ـ إفادةُ المخاطَبِ حُكْمَ الخبر. جـ ـ إِفادةُ المخاطَبِ حُكْمَ الخبَرِ.

٦ ـ تهديدُ المخاطَبِ على ما يرتكبه من المظالم.

٧ ـ التأسّفُ والتحسّرُ على الشّبابِ الذاهب.

٨ ـ أ و ب ـ التنشيطُ وتحريكُ الهِمّة نحْوَ العملِ الصالح.

٩ ـ التأسّف والتحسّر على ما فات.

١٠ ـ أ ـ التذكيرُ بِمَا بينَ المراتبِ من التفاوت. ب ـ وَعْظُ المخاطَبِ وإرشادُه. جـ ـ توبيخُ المخاطَبِ على عَثْرته في وضَح النهار.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول نوع الخبر (١):

ـ حدِّدْ فيما يأتي نوعَ الخبر، وبيِّن ما جرى من الأخبار على مقتضى الظاهر وما جرى على خلافه، واذكرْ المؤكِّد إن كان موجودًا:

١ ـ قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

٢ ـ وإنّي لَحُلْوٌ تَعْتَرِينِي مرارةٌ   وإنّـي لـتـرّاكٌ لِـمَـا لَـمْ أعـوَّدِ
وإنّي لمِزْجاءُ المَطِيِّ على الوَجىٰ   وإنّـي لـتـرّاكُ الـفِـراشِ الـمُـمَـهَّـدِ

٣ ـ وما أبرِّىءُ أخي؛ إنّ ابنَ آدمَ خطّاءٌ.

٤ ـ يا طالبَ الرِّزْقِ في الآفاقِ مُجْتِهدًا   اِقْـصِـرْ عَـنـاكَ فـإنّ الـرّزقَ مـقـسـومُ

٥ ـ إنّ القِمارَ لَرِجْسٌ (في خطابِ مُسْلِم).

٦ ـ لا تراوغْ في الحَقّ؛ إنّ المُبْطِلَ مخذولٌ.

٧ ـ ما إنْ نَدِمْتُ على سُكُوتِيَ مرّةً   ولـقـدْ نَـدِمْـتُ عـلـى الـكـلامِ مِـرَارا

٨ ـ وإنيَ لصَبّارٌ على ما ينوبُني   وَحَسْبُكَ أنّ اللّهَ أثنى على الصَّبْرِ

٩ ـ إنّ شِفاءَكَ لَقَرِيبٌ إنْ شاء اللّهُ (لِمَريضٍ تردَّدَ في شفائه).

١٠ ـ فَمَا الحَداثةُ عن حِلْمٍ بمَانِعةٍ   قد يوجَدُ الحِلْمُ في الشُّبّانِ والشِّيبِ

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ نوع الخبر (٢):

ـ حدِّدْ فيما يأتي نوعَ الخبَرِ، وبيِّنْ ما جرى من الأخبار على مقتضى ظاهرِ الحَال وما جرى على خلافه، واذكر المؤكِّد إن كان موجودًا:

١ ـ إنَّ الغَنِيَّ مِنَ الرِّجالِ مُكَرَّمٌ   وتَراه يُرجَىٰ ما لَدَيْهِ ويُرْغَبُ

٢ ـ إنّ الحياةَ لَثَوْبٌ سَوْفَ نَخْلَعُهُ   وكلُّ ثوبٍ إذا ما رثَّ ينْخَلِعُ

٣ ـ قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

٤ ـ قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾.

٥ ـ أَمَا دونَ مِصْرٍ للغِنىٰ مُتَطلَّبُ   بلى إنّ أسبابَ الغِنى لَكَثِيرُ

٦ ـ قال عليه الصّلاةُ والسّلام: «إنّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا وإنّ من الشِّعْرِ لَحِكْمةً أو حُكْمًا».

٧ ـ ألاَ في سبيلِ المَجْدِ ما أنا فاعِلُ   عَفافٌ وإقدامٌ وحَزْمٌ ونائِلُ

٨ ـ قال سبحانه: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٩ ـ وإنيّ لَقوّالٌ لِذِي البَثِّ مرْحَبا   وأهْلاً إذا ما جاءَ مِنْ غيْرِ مَرْصَدِ

١٠ ـ ولقَدْ نَصَحْتُكَ إنْ قبِلْتَ نصيحتي   والنُّصْحُ أغلى ما يُباعُ ويوهَبُ

* * *

إجابات الأسئلة (١)

الجملة	نوع الخبر	المؤكّدات	نوع جريان الخبر: على مقتضى الظاهر أو على خلافه
١ ـ ﴿ولكم في القصاص حياة﴾	ابتدائيّ		جارٍ على مقتضى ظاهر الحال.
٢ ـ وإنّي لحلوٌ...	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال، بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر.
ـ وإنّي لتزاكٌ...	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال، بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر.
ـ وإنّي لمزجاء...	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال، بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر.
٣ ـ وما أبرىء أخي، إنّ..	طلبيّ	إنّ	جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال بتنزيل خالي الذهن منزلة المتردد.
٤ ـ اقصر عناك؛ فإن الرزق..	طلبيّ	إنّ	جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال بتنزيل خالي الذهن منزلة المتردد.
٥ ـ إنّ القِمارَ لرجسٌ (لمسلم)	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل العالم بالحكم منزلة المنكر.
٦ ـ لا تراوغ في الحق، إنّ المبطل.	طلبيّ	إنّ	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل الخالي الذهن منزلة المتردد.
٧ ـ ما إن ندمتُ...	طلبيّ	إنْ الزائدة	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل الخالي الذهن منزلة المتردد.
ـ ولقد ندمتُ...	إنكاريّ	لام القسم ـ قد	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بسريل الخالي الذهن منزلة المنكر.
٨ ـ وإنّي لصبّارٌ...	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر.
٩ ـ إنّ شفاءكَ لقريب	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل المتردّد منزلة المنكر.
١٠ ـ فما الحداثة، بمانعةٍ	طلبيّ	الباء الزائدة	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل خالي الذهن منزلة المتردّد.

إجابات الأسئلة (٢)

الجملة	نوع الخبر	المؤكِّدات	نوع جريان الخبر: على مقتضى الظاهر أو على خلافه
١ ـ إنّ الغنيّ.. مكرمٌ	طلبيّ	إنّ	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل خالي الذهن منزلة المتردّد.
ـ وتراه يرجى...	ابتدائيّ		جارٍ على مقتضى ظاهر الحال
٢ ـ إنّ الحياةَ لثوب	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر.
ـ وكلّ ثوبٍ.. ينخلع	ابتدائيّ		جارٍ على مقتضى ظاهر الحال.
٣ ـ «ثمّ إنّكُم.. لميّتون»	إنكاريّ	إنّ، لام الابتداء	جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال بتنزيل العالم منزلة المنكر لغفلتهم عن الموت.
٤ «وجعلنا.. وجعلنا..»	طلبيّ	تكرير «جعل»	جارٍ على غير مقتضى ظاهر الحال بتنزيل خالي الذهن منزلة المتردّد.
٥ ـ إنّ أسباب الغنى لكثيرٌ	إنكاريّ	إنّ، اللام	جارٍ على مقتضى ظاهر الحال؛ لأنه في خطاب متردّد.
٦ ـ إنّ من البيان لسحرًا	إنكاريّ	إنّ، اللام	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر.
ـ وإنّ من الشعر لحكمةً	إنكاريّ	إنّ، اللام	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل غير المنكر منزلة المنكر.
٧ ـ ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل	طلبيّ	ألا	يحتمل الجريانَ على المقتضى ومخالفته.
٨ ـ لَئِنْ أنجيتَنا.. لنكونَنّ	إنكاريّ	لام القسم ـ لام التوكيد ـ نون التوكيد	يحتمل الجريانَ على المقتضى ومخالفته.
٩ ـ وإنّي لقوّالٌ...	إنكاريّ	إنّ، اللام	جارٍ على غير مقتضى الظاهر بتنزيل خالي الذهن منزلة المنكر.
١٠ ـ ولقد نصحتُك...	إنكاريّ	لام القسم ـ قد	يحتمل الجريانَ على المقتضى والمخالفة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحثُ الثاني

أحوالُ المسندِ إليه

ويتضمَّن:

أولًا - حذفُ المسند إليه.

ثانيًا - ذِكْرُ المسندِ إليه.

ثالثًا - تعريف المسند إليه:

١ - إيراد المسند إليه ضميرًا.

٢ - إيراده عَلَمًا.

٣ - إيراده اسمَ إشارةٍ.

٤ - إيراده اسمًا موصولاً.

٥ - إيراده معرّفًا بـ «أَلْ».

٦ - إيراده معرّفًا بالإضافة.

رابعًا - تنكيرُ المسندِ إليه..

خامسًا - تقييدُ المسندِ إليه:

١ - إيرادُ المسند إليه متبوعًا بوصْفٍ.

٢ - إيراده مؤكَّدًا.

٣ - إيراده مُبْدَلًا منه.

٤ - إيراده متبوعًا بعَطْفِ بَيانٍ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٥ ـ إيراده متبوعًا بعطفِ نَسَقٍ.

٦ ـ إيراده مُعْقَبًا بضميرِ فَصْلٍ.

سادسًا ـ تقديمُ المسندِ إليه.

سابعًا ـ تأخيرُ المسندِ إليه.

ثامنًا ـ تخريجُ الكلامِ على خلاف مقتضى الظاهر في المسند إليه:

١ ـ وَضْعُ المُضْمَرِ موضِعَ المُظْهَرِ.

٢ ـ وَضْعُ المُظْهَرِ موضِعَ المُضْمَرِ.

تاسعًا ـ تخريجُ الكلامِ على خلاف مقتضى الظاهر في غير المسند إليه:

١ ـ الالتفاتُ.

٢ ـ أسلوبُ الحكيم.

٣ ـ القَلْب.

٤ ـ التعبيرُ عن المستقبلِ بلفظ الماضي.

٥ ـ التعبيرُ عن الماضي بلفظ المستقبل.

٦ ـ مخالفةُ السّياق في صِيَغ الأفعال.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أولًا ـ حَذْفُ المسندِ إليه:

المُسْنَدُ إليه أحدُ ركنَي الجملةِ الاساسيّين، بل هو الرّكنُ الأعظمُ الذي يؤسَّس عليه أيُّ كلامٍ ذي دِلالة. ولمَّا كان مدارُ حُسْنِ الكلام وقُبْحِهِ ـ كما يقول السّكاكيّ ـ على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعدم انطباقه عليه، آثرتْ أساليبُ البُلَغاءِ طيَّ ذِكْرِ المسند إليه في الأحوال والمقامات التي تقتضي ذلك. وقد نبّه عَبْدُ القاهِرِ على جمالية الحَذْف هذه فقال: «إنّهُ لعجيبُ الأمرِ شبيهٌ بالسِّحْرِ؛ فإنّك ترى به تَرْكَ الذِّكْرِ أفْصَحَ من الذِّكْرِ، والصَّمْتَ عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتَجِدُكَ أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطِقْ، وأتمَّ ما يكون بيانًا إذا لم تُبِنْ». **ومهما يكن، فإنّك ينبغي أن تكونَ على ذِكْرٍ من أنّ المسندَ إليه يُحْذَفُ لأغراضٍ كثيرة، نذكرُ لَكَ منها:**

١ ـ الاحتراز عن العَبَث بناءً على الظّاهر؛ لدلالة القرينةِ عليه وعِلْمِ السامع به. كأن تقولُ: «حَضَرَ» تريد «الأميرَ»، إن كان ثمّة قرينةٌ لفظيّةٌ أو حاليّة تدلّ على ذلك. وتقول العَرَبُ: «أَرْسَلَتْ»، وهم يريدون «جاء المطرُ»، ولا يذكرون السّماءَ، ولكنّهم لا يقولون هذا إلاّ إبانَ سُقوطِ المَطَر. ومن ثمّ فإنّ قرينةَ الحالِ هي الدّالةُ على المحذوف؛ ولدِلالتها عليه يكونُ ذِكْرُه عَبَثًا.

٢ ـ تخييل العدولِ إلى أقوى الدّليلَيْن من العقل واللفظ. ويعني ذلك أنّه يُعْتَمَد في تعرّف المسندِ إليه إمّا على اللّفظِ وذلك حين يُذْكَرُ، وإمّا على العقل وذلك حين يُحْذَفُ، لكنَّ دلالة العقل أقوى من دلالة اللفظ، ولذلك يَعْمِدُ البلغاءُ أحيانًا إلى حذف المسند إليه لإيهام أنّ العَقْلَ هو الدّالّ عليه. وذلك كما تقول: «استُشْهِدَ»، وأنت تريدُ

«المُجاهِد»، إذا كانت هناك قرينةٌ تدلّ على أنّ الذي استُشْهِد هو «المجاهد». وكما تقول «طَيِّبٌ»، وأنت تريد «صديقك»، إذا كانت هناك قرينةٌ تدلّ على أنّ مَنْ وَصَفْتَه بهذه الصفة هو «الصّديق».

٣ ـ ضِيقُ المَقام عن إطالة الكلام بسبب ضَجَرٍ أو سآمةٍ، كقوله سبحانه:

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، لم تَقُلْ: «أنا عجوزٌ»؛ لِمَا تُحِسّه مِنْ ضِيقِ الصّدْر وصعوبةِ إطالةِ القول؛ لتذكّرها ما هي عليه مِنَ العُقْم والكِبَر. ومن هذا قولُ الشاعر:

قالَ لِي: كَيْفَ أنتَ؟ ـ قلتُ: عَلِيلُ ... سَهَرٌ دائِمٌ وحُزْنٌ طَوِيلُ

لم يقُلِ الشّاعرُ: أنا عليلٌ وحالي سَهَرٌ دائم؛ لِضيق صَدْرِه عن الإطالة بسبب الهُمومِ التي استولت عليه أو تَبَاريحِ الهوى التي استبدّت به.

٤ ـ الحذَر من فَواتِ فُرْصَةٍ، كما يقول رجلٌ لصائدٍ: «غزالٌ» يريد: «هذا غزالٌ؟» حذَفَ المسندَ إليه «هذا»؛ مخافةَ فواتِ الفرصة بإطالة الكلام. وكقولِكَ لِمَنْ يقِفُ على سكّة الحديد والقِطارُ قادمٌ: «قِطارٌ»؛ أي: «هذا قطارٌ».

٥ ـ اختبار تنبّه السّامعِ إلى المسند إليه عند قيام القرينة الدالّة عليه، كقولِكَ: «نورُه مُستفادٌ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ» تريد القمرَ، وكقولِكَ: «قاهِرُ الصَّلِيبيّينَ»، تريد: «صلاح الدِّين الأيوبي»، وكقولِكَ: «كَيْدُهنّ عظيمٌ»، تريد: النساءَ.

٦ ـ إشعارُ أنّ في تَرْكِه تطهيرًا له عن لسانِكَ أو تطهيرًا لِلِسانكَ عنه. والأولُ كقولِكَ: «رافِعُ رايةِ التّوحيدِ»، و«هادِمُ دعائِم الشّرْكِ»، تريدُ المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام. وقد حذفْتَه من لفظِكَ صَوْنًا له عن لسانِكَ؛ تعظيمًا له. والثّاني كقولِكَ: «مخذولٌ مطرودٌ»، و«لَعنَهُ اللّهُ»، تريدُ «إبليسَ اللّعين»، وقد حذفْتَه صَوْنًا لِلِسانكَ عنه؛ تحقيرًا له.

٧ ـ تأتي الإنكارِ وتيسُّره عندَ الحاجة؛ كأَنْ يحضُرَ إليك جماعةٌ بينَهم واحِدٌ خصْمٌ لَكَ، فتقول لشَخْصٍ آخرَ يجلس معك: «لئيمٌ خَسِيسٌ» تريد «الخَصْمَ». حذفْتَ المسندَ إليه ليتيسّر لك الإنكارُ عندما يلومُك على سبِّه؛ إذ تقول: «ما عَنَيْتُك، بل أردتُ شخصًا آخر».

٨ ـ تعيُّن المسندِ إليه، ويتعيّن في الحالات الآتية:

أ ـ ألّا يصلُحَ المُسْنَدُ إلّا للمُسْنَدِ إليه، كقوله سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾. «عالِمُ» خبَرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه هو؛ ولأنّ هذا الخبرَ لا يكون إلاّ له سبحانه جاء الكلامُ على الحذف. وفي ذلك قوّةُ دِلالةٍ على الوَحدانّية والجلال. وكقوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

ب ـ أن يكون المسْنَدُ كامِلاً في المسند إليه، كقولك: «دينُ التّوحيد»، تريد الإسلامَ، و«فيلسوفُ الشعراءِ»، تريد المَعَرّيَّ، و«هادمُ اللّذّاتِ»، تريدُ الموتَ، حذفْتَ المسندَ إليه في المواضع الثلاثة لتعيُّنِهِ من خلال اكتمال الصِّفات المذكورة فيه.

جـ ـ أن يكون المُسْنَدُ إليه معهودًا بين المتكلّم والمتلقّي، كقوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ أي السفينة، وهي معهودة في الكلام المتقدِّم في قوله سبحانه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي الشمس.

٩ ـ ادّعاء تعيُّنِ المُسْنَدِ إليه، كقولِكَ: «وهّابُ الألوفِ»، تريد «الأميرَ». حذَفْتَ المسندَ إليه لتعيّنه أي تفرُّده بهذا الفعل «وَهْبِ الألوف» ادّعاءً لا حقيقةً؛ لأنّ غيره من أفراد الشعب يمكن أن يفعل ذلك. ومنه قولُه سبحانه حكايةً عن ملأ موسى عليه السلام: ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾؛ أيْ هذا ساحِرٌ كذّاب. وهم يريدون بهذا الحذفِ

الزّعْمَ أنّ قولَهم «ساحِرٌ» لا يُفْهَمُ منه حينَ يُطْلَق إلّا موسى عليه السلامُ؛ ادّعاءً لتعيّنه بهذه الصفة.

١٠ ـ تعجيلُ المسرّةِ بالمُسْنَدِ، كقولك: «دِينارٌ» أي هذا دينار. وقولك: «ناجِحٌ» أي: أنا ناجحٌ.

١١ ـ اتّباعُ الاستعمالِ الوارِدِ على تَرْكِ نظائره لقَصْد إنشاء المَدْح أو الذمّ أو الترحُّم، كقولِهِمْ في المَدْح: «الحَمْدُ لِلّه أهلُ الحَمْدِ» برفع «أهل»؛ أي: هو أهلُ الحَمْدِ. وفي الذمّ: «أعوذُ باللّهِ من الشّيطانِ الرّجيمُ» برفع «الرّجيم»؛ أي: هو الرّجيم. وفي التّرحُّم: «اللّهمّ ارحمْ عبْدَكَ المِسْكينُ» برفع «المسكين»؛ أي: هو المِسْكينُ. ومنه لإنشاء المَدْح قولُ الشّاعرِ:

هُمْ حَلُّوا مِنَ الشَّرَفِ المُعَلّىٰ ... ومِنْ كَرَمِ العَشِيرةِ حيثُ شاؤوا
بُناةُ مكارمٍ وأُساةُ كَلْمٍ ... دِماؤهُمُ مِنَ الكَلَبِ الشِّفاءُ

أي: هم بناةُ مكارم.

ومنه لإنشاءِ الذمّ قولُ الأُقَيْشِر في ابن عمّ له مُوسِرٍ سأَلَه فمنعه، فشكاه إلى القومِ وذمّه فوثب إليه ابنُ عمّه ولَطَمهُ:

سريعٌ إلى ابنِ العَمّ يلطِمُ وجْهَهُ ... وليسَ إلى داعي النّدى بِسَريعِ
حريصٌ على الدّنيا مُضِيعٌ لِدِينِهِ ... وليسَ لِمَا في بَيْتِهِ بمُضيعِ

أي: هو سريعٌ وهو حريصٌ.

وكثيرًا ما يحذفون المبتدأ بعد أن يذكروا الدِّيارَ والمنازِلَ، فيقولون: رَبْعٌ كذا وكذا. قال حسّانُ بنُ ثابت:

عَفَتْ ذاتُ الأَصابِعِ فالجِواءُ ... إلى عذراءَ مَنْزِلُها خَلاءُ
دِيارٌ مِنْ بني الحَسْحاسِ قَفْرٌ ... تُعَفّيها الرّوامِسُ والسّماءُ

أي: هي ديارٌ.

وقال الآخرُ:

اعتادَ قلبَكَ من ليلى عوائِدُهُ وهاجَ أهواءَكَ المكنونةَ الطَّلَلُ
رَبْعٌ قَواءٌ أذاعَ المُعْصِراتُ بهِ وكلُّ حيرانَ سارٍ ماؤُهُ خَضِلُ

أي: هو رَبْعٌ قَواءٌ؛ أي خالٍ.

يقول عبدُ القاهرِ عن هذا الضَّرْبِ من حذفِ المبتدأ:

«ومِنَ المواضعِ التي يطَّرِدُ فيها حذفُ المبتدأِ القَطْعُ والاستئنافُ؛ يبدؤون بذِكْرِ الرّجُلِ ويقدّمون بعضَ أمرِه، ثمّ يدَعون الكلامَ الأوّلَ ويستأنفون كلامًا آخرَ، وإذا فعلوا ذلك أَتَوا في أكثرِ الأمر بخبرٍ من غير مبتدأ». وعن جماليّةِ الحَذْف في هذا الموضع والخِلابةِ فيه يقول عبدُ القاهر:

«فتأمّلِ الآنَ هذه الأبياتَ كلَّها [الأبيات التي ورد فيها الحَذْفُ] واستَقْرِها واحدًا واحدًا، وانظرْ إلى موقعِها في نفسِكَ، وإلى ما تَجِدُه من اللّطْفِ والظَّرْفِ إذا أنتَ مَرَرْتَ بموضعِ الحذف منها، ثم فلّيتَ النفسَ عمّا تجدُ وَأَلطَفْتَ النَّظَرَ فيما تُحِسّ به، ثمّ تكلّفْ أن تَرُدَّ ما حذَفَ الشاعرُ وأن تُخرِجَه إلى لفظٍ وتضعَه في سَمْعِك، فإنّك تعلم أنّ الذي قُلْتُ كما قلتُ، وأنّ ربَّ حَذْفٍ هو قِلادةُ الجِيدِ وقاعدةُ التجويد».

١٢ ـ إخفاءُ الأمر عن غير المخاطب نحو قولك: «أَقْبَلَ» تريد: أقبلَ عليٌّ، مثلاً.

ثانيًا ـ ذِكْرُ المسندِ إليه:

قلنا قبْلُ إنّ المُسْندَ إليهِ ركنُ الجملة الأساسيّ، وإذا كان ذِكْرُ أيِّ لفظٍ دالّ في الكلام أمرًا لا محيدَ عنه ابتغاءَ الإفادةِ التّامّة، فإنّ ذكرَ المسندِ إليه أمرٌ واجبٌ ولا يُحْذَفُ ما لم يكن ثمّة قرينةٌ تدلّ عليه عند

الحذف. ويُلحظُ في أساليب البلغاء ترجيحُ الذّكر في بعض المواطن رغم وجود القرائن الدّالة على المسند إليه المحذوف. فمقتضياتُ الأحوالِ هي التي ترجّح الذِّكرَ على الحَذف رغم وجود القرينة، فلكلِّ منزلةٍ مِعْرَضُها ولكلّ مقامٍ مقالُه. **وإليكَ بعضَ الأغراضِ البلاغيّة التي ترجّح ذِكرَ المسند إليه رغمَ وجودِ القرينة التي تيسّر الحذفَ:**

١ ـ زيادة التقرير والإيضاح، كقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. تكررّ المسند إليه «أولئك» مع كلّ حُكم، رغم إمكانية الاستغناءِ عن الذّكر في الجملتين اللاّحقتين؛ قصْدًا إلى تقرير المسند إليه وإيضاحِه بِذِكْره وبدلالة القرينة عليه؛ كمَنْ يُمسِك بالمجرم الذي طال البحثُ عنه فيعلِن على الأشهاد: هذا الذي قَتَل، هذا الذي نَهَب، هذا الذي سلَب.. إلخ.

ومن صُوَرِه الرائعةِ في الشّعر قولُ ابنِ الدُّمَيْنة يخاطب صاحبتَه أُمَيْمَةَ:

وأنتِ الّتي قطّعتِ قلبي حَزازةً وفرّقتِ قَرْحَ القَلْبِ فهْوَ كَلِيمُ
وأنتِ الّتي كلّفتِني دُلَجَ السُّرىٰ وجُونُ القطا بالجَلْهتَيْنِ جُثومُ
وأنتِ الّتي أحفَظْتِ قومي فكلُّهمْ بعيدُ الرّضىٰ داني الصُّدودِ كظِيمُ

ذكر ضميرَ محبوبته (المسندَ إليه أنتِ) في كلّ بيتٍ؛ ليزيدها تقريرًا وإيضاحًا، وليبيّن أنّ هذه التي قطّعتْ قلبَه حزازةً هي نفسُها التي كلّفتْه دُلَجَ السُّرى، وهي نفسُها التي أحفظتْ قومَه عليه؛ فتكرارُ «أنتِ» أفاد اختصاصَها بكلٍّ من تقطيع قلبِه وتكليفِه دُلَجَ السُّرى وإحفاظ قومه عليه.

٢ ـ الاحتياطُ لضعف التّعويل على القرينة؛ كأن تتحدّث عن العربِ وبلائهم في نُصرةِ الإسلام واتساع رقعةِ البلاد التي فتحوها...

ثم تقول: «العربُ حَمَلةُ الرّسالةِ»، تذكر المُسْندَ إليه «العرب»؛ لأن عهد المتلقّي به قد طال فربّما نَسِيَه لو أنّك أغفلْتَ ذِكْرَه فقلْتَ: «حَملةُ الرّسالة» بحذف المسند إليه.

وهكذا تذكرُ المسندَ إليه لِضَعْف القرينة. ومِثْلُه أن تتحدّث عن «خالد بن الوليد» وعَزْلِه عن قيادة جيش المسلمين وتولية أبي عبيدة مكانَه ثمّ تقول: «خالدٌ نِعْمَ القائدُ»، بذكر المسندِ إليه «خالد». تذكُرُه لضعف تذكّر المتلقّي له؛ إذ ربّما ظنّ الحديثَ عن أبي عبيدةَ لو قلتَ: «نِعْمَ القائدُ»، هكذا بِحَذْف المسند إليه.

٣ ـ التّنبيهُ على غَباوة السّامع وأنه لا يستغني بالإشارة عن العبارة؛ ابتغاءَ وصْمِه بالغَباء أو لإهانته وتحقيره، كأنْ تقول لسامعِ القرآن يُتلى:

«القرآنُ كلامُ الله»، وكأن تقولَ: «قالَ أحمدُ كذا» في إجابة مَنْ سألك: ماذا قال أحمد؟

٤ ـ التلذّذُ بذِكْره، ويكثُرُ ذلك في النّسيب والرثاء والمديح. فمِنْهُ في النَّسِيبِ قولُ قيس:

ألا لَيْتَ لُبَنىٰ لَمْ تكنْ لِيَ خُلَّةً ولم تلقَني لُبنىٰ ولَمْ أدرِ ماهِيا

ومنه في الرّثاء قولُ الخَنْساء:

وإنّ صَخْرًا لكافِينا وسيّدُنا وإنّ صَخْرًا إذا نشتو لنَحّارُ
وإنّ صخرًا لتأتَمُّ الهُداةُ به كأنّه عَلَمٌ في رأسِه نارُ

ذكرت اسمَ صخرٍ «المسند إليه» ثلاثَ مرّات تلّذذًا بذكره.

ومنه في المديح قولُ الأخطل يمدح خالدَ بنَ أَسِيد:

ألا أيّها السّاعي لِيُدرِكَ خالِدًا تناهَ، وأقصِرْ بعضَ ما أنت تفعلُ
فهلْ أنتَ، إن مَدَّ المدى لك خالدٌ، مُوَازِنُه أو حامِلٌ ما يُحَمَّلُ؟

٥ ـ إظهارُ تعظيمه أو إهانته؛ الأولُ كقول أحدهم: حضرَ سيفُ الدَّولةِ، في إجابة مَنْ قالَ: هل حضرَ الأميرُ؟ والثّاني كقولِ أحدِهم: جاء المنافِقُ، في إجابة من قال: هل جاء سعيدٌ؟ ذُكِرَ المسندُ إليه في الموضعين «الأمير» و«المنافق»؛ لإظهار تعظيمه في المثال الأول، ولإظهار تحقيره في المثال الثاني.

٦ ـ التبرُّكُ بذِكْرِه، كَأَنْ يقولَ الموحِّدُ: «اللّهُ خالقُ كلِّ شيء ورازقُ كلِّ حيّ»، ذكَرَ المسندَ إليه «الله» رغم وجود القرينة التي تمكّن من حذفه؛ تبرّكًا بذكره. وكأن تقولَ: «نبيُّنا عليه الصّلاةُ والسّلام قائلُ هذا القول»، جوابًا لِمَنْ قال: «هَلْ قالَ هذا القولَ رسولُ الله عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ؟» تذكرُ المسندَ إليه «نَبيّنا» رغم وجود القرينة التي تمكّن مِنْ حَذْفِه كما يلوح من السؤال؛ تبرّكًا بذكره.

٧ ـ إظهارُ التعجّب من المسند إليه؛ حين يكون الحُكْمُ غريبًا، كأن يكونَ لك صديقٌ حميمٌ اسمُه «عليّ» يُقال لكَ إنّه ذَكَرَكَ بسوء، فتقول متعجّبًا:

«عليٌّ قال عنّي كذا؟!».

٨ ـ الردُّ على المتلقّي، كأن تقول: «أحمدُ نجحَ» ردًّا على مَنْ قال: «أحمدُ رسَبَ».

٩ ـ بَسْطُ الكلام حيث يُرادُ استمرارُ إصغاءِ السّامع؛ ومن هنا يطيلُ المحِبُّون الحديثَ مع أحبّتهم؛ وقد قلتُ في هذا المعنى من قصيدةٍ أخاطِبُ فيها مدينةَ الرقة «جارة الشطّ»:

جارةَ الشطِّ، حدِّثينا وزيدي فحديثُ العشّاقِ شوقًا يَزيدُ

ومثالُ ذلكَ قولُه سبحانه حكايةً لكلامِ موسى عليه السلامُ: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، وقد كان السؤال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؟ إذ يكفي أن يُقالَ في

الإجابة «عصا»؛ لأنّ «ما» للسؤال عن الجِنس. ويقول البلاغيون إن ذكر المسندِ إليه «هي» جاء حُبًا في إطالة الكلام في حَضْرةِ الذّات الإلهية.

١٠ ـ التّسجيلُ على السّامع بين يدي القاضي حتى لا يتأتّى له الإنكار؛ كأن يقول الحاكِمُ لشاهِدٍ: هل أقرّ زيدٌ هذا بأنّ عليه لِعَمْرٍو كذا وكذا؟» ـ فيقول الشاهدُ: «نَعَمْ، زيدٌ هذا أقرّ بأنّ عليه لِعَمْرٍو كذا وكذا». يذكرُ المسندَ إليه رغمَ وجودِ القرينة التي تمكّن من حذفه في السؤال؛ لئلا يجد المشهودُ عليه سبيلاً إلى الإنكار، كأن يقولَ لِلْحاكِمِ عند التّسجيل عليه كتابةً: إنّما فهِمَ الشّاهدُ أنّك أشرْتَ إلى غيري، فأجابَ بما أجاب، ولذلِكَ لم أنْكِرْ ولم أطلبْ إبداءَ العُذْر فيه.

ثالثًا ـ تعريف المسندِ إليه:

حقُّ المسندِ إليه أن يأتي معرَّفًا؛ لأنّه المحكومُ عليه، المنسوبُ إليه، وكلّما ازدادَ تعريفًا كان أتمّ دِلالةً على المراد. يقول السّكاكيُّ: «وأمّا الحالةُ التي تقتضي تعريفَهُ فهي إذا كان المقصودُ من الكلام إفادةَ السّامعِ فائدةً يُعْتدُّ بِمِثْلِها».

والتّعريفُ أضربٌ كثيرة: يكونُ بالإضْمَار، وبالعَلَميَّة، وبالمَوْصوليّة، وبالإشارة، وبأل المعرِّفة، وبالإضافة. وقلّ أن يخلو نوعٌ منها من مقاصِدَ بلاغيّة. وإليك تفصيلَ القولِ في كلّ منها:

١ ـ إيرادُ المسندِ إليه ضَمِيرًا:

يؤتى بالمسندِ إليه ضميرًا حين يكون الحديثُ في أحد المقامات الثلاثة الآتية:

أ ـ مقام التكلّم، حيث يكون المتكلّمُ متحدّثًا عن نفسه، وعليه عندئذٍ أن يقول: «أنا». ومثال هذا قولُ المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام:

أنَا النّبِيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبدِ المُطّلِبْ

ومنه قولَ بشّار:

أنا المُرَعَّثُ لا أخفى على أحَدٍ ذرّتْ بِيَ الشّمسُ لِلْقاصِي وللدّاني

ب - مقام الخطاب، حين يخاطِبُ المتكلّمُ إنسانًا ماثلاً أمامَه، وعليه عندئذ أن يقول: «أنتَ». ومثالُه قولُ الشاعر:

يابنَ الأكارمِ مِنْ عَدْنانَ قد علِمُوا وتالدَ المَجْدِ بينَ العمِّ والخالِ

أنتَ الذي تُنزِلُ الأيّامَ منزلَها وتُمسِكُ الأرضَ مِنْ خَسْفٍ وزِلْزالِ

وحقُّ الخطاب - كما يقول السّكاكيّ - أن يكون مع مخاطَبٍ مشاهَدٍ معيَّنٍ؛ لأنّ الخطابَ هو الكلامُ إلى حاضِرٍ مشاهَدٍ، وهو معيَّنٌ لا محالةَ بالحضورِ والمشاهدة. لكنّ البلغاء قد يخرجُون عن هذا الأصْلِ، ويستعملون ضميرَ الخِطاب في غير مشاهَدٍ وفي غير معيَّن:

١ - يخاطَبُ غيرُ المشاهَدِ حين يكون مستحضَرًا في القَلْب حتّى كأنّه ماثلٌ أمام العين، كقوله سبحانه: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

ومنه في الشّعر قولُ الشّاعر:

جودي بقُرْبِكِ أبْلُغْ كلّ أمنِيَتي أنتِ الحياةُ وأنتِ الكونُ أجْمَعُهُ

وقَوْلي وأنا في الشّقيقة ليبيا أخاطِبُ سوريا:

أيْ بلادي، وأنتِ مهوىٰ فؤادي كيفَ أَحْيَا والرُّوحُ عنّي بعيدُ؟

٢ - يخاطَبُ غيرُ المعيَّنِ حيثُ يُراد تعميمُ الخِطاب وتوجيهُه إلى كلّ مَنْ يتأتّىٰ خِطابُه، كأن تقول: «أنتَ تسألُ ونحنُ نُجيبُ». لا تقصد مخاطَبًا بِعَيْنه، بل كلّ ما يتأتّى خِطابُه؛ تريد أنّ الاستعداد للإجابة موفَّرٌ لكلِّ مَنْ يسأل، ولا يختصّ به واحدٌ دون آخر. وقد يرِدُ في مقام التّشهير والعَيْب كأن تقول: «فلانٌ لئيمٌ، إن أكرمتَه أهانَك وإن أحسنْتَ إليه أساءَ إليك». يقول السكاكيُّ: «كأنّكَ قلتَ: إنْ أُكرِمَ أو أُحسِنَ

إليه؛ قصدًا إلى أنّ سُوءَ معاملته لا يختصُّ واحدًا دون واحد».

ومِنْ خِطابِ غير المعيّن لتعميم الخطاب قولُ المتنبّي:

إذا أنتَ أكرَمْتَ الكريمَ مَلَكْتَهُ وإن أنتَ أكْرَمْتَ اللئيمَ تَمَرَّدا

وقولُ زُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمىٰ:

تَراهُ إذا ما جِئْتَه مُتَهَلِّلاً كأنَّكَ تُعطيهِ الذي أنتَ سائِلُهْ

ج ـ مقام الغَيْبة، وذلك عندما يكون المسندُ إليه في ذهن السامع لتقدُّمِ مَرْجِعه. ويأخذ تقدّمُ المرجعِ ثلاثَ صُوَرٍ:

أ ـ أَنْ يتقدّم لفظًا، كقوله سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فالمسندُ إليه الضميرُ «هو» عائدٌ على لفظ الجلالة المتقدّم «الله». أو تقديرًا، كقولهم: «نِعْمَ فتاةً هِنْدُ»؛ عند الذين يجعلون «هند» مبتدأً مؤخَّرًا والجملةَ قَبْلَها خبرًا مقدَّمًا. فالمسندُ إليه (فاعل نعم الضمير المقدّر بـ «هي») يرجع إلى هند.

وجليٌّ أنّ هذا المَرْجِعَ متقدّمٌ على الضمير لأنه مبتدأٌ، متأخِّرٌ لفظًا.

ب ـ أن يتقدّم معنًى، حيث يدلّ عليه لفظٌ سابقٌ من جِنْسِه أو تُومىء إليه قرينةُ حال:

ـ **الأول**، كقوله سبحانه: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ حيث يرجعُ المُسْنَدُ إليه الضميرُ «هو» إلى «العَدْل» المفهوم من لفظ «اِعْدِلُوا». وكقوله سبحانه: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾؛ أي «الرجوع» المفهوم من قوله: «ارجعوا».

ـ **الثاني**، كقوله سبحانه: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ فالمسندُ إليه (الضّميرُ فاعِلُ ترك المقدّر بـ

«هو»)، يرجع إلى «المَيّت»، وقد دلّت عليه قرينةُ حال هي أنَّ المقامَ لِبيان الإرْث.

٢ ـ إيرادُ المسند إليه عَلَمًا:

العَلَمُ هو ما وُضِع لشيءٍ معيّن مع ما يلازِمُه من مشخِّصاتٍ تميّزُه عمّا عداه، على نحْوٍ لا يشاركه فيها سواه.

وعليكَ أن تكون على بيّنة مِنْ أنّ المقاماتِ التي تقتضي مجيءَ المسندِ إليه علَمًا كثيرةٌ، نذكر لكَ منها أهمَّها:

١ ـ إحضاره بعينه في ذهن السّامع ابتداءً بِاسْمٍ مختصّ به؛ ليمتاز عمّا عداه، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. هو: ضمير الشأن مبتدأٌ أوّل. اللّهُ: مبتدأٌ ثانٍ، وجملة «اللّهُ أحَدٌ» خبرُ الضمير. قال الخطيبُ القَزْوينيّ: «جاء المسندُ إليه «اللّهُ» عَلَمًا؛ لأجل إحضاره في الذّهن ابتداءً بجميع مشخِّصاته التي قام عليها الدّليلُ كالقُدْرةِ ونَحْوِها باسم خاصّ به تعالى». ومنه قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾.

ومنه في الشّعر قولُ الشاعِرِ:

أبُــو مــالِـكٍ قــاصِـرٌ فَـقْـرَهُ ... عــلـى نَـفْـسِـهِ ومُـشـيـعٌ غِـنـاهُ

وقولُ الآخر:

اللّـه يـعْـلَـمُ مـا تـرَكْـتُ قِـتـالَـهُـمْ ... حـتّى عَـلَـوا فَـرَسِـي بـأشْـقَـرَ مُـزْبِـدِ

٢ ـ قصْدُ تعظيم المسند إليه أو إهانته، وذلك في:

أ ـ الألقاب، كأن تقولَ: «جاء صلاحُ الدِّين، ووصلَ ذو الرّياستَيْنِ» في مقام التعظيم، و«رَحَل عنّا أنْفُ الناقة، وفارَقَنا صَخْرُ» في مقام الإهانة.

ب ـ الأسماء الصّالحة لذلك، كقول المصطفى عليه الصّلاةُ والسُّلام: «أَسْلَمُ سالَمَها اللّهُ وغِفارُ غفرَ اللّهُ لها».

جـ ـ الكُنى الصّالحة لذلك، كقولِكَ: «أبو الفَضْلِ صديقُك» في مقام التّعظيم، و«أبو الجَهْلِ صاحِبُك» في مقام الإهانة.

٣ ـ التفاؤل به، كقولِكَ: جاءَ سُرورٌ، وسَلامٌ قادِمٌ. تأتي بالمسند إليه عَلَمًا في الموضعَيْنِ؛ للتفاؤل به.

٤ ـ التشاؤم به، كقولِكَ: جاءَ حَرْبٌ، وضِرارٌ قادِمٌ. تأتي بالمسند إليه عَلَمًا في الموضعين؛ قصْدًا إلى التشاؤم.

٥ ـ التبرُّك به، كقولكَ: «اللّهُ أكرمَني» في جواب مَنْ قال لك: «هل أكرمَكَ اللّهُ؟». تأتي بالمسند إليه عَلَمًا؛ لِقَصْد التبرّك بذكر اسمه؛ ألَمْ يقُلْ سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

٦ ـ التلذّذ به ـ كقولِ الشاعر:

بـاللّـهِ يا ظَبَياتِ القَاعِ قُلْنَ لنا: لَيْلايَ مِنْكُنّ، أم ليلىٰ من البشَرِ؟

ذكرها الشّاعرُ في عجز البيت مرّتين باسمها الظّاهر، وكان يمكنه في الثانية أن يقول «هي» لكنّه عدَل إلى الاسْم الصّريح تلذّذًا بذكر اسْمِها. وهذه عادةٌ للشّعراء يُكْثِرون من ذِكْرِ الاسمِ الصّريح لِمَنْ أحبّوا؛ وكأنّ ما في القَلْب تظهرُه عثراتُ اللّسان. ومن هنا قال المتنبّي في تضاعيف مدْحِ لِعَضُدِ الدَّوْلَةِ:

أسَامِيًا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وإنّما لَذّةً ذَكَرْناها

٧ ـ التّسجيل على السّامع لقَطْع سبيل الإنكار عليه إنْ رام ذلك. كأن يسألَ القاضي الشّاهِدَ: «هل ضرَبَ زيدٌ عَمْرًا؟» ـ فيجيب الشّاهدُ: «نعم، ضربَ زيدٌ هذا عَمْرًا». جاء بالمسند إليه باسمه الصريح، رغم إمكانية الإتيان بالضمير لتقدّم مرجعه؛ للتّسجيل على المتّهم حتى لا

يتنصّل مِمّا أُقِرّ به عليه، فيقولَ: ما أرادني، بل أراد شخصًا آخر.

٨ ـ التّنبيه على غَباوة السامع وعلى أنّه لا يفهم إلاّ بصريح العبارة؛ كأن يسألَكَ زميلٌ لك في الصّفّ: «هل داومَ أحمدُ اليومَ؟» ـ فتقول: «نعم، داومُ أحمدُ اليومَ». تأتي بالمسند إليه عَلَمًا لتَسِم المخاطَب بالبلادة وبطءِ الإدراك.

٩ ـ الكِناية بالعَلَم عن معنى يصلح للكناية عنه، كقولك: «أبو لَهَبٍ فعَلَ كذا»، تريد كونه جهنّميًا. ذلك أنّ المركَّبَ الإضافيَّ في «أبو لهب» ـ قبلَ أن يصيرَ علَمًا ـ معناه: ملازمُ النّار وملابسُها، ويلزم منه أنّه «جهنّميٌ». وأنت حين تأتي بالمسند إليه علَمًا هكذا «أبو لهب» تريد الانتقالَ من المَلْزومِ «ملازمتِه النّارَ» إلى اللاّزم «كونه جهنّميًا»؛ فيكون ما فعلتَه انتقالاً من الملزوم إلى اللازم؛ أي كناية. ويصلح العَلَمُ لهذا المعنى نظرًا إلى معناه الوَضْعيِّ قبل صيرورته عَلَمًا على الذات.

٣ ـ إيرادُ المسندِ إليه اِسْمَ إشارة:

يأتي المتكلِّمُ بالمسند إليه اسمَ إشارة ليكون ذلك طريقًا لإحضار المشار إليه في ذِهْن السّامع، حين يكون المشارُ إليه حاضرًا محسوسًا ولكنّ المتكلّمَ والسّامعَ لا يعرفان اسمَه الخاصّ، ولا يعرفان أيضًا أيَّ محدِّدٍ آخرَ من محدِّداته؛ كأن تقولَ لمتلقّي كلامِك: «أتُعِيرُني هذا» وأنت تشير إلى شيء لا تعرف اسمَه ولا وصْفًا آخر من أوصافه. وهذه وظيفةٌ اتّصالية دُنْيا لاسْمِ الإشارة، غايتُها قدْرٌ من الإفهام. ولا يقتصر استخدامُ المسند إليه اسمَ إشارةٍ على تعيينه طريقًا لإحضار المشار إليه المجهولِ الاسم والصّفات في ذهن السّامع فحسبُ، بل يُستخدمُ لأغراضٍ بلاغية ولطائفَ لا تكاد تنضبطُ، كما يقول السّكاكيّ. **وإليك أهمّ لطائفِ الإتيان بالمسند إليه اِسْمَ إشارة:**

١ ـ كمال تمييزه وتعيينه، وذلك في موضِعَيْن:

أ ـ في مقام المَدْحِ، حيث يكون تمييزُه بالإشارة أعونَ على كمال المَدْحِ. كقولِ الفرزدق، أو غيره، في زَيْنِ العابدينَ عليٍّ بن الحُسَيْن بنِ عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ عندما ادّعى هشامُ بنُ عبدِ الملك أنه لا يعرفه:

هذا الّذي تَعْرِفُ البَطْحاءُ وطْأتَهُ والبَيْتُ يعرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ
هذا ابْنُ خَيْرِ عبادِ اللّهِ كلِّهِم هذا التَّقِيُّ النَقِيُّ الطّاهِرُ العَلَمُ
هذا ابنُ فاطِمَةٍ إنْ كُنتَ جاهِلَهُ بِجَدِّهِ أنبياءُ اللّهِ قد خُتِمُوا

ب ـ في مقام اختصاص المسند إليه بحُكْمٍ بديعٍ ممّا يقتضي تمييزَه بالإتيان به اِسْمَ إشارة، كقول ابنِ الرَّاوَنْدِيّ:

كَمْ عاقِلٍ عاقِلٍ أَعْيَتْ مذاهِبُهُ وجَاهِلٍ جاهِلٍ تلقاهُ مرزوقا
هذا الّذي تركَ الأوهامَ حائِرةً وصَيَّرَ العالِمَ النِّحريرَ زِنديقا

جاء بالمسند إليه «هذا» اسمَ إشارة في البيت الثّاني لتمييزه أكملَ تمييز؛ لما اختصَّ به من حُكْمٍ بديعٍ هو افتقارُ ذوي العِلْم واغتناءُ ذوي الجَهْل.

٢ ـ التّعريض بغباوة السّامع وإظهار أنّ الأشياء لا تتميَّز لديه إلاّ بالإشارة الحِسِّيَّة إليها، كقولِ الفَرَزْدَقِ يهجو جَرِيرًا ويفتخِرُ عليه:

أولَئِكَ آبائي فجِئْني بمثلِهِمْ إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المجامِعُ

جاء بالمسند إليه اسمَ إشارةٍ؛ تعريضًا بغباوة جريرٍ وإشارةً إلى أنّه غَبِيٌّ بليدٌ لا يُدْرِكُ إلاّ المُبْصَرَ.

٣ ـ بيان حال المسند إليه في القُرْب أو البُعْد أو التوسّط. مِثالُ الأوّلِ قولُ جرير:

هذا ابنُ عمّي في دِمَشْقَ خليفةً لو شِئْتُ ساقكُمُ إليَّ قَطِينا

جاء بالمسند إليه «هذا» اسمَ إشارة؛ لبيان قُرْبِه ومِنْ ثَمَّ قرب مساعدته.

٤ ـ تعظيمه بالقُرْب أو بالبُعْد. الأوّلُ كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾. جيء بالمسند إليه اسمَ إشارة للقريب؛ لتعظيم درجته بتنزيل قُرْبِه من النّفس وملابسته للرّوح منزلةَ قرب المسافة. والثّاني كقوله سبحانه حكايةَ عن اِمرأة العَزِيز مشيرةً إلى يوسُفَ عليه السّلامُ: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾. جيء بالمسند إليه اسمَ الإشارة الخاصِّ بالبعيد؛ إشارةً إلى ارتفاع منزلة يوسف في الحُسْن، رغم أنه كان حاضرًا في المجلس. وكقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ إيماءً إلى أنه في نهاية الكمال والعظمة وبُعْدِ الشَّأْوِ. ووَجْهُ دِلالة اسمِ الإشارة الخاصِّ بالبعيد على التّعظيم هو أنّ العظيمَ في العادة ينأىٰ عن النّاس ويبعُدُ عنهم لعِزّته ورِفْعةِ شَأْنِه.

٥ ـ تحقيره بالقُرْب أو بالبُعْد. الأوّلُ كقوله سبحانه حِكايةً لِمَا قال أبو جَهْلٍ ـ قاتلَه اللّهُ ـ مشيرًا إلى المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾. جيء بالمسند إليه اسمَ إشارة للقريب «هذا»؛ إشارةً إلى إهانةِ المصطفى عليه الصّلاةُ والسلام في زَعْمِه الخبيث. والثاني كقوله سبحانه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾. جيء بالمسندِ إليه اِسْمَ الإشارة الخاصّ بالبعيد؛ إشارةً إلى أنّه لا يُلْتَفتُ إليه ولا يَعْرِض للخاطِر حتّى إنّه كغيرِ المشاهَد البتّةَ؛ كلُّ ذلك لتحقيره.

٦ ـ التنّبيه على أنّ المُشارَ إليه المعقَّبَ بأوصافٍ جديرٌ ـ من أجلِ تلك الأوصافِ ـ بما يُذْكَرُ بعد اِسْم الإشارة، كقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. المشار إليه هنا هو «المتّقين»، وقد عُقّبوا بأوصافٍ: الإيمانِ بالغيب، وإقام الصّلاة، والإنفاق ممّا رزقهم الله... وقد أشير إليهم بـ «أولئك» مع أنّ المقام للضّمير لتقدّم مَرْجِعه؛ إشارةً إلى أنهم أحقّاء ـ بسبب الأوصاف التي خلَعها عليهم ـ بما يجيء بعدَ اِسْم الإشارة من هِدايةٍ في الدّنيا وفَلاحٍ في الآخرة.

ومثلُه في الشّعر قولُ عروةَ بنِ الوَرْد:

ولكنّ صُعْلوكًا صفيحةُ وجهِهِ   كضَوْءِ سِراجِ القابِسِ المُتَنَوِّرِ
مُطِلًّا على أعدائِهِ يَزْجُرونَهُ   بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ
وإنْ بَعُدُوا لا يأمنونَ اقترابَهُ   تشوُّفَ أَهْلِ الغائبِ المُتَنَظَّرِ
فذلِكَ إنْ يَلْقَ المَنِيّةَ يَلْقَها   حَمِيدًا، وإنْ يَسْتَغْنِ يومًا فَأَجْدِرِ

ذكر له مجموعةً من الخصال الفاضلة، ثمّ أشار إليه باسم الإشارة الخاصّ بالبعيد، رغم أنّ المكان للضمير لتقدّم مرجعه «صُعْلُوكًا»؛ تنبيهًا على أنه جديرٌ بِمَا بَعْدَ اسمِ الإشارة من ضروب المكافأة.

٤ ـ إيرادُ المسند إليه اسمًا موصولًا:

يؤتىٰ بالمُسْند إليه اسمًا موصولًا لأغراض بلاغيّة كثيرة، نذكر لكَ أهمَّها:

١ ـ عدَمُ عِلْمِ المخاطَبِ بالأحوال المختصّة به سوى الصّلة، كقولك: «الذي كانَ معَنَا أمْسِ رجُلٌ عالِمٌ». جيء بالمسند إليه اسمًا موصولًا؛ لأنّ المخاطَبَ لا يَعْرِف من الأحوال المختصّة به سوى أنّه كان معهما أمسِ.

٢ ـ استهجان التّصريح بالاِسْم الدّالّ على ذات المسند إليه إن ثَبت عُرْفًا أنّه منفِّرٌ في معناه أو لفظه:

ـ فالأوّلُ، كقولِكَ: «الّذي يخرُجُ مِنْ أحَدِ السبيلَيْنِ ناقِضٌ للوضوء»، حيث لم يُستسَغْ ذِكْرُ ما يخرج من السبيلين لفُحْشِ معناه.

ـ والثّاني، كقولِكَ: «الّذي ربّاني أبي»، إن كان اسمُ الأبِ قبيحًا مثل «بُرْغوث» أو جَحْش» أو «كَلْب».

٣ ـ زيادة تقرير الغَرَضِ المسوقِ له الكلامُ أي تأكيده وتثبيته، كما في قوله سبحانه: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾. الغرضُ المسوقُ له الكلامُ هو تقريرُ نزاهةِ سيِّدنا يُوسُفَ عليه السّلام. وكان يمكن الوصولُ إلى هذا التنزيه بذِكْر الموصول أو امرأة العزيز «زليخاء»، لكنّ الموصولَ أدلُّ على النّزاهة؛ لأنّه التّعبيرُ الّذي مكّن من تصو، تهالُكِها عليه وملاحقتِها إيّاه؛ إذ هو في بيتِها تكلِّفه ما تشاء، وتلقاه في كلّ الأوقات مُلِحّةً مطالبةً، ورغم ذلك كلّه استعصم، وكَلأَهُ الكالِىءُ. أيوجدُ ثمَّةَ تعبيرٌ آخر يقوم مقام «التي» في مطابقة مقتضى هذه الحال؟

٤ ـ التّهويل تعظيمًا أو تحقيرًا. فالأوّل، كقوله سبحانه: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾؛ أي غشيهم ماءٌ غَزيرٌ يَعِزّ تقديرُ كميّته. جيء بالمسند إليه اسمًا موصولًا؛ لِجَعْله مُبْهَمًا، إذْ في الإبهام تعظيمٌ وتهويلٌ لا يؤدّيه التّصريح. وكقوله سبحانه: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾؛ أي يغشاها أمورٌ عظيمةٌ لا قِبَلَ للإنسان بتخيُّلها. قال الزَّمَخْشَرِيُّ: «وقد عُلِمَ بهذه العبارةِ أنّ ما يغشاها من الخلائِقِ الدّالّة على عظمةِ الله وجلاله أشياءُ لا يَكْتَنِهُها النَّعْتُ ولا يُحِيط بها الوَصْفُ». والثّاني كقولِهِمْ: «مَنْ لَمْ يدْرِ حقيقةَ الحالِ قالَ ما قالَ». أي: الجاهلُ بالشيء يقول في شأنه ما يَعِنُّ له.

٥ ـ تنبيه المخاطب على خطأ تصوُّره أو تصوّرِ غيره. الأول كقولِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾. وكقول عَبْدة بن الطّبيب في جُمْلةِ قصيدة يعِظُ بها أبناءه:

إنّ الذين ترَوْنَهم إخوانَكُمْ يَشفي غليلَ صدورِهم أن تُصْرَعُوا

جاء بالمسند إليه اسْمًا موصولًا؛ لينبّه المخاطبينَ على خطئهم في حُسْبانِهم هؤلاءِ إخوةً لَهُمْ مخلصين، ولا يتأتّى له ذلك لو قال إنّ القوم كذا...

والثّاني كقول عروةَ بنِ أُذَيْنَةَ:

إنَّ الّتي زَعَمَتْ فؤادَك ملَّها خُلِقتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لَها

جاء بالمسند إليه «الّتي» اسمًا موصولًا للتنبيه على خطأ الغائبة في زَعْمِها أنّ فؤادَهُ ملّها، ولو أنهُ، قال ـ مثلًا ـ إنّ فلانةً خُلِقت هواك لَمَا تأتّى له هذا التنبيه.

٦ ـ تمكينُ الخبرِ في ذِهْن المخاطَب بالإتْيان بصِلةٍ غريبة مشوِّقة إلى معرفة الخبر، وذلك كقول المَعَرّيّ:

والّذي حَارتِ البريّةُ فِيهِ حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ من جَمادِ

معنى البيت: إنّ الذي اختلف الناسُ في أمر بَعْثِه وعَوْدته بعد موتِه هو ذلك الحيوانُ الآدمِيّ الذي خلَقه الخالِقُ ـ سبحانه ـ من نطفةٍ أو من طينة آدم. وقد جاء بالمسند إليه اسمًا موصولًا «الّذي»، وجاء في صِلته بأمرٍ غريبٍ؛ ليوجّه ذِهنَ المتلقّي إلى ما سيأتيه من خبر المسند إليه بعد انتظار وروده عليه.

٧ ـ الإيماء إلى نوع الخبرِ المحكوم به على المسند إليه؛ ويكون ذلك حين تتضمّن صِلةُ الموصول ما يدلّ على نوع الخبر على الجملة؛ بحيث يكون في مقدور المتلقّي تحديدُ نوعه العامّ بقليلٍ من التأمّل. كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

فالإيمانُ وعمَلُ الصّالحات الذي انطوت عليه الصّلةُ يشير إلى أنّ الخبرَ من نوع عملهم؛ أي ضَرْبٌ من الإثابة والجزاء الحَسَن. وكقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

ومن هذا القَبيل ما جاءَ في الحِكْمة: «مَنْ سعىٰ رعَىٰ، ومَنْ لزِمَ المنامَ رأىٰ الأحلام». ومنه في الشعر قولُ الشاعر:

إنّ الّذينَ تولّوا قتلَهُ سَفَهًا ... لاقَوا أثامًا وخُسرانًا فمَا ربِحُوا

وحاصِلُه كما يقولُ الخطيبُ القَزْوِينيّ: «**أن يُؤتىٰ بالفاتحةِ على وجهٍ ينبّهُ الفَطِنَ على الخاتمة**».

٨ ـ الإيماء إلى تعظيم شأن الخبرِ أو تَحْقيره. فالأوّل كقول الفَرَزْدَقِ مُفاخِرًا جريرًا بشرفِ المَحْتِد:

إنّ الّذي سَمَكَ السّمَاءَ بنىٰ لَنَا ... بَيْتًا دعائِمُهُ أعزُّ وأطولُ

جاء بالمسند إليه اسمًا موصولًا «الّذي»؛ لِلإلْماع إلى تعظيم بيتهم؛ لأن الّذي بنى لهم هذا البيتَ هو الذي رَفَع السَّماء، أي ربّ العزّة سبحانه، ولا يبني إلّا ما كان عظيمًا. والثّاني كقولك: «إنّ مَنْ لَمْ يسمَعْ بالعَروضِ نظَمَ قصيدةً»؛ جئتَ بالمسند إليه اسمًا موصولًا «مَنْ» للإلْماع إلى تحقير شأن القصيدة؛ لِأَنّ ناظمَها جاهلٌ بالعَروض لم يسمعْ به البتّةَ.

٩ ـ تحقيق الخبر في ذهن المتلقّي عندما تبرهن الصّلةُ على وقوعه، كقول الشاعر يشكو جفاءَ محبوبته وهَجْرَها له:

إنّ الّتي ضرَبَتْ بيتًا مُهاجِرةً ... بِكُوفةِ الجَندِ غالَتْ وُدَّها غُولُ

أراد: أنّ مَنْ هاجرتْ وأقامتْ في الكوفة مؤْثِرةً البُعْدَ عنكَ انقضى وُدُّها ولم يَبْقَ منه شيءٌ. وقد جاء بالمسند إليه اسمًا موصولًا وأشار في الصّلة إلى أمور خاصّة (ضرْب البيت في الكوفة ـ الهَجْر)؛

ليُثْبِتَ الخبرَ في ذِهْن المتلقيّ «ذهاب ودّها»؛ لأنّ مَنْ هذِه حالُها لا يمكن أن تكون ذاتَ وِداد. والشاعر بذلك يحقّق زوالَ المودّة ويقرِّره في ذهن المتلقّي، بتقديم دليله.

١٠ ـ الحثُّ على التعظيم أو التحقير. فالأوّل كقولك: «جاء الذي علّمكَ»؛ جِئتَ بالمسند إليه اسمًا موصولًا؛ تريد حثَّ مخاطَبِك على تعظيمه؛ لأنّه هو الذي علّمه. والثّاني كقولك: «جاء الذي سألَك»، أي طلب منك مالاً. جئتَ بالمسندِ إليه اسمًا موصولًا تريد حثَّ مخاطَبِك على تحقيره. ومرجِعُ التّعظيمِ والتّحقير المعنىٰ الذي انطوت عليه الصّلة.

١١ ـ التّهكم بالمسند إليه، كقولك: «الذي يدّعي حبَّ العِلْمِ يُغلِقُ المدارسَ». وكقولك: «الذي يقتلُ الشعوبَ يدّعي السَّلامَ».

١٢ ـ تَضَمُّن الصّلة معانيَ ذاتَ أهمية في سياق الكلام، كقوله سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ﴾. جيء بالمسند إليه اِسْمًا موصولًا؛ بقصد إبراز معنًى مهمٍّ في الصّلة هو «خلْقُ الله السّمٰواتِ والأرض» الذي يُفِيد هنا في إقناع المعانِد بقدرة الله سبحانه على خَلْق الإنسان؛ فإن الّذي خَلق السّمواتِ والأرض سَهْلٌ عليه ـ في منظور البشر ـ أن يخلُقَ ما هو أقلُّ منهنّ بكثير: الإنسان. ولا يتأتّى هذا لو ذُكِر في موضعِ اسم الموصول لفظُ الجلالة «الله».

ومنه في الشّعر قولُ كَعْبِ بنِ زهير عندما جاء تائبًا بين يدَي المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام:

مَهْلًا هداكَ الّذي أعطاكَ نافِلَةَ الـ ... قُرآنِ فيهِ مَواعِيظٌ وتفصيلُ

قال: «هداك الّذي أعطاكَ..» ولم يقل: «هداكَ اللّهُ» أو «هداكَ ربُّك»؛ لأنّ الصّلة تضمّنت حديثًا عن إكرام الله سبحانه لنبيّه عليه الصّلاةُ والسّلام بإعطائه فضيلةَ القرآن الكريم. وفي ذلك تكريمٌ للرسول

الكريم عليه الصلاة والسلام، وتنويهٌ بمقامه عند ربّه، ومن ثَمّ إقرارٌ بنبوّته وإعلامٌ بأنّ كَعْبًا قد أسْلَم.

٥ ـ إيراد المسند إليه معرّفًا بـ «ألْ»:

يقول محمّدُ بن علي الجرجاني في «الإشَارات والتنبيهات»: «اللامُ موضوعةٌ للدّلالةِ على تعيُّن المسمّى، كما أنّ التّنوين موضوعٌ للدّلالةِ على عدم تعيُّنه، وأمّا كونُه جِنْسًا، أو استغراقَ جنسٍ أو عهْدًا، فإنما يستفاد من قرائنِ الأحوال. فإذا لم تكن القرينةُ، لم تخرج اللامُ عن دِلالتها على تعيُّن المُسَمَّى».

وقد دلّ تتبُّعُ خواصّ تراكيب الكلام البليغ على أنّ المسند إليه يأتي معرّفًا بـ «ألْ» لغرضَين هما:

الأوّل ـ الإشارة بـ «أل» إلى فَرْدٍ من أفرادِ الحقيقة، واحدًا كان أو أكثر، معهودٍ خارجًا بين المتكلّم والمخاطَب. وهي التي تدخل على معيّنٍ في الخارج، وتُسمّى «لام العَهْدِ الخارجيّ». وهي ثلاثةُ أقسام تبعًا لمَدْخُولِها:

أ ـ لامُ العهد الخارجيّ الصّريحيّ ـ وهي التي يتقدّم ذِكْرُ مدخولها صراحةً، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾. جيء بالمسند إليه (المِصْباح ـ الزُّجاجة) معرّفًا بـ «أل» للإشارة بها إلى معهودٍ خارجًا عهدًا صريحًا؛ لتقدّم ذكرهما منكَّرَيْنِ (مصباحٌ ـ زجاجةٍ).

ب ـ لامُ العهد الخارجيّ الكِنائيّ ـ وهي التي يتقدّم ذِكْرُ مدخولها كنايةً، كما في قوله سبحانه حكايةً عن امرأةِ عمران: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ﴾.

الشّاهد قولُه سبحانه: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ﴾ حيث جيء بالمسند إليه معرَّفًا بـ «أل»؛ للإشارة بها إلى معهودٍ خارجًا عَهْدًا كنائيًّا؛ لأنّ «ما» في قَوْلِ امرأة عمران: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ كناية عن الذّكَر فحَسْبُ؛ لأنّ التّحريرَ، وهو إعتاقُ الوَلَدِ لخِدْمة بيت المَقْدِس، لا يكون إلّا للذّكور. ويقول البلاغيون: ليس المرادُ بالكناية هنا الكنايةَ المعلومة، بل المرادُ استعمالُ المبهَمِ في معيَّنٍ بقرينة فأشبَهَ الكِنايةَ.

جـ - لامُ العَهْد العلميّ - وهي التي يُستغنىٰ في استخدامها عن تقدّمِ ذِكْرِ مدخولِها؛ لتقدّم عِلْمِ المخاطَب به. وهي ضربان:

١ - لامُ العهدِ العِلْميّ الحضوريّ، وهي التي يكون مدخُولها حاضرًا في المَجْلِسِ، كَأنْ يضمّك وإخوتّك مجْلِسٌ تستقبلون فيه والِدَتَك التي وصَلَتِ البارحةَ من السّفر فتقول: «الوالدةُ وصلتِ البارِحةَ». جئتَ بالمسند إليه معرّفاً بـ «أل» للإشارة بها إلى معلومٍ للمخاطَبِ بالحضور.

٢ - لامُ العهدِ العلميّ غير الحضوريّ، وهي التي يكون مدخولُها معلومًا لدى المخاطَبِ، كقولِكَ: «هل انعقد المَجْلِسُ؟». جئتَ بالمسند إليه معرّفاً بـ «أل» للإشارة بها إلى معلوم للمخاطب. وكقولِكَ لزميلٍ لكَ: «الأستاذُ في الصفّ». جِئتَ بالمسند إليه معرَّفًا بـ «ألْ» للإشارة بها إلى معلومٍ للمخاطَبِ.

الثاني - الإشارة بـ «أل» إلى الحقيقة، عندما يكون مدخولُها موضوعًا للحقيقة والماهِيّة. وهي تبعًا لمدخولها ثلاثةُ أقسام:

١ - لامُ الحقيقة أو لامُ الجِنْس - وهي التي يُرادُ بمدخولها الحقيقةُ نفسُها بصَرْفِ النّظر عمّا يقع تحتها من أفراد، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. جيء بالمسند إليه

(المال) معرّفًا بـ «أل» للإشارة بها إلى الحقيقةِ نَفْسِها؛ أي جِنْس المال، وكذا جنْسُ البنين (في المعطوف). ومِثْلُه قولُكَ: «الصَّيْفُ خَيْرٌ من الشّتاء»؛ أي جِنْسُ الصَّيْف؛ و«الدِّينارُ خيرٌ من الدِّرْهَمِ»؛ أي جنسُ الدِّينار.

ومنه في الشّعر قولُ زهيرٍ منفّرًا من جِنْسِ الحَرْب:

وَمَا الحَرْبُ إلّا ما علِمتُمْ وذُقتُمُ ... ومَا هو عَنْها بالحديثِ المُرَجَّمِ

أي جنس الحرب وحقيقتها.

وقولُ المعرّي:

والخِلُّ كالمَاءِ يُبدي لِي ضمائِرَه ... معَ الصفَّاءِ ويُخفِيها معَ الكَدَرِ

ومعناهُ: جِنْسُ الخِلّ كجِنْسِ الماء.

ب ـ لامُ العهد الذّهني ـ وهي التي يُرادُ بمدخولها فردٌ واحدٌ من أفراد الحقيقة باعتبار عهديّته في الذّهن لِمُطابقة ذلك الواحدِ الحقيقةَ، وذلك عند قيام قرينةٍ ما دالّةٍ على أن ليس القَصْدُ إلى الحقيقةِ نفسِها. كما في قوله سبحانَه:

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾. جيء بالمسند إليه (الذئب) معرّفًا بلام الحقيقة أو الجنس؛ للإشارة بها إلى فَرْدٍ من أفراد حقيقة الذئب. والقرينةُ الدّالّةُ هي «أنْ يأكُلَه»؛ إذ دلّ الأكْلُ على ذئبٍ من الذّئاب لا على الحقيقة؛ لأنّ الحقيقة أمرٌ عَقْلِيٌّ لا وجودَ له في الخارج، فلا يحصُلُ منه أكْلٌ. ومِثَالُها في الشّعر قولُ الشاعر:

ومَنْ طلَبَ العلومَ بِغَيْرِ كَدٍّ ... سيُدْرِكُها متى شابَ الغُرابُ

جاء بالمسندِ إليه «الغرابُ» معرّفًا بلام الحقيقة؛ للإشارة بها إلى فَرْدٍ من أفرادِ حقيقة الغُراب. والقرينةُ الدالّةُ على ذلك هي قوله «شابَ»؛ إذ إنّ الشَّيْبَ مِمّا يعتري الأفرادَ لا الحقائق.

جـ ـ لامُ الاستغراق ـ وهي التي يُراد بِمَدْخولِها جميعُ أفراد الحقيقةِ عند قيام القرينة على ذلك. وهي قِسْمان:

١ ـ لامُ الاستغراقِ الحقيقيّ، وهي التي يُراد بمدخولِها كلُّ فَرْدٍ مما يدلّ عليه اللّفظُ بحسَبِ اللّغة، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، أي: كلّ إنسان؛ بدليل الاستثناء بعده. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: كلّ نفس.

٢ ـ لامُ الاستغراقِ العُرْفِي، وهي التي يُراد بمدخولها كلُّ فردٍ مِمّا يدلّ عليه اللّفظُ بحسب متفاهَم العُرْفِ، كقولِكَ: «اجتمع **الطُّلاّبُ** في الباحةِ»، تريد جميعَ الأفراد الّتِي يتناولُها لفظُ «الطّلاب» عُرْفًا؛ أي طُلاّب الصفّ أو المدرسة التي أنتَ فيها تبعًا للعُرْف الذي تتفق فيه مع المخاطَب. وكقولِكَ: «تفتحُ **المدارسُ** أبوابَها في الأسبوع الأوّل مِنَ الشّهرِ التّاسع مِنْ كلّ عام»، تريد جميع الأفراد التي يتناولها لفظُ «المدارس» في العُرْفِ المتّفق عليه. والفارقُ بين نوعَي الاستغراق هذَيْن أنّ الأوّل شامِلٌ لكلّ أفرادِ الحقيقة دون استثناء، والثاني شاملٌ كلَّ أفراد الحقيقة التي جرت العادةُ على أن تُفهم من اللّفظ حين يُطْلَقُ؛ أي في الاستعمال المحلّي لجماعةٍ معيّنة.

وإليكَ مختصرًا لِمَا قُلْنا في تعريفِ المسندِ إليه بـ «أل»:

تُستخدَمُ «أَلْ» ـ أو لام التعريف ـ لتأديةِ غرضَين بلاغيَين: الأوّل الإشارةُ بها إلى فَرْدٍ من أفرادِ الحقيقة معهودٍ بين المتكلّم والمخاطب ـ وهذه لامُ العهد الخارجيّ. والثاني الإشارةُ بها إلى الحقيقةِ نفسِها عندما يدلّ مدخولُها على الحقيقة والماهِيّة. والأولىٰ ثلاثة أقسام: لامُ العَهْد الخارجيّ الصريحيّ، ولامُ العَهْدِ الخارِجيّ الكِنائيّ، ولامُ العَهْدِ العلميّ، التي تشمَلُ لامَ العهدِ العِلْميّ الحضوريّ، ولامَ العَهْدِ العلميّ غير الحضوريّ. والثانية ثلاثةُ أقسامٍ أيضًا: لامُ الحقيقةِ أو الجِنْسِ، ولامُ

العهد الذّهنيّ، ولامُ الاستغراقِ، التي تشمَلُ لامَ الاستغراقِ الحقيقيّ، ولامَ الاستغراق العُرْفيّ.

٦ ـ إيرادُ المسند إليه معرّفًا بالإضافة:

يُؤتىٰ بالمسند إليه معرّفًا بالإضافة إلى شيءٍ من المَعارفِ؛ ابتغاءَ تحقيقِ جملةِ أغراضٍ بلاغيّة، نسوقُ لك أهمّها:

١ ـ أنّ الإضافةَ أَخْصَرُ طريقٍ لإحضاره في ذِهْنِ السّامع والمَقامُ مَقامُ اختصارٍ؛ كقَوْلِ جعفر بن عُلْبةَ الحارِثيّ:

هَوايَ مَعَ الرَّكْبِ اليَمانِينَ مُصْعِدُ   جَنِيبٌ، وَجُثْماني بِمَكّةَ مُوثَقُ

وقال بعده:

عَجِبْتُ لِمَسْراها وأنّىٰ تخلّصَتْ   إليّ وبابُ السِّجْنِ دونِيَ مُغْلَقُ
أَلَمَّتْ فحَيَّتْ ثُمَّ قامتْ فودَّعَتْ   فلَمّا تولّتْ كادتِ النفسُ تزْهَقُ
فلا تَحْسَبي أنّي تخشّعْتُ بَعْدَكُمْ   لِشَيْءٍ ولا أنّي مِنَ المَوْتِ أَفْرَقُ
ولا أنَّ قلبي يَزْدَهِيهِ وعِيدُهُمْ   ولا أنّني بالمَشْي في القَيْدِ أَخْرَقُ
ولكنْ عَرتْنِي مِنْ هَواكِ ضَمانةٌ   كما كنتُ ألقى مِنْكِ إذْ أنا مطلَقُ

قال الشّاعرُ الأبياتَ إذ هو سَجينٌ بمكةَ بقتْله واحدًا من بني عُقَيْل، وكان في مكّةَ يومئذٍ رَكْبٌ من اليمن فيه محبوبتُه، وقد أزمعَ الرّكْبُ الرحيلَ، فهامَ الرّوحُ الشّاعِرُ وجادتِ القريحةُ بهذا الذي يستخفّ الرّزينَ ويُصْبِي الرّصينَ. ومعنى مُصْعِد: مُبْعِدٌ ذاهبٌ في الأرض. والجَنِيبُ: المَجْنوب؛ أي أنْ يَجْنُبَ الفارسُ فرَسًا إلى جانب فرسِه في السّباقِ، فإذا فتَرَ المركوبُ تحوّل إلى المجنوب. والجُثْمَانُ: الشّخْصُ. والموثَقُ: المقيّد. يقول الشاعر إنّ مَهْوِيّي (حبيبي) منطلِقٌ في الأرض مع ذلكِ الرّكْبِ اليَمانيّ، يقدّمه قومُه أمامَهم خشيةَ سَبْيِهِ (جنيب)، وأنا سجينٌ مقيّدٌ في مكّة.

والشّاهدُ قوله «هَوَاي»؛ حيث آثر الشّاعرُ هذه الصيغةَ التي هي أَخْصَرُ مِنْ قوله: «الذي أهواه». والاختصارُ هنا مطلوبٌ؛ لضِيق المَقامِ وفَرْطِ السّآم؛ لكونِه في السِّجْن والحبيبُ ماضٍ في الرّحيل.

٢ ـ تضمّن الإضافةِ تعظيمًا لِشَأْنِ المضاف أو المضاف إليه أو غيرهما: فمِنْ تضمُّنِ تعظيمِ شأنِ المضاف قوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾. جيء بالمسند إليه «عبادي» معرّفًا بالإضافة لتضمّن هذه الإضافةِ تعظيمًا لشَأْنِ المضاف «عباد»؛ لأنهم بذلك عبادُ الله سبحانه. وقوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

ومن تعظيم شأن المضاف إليه قولُكَ: سيّارتي بانتظاري، تعظيمًا لَكَ بأنّ لَكَ سيّارة. وقولُك «قصْرِيَ الجديدُ صارَ جاهزًا». ومن تعظيمِ غيرِ المضافِ والمضافِ إليه قولُكَ: «أخو الوزير عندي»، تعظيمًا لشأن المتكلّم بأنّ أخا الوزير عنده. والمتكلّم هنا ليس المضافَ ولا المضافَ إليه.

٣ ـ تضمّن الإضافة تحقيرًا لشأن المضاف، أو المضاف إليه، أو غيرهما:

ـ الأول كقولك: «أخُو اللّصّ قادِمٌ»؛ تحقيرًا للمسند إليه المضاف بأنه أخٌ لِلّصّ، وقد جاء ذلك من طريق الإضافة. ومنه قولُ العَنْبَرِيّ:

لَوْ كنتُ مِنْ مازنٍ لم تستبِحْ إِبلي بنو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بنِ شيبانا

ـ الثاني كقولك: «صديقُ زيدٍ لِصٌّ»، تحقيرًا للمضاف إليه بأن صديقه لصّ.

ـ الثالث كقولك: «ابنُ السارقِ يزورُ زيدًا»، تحقيرًا لزيد بأنّ ابن السارق يزوره. و «زيد» هنا ليس مضافًا ولا مضافًا إليه.

٤ ـ إغناء الإضافةِ عن تفصيلٍ متعذّر، كقولك: «أهلُ البلدِ يسلّمون عليكَ». جئتَ بالمسند إليه مضافًا؛ لتعذّرِ تَعْداد أهلِ البلد أو

تسميتهم واحدًا واحدًا. ومنه قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾. ومنه في الشّعْرِ قولُ حسّانَ بنِ ثابت رضي الله عنه:

أولادُ جَفْنةَ حَوْلَ قبْرِ أبيهِمِ قَبْرِ ابنِ مَارِيةَ الكريمِ المُفْضِلِ

وقول مروانَ بنِ أبي حَفْصَة:

بَنُو مطَرٍ يومَ اللّقاءِ كأنّهُمْ أُسُودٌ لَها في غِيلِ خَفّانَ أَشْبُلُ

الشّاهد في البيتين إضافةُ المسند إليه لتعذّرِ تعدادِ أولاد جفنة وبني مطر؛ ومن ثمّ أغْنَتِ الإضافةُ عن تفصيلٍ متعذّر.

٥ ـ إغناء الإضافةِ عن تفصيلٍ حالَ دونه مانِعٌ مع تيسُّره، كقولك: «عُلَماءُ اللّغةِ حاضرونَ»، حيث جيء بالمسند إليه معرَّفًا، بالإضافة تحاشيًا لتقديم بعض أشخاص العلماء على بعضٍ في الذِّكْر. ومنه في الشعر قول الشاعر:

قومِي هُمُ قتَلُوا، أميمَ، أخي فإذا رَمِيتُ يُصيبُني سَهْمي

يقول الشاعر: يا أميمةُ، إنّ قومي همُ الذين تولّوا قتلَ أخي، فإن قتلتُ أحدًا منهم ثأرًا لأخي أصابني سَهمي. والشّاهدُ قولُه «قومي» حيث جاء بالمسند إليه مضافًا؛ لإغناء الإضافة عن تفصيلٍ تحاشاه الشاعر؛ لأنّ تعدادَ أسماءِ رجال قومه ذمٌّ صريحٌ لهم، ينشأ عنه حِقْدُهم عليه ونُفورُهم منه.

٦ ـ تضمّن الإضافة اعتبارًا لَطِيفًا، وذلك كقولِ الشاعر:

إذا كوْكَبُ الخَرْقاءِ لاحَ بُسحْرةٍ سُهَيْلٌ أذاعتْ غَزْلَها في القَرائبِ

يقولُ إنّ المرأة الحَمْقاء لا تستَعدّ لفَصْلِ الشّتاء البارد بِغَزْل الصُّوف اللازم لِألْبِسةِ أبنائها منذُ فَصْل الصَّيْف، بل تنتظر حتى يَطْلُعَ كوكبُ سُهَيْل سَحَرًا في أوّل الشتاء، وإذْ ذاك يُدْرِكُ البَرْدُ الشديدُ أبناءَها فتُضطرُّ إلى توزيع غزْلها على قَريباتها ليَغزِلْنَه.

والشّاهدُ قولُه «كوكب الخرقاء»، حيث جاء بالمسند إليه «كوكب» مضافًا إلى«الخَرْقاء» فجعله كوكبًا لها؛ تعبيرًا عن تكاسُلِها وإهمالها وأنّه لا ينبّهها على عَملها (غزل الصُّوف) إلّا ظهورُ هذا الكوكب «سُهَيْل»؛ فكأنه لم يُخْلَقْ إلّا لها.

٧ ـ التعبير عن السُّخرِية، كقولِه سُبْحانَه حِكايةً لقول فِرْعَوْنَ لأتباع موسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ جيء بالمسند إليه «رسولكم» مضافًا إلى ضمير المخاطبين؛ إظهارًا للسُّخرية.

رابعًا ـ تنكيرُ المسند إليه:

يُؤتىٰ بالمسند إليه منكّرًا لتحقيق أغراض بلاغية أهمُّها:

١ ـ الدّلالةُ على فرْدٍ غير معيّن مِمّن يصدُقُ عليه اسمُ الجنس، كقوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾، أي: فَرْدٌ من أشخاصِ الرّجال. وقد جيء بالمسند إليه «رَجُلٌ» منكّرًا للدّلالة على فرْدٍ غير معيَّن من أفراد جنس الرّجال. ومنه في الشّعر قولُ الشاعر:

وإنْ أتَـاهُ خـلِـيـلٌ يـومَ مـسْـغَـبَـةٍ   يـقـولُ: لا غـائـبٌ مـالِـي، ولا حَـرِمُ

٢ ـ الدّلالة على نوعٍ من المسند إليه مخالفٍ للأنواع المعهودة، كقوله سبحانه: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾. جيء بالمسند إليه «غِشَاوةٌ» مُنكّرًا؛ للدّلالة على نوعٍ خاصٍّ من الغِشاوة غيرِ ما يتعارفُه النّاسُ، وهو غشاوةُ التّعامي عن آيات الله سبحانه. ويرى السّكاكيّ أنّ التّنكيرَ في «غِشاوة» للتّعظيم، أي: غِشاوةٌ عظيمةٌ تحجُبُ أبصارَهم بالكُلّيّة وتحول بينها وبين الإدراك.

ومنه في الشّعر قولُ الشاعر:

لـكـلِّ داءٍ دَواءٌ يُـسْـتَـطَـبُّ بِـهِ   إلّا الـحـمـاقـةَ أعْـيَـتْ مَـنْ يـداوِيَـهـا

حيث جاء بالمسند إليه «دواء» منكَّرًا للدّلالة به على نوعٍ خَاصّ متميّز من أنواع الأدوية؛ أي دواء خاصّ بذلك الدّاء.

وقول مَيْسُونَ بنتِ بَحْدَل:

لَبَيْتٌ تخفِقُ الأرواحُ فيهِ أحَبُّ إليَّ مِنْ قَصْرٍ مُنيفِ

٣ ـ تعظيم المسند إليه؛ بمعنى أنّه أعظمُ من أن يُعَرَّف ويُعَيَّن، كقوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ حيث جيء بالمسند إليه «حياة» منكَّرًا؛ للدِّلالة على التعظيم؛ إذِ المعنى: حياةٌ عظيمة؛ لأنّ القِصاصَ يحُدُّ من القَتْل العَمْدِ، ويمنع من قتل الجماعة بواحدٍ.

ومنه في الشعر قولُ الشاعر:

لَهُ هِمَمٌ لا مُنْتهىٰ لِكِبارِها وهِمّتُهُ الصُّغرىٰ أَجَلُّ من الدَّهْرِ

أي: هِممٌ عظيمةُ الشّأنِ.

وكذا قولُ حسّانَ:

لنَا حاضِرٌ فَعْمٌ وبادٍ كأنّه شَمَارِيخُ رَضْوى عِزّةً وتكرُّما

٤ ـ تحقير المسند إليه؛ بمعنى أنّه ضئيلُ الشأن لا يمكن أن يُعَرَّف، كقول حَسّانَ:

لقَدْ خابَ قومٌ غابَ عنهمْ نبيُّهمْ وقُدِّسَ مَنْ يَسْري إليهِمْ ويغتدي

جاء بالمسند إليه «قومٌ» منكّرًا؛ للدِّلالةِ على تحقيره، وبيانِ أنّ هؤلاء القوم ـ وهم قريش ـ لا وَزْنَ لهم ولا قيمة؛ لأنّ النبيّ عليه الصلاةُ والسّلام قد هجَرَهم وانصرف عنهم إلى سِواهم.

ويقول البلاغيّون إنّ التّعظيم والتّحقير اجتمعا في قولِ ابن أبي السِّمْط:

لَهُ حَاجِبٌ في كلِّ أمرٍ يَشِينُهُ وليسَ لهُ عَنْ طالبِ العرفِ حاجبُ

يقول: له حاجبٌ عظيمٌ يصْرفُه عن كلّ أمْرِ شائن، وليس بينه وبين طالِبِ نَداهُ حاجبٌ حقيرٌ، فكيف إذا كان عظيمًا؛ أي لا يَفْصِلُه عن طُلاَّب الحاجات أيُّ حاجب. فقد جاء بالمسند إليه في صَدْر البيت وعَجُزِه منكَّرًا؛ للدّلالة على تعظيمه في الأوّلِ وتحقيره في الثّاني. ومثلُ هذا قولُ الشّاعر نفسه:

ولِـلّـهِ مِـنّـي جـانـبٌ لا أُضِـيـعُـهُ   ولِـلّـهـوِ مِـنّـي والـخَـلاعـةِ جـانـبُ

٥ ـ تكثير المسند إليه؛ بمعنى أنه كثيرٌ حتى إنه لا يحتاج إلى تعريف، كقوله سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾، أي رُسُلٌ كثيرون. جيء بالمسند إليه «رُسلٌ» منكَّرًا؛ للدّلالة على كثرته. ومنه قولُهم: «إنّ لَهُ لَإبِلاً وإنّ لَهُ لَغَنَمًا»، أي إنّ له ما لا يُحصى من الإبلِ وما لا يُحصى من الغنم، حينَ يقال ذلك في مقام المَدْح والثّناء.

٦ ـ تقليل المسند إليه؛ بمعنى أنه قليلٌ لا يكاد يُعْرَف ويُعيَّن، كقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. أي: وشيءٌ قليلٌ مِنْ رِضْوانِ الله أكبرُ ممّا ذُكِر قبلُ من الجنة ونعيمها؛ لأنّ رِضى المَوْلى يفوق كلَّ أنواع النعيم؛ إذِ المُحِبُّ الحقيقيّ مَنْ ترك هواهُ لِهوى محبوبه. وكقوله سبحانه في قصّة يحيىٰ عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾. يذهب البلاغيون إلى أنّ التنكير راجعٌ إلى أنّ السّلام واردٌ من جهة الله تعالى؛ أي: سلامٌ من جهةِ الله سبحانه مُغْنٍ عن كلّ تحية؛ ولهذا لم يرد السّلامُ من جهة الله سبحانه إلاّ منكّرًا كقولِه سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، و ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾.

والفرْقُ بين التّعظيم والتّكثير، وكذا بين التّحقير والتّقليل، مَرْجِعُه

اتّصالُ التّعظيمِ والتّحقير بالحَالِ والشّأن، كعلوّ المرتبة وسموّ القَدْر؛ واتّصالُ التّكثير والتّقليل بالكَمّياتِ والمقادير كالمَعْدودات والمَكِيلات والموزونات.

٧ ـ مَنْعُ المقامِ من التعريف، كقول الشاعر:

إذا سَئِمَتْ مُهَنّدَهُ يَمِينٌ لِطُولِ العَهْدِ بدّلَه شِمالا

جاء بالمسند إليه «يمينٌ» منكّرًا، ولم يُعَرِّف بقوله «يمينه» رغم إمكانية التعريف؛ لأنّ إضافتها إليه بأن يُقال «يمينه» تتضمّنُ نِسْبَةَ الكَلَلِ والسآمةِ إلى يمينِ الممدوح، وهذا مخالِفٌ لمُقتضى حال المدْح.

٨ ـ إخفاؤه عن المخاطَب خوفًا عليه، كقولِكَ: «قال لي شخصٌ إنّك لَمْ تُصلِّ الجُمُعَةَ الماضيةَ». حيث جاء المسندُ إليه «شخصٌ» منكّرًا؛ بقَصْد إخفائه عن المخاطب خوفًا عليه.

خامسًا ـ تقييدُ المسند إليه:

الإطْلاقُ والتَّقْيِيدُ وَصْفانِ للحُكْم. ويعني الإطلاقُ أن يُقْتَصر في الجملة على المسندِ إليه والمسندِ حيث لا يكون ثمّة داعٍ إلى قصْرِ الحُكْم ضمنَ نطاقٍ معيّن. والتّقييدُ أن يُزادَ على المسند إليه والمُسْندِ شيءٌ يتعلّق بهما، أو بأحَدِهما، لو أُهْمِل لذهبت الفائدةُ المقصودة، أو كان الحُكْمُ كاذبًا. **ويكونُ التّقييدُ لتَمام الفائدة؛ لِمَا هو معروفٌ في البلاغة مِنْ أنّ الحُكْمَ كلّما زادَ تقييداً زاد خصوصيّةً، وكلّما زادَ خصوصيةً زاد فائدةً. ويحصُلُ التّقييدُ بالتّوابع، وضميرِ الفَصْل، والنّواسخِ، وأدواتِ الشّرْط، والنّفي، والمفاعيلِ الخَمْسة، والحالِ، والتّمييز.** وإليكَ تفصيلَ القول في تقييد المسند إليه بأحد التوابع:

١ ـ إيراد المسند إليه متبوعًا بوصْفٍ:

يُؤتى بالمسند إليه متبوعًا بوَصْفٍ، لتحقيق أغراض بلاغية أهمّها:

أ ـ الكشفُ عن حقيقته وتوضيح معناه، كقولِكَ «الجِسْمُ الطّويلُ العريضُ العميقُ يحتاج إلى فراغٍ يشغله»، جئتَ بالمسند إليه «الجسم» ـ موصوفًا بـ «الطّول» و«العَرْض» و«العُمْق»؛ للكشف عن حقيقته وإيضاحه؛ فإنّ هذه الأوصافَ ممّا يُوضِحُ الجسمَ ويقع تعريفًا له. وكقولِكَ: «المؤمِنُ المصلّي المزكّي المتّقي على هدًى من ربّه».

ب ـ تخصيصُ الوصْفِ للمسند إليه؛ أي تقليلُ الاشتراكِ الحاصل فيه إذا كان نكِرةً، ورفعُ الاحتمالِ الحاصل فيه إذا كان معرفة.

فالأوّل كقوله سبحانه: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾. جيء بالمسند إليه «عبدٌ» موصوفًا بـ «مؤمن»؛ لِقَصْد تخصيصه، أي تقليل الاشتراك فيه؛ إذ يخرُجُ بهذا التخصيص العبيدُ الذين لا يشتركون في هذه الصفة. ومنه قولُ المصطفى عليه الصلاةُ والسلام: «لَأَمةٌ سَوْداءُ وَلُودٌ خيرٌ من بَيْضاءَ لا تلِدُ».

ومنه أيضًا: «قليلٌ دائمٌ خيرٌ من كثيرٍ منقطع».

والثاني كقولِكَ: «زيدٌ التّاجرُ عندنا». وصْفُه بـ «التّاجر» يرفعُ احتمالَ غير التاجر.

جـ ـ مدْحُ المسند إليه أو ذَمُّهُ عندما يتعيّن الموصوفُ قبل ذِكْرِ الوصْف. كقولك: «زارنا **أحمدُ العالِمُ** وغادَرَنا **أمجدُ الجاهلُ**». جئْتَ بالمسند إليه موصوفًا في الموضِعَيْن؛ قصْدًا إلى المدْحِ والثناء في الأول بِوَصْفه بالعِلْم، والذمّ والثلْب في الثاني بوَصْفه بالجهل. وينبغي أن يكون كلٌّ من «أحمد» و «أمجد» متعيّنًا محدّدًا قبلَ ذكر الوصف؛ ليتفرّغ الوصفُ للمَدْحِ والذّمّ.

ومن مَدْحِ المسندِ إليه في الشعر قولُ حسّان:

جزى اللّهُ ربُّ الناس خيرَ جزائِهِ رَفِيقَيْنِ قالا خيمَتَيْ أمّ مَعْبَدِ

وقولُ حسّان أيضًا يرثي حَمْزة بنَ عبدِ المطَّلِب حين قدمتْ بِنتُه أُمامةُ تسأل عن أبيها:

فإنَّ أباكِ الخَيرَ حَمْزةَ فاعْلمي وَزِيرُ رسولِ اللّهِ خيرُ وَزيرِ

ومن ذمّ المسند إليه قول سبحانه: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾.

د ـ تأكيدُ المسند إليه وتقريرُه حين يتضمّنُ معنى ذلك الوصفِ الذي وُصِفَ به، كقولِهم: «أمسِ الدّابِرُ كان يومًا عظيمًا»، جاء المسندُ إليه موصوفًا؛ قَصْدًا إلى توكيده وتقريره؛ لأنّ «أمسِ» يتضمّن معنى الدُّبور (أي المُضِيّ)، فكأنّك قُلْتَ: أمسِ أمسِ.

هـ ـ الترحّمُ على المسند إليه، كقولِكَ: «قدمَ زيدُ المِسْكينُ»، و «أخوكَ المُحْتاجُ يسألُكَ المساعدةَ».

و ـ بيان المقصود من المسند إليه، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾. وُصِف المسندُ إليه الأوّلُ «دابّة» بما يخُصّ الجِنْسَ وهو في «الأَرْضِ»، ووُصِف الثّاني بما يخُصُّ الجِنْسَ أيضًا وهو «يطير بجناحيه» لِبَيانِ المقصود فيهما؛ إذْ أفادَ الوصْفُ كلَّ جِنْسِ الدّوابّ وكلَّ جِنْسِ الطّيور. يقول الزَّمَخْشَرِيُّ وكأنْ قِيلَ: «ومَا مِنْ دَابّةٍ قطُّ في جميع الأَرَضِينَ، وما من طائرٍ في جوّ السّماءِ مِنْ كلّ ما يطيرُ بجناحَيْه إلّا أَمَمٌ أمثالكم، تُراعىٰ شُؤونُها ولا يُهْمَل أمْرُها».

٢ ـ إيراد المسند إليه مؤكَّدًا:

يُؤتىٰ بالمسند إليه مؤكَّدًا؛ لتحقيق أغراضٍ بلاغية أهمُّها:

أ ـ تقريرُه وتحقيقُ مفهومِه عند الإِحْساسِ بغَفْلةِ السّامع، كقولِكَ: «جاءَ الأمِيرُ الأميرُ». جئتَ بالمسند إليه «الأمير» مؤكَّدًا بتكرار لفظه

«الأمير»؛ لِغَرضِ جَعْلِهِ مستقِرًّا محقَّقًا ثابتًا لا يُظَنُّ به غيره. تفعلُ ذلك عندما تأنسُ غفلةَ السّامعِ أو ضَعْفَ انتباهه لِمَا تريد أن تقول.

ب ـ التقريرُ ودَفْعُ توهّم التكلُّم بالمَجاز، كقولِكَ: «قَبضَ على اللّصّ الأميرُ الأميرُ»، و «الأميرُ نفسُهُ أو عَيْنُه». تجيء بالمسند إليه «الأمير» مؤكّدًا بتكرار لفظ «الأمير» و «نفسُه أو عينه»؛ للتقرير ودفع توهّم السامع أنّ الّذي قَبضَ على اللّصّ أحدُ رجالِ الأمير بأمرِ منه، ولِكَيْلا يقَعَ في رُوعِه أنّ المتكلّمَ أسْندَ القَبْضَ إلى الأميرِ مجازًا من إسنادِ الفِعْل إلى سببه.

جـ ـ دفعُ توهُّم السَّهْو، كقولِكَ: «جاءني **أحمدُ** أحمدُ» تجيء بالمسند إليه «أحمدُ» مؤكّدًا بـ «أحمد»؛ لِدَفْع توهّم المخاطَبِ أنّ الجائِيَ غيرُ أحمدَ، وأنّك ذكرْتَ أحمد على سبيل السّهو.

د ـ دفع توهّم عدم الشّمول، كقوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾. جيء بالمسند إليه «الملائكة» مؤكّدًا بـ «كلّهم» و«أجمعونَ»؛ لِئَلّا يتوهّم المخاطَبُ أنّ الذي سَجَدَ بعضُ منهم. ومِثْلُه قولُه سبحانه: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

هـ ـ إرادةُ انتقاشِ مَعْناه في ذِهْن السّامع، كقوله سبحانه: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ جِيءَ بالمسند إليه (الضميرِ المستتر فاعل اسكن) مؤكّدًا بـ «أنت»؛ قَصْدًا إلى تثبيت معناه في ذهن السامع.

٣ ـ إيرادُ المسند إليه مبدَلًا منه:

يُؤتى بالمسندِ إليه مبدلًا منه لتحقيق غاية بلاغية هي:

زيادةُ التقريرِ؛ أي إفادةُ أمرٍ زائدٍ على النِّسْبةِ هو تقريرُ المسندِ إليه في ذهن السّامع. مثالُ ذٰلِكَ أن تقولَ: «زارني أخوكَ محمّدٌ».

والغَرَضُ من البَدَلِ أساسًا هو أن يكون مقصودًا بالنِّسْبةِ، كنِسْبة الزيارة إلى «محمّد» في مثالنا هذا. والتقرير زيادةٌ تحصل تَبَعًا وضِمْنًا؛ حيث تتضمّنه صيغةُ البدل.

- وإليكَ الأمثلةَ الموضحةَ لذٰلِكَ:

- تقول في بدَلِ المطابقة (بدل الكلّ): «جاءني أخوكَ زيدٌ». جئتَ بالمسند إليه «أخوك» مُبْدَلاً منه لـ «زيد»؛ قَصْدًا إلى إسنادِ الحُكم «المجيء» إلى البَدَل «زيد». وقد تضمّن ذلك تقريرَ المسند إليه «أخوك»؛ لأنك كرَّرْتَهُ من حيث معناه، فمعنى «أخوك» هو معنى «زيد»، ومتى تكرَّرَ فقدْ تقرَّر؛ أي ثَبَت. ومِنْ ذٰلك قولُه سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وقولُه سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

- وتقول في بَدلِ «البَعْضِ»: «جاءني القومُ أكثرُهُمْ». جئتَ بالمسند إليه «القوم» مبدَلًا منه للبَدَل «أكثرُهم»، والأوّلُ «القوم» متضمِّنٌ للثّاني «أكثرُهم»؛ أي إنّك ذكَرْتَ في الثاني ما تضمّنه الأوّلُ بدِلالته الكُلّيّة، ومن التّكرير حصَلَ التّقريرُ.

- وتقولُ في بَدَلِ الاشتمال: «سُلِبَ زيدٌ ثوبُهُ». جئتَ بالمسند إليه «زيد» مُبْدَلًا منه لِلْبَدَلِ «ثوبُه». والمُبْدَلُ منه «زيدٌ» يُشعِرُ إشعارًا إجماليًّا بالبَدَلِ «ثوبُه»، فالنفسُ قبل ذكره تترقّب شيئًا يستدعيه المُبْدَلُ منه، حتى إذا ذُكِر كان «متكرِّرًا»، والتكريرُ يوجبُ التقريرَ.

٤ ـ إيرادُ المسند إليه متبوعًا بعَطْف بَيَان:

يُؤتى بالمسند إليه متبوعًا بعَطْفِ بيانٍ لأغراض بلاغية يدلّ عليها، ومِنْ ذٰلِكَ:

أ ـ مجرّد إيضاح المتبوع بِاسْمِ مختصّ به، كقولِ الشّاعر:

وُلِدَ الفتى العُذْرِيُّ عروةُ بَعْدَما دارتْ بِوَالِدِه رحى الحَدَثانِ

جاء بالمسند إليه «الفتى» متبوعًا بعَطْف بيان «عروة»؛ ابتغاءَ إيضاحه بِاسْمِ مُختصّ به. ومِثْلُه قولُكَ: «حدّثنا أبُو عبيدةَ مَعْمَرُ بنُ المثنّى». ويكفي في الإيضاح أن يوضحَ الثاني الأوّلَ عند اجتماعِهما، وإن لم يكنْ أوضحَ منه عند الانفرادِ، نحو: عليٌّ زينُ العابدين، وعَسْجَدُ ذَهَب.

ب ـ الإيضاحُ والمَدْحُ، كقولِكَ: «جاء عليٌّ زَيْنُ العابدين». جِئتَ بالمسند إليه «عليّ» متبوعًا بعَطْف بيانِ «زين العابدين»؛ قَصْدًا إلى إيضاحه والثّناء عليه. وجعلوا منه في غير المسند إليه قولَه سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾. ذكَرَ الزمخشريُّ أنّ البيتَ الحرامَ عَطْفُ بيانٍ لِلْكَعْبةِ جيء به للمَدْح لا للإيضاح، كما تجيءُ الصّفة لذلك.

٥ ـ إيرادُ المسند إليه متبوعًا بعَطْفِ نَسَقٍ:

يُؤتى بالمسند إليه متبوعًا بعَطْفِ نَسَقٍ لأغراض بلاغية يدلّ عليها، ومنها:

أ ـ تفصيلُ المُسْنَدِ إليه معَ اختصارِ التركيب حين يكون العَطْفُ بالواو، كقولِكَ: «زارني محمّدٌ وعَلِيٌّ». ويتمثّل التّفصيلُ في ذِكْر المعطوفِ عليه والمعطوفِ كلّ بِاسْمِه الخاصّ، كما أنّ هذا التركيبَ أَخْصَرُ من قولِكَ: «زارني مُحَمّدٌ» و «زارني عليٌّ»، ولا يُسْتَدَلّ مِنْه على تفصيل المُسْنَدِ الفِعْلِ بأنّ الزّيارتين حصَلَتا معًا أو مرتّبتين؛ لأنّ الواوَ لِمُطْلقِ الجَمْع. على أنّ الجَمْعَ الذي تُحقّقه الواوُ واحدٌ من ثلاثة:

١ ـ جَمْعٌ في ذاتٍ واحدة، كقولِكَ: «قام عليٌّ وقعد»؛ حيث جَمَعَتِ الواوُ صِفَتي القيام والقعود في ذاتٍ واحدة هي ذاتُ «عليّ».

٢ ـ جَمْعٌ في صِفَةٍ واحدة، كقولِكَ: «قام عليٌّ وزيدٌ»، حيث جَمَعتِ الواوُ ذاتَ عليّ وذاتَ زَيْدٍ في صِفةٍ واحدةٍ هي القيام.

٣ ـ جَمْعٌ في الوُجود، كقولِكَ: «قام عليٌّ وقعدَ زيدٌ»، حيث جَمَعتِ الواوُ بين قِيامِ «عليّ» وقُعودِ «زيد» في الوجود، ويكون ذلك في عَطْف الجمل.

ب ـ تفصيلُ المُسْنَدِ مع الاختصار إذا كان العطْفُ بالفاءِ أو ثمّ أو حتّى:

ـ فالأوّلُ كقولِكَ: «زارني محمّدٌ فَعَلِيٌّ»، جئتَ بالمسند إليه «محمّد» معطوفًا عليه؛ بِقَصْد تفصيل المُسْنَدِ «زار»؛ أي بيان أنّ الزيارة وقعتْ من «محمّد» أوّلًا ثم مِنْ «عَلِيّ» ثانيًا من غير مُهْلةٍ.

ـ والثاني كقولك: «زارني محمّدٌ ثمّ عليٌّ»، جئت بالمسند إليه معطوفًا عليه؛ لِقَصْد تفصيل المسند «زار»؛ أي بيان أن الزيارة وقعتْ من «محمّد» أوّلًا ومن «عليٍّ» ثانيًا، معَ مُهْلةٍ دلّت عليها ثُمّ.

ـ والثّالث كقولِكَ: «رسَبَ الطّلّابُ حتى المجتهدون»، وقولك: «نجحَ الطُّلاّبُ حتى الكسالى»، حيث جئتَ بالمسند إليه «الطُّلّاب» في المِثالين معطوفًا عليه بحتّى؛ لِقَصْد تفصيل المسند «رسَبَ» و «نجَحَ»؛ أي بيان أنّ الرّسوبَ حصَل من الطلاب بَدْءًا من الضّعاف إلى أن حَصَل من المجتهدين (المثال الأول)، وأنّ النّجاحَ حَصَل من الطُّلّاب بَدْءًا من المجتهدين إلى أن حصل من الكسالى (المثال الثاني).

ج ـ ردُّ السّامعِ إلى الصَّواب مع الاختصار، وذلك في:

ـ العطف بـ «لا» كقولك: «جاء زيدٌ لا عمرو». جِئْتَ بالمسند

إليه معطوفًا عليه؛ لِقَصْدِ ردّ السّامع إلى الحُكْمِ الصّائب، إذا كان قد فَهِم أنّ الجائي «عمرو» لا «زيد».

ـ العَطْفُ بـ «لكن»، كقولك: «ما جاءني زيدٌ لٰكِنْ عَمْرو»، تقول هذا ردًّا على مَنْ زعم أنّ الجائي زيد لا عمرو.

د ـ صَرْفُ الحُكْم عن محكومٍ عليه إلى محكومٍ عليه آخر، في العَطْف بـ «بل»، كقولِكَ في الإثباتِ: «**جاءني زيدٌ بلَ عمرو**». جئتَ بالمسند إليه «زيد» معطوفًا عليه بـ «بل»؛ لِقَصْد نَقْلِ الحُكْمِ «المجيء» من المحكومِ عليه الأوّلِ «زيد» إلى المحكومِ عليه الثاني «عمرو». والمعنى عندئذٍ: ثبوتُ المجيء لعمرو. وكقولكَ في النفي: «ما جاءني زيدٌ بل عمرو».

هـ ـ الشّكّ من المتكلّم أو التشكيك للسّامع أو إبهام الحُكْمِ عليه في العَطْف بـ «أو»:

ـ الأول والثاني كقولِكَ: «قابلني عبّاسٌ أو عليّ». جئتَ بالمسند إليه «عبّاس» معطوفًا عليه بـ «أو» إمّا لوقوع الشكّ من المتكلّم فلا يدري مَنْ قابَلَه حقيقةً: عبّاس أو عليّ؛ وإمّا لِقَصْد تشكيك السامع.

ـ والثالث كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾. جيء بالمسند إليه «اسم إنّ» معطوفًا عليه بـ «أو»؛ ابتغاءَ إبهامِ الحُكْم على المخاطَبين. والمعنى: نحنُ فريقان: مهتدٍ وضالٌّ، فإمّا أن يكون المهتدون إيّانا والضالّون إيّاكم، وإمّا العكس. كلُّ ذلك تجنّبًا للإيضاح والتصريح بِرَمْيِهم بالضّلال المبين الذي ينشأ عنه ازديادُ لَجاجِهم وإثارةُ غضبهم واشتدادُ عِنادهم ومكابرتهم في الوقت الذي تُنْشَد هِدايتُهم. قال الزّمخشريُّ في تفسير هذه الآية: «وهذا من الكلام المُنْصِفِ الذي كلُّ مَنْ سمِعَه منْ مُوالٍ أو مُشاقٍّ قال

لِمَن خُوطب به: قد أنصفَك صاحبُك. وفي دَرْجِه بعد تَقْدِمَة ما قدّم من التقرير البليغ دِلالةٌ غيرُ خفيّة على مَنْ هو من الفريقين على الهُدى ومَنْ هو في الضّلال المبين. ولكنّ التعريض والتورية أفضىٰ بالمجادِلِ إلى الغَرَض وأهجمُ به على الغَلَبة مع قلّةِ شَغْبِ الخَصْم وفلِّ شَوْكَتِه».

و ـ التخيير والإباحة، والفرْقُ بينهما أنّ الإباحة لا تمنع من الجَمْع بين التّابع والمتبوع، أمّا في التخيير فإنّ الحُكْمَ لأحدهما لا مَحالةَ. كقولِكَ: «لِيَقْرَأِ الدَّرسَ محمّدٌ أو عليّ»، تجيء بالمسند إليه «محمّد» معطوفًا عليه بـ «أو» لِقَصْد التخيير إن كنت تقصِدُ قصْرَ القراءةِ على أحدِهما؛ أو لِقَصْد الإباحة إن كنت تَقْصِد تحقّق القراءة من أحَدِهما أو منهما معًا.

٦ ـ إيراد المسند إليه مُعْقَبًا بضمير فَصْل:

يؤتى بالمسند إليه متبوعًا بضمير فَصْلٍ للأغراض التي يدلّ عليها، ومنها:

أ ـ تخصيص المسندِ إليه بالمُسْنَدِ؛ أي قصْرُ المسند على المسند إليه، كقولِه سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، جيء بالمسند إليه «الله سبحانه» متبوعًا بضمير الفَصْل «هو»؛ لِقَصْد تخصيصه ـ جلّ وعلا ـ بقَبول التوبة من عباده. إذ المعنى: لا يقبلُ التّوبةَ عن العِبادِ إلّا الله. وكقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

ب ـ تأكيد التخصيص عند تضمُّنِ التركيب مخصِّصًا آخر، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾. يتضمّن التركيبُ هنا مخصِّصًا آخرَ هو تعريفُ المسند إليه والمسند، ومن ثَمّ جاء المسندُ إليه متبوعًا بالضمير؛ ليؤكِّد هذا التخصيصَ المُوجَدَ من قبل.

ومنه شعرًا قولُ المتنبّي:

إذا كانَ الشَّبابُ السُّكْرَ والشَّيْـ ـبُ همًّا فالحَياةُ هِيَ الحِمامُ

جـ - تمييز الخبَرِ عن الصِّفَةِ، كقولِكَ: «العَالِمُ هو العامِلُ بِعِلْمِهِ». جئتَ بالمسند إليه «العالِم» متبوعًا بضمير الفَصْل «هو»؛ للدّلالة بهذا الضمير منذ البَدْءِ على أنْ ما بَعْدَ المسند إليه خبرٌ لا نعْتٌ. إذ يُوهِمُ إسقاطُ الضمير أنّ «العامِل» وصْفٌ للعالِم وأنّ الخبر سيأتي بعْدُ. وكقولِكَ: «الألْمَعِيُّ هو ذو البصيرة النافذة».

سادسًا: تقديم المسند إليه:

الصّورةُ التي يتّخذها تتابعُ أجزاءِ الكلام هي صِورةُ ترتُّبِ المعاني في الذِّهن؛ فما الألفاظُ إلّا قوالبَ المعاني وصوَرَها الصّوتية التي تُمَكِّن من الاحتفاظ بها وتوصيلها إلى الآخرين. وعليكَ أنْ تعلم أنّ مرتبة المُسْندِ إليه «التقديمُ»؛ لأنّ مدلولَه هو الذي يخْطِر في الذهن أولًا؛ لأنّه المَحْكومُ عليه؛ والمحكومُ عليه سابقٌ للحُكْم. ويؤتى بالمسند إليه مقدَّمًا لأغراضٍ، منها:

أ - أنْ تَقْدِيمَه هو الأصلُ ولا مقتضىٰ للعدول عنه. أمّا كونُ الأصْلِ فيه التقديم فمرجِعُه إلى أنّ مدلولَه هو الذّاتُ المحكومُ عليها، والمسند هو الوصْفُ المحكوم به؛ أي إنّه مطلوبٌ للمسند إليه. وهكذا فإنّ تعقُّلَ (إدراك) الذّاتِ المحكومِ عليها سابقٌ على تعقّلِ الوصْفِ المحكوم به، كقولِكَ: «محمّدٌ رسولُ اللّهِ». جئتَ بالمسند إليه «محمّدٌ» مقدَّمًا؛ لأنّ تقديمَه هو الأصْلُ. ذلك أنّه هو المحكومُ عليه بالرّسالة، وينبغي تقديمُ ذِكْرِه. وكقولهم في الأمثال: «الحقُّ أبْلَجُ والباطِلُ لَجْلَجُ».

ومنه قولُ عليّ بن الجَهْم:

اللّهُ أكبَرُ، والنّبيُّ مُحمّدُ   والحَقُّ أبلَجُ، والخليفةُ جَعْفَرُ

ب ـ تمكّن الخبر في ذهن السامع؛ لأنّ في المبتدأ تشويقًا إليه، كقول المعرّيّ:

والّذي حَارتِ البَرِيّةُ فِيهِ   حَيَوانٌ مَسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمادِ

المعنى كما يقول بعضُ العُلماء: تحيّرتِ الخلائقُ في المَعادِ الجِسْمانيّ والنّشور الذي ليس بنفسانيّ. وقد جاء بالمسند إليه المبتدأ «الّذي» مقدَّمًا؛ لِيُمكّن الخبرَ «حيوانٌ مستحدثٌ من جماد» في ذهن السّامع. ومبعثُ التمكين أنّ صِلَةَ المبتدأ «حارت البريةُ فيه» تثير في النفسِ الدّهشةَ والتّساؤل عن هذا الذي حيّر البريّة كلَّها، وتأذنُ ـ بسبب طولها ـ بمزيدِ ترقُّبٍ وانتظار من جانب المتلقّي للخبرِ الذي سيُلقى عليه، حتى إذا جاءه بعد هذا التشوّق ركَز في ذهنه كأنه شيءٌ مقطوع به، ولا مُحاجَّةَ فيه.

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر:

ثلاثةٌ تُشرِقُ الدُّنيا بِبَهْجَتِها   شمسُ الضّحى، وأبو إسْحاقَ، والقَمَرُ

ج ـ تعجيلُ المسرّة للتفاؤل، أو المساءة للتطيّر:

ـ الأوّلُ كقولِكَ: «**العَفْوُ** عنكَ صَدَر به الأمرُ»، و «**سَعْدٌ** في دارِكَ»، و «**فَرَحٌ** سيزورُكَ».

ـ والثّاني كقولك: «**القِصَاصُ** أمرٌ محتومٌ في هذه القضيّة»، و «**السَّفّاحُ آتٍ في نهاية الشّهر**»، و «**حَرْبٌ في الطريقِ إليكَ**».

تقدّم المسندُ إليه في هذه الأمثلة جميعًا؛ ليحدِثَ ذلك في نفس المتلقّي انطباعًا يناسب طبيعةَ الاسم الذي يُفتتح به الكلامُ.

د ـ التّعجيلُ بإظهار تعظيمه أو تحقيره حين يوحي اللّفظ بالتّعظيم أوبالتّحقير. ويوحي اللّفظ بذلك:

ـ إمّا بذاته، كقولِكَ: «أبو الخَيْرِ زارَنا» و «أبو المَوْتِ غادَرَنا».

ـ وإما بإضافةٍ، كقولِكَ: «حفيدُ المَلِك عندنا»، و «ابنُ الجلاّدِ مرَّ بنا».

ـ وإمّا بِوَصْفٍ، كقولِكَ: «رجلٌ كريمُ المَحْتِدِ زارَنا» و «تلميذٌ بليدٌ نُقِل إلينا».

تقدّم المسندُ إليه في هذه الأمثلة جميعًا؛ للتعجيل بإظهار تعظيمه أو تحقيره؛ لأنّ اللفظ يوحي بالتعظيم أو التحقير.

هـ ـ تعجيل التلذّذ بذكره، كقول جَميل:

بُثَيْنةُ ما فيها إذا ما تَبَصَّرَتْ مُعَابٌ، ولا فيها إذا نُسِبَتْ أَشْبُ

وقولِ قيس:

باللهِ يا ظَبَيَاتِ القاعِ قُلْنَ لنا: لَيلايَ مِنْكُنَّ، أمْ ليلى مِنَ البَشَرِ

و ـ تعجيل التبرّك به، كقولِكَ: «اللّهُ غايتُنا»، و «محمّدٌ نبيُّنا»، و «مكّةُ المكرّمةُ عاصمةُ ديارِ الإسلام».

ز ـ إفادةُ تخصيص المسند إليه بالخَبَرِ الفِعْليّ، أو قَصْر الخبر عليه إن وَلِيَ المسندُ إليه حَرْفَ نَفْيٍ، كقولك: «ما أنا قلتُ هذا» ـ بمعنى: لم أقلْهُ، مع أنّه مقولٌ لغيري. أفاد تقديمُ المسند إليه «أنا» نَفْيَ الفعل عن المتكلّم، وأفاد أيضًا ثبوتَ هذا الفعل لغير المتكلم. ومنه في الذكر الحكيم قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾. ومنه في الشعر قولُ المتنبي:

ومَا أنا أسْقَمْتُ جِسْمي بِهِ وَلا أنا أضْرَمْتُ في القَلْبِ نارا

ونبّهك هنا على **بعض الصِّيغ الخاطئة لتكون في نَجْوةٍ منها**:

١ ـ لا يَصِحّ أن تقول: «ما أنا قلتُ هذا ولا غيري»؛ إذ يُفْهَم

من «ما أنا قلتُ» ثبوتُ كونِ هذا القولِ صادِرًا عن إنسانٍ غير المتكّلم. ويعني قولُك: «ولا غيري» نفيَ كَونِه صادرًا عن أحَدٍ البتّةَ؛ وفي هذا تناقض؛ لأنّ المقولَ لا بدّ له من قائل.

٢ ـ لا يصِحُّ أيضًا أن تقول: «ما أنا رأيتُ أَحَدًا»؛ لأن هذا القولَ يقتضي أن يكون إنسانٌ غيرُك قد رأى كلّ أحَدٍ من الناس؛ إذْ إنّه نفى عنكَ الرؤيةَ على وجه العموم في المفعول، فيجب أن تُثْبَت لغيرك على وجه العموم في المفعول، حتى يتحقّق تخصيصُك بهذا النفي، أي قصْرُ عدمِ الرؤية عليك.

٣ ـ لا يصِحُّ أيضًا أن تقول: «ما أنا ضَرَبْتُ إلّا زيدًا»؛ لأنّه يقتضي أن يكونَ إنسانٌ غيرُك قد ضربَ كلَّ أحدٍ سوى زيد؛ لأنّ المستثنى منه مقدَّرٌ عامّ، وكلُّ ما نفيتَه عن المذكور على وجْهِ الحَصْر يجب أن تثبتَه لغيره.

ح ـ إفادة تخصيص المسند إليه بالخبر الفِعْليّ أو تقوية الحكم، إن لم يَلِ المسندُ إليه حَرْفَ النّفي. والتركيبُ المفيد لذلك يتخّذ صورتين:

١ ـ ألّا يكون في الكلام حَرْفُ نفيٍ أصْلًا، كقولِكَ: «محمّدٌ سعىٰ في حاجتك»، و «أنا كتبْتُ في شأنِكَ»، و «رجلٌ عُنِيَ بِمَسْألَتِكَ».

٢ ـ أن يكون حَرْفُ النفي متأخّرًا عن المسند إليه، كقولك: «محمّدٌ ما سعىٰ في حاجتِكَ»، و «أنا ما كتبتُ في شأنِكَ»، و «رجلٌ ما عُنِيَ بمسألتك».

والصّورتانِ قد تأتيانِ للتخصيص وقد تأتيانِ لتقوية الحُكْمِ حَسْبما يقتضي المقام؛ وإليكَ بيانَ ذلك:

أ ـ يكون تقديمُ المسند إليه للتخصيص ردًّا على مَنْ زعَم انفرادَ غيرِ المسند إليه المذكور بالخبَر الفعليّ أو زعَمَ مشاركةَ غيرِه في الخبر الفعليّ، كقولِكَ: «أنا سعيتُ في حاجتك»، تقول هذا لِمَنْ زَعَم انفرادَ غيرِك بالسَّعْي (فيكون قَصْرَ قَلْبٍ) أو مشاركةَ غيرِك لكَ في السَّعْي (فيكون قَصْرَ إفراد). وفي مقدورك تأكيدُ الأول (الردّ على زاعم انفراد غيرك) بتعبير إضافيّ من نوع «لا غَيْري»، فتقول مثلاً: «أنا سعيتُ في حاجتِك لا زيدٌ» و «لا عمرو» و «لا مَنْ سِوايَ». وتأكيد الثاني (الردّ على زاعم المشاركة) بتعبيرٍ من نوع «وحْدِي»، فتقول مثلاً: «أنا سعيتُ في حاجتك منفردًا» أو «متوحِّدًا» أو «غيرَ مشارَكٍ»... ويرمي التأكيدُ إلى إزالة شبهةٍ خالجتْ قلْب السَّامع.

ب ـ تَقَوّي الحُكْمِ وتقريرُه في ذهن السّامع، دون قصْد التخصيص، كقولِكَ: «هو يعطي الجزيلَ»، تريد أن تجعل السّامعَ يستيقن أنّ إعطاءَ الجزيل دأبُه وأنّه قد تمكّن من نفسه. ومنه في الذّكر الحكيم قولُه سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾.

هذا حين يكون الفعل مُثْبَتًا (الصّورة الأولى)، ولا يختلف الأمرُ حين يكون الفعلُ منفِيًا (الصورة الثّانية)؛ فقد يأتي تقديم المسنِد إليه للتخصيص، كقولك: «أنتَ ما سَعيْتَ في حاجتي»، تقْصِدُ تخصيصَه بعَدَم السَّعْي، أو للتَّقَوّي، كقولِكَ: «أنتَ لا تكذبُ» تقْصِدُ تقويةَ الحُكْم المنفيّ «عدم الكذب» وتقريرَه.

ونسوقُ لكَ هنا ما يقولُه عبدُ القاهر الجُرْجانيّ عن سبب «تقوّي الحُكْم» فيما نحن بشأنه: **«إنَّ الاسمَ لا يُؤتى به معَرًّى من العوامل إلّا لِحَديثٍ قد نُوِيَ إسنادُه إليه، فإذا قلتَ: عبدُ اللّهِ، فقد أشعَرْتَ قلْبَ**

السّامع بذلك بأنّكَ تريدُ الحديثَ عنه؛ فهذه توطِئةٌ له وتَقْدِمةٌ للإعلام به، فإذا جئتَ بالحديث فقُلْتَ: قامَ، مثلاً، دخلَ على القلبِ دخولَ المأنوس به، وذلك لا محالةَ أشدُّ لثبوته وأنفى للشّبهة وأمنعُ للشكّ. وجملةُ الأمرِ أنه ليس إعلامُك بالشيء بغْتَةً مثلَ الإعلام به بعد التنبيه عليه؛ لأنّ ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام».

تقديمُ لفظ «مثل» ولفظ «غير»:

يقول البلاغيون إنّ من المسند إليه الذي يكون تقديمُه كاللّازم لفظَ «مثل» ولفظ «غير» حين يُستعملان على سبيل الكِناية، كقولِكَ:

«مِثْلُكَ لا يبخلُ» بمعنى أنت ، تبخل.

«غيرُكَ لا يجود» بمعنى أنت تجود.

أنتَ في المثالين لا تقْصِد التَّعريضَ بغير المخاطب، بل تريد نفْيَ البُخْلِ عن مخاطبك بطريق الكِناية؛ أي بِأَنْ تنفي البخلَ عن كلّ مَنْ كان على صِفَتِه، وبذلك تنفيه عنه (المثال الأول)؛ أو بأن تنفي الجودَ عن غيره فتثبته له؛ لأنّ الجودَ صِفَةٌ لا بدّ لها من متّصفٍ بها حاملٍ لها. ولأنّ **الغرضَ من هذين التّركيبين إثباتُ الحُكْم بطريق الكناية التي هي أبلغُ من التّصريح، ولأن التقديم نفسَه يفيدُ تقويةَ الحُكْم**، كان التقديم مع هذين التركيبين كاللّازم، لكي تتوافق دِلالات الخصوصيّات.

ومنه في الشِّعرِ قولُ المتنبي يعزّي سَيْفَ الدَّوْلة:

مِثْلُكَ يَثْنِي الحُزنَ عن صَوْبِهِ   ويَسْتَرِدُّ الدّمعَ عن غَرْبِهِ

وقولُ أبي تمّام:

وغيري يأكُلُ المعروفَ سُحْتًا   وتَشْحَبُ عِنْدَهُ بِيضُ الأيادي

ط ـ إفادة شمول النّفي كلَّ أفراد المسند إليه حين يكون من

أدوات العموم؛ وذلك ـ كما يرى الشيخُ عبد القاهر ـ عندما لا تقع أداة العموم في حيز النفي بأن تتقدّم على أداة النفي لفظًا ورتبةً، كقولك: «كلُّ إنسانٍ لم يقم»، إذْ لم تقع أداة العموم «كلّ» في حيز النفي بل تقدّمت عليه لفظًا، كما هو واضح، ورتبةً؛ لأنها مبتدأ والجملة المنفية بعدها خبرها. **ومِنْ ثَمّ يفيدُ التّقديمُ شمولَ النفي أو عمومَ السَّلْب**؛ فالقيام منفيٌّ عن كلّ الناس دون استثناء. وفي هذا يقول فيلسوفُ البلاغة العربية الأوّل عبدُ القاهر: «والعِلّةُ في أنْ كان ذلِكَ كذٰلِكَ أنّك إذا بدأْتَ بكُلٍّ كنتَ قد بنيتَ النفي عليه وسَلّطْتَ الكلّيّةَ على النفي وأعملْتَها فيه؛ وإعمالُ معنى الكلّية في النفي يقتضي أن لا يشذّ شيءٌ عن النفي». ومن هذا القبيل (شمول النفي كلّ أفراد المسند إليه حين يكون من أدوات العموم) قولُ أبي النَّجم العِجْليّ:

قدْ أصْبَحَتْ أمُّ الخِيارِ تدّعي   عليَّ ذَنْبًا كلُّهُ **لمْ أصنعِ**

وقولُ دِعْبِل بنِ عَلِيّ الخُزاعيّ:

فوالله ما أدري بأيِّ سهامِها   رَمَتْني **وكلٌّ عندنا لَيسَ بالمُكْدِي**
أبِالجِيدِ أمْ مَجْرى الوِشاحِ وإنّني   لأتْهِمُ عينَيْها مع الفاحِمِ الجَعْدِ

وقولُ الآخر:

فكَيْفَ وكُلٌّ لَيْسَ يَغْدُو حِمامَهُ   ولا لامْرِىءٍ عمّا قضى اللّهُ مَزْحَلُ

أمّا إذا وقعت أداةُ العموم في حيز النفي (إذا وقعت بعْدَه لفظًا ورتبةً أو رتبةً فحسب) فإنّ التركيب يفيد نَفْيَ الشّمول أو سَلْبَ العموم؛ ويعني هذا ثبوتَ الحُكْم لبعض الأفراد دون بعض. ومنه قولُ البُحْتُرِيّ.

وَمَا كُلُّ ما بُلِّغْتُمُ صِدْقُ قائلٍ   وفي البَعْضِ إزراءٌ عَلَيَّ وعَابُ

وقولُ البحتريّ أيضًا يمدح يعقوبَ بنَ أحمدَ في قصيدة له فيه:

وأغـلـمُ مـا كـلُّ الـرِّجـالِ مـشـيَّـعٌ   ومـا كُـلُّ أسْـيـافِ الـرّجـالِ حُـسـامُ

ي ـ الدِّلالة على أنّ المطلوب هو اتّصاف المسند إليه بالخبَر لا الخبر نفسه، كقولِكَ: «المقاتِلُ ألقى السّلاحَ وانصرف إلى التجارة»، وذلك لِمَنْ قال لكَ: كيف المقاتِل؟. وقد قدّمتَ المسند إليه «المقاتل»؛ لتدلّ على أنّ المُهمّ في الأمر هو اتّصافُه بإلقاء السّلاح والانشغال بالتّجارة مِمّا لا يُتوقَّع أن يحصلَ منه. ويخيَّل إلينا أنّ منه قولَ المتنبي:

يـا أعـدلَ الـنـاسِ إلّا فـي مـعـامـلـتـي   فيكَ الخِصامُ وأنتَ الخَصْمُ والحَكَمُ

قدّم المسندَ إليه «أنْتَ»؛ لإفادة أنّ المطلوبَ هو اتّصافُهُ بالخُصومة والحُكومةِ معًا مِمّا لا يُتوقّع أن يحصل؛ إذ كيف يكون الإنسان خصْمًا وحكَمًا في آنٍ واحد؛ ولا يُراد الإخبارُ بهذين الأمرين.

ك ـ إفادة زيادةِ تخصيص المسند إليه المقدَّم بالمسند المؤخّر، كقولِكَ لِمَنْ أهان صديقَك: «أنْتَ مُهينُ فلان». كأنّك على وشك أن تقول أيضًا: لا غيرُك، ومنه في الشّعر قَولُ الشاعر:

متىٰ تَـهْـزُزْ بَـنِـي قَـطَـنٍ تَـجِـدْهُـمْ   سُـيـوفًـا فـي عـواتِـقِـهـمْ سُـيُـوفُ
جُـلـوسٌ فـي مـجَـالِـسِـهِـمْ رِزَانٌ   وإن ضَـيْـفٌ ألَـمَّ فـهُـمْ خُـفُـوفُ

الشاهدُ قولُه «هم خُفوفُ» حيث أفاد تقديمُ المسند إليه «هم» زيادةَ تخصيص بني قَطَنٍ بالكَرَم، بما يتراءى منهم من إسراعٍ إلى استقبال الضيف وخفّةٍ في القيام بواجبه.

سابعًا ـ تأخير المسند إليه:

يؤخَّر المسندُ إليه إذا اقتضى المقامُ تقديمَ المسند، كما سنوضح لكَ ذلك بعدُ. وينبغي أن يكون مؤكّدًا عندنا أنّ التماسَ دواعي التّقديم والتأخير متوقّفٌ على إباحة الاستعمال لِكِلَيْهما وتوافر دواعي ترجيح أحدهما على الآخر.

ثامنًا ـ تخريجُ الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في المسند إليه:

هناك ثلاثة اصطلاحات بلاغيّة كانت لنا وقفةٌ معها في موضع سابق، ونستعيدها ههنا لمقتضيات البحث. وهذه المصطلحات هي:

١ ـ **الحالُ**: وهو الأمرُ الدّاعي إلى إيرادِ الكلام مصوَّرًا بصورة خاصّة، بصَرْف النظر عما إن كان المخاطَبُ يتّصف بهذا الأمر، أَوْ لا يتصف به، بل يفترضه المتكلّم افتراضًا. فخُلُوُّ ذهن المخاطب **حال** تَدْعو المتكلّمَ إلى إيرادِ كلامه خِلْوًا من التّأكيد، وتردُّدُ المخاطَبِ في قبول الحكم **حالٌ** تدعو المتكلّمَ إلى استحسان إيراد الكلام مؤكّدًا بمؤكّد واحد.. وهكذا..

٢ ـ **ظاهِرُ الحال** ـ وهو الأمرُ الدّاعي إلى إيراد الكلام مصوَّرًا بصورةٍ خاصّة شريطةَ أن يتّصف المخاطَبُ بهذا الأمر أو هذه الصفة فعليًّا. وهكذا فخلوُّ الذّهن الذي يتّصف به المخاطَبُ فِعْليًّا **ظاهرُ حالٍ** يدعو المتكلّمَ إلى إيراد الكلامِ خِلْوًا من التأكيد. والتردّد الذي يتّصف به المخاطَبُ فِعْليًّا **ظاهرُ حالٍ** يدعو المتكلّمَ إلى استحسان إيراد كلامه مؤكَّدًا بمؤكِّدٍ واحد.

٣ ـ **تخريج الكلام على وَفْق مقتضىٰ الظاهر** ـ وهو الإتيان بالكلام مصوّرًا بصورةٍ تطابق ظاهِرَ الحال؛ كأنْ يؤتى بالكلام خِلْوًا من التّأكيد حين يكون المخاطَبُ خاليَ الذهن فعليًّا، فيقال مثلاً: «محمّدٌ صادِقٌ»؛ أو يؤتى به مؤكّدًا بمؤكِّدٍ واحد حين يكون المخاطَبُ متردّدًا في الحُكْم شاكًّا فيه فعليًّا، فيُقال مثلاً: «لَمُحمّدٌ صادقٌ»؛ أو يؤتى به مؤكَّدًا بأكثر من مؤكِّد حين يكون المخاطَبُ مُنْكِرًا للحكم فعليًّا، فيقال مثلاً: «إنّ محمّدًا لَصادقٌ».

هذا التطابقُ بين صورة الكلام، أو كيفيّته المخصوصة، وبين ظاهرِ حالِ المخاطب وواقِعه النفسيّ يسمّى تخريجًا للكلام على وفق مقتضى الظاهر.

لكن المتكلِّم قد يتخيّل، تبعًا لأسبابٍ تبدو له، أنّ المخاطَبَ خالي الذهن مثلاً، وهو على الحقيقة مُنكِرٌ، ثمّ يأتي بالكلام موافقًا لتخيّله وهو «خُلُوّ الذهن» ومخالِفًا لحقيقة أمر المخاطب «الإنكار»، فيقول لهذا المُخاطَب: «محمّدٌ صادقٌ». ههنا نقول: إنّ خلُوّ الذهن **حالٌ**، والإنكار **ظاهر حال**، وإتيانُ الكلام على هذه الصورة الخالية من التّأكيد تخريجٌ للكلام على خلاف مقتضى الظّاهر. ويعني ذلك إعطاءَ الكلامِ صورةً أو كيفيّةً مخصوصةً مخالفةً لظاهر حال المخاطِب وواقعه النفسيّ ومستجيبةً لتصوّرٍ وضَعَهُ المتكلّمُ في الحسبان، وتخيّلَه تخيُّلاً مستندًا إلى أسباب خاصة بَدَتْ له «حال».

ونسوق لكَ ههنا صورًا من تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في المسند إليه:

أوّلاً ـ وضْعُ المُضْمَرِ موضِعَ المُظْهَر:

يؤتىٰ بالمسند إليه مُضْمَرًا وظاهِرُ حاله يستدعي الإظهارَ لِأُمورٍ، منها:

١ ـ الإيضاحُ بعْدَ الإبهام أو التّفصيل بعد الإجمال، وذلك في باب «نِعْمَ وبِئْسَ»، كقولِكَ: «نِعْمَ فَتاةً هِنْدُ»، حيث جئتَ بالمسند إليه (فاعل نِعْمَ) ضميرًا مستترًا في «نِعْمَ». وكان مقتضى الظاهر أن تقول: «نِعْمَ الفتاةُ هِنْدُ»، حيث تأتي بالمسند إليه (فاعل نعم) اسمًا ظاهرًا «الفتاة»، ولا تأتي به ضميرًا لعدم تقدّم ما يفسّره، لكنّكَ خالفْتَ **الظاهرَ** وأتيتَ بالمسند إليه مضمرًا في موضع الإظهار؛ لِغَرض الإيضاح **بعد الإبهام**. ومِثالُه في «بِئْسَ» قولُكَ: «بِئْسَ فاتِنًا إبليسُ». وواضحٌ أنّ هذا يصِحّ على رأي من يجعل المخصوصَ بالمدح أو الذمّ مبتدأً محذوفَ الخبر، أو خبرًا محذوفَ المبتدأ.

٢ ـ تمكينُ ما بَعْدَ الضمير في نفس السّامع لِتَشَوُّقِه إليه، وذلك في ضمير الشّأن، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. جيء بالمسند إليه «هو» مُضْمَرًا موضِعَ المُظْهر لتمكينه في نفس السّامع بعد أن تَشَوَّق إليه. لِأنّ «الضميرَ حين يطرقُ النفسَ مِنْ غيرِ أن يكون له عائِدٌ يعود عليه يصيِّرُها إلى حالةٍ من الغموض والإبهام لا قرارَ لها معها فتتشوّفُ إلى اكتشافِ الحقيقة المتوارية وراءَ الغموض المثير، فإذا جاءت الجملةُ المفسِّرةُ تمكّنَ معناها ووقع في القلب موقِعَ القَبُول».

وكقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. ومنه في الشّعر قولُ أبي خِراشٍ الهُذَليِّ يذكُرُ عُرْوَةَ أخاه وخِراشًا ابنَه، وكانا قد أُسِرا فضلّ عروةُ ونجا خراش:

حَمِدْتُ إلهي بَعْدَ عُرْوَةَ إذْ نَجا ... خِراشٌ، وبَعْضُ الشرِّ أهونُ مِنْ بَعْضِ
فواللّهِ ما أنسىٰ قَتِيلًا رُزِيتُهُ ... بجانب قوسي ما مَشَيْتُ على الأرضِ
على أنّها تعفو الكُلُومُ وإنّما ... نُوَكَّلُ بالأدنىٰ وإنْ جَلَّ ما يَمْضِي

وقول أبي تمام:

على أنّها الأيامُ قد صِرْنَ كُلُّها ... عجائِبَ حتّى ليس فيها عجائبُ

قال السّكاكيُّ في بيان مبْعَثِ التّمكين في أمثال هذه الصورة: «وذلك أنّ السّامعَ متى لم يفهمْ من الضمّير معنًى بَقِي منتظرًا لعُقْبَى الكلامِ كيف تكون فيتمكّن المَسْموعُ بعْدَه فَضْلَ تمكُّنٍ في ذِهْنِه».

٣ ـ ادّعاءُ أنّ مَرْجِعَ الضّمير دائمُ الحضور في الذّهن، كقولك: «أقبلَ وعليه الهيبةُ والوقارُ». ومنه قولُ الشاعر:

أَبَتِ الوِصالَ مخافةَ الرُّقَباءِ ... وأتتكَ تحتَ مدارعِ الظَّلْماءِ

البيتُ مطلعُ قصيدةٍ، وجاء الشاعرُ بالمسند إليه (فاعل أَبت) ضميرًا مستترًا لم يتقدّم مرجعُه ولم يُذْكَر له مفسِّرٌ، اعتمادًا على

وضوحِ المرادِ منه وادّعاء أنّه معروفٌ حاضرٌ في القَلْب، لا يخطر بالبال سواه.

ويُسمّى هذا: **العدول إلى الإضمار في مقام الإظهار**.

ثانيًا: وضْعُ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَر:

قد يُعكس الوضعُ السّابقُ فيؤتىٰ بالمُظْهَر موضعَ المضمر. وللمُظْهَرِ هنا حَالانِ:

١ ـ أن يكون اسمَ إشارة. ٢ ـ أن يكون اسمًا ظاهرًا غيرَ اسمِ إشارة.

وينبغي أن تكون على ذِكْرٍ مِنْ أنّ البلغاء يأتون بالمسند إليه اسمَ إشارة وحقُّه أن يأتي ضميرًا لأغراضٍ، أهمّها:

١ ـ كمَالُ العِنايةِ بتمييز المسند إليه لاِخْتصاصه بحُكْمٍ بديع. كقول أحمدَ بنِ يحيى بن إسحاق الرَّاوَنْدِيّ:

كـمْ عـاقـلٍ عـاقـلٍ أَعْـيَـتْ مَـذاهِـبُـهُ وجـاهـلٍ جـاهـلٍ تـلْـقـاهُ مَـرْزُوقَـا
هـذا الّـذي تـرَكَ الأوْهـامَ حـائـرةً وصـيَّـرَ الـعـالِـمَ الـنِّـحْـريـرَ زِنْـدِيـقَـا

المعنى: ما أكثرَ ما تجِدُ من العُقَلاء الكاملي العقولِ صعُبَتْ عليهم طُرُقُ معاشِهم، وما أكثرَ ما تجِدُ من الجُهّال الغارقين في الجَهْل فاضَ عليهم الرّزقُ من كلّ ناحية. وهذا الحِرْمانُ للعاقل والارتزاقُ للجاهل هو الذي ترَكَ العقولَ حائرةً، وجعَلَ العالِمَ المُتْقِنَ كافرًا نافيًا لصانِع الكون العَدْلِ الحكيم.

والشاهدُ فيه مجيءُ المسند إليه «هذا» اسمَ إشارة مشارًا به إلى الحُكْمِ السّابق غير المحسوس (حرمان العاقل وارتزاق الجاهل). وكان

مقتضى الظاهر أن يُؤتى بالضّمير مكانَ اسم الإشارة؛ لتقدّم مرجعه فيقال «هما» مثلاً، لكنّه عُدِل عن ذلك وجيء باسم الإشارة لكمال العناية بتمييز المسند إليه؛ ليُري السّامعين أنّ هذا الشّيء المتميّز المتعيّن هو الذي اختصّ بهذا الحُكم البديع: جَعْلُ الأوهامِ حائرةً والعالِمِ النِّحْرير زنديقًا.

٢ ـ التهكُّم بالسّامع، كمَا لَوْ أنّ كفيفًا سأل: «مَنْ رماني بالحَجَر؟» ـ فقيل له: «هذا الذي رماكَ بالحَجر». مقتضى الظاهر هنا أن يؤتىٰ بالمسند إليه المبتدأ ضميرًا فيقال: «هو الذي رماكَ بالحجر»؛ لتقدّم مرجع الضمير في سؤال الكفيف. لكنّ المتكلِّم أخرج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر؛ لِقَصْد السّخرية، والتهكُّم بالمخاطب؛ إذ نزّله منزلةَ البصير استهزاءً به. وله صورة أخرى، كما لو سأل بصيرٌ: «مَنْ رماني بالحَجَر؟» فأُجيب: «هذا الذي رمَاكَ بالحجر»، مع عدم وجود مشار إليه أصْلًا.

٣ ـ التنبيهُ على كمال بلادة السّامع بأنّه لا يُدْرِك غيرَ المحسوس؛ كأن يسأل سائلٌ: «مَنْ شاعِرُ الفلاسفة؟» ـ فيُجاب: «ذلكَ أبو العلاء المعرّي». مقتضى الظاهر أن يؤتي بالمسند إليه ضميرًا لتقدُّم مرجعه ضمنَ السؤال فيقال: «هو أبو العلاء»، لكنّ المُجيب خالف مقتضىٰ الظاهر تنبيهًا على أنّ مخاطَبَهُ بليدٌ تمامًا، ولا يفهم إلّا بالإشارة الحِسّية؛ لأن في اسم الإشارة إيماءً إلى أنَّ السامع لا يُدْرِكُ إلّا المحسوس، ويعني هذا بلادتَه التامّة.

٤ ـ التنبيه على كمال فَطانَتِه بأنّ غير المحسوس عنده كالمحسوس؛ كأنْ يأتي ذِكْرُ مسألةٍ فكرية غامضة فيقول الأبُ لابنه الذي يتوسّم فيه الذّكاء: «هذه مسألةٌ واضحة». مقتضى الظّاهر أن يأتي بالمسند إليه ضميرًا فيقول «هي مسألةٌ واضحة»؛ لتقدّم مرجع

الضمير في الحديث السّابق. لكنّ الأب أخرج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر وأتى بالمسند إليه اسمَ إشارة تنبيهًا على كمال فَطانَةِ ابنه، وأنّ المعقولَ عنده كالمحسوس المشاهدَ؛ لأنّ في استعمال اسم الإشارة الذي أصْلُه المحسوس في المعنى الغامض إيماءً إلى أنّ السامع لذكائه صارت المعقولاتُ لديه كالمحسوسات.

٥ ـ ادّعاء كمال ظهور المسند إليه حتى كأنّ المعقول ـ عند المتكلِّم ـ مِمّا يُحَسُّ بحاسّة البصر؛ كأن يجري الحديثُ في مجلسٍ عن نظريّةٍ فلسفيّة عميقة، فيقول أحدُهم: «هذه أوضحُ من الشّمس». فمقتضى ظاهر الحال أن يؤتي بالمسند إليه ضميرًا فيقال «هي»؛ لتقدّم مرجعه في تضاعيف الحديث السّابق، لكنّ المتكلّمَ خرج بالمسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر ادّعاءً منه أنّ هذا المسند إليه ظاهرٌ عنده، وأنّه قد بلغَ من الوضوح درجةَ المُحَسّ المُبْصَر بحاسّة البصر، الذي يُشار إليه باسم الإشارة.

ويُؤتى بالمسند إليه اسمًا ظاهرًا غيرَ اسم الإشارة في موضع المضمر لأغراضٍ، أهمُّها:

١ ـ تمكينُ المسند إليه في ذهن السّامع، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾. ففي قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ جيء بالمسند إليه اسمًا ظاهرًا «اللّهُ»، ومقتضى ظاهر الحال أن يؤتى به ضميرًا لتقدّم مرجعه، ولكن وُضِعَ المُظْهَرُ «اللّهُ» موضعَ المضمر «هو» لتمكين المسند إليه في ذهن السامع؛ لأنّ «لِلَفْظ الجلالة بمدلوله الكريم وقْعًا عظيمًا في القلوب، والمُرادُ تمكينُ الألوهيّة، وإشاعةُ هيمنتها في الضمائر». وجليّ أنّ وقوع الاسم الظاهر في غير موقعه يُحْدِث في نفس المتلقّي استغرابًا وزيادةَ انتباهٍ وتيقّظ في

الذهن، ثمّ إنّ المُظْهَرَ يتضمّن أَثارةً من التفخيم والتعظيم والتأكيد؛ لِمَا فيه من وضوحِ الدّلالة وقطْعِ الاشتراك.

ومنه في الذكر الحكيم أيضًا قولُه سبحانه: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ و﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

ومنه في أشعار العرب قولُ الشاعر:

وإنْ طُرّةٌ راقَتْكَ فانظُرْ فرُبَّما أَمَرَّ مذاقُ العُودِ **والعُودُ** أخضرُ

في موضع «وهو أخضر».

وقول المتنبي:

بِمَنْ تضرِبُ الأمْثالَ أَمْ مَنْ نَقِيسُهُ إِلَيْكَ وأهْلُ الدَّهْرِ دونَكَ **والدَّهْرُ**

في موضع «وهو».

٢ ـ تخويفُ السّامع وتقويةُ داعي إطاعتِه وامتثاله، كأن يقولَ الأميرُ لبعض حاشِيته «**حاكِمُ** البلدِ يأمُرك بكذا»، بدلًا من «أنا آمُرُكَ بكذا». خالفَ مقتضى الظاهر وأتى بالمظهر «حاكم البلد» موضعَ المضمر لِقَصْدِ تخويف السامع وتقوية داعي إطاعتِه وامتثاله؛ لِمَا في المظهر «حاكم البلد» من الإيحاء بالبطش والقوة والفتك والإهلاك.

٣ ـ الاستعطاف، أي طلبُ العَفْو والرّحمة، كقول الشاعر:

إلٰهي، عبدُكَ العاصي أَتاكا مُقِرًّا بالذُّنوبِ وقد دَعَاكا
فإن تغْفِرْ فأنتَ لِذاكَ أهلٌ وإن تطْرُدْ فمَنْ يرْحَمْ سِواكا

قال: «عبدُك العَاصي أتاكَ» مكان «أنا العاصي أتيتُك» فأخرجَ المسندَ إليه على خلاف مقتضى الظاهر؛ لِما في قوله «عبدك» من التخضّع واستحقاقِ الرّحمة وترقُّب الشفقة.

٤ ـ التلذّذ بذِكْره، كلفظِ «سَلْمى» في قولِ الأخطل:

سقى اللهُ مِنهُ دارَ سلمى بِريَّةٍ   على أنّ سَلمىٰ ليسَ يَشفىٰ سَقِيمُها
ولو حمَّلَتْنِي السِّرَّ سَلمى حَمَلْتُهُ   وهَلْ يَحمِلُ الأسْرارَ إلّا كَتُومُها
مِنَ العَرَبيّاتِ البوادي، ولم تكنْ   تُلَوِّحُها حُمَّىٰ دِمَشْقَ وَمُومُها

ذكر «سَلمىٰ» مرّتين باسْمِها الصّريح في موضع حقُّهُ الإضمارُ؛ لِتَقدّمِ المرجعِ في صدْر البيت الأول، وما ذلك إلّا للتلذّذ بجريان اسمِها على لسانه. وهذا من المعاني المتعاوَرةِ في شعرنا العربيّ، حتى إنّ الشعراء يحبّون عذْلَ العُذّالِ ولَوْمَ اللائمين حبًّا لِذِكر المحبوبة.

ويُسمّى هذا العُدُول: **الإظهار في مقام الإضمار**.

تاسعًا: تخريجُ الكلامِ على خِلاف مقتضىٰ الظاهر في غير المسند إليه:

يأتي تخريجُ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظاهر في غير المسند إليه، وإليكَ الحديثَ عن بعض صُوَرِه:

١ ـ الالتفات:

الالتفاتُ ـ لغةً ـ اللّيُّ والصَّرْف والتحوُّل، تقول: لفَتَه يَلْفِتُه إذا أدار عُنُقَه من اليمين إلى الشّمال أو العكس.

وهو في اصطلاح جَمْهَرة البلاغيين: «التعبيرُ عن معنًى بطريقٍ من الطُّرَق الثّلاثِ التي هي التكلُّمُ والخِطابُ والغَيْبة، بعد التعْبيرِ عن ذلك المعنى بطريق آخرَ من الطرق الثّلاث، بِشَرْط أن يكون التعبيرُ الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهرُ ويترقّبه السامِعُ».

وينبِّه ابنُ الأثير على علاقة التّسمية بموضوعها فيقول: «وحقيقتُهُ مأخوذةٌ من التفات الإنسانِ عن يمينه وشِماله فهو يُقْبِل بوجهه تارةً كذا وتارةً كذا.. وكذلك يكون هذا النّوع من الكلام

خاصّة؛ لأنه يُنتَقَلُ فيه من صِيغةٍ إلى صيغةٍ كالانتقال من خِطابِ حاضر إلى غائب..». ومِثالُه قوله سبحانه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾. عبّروا عن الباريء سبحانه أولًا بطريق الخطاب «إنّكَ»، ثمّ عبّروا ثانيةً بطريق الغَيْبة «إنّ اللّهَ» على خلافِ ما يقتضيه مِنْهم ظاهرُ الحال من استمرارِ الخطاب كأن يُقال: «إنّك لا تخلف المعياد»، وهو ما ينتظره السامعُ ويترقّبه. وهذا التعبير عن المعنى بطريق الغَيْبةِ بعد التعبير عنه بطريق الخِطاب يسمّى «التفاتًا».

ويشترِطُ جُمْهورُ البلاغيين في الالتفات أمرين:

١ ـ وجود تعبيرين يُسْتَخدَمُ في ثانيهما طريقٌ مغايرٌ لطريق الأول.

٢ ـ مخالفة التعبير الثاني مقتضى ظاهر الكلام ومترقَّب السامع.

صور الالتفات:

١ ـ مِنَ التكلّم إلى الخِطاب، كقوله سبحانه في حِكاية مقالةِ الرّجل المؤمن الذي كان يدعو قومَه من أهل أنطاكية: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عبّر عن المعنى أولًا بطريق التكلّم: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ثمّ عبّر عنه ثانيًا بطريق الخِطاب فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، حيث خالف مقتضى الظاهر الذي يستدعي القولَ: «وإليه أرْجِعُ».

٢ ـ مِنَ التكلّم إلى الغَيْبَة، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾. فقوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ﴾ تكلّمٌ، وقوله «لِرَبّكَ» غيبةٌ؛ لأنّ الاسمَ الظاهر من قبيل الغَيْبة، والأصْلُ «فصَلِّ لنا»، ففيه التفاتٌ من التكلّم إلى الغَيْبة. ويقول البلاغيون: «وبلاغةُ الالتفاتِ في الآية تأتي من أنّ في لفظ الرّبِّ حثًّا على فِعْل

المأمور به؛ لأنّه مَنْ غيرُ ربِّك يستحِقُّ العِبادة. وفيه إزالةُ الاحتمالِ أيضًا؛ لأنّ قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ ليس صريحًا في إفادة الإعطاء من الله، وأيضًا كلمة «إنّا» تحتمل الجمعَ كما تحتمل الواحد المعظِّم نفسَه، فلمّا التفت بقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ زال هذانِ الاحتمالانِ».

٣ - من الخِطاب إلى التكلُّم، كقوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾. عبّر عن الذّات أوّلاً بطريق الخِطاب فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ﴾، ثمّ عبّر عنها ثانيًا بطريق التكلّم فقال: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

ومنه في الشّعر قولُ عَلْقَمةَ بنِ عَبَدة الفَحْل:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ   بُعَيْدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ
يكلّفني ليلى وقدْ شطَّ ولْيُها   وعادتْ عَوادٍ بيْننا وخُطُوبُ

طحا بِكَ: ذهَبَ بك وأتْلفك، شطّ ولْيُها: بَعُد قُرْبُها. عبّر أوّل الأمرِ عن نفسِه بطريق الخطاب فقال: «طَحَا بِكَ»، ثمّ التفت إلى التكلّم فقال: «يكلّفني»، ومقتضى الظاهر أن يقول: «يكلّفك». وتتراءى جماليّةُ الالتفاتِ هنا في أنّ التكليف بلَيْلىٰ مَقْطَعٌ مُهِمٌّ من مقاطع المعنى وجزءٌ أسَاسِيّ من لُحْمَتِه، وحقُّه أن يقع على نفس الشّاعر وقوعًا واضحًا لا مواربةَ فيه، وبهذا يقوى الكلامُ.

٤ - من الخِطاب إلى الغَيْبة، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾. جاء الكلامُ على طريق الخطاب في قوله: «أمتُكُمْ.. ربُّكُمْ.. فاعبدون»، ثمّ عبّر عنهم بطريق الغَيْبة في قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾. قال الزَّمَخشَرِيُّ في سِرِّ هذا الالتفات:

«كأنّه ينعىٰ عليهم ما أفسدُوه إلىٰ آخرين ويقبّحُ عندهم فِعْلَهم: ألا ترونَ إلى عظيم ما ارتكبَ هٰؤلاءِ في دينِ اللّهِ».

٥ ـ من الغَيْبة إلى التكلُّم، كقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾. مقتضى ظاهرِ القول «فسَاقه..». وكقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، المقتضى «وأنزلَ». وكقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا .. لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، والمقتضى «ليُريَهُ».

٦ ـ من الغَيْبة إلى الخِطاب، كقوله سبحانه: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، عبّر عن الذات أولًا بطريق الغيبة ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فالتفت إلى الخِطاب فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وعَنْ جمالية الالتفات يقول السّكاكيّ:

«والعَرَبُ يستكثرون منه ويرونَ الكلامَ إذا انتقل من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ أدخلَ في القبول عند السامع وأحسنَ تَطْرِيَةً لنشاطِهِ وأمْلأ باستِدْرار إصغائه، وهم أحْرِياءُ بذٰلكَ، أليسَ قِرىٰ الأضيافِ سجيّتَهم ونَحْرُ العِشَارِ للضَّيف دأْبَهم وهجّيراهم، لا مزّقَتْ أيدي الأدْوارِ لهم أدِيمًا ولا أباحتْ لهم حريمًا، أفَتراهُمْ يُحْسِنُونَ قِرى الأشباحِ فيخالفون بين لونٍ ولَوْنٍ وطَعْمٍ وطعْمٍ، ولا يُحسِنُونَ قِرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوبٍ وأسلوب وإيراد وإيراد».

٢ ـ أسلوب الحكيم:

أُسْلوبُ الحَكِيم تسميةٌ جاء بها السّكاكيّ، ويسمّيه عبدُ القاهر «المُغالطة». ويُراد به: «أن يُتلقّىٰ المخاطَبُ بغير ما يترقبه، ويُحْمَل كلامُه على غير مُرادِهِ؛ صَرْفًا لرأيه إلى ما هو أولى به. أو يُلْقى السائلُ بغَيْرِ مطلوبِه، تنبيهًا على أنه أَوْلى به».

وقد عبَّر أحدُ الشّعراء عن سلوكه هذه الطريقةَ في إجابة زَوْجِه التي أتتْه تشكو صعوبةَ إعداد الطّعام للضّيفان إذ رأتهم يتقاطرون على منزله، فقال مفتخِرًا:

أتتْ تشتكي عندي مُزاولةَ القِرىٰ وقدْ رأتِ الضّيفانَ ينحونَ منزلي
فقُلْتُ ـ كأنّي ما سَمِعْتُ كلامها ـ: هُمُ الضَّيفُ جِدّي في قِراهُمْ وعَجِّلي

ويتبيّن من التعريف أن أسْلوبَ الحكيم ضربان:

١ ـ تلقّي المتكلّم المُخاطَبَ بغير ما يترقّب؛ أيْ يُحْمَل الكلامُ الصّادرُ عنه على غير ما قصَد، تنبيهًا لهذا المخاطَبِ على أنّ ذٰلك «الغير» هو الأَوْلى بالقَصْد والإرادة، وكأنه يقول له: خيرٌ لَكَ أن تَقْصِد كذا وكذا لا ما أنتَ تُريده. ويوضِح البلاغيّون هذا الضّرْبَ من أسلوب الحكيم بما حدَث مِنْ وَلَد القبعثرىٰ لِلْحَجّاج؛ إذ قال له الحجّاجُ متوعّدًا إيّاه: «لَأَحْمِلَنَّكَ على الأدْهَم» يعني الحجّاجُ القَيْدَ؛ إذ من أسمائه الأدْهَمُ. فقال ولَدُ القبعثرىٰ: «مِثْلُ الأمير يَحْمِلُ على الأدْهَمِ والأشْهَبِ»، فحوّل وعِيدَ الحجّاجِ إلى وعْدٍ وتلقّاه بغير ما يترقّب، حيث حوّل المُرادَ من الأدْهَم (وهو عند الحجّاجِ القَيْدُ الذي سيقيِّده به) إلى الفَرَسِ الأدهم، وهو الذي غلَب سوادُه، وضمّ إليه وصْفًا آخر للفَرَسِ وهو «الأشْهَبُ»، أي الّذي غلَب بياضُه على سوادِه. وهٰكذا فاجأ ابنُ القبعثرىٰ الحجّاجَ وحمَل كلامَه على غير ما يُريد، فنبهّه على أنّ الأوْلى به، وهو الأميرُ ذو السّلطانِ والغَلبةِ وَبَسْطةِ اليد، أن يعطيَ ويُكْرِم لا أنْ يقيّد ويسجن. ويُقال في تتمّة القصّة إنّ الحجّاجَ عدَل عن العقوبةِ إلى المَثُوبة. ويقول السّكاكيّ معلّقًا على هذا الضرب من الأساليب ومصوِّرًا جماليّتَه وخِلابته: «إنّ هٰذا الأُسْلوبَ لربّما صادف المقامَ فحرّك مِنْ نشاطِ السّامع ما سلَبَهُ حُكْمَ الوَقُور، وأبرزه في مِعْرَض المسْحُورِ، وهَلْ ألانَ شَكِيمةَ الحَجّاجِ لِذٰلكَ الخارجيِّ (يريد

ابن القبعثرى) وسلَّ سَخِيمَتَه حتى آثر أنْ يُحْسِن على أن يسيء غير أنْ سَحَره بهٰذا الأسلوب؟».

ـ تلقيّ السّائل بغير ما يتطلّب؛ بتنزيل سؤالِه منزلةَ غير ذلك السؤال، تنبيهًا للسّائل على أنّ ذٰلك «الغير» هو الأوْلى بحَالِه أو المُهِمُّ له. منه قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾. سألَ الصّحابةُ المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلامُ عن سبب اختلاف القمر في زيادة النّور ونُقْصانه، فأُجيبوا ببيان الغَرَض من هٰذا الاختلاف؛ وهو أنّ الأهِلّة بهٰذا التغيُّرِ تُمَكِّن الناسَ من معرفة الوقت الذي يتوقّفُ عليه تدبيرُهم شؤونَهم في الزراعة والتّجارة والدّين وكذا في مواقيتِ الصوّم والحجّ وما إلى ذٰلك. وكان مقتضى الظّاهر أن يُجابوا ببيانِ السّبب، فأُجيبوا ببيان الحِكْمة والغرض. وفي هٰذا ما فيه من التربية الرّبانية التي تعلّم الخَلْقَ ما يهمُّهم، وتَصْرِفُهم عمَّا لا شأْنَ لهم بِه؛ أَلَمْ يقل المصطفى عليه الصلاةُ والسلام: «إنَّ مِنْ حُسْنِ إسلام المَرْءِ تركَه ما لا يَعْنيه»، ثم أَلَمْ يقل بارِئُ السّمٰوات والأرض: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾؟

٣ ـ القَلْبُ:

ويُراد به أن يُجعلَ أحدُ أجزاءِ الكلام مكانَ الآخَر، والآخَرُ مكانَه مع إثبات حُكْمِ كلٍّ للآخَر. والقلْبُ ضَرْبانِ:

١ ـ ما يُوجِبُه تصحيحُ حُكْمٍ لفظيّ والمعنى صحيحٌ مِنْ دونه، وذلك كقول القطاميّ:

قِفِي قبْلَ التفرّقِ يا ضُبَاعا ... ولا يَكُ مَوْقِفٌ منْكِ الوَداعا

لمّا جاء بـ «موقف» نَكِرةً وهو في موضع المبتدأ وبـ«الوداع» معرفةً وهو في موضع الخبَر جُعِل هذا من باب القَلْب؛ إذِ التقديرُ: «ولا يَكُ

الوداعُ موقفًا مِنْكِ»؛ لأن الأَصْل أن تكون المعرفةُ مبتدأً والنكرةُ خبرًا.

٢ ـ ما يُوجِبُه تصحيحُ المعنى، كقولهم: «عرَضْتُ النّاقةَ على الحَوْضِ». مقتضَى الظاهر أن يقال: «عرَضْتُ الحَوْضَ على الناقة»؛ لأنّ المعروضَ عليه يتحتّم أن يكون ذا شعورٍ لِكَيْ يقْبلَ ما يُعْرَض عليه أو يرفضه، ولكنّه قلَبَ هذا الوضْعَ على خلافِ مقتضى الظاهر وحلّ كلٌّ من الجزءين محلّ الآخر وأُعطي حُكْمَه. ومبعثُ هذا القَلْب مخالفةُ العادة؛ إذ العادةُ أن يُقَدَّم المعروضُ للمعروض عليه، أمّا ههنا فتُخالَفُ هذه العادةُ ويؤتى بالناقة إلى الحوض، وهو ثابتٌ في مكانه، ولذلك نُزّل أحدُهما منزلةَ الآخر ومن هذا القبيل قولهم: «أدخلْتُ الخاتمَ في الإِصْبَع» و «أدخَلْتُ القَلَنْسُوَةَ في الرّأس». في حين أنّ مقتضى الظاهر أن يُقال: «أدخلْتُ الإصبعَ في الخاتَمِ» و «أدخلتُ الرأسَ في القلنسوة».

مواقف البلاغيين من القَلْب:

للبلاغيين في قبولِ القَلْبِ ورَفْضِه ثلاثةُ مواقف:

١ ـ القبولُ المُطْلَق ـ وهو موقِفُ السَّكاكيّ الّذي قال: «إنّه مِمّا يُورِثُ الكلامَ مَلاحةً؛ **وَوَجْهُه أنّ قَلْبَ الكلام يُحوِجُ السّامعَ إلى أن يتنبّه لاستخراج أصْلِ الكلام**». ويعني هذا أنّ قلْبَ الكلام يستدعي من المتلقّي تأمّلَ العبارةِ ومحاولةَ إدراكِ الوَضْع الطبيعيّ لها، فإذا تأتّى له ذلك أحسّ بشيء من اللذّة المتأتية من إدراك انزياح العبارة عن أصْلِها؛ وَلذّةُ التعرّفِ لذّةٌ عظيمة.

٢ ـ الرفضُ المطلق ـ وهو موقفُ بعض البلاغيين غير السَّكاكيّ، وقد تراءى لهٰؤلاء أنّ ما جاء منه مِنْ نماذجَ لا يعدو أن يكون صُوَرًا من التقديم والتأخير.

٣ ـ القبولُ المَشروطُ بتحقيق جماليّة تعبيريّة ودِلاليّة ـ وهو رأيُ جَمْهرةِ علماء البلاغة الذين قالوا إنّ القَلْب غيرُ جديرٍ بأن يدخل ميدانَ البلاغة إلّا عندما يتضمّن اعتبارًا لطيفًا، ومغزًى طريفًا زائدًا على مجرّد الجماليّة المتأتّية من تعرّف الأَصْل وإدراك التغيّر الحاصل.

ومن القَلْب المقبولِ قولُه سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾. يقول عُلَماءُ البلاغة إنّ الأَصْلَ هو: «ويومَ تُعرَضُ النارُ على الذين كفروا»؛ لأنّ المعروضَ عليه ينبغي أن يكون ذا إدراك يميِّز به ويختارُ على أساسه. والاعتبارُ اللّطيف أو الغرضُ البلاغيّ الذي تحقّقه صِياغةُ الآيةِ الكريمة في هذه الصّورة هو الإشارةُ إلى أنّ الكفّارَ أَذِلّاءُ مقهورون يُفْرَضُ عليهم العذابُ فرضًا دون إعطائهم حقَّ الاختيارِ، وأنّ النّارَ هي المتصرّفةُ فيهم، فهم ريشةٌ في مهبّ الرّيح لا وَزْنَ لهم.

ومنه في الشّعر قولُ رُؤْبَةَ بنِ العَجّاج:

وَمَهْمَهٍ مُغْبَرَّةٍ أرْجَاؤُهُ كأنَّ لَوْنَ أرضِهِ سَمَاؤُه

المَهْمَه: المَفازة ـ مغبرّة: مملوءة بالغَبْرة ـ الأرجاء: جمع رَجًا بمعنى الأطراف والنواحي.

والمعنى: أنّ الغُبار شمِلَ نواحيَ هذه المَفازة وأحاط بها من كلّ جانب لدرجة أنّ لَوْنَ سمائها صار كلون أَرْضها. فقد أراد الشاعرُ أن يقول: «كأنّ لونَ سمائه لغُبْرتها لونُ أرضه»، لكنه خالف الظاهر وجعل المشبَّه به مشبَّهًا، والمشبّهَ مشبَّهًا به، ويُسمّى فِعْلُه هذا «القَلْب». والاعتبارُ اللّطيف أو الغَرض البلاغيّ لهذا القلْبِ هو المبالغةُ في وصْف لونِ السّماء بالغبرة الشديدة.

ومنه أيضًا قولُ أبي تمّام يصف قَلَم ممدوحه:

لُعابُ الأفاعي القاتِلاتِ لُعابُهُ وأَرْيُ الجَنَى اشتارَتْهُ أيْدٍ عَواسِلُ

الأَزْيُ: العَسَلُ ـ اشتارَتْه: جَنَتْه ـ وعواسِلُ: جمعُ عاسِلة وهي المشتارةُ لِلْعَسل الجانيةُ له.

قال الشّاعرُ: «لعابُ الأفاعي القاتلاتِ لُعابُهُ»، وكان مقتضى الظّاهر أن يقول: «كأنّ لُعابَه لُعابُ الأفاعي»؛ لأنه أراد تشبيهَ لُعابِ قلمِه بلُعابِ الأفاعي القاتلاتِ في شدّة وَقْعِ الألَم، ولكنّه خالف مقتضى الظاهر وقَلَبَ؛ لِقَصْد المبالغة في تصوير شدّة وَقْعِ الألَم.

قال صاحِبُ «الإشارات والتنبيهات في عِلْم البلاغة»: «ظنّ جماعةٌ، منهم السّكاكيّ، أنّ مُطْلَقَ القَلْبِ من مسائل هذا العلم وأنّه مقبول. والحقُّ أنه ليس كذلك، لِخُلُوّه من البلاغة، اللّهم إلّا أن يكون قلْبَ تشبيهٍ للمبالغة.. ولا يوجدُ في القرآن.. وإن جاء في القرآن ما يُوهِمُ القلْبَ، يجبُ تأويلُه، كقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ وأراد: أَرَدْنا إِهلاكَها.

٤ ـ التَّعبير عن المستقبل بلفظ الماضي:

تَعْمِدُ الأساليبُ البليغةُ إلى مخالفة مقتضى الظاهر في ميدان استخدام الأفعال، فتعبِّر عن المستقبلِ بلفظِ الماضي للتنبيه على تحقّق وقوعه، وأنّه في حُكْمِ المُنقضي الّذي لا مُدافعةَ فيه، ووراء ذلك أيضًا إشارات بلاغية تأنسُها الأذواقُ الصّافية وتُحِسّها المَدارِكُ القوية. وإليكَ أمثلةً لذٰلك:

قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾. قال سبحانه: ﴿فَفَزِعَ﴾ والمراد «فيفزعُ»؛ لأنّ الحَدَث لمّا يَقَعْ بعْدُ، ولكنّه عُبِّر عنه بالماضي إشارةً إلى تحقّق وقوعه، فهو لا مَحالةَ واقعٌ ليس له من دافع. ويؤدّي استعمالُ الماضي هنا وظيفةً تربوية مُهِمّة، تتّصل بمعالجة أشدّ أدْواءِ الإنسان، وهو داءُ عدم المبالاة

بالأمر المستقبليّ، وهٰكذا يأتي الماضي لِيَطْويَ الزّمانَ وليضع الإنسانَ وجْهًا لِوَجْهِ أمامَ هٰذا الذي ينتظرُه فَوْرَ النَّفْخِ في الصُّور.

وقال سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، ومقتضى الظّاهر «يأتي»، لكنّه لمّا كان آتِيًا حتْمًا مقضيًا عُدَّ كأنه «أتى». والتعبيرُ بالماضي هنا يحرِّر الإنسانَ من الوَهْم ويُعِيد إليه مشكلتَه يتدبّرها ويواجهها قبْلَ أن يَعْجِز عن ذلك.

وتأمّلْ قولَه سبحانه: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝٢٢ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ﴾.

ـ التعبير عن المستقبل باسم الفاعل أو اسم المفعول:

على غِرارِ التّعبير عن المستقبل بلفظ الماضي التّعبيرُ عن المستقبل باسم الفاعل أو اسم المفعول؛ لِقَصْد التنبيه على تحقّق الوقوع:

فالأوّل كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾. ومقتضى الظاهر أن يقال «يَقَعُ»؛ لأنّ وقوع الدِّين (الجزاء) يحدُثُ في المستقبل، لكنّه خُولف مقتضى الظاهر فعُبِّر عن المستقبل باسم الفاعل؛ تنبيهًا على تحقّقِ الوقوع.

والثّاني كقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾. ومقتضى الظاهر «يُجْمَعُ»؛ لأنّ الجَمْعَ سيحصُلُ يومَ القيامة، لكنّه خُولف مقتضى الظاهر فعُبِّر عن المستقبل باسمِ المفعول؛ تنبيهًا على تحقّق وقوعِه.

٥ ـ التعبير عن الماضي بصِيغة المستقبَل:

تعبِّر الأساليبُ البليغة عن الماضي بصِيغة المستقبل لِغَرَض

استحضار الصورة العجيبة. وهذا كثيرٌ في البيان القرآني، ومنه قولُه سبحانه في شأن داودَ عليه السّلامُ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾. قال سبحانه: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ومقتضى السياق أن يقال: «مسبِّحاتٍ»؛ لأنّ التسبيح قد وقع في عهد داودَ عليه السلام، لكنّ غرابةَ صدور التسبيح عن الجبال ودِلالةَ ذلك على قُدْرةِ العزيز استدْعتِ التعبيرَ عن ذلك بصِيغة المضارع التي نقَلَتْ الحدثَ من الماضي البعيد وعرَضَتْه في مقامِ المشاهدة؛ لِيُستَيْقَن منه ولا يُنَاقَش فيه. قال الزمخشريُّ: «ما اختِيرَ «يُسَبِّحْنَ» على «مسبِّحات» إلّا لذلك، وهو الدِّلالةُ على حدوث التسبيح من الجبال شيئًا بعد شيءٍ وحالًا بعد حالٍ، وكأنّ السامعَ حاضرٌ تلكَ الحالَ يراها تُسبِّح». ومن ذلك أيضًا قولُه سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ بمعنى «أثارتْ». وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾، على معنى «ما تَلَتْ».

٦ ـ مخالفةُ السِّياق في صِيَغ الأفعال:

يَلْحَظُ متتبِّعُ خواصّ التّراكيب البليغة مخالفةً مقصودةً لمقتضى سياق الكلام في الأفعال خاصّة. وذلك من الأمور الملحوظة تمامًا في البيان العالي في كتابِ الله تعالى. والحقّ أنّ وراء ذلك مقاصدَ بلاغية على قدْرٍ كبير من الأهميّة، ولا يتأتّى إدراكُها إلّا لِمَنْ أوتي حَظًّا طيّبًا من القُدرة على لَمْحِ التوافق بين الكيفيّة المخصوصةِ للعبارة والمقام الذي ترِدُ فيه، وقليلٌ ما هم. يقول ابنُ الأثير: «واعلمْ أيّها المتوشِّحُ لمعرفةِ عِلْم البيان أنّ العُدولَ عن صِيغةٍ من الألفاظ إلى صيغةٍ أخرى لا يكونُ إلّا لنوعِ خُصوصيةٍ اقتضتْ ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلّا العارفُ برموزِ الفصاحةِ والبلاغةِ الذي اطلّع على أسرارها وفتّش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كلّ كلامٍ فإنّه من أشكَلِ ضروبِ عِلْم البيان وأدقّها فَهمًا وأغمضِها طريقًا».

وقد تتمثّلُ مخالفةُ السِّياق في العُدولِ عن المضارع إلى الأمر، كقوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. قال «أُشْهِدُ اللَّهَ» فاقتضى السِّياق أن يقول إِثْرَ ذلك «وأُشْهِدُكُمْ»؛ ليحصلَ التوافقُ بين الصِّيغتين في المضارعة، لكنّه عدَل عن ذلك إلى الأمر فقال: «واشْهَدُوا»؛ لأنّ في أمْرِهم بالشّهادةِ ببراءته من دينهم استخفافًا بهم وبدينهم وتحدّيًا مغيظا. ويتراءى لنا بَوْنٌ شاسِعٌ بين مَنْ تؤثر أن يشهدَ عليكَ وهو غائبٌ فتقول: «أُشْهِدُه» وبين مَنْ يحضرُك فتتوجّه إليه وتأمرُه بأن يشهدَ فتقول: «اشهَدْ». وقد قال الزّمخشريُّ في هذا الشأن: «فإنْ قلْتَ هلاّ قيل: أُشهِدُ اللَّهَ وأُشهِدُكمْ؟ - قلْتُ: لِأنّ إشهادَ اللَّهِ على البراءة من الشّرك إشْهادٌ صحيحٌ ثابتٌ في معنى تثبيت التوحيد وشدّ مَعاقِده؛ وأمّا إشهادُهم فمَا هو إلاّ تهاونٌ بدينهم ودلالةٌ على قلّة المبالاة بهم فحَسْبُ، فعَدَل به عن لفْظِ الأوّلِ لاختلاف ما بينهما، وجيء بِهِ على لفظ الأمر بالشّهادة كما تقول لِمَنْ يبس الذي بينه وبينكَ: «اشهَدْ على أنّي لا أُحِبُّكَ».

ومن ذلك أيضًا العدول عن المَصْدر إلى الأمر، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾. مقتضى الظاهر أن يقال: «أمر ربّي بالقِسْطِ وبإقامةِ وجوهِكُم»، ولكنّه عدَل عن ذلك الأمر؛ لأنّه من جِنْس الطَّلَب وهو أدْعى إلى الإيقاظ وإثارةِ الاهتمام بالمطلوب ووجوب تنفيذه؛ ففي توجيه الأمْرِ إليهم بإقامة الصّلاة دليلٌ على مزيد العناية بها.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أسئلةٌ وأجاباتُها حول ذكر المسند إليه وحذفه(١):

- حدّد أسبابَ ذِكْرِ المسند إليه وحَذْفِه فيما يأتي:

١ - وقَدْ عَلِمَ القَبائلُ مِنْ مَعَدٍّ إذا قِبَبٌ بِأَبْطَحِها بُنِينا
بِأنّا المُطْعِمُون إذا قَدَرْنا وأنّا المُهْلِكونَ إذا ابْتُلينا

٢ - قال المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام: «أنا النّبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابنُ عبدِ المطَّلِبْ».

٣ - مليكُ البلادِ يأمرُ بالعَدْل والإنصاف.

٤ - قال سبحانه: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

٥ - رِدّةٌ ولا أبا بكرٍ لها.

٦ - سُئِل مريضٌ: كيف حالُك؟ - فقال: لا تسُرُّ.

٧ - ولدُكَ يكلِّم الكِبارَ بصوتٍ عالٍ.

٨ - سُئِل الأستاذُ: ما هذا الذي تحمِلُ؟ فقال: هي مِخفَظتي، أضَعُ فيها كُتبي، وهي خفيفةُ الوَزْنِ، سَهْلةُ الحَمْلِ.

٩ - عاد إلى جادّة الصواب وأقلعَ عن تفاهاته.

١٠ - أميرُ شعراءِ العصر الحديث (تريد شوقي مثلاً).

- الإجابات:

١ - وأنّا المهلِكونَ: أُعيد ذِكْرُ المسند إليه «نا»؛ لِبَسْط الكلام في معرض الفخر.

٢ - أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِب: أُعِيدَ ذكرُ المسند إليه؛ لأن المقام للافتخار.

٣ - مليكُ البلادِ يأمر..: ذُكر المسندُ إليه؛ للتهويل وبثّ الرّعب.

٤ - ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾: ذُكِر المسندُ إليه «ربُّهم» للتبرّك بذكره.

٥ - رِدَّةٌ ولا أبا بَكْرٍ لها: حُذِف المسندُ إليه «هي»؛ لاتّباع الاستعمالِ الوارد على حَذْفه.

٦ - قال: لا تَسُرُّ: حُذِف المسندُ إليه «حالي»؛ لِضيقِ الصَّدْر بسبب المرَض.

٧ - وَلَدُكَ يكلِّم الكبارَ بصوتٍ عالٍ: ذُكِر المسندُ إليه؛ للتعبير عن التعجّب من فعله.

٨ - هي محفظتي، أضعُ فيها كتبي..: ذُكِر المسندُ إليه؛ لبَسْط الكلام طمعًا في استزادة أمَدِ إصغاء السامع.

٩ - عاد إلى جادّة الصّواب..: حُذِف المسندُ إليه؛ لإيهام صونِ اللّسان عنه.

١٠ - أميرُ شعراء العَصْر الحديث: حُذِف المسند إليه؛ لتعيّنه بسبب كمال الوصْفِ فيه.

أسئلة وإجاباتها حول ذكر المسند إليه وحذفه (٢):

- حدّد أسبابَ ذِكْر المسند إليه وحذفه فيما يأتي:

١ - حسودٌ حَقودٌ (بعد ذِكْر شخْصٍ معيّن).

٢ - لا تخاطِبِ اللّئيمَ السّفيهُ.

٣ - حرِيصٌ على الدُّنيا مُضِيعٌ لدِينِهِ وليسَ لِمَا في بَيْتِه بمُضيعِ

٤ ـ حبيبُ الفقراءِ قادمٌ (بعد قولِكَ مثلاً: أقادمٌ أحْمَدُ؟).

٥ ـ سعيدٌ هذا أزعجَ جيرانَه.

٦ ـ حضرَكَ شَخْصانِ أحدُهما صديقٌ كثيرُ الزيارة لكَ، فقلتَ: خائِنُ المِلْحِ والزّادِ.

٧ ـ نُجُومُ سَماءٍ كلّما غارَ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوي إليه الكواكبُ

٨ ـ مَنْ ساءَ طَبْعُهُ هُجِر رَبْعُه.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.

١٠ ـ مقرِّرٌ للشرائع مُوضِحٌ للدّلائلِ (تريد النبيَّ محمّدًا عليه الصلاةُ والسّلام).

ـ الإجابات:

١ ـ حَسودٌ حَقودٌ (بعد ذكر شخص معيّن): حُذِف المسندُ إليه؛ لِقَصْد تأتّي الإنكارِ عند السؤال.

٢ ـ لا تخاطِبِ اللّئيمَ السَّفيهُ: حُذِف المسندُ إليه «هو»؛ اتباعًا للاستعمال الوارد على حذفه.

٣ ـ حريصٌ على الدّنيا..: حُذِفَ المسندُ إليه؛ لادّعاء العِلْمِ به في مقام الذَّمّ.

٤ ـ حبيبُ الفقراءِ قادِمٌ: ذُكِر المسندُ إليه؛ للتلذّذ بذكره.

٥ ـ سعيدٌ هذا أزعجَ جيرانَه: ذُكِر المسندُ إليه؛ للتّسجيل على السّامع.

٦ ـ خائنُ المِلْحِ والزّاد: حُذِف المسندُ إليه؛ لاختبار تنبّه السّامع.

٧ ـ نجومُ سماء..: حذف المسند إليه؛ لادّعاء تعيّنه في مقام المدح.

٨ ـ مَنْ ساءَ طبعُه هُجِرَ رَبْعُه: حُذِف المسند إليه (فاعل هَجَر)؛ للمحافظة على السَّجْع.

٩ ـ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾: حُذِف المسندُ إليه «هم»؛ تطهيرًا لِلّسان عن ذكرهم.

١٠ ـ مقرِّرٌ للشَّرائع موضِحٌ للدّلائل: حُذِف المسندُ إليه؛ تطهيرًا له عن لسانِكَ.

أسئِلةٌ وإجاباتُها حول تعريف المسند إليه وتنكيره (١):

ـ حدّد الأغراضَ التي اقتضت تعريفَ المسند إليه أو تنكيره فيما يأتي:

١ ـ إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكْتَهُ وإنْ أنتَ أكرمتَ اللّئيمَ تمَرَّدا

٢ ـ هذا الذي تعرِفُ البَطْحاءُ وَطْأَتَه والبَيْتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحرَمُ

٣ ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾.

٤ ـ قال سبحانه: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

٥ ـ قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾.

٦ ـ صلاحُ الدّين يَوَدّ لقاءك.

٧ ـ زارنا صَفوانُ.

٨ ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٩ ـ قال الأخطلُ:

سقَى اللّهُ مِنهُ دارَ سَلْمى برِيَّةٍ على أنّ سَلْمىٰ ليس يشفى سَقيمُها
ولَوْ حَمّلتْني السِّرَّ سَلْمى حَمَلْتُه وهَلْ يحمِلُ الأسرارَ إلّا كَتُومُها

١٠ ـ أولئكَ قومي خيرُ قَومٍ بِأسْرِهِمْ وليسَ على معروفِهمْ أبدًا قُفلُ

ـ **الإجابات:**

١ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالضمير في «أكرمْتَ» و «ملكْتَ»؛ لأنّ المقام للخِطاب، وعرّف بالضمير في «تمرّد»؛ لأنّ المقام للغَيْبة، وقد تقدّم مرجعُه لفظًا.

٢ ـ عُرِّف المسندُ إليه باسم الإشارة «هذا»؛ لِقَصْد تمييزه أكملَ تمييز.

٣ ـ عُرِّف المسندُ إليه «رسولكم» بالإضافة؛ لِقَصْد الاستهزاء والتهكّم.

٤ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالضّمير في «هو»؛ لأنّ المقامَ مقامُ غَيْبة، وقد تقدّم مرجِعُه معنًى لِدلالة لفظٍ عليه؛ إذ إنّ في قوله سبحانه: ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾ معنى الرّجوع، والضمير عائدٌ عليه.

٥ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالعَلَمية في «إبراهيم» و «إسماعيل»؛ لِقَصْد إحضار معناه في ذهن السامع باسْمِه الخاصّ؛ ليمتاز عمّا سواه.

٦ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالعلَمِية في «صلاح الدين»؛ لقصد التعظيم؛ فإنّ اسْم صلاح الدّين مما يُشْعِر بمَدْحٍ.

٧ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالعلَمِية في «صفوان»؛ لِقَصْد التحقير؛ فإنّ اسم «صفوان» من الأعلام التي تُشْعِرُ بذمٍّ.

٨ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالاسمِ الموصول «الذين»؛ للإيماءِ إلى نوع الخبَر، والإشارةِ إلى أنه من نوع العِقاب.

٩ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالعلَمِيّة في «سَلْمىٰ» في البيتين؛ قَصْدًا إلى الاستلذاذ بذكره.

١٠ ـ عُرِّف المسندُ إليه باسم الإشارة في «أولٰئك»؛ لقصد تمييزه.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول تعريف المسند إليه وتنكيره (٢):

ـ حدّد الأغراضَ التي اقتضتْ تعريفَ المسند إليه أو تنكيره فيما يأتي:

١ ـ جاءنا أبُو الفَضْلِ. وأخُو الحَرْبِ قادمٌ.

٢ ـ سعيدٌ في بيتنا. السفّاحُ في الطريق.

٣ ـ سأل القاضي شخصًا: هل أقرّ أحمدُ بهذا الجُرْم؟ ـ فقال الشخصُ: أحمدُ أقرَّ بهذا الجرم.

٤ ـ أولٰئكَ آبائي فجِئْني بِمِثْلِهِمْ   إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المجامعُ

٥ ـ قال سبحانه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

٦ ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

٧ ـ قال سبحانه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾.

٨ ـ قال سبحانه: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾.

٩ ـ فقُلْ لِمَنْ يدَّعي في العِلْمِ فلسفةً   حَفِظْتَ شيئًا وغابتْ عنكَ أشياءُ

١٠ ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

الإجابات:

١ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالعلَمية في «أبو الفضل»؛ لكونه كنايةً عن معنًى يصْلُح له العَلَمُ، وهو الفَضْلُ والخير. وعُرّف بالعلَمية في «أخو الحَرْب»؛ لكونه كنايةً عن معنًى يصلُح له العلَمُ، وهو الشجاعة.

٢ ـ عرِّف المسند إليه بالعلَمية في «سعيد» للتفاؤل به، وعرِّف في «السفّاح»؛ للتطيُّر به.

٣ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالعلَمية في «أحمد»؛ للتَّسجيل على السامع حتى لا يتأتى له الإنكارُ.

٤ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالإشارة في «أولٰئك»؛ لِقَصْد التعريض بغباوة السّامع، والإيماء إلى أنّ الأشياء لا تتميّز عنده إلّا بالإشارة الحسيّة.

٥ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالإشارة في «هٰذا»؛ لِقَصْد تحقيره بالقرب.

٦ ـ عرّف المسند إليه بالإشارة في «هٰذا»؛ لِقَصْد تعظيمه بالقرب.

٧ ـ عُرِّف المسند إليه بالإشارة في «ذٰلك»؛ لِقَصْد تحقيره بالبعد.

٨ ـ عرّف المسند إليه بالإشارة في «ذٰلك»؛ لِقَصْد تعظيمه بالبعد.

٩ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالإضمار في «يدّعي»؛ لأن المقام للضمير، وقد تقدّم مرجعه لفظًا تحقيقًا، وعرِّف بالإضمار في «حفِظْتَ»؛ لأنّ المقام للخِطاب، ونُكِّر في «أشياء»؛ لِقَصْد إفادة الكثرة.

١٠ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالإضافة في «عبادي»؛ لِقَصْد تعظيمه؛ فقد عظّم شأنُ العباد بإضافتهم إلى الله سبحانه.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول تعريف المسند إليه وتنكيره (٣):

ـ حدّد الأغراضَ التي اقتضت تعريفَ المسند إليه أو تنكيره فيما يأتي:

١ ـ حِكَمٌ حَارتِ البَرِيّةُ فيها وجَدِيرٌ بأنَّها تَختَارُ

٢ ـ عبّاسُ عبّاسٌ إذا احتدم الوغى والفَضلُ فَضلٌ والرَّبيعُ ربيعُ

٣ ـ ولَيسَ يصِحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النَّهارُ إلى دليلِ

٤ ـ لكلِّ مقامٍ مقالٌ.

٥ ـ علماءُ المسلمين أجمعوا على كذا.

٦ ـ إنّ الّذي تَحْسَبُه عدوًّا لك دافعَ عنك أمسِ.

٧ ـ إنّ مَنْ يجالِسُ السّفهاءَ يمقتُه ذوو العَقْل.

٨ ـ قال سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

١٠ ـ لكلّ داءٍ دواءٌ.

الإجابات:

١ ـ نُكّر المسندُ إليه في «حِكَم»؛ لِقَصْد إفادة تعظيمه، تبعًا لعلوّ شأن هذه الحِكَم، أو لإفادةِ التكثير، تبعًا لِكَثْرة عددها. وعُرّف المسندُ إليه بـ «ال» في «البَرِيّة»؛ للإشارة إلىَ العَهْد العلميّ، وعُرّف بالضميرِ في «أنّها» و «تحتار»؛ لكون المقام للغَيْبة؛ وذٰلك لتقدّمِ المرجع لفظًا تحقيقًا.

٢ـ عُرّف المسند إليه بالعلَمية في «عبّاس» و «الفَضْل» و «الرّبيع»؛ لِقَصْد تعظيمه. وعُرّف بـ «ال» في «الوغى»؛ للإشارة إلى فرْدٍ مُبْهَمٍ من أفراد الحقيقة.

٣ـ نُكّر المسندُ إليه في «شيء»؛ لِقَصْد إفادة التّحقير مِنْ وجهة انحطاط شأنه، أو إفادة التّقليل من وجهة قلّة العدد. وعرّف بـ «ال» في «النهار» للإشارة إلى الحقيقة.

٤ ـ نُكّر المسندُ إليه في «مقال»؛ لإفادة معنى النّوعية؛ إذ إنّ المعنى هو: لكلّ مقامٍ نوعٌ خاصٌ من أنواع المقال.

٥ ـ عُرّف المسندُ إليه بالإضافة في «علماءُ المسلمين»؛ لإغناء هذه الإضافة عن تفصيلٍ متعذِّر.

٦ عُرّف المسندُ إليه بالموصول «الّذي»؛ لبيان خطأ المخاطَب في رَأْيِهِ.

٧ ـ عُرِّف المسندُ إليه بالموصول في «مَنْ»؛ للإشارة بها إلى نوع الخبر.

٨ ـ نُكِّر المسندُ إليه في «رُسُلٌ»؛ لِقَصْد التكثير؛ فالمعنى: رُسُلٌ كثيرون.

٩ ـ نُكِّر المسندُ إليه في «رضوانٌ»؛ لِقَصْد التقليل؛ فالمعنى: ورضوانٌ قليل.

١٠ ـ نُكِّر المسندُ إليه في «دواءٌ»؛ لِقَصْد بيان النّوع، فالمعنى: لكلّ نوعٍ من الدّاء نوعٌ من الدّواء.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول التقييد بالتّوابع (١):

ـ حدّد نوعَ القَيْد بأحد التوابع والغرضَ من تقييد المسند إليه في الجمل الآتية:

١ ـ تلميذٌ مجتهدٌ في مدرستنا. محمّدٌ الصيّادُ زارَنا البارحةَ.

٢ ـ الكريمُ الّذي يتهلّلُ وجهُهُ بِشْرًا وطلاقةً عندما يساعدُ الناسَ موضعُ احترامهم وحبّهم.

٣ ـ زارني أحمدُ العالمُ.

٤ ـ صاغ الحكمةَ المتنبّي لا البُحْتُرِيّ.

٥ ـ المستقبلُ الآتي يَحْمِل معه البشائرَ.

٦ ـ زيدٌ السّفيهُ في الطّريق إليكَ.

٧ ـ قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

٨ ـ زارني أحمدُ أحمدُ.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

١٠ ـ زارني أخوكَ أخوكَ.

ـ الإجابات:

١ ـ تلميذٌ مجتهدٌ في مدرَستنا: قُيِّد المسندُ إليه بالنَّعْتِ «مجتهد»؛ لِتَخْصيصِه بتقليل الاشتراك فيه. محمّدٌ الصيّادُ زارنا البارحة: قُيِّد المسند إليه بالنّعْت «الصَّيّاد» لتخصيصه برفع الاحتمال.

٢ ـ الكريم الذي يتهلّل..: قيّد المسند إليه بالنعت «الذي»؛ لتوضيح معناه.

٣ ـ زارني أحمدُ العالِمُ: قُيِّد المسندُ إليه بالنَّعْت «العالم»؛ لِغَرَض المدح.

٤ ـ صاغ الحِكْمةَ المتنبّي لا البحتريّ: قيّد المسند إليه بالعطف بـ «لا»؛ لردّ السّامع عن الخطأ إلى الصواب.

٥ ـ المستقبلُ الآتي يحْمِلُ معه البشائر: قيّد المسندُ إليه بالنّعْت «الآتي»؛ للتوكيد الذي يشوّق إلى مَقْدَمِه.

٦ ـ زيدٌ السّفيهُ في الطّريق إليك: قُيّد المسندُ إليه بالنعت «السّفيه»؛ لقصد الذمّ.

٧ ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾..: قُيِّد المسندُ إليه بالنعت في «في الأرْضِ» و «يطير»؛ لبيان المقصودِ وتفسيره وأنّ «دابة» و «طائر» يفيدانِ زيادةَ التعميم والإحاطة.

٨ ـ زارني أحْمَدُ أحمدُ: قيِّد المسند إليه بالتوكيد اللفظيّ «أحمد»؛ لتقريره، وتحقيق مدلوله في الذهن.

٩ ـ «إنّ الله هو الرزّاق..» قُيِّد المسندُ إليه بضمير الفصل «هو»؛ لتأكيد تخصيصه.

١٠ ـ زارني أخوكَ أخوك: قيّد بالمسند إليه بالتوكيد اللفظي «أخوك» لتقريره وتحقيق مدلوله في الذهن.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول التقييد بالتّوابع (٢):

ـ حدّد نوعَ القَيْدِ بأحد التّوابع والغرضَ من تقييد المسند إليه في الجمل الآتية:

١ ـ قال سبحانه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾.

٢ ـ قال سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾.

٣ ـ هذا أبُو الحَسَنِ عليٌّ كرّم اللّهُ وجهَه.

٤ ـ مات حافِظٌ فشوقيّ.

٥ ـ جاء زيدٌ وأبوه.

٦ ـ وُلِدَ إسحاقُ ثمّ إسماعيلُ.

٧ ـ مات الأغنياءُ حتى قارون.

٨ ـ زيدٌ أو أخوه راسبٌ.

٩ ـ إنّي أو إيّاك لَعَلى خطَأ.

١٠ ـ لِيُسافِرْ أحمدُ أو سعيد.

ـ الإجابات:

١ ـ قُيّد المسندُ إليه بالتّوكيد «كلُّهم» و «أجمعون»؛ لتقريرِه ودَفْعِ توهّم عدم الشمول.

٢ ـ قيّد المسندُ إليه بعَطْفِ البيان «البيْت الحرام»؛ لِقَصْد المَدْح والثناء.

٣ ـ قُيِّد المسندُ إليه بعَطْفِ البيان «عليٌّ»؛ لِقَصْد إيضاحه وتفسيره.

٤ـ قُيِّد المسندُ إليه بالعَطْف بالفاء؛ لتفصيل المسند مع الاختصار.

٥ـ قُيِّد المسندُ إليه بالعطف بـ «الواو»؛ لتفصيل المسند إليه مع الاختصار.

٦ ـ قُيِّد المسندُ إليه بالعَطْف بـ «ثم»؛ لتفصيل المسند مع الاختصار.

٧ ـ قُيِّد المسندُ إليه بالعطف بـ «حتّى»؛ لتفصيل المسند مع الاختصار.

٨ ـ قُيِّد المسندُ إليه بالعَطْف بـ «أو»؛ للتعبير عن شكّ المتكلّم، أو لِقَصْد تشكيك السامع.

٩ ـ قُيِّد المسندُ إليه بالعَطْف بـ «أو»؛ لإبهام الحُكْمِ على المخاطب.

١٠ ـ قُيِّد المسند إليه بالعطف بـ «أو»؛ لِقَصْد التخيير أو الإباحة.

أسئلة وإجاباتها حول التقييد بالتوابع (٣):

ـ حدّد نوعَ القَيْد بأحد التوابع والغرضَ من تقييد المسند إليه في الجمل الآتية:

١ ـ ما جاء خالدٌ بل وليدٌ.

٢ ـ ولدي حسامٌ مجتهدٌ.

٣ ـ .ذهبَ الأصدقاءُ معظمُهم.

٤ ـ أعجبني الأستاذُ عِلْمُه.

٥ ـ قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٦ ـ جاء أحمدُ لا محمّدُ.

٧ ـ المُحْسِنُ هو الذي يعبدُ اللَّهَ كأنّه يراه.

٨ ـ سبَقَ في حَلْبةِ الشّعر عمر أبو ريشة ونزار قباني.

٩ ـ وقَّع الأمرَ الأميرُ نفسُهُ.

١٠ ـ أزعجني أحمدُ بل سعيدُ.

ـ الإجابات:

١ ـ قُيِّد المسندُ إليه بالعَطْف بـ «بل»؛ لردّ السامع عن الخطأ في الحُكْمِ إلى الصواب.

٢ ـ قُيِّد المسندُ إليه بالبَدَلِ «حسام»؛ لزيادة التقرير.

٣ ـ قُيِّد المسندُ إليه ببدَل البعض «معظمهم»؛ لزيادة تقريره.

٤ ـ قُيِّد المسندُ إليه ببدل الاشتمال «علمه»؛ لزيادة تقريره.

٥ ـ قُيِّد المسندُ إليه بضمير الفَصْل «هو»؛ لتخصيصه.

٦ ـ قُيِّد المسندُ إليه بالعطف بـ «لا»؛ لردّ السامع عن الخطأ إلى الصواب.

٧ ـ قُيِّد المسندُ إليه بضمير الفَصْل «هو»؛ لتمييز الخبَرِ عن الصِّفة.

٨ ـ قُيِّد المسندُ إليه بالعَطْف بـ «الواو»؛ لتفصيل المسند إليه مع الاختصار.

٩ ـ قُيِّدَ المسندُ إليه بالتوكيد المعنويّ «نفسه»؛ لِدَفْعِ توهّمِ التجوّز أو السّهو.

١٠ ـ قُيِّد المسندُ إليه بالعطف بـ «بل»؛ لِصَرْف الحُكْمِ من المحكوم عليه الأول إلى الثاني.

أسئلة وإجاباتُها حول تقديم المسند إليه(١):

- حدّد في الجمل الآتية الغَرَضَ من تقديم المسند إليه:

١ - عدْلُ السُّلطانِ خيرٌ من خِصْب الزمان.

٢ - قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

٣ - محمّدٌ قادمٌ.

٤ - قال سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

٥ - الجَنَّةُ موعِدُ الذينَ آمنوا.

٦ - ثلاثةٌ يُذْهِبْنَ الحَزَن: الماءُ والخضراءُ والوجْهُ الحَسَن.

٧ - اسمُ الله حافظي.

٨ - الجائزةُ مُنِحَتْ لك.

٩ - العَفْوُ والعافيةُ والمُعافاةُ الدّائمة خيرُ ما يسألُ عبدٌ ربَّه.

١٠ - رَحْمَةُ اللَّهِ خيرٌ من كلّ شيء.

الإجابات:

١ - قُدِّم المسند إليه «عَدْل»؛ لأنّه الأصْلُ المحكوم عليه، ولا مقتضى للعدول عنه.

٢ - قُدِّم المسندُ إليه ﴿أَكْرَمَكُمْ﴾؛ لتمكينِ الخبر في ذهن السامع؛ لأنّ في المبتدأ تشويقًا إليه.

٣ - قُدِّم المسندُ إليه «محمّد»؛ لكونه الأصْلَ ولا مقتضى للعدول عنه.

٤ - قُدِّم المسندُ إليه «النار»؛ لتعجيل المساءة للتطيّر.

٥ ـ قُدِّم المسندُ إليه «الجنّة»؛ لتعجيل المسرّة للتفاؤل.

٦ ـ قُدِّم المسندُ إليه «ثلاثة يذهبن الحزن»؛ لتمكين الخبر في ذهن السامع؛ لأنّ في المبتدأ تشويقًا إليه.

٧ ـ قُدِّم المسندُ إليه «اسمُ اللَّهِ»؛ للتبرّك به.

٨ ـ قُدِّم المسندُ إليه «الجائزة»؛ لتعجيل المسرّة للتفاؤل به.

٩ ـ قدّم المسند إليه «العفو»؛ لإيهام أنّه لا يزول عن البال لكونه مطلوبًا.

١٠ ـ قدّم المسند إليه «رحمة الله»؛ لإيهام أنه لا يزول عن البال؛ لكونه مطلوبًا.

أسئلة وإجاباتُها حول تقديم المسند إليه(٢):

ـ حدّد في الجمل الآتية الغرضَ من تقديم المسند إليه:

١ ـ حبيبُك سيُسافر فانهضْ لتوديعه.

٢ ـ رجلٌ عظيمُ القَدْر زارَنا اليوم.

٣ ـ الثَّقيلُ الظلِّ رحَلَ عنّا اليوم.

٤ ـ ما أحمُد فعلَ هذا.

٥ ـ رجلٌ مَا دخلَ هذا المكان.

٦ ـ أنا ما رأيتُ هذا الكتاب.

٧ ـ مِثْلُك يساعِدُ الناسَ. غيرُكَ لا يصلّي.

٨ ـ كلُّ ذي روحٍ لا يستغني عن الهواءِ.

٩ ـ مروّضُ الوحوشِ فلانٌ.

١٠ ـ ما كلُّ ما يتمنَّى المرءُ يُدْرِكُه.

الإجابات:

١ ـ قُدِّم المسندُ إليه «حبيبك»؛ لإيهام أنّه لا يزول عن البال.

٢ ـ قُدِّم المسندُ إليه «رجلٌ عظيم القدر»؛ للتعجيل بإظهار تعظيمه.

٣ ـ قُدِّم المسندُ إليه «الثقيل الظلّ»؛ للتعجيل بإظهار تحقيره.

٤ ـ قُدِّم المسندُ إليه «أحمد»؛ لإفادة التخصيص.

٥ ـ قُدِّم المسندُ إليه «رجلٌ ما»؛ لإفادة التخصيص أو تقوية الحكم.

٦ ـ قُدِّم المسندُ إليه «أنا»؛ لإفادة التخصيص أو تقوية الحكم.

٧ ـ قُدِّم المسند إليه «مِثْلُك» و «غيرك»؛ لِغَرَض إثبات الحُكم بالطريق الأبلغ.

٨ ـ قُدِّم المسندُ إليه «كلّ ذي روح»؛ لإفادة عموم السَّلْب أو شمول النفي.

٩ ـ قُدِّم المسندُ إليه «مروِّض الوحوش»؛ لتمكين الخبر في الذّهن؛ لأنّ في المبتدأ تشويقًا إليه.

١٠ ـ قُدِّم المسندُ إليه «كلُّ»؛ لإفادة سَلْب العموم، أو نفي الشّمول.

أسئلة وإجاباتُها حول خروجِ الكلامِ عن مقتضى الظاهر في المسند إليه(١):

ـ بيِّنْ ما يقتضيهِ ظاهرُ الحال من إيراد المسند إليه، وحدّد الغرضَ من إيراده على خلاف مقتضى الظاهر فيما يأتي:

١ ـ نِعْمَ شاعرًا أبُو ريشة. بئسَ خَلَّةً الظُّلمُ.

٢ ـ هي الدُّنيا تقول بمِلءِ فِيها: حَذارِ حذارِ من وقْعِي وفَتْكي

٣ ـ قال سبحانه: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥٓ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾.

٤ ـ قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾.

٥ ـ هو أحمدُ يعرف كيف يتصرّف في الشدائد.

٦ ـ قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

٧ ـ سأل ضريرٌ: مَنْ رماني بالحَجَر؟ ـ فقيل له: هذا الذي رماك بالحجر.

٨ ـ كتب ولدٌ لوالده: «ولدُك الحبيبُ يكتب إليكَ».

٩ ـ قلتَ لصديقِك الذي يناقشُك في مسألة: هذا أمْرٌ بَدَهِيٌّ.

١٠ ـ شَدَدْنا شَدّةَ اللَّيْثِ غدا واللَّيْثُ غضبانُ

الإجابات:

١ ـ مقتضى الظّاهر أن يؤتىٰ بالاسم الظّاهر لا بالضّمير، وذلك لِعَدم تقدّم المرجع، حيث يقال: «نعمَ الشاعرُ أبو ريشة» و «بئسَ الخَلّةُ الظُّلمُ». لكنّه خُولفَ المقتضى وأُتي بالمسند إليه ضميرًا في الموضعين؛ لغرض الإيضاح بعد الإبهام؛ ليتمكّن المعنى في الذهن.

٢ ـ مقتضىٰ الظّاهرِ أن يُؤتى بالاسمِ الظّاهر، فيقال: «الحالُ أو الشّأن الدّنيا تقول..»، لكنه عُدِل عنه إلى الضّمير، تمكينًا له في ذهن السّامع لما فيه من الإيضاح بعد الإبهام.

٣ ـ مقتضى الظّاهر أن يكتفى بالضّمير، فيقال: «هو الضّلالُ البعيد» لتقدُّم المرجع معنًى وهو دعاءُ ما لا يضرُّ وما لا ينفع، لكنّه

عدل عنه إلى اسم الإشارة «ذٰلك»؛ لِكَمال العناية بتمييز المسند إليه بسبب اختصاصه بحُكْمٍ غريب. ويجيء هذا كثيرًا في القرآن الكريم.

٤ ـ مقتضى الظّاهر أن يؤتى بالضّمير فيقال: «هو الصَّمَد»؛ لتقدّم المرجع؛ لكنّه عُدِل عن ذلك إلى الاسمِ الظّاهر لفظِ الجلالة «الله»؛ لزيادة تمكينه في ذهن السامع.

٥ ـ مقتضى الظاهر أن يُؤتىٰ بالاسم الظاهر فيقال: «الحال أو الشأن أحمد يعرف. .» لكنّه عُدِل عنه إلى الضمير؛ تمكينًا له في ذهن السّامع لما فيه من الإيضاح بعد الإبهام.

٦ ـ مقتضى الظّاهر أن يعبَّر عن الذّات بالخِطاب فيقال: «إنّ ربَّكُم» مُجاراةً لظاهر السّياق فيما تقدّم، لكنّهُ عدِل عن الخطاب إلى التكلّم؛ لإظهار الاغتباط بإضافة الربّ إليه.

٧ ـ مقتضىٰ الظّاهر أن يُؤتىٰ بالضَّمير فيقال: هو فلان؛ لتقدّم المرجع في السّؤال، لكنّه عُدِل عنه إلى اسم الإشارة؛ لقصد السُّخرية من المخاطَب والتهكّم به؛ إذ نُزِّل منزلةَ من يرى ويبصر.

٨ ـ مقتضى الظّاهر أن يُؤتىٰ بضمير التكلّم؛ لأن المقام مقامُ التكلّم؛ لكنه عُدِل عنه إلى الاسْمِ الظّاهر؛ لغرض التودّد والتحبّب.

٩ ـ مقتضى الظّاهر أن يؤتى بالضّمير فيقال: «هو أمرٌ بَدَهِيٌّ»؛ لتقدّم مرجعه فيما تقدّم من النقاش، لكنه عُدِل عنه إلى اسم الإشارة؛ لادّعاءِ كمالِ ظهور الأمر، وأنه بلغ من الوضوح مبْلَغَ المدرَكِ بحاسّة البصر.

١٠ ـ مقتضى الظاهر أن يؤتى بالضّمير فيقال: «وهو غضبانُ»؛ لتقدّم مرجعه لفظًا، لكنه عُدِل عنه إلى اسم الظاهر؛ لزيادة تمكينه في ذهن السّامع.

أسئلة وإجاباتُها حولَ خروج الكلام عن مقتضى الظاهر في المسند إليه وفي غيره (٢):

- بيّن مقتضى ظاهرِ الحال، وحدِّد الغرضَ من إيراد الكلام على خلافه فيما يأتي:

١ - قال سبحانه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾.

٢ - قال مرؤوسٌ لرئيسِه: «يُعطيني الرئيسُ دقيقةً من وقته».

٣ - قال رئيسٌ لمرؤوسِه: «رئيسُكَ يأمرُك».

٤ - قال حسّان بنُ ثابت يذكر صاحبَته «شَعْثاء»:

كأنّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رأسٍ ... يكونُ مزاجَها عَسَلٌ وماءُ
على أنيابِها أو طَعْمَ غضٍّ ... مِنَ التفاحِ هصَّرَهُ الجَناءُ

٥ - قال خادِمٌ لسيِّده: «خادِمُك المذنبُ يسألك العفوَ».

٦ - قال مدرِّسٌ لأحد طلّابه: «هذه نظريةٌ واضحة».

٧ - قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾.

٨ - تقولُ لرجلٍ لا يحِبُّ أن يكذِّبك: «تجيءُ غدًا».

٩ - تقول في رسالةٍ إلى صديقٍ بَعيدٍ: «جمع الله الشَّمْلَ».

١٠ - يقول القائدُ مخاطِبًا جُنْدَه: «تفتِكون بالأعداء، وتستأصِلونَ شأفتَهم، وتذيقونهم الرَّدى».

الإجابات:

١ - مقتضى الظّاهر أن يُؤتىٰ بالضّمير فيقال: «الحاقّة ما هي»؛ لتقدّم المرجع، ولكن عُدِل إلى الاسم الظّاهر؛ ليتمكّن في ذهن السّامع تمكّنًا قويًا؛ لِمَا في الاسم الظاهر من التّصريح.

٢ ـ مقتضى الظاهر أن يأتي بصيغة الطَّلَب فيقول: «أَعْطِني»، لكنّه وضَع الخبرَ موضع الإنشاء؛ قصْدًا إلى التأدّب بالاحتراز عن صورةِ ما يدلُّ على الاستعلاء.

٣ ـ مقتضى الظّاهر أن يأتي بالضّمير؛ لأنّ المقام للتكلّم فيقول: «أنا آمرُك»، لكنّه عَدل عنه إلى الاسم الظاهر؛ لقَصْدِ إدخال الرَّوْعِ والمَهابة في قلْب السَّامع، ولأنّ ذلك أدعى إلى الاستجابة.

٤ ـ مقتضىٰ ظاهر السّياق أن يقول حسّانُ: «يكون مزاجُها عسلاً وماءً»، لكنه قلَب؛ للضرورة.

٥ ـ مقتضى الظّاهر أن يُؤتى بضمير المتكلِّم؛ لأنّ المقام له فيقال: «أنا المذنبُ أسألُكَ العَفْوَ» لكنَّه عدلَ عنه إلى الاسم الظاهر؛ قَصْدًا إلى الاستعطاف والاستمالة، لِمَا في لفظ «خادمك» من معنى الخضوع.

٦ ـ مقتضى الظّاهر أن يأتي بالضّمير فيقول: «هي نظريةٌ واضحة»؛ لتقدّم المرجع في أثناء الحديث، لكنّه عدل عنه إلى اسم الإشارة للتّنبيه على كَمالِ فَطانةِ الطّالب، وأنّ المُدْرَكَ بالعقلِ عنده كالمدرَك بحاسّة البصر.

٧ ـ مقتضى الظّاهر أن يُؤتىٰ بالنَّهي فيقال: «لا تَسْفِكُوا»، لكنّه عُدِل عنه إلى الخبر «لا تسفكون» مبالغةً في النّهي، حيث أوحىٰ الخبرُ بأنّهم نُهُوا عن السَّفْك فامتثلوا، ثم أُخبِر عنهم.

٨ ـ مقتضى الظّاهر أن تأتي بصِيغة الالتماس: «جيء غدًا» لأنّ المقام لطلَبِ شيءٍ غير حاصلٍ وقتَ الطّلب، لكنّك عدَلتَ عنه إلى الخبر «تجيءُ غدًا»؛ لِتَحْمِل المخاطبَ على الفعل بألطف أسلوب؛ إذ يحمله هذا الأسلوبُ على المجيء؛ لأنّه إن لم يأتِ غدًا صِرْتَ كاذبًا

من حيث الظّاهر؛ لأنّ كلامَك في صورة الخبر.

٩ ـ مقتضى الظاهر أن يؤتى بالمضارع فيقال: «يجمع»؛ لأنّ الجَمْعَ لم يحصُلْ، لكنّه عُدِل عنه إلى الماضي؛ إظهارًا للرّغبة الشديدة في حصوله.

١٠ ـ مقتضى الظّاهر أن يُؤتى بالأمْر فيقال: «افتِكُوا بالأعداء، واستأْصِلُوا شَأْفتَهم..»؛ لأن المقام لطَلَبِ أمْرٍ غيرِ حاصلٍ وقت الطّلب على جهة الاستعلاء، لكنّه عُدِل عنه إلى الخبر؛ تنبيهًا على تيسُّرِ المطلوب لوفرة الأسباب واستكمال العُدّة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث

أحوال المسند

ويتضمّن:

- المسند ومواضعه.

- أحوال المسند - وهي:

أوّلًا: ذكر المسند.

ثانيًا: ترك المسند.

ثالثًا: إيراد المسند فعلًا.

رابعًا: إيراد المسند اسمًا.

خامسًا: إيراد المسند الفعل وما يشبهه مقيّدًا بأحد المفاعيل ونحوها.

سادسًا: إيراد المسند فعلًا غيرَ مقيَّد بشيء ممّا تقدم.

سابعًا: إيراد المسند فعلًا مقيّدًا بالشرط:

- الفرق بين «إنْ» و«إذا» و«لَوْ».

- الأغراض البلاغية لاستخدام «إنْ» في مقام الجَزْم بوقوع الشرط.

- استخدام «إذا» في الشرط المشكوك في ثبوته أو نفيه.

- العدول عن استقبالية جُمْلَتي الشرط والجواب لفظًا ومعنًى إلى استقباليتهما معنى فقط.

- الأغراض البلاغية لدخول «لو» على الجملة المضارعية.

ثامنًا: إيراد المسند معرفةً.

تاسعًا: إيراد المسند نكِرةً.

عاشرًا: إيراد المسند مقدَّمًا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المسندُ ومواضعه:

المُسْنَدُ هو المحكومُ به أو المحدَّثُ به، وهو أحدُ ركني الجملة. وللمسندِ ثمانيةُ مواضع هي:

١ ـ خبَرُ المبتدأ، نحو «أَبْلَجُ» و«لَجْلَج» في المَثَل المشهور: «الحقُّ أبلجُ والباطِلُ لجلجُ».

٢ ـ الفعلُ التَّام، نحو «جاءَ» و«زَهَقَ» في قوله سبحانه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

٣ ـ اسمُ الفِعْل، نحو: «شتّانَ ـ أفٍّ ـ إيه» في قولك: لشتّانَ ما بينَ الثُّرَيَّا والثَّرى»، «أفٍّ لَكَ»، «إيهِ يا بلبلُ ترنَّمْ».

٤ ـ المبتدأُ الوصْفُ المستغني عن الخبر بمرفوعه، نحو «راغبٌ» في قوله سبحانه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

٥ ـ أخبارُ النّواسِخ «كان وأخواتها» و«إنّ وأخواتها».

٦ ـ المفعول الثاني لظنّ وأخواتها.

٧ ـ المفعول الثالث لـ«رأى» وأخواتها.

٨ ـ المَصْدَرُ النائب عن فِعْل الأمر، نحو: «ضَرْبًا» و«إهانةً» في قولك: «ضربًا المسيءَ وإهانةَ المتجاوزَ».

ـ أحوال المسند:

أحوالُ المسند هي الأمورُ العارضةُ له في أساليب البلغاء من ذِكْرٍ وتَرْكٍ، وتعريفٍ وتنكيرٍ، وتقديمٍ وتأخيرٍ، ومن مجيئه مفردًا وجملةً،

وغير ذٰلك. ولكلٍّ من هذه الأحوال دَواعٍ تقتضيه سنأتي على ذكرها مفَصّلةً إن شاء الله تعالى.

أوّلاً ـ ذكرُ المسند:

يُذْكَرُ المسندُ للأغراض التي أُشير إليها في ذكر المسند إليه، ومن ذٰلك:

١ ـ كونُ ذكْرِه هو الأصْلُ ولا مقتضى للعدول عنه، كقوله سبحانه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، ذُكِر المسندُ الخبر ﴿قَوَّٰمُونَ﴾؛ لكون ذكره هو الأصل، ولا مقتضى للعدول عنه.

٢ ـ ضعْفُ التعويل على القرينة، كما في قولِكَ: «عَقْلٌ في السَّماءِ وحظٌّ مع الجَوْزاء»؛ ذُكِر المسندُ «مع الجوزاء»؛ لأنه لو حُذِف لمَا دلّ عليه الكلامُ السّابق؛ فقد يكون الحظُّ عاثرًا. ومِثْلُه: «حالي مستقيمٌ ورِزْقي ميسورٌ».

٣ ـ التعريضُ بغباوة السّامع، كقوله سبحانه على لسان إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، بعد قوله سبحانه حكايةً عن قومه: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾؟ فقد ذُكِر المسندُ «فَعلَهُ» في الإجابة تعريضًا بغباوة السّامعين.

٤ ـ تعيينُ كونِه «فِعْلاً» فيفيد التجدّدَ والحدوثَ مقيَّدًا بأحد الأزمنة الثلاثة، أو «اسمًا» فيفيد الثبوتَ مطلقًا. ومِثالُ الاثنين قولُه سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾، جيء بالمسند الأوّل «يخادعون» فعْلاً لإفادة التجدّد مرّةً بعد أخرى، مقيدًا بالزمان من غير حاجة إلى قرينة تدلّ عليه كذكر (الآن ـ أو الغد) وجيء بالمسند الثّاني «خادِعُهُمْ» اسمًا لإفادة الثّبوت مطلقًا من غير نظرٍ إلى زمان.

٥ ـ الاستلذاذ بذكره، كقولك: «هي لَيْلىٰ» في إجابة من سألك: «هل هذه ليلىٰ؟». تذكُر المسندَ الخبر «ليلى» تلذّذًا بذكر اسمها.

ثانيًا ـ تَرْكُ المسند:

يذهبُ البلاغيون إلى أنّ تَرْكَ المسند عند قيام القرينة عليه يحقِّق ثلاث مزايا على قدْرٍ كبير من الأهمية هي: إيجازُ العبارة وامتلاءُها، تصفِيتُها وصَوْنُها من الترهّل والتمدّد، إثارةُ الحِسّ والفِكْر اللّذَيْن يأخذانِ في تعرّف جزء المعنى الذي لم يُذْكَرْ لفظٌ دالٌّ عليه. ويمكن القول، على الجملة، إنّ المسندَ يُحذَفُ من الكلام للأغراض التي أشير إليها في حذف المسند إليه، ومن ذٰلك:

١ ـ أن تدلَّ عليه «قرينةٌ» ويتعلّق بِحَذْفه غرَضٌ ممّا جاء في حذف المسند إليه. والقرينة نوعان:

ـ مذكورة، كقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، أي: خلقهنَّ الله. حيث حُذِف المسندُ «خلقهنّ»؛ لدِلالة القرينة عليه. والقرينة هنا مذكورة ضمن السؤال «خَلَق».

ـ مقدّرة، كقوله سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ﴾، أي: يسبِّحه رجال. كأنّه قيل: مَنْ يسبِّحهُ.

٢ ـ الاحتراز عن العَبَث، كما في قوله سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ورسولُهُ بريءٌ منهم أيضًا.

٣ ـ ضيق المقام عن إطالة الكلام، كقول الشاعرِ:

قالتْ وقدْ رأَتِ اصفراري: مَنْ بِهِ   وتنهّدَتْ، فأَجَبْتُها: المتنهِّدُ

أراد: المتنهِّدُ هو المطالَبُ بشأن اصفِراري ونُحولي وسَقَمي؛ حُذِف المسندُ الخبرُ «المطالَبُ» لضيق المقام عن إطالة الكلام. ومِثْلُه قول الشاعر:

نحنُ بِمَا عِنْدَنا وَأَنْتَ بِمَا   عِنْدَكَ راضٍ والرّأْيُ مُخْتَلِفُ

أي: نحنُ بما عندنا رضوانَ، حيث حُذِف خبرُ المبتدأ الأوّل «نحن»؛ لضيق المقام ودلالة القرينة، وهي خبر المبتدأ الثاني، عليه.

٤ ـ اتّباع الاستعمالِ العربيّ، كقوله سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾، أي: لولا أنتم موجودن؛ حُذِف المسندُ الخبرُ «موجودون»؛ لورودِ الاستعمال العربيّ على ترْك المسند في مثل هذا الأسلوب. وكقولك: «خرجتُ فإذا أحمدُ»، أي: فإذا أحمد بالباب، مثلاً.

٥ ـ الاستهانة به. والحَذْفُ هنا إحدى الكيفيات التي كثُرَ ورودُها في الذّكر الحكيم، كقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾، إذ الاسمُ الموصول «مَنْ» مبتدأً ههنا، وخبره محذوف تقديرُه: «كمن ليس كذلك». وجليّ أن القائمَ على كلّ نَفْسٍ هو الله سبحانه أي المتولّي لأمرِ كلّ نفسٍ والحافظُ لشأنها، والمحذوف الذي هو «كمن ليس كذلك» هو المعبودُ بالباطل. وقد جاء حذْفُ المسندِ الخبر هذا؛ ليُعْلَنَ الفارقُ الهائل بين الواجبِ الوجود وبين المفقود. ألا يكون في الحَذْفِ هنا إشعارٌ بإهمال المحذوف وازدرائه وعدم الالتفات إليه حتى لكأنّه غيرُ موجود، وحتّى لكأنّ إغفالَ الذّكر في الكلام خيرُ تعبيرٍ عن الإهمال والتّغاضي. ومن ذلك أيضًا قولُه سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾، أي: أهذا خيرٌ أم مَنْ جعل صدْرَهُ ضيّقًا حرجا. وكقوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

ثالثًا ـ إيراد المسند فعلاً:

يؤتىٰ بالمسند فعلاً لأغراضٍ، أهمّها:

١ ـ إفادةُ تخصيصِهِ بأحد الأزمنة الثلاثة مع الاختصار وإفادة التجدّد، كقوله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾، فقد أفاد المسندُ الفعلُ الماضي «كتَبَ» حصولَ الكتابة في الزمان الماضي دون حاجةٍ إلى ذِكْر ما يدلّ على الزمان كقولنا «أمسِ» أو نحوه. ومن هنا جاء الاختصارُ، كما أفاد الفعلُ التجدُّدَ؛ لأنّ الزمانَ

جزء منه، والتجدّد لازمٌ للزّمان. وكذا أفاد المسندُ الفعلُ المضارعُ «يَكْسِبُ» حصولَ الكَسْب منهم في الزمان الحاضر مع الاختصارِ والدّلاَلَةِ على حصول الكسب شيئًا فشيئًا. والتجدّدُ الذي يفيدُه الفعلُ نوعان:

- تجدّد زمانيٌّ: ومعناه التقضّي والحصولُ شيئًا فشيئًا على وَجْهِ الاستمرار.

- تجدّد حَدَثيّ: ومعناه الحصولُ بعْدَ العَدَمِ دونَ مراعاة الاستمرار فيه.

٢ - إفادةُ التجدّد الاستمراريّ بوجود القرينة وكون الفعل مضارعًا، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾، إذ المُرادُ هنا حصولُ التسبيح من الجبال آناً إثر آنٍ وحالاً بعد حال. وكقوله سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾؟، ولو قيل: هل من خالقٍ غيرُ الله رازقٌ لكم؟ - لما كان المعنى مثلما هو عليه. ومنه قولُ طريف بن تميمِ العنبريّ يفتخر بشجاعته:

أَوَ كُلَّما وردَتْ عُكاظَ قبيلةٌ ... بَعَثُوا إليّ عريفَهم يتوسّمُ

عُكاظ: سوقٌ للعرب بين نخْلَةَ والطّائفِ كانوا يجتمعون فيها فيتناشدون ويتفاخرون. و«عريفهم» أي: القيّمُ بأمرِهم الذي شُهِر وعُرف بذلك. ويتوسّم: يتفرَّسُ الوجوهَ متعرّفًا. وفي قوله: «يتوسّمُ» جاء المسندُ فعلاً مضارعًا؛ ليفيد أنّ تفرُّسَ الوجوهِ وتأمُّلهَا يصدر عنه شيئًا فشيئًا ولحظةً بلحظة.

رابعًا - إيرادُ المسندِ اسمًا:

يُؤتى بالمسند اسمًا لغرضٍ أساسيٍّ هو:

إفادةُ الثُبوتِ والدَّوام من غيرِ دِلالةٍ فيه على معنى التجدُّد والحدوث. ويُلْحَظ ههنا أمرانِ:

(أ) أنّ إفادة الثبوت آتيةٌ من أصْلِ وضْعِ الاسم؛ ففي قولك: «زيدٌ مغادِرٌ» لا يعني المسندُ «مغادرٌ» هنا أكثرَ من إثبات المغادرة فعلاً لزيد من غير مراعاة لمعنى التجددّ والحدوث ولا لمعنى الدوام والاستمرار.

(ب) أنّ إفادةَ الدّوام والاستمرارِ طارئةٌ تُسْتَمدُّ من قرائن تحفّ بالمسند؛ كأن يكون السِّياقُ سياقَ مَدْحٍ، كما في قول النَّضِر بن جُؤَيّة يفتخر بالكرم:

إنّا إذا اجتَمَعَتْ يومًا دراهِمُنا ظلّت إلى طُرُقِ الخَيْراتِ تستَبِقُ
لا يألفُ الدِّرْهَمُ المضروبُ صُرَّتَنا لكنْ يمُرُّ عليها وهو منطَلِقُ

فقولُه «منطلقٌ» ـ المسندُ الخبرُ ـ يفيد أنّ الانطلاق ثابتٌ للدّرهم دائم لا ينقطع، وهذا موائم لسياق المدح.

واسمعْ ما يقول الشيخُ عبدُ القاهر في هذا الشأن:

«موضوعُ الاسْمِ على أن يُثْبَت به الشيءُ للشيْء من غير اقتضاءِ أنّه يتجدّدُ ويحدُث شيئًا فشيئًا؛ فلا تعرُّضَ في قولنا: «زيدٌ منطلقٌ» لأكثرَ من إثباتِ الانطلاق فعْلاً له، كما في «زيدٌ طويلٌ» و«عمرٌو قصيرٌ».

خامسًا ـ إيراد المسندِ الفِعْلِ وما يشبهه مقيّدًا بأحد المفاعيل ونحوها:

يؤتىٰ بالمسند الفعل وما يشبِهُه (من اسم الفاعل واسم المفعول والصّفة المشبّهة واسم التفضيل) مقيّدًا، بمفعولٍ مطلَقٍ، أو مفعولٍ به، أو مفعولٍ فيه، أو مفعولٍ له، أو مفعولٍ معه، أو نحو ذلك (كالحال والتمييز والاستثناء) لغرضٍ أساسيٍّ هو:

تربيةُ الفائدة وتكثيرُها؛ لأن الحُكْمَ كلّما زاد خصوصًا زاد غرابةً، وكلّما زاد غرابةً زاد إفادةً.

والفارقُ كبيرٌ بين قولنا: «درَسَ أحمدُ»، وقولِنا: «درسَ أحمدُ القانون دراسةً واعيةً في جامعة أمِّ القُرىٰ بَدْءًا من سنة ١٩٨٠ م».

سادسًا ـ إيراد المسند فِعْلًا غيرَ مقيَّدٍ بشيء مما تقدّم:

يؤتىٰ بالمسند الفعليّ غيرَ مقيّد بأحد القيود التي أتينا على ذكرها لمانعٍ يحولُ دون تربية الفائدة. وقد ذكر البلاغيون جملةَ موانع، منها:

١ ـ خشيةُ فواتِ الفُرْصة؛ كأن تقولَ لصائدٍ نصب شَرَكًا لطائرٍ أو نحوه: «وَقَعَ» تريد: «وقع في الشَّرَك»؛ تأتي بالمسند فعلًا غيرَ مقيَّدٍ بشيء انتهازًا لفرصةِ إدراكِ الطائر أو نحوه قبل فراره، أو إدراكه حيًّا.

٢ ـ إخفاءُ زمانِ الفعلِ أو مكانِه أو مفعولِه؛ كأن تقول لِمَنْ ضمَّك وإيّاه مجلسٌ: «أخوكَ أزعج الناسَ»، لا تذكر المكانَ والزّمانَ، حتى لا يطّلِع الحاضرون على زمان الفعل أو مكانه. وكأن تقول: «أخوك شتمَ وأساءَ»، لا تحدّد المشتومَ والمُساءَ إليه، حتى لا يُعْرَف عنه ذلك فيُفْتَضح أمرُه بين الناس.

٣ ـ عَدَمُ العِلْمِ بالمقيّداتِ؛ كأن تقول: «ضربتُ»، دون ذكر المضروبِ؛ لعدم علمِك به.

٤ ـ الاختصارُ لحالٍ من أحوال النفس تبعثُ على ذلك؛ كأن يقول المريضُ: «شربتُ»، يريد «الدَّواءَ»، دون أن يذكره لضيق صَدْرِه.

٥ ـ خَشْيةُ إسآم السّامِع؛ كأن يقول المتكلِّمُ لمخاطَبٍ أطالَ عليه الحديثَ وخشِي سآمته: «باختصارٍ، سافرتُ»، دون أن يذكر متى، وإلى أين، ومع مَنْ، وبأية وسيلة....

سابعًا ـ إيرادُ المسند فعْلاً مقيّدًا بالشرط:

يؤتىٰ بالمسند الفِعْليِّ مقيَّدًا بالشّرط لدواعٍ تقتضي تقييدَه به. وتُعْرَفُ هذه الدواعي بالوقوف على معاني أدواتِ الشرط، وهو ما يبحثه عِلْمُ النحو مفصّلاً. ولا بدّ ههنا من الوقوف عندَ ثلاثٍ من أدوات الشَّرْط هي: إن، إذا، لو؛ لِمَا لها من أهمية في الاستخدام الجماليّ للُغة. ولكن قبل ذلك لا غنى عن بعض الملاحظات:

١ ـ أنّ الشَّرْطَ قَيْدٌ للفِعْل الواقع مسندًا في جملة الجزاء؛ أي إنّ الكلام المقصودَ بالإفادة في الجملة الشرطيّة (مجموع الشرط والجزاء) هو الجزاءُ، وليست جملة الشَّرْط مقصودةً لذاتها. بل هي قيدٌ في الجزاء.

٢ ـ أنّ جملةَ الجَزاء قبْلَ تقييدها بالشّرط هي التي تحدّد نوع الجملة الشرطية (مجموع الشرط والجزاء) من حيثُ الخبريّةُ والإنشائيّة؛ فقولُكَ: «إنْ تُحْسِنْ إلى النّاس تستعبِدْ قلوبَهُمْ» جملة خبريّة؛ لأنّ جملة الجزاء «تَسْتَعْبِد» خبريّة قبل تقييدها بالشّرط. أمّا قوله سبحانه: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ فجُملةٌ إنشائية؛ لأن جملة الجزاء «فتبيّنوا» قبل تقييدها بالشرط جملة إنشائيّة.

٣ ـ أنّ الأداةَ أخرجتْ فِعْلَ الشَّرْط عن الخبريّةِ واحتمالِ الصِّدْق والكَذِب، كما أخرجتْه عن الإنشائيّةِ؛ لأنّه بفِعْل الأداةِ صار مركّبًا ناقصًا، ولا يوصَفُ بالخَبَر والإنشاء إلّا ما كان مركبًا تامًّا.

ـ الفَرْقُ بين «إنْ» و«إذا» و«لَوْ»:

١ ـ تُسْتخدَمُ «إنْ» الشَّرْطية، أصْلاً، في كلِّ ما يُشَكّ بوقوعه في المستقبل؛ ومن هنا كثُرَ إتيانُها في الأحوال النادرةِ الوقوع، ووجبَ أن يتلوها لفظُ المضارع لاحتمال الشكّ في وقوعه.

٢ ـ تُستخدم «إذا» الشرطيّة، أصْلاً، في كلِّ ما يقطَعُ المتكلّمُ

بوقوعه في المستقبل؛ ومن هنا لا تُستخدمُ إلّا في الأحوال الكثيرة الوقوعِ، ويتْلوها لفظُ الماضي لِدِلالتِه على الوقوعِ والحصول قَطْعًا.

ومِمّا يمثّل الصورتَيْن من آي الذكر الحكيم قولُه سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

جيءَ في جانبِ الحَسَنةِ بلَفظِ الماضي مع «إذا»؛ لأن المُرادَ الحَسَنةُ المُطْلَقةُ، وهذه حصولُها أمرٌ محقَّقٌ؛ ولهذا عُرِّفت الحسنةُ تعريفَ الجِنْس (الحقيقة)؛ لأنّ وقوعَ الجِنسِ كَالواجب لكثرته واتّساعه؛ وجيءَ في جانب السَّيِّئة بلفظ المضارع مع «إنْ» لأنّ السَّيِّئةَ نادِرةُ الوقوع بالنِّسبة إلى الحسَنة المطلقة؛ ومن ثَمّ نُكِّرت السّيئةُ تنكيرَ التقليل.

٣ ـ تُسْتَخدَمُ «لَوْ» للشَّرْط في الماضي مع القَطْع بانتفائه، فيترتّبُ على ذلك انتفاءُ الجزاءِ، مع إمكان وقوع الجزاء لو وُجِد الشَّرْطُ. ويجب أن تكون جملتاها فِعْليَّتَيْن ماضَويّتَيْن، كقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ـ الأغراضُ البلاغيةُ لاستخدام «إن» في مقام الجَزم بوقوع الشَّرْط:

أسلَفْنا أنّ الأصْلَ في «إنْ» أَنْ تُستخدَم في المعنى المشكوك فيه، أو المتوهَّم وقوعُه، لكنّها قد تخالِفُ هذا الأصلَ، فتُستخدمُ في المعنى المجزوم به إثباتًا ونفْيًا؛ لتحقّق أغراضًا كثيرة، منها:

١ ـ التجاهُلُ حين يستدعي المقامُ ذلك ـ كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾. استُخدِمتْ «إنْ» الموضوعة للشكّ والتردّد في المعنىٰ المجزوم بنَفْيِه (نفي الوَلدِ عن الله تعالى)؛ تجاهُلاً؛ لأنّ الموقفَ يستدعي عدَمَ مصادَمةِ المعاندينَ والتنزُّلَ معَهم ومسايرتَهم وإرخاءَ العِنان لهم؛ لكي تلزمَهُم الحُجّةُ. وكما إذا استَطَلْتَ

ليلتَك فتُلتَ: «إنْ يَطْلُعِ الصُبْحُ وينقضِ اللَّيلُ أفعلْ كذا» تتجاهل طلوعَ الصّبحِ وانقضاءَ اللّيلِ، وكلٌّ منهما أمرٌ مجزومٌ به، بسبب التولّه والتضجّر.

٢ ـ إجراءُ الكلام على اعتقاد المخاطب؛ بأن يكونَ المخاطَبُ غيرَ جازم بوقوعِ الشَّرْط، والمتكلِّمُ جازمٌ بوقوعه، فيسوق المتكلّمُ كلامَهُ وفقًا لاعتقاد المخاطَبِ، كقولِكَ لِمَنْ يكذّبك: «إنْ صَدَقْتُ فماذا تفعلُ؟» مع تحقُّقِك من صِدْقِك.

٣ ـ تنزيلُ المخاطَبِ العالِم بوقوع الشَّرْط ـ أو بعَدمِ وقوعه ـ منزلةَ الجاهل؛ لمخالفته مقتضى عِلْمِهِ:

ـ **الأوّلُ** كقولِكَ لِمَنْ يؤذي أباهُ: «إنْ كان أباكَ فلا تؤذِه». فالمخاطَبُ جازمٌ بأنّه أبوه، وكان المقتضىٰ أن تُستخدمَ «إذا» التي للجَزْم، لكنّ تصرّفَه المتمثّلَ في إيذائه أباه اقتضى تنزيلَه منزلةَ الجاهل بأنّه أبوه، فعُبّر بـ «إن»؛ إجراءً للكلام على سنن حاله.

ـ **الثاني** كقولِكَ لِمَنْ تَسْتَيقِنُ كَذِبَه: «إنْ صَدَقْتَ فلا تخشَ بَأْسًا». فالمخاطَبُ عالِمٌ بعَدِمِ وقوعِ الشَّرْط (أي إنه غيرُ صادق)، فكان المقتضىٰ أن يُعبَّر له بـ«إذا» اليقينية، لكنّ المتكلّم حين رآه يكذِبُ ويتمادىٰ نزّله منزلةَ الجاهل، فعبّر بـ«إن» إجراءً للكلام على سَنَنِ حالِه تنزيلًا.

٤ ـ التّوبيخُ وتعييرُ المخاطَبِ أو غيره وقوعَ الشّرطِ منه أو اعتقادَه إيّاه، كما في قوله سبحانه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ ـ على قراءة من كسَرَ همزة «إنْ». والشاهدُ هنا استخدامُ «إنْ» الموضوعة للشّكّ والتردُّدِ في مقام الجَزْم (كونهم مسرفين)؛ بِقَصْد التّوبيخ وتصويرِ أنّ الإسرافَ من العاقل ـ أي استهزاءه بكتاب الله ـ لا ينبغي أن يكون إلّا على سبيل الفَرْض والتقديرِ

كالمُحَالات؛ وذلك لاشتمالِ المَقام على الآيات الدّالةِ على أنّ الإسراف ممّا لا ينبغي أن يصدُرَ عن العاقل أصْلًا.

٥ ـ تغليبُ غَيْر المتّصف بالشَّرْط على المتَّصفِ به ـ كما إذا كان السّفرُ أمرًا مؤكدًا لـ«أحمد» وغيرَ مؤكَّدٍ لـ«سَعْد»، فتقول لهما: «إنْ سافرتُما عاقبتُكما». استخدمْتَ «إن» الموضوعةَ للمشكوكِ فيه في المجزوم به، وهو سفرُ «أحمدَ» لأنّك غَلّبْتَ مَنْ لم يُقطَعْ بسفره «سَعْد» على مَنْ تَحقّق منه السّفرُ «أحمد». ومثلُه قوله سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾. والشاهدُ استخدامُ «إنْ» الموضوعة للشكّ والتردُّد في المجزوم به، وهو كونُ بعضهم مرتابين لا محالةَ. وحقُّ التعبيرِ عن هذا المجزوم به «إذا» الدّالّةُ على القَطْع، لكنّه حصل هٰهنا تغليبُ غَيرِ المرتابين على المرتابين؛ إذ إنه لا بدّ أن يكون بين المخاطَبين من يعرِفُ الحقَّ وإنما ينْكِر عِنادًا وكِبْرًا، فجعل الجميعَ في صورة من لا ارتياب لهم.

ـ استخدامُ «إذا» في الشَّرْط المشكوكِ في ثبوته أو نفيه:

وقد تُستخدمُ «إذا» الدّالّةُ على القَطْع أصْلًا في الشَّرْطِ المشكوك في ثبوته أو نفيه لأغراضٍ، منها:

١ ـ الإشعارُ بأنّ الشّكَّ في ذلك الشَّرْط لا ينبغي أن يكون مشكوكًا فيه، بل يجبُ الجَزْمُ به، كقولِكَ: «إذا كثُرَ المطرُ في هذا العام أخصبَ الناسُ». والشّاهدُ مجيءُ «إذا» الدالّة على القَطْع مع الشَّرْطِ المشكوكِ فيه، وهو كثرةُ المطر هذا العام؛ لِنُكْتةٍ وهي إشعارُ المخاطَبِ أنّ الشكّ في كَثْرةِ المطر هذا العام أمرٌ ثابت ولا ينبغي أن يُشَكّ فيه، بل يجب الجزْمُ به.

٢ ـ تغليبُ المتّصِف بالشَّرْط على غير المتّصف به، كقولك:

«إذا لَمْ تُسافِرا عاقَبْتُكما». إلى غير ذلك من الأغراض التي يدلّ عليها السّياق.

قاعدة بلاغية:

وجوبُ كَوْنِ جُمْلتَيِ الشّرْطِ والجوابِ مع «إن» و«إذا» فِعْلِيّتين استقباليّتين:

لأنّ كُلًّا من «إنْ» و«إذَا» لتعليقِ حُصولِ مضمونِ الجزاءِ بحصول مضمونِ الشّرْط في الاستقبال وجَبَ أن يكون كلٌّ من جملتي الشَّرْط والجواب مع كلّ منهما فعليةً استقبالية؛ وذلك لأنّ الشّرْطَ مفروضُ الحصول في الاستقبال فيمتنع ثبوتُه ومُضيُّه، والجزاءُ معلَّقٌ حصوله على حصولِ الشَّرْط في الاستقبال، ويمتنع تعليقُ حصولِ الحاصل الثابت على حصول ما يحصُل في المستقبل. وذلك كقوله سبحانه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾. وكقولِ أبي ذُؤَيبٍ الهُذَلِيّ:

والنّفسُ راغبةٌ إذا رغّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقْنَعُ

ـ العدولُ عن استقباليّةِ جُمْلَتَي الشَّرْط والجواب لفظًا ومعنًى إلى استقباليّتهما معنًى فقط:

يُعْدَل عن لفْظِ الفِعْلِ المستقبل في شرْط «إنْ» و«إذا» وجزائهما لغرضٍ أساسيّ، هو:

إبرازُ غيرِ الحاصلِ في مَعْرِض الحاصل.

أمّا أسبابُ هذا الإبرازِ وعِلَلُه فكثيرةٌ، من أهمّها:

١ ـ قوّةُ الدّواعي المقتضِية لحصوله، كقولِكَ حالَ انعقادِ أسباب الاشتراء: «إن اشترَيْنا كذا كان كذا». كان مقتضى الظاهر أن يُؤتى بجملتَي الشّرْط والجزاء فعليّتين استقباليّتين لفظًا ومعنًى، وهو ما تستدعيه «إن»، فيقال مثلاً: «إنْ نَشْترِ كذا يكنْ كذا»؛ لِيتّفق منطوقُ

الكلام مع الواقع؛ إذْ لم يحصل الاشتراءُ في الواقع، ولكن خُولف الظاهرُ فعُبِّر بالماضي لِقَصْد إبراز المعنى الاستقباليّ الذي لم يحصل باللّفظ الدالّ على المعنى الحاصل فِعْلاً؛ لقوّة أسباب انعقاد الاشتراء.

٢ ـ كونُ المعنى الاستقباليّ مِمّا شأنُه الوقوعُ حتمًا، فيُعَدُّ كأنّه واقعٌ في الماضي، كقولك: «إنْ مِتُّ وَرِثَني فلان». كان مقتضى الظاهر أن يؤتى في الجملتين بالفعل المضارع لأنّه الدّالُ على المعنى الاستقباليِّ الموافِقِ للواقع، فيقال مثلاً: «إنْ أمُتْ يَرِثْني فلانٌ»، ولكن خُولِف الظّاهرُ فعُبِّر بلفظ الماضي؛ لِغَرض إبراز ما لم يحصُلْ باللّفظ الدّالِّ على المعنى الحاصل فِعْلاً؛ ومرجعُ ذلك أنَّ الموتَ من شأنه الوقوعُ الحَتْميّ، فعُومل معاملةَ ما قد وقع حقًّا.

٣ ـ تفاؤلُ السّامعِ به أو إظهارُ رغْبَةِ المتكلِّم في وقوعه، كقولك: «إن ظفِرْتُ بحُسْنِ العاقبةِ تصدَّقْتُ بكذا». مقتضى الظاهر أن يُعَبَّر في الجملتين بلفظِ المضارع، لكنّه خُولف هذا الظاهر فعُبِّر بالماضي لِغَرضِ إبراز المعنى المستقبل باللّفظ الدَّالّ على المعنى الحاصِل بالفعل؛ لِأَحَد أمرين: حصول التفاؤلِ للسَّامع بحصول ما يُسَرُّ به؛ إظهارُ الرّغبة من المتكلِّم في وقوعه؛ فإنّ الطالِبَ إذا عظُمَتْ رغبتُه في حصول أمرٍ يكثُرُ تصوُّره إيّاه، فربّما يخيَّل إليه حاصِلاً، فيعبَّر عنه بلفظ الماضي.

٤ ـ التَّعْرِيضُ، وهو أنْ يُنْسَب الفعلُ إلى واحدٍ والمُراد غيرُهُ مع وجود القرينة، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ والخِطابُ هنا للمصطفى ﷺ، وعدمُ إشراكه أمْرٌ مقطوعٌ به، فكان المقتضىٰ أن يُؤتى في جملةِ الشَّرْط بالفعل المضارع الدّالّ على المعنى الاستقباليّ، لكنّه خُولِف الظّاهرُ فعُبِّر بلفظ الماضي إبرازًا للإشراك، وهو غيرُ حاصلِ البتّةَ في مَعْرِضِ الحاصل على سبيل الفَرْضِ

والتقدير؛ تعريضًا بمَنْ صدَر عنهم الإشراكُ بأنّهم قد حبِطَتْ أعمالُهُم. ومِمّا هو بيّنٌ في ذلك قولُه سبحانه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. قال صاحب الكشّاف: «هذا كلامٌ وردَ على سبيل الفَرْض والتقدير، وفيه لُطْفٌ بالسّامعين وزيادةُ تحذير، واستفظاعٌ لِحَالِ من يترُك الدَّليلَ بعد إنارته ويتّبع الهوى».

وعن حُسْنِ التّعْريض في هذا الموضع يقول الخطيبُ القَزْوِينيّ: «ووَجْهُ حُسْنِهِ إسْماعُ المخاطَبِينَ الحقَّ على وَجْهٍ لا يزيدُ غضَبَهم، وهو تَرْكُ التّصريحِ بنِسْبتهم إلى الباطل، ويُعين على قبوله لكونه أدخلَ في إمْحاضِ النُّصْحِ، حيثُ لا يريدُ إلّا ما يريد لنفسه».

ـ الأغراضُ البلاغيّةُ لدُخول «لَوْ» على الجملة المضارعية:

أسلَفْنا القولَ إنّ «لَوْ» للشَّرْط في الماضي مع القَطْع بانتفاء الشَّرْط؛ فيترتّب على ذلك عدمُ الثّبوت والمُضِيّ في جملتَيْها. وهٰذا هو مقتضى الظاهر، لكنّه قد يُخالَفُ هذا المقتضى وتدخلُ «لَوْ» على المضارع لِأغراضٍ يقتضيها المقامُ، ومن ذٰلك:

١ ـ الإشارةُ إلى أنَّ المضارعَ الّذي دخَلَتْ عليه يُقْصَدُ استمرارُه فيما مضى: وقْتًا بعدَ وقتٍ، وحصولُه مرّةً بعد أخرى، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾. مقتضىٰ الظّاهر أن تدخلَ «لو» على ماضٍ فيقال مثلاً: «لو أطاعكم»، لكنّه خُولِف المقتضىٰ وعُبِّر عن الشَّرْط بلفظ المضارعِ للدّلالة على امتناع استمرارِ فِعْل الإطاعة منه ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ في الماضي. قال الزَّمَخْشَرِيّ: «إنّما قِيل يُطيعُكم دونَ أطاعكم للدّلالة على أنّه كان في إرادتِهم استمرارُ عمله على ما يَسْتَصْوِبُونه».

٢ ـ تنزيلُ المضارعِ منزلةَ الماضي؛ لصدورِه عمَّن المستقبلُ عنده كالماضي في تحقُّقِ الوقوع ولا تخلُّفَ في إخبارِه، كما في قولِه سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. معلومٌ أنّ رؤية المجرمين ناكِسي رؤوسهم تحدثُ يومَ القيامةِ، أي في المستقبل، ومن ثَمّ عُبِّر عنها بالمضارع الدّالّ على المستقبل، لكنّ دخولَ «لو» على المضارع خروجٌ على المقتضى؛ لِقَصْدِ تنزيلِ الفعل المضارع منزلةَ الماضي في تحقُّق الوقوع، ولم يعبِّر عن هذا المستقبل بصِيغة الماضي بعد تنزيله منزلتَه لأمرين:

١ ـ صدور الإخبارِ عمَّن لا خلافَ في إخباره ولا اختلاف في كلامه ـ وهو البارىءُ سبحانه ـ فالتّعبيرُ بالماضي والمستقبل عنده سواءٌ في تحقُّقِ الوقوع.

٢ ـ استحضار الصّورة عند المخاطَب، وهي صورةُ رؤيةِ المُجْرِمين ناكسي رؤوسهم، واعتدادُها حاصِلةً ماثلةً أمامَ العين استِشْناعًا لها.

ثامنًا ـ إيراد المسند معرفةً:

يؤتىٰ بالمسند معرَّفًا بإحدى طرق التّعريف لأغراض بلاغيّة، منها:

١ ـ إفادةُ السّامعِ الحُكْمَ على أمْرٍ معْلُومٍ عندَه بإحدى طرقِ التّعريف بأمرٍ آخرَ مثلِهِ في كونه معْلومًا للسّامع بإحدى طرق التّعريف، كقولِكَ: «عليٌّ أخوكَ» و«زيدٌ المنطلِقُ». ويحدُثُ هٰذا عندما يكون المخاطَبُ عالِمًا بأنّ هناك في الخارج ذاتًا معيّنة تسمّىٰ «عَلِيًّا»، ويعلم أنّ له في الخارج أخًا، لكنّه لا يعرف أنّ تلك الذّاتَ المسمّاةَ «علِيًّا» هي نفسُها المتّصفة بالأُخوّة، فتقول له أنتَ: «عليٌّ أخوكَ»؛ فهٰهنا تكون قد أفَدْتَه الحُكْمَ على أمرٍ مَعْلومٍ عنده بالعَلَمِية «عليّ» بأمرٍ معلومٍ عنده بالإضافة «أخوك». والأمر كذلك في «زيدٌ المنطلقُ».

٢ ـ إفادةُ السّامِعِ لازمَ الحُكْم على أمرٍ معلوم بآخرَ مِثْلِه،

كقولِكَ: «خالِدٌ الفائزُ»، ويحدُثُ هذا عندما يكون المخاطَبُ عالِمًا بأنّ في الخارج ذاتًا معيّنةً تسمّى «خالدًا» وأنّ هٰذه الذّات هي التي تتّصف بـ«الفوز»، فتقول له أنتَ: «خالدٌ الفائزُ»، فهٰهنا تكون قد أفدْتَه لازمَ الحُكمِ؛ وهو أنّك عالِمٌ بنسبة الفوز إلى خالد.

٣ ـ إفادةُ قَصْرِه على المسند إليه «حقيقةً» كقولِكَ: «زيدٌ الأميرُ» إذا لم يكنْ أميرٌ سواه ـ أو «ادّعاءً»، كقولِكَ: «عَمْرٌو الشُّجاعُ»؛ أي الكامِلُ الشجاعة، فيخرجُ الكلامُ في صورةٍ تُوهِمُ أنَّ الشّجاعة لم توجد إلّا فيه، وذلك لعدم الاعتداد بشجاعة سواه.

٤ ـ تقريرُه للمسنَدِ إليه وبيانُ أن ثبوتَه له أمرٌ مقرَّرٌ لا يشُكُّ فيه أحدٌ، وأنّه ظاهرٌ تمامًا. ومنه في القريض قولُ حسّان رضي الله عنه:

وإنَّ سَنامَ المَجْدِ مِنْ آلِ هاشمٍ بنُو بِنْتِ مخزومٍ ووَالِدُكَ العَبْدُ

والشاهد قوله: «ووَالِدُكَ العَبْدُ»، حيث عرّف المسندَ، وذٰلك لِقَصْدِ تقرير صفةِ العبوديّة لوالده وإثباتها له، وإعلانِ أنّ حاله في العبوديّة مِمّا لا شُبْهَةَ فيه، قال عبدُ القاهر: «ولو قال: ووَالِدُكَ عَبْدٌ لم يكن قد جعلَ حالَه في العبوديّة حالةً ظاهِرةً متعارَفةً».

ومنه قولُ الآخر:

أُسُودٌ إذا ما أبدتِ الحَرْبُ نابَها وفي سائِرِ الدّهرِ الغُيوثُ المَواطِرُ

فقد أكّد سخاءهم وقرّره.

٥ ـ الإشارةُ إلى بلوغِ المسندِ إليه في الصّفة مبْلَغَ الكمالِ، وذلك كقولِكَ: «هو البطَلُ المُحامي».

وفي هذا الوجْهِ يقول عبدُ القاهر: «إنّ لِلْخبَرِ فيه مَسْلَكًا دقيقًا ولَمْحةً كالخَلْسِ يكون المتأمِّلُ عنده ـ كما يُقال ـ يعْرِفُ وينكِرُ»، ويقول فيه أيضًا: «وهذا فَنٌّ عجيبُ الشّأنِ وله مكانٌ من الفخامة

والنُّبل، وهو من سِحْر البيانِ الّذي تقصُرُ العبارةُ عن تأدية حقّه». ومنه في الشّعر قولُ ابن الرّوميّ:

هُوَ الرَّجلُ المَشْروكُ في جُلِّ مالِهِ ولكنّه بالمَجْدِ والحَمْدِ مفْرَدُ

وقولُ الفَرَزْدَقِ يهجو الحجّاجَ:

زمانَ هُوَ العَبْدُ المُقِرُّ بِذِلّةٍ يُرَاوِحُ أبْناءَ القُرىٰ ويُغادي

وقولُ الأخْطَلِ في خالد بن عبد الله بن أَسِيد:

هُوَ القائِدُ المَيْمونُ والمُبْتغىٰ بِهِ ثَبَاتُ رَحًى كانتْ قديمًا تزلْزَلُ

ولعلّكَ أدركْتَ أنّ مجيءَ المسند الخبر معرّفًا بـ«أل» في الأبيات الثّلاثة قد فَعَل فِعْلَه في تأكيد بلوغِ المسند إليه مبلغَ الكمالِ في الصّفة التي تضمّنها الخبرُ؛ فكأنّ ابنَ الرّوميّ قال: هو الرجلُ المتّصِفُ بكمال الإشراك في مالِه، وكأنّ الفرزدق قال: هو الرّجلُ المتّصِفُ بكمال العبوديّة؛ وكأنّ الأخطلَ قال: هو القائدُ المتّصف بكمال القيادة.

تاسِعًا ـ إيرادُ المسندِ نَكِرةً:

يؤتى بالمسند نكرةً لأغراضٍ بلاغية، أهمّها:

١ ـ إرادةُ عدَمِ الحَصْرِ والعَهْد، كأنْ تقولَ: «عليٌّ فارِسٌ»، و«محمّد طبيبٌ»، حيث تريدُ مجرَّدَ الإخبارِ بثبوت الفروسيّة لـ«عليّ» والطّبّ لـ«محمّد»، لا حصْرَ الفروسية في عليّ، ولا الطبّ في محمّد، وكذا لا يُراد أنّ أحدَهما معهودٌ؛ بحيث يُراد الفروسيّةُ المعهودة، أو الطّبُّ المعهود.

٢ ـ التّفخيم والتّعظيم، كما في قوله سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ فـ﴿هُدًى﴾ يصِحُّ أن تكون خبَرًا لـ«ذٰلك الكتاب»، أو خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: «هو هدًى للمتقين»، حيث جيء بالمسند منكّرًا للدّلالة

على فخامة هداية الكتاب وكمالها، وأنها بلغت مبلغًا عظيمًا. ومِثْلُه قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾.

٣ ـ التّحقير والإهانة، كما تقول: «الحاصِلُ لي من هذا المالِ شيءٌ حقير».

عاشرًا ـ إيرادُ المسنَدِ مقدَّمًا:

يُقَدَّم المسندُ على المسند إليه لأغراضٍ، منها:

١ ـ تخصيصُه بالمسند إليه؛ أي قصْرُ المسندِ إليه على المسند، كقولِكَ: «مُسْلِمٌ أنا»، و«عربيٌّ أنا». حيث أفاد تقديمُ المسندِ في المثالَيْن «مسْلِمٌ» و«عربيٌّ» قصْرَكَ على صِفة الإسلام، ثم العروبة، لا تتجاوزها إلى صفةٍ أخرى كَكَوْنك شرقيًا أو غربيًا، مثلاً.

ومِنْ هذا قولُه سبحانه: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾. الغَوْلُ ما يتْبَعُ شُرْبَ الخَمْرِ في الدُّنيا من وجَعِ الرأس وثِقَلِ الأعضاء؛ وتقديمُ المسند هنا لإفادة قَصْرِ المسند إليه «غَوْل» على هذا المسند «لا فيها». ويقولُ البلاغيّون إنّ المرادَ هنا أحدُ أمرين:

ـ قصْرُ الغَوْل على اتّصَافِه بعدم حصولِه في خمورِ الجنّة، فلا يتجاوز إلى اتّصافه بحصوله في خمور الدّنيا.

ـ قصْرُ عدمِ الغَوْل على اتّصافه بحصولِه في خمورِ الجنّة، فلا يتجاوزه إلى اتّصافه بعدم حصوله في خمور الدنيا.

ومنه قولُه سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ أي: دينُكم مقصورٌ على اتّصافه بكونِه لَكُم، لا يتجاوز إلى اتّصافه بكونه لي؛ وديني مقصورٌ على الاتّصاف بكونه لي لا يتجاوز إلى اتّصافه بكونه لكم.

٢ ـ التّنبيهُ من أوّل الأمرِ على أنَّ المسنَدَ خبَرٌ لا نَعْتٌ، كقول حِسّانَ يمدحُ المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلامُ:

لَهُ هِمَمٌ لا منتهىٰ لِكِبارِهَا وهِمَّتُه الصُّغرى أجَلُّ من الدَّهرِ
لَهُ راحةٌ لو أنَّ مِعْشارَ جُودِها على البَرِّ كان البَرُّ أندىٰ من البَحْرِ

والشّاهد في قوله: «لهُ هِمَمٌ»، حيث قدّم المسندَ على المسند إليه تنبيهًا من أوّل الأمر على أن المقدَّم خبَرٌ لا نعت. ومِثْلُه قولُه: «له راحة»؛ إذ أفادَ تقديمُ المسند «له» على المسند إليه «راحة» أنّ المقدَّمَ خبرٌ لا نعت.

ومنه قولُه سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٣ ـ التفاؤل، أي إسماعُ المخاطَب من أوّل الأمر ما يسُرُّ، كما تقولُ لِمَن ينتظر إجابةَ مِنكَ: «إيجابٌ» أي: «إيجابٌ الأمْرُ أو الحالُ»، وتقولُ العامّة في زماننا: «حِنطةٌ» أي «حِنطَةٌ الأمْرُ»؛ بمعنى: جيّد، لإيثارهم الحِنطةَ على الشَّعير. وتقولُ لصاحبِكَ: «ناجحٌ أنت». ومنه في الشّعرِ قولُ الشاعر:

سَعِدَتْ بغُرّةِ وجْهِك الأَيّامُ وتزيَّنتْ بِبَقائِكَ الأَعْوامُ

حيث قدّم المُسْنَد «سَعِدَتْ» والمسند «تزيّنتْ» على المسندِ إليه «الأيّامُ» و«الأعوامُ» بِقَصْد إسماع المخاطَب منذ البَدْء ما يتفاءل به.

٤ ـ التّشويقُ إلى ذِكْر المسند إليه بتضمُّنِ المسندِ ما يُشوِّق إلى تعرّف المسندِ إليه. ومنه قولُ محمّد بن وُهَيب يمْدَحُ الخليفةَ المعتصم:

ثلاثةٌ تُشرِقُ الدّنيا بِبَهْجَتِها: شمْسُ الضُّحى وأبو إسحاقَ والقمَرُ

جيء بالمسند الخبر «ثلاثةٌ» مقدَّمًا؛ لاشتماله على وصْفٍ مشوِّق لذكرِ المسند إليه.

وكذا قولُ الشّاعر:

وكالنَّارِ الحَياةُ فمِنْ رَمادٍ أواخِرُها وأوّلُها دُخانُ

قدَّم المسندَ الخبرَ «كالنّار» على المسند إليه «الحياة»؛ لاشتماله على وصْفٍ مشوّق إلى المسند إليه.

٥ ـ المساءة نِكايةً بالمخاطَب، كقول المتنبّي:

ومن نكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أنْ يرىٰ عــدوًّا لَــهُ مــا مِــنْ صَــداقــتِــهِ بُــدُّ

قدّم المتنبّي المسندَ «ومِنْ نكَدِ» على المسندِ إليه (المصدر المؤوَّل المقدَّر بـ«رؤية»)؛ لإظهار أنّه مستاءٌ من المخاطَب مريدٌ لإغضابه. وتقدير الكلام: رؤيةُ الحرِّ عدوًّا لا بدَّ من صداقته مِنْ نكدِ الدّنيا وإيلامِها.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول أحوال المسند (١):

ـ اذكرْ دواعيَ إيرادِ المسند على أحواله المختلفة من: ذِكْرٍ وحذْفٍ، وتعريفٍ وتنكيرٍ، وتقديمٍ وتأخيرٍ، وغير ذلك من الأحوال، في الجمل الآتية:

١ ـ ذاكَ نهرُ الفراتِ.

٢ ـ أنتَ في بَيْتِك ونحنُ في بيوتنا مقيمون.

٣ ـ الله ربّي. محمد نبيِّي. أبو ريشة الشّاعِرُ. هو الوفيُّ حين تشتدُّ الخطوبُ.

٤ ـ لَوْ نحنُ نعلمُ ما في الغَيْبِ لاخترْنا الواقعَ.

٥ ـ أنت أميرٌ.

٦ ـ يقدِّسُ له آناءَ اللَّيل وأطرافَ النّهارِ رجالٌ مخلصون.

٧ ـ قال سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٨ ـ عنترةُ فارسٌ شاعِرٌ وحسّانُ شاعِرُ الرّسولِ عليه الصّلاةُ والسلام.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

١٠ ـ قال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ـ الإجابات:

١ ـ عُرِّف المسنَدُ «نهرُ الفُراتِ» بالإضافة؛ لإفادةِ السّامع حُكْمًا بأمرٍ معْلومٍ له على أمرٍ آخر معلومٍ له كذلك.

٢ ـ حُذِف المسند خبرُ أنتَ؛ احترازًا عن العَبَث في ذكْرِه لِقِيام

القرينة عليه في قوله «ونحن في بيوتنا مقيمون»؛ إذ يقدَّر الكلامُ هكذا: أنتَ في بيتِكَ مقيمٌ ونحنُ في بيوتنا مقيمون.

٣ ـ عُرِّف المسندُ «ربّي» و«نبيّي»؛ لإفادة قَصْره على المسند إليه حقيقةً؛ وعُرِّف المسندُ «الشّاعرُ»؛ لِقَصْره على المسند إليه «أبو ريشة» ادّعاءً، مبالغةً لِكَمال معناه في المسند إليه؛ فإنّ معنى هذا التّعبير: أبُو ريشةَ هو الكامِلُ الشّاعرية. وعُرِّف المسند «الوفيّ»؛ لإفادة قَصْرِه على المسند إليه على سبيل الحقيقة منظورًا فيها إلى التّقييد بالظَّرْف.

٤ ـ حذف المسندُ إلى «نحن» وتقديره «نَعْلَمُ»؛ اتباعًا للاستعمال الوارد على حذْفه في مثل هذا التركيب، فإنّ «لَوْ» لا تدخل في استعمالات العرب إلّا على الأفعال.

٥ ـ نُكِّر المسندُ «أمير» لِقَصْد عدم إرادة الحَصْر أو العهد اللّذين يدلّ عليهما التعريفُ.

٦ ـ حُذِف المسندُ إلى «رجال» وتقديره «يقدّس»؛ لتقدّم قرينة عليه، هي وقوعُه في جوابِ سؤالٍ مقدَّرٍ؛ فكأنّ سائلاً سألَ: ومَنْ يقدِّسُ له؟ فقال: رجالٌ مُخْلِصون، أي يقدِّس له رجال مخلصون.

٧ ـ نكِّر المسندُ «هدًى»؛ لإفادة التفخيم؛ إِذِ المعنى ـ والله أعلَمُ ـ هُدًى لا يُكْتَنَهُ كُنْهُه.

٨ ـ خُصِّص المسندُ «فارسٌ» بالوَصْف «الشاعريّة» وخُصِّص المسند «شاعر» بالإضافة إلى الرّسول عليه الصلاةُ والسّلام؛ لتكونَ الفائدةُ أتمَّ ببيانِ أنّ عنترة فارسٌ، وهو مع ذلك شاعرٌ لا مُفْحَم، وأنّ حسّانَ شاعرُ الرَّسولِ عليه الصّلاةُ والسّلامُ لا شاعر غيره من الناس.

٩ ـ نُكِّر المسندُ «شيئًا»؛ لِقَصْد التّحقير.

١٠ ـ قدّم المسندُ «لِلَّهِ»؛ لإفادةِ تخصيصه بالمسند إليه؛ أي قَصْر المسند إليه على المسند؛ فإنّ المعنى هو: مُلْكُ السّمٰواتِ والأرضِ مقصورٌ على الاتّصافِ بأنه لله.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول أحوال المسند (٢):

ـ اذكرْ دواعيَ إيرادِ المسند على أحواله المختلفة من: ذِكْرٍ وحَذْفٍ، وتعريفٍ وتنكيرٍ، وتقديمٍ وتأخيرٍ، وغير ذلك من الأحوال، في الجمل الآتية:

١ ـ أبُو عبيدةَ انتصرَ، وعُمَرُ أمرُه نافذٌ.

٢ ـ قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

٣ ـ له عَزمةٌ لا تنثني.

٤ ـ سَعِدْنا بقدومِكَ.

٥ ـ أحمدُ حَفِظَ القرآنَ في بيته.

٦ ـ ثلاثةٌ ليس لها إيابُ الوقتُ والجمالُ والشبابُ

٧ ـ في عافيةٍ أنتَ.

٨ ـ صِحّتي جيدةٌ ورزقي على ربّي.

٩ ـ عربيٌّ أنا.

١٠ ـ «محمّدٌ نبيُّنا» في إجابة من قال: من نبيُّكُمْ؟

ـ الإجابات:

١ ـ جيءَ بالمسندِ الأوّل «انتصر» جملةً لِقَصْدِ إفادة تقوّي الحُكْم.
وجيء بالمسند الثاني «أمرُه نافذٌ» جملةً لكون هذا المسند سببيًا أي جملةً علّقت على مبتدأ بعائدٍ ليس هو مسندًا إليه في هذه الجملة.

٢ ـ قُدِّم المسند «لكم»؛ لإفادة تخصيصه بالمسند إليه، أي قصْر المسند إليه على المسند.

٣ ـ قُدِّم المسند «له»؛ للتّنبيه من أوّلِ الأمر على أنه خبَرٌ لا نعتٌ.

٤ ـ قُدِّم المسْندُ «سَعِدْنا» للتفاؤل بسَماعِ ما يَسُرُّ المخاطبَ.

٥ ـ قُيِّد المسندُ «حَفِظ» بالمفعول «القرآن» والظرف «في بيته» لِقَصْد تَرْبِيَة الفائدةِ وتكثيرها.

٦ ـ قُدِّم المسندُ «ثلاثة. .» لِقَصْد التشويق إلى المسند إليه.

٧ ـ قُدِّم المسندُ «في عافيةٍ».لِقَصْد التفاؤل بسَماع ما يسُرّ.

٨ ـ ذُكر المسندُ «على ربّي» لِضَعْف التعويل على القرينة السّابقة؛ إذ لو حُذِف «على ربّي» لَمَا دلّ عليه «جيّدةٌ».

٩ ـ قُدِّم المسندُ «عربيٌّ»؛ لإفادة تخصيصه بالمسند إليه؛ أي قَصْر المسند إليه على المسند.

١٠ ـ ذُكِر المسندُ «نبيُّنا» رغم عِلْمه من قرينة السؤال؛ للتعريض بغباوة السائل والإشارة إلى أنّه بليدٌ، لا يفهم مِمّا تقدّمه القرينةُ.

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ أحوال المسندِ (٣):

ـ اذكرُ دواعيَ إيرادِ المسند على أحواله المختلفة من: ذِكْرٍ وحذْفٍ، وتعريفٍ وتنكيرٍ، وتقديمٍ وتأخيرٍ، وغير ذلك من الأحوال، في الجمل الآتية:

١ ـ الطّلَبةُ يذاكِرونَ دروسَهم.

٢ ـ قال سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾.

٣ ـ قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾.

٤ ـ قال سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾.

٥ ـ الطلّاب في فصولهم.

٦ ـ دِينُ الإسلامِ فخرٌ للمسلمين.

٧ ـ قال سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾.

٨ ـ قال سبحانه: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

٩ ـ أحمدُ الأدِيبُ وسعيدٌ خطيبُ الحيّ.

١٠ ـ وصلَ القطارُ.

ـ الإجابات:

١ ـ جيء بالمسند «يذاكرون» فِعْلاً؛ لِقَصْد تقييده بأحد الأزمنة الثلاثة، والدِّلالةِ على التجدُّدِ والاستمرار على أخصر وجهٍ.

٢ ـ ذُكِر المسندُ الأوّل «يخادعون»؛ لإفادة أنّه فِعْلٌ، حيث يفيد التجدّدَ والحدوثَ، والتقييد بأحد الأزمنة الثلاثة. وذُكِر المسندُ الثاني «خادِعُهم»؛ لإفادة أنه اسمٌ، حيث يفيد الثبوتَ مطلقًا.

٣ ـ حُذِف المسندُ إلى «الله» ويقدَّر بـ«خَلَقَهنّ»؛ لِدلالة القرينة عليه في السؤال.

٤ ـ حُذِف المسند إلى «ورسولُهُ»، ويقدّر بـ«بريءٌ منهم أيضًا»؛ للاحتراز عن العَبث: إذ لو ذُكِر هذا المحذوفُ لكان ذِكْرُه عبثًا؛ لأنه لا حاجةَ إليه.

٥ ـ جيء بالمسند ظرْفًا (جارًا ومجرورًا) لِقَصْد اختصار الكلام؛ فهو أخْصَرُ من أن يصرَّح فيه بالمتعلّق.

٦ ـ نُكِّر المسندُ «فخرٌ» للدِّلالة على كمال الفخر، وأنّه بلغَ مبلغًا عظيمًا.

٧ ـ قيِّد المسندُ «دخَل» بالشَّرْط؛ لإفادة تكرارِ وجود الرّزق عندَها بتكرار الدخول.

٨ ـ حُذِف المسند إلى «أنتم» ويقدّر بـ«موجودون» اتباعًا للاستعمال الوارد على حَذْفه.

٩ ـ عُرِّف المسندُ الأول بـ«أل» والمسند الثاني بالإضافة؛ لإفادة السّامعِ الحُكْمَ بأمرِ معلومٍ له على أمرِ آخرَ معلومٍ له كذلك.

١٠ ـ جيءَ بالمسند مجرّدًا عن التقييد؛ لِقيام المانع من إكمال الفائدة؛ وهو خوْفُ فواتِ الفُرْصة لو أنّه قال: وصل القطار إلى الموقف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحثُ الرّابع
أحوالُ متعلَّقات الفعل

ويتضمّن:

- دواعي تقديم بعض المعمولات على بعضٍ.
- أغراض حذف المفعول.
- أغراض تقديم المفعول ونحوه على الفعل.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

- دواعي تقديم بعض المعمولات على بعضٍ:

يَحْدُث أن يقدَّم بعضُ معمولات الفعل على بعضٍ لِدَواعٍ، أهمُّها:

١ - أصالةُ تقدُّمِ بعضِها على بعضٍ، ولا مقتضى للعدول عن تلك الأصالة، كالفاعلِ في قولِكَ: «قرأ أحمدُ الكتابَ»؛ حيث قُدِّم الفاعلُ على المفعول؛ لأنّه عُمْدَةٌ في الكلام، وحقُّه أن يلي الفعلَ. ويُشْبِهه في أصالة التّقديم «المفعولُ الأوّل»، كقولِكَ: «أعطيتُ محمَّدًا دينارًا»؛ حيث قُدِّم المفعولُ الأوّل «محمّدًا»؛ لأنّ أصلَه التّقديم، لِما فيه من معنى الفاعليّة وهو أنه عاطٍ أي آخذٌ العطاءَ.

٢ - كَوْنُ ذِكْرِه أهمَّ والعناية به أتمّ؛ وذلك بأن يكون تعلُّقُ الفِعْلِ بذلك المقدّم هو المقصود بالذّات تبعًا لاعتناء المتكلّم أو السامع بشأنه، كقولِكَ: «أنشأتِ الجامعةَ شَرِكةٌ وطنيةٌ». ذلك لأنّ الأهمَّ في تعلّق الإنشاء هو الجامعةُ المُنْشأةُ؛ ليرتادها نُشّادُ الثقافة. ويتجلّى ذلك واضحًا في الآيتين الكريمتَيْن:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

حيث قُدِّم ذِكْرُ المخاطَبين في الأولى ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ دون الثّانية ﴿نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ لأنّ الخِطابَ في الأولى للفقراء، وهٰؤلاء رِزْقُهُم أهمُّ عندهم من رزق أولادهم؛ لأنهم يعيشون بِأَنفسِهم آثارَ الفقْرِ والفاقة؛ وهكذا **قُدِّم الوعْدُ برزقهم على الوعد برزق أولادهم لاستدعاء المقام ذٰلك**. أمّا الخِطاب في الثّانية فلِلأغنياء، وهٰؤلاء رِزقُ أولادِهم

هو المطلوبُ عندهم دون رِزْقهم؛ لأنهم مرزوقون، وهٰكذا **قُدِّم الوغدُ برزقِ أولادِهم على الوغدِ برزقهم لاستدعاء المقام ذٰلك.**

٣ ـ أن يتضمَّن تأخيرُ المفعولِ إخلالًا بالدِّلالة المرادة، **فداعي التقديم دَفْعُ توهّم غير المراد.** كما في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾. قُدِّم قولُه سبحانه: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ على قوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ حتى لا يُتوهَّم أنّ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ متعلقٌ بـ«يكتم»؛ ويترتّب على ذلك إخلالٌ بالمعنى المراد، وهو بيانُ أنّ الرجل من آل فرعون؛ لإفادة ذلك مزيدَ عنايةٍ به ورعايةٍ له من البارىء، سبحانه.

٤ ـ أن يتضمَّن التأخيرُ إخلالًا بالتّناسب الموسيقيِّ، فيقدَّم لِرعاية الفاصِلة، كما في قوله سبحانه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾. حيث قُدِّم في الآية الكريمة الجارُّ والمجرورُ «في نفسه» والمفعولُ بِه «خيفةً» على الفاعل «موسى» لرعايةِ ما بعْدَه من الفواصل المختومة بالألِف؛ لتكون الألفاظُ على نسَقٍ واحدٍ يخلُب اللُّبَّ ويأخذ بزمام السَّمْع. وهذا ملمحٌ موسيقيٌّ تَحْرِص عليه لغةُ البيان العالي.

أغراضُ حَذْف المفعول:

يُحْذَفُ المفعولُ أحيانًا من اللّفظ؛ ويجعل البلاغيّون لِحَذْفه شرْطين: وجودَ القرينةِ، الغرض الموجِب للحذف. والحقّ أنّ الأغراضَ الموجبة للحَذْف كثيرة، ولكنّ أهمّها:

١ ـ البيانُ بعد الإبهام، كما في فِعْل المشيئة والإرادة ونحوهما، إذا وقع شرطًا. وذلك كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. أي: لو شاءَ اللّٰهُ هدايتَكم لَهداكم أجمعين. وتتمثّل جماليّةُ الحَذْف هنا في أنّه عندما قيل «لو شاء» وقع في نفس المتلقّي

أنّ ثمّةَ شيئًا تعلّقَ به فِعْلُ المشيئة من حيث وقوعُه عليه، لكنّه مُبْهَمٌ عنده، فعندما جاء الجوابُ أبانَه وأوضحَه بعد الإبهام الذي اكتنفه أولًا، وإذْ ذاك تتلقّاه النّفسُ تلقّيَ المترقّب المنتظَر فيقعُ منها موقعَ الماءِ الباردِ من فؤاد الظّامىء.

ومِثْلُه قولُه سبحانه: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾؛ أي إن يشأ اللّهُ الخَتْمَ على قلبك يختِمْ عليه.

ومنه في حالة النفي مِمّا جاء في الشعر قول البحتريّ:

لَوْ شئتَ لَمْ تُفسِدْ سَماحةَ حَاتِمٍ كرَمًا، ولَمْ تهدِمْ مآثرَ خالدِ

أي: لو شئت عدمَ إفسادِ سماحةِ حاتم وعدمَ هَدْمِ مآثر خالد لم تُفسِدْ ولم تَهْدِم، لكنّه حذف مفعول المشيئة؛ قصْدًا إلى البيان بعد الإبهام.

واشترط البلاغيون ألّا يكون في تعلّق الفعل بالمفعول غَرابةٌ، إذ بوجود الغرابة لا غنى عن ذكر المفعول لِتُقَرِّرَه في نفس السّامع وتؤنسَه به، كأن تقول: «لَوْ شئتُ أنْ أغدُوَ وزيرًا غدًا لغَدَوْتُ»، و«لو أردتُ أن أردَّ على الأمير لرَدَدْتُ». ويستشهدون على ذلك بقول الشاعر:

ولَوْ شِئْتُ أنْ أبكي دَمًا لبَكَيْتُهُ عليهِ، ولكنْ ساحةُ الصَّبْرِ أوسَعُ

والشاهد قوله: «أن أبكي دمًا»، حيث ذكر المفعولَ بعد فعل المشيئة في الشرْط لغرابة أن يبكي الإنسانُ دمًا؛ وذلك ليتقرّر في نفس السّامع ويأنس به.

٢ ـ دفعُ توهُّمِ إرادةِ غيرِ المُراد ابتداءً ـ كقولِ البحتريّ:

وكَمْ ذُدتَ عنّي مِنْ تحامُلِ حادِثٍ وسَوْرةِ أيّامٍ حَزَزْنَ إلى العَظْمِ

معنى «حزَزْن»: قطَعْن اللّحم إلى العظم. وهٰهنا حُذِفَ المفعولُ «اللّحمَ»؛ لئلا يتوهّم السّامعُ، قبلَ ذكرِ «إلى العَظْم»، أنّ الحزّ كان في

بعض اللّحم، ولَمْ ينتهِ إلى العَظْم، وهكذا جاء الحذفُ دفعًا لهٰذا التوهّم ابتداءً قبلَ مجيء القيد.

٣ ـ إرادةُ ذِكْرِ المفعول ثانيًا، على نَحْوٍ يتضمّن إيقاعَ الفعل على صريح لفظه، لا على الضمير العائد إليه؛ إظهارًا لكمال العناية بوقوع الفعل عليه. كما في قول البحتريّ:

قد طلَبْنَا فلَمْ نَجِدْ لكَ في السُّؤْ دَدِ والمَجْدِ والمكارمِ مِثْلا

الشاهدُ في قوله: «قد طلَبْنا»، حيث حُذِف مفعولُ طلَبَ وهو «مِثْلا»؛ لِقَصْد إيقاع الفعل «لم نَجِدْ» على صريح لفظ «مثلا» بدلًا من ضميره كأن يقول: قد طلَبْنا مِثْلًا لكَ فلم نجِدْه. وما جاء به البحتريُّ مناسبٌ للمبالغة في المَدْح التي يناسبها ما يكون نصًّا صريحًا. ولأجل هذا المعنى عكَسَ ذو الرُّمة في قوله هاجِيًا:

ولَمْ أمْدَحْ لأُرضِيَهُ بِشِعْري لَئِيمًا أنْ يكونَ أصابَ مالا

إذ كان مرادُه إيقاعَ نفْي المدح على اللئيم صريحًا وإيقاع الإرضاء على ضميره، وفي هذا ما فيه من قَصْدِ التحقير والتّهوين.

٤ ـ قصْدُ التّعميم في المفعولِ المحذوف مع الاختصار، كأن تقول: «لقد حدَثَ ما يفجَعُ»؛ أي كلَّ أحدٍ؛ فقد حُذِفَ المفعولُ هٰهنا لِقَصْد إفادة العموم بقرينة أنّ المقام للمبالغة في وصف الفاجعة.

ومنه قولُه سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ أي جميع عباده. وفارقُ ما بين إفادةِ العموم في المثالين أنّها في الأول على طريق المبالغة، وفي الآية الكريمة على طريق التّحقيق.

٥ ـ قصْدُ الاختصار الصِّرْف عند قيامِ قرينةٍ، كقولهم: «أصغيتُ إليه» أي: أذني. وقد حُذِف المفعولُ هنا لمجرّد الاختصار. ومنه قوله سبحانه: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾؛ أي أرني ذاتَك.

٦ ـ رعايةُ الفاصلةِ أو مراعاة الوزن في المنظوم:

ـ الأول كقوله سبحانه: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

أي: «ما قلاك» بمعنى: «ما كَرِهَك». وقد حُذِف المفعُول هنا حفاظًا على رويِّ الفاصلةِ في «والضحى» و«سجىٰ»، و«الأولى»... إلى آخر السورة.

ـ الثاني كما في قولِ الشاعر:

بَنَاها فأعلىٰ والقَنا يقْرَعُ القَنا ومَوْجُ المنَايَا حولَها متلاطِمُ

أي: «فأعلاها»؛ وقد حُذِف المفعولُ حِفاظًا على وزن البيت؛ فهو ضرورة.

٧ ـ استِهْجانُ ذِكْر المفعول ـ كما في قول السيّدة عائشة رضي الله عنها تتحدَّث عن المصطفى ﷺ: «ما رأيتُ منهُ ولا رأىٰ منّي». أي العورة؛ وقد حذفتِ المفعولَ استهجانًا لذِكْره.

٨ ـ قصْدُ إخفائه عن الآخرين خوفًا عليه، كقولك: «السّلطانُ يُحِبُّ ويكرَهُ». ويكون ذلك بوجود القرينة الدّالة على المحذوف كأن تريد أن تقول: يحبُّني ويكرهُ أحمدَ، مثلاً.

٩ ـ التمكُّن من إنكاره إن مسّت الحاجةُ إليه ـ كأن تقولَ: «قاتل اللّهُ» وتسكت، تريد «فلانًا» من الناس بوجود قرينةٍ عليه. وههنا حذفْتَ المفعولَ ليكون في مقدورك إنكارُه إذا ما اتُّهِمْتَ بالدّعاء على فلان. فتقول مثلاً: ما قصدْتُه.

١٠ ـ تعيُّنُه حقيقةً أو ادّعاء:

ـ الأولُ كقولِكَ: «نحمَدُ ونشكُرُ»، تقصد «الله» سبحانه. حذفتَ

المفعولَ ههنا لتعيُّنِ (ثبوت) أنه المحمودُ المشكورُ حقيقةً، وكقولِكَ: «شربتِ الدّابّةُ» تريد: الماءَ. وقال سبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾، أي: الذين كفروا.

ـ الثّاني كأن تقولَ: «تمرُّ وتزورُ»؛ أي تمرُّ دارَ فلانٍ وتزوره. حذفْتَ المفعولَ لادّعاء تعيُّنِهِ وأنّه مستحِقُّ الزّيارةِ الأوحدُ في البلد.

١١ ـ إيهامُ صَوْنه عن لسانِك لسُمُوِّ منزلته، أو صَوْنِ لسانِك عنه لدنوِّ منزلته:

ـ الأول كقولِكَ: «نخشىٰ ونتّقي»؛ تريد: الله جلّ وعلا.

ـ الثاني كقولِكَ: «لعنَ اللّهُ وطردَ»؛ تريد: إبليسَ، عليه لعنةُ الله.

أغراضُ تقديم المفعول ونحوه على الفعل:

الأصْلُ في العاملِ أن يُقدَّم على معموله، لكنّ الأمرَ قد يُعْكَس فيتقدَّم المعمولُ من مفعولٍ ونحْوِه من سائر المعمولات على الفعل لأغراضٍ بلاغية تستدعيها المقاماتُ، ومن ذلك:

١ ـ إفادةُ التّخصيص، أي قَصْرُ الفعل على معموله لا يتعدّاه إلى غيره، كما في قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. أي: نخصُّكَ بالعبادة والاستعانة لا نعبدُ غيرَك، ولا نستعين به. وكقولِكَ: «خالدًا رأيتُ» تقدّم المفعولَ على الفعل بِقَصْد إفادة قصرِ الرؤية على خالد. وغالبًا ما يكون ذلك لردِّ خطإِ المخاطب في تعيين المفعول.

٢ ـ مجرّد الاهتمام بأمر المقدَّم. كقولِكَ: «الحقَّ قلْتُ» و«العيشَ الذليلَ أَبَيْتُ».

٣ ـ المُسارعةُ في التبرُّك به أو التلذّذ أو المسرّة أو المساءة. وأمثلةُ ذٰلِكَ على الوِلاء:

- «اللَّهَ سألْتُ». و«خاتمَ المرسلين ﷺ، أجَبْتُ».

- «طرابلسَ قصدْتُ» و«وطني عَشِقْتُ».

- «خيرًا لَقِيتُ» و«راحة أَنِسْتُ».

- «راجِلاً غيرَ آيبٍ ودَّعْتُ» و«شرًا كُفِيتُ».

٤ ـ كونُ المعمولِ محطَّ إنكارٍ. كأن تقولَ: «أطولَ الدَّهْرِ ترحَلُ وتنزِلُ؟». حيث قُدِّم معمولُ ترحل وهو «طولَ الدهر»؛ لكونه محطَّ الإنكار. ومن هذا قولُ أبي ذُؤَيبِ الهُذَلِيّ:

أَمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تتوجَّعُ   والدَّهْرُ ليسَ بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

قدّم الشاعر الجارّ والمجرور «مِنَ المنون» ـ وهما معمولُ الفعل تتوجّع ـ لكونهما محطّ إنكار وتعجّب.

وكقولِ الشاعر:

أكُلَّ امرئٍ تَحْسَبينَ امرأً   ونارٍ توقَّدُ بالليلِ نارا

٥ ـ مجاراةُ كلامِ السّامع ـ كأن تقولَ: «محمّدًا قَصَدْتُ» في إجابة من سألك: «من قصدتَ؟». قدّمتَ المفعولَ ليوافق مقابِلَه في السّؤال: مَنْ الاستفهامية.

٦ ـ الحِفاظ على الوَزْن في الشّعر أو رعاية الفاصلة في النثر:

- الأول كقول الشاعر:

سَرِيعٌ إلى ابْنِ العمّ يَلْطِمُ وجْهَهُ   وليسَ إلى داعي النّدىٰ بِسَرِيعِ

أي: بسريع إلى داعي الندى. حيث قدّم الجارّ والمجرور «إلى داعي» على متعلَّقه «سريع» للمحافظة على الوزن في الشعر.

ـ الثاني كما في قوله سبحانه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾. وكقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

ففي المجموعة الأولى قُدِّم المفعولُ «الجحيمَ» على الفعل «صَلُّوه»، وقُدّم الجارّ والمجرور «في سِلْسِلَةٍ» على الفعل «فاسلكوهُ» مراعاةً للفاصِلة، وكذا في المجموعة الثانية قُدِّم المفعولُ «اليتيمَ» على الفعل «تَقْهَرْ» والمفعول «السائلَ» على الفعل «تَنهَرْ» مراعاةً للفاصلة أيضًا. والفواصِل هي أواخرُ آياتِ التنزيل بمنزلة قوافي الشعر، وهي في المجموعة الأولى الكلماتُ المنتهية بهاء، وفي الثانية الكلمات المنتهية براء.

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ متعلَّقات الفعل (١):

- بَيّنْ أسبابَ حذْف المفعول أو تقديمه على الفعل فيما يأتي:

١ - قال سبحانه: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٢ - بَرْدُ حَشَايَ إنِ استَطَعْتَ بلَفْظةٍ فلَقَدْ تضُرُّ إذا تشاءُ وتنفعُ

٣ - قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٤ - أرَدْنا فلم نَجِدْ مثيلاً لكَ في الشّجاعة.

٥ - قال سبحانه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾.

٦ - وجدْتُ فيكَ ما يسرُّ.

٧ - قال سبحانه: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

٨ - آياتٍ بيّناتٍ تلوْتُ.

٩ - قال سبحانه: ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

١٠ - حَسَنَ السِّيرةِ رافقْتُ.

١١ - قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

١٢ - سَلْمىٰ كلّمْتُ.

١٣ - قال سبحانه: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

١٤ - صَعِدْنا إلى القِمّة.

١٥ - التقيتُ خصْمِي فتراشقْنا ببذيءِ الكلام، فقال لي، وقلتُ له.

١٦ - اللّهَ الكريمَ أسألُ.

الإجابات:

١ - حُذِف مفعولُ شاء، وتقديرُه «هدايتَكم»؛ لِلْبيانِ بعد الإبهام؛ ليكون أوقَع في النفس.

٢ ـ حُذِف مفعولُ تضرّ وتنفع، حيث تقديرُ الكلام: تضرّني وتنفعني؛ لتنزيل الفعل المتعدّي منزلةَ اللاّزم؛ فإن المرادَ: يحصُل منك ضررٌ ونفْعٌ.

٣ ـ قُدِّم المفعولُ «إيّاكَ» في الموضعين؛ للتخصيص؛ إذ المعنى: نخصُّك بالعبادة ونخصُّك بالاستعانة.

٤ ـ حُذِف مفعولُ أرِنا وتقديره «مثيلاً»؛ لإرادة ذِكْره ثانيًا على وجهٍ يتضمّن إيقاعَ الفعلِ على صريح لفظه؛ لكمالِ العناية به والاهتمام بوقوعه.

٥ ـ قُدّم المفعول «الجحيمَ» على الفعل؛ لرعاية الفاصلة.

٦ ـ حذف مفعول ما يسرّ، وتقديره «كلَّ أحد»؛ لِقَصْد التعميم مع الاختصار.

٧ ـ حذف المفعول «قَلَىٰ»؛ لرعاية الفاصلة السابقة؛ إذ تمام الكلام: قَلاكَ.

٨ ـ قُدِّم المفعولُ «آياتٍ» على الفعل؛ للتبرّك به.

٩ ـ حُذِف مفعولُ بعَثَ وتقديره «بعثَه»؛ لمجرّد الاختصار.

١٠ ـ قُدِّم المفعولُ «حَسَنَ»؛ للاهتمام به.

١١ ـ حُذِف مفعولُ «يدْعونَ» وتقديره «الناسَ»، ومفعول «يأمرون»، وتقديره «الناسَ» أيضًا؛ لِقَصْد التعميم مع الاختصار.

١٢ ـ قُدِّم المفعولُ «سَلْمى» على الفعل؛ للتلذّذ بذكر المقدَّم.

١٣ ـ حُذِف المفعولُ وتقديرُه «الخَتْمَ»؛ لِلْبيان بعد الإبهام.

١٤ ـ حُذِف المفعولُ وتقديره «الجبلَ» مثلاً؛ لدفع توهّم غير المراد ابتداءً؛ إذ لو ذُكِرَ الجبلُ قبلَ «إلى القمّة»، لربّما توهّم المتلقّي أنّ الصّعودَ كان إلى بعض الجبل، وهو غير مراد.

١٥ ـ حُذِف مفعولُ قالَ وقلتُ؛ لاستهجان التّصريح به.

١٦ ـ قُدّم المفعولُ؛ للتعجيل بالتيمّن به.

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ تقديم بعض متعلّقات الفعل (٢):

ـ بيّن الأسبابَ التي دعَتْ إلى تقديم بعض متعلّقات الفعل فيما يأتي:

١ ـ أَنَشَا يمزِّقُ أثوابي يؤدِّبُني أبعْدَ شَيْبِيَ يبغي عِندِيَ الأدَبا؟

٢ ـ في منزلي استقبلتُك.

٣ ـ أبَعدَ أنْ باتَ عبدُ اللّهِ مُرتَهَنا تحتَ الثّرىٰ يُرتجىٰ صَفْوٌ ويُنتَظَرُ

٤ ـ فرِحًا قُلتُ لكَ.

٥ ـ بيَدِ العَفافِ أصونُ عِزَّ حِجابي وبِعِصْمَتي أسْمو على أترابي

٦ ـ قال سبحانه: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

٧ ـ قال سبحانه: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾.

٨ ـ قال سبحانه: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٩ ـ إلىٰ اللّهِ كلُّ الأمْرِ في الخَلْقِ كلِّهِمْ وليسَ إلى المخلُوقِ شيءٌ من الأمْرِ

١٠ ـ سَرِيعٌ إلى ابنِ العَمِّ يلْطِمُ وجهَهُ وليسَ إلى داعي النّدىٰ بسريعِ

١١ ـ إلى اللّهِ أشكُو لا إلى الناسِ حبَّها ولا بدَّ منْ شكوى حبيبٍ يُرَوَّعُ

١٢ ـ أَكُلَّ الدَّهرِ حِلٌّ وارتحالٌ أمَا يُبْقِي عليَّ ولا يَقيني

ـ الإجابات:

١ ـ قُدّم الظّرفُ في قوله: «بعْدَ شيبي» لأنّه محطّ إنكار.

٢ ـ قُدّم الجارُّ والمجرور «في منزلي»؛ لتخصيصه بالفعل.

٣ ـ قُدِّم الظرف «بعْدَ»؛ لأنه محطُّ إنكار.

٤ ـ قُدِّم الحالُ «فَرِحًا»؛ لأنه موضِعُ العناية والاهتمام.

٥ ـ قُدِّم الجارُّ والمجرور في مطْلَع الصّدْر والعَجُز؛ لإفادة التّخصيص.

٦ ـ قُدِّم الجارُّ والمجرور «بالآخرة»؛ لإفادة التّخصيص.

٧ ـ أُخِّر الجارُّ والمجرور بعد شهداء في الأول؛ لأنّ الغَرضَ إثباتُ شهادتهم على النّاس، وقدِّم في الثاني على شهداء؛ لاختصاصهم بكون الرّسول عليه الصلاةُ والسلام شَهِيدًا عليهم.

٨ ـ قدّم المفعول «اللَّهَ»؛ لإفادة الاختصاص.

٩ ـ قدِّم الجارُّ والمجرور في الأوّل «إلى الله»؛ لاختصاص الله سبحانه بكون كلّ الأمر له، وقدِّم الجارّ والمجرور على اسم ليس في الثّاني؛ لاختصاصِ المخلوق بنفي كون شيءٍ من الأمر له.

١٠ ـ قُدِّم الجارُّ والمجرورُ «إلى داعي» على متعلَّقه «بسريع»؛ للضرورة الشّعرية.

١١ ـ قُدِّم الجارُّ والمجرور «إلى الله»؛ لاختصاص الله سبحانه بالشّكْوى.

١٢ ـ قُدِّم نائبُ الظَّرْفِ «كلَّ الدَّهْر»؛ لأنّه محَطُّ الإنكار.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الخامس

أسلوبُ القَصْر

ويتضمَّن:

- تعريف القصْر لغةً واصطلاحًا.
- مكوِّنات أسلوب القصْر.
- موضوعات البحث في هذا الأسلوب:

١ ـ تقسيمُ القَصْر تبعًا لغرض المتكلِّم.

٢ ـ تقسيم القَصْر تبعًا لحال المقصور.

٣ ـ تقسيم القصْر الإضافي تبعًا لحال المخاطب.

٤ ـ طُرُق القصْر.

٥ ـ مواقعُ القصر في الجملة.

٦ ـ الأغراض البلاغية للقصْر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ـ تعريفُ القَصْر:

القَصْرُ في اللّغة: الحَبْسُ. وامرأةٌ مقصورةٌ وقَصُورةٌ وقصيرةٌ: محبوسةٌ في البيت، لا تُترَك أن تخْرُجَ. ومنه قوله سبحانه: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾، أي محبوساتٌ فيها.

وفي الاصطلاح: **تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ بطريقٍ مخصوص.**

مكوّناتُ أسلوب القَصْر:

يتكوّن أسلوبُ القصْر من طرَفَيْن هما: المقصورُ والمقصورُ عليه، ومن أداة القصْر. تقول مثلًا: ما شوقيٌّ إلّا شاعِرٌ. تريد بهذا التعبير تخصيصَ شوقيّ بـ «الشِّعْر»، وقصْرَه على هذه المَلَكة. تقول هذا ردًّا على من ظنّ أنّه شاعرٌ وكاتبٌ، مثلًا. وفي مثالنا هٰذا:

«شوقيّ» هو المقصورُ؛ لأنّكَ قَصَرْتَه على صِفة الشّعر.

«شاعِرٌ» هو المقصورُ عليه؛ لأنّك قصرْتَ شوقيًا عليه، حيث حبسْتَه على هذه الصِّفة لا يتجاوزها إلى الكتابة مثلاً.

أمّا الطريقُ المخصوص للقَصْر في هذا المثال فهو النفيُ «ما» والاستثناء «إلّا».

وفي القَصْر ستّةُ موضوعات للبحث:

الأوّل ـ تقسيم القَصْر تبعًا لغرض المتكلّم.

الثاني ـ تقسيم القَصْر تبعًا لحال المقصور.

الثالث ـ تقسيمُ القَصْر الإضافيّ تبعًا لحال المخاطب.

الرابع - طُرُق القصر.

الخامس - مواقع القَصْر في الجملة.

السّادس - الأغراضُ البلاغية للقَصْر.

أولًا: - تقسيم القصر تبعًا لغرض المتكلّم:

ينقسم القصْرُ تبعًا لغرض المتكلّم على قسميْن: حقيقيّ وإضافيّ.

- **الحقيقيّ**: وهو تخصيصُ الشّيءِ بالشّيء لا يتجاوزه إلى سِواه حقيقةً أو ادّعاء. ومن القَصْرِ الحقيقيِّ حقيقةً قولُه سبحانه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، حيث قُصِرتْ صفةُ الألوهية على ذاتِ الله (سبحانه) قصْرًا حقيقيًّا؛ ويعني هذا أنها لا تتجاوزه (جلّ وعلا) إلى سواه.

أما القصرُ الحقيقيُّ الادّعائيّ فكقول الشاعر:

لا سَيْفَ إلّا ذو الفَقَا رِ ولا فتًى إلّا عَلِيّ

فكلٌّ من هذين القصْرَيْن حقيقيٌّ على وجه الادّعاء من الشاعر؛ ذلك أنه يزعُمُ هذا على سبيل المبالغة الشّعرية مُفترِضًا أنّ غير «ذي الفَقار» من السّيوف، وغير «عليّ» من الفِتيان، في حُكْم المعدوم. وواضحٌ أنّ الحقيقيّ حقيقةً يُنْظَر فيه إلى الحقيقة والواقع، والحقيقيّ ادّعاءً يُنظر فيه إلى الادّعاء اعتمادًا على جَعْل ما سوى المقصور عليه في حُكْم غير الموجود.

- **الإضافيّ**: وهو تخصيصُ الشّيءِ بالشّيء قِياسًا أو إضافةً إلى شيءٍ معيّن، بحيث لا يتعدّاه إلى ذلك الشيء، وإن صحّ أن يتعدّاه إلى شيء آخر. تقول: «ما شاعِرٌ إلّا شوقيّ»؛ أي لا حافظ مثلًا. فأنت هنا قصَرْتَ الشّعْرَ على شوقيّ بحيث لا يتجاوزه إلى «حافظ». ويصحّ أن تخلع الصفةَ على غير حافظ. فقصْرُ الشّعر على شوقيّ جاء مقارنةً مع حافظ لا مع كلّ الشعراء.

ثانيًا ـ تقسيم القَصْر تبعًا لحال المقصور:

ينقسم القصْرُ تبعًا لحال المقصور على قسمين:

(أ) **قصْرُ الصِّفة على الموصوف**، وذلك بتقديم الصّفة على الموصوف، كأن تقولَ من القَصْر الحقيقيّ حقيقةً: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، حيث قصَرْتَ صِفةَ الأُلوهيّةِ على ذات الله (سبحانه) قصْرًا حقيقيًّا حقيقةً؛ حيث لا تتجاوز هذه الصفةُ إلى غيره (سبحانه). وتقول من الحقيقيّ ادّعاءً: «ما عادِلٌ إلّا عمَرُ»؛ حيث قصَرْتَ صِفةَ العدْلِ على عُمَرَ رضي الله عنه مدّعيًا أنّ عدالةَ غيره ممّا لا يُعتدّ به، وهي في حُكْم المعدوم. وتقول من الإضافي: «ما شاعِرٌ إلّا عُمَرُ أبو ريشة» أي: لا نزار قبّاني، مثلاً.

(ب) **قصْرُ الموصوفِ على الصِّفة**، وذلك بتقديم الموصوف على الصّفة، كقولِكَ من القصْرِ الحقيقيّ: «ما زيدٌ إلّا كاتبٌ»، إن أردتَ عدمَ اتصافه بغير صفةِ الكتابة. وهذا الضَّرْبُ لا يكاد يوجدُ لتعذّر الإحاطة بصفات الشيء. ومن هنا يُحمَل هذا المثالُ على القَصْر الحقيقي الادّعائي الذي يُقْصَد فيه المبالغةُ وعدَمُ الاعتداد بصفةٍ غير الصّفة المقصور عليها. ومثلُه من الإضافيّ قولُكَ: «ما حسّانُ إلّا شاعرُ الرسول عليه الصلاةُ والسلام»، أي: لا خطيبه، مثلاً.

ثالثًا ـ تقسيم القَصْر الإضافيّ تبعًا لحال المخاطَب:

ينقسم القصْرُ الإضافيّ تبعًا لحال المخاطب على ثلاثة أقسام:

١ ـ **قصْرُ القَلْبِ** ـ ويُخاطَبُ به من يعتقدُ عكْسَ الحُكْمِ الذي أثبتَه المتكلّم. كقولِكَ من قصْرِ الصفةِ على الموصوف: «ما مجتهدٌ إلّا أحمدُ» ردًا على من اعتقد أنّ المجتهدَ «محمّدٌ» لا «أحمد». وسُمّي هذا الضَّرْبُ قصْرَ قَلْبٍ؛ لأنّك تَقْلِبُ به الحُكْمَ على المخاطَب، وهو هنا قلْبُ الحكمِ بالاجتهاد من محمّدٍ إلى أحمدَ.

٢ ـ **قصْرُ الإفراد** ـ ويُخاطَبُ به من يعتقد الاشتراكَ. كقولِكَ من قَصْرِ الصّفة على الموصوف: «ما ناجحٌ إلّا خالدٌ»، ردًّا على من اعتقدَ اشتراكَ سعيدٍ ـ مثلاً ـ مع خالد في صفة النجاح هذه. وسُمّي قصْرَ إفْرادٍ؛ لأنه يقطَعُ الاشتراكَ الذي اعتقده المخاطَبُ؛ وهو هنا اشتراكُ سعيدٍ مع خالدٍ في النجاح.

٣ ـ **قصْرُ التعيين** ـ ويخاطَب به المتردّدُ بين شيئين. كقولِكَ من قصْرِ الصّفة على الموصوف: «ما ذكِيٌّ إلّا حُسَينٌ»، خِطابًا لِمَنْ تردّد بينَ ذكائه وذكاء أخيه «حسَن» مثلاً. وسُمّي قصْرَ تعيين؛ لتعيينه ما هو غيرُ معيّن عند المخاطَب، وهو هنا تعيينُ الذّكاء في «حُسَيْن» دون «حَسَن».

رابعًا ـ طُرُق القَصْر:

طرقُ القَصْر الاصطلاحيةُ التي يركّز عليها البلاغيون أربع:

١ ـ النّفْيُ والاستثناءُ ـ ويلي المقصورُ عليه فيهما أداةَ الاستثناء، ومِثالُه من قصْرِ الصفة قصْرًا حقيقيًا قولُكَ: «لا هادِيَ إلّا الله»، ومن قصْرِ الموصوفِ قولُه سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾. ومن قَصْرِ الصّفة إضافيًا قولُك: «ما شاعرٌ إلّا زهيرٌ»، أي: لا النّابغة، مثلاً. ومن قصْرِ الموصوف إضافيًا قولُك: «ما الجاحظُ إلّا كاتبٌ»، أي: لا شاعر.

٢ ـ «إنّما» ـ والمقصورُ عليه معَها هو المؤخّر. ومِثالُه من قَصْر الصّفة قصْرًا حقيقيًا قولُك: «إنّما شاعِرٌ زهيرٌ» أي: لا غير زهير. ومن قصْر الموصوف قولُك: «إنما زهيرٌ شاعِرٌ» أي: لا غير شاعر. ومن قصْرِ الصّفة إضافيًا قولُك: «إنما شاعرٌ زهيرٌ» أي: لا النابغة. ومن قصرِ الموصوف قولُك: «إنما زهيرٌ شاعِرٌ» أي: لا خطيب.

ويذهبُ البلاغيون إلى أنّ «إنّما» أفادت معنى القَصْر؛ لأنها تتضمّن معنى (النّفي والاستثناء)؛ فقولُك: «إنّما زهيرٌ شاعرٌ» معناه: ما زهير إلّا شاعر.

كما يقول علماءُ البلاغة إنّ أحسن مواقع «إنّما» في الاستعمال عندما يُراد بها التّعريض. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. فالآيةُ الكريمةُ تنقل حقيقةً هي قصْرُ التذكُّرِ وتبيُّنِ الحقّ على ذوي العقول؛ لكنّ هذه الحقيقةَ غيرُ مرادة هنا؛ لأنها تحصيلُ حاصل. بل المرادُ كما يقولون: التعريضُ بذمّ الكفّار وتبيانُ أنّهم لِفَرْط عِنادهم وتمكّنِ الهوى منهم في حُكْمِ مَنْ لا عقْلَ له ولا أملَ البتَّةَ في تذكُّره.

٣ ـ العطف بـ«لا» وبـ«بل» وبـ«لكنْ»:

ـ أمّا في العطف بـ«لا» فيكون المقصورُ عليه هو المقابل لِمَا بَعْدَها، ومنه في قصْرِ الصّفة قصْرًا حقيقيًا قولُك: «زهيرٌ شاعرٌ لا غيرُ زهير»؛ قصَرْتَ الشعرَ على زهير. ومنه في قصْرِ الموصوف قولُك: «زهيرُ شاعرٌ لا غيرُ شاعر»؛ قصرتَ زهيراً على الشعر. ومنه في قصْرِ الصفة إضافيًا قولك: «زهيرٌ شاعرٌ لا النابغةُ»؛ قصَرْتَ الشعرَ على زهير بالنّسبة إلى النابغة، ومنه في قَصْرِ الموصوف إضافيًا قولُكَ: «زهيرٌ شاعرٌ لا خطيب»؛ قصَرْتَ زهيرًا على الشعر بالنّسبة إلى الخطابة.

ـ وأمّا في العطف بـ«بل» وبـ«لكِنْ» فيأتي المقصور عليه بعدَهما. مِثالُ العطفِ بـ«بل» في قصْرِ الصّفة قولُك: «ما زُهَيْرٌ خطيبُ العربِ بل قُسُّ بنُ سَاعِدة»؛ قصرْتَ خطابَة العرب على قسّ بن ساعدة. ومنه في قصْرِ الموصوف قولُك: «ما زهيرٌ خطيبٌ بل شاعرٌ». قصرتَ زهيرًا على الشّعر. وتقول في العطف بـ«لكنْ» في قصر الصّفة: «ما زهيرٌ

فارسٌ لكنْ عنترةُ»؛ قَصَرْتَ الفروسيّةَ على عنترة. وفي قصْرِ الموصوف: «ما زهيرٌ فارسٌ لكن شاعر»؛ قصَرْتَ زهيرًا على الشعر.

٤ ـ تقديمُ ما حقُّه التأخير:

والمقصورُ عليه في هذا الضرب هو المقدّم. ومنه في الذّكر الحكيم قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ قُصِرت العبادةُ والاستعانةُ على البارىء جلّ وعلا. ويكون المعنى عندئذ: نخصّك بالعبادة والاستعانة. والآيةُ من قصْرِ الصّفة على الموصوف. ومن قَصْر الموصوف في هذا الباب قولُكَ: «تميميٌّ أنا»؛ قصَرْتَ الموصوفَ «أنا» على الصّفة «تميميّ». وقد أفاد ذلك تقديمُ الخبَرِ على المبتدأ.

وجوهُ الاختلاف بين طرق القصر:

تشترِكُ طرقُ القَصْر الأربعُ في إفادتها القَصْرَ كما أسلفنا، لكنها تتباينُ فيما بينها في أمور:

١ ـ دِلالةُ «التّقديم» على الحَصْر بالفحوىٰ أي بمفهوم الكلام، ودِلالةُ الثّلاثةِ الباقية بالوَضْع. ويعْني هذا أن القصْرَ الذي يفيده تقديمُ ما حقُّه التأخيرُ يعرِفه صاحبُ الذّوق السّليم بتأمّله مفهومَ الكلام وإن لم يَعْرِف اصطلاحَ البلاغيين في ذلك. أما القصْرُ الذي تُفيده الثلاثُ الباقية فبِالوَضْع؛ فقد بيّن العُلَماءُ أنّ «لا» العاطفة موضوعةٌ للنّفي بعدَ الإثبات، و«بل ولكن» موضوعتان للإثبات بعد النّفي، وهذان المعنيان مفيدان للقَصْرِ. والنّفيُ والاستثناءُ موضوعانِ للنّفي والإخراج من حُكْم النفي، ويدلّ هذا المعنى على القَصْر. وتتضمّن «إنّما» معنى النفي والاستثناء؛ ومن ثم تُفيد القَصْرَ.

٢ ـ الأصْلُ في العَطْف النّصُّ على المُثْبَتِ والمنفيِّ معًا. تقول: «زهيرٌ شاعرٌ لا النّابغةُ»، فتنصّ على من أثبتَّ له صِفةَ الشّعر وهو

«زهير»، وعلى مَنْ نفيتَها عنه، وهو «النّابغة». وكذا الشّأنُ مع «بل» و«لكن». وأما في الثلاث الباقية فالنّصُ على المُثْبَت فحَسْبُ.

٣ ـ أنّ النّفي بـ«لا» العاطفة لا يجامِعُ النّفْيَ والاستثناءَ، فلا يصِحُّ أن تقول: «ما زيدٌ إلّا قائمٌ لا قاعدٌ»؛ لأنّ شرْطَ جواز النفي بـ«لا» أن لا يكون ما قبلَها منفيًا بغيرها من أدوات النفي. لأنّكَ إذا قلتَ: «ما زيدٌ إلّا قائمٌ» قَصَدْتَ نفيَ كلّ صفةٍ وقع فيها التّنازعُ، والصّفةُ التي تنفيها بـ«لا» بعد هٰذا (لا قاعدٌ، في مثالِنا المتقدّم) داخلةٌ فيما وقع فيه التّنازع. وهٰكذا فإنّك عندما تقولُ «لا قاعدٌ» بعد «ما زيدٌ إلّا قائمٌ» تكونُ قد نفيتَ بها شيئًا هو منفيٌّ قبلَها. ويصحّ الإتيان بـ«لا» العاطفة مع «إنما» و«التقديم» فتقول: «إنّما أنا تميميّ لا قيسيّ» و«محمّدًا أكرَمْتُ لا عليًا».

٤ ـ أنّ أصْلَ «النفي والاستثناء» أن يُستعملا في أمرٍ من شأنه أن يجهلَه المخاطَبُ ويُنكِرُه أو فيما هو منزّلٌ هذه المنزلةَ؛ فلا يصِحّ استعمالُهما في الأمر الظاهر. ومثال الأوّل أن تقول لصاحبك وقد بدا لك شبَحٌ من بعيد: «ما هو إلّا زيدٌ»، إذا وجدتَه يعتقده غيرَ زيد ويصِرُّ على الإنكار، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. ومثالُ ما نُزّل منزلةَ المجهول المنكَر مع وضوحه قولُه سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾. ويعني هذا أنّه ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ لا يتعدّى الرّسالةَ إلى التبرّي من الهلاك؛ نُزّلَ استعظامُهم هلاكَه منزلةَ إنكارِهم إيّاه. ومِثْلُه قولُه سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾. لشدّة حِرْص المصطفى ـ عليه الصّلاة والسلام ـ على هداية الناس كان يكرّر دعوةَ الممتنعين عن الإيمان دون كلَل أو تراجع؛ فنُزّل منزلةَ من ظَنّ أنّه يمتلك مع صفة الإنذار إيجادَ الشيء فيما يمتنع قبولُه إيّاه.

ومنه في الشّعْر قولُ زهير:

وما الحَرْبُ إلّا ما علِمْتُمْ وذُقْتُمُ   وما هُوَ عنْهَا بالحَديثِ المرجَّمِ

نزّلَ زهيرٌ الأمرَ الظاهرَ المعروف الذي علموه وذاقوا ويْلاتِه، وهو الحربُ، منزلةَ المجهول الذي ينكرونه؛ لِمَا رأى منهم من مواصلةٍ للحرب واستمرارٍ في إيقاد نيرانها دون هوادة.

وأصْلُ «إنّما» أن تُستعملَ في أمرٍ لا يجهله المخاطَب ولا يدفع صحّتَه، أو فيما ينزّل هذه المنزلة. مثال الأول قولُك للرّجل: «إنّما هو أخوكَ» و«إنما هو صاحبُك القديم». وأنت لا تقول هذا لِمَنْ يجهله ويدفع صحّته، بل لِمَنْ يعلمُه ويُقِرُّ بِه، ولكنّك تنبّهه على الذي يجب عليه من حقّ الأخ وحُرمةِ الصّاحب. ومِثالُه من الذّكر الحكيم قولُه سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾. ومِثالُه في الشعر قولُ المتنبي مخاطِبًا كافورًا الإخشيديَّ:

إنّـمـا أنْـتَ والِـدٌ والأبُ الـقَـا ... طِـعُ أحـنـى مِـنْ واصِـلِ الأولادِ

ومثالُ ما نُزِّل منزلَة المعلوم قولُ ابن قَيْسِ الرُّقَيّات:

إنّـمـا مُـصْـعَـبٌ شِـهـابٌ مـن الـلّـ ... ـهِ تَـجَـلّـتْ عـن وجـهِـهِ الـظّـلْـمـاءُ

ادّعى الشاعرُ أن كونَ مصعبٍ على هذه الصّفة أمرٌ معلوم للجميع، فاستخدم في قصْرِه أداةَ القصْر التي تُستخدَم فيما من شأنه أن يكون معلومًا للمخاطب غيرَ منكَرٍ لديه، تنزيلاً للمجهول منزلةَ المعلوم. ومثالُه في الذّكر الحكيم قولُه سبحانه حِكايةً عن اليهود:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ادّعوا أنّ كونَهم مصلحين أمرٌ ظاهر معلومٌ.

٥ ـ مزيّةُ «إنّما» على العَطْف أنّه يُعْقَل منها الحُكْمان (الإثبات والنفي) دفعةً واحدة. فعندما تقول: «إنما زيدٌ كاتبٌ» تكون قد أثبتَّ له الكتابةَ ونفيتَ عنه الشّعرَ، مثلاً، دفعةً واحدة. بِخلاف «العطف» في

قولِكَ: «زيدٌ كاتبٌ لا شاعِرٌ»؛ حيث يكون ثمّة إدراكٌ تدريجيّ: ثبوتُ الكتابةِ لزيدٍ أوّلًا، ثم نفيُ الشاعرية عنه. ويقول البلاغيون إنّ تعقُّلَ الحُكْمَيْن معًا أرجحُ من تعقُّلِهما التّدريجيّ؛ إذ يُدْرَكُ الحَصْرُ دفعةً واحدة مع «إنما»، ويُتوهَّم عدمُ الحَصْرِ أوّل الأمرِ مع «العطف».

خامسًا ـ مواضع القَصْر في الجملة:

يقع القَصْرُ بين المبتدأ والخبر كما قدّمنا، ويقع أيضًا بين الأشياء الآتية:

١ ـ بين الفعل والفاعل، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾. قُصِر الفعلُ «يخشىٰ» على الفاعل «العلماء»، وهو من باب قصْرِ الصّفة على الموصوف.

٢ ـ بين الفاعل والمفعول، كقولِكَ: «ما ضرب زيدٌ إلّا عمْرًا». ومنه من قَصْر القَلْب قولُه سبحانه حِكايةً عن السّيّد المسيح عليه السّلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾. وفي قصر المفعول على الفاعل تقول: «ما ضرب عَمْرًا إلّا زيدٌ».

٣ ـ بين المفعولين، كقولك: «ما أعطَيْتُ زيدًا إلّا درهمًا»، و«ما أعطيتُ درهمًا إلاّ زيدًا».

٤ ـ بين متعلّقات الفعل كالحال، والتمييز، والظَّرْف، والجارّ والمجرور. تقول في قَصْر ذي الحال على الحال: «ما جاء خالدٌ إلّا راكبًا»، وفي قَصْر الحال على ذي الحال: «ما جاء راكبًا إلّا خالدٌ»، وتقول في التمييز: «ما حسُنَ إبراهيمُ إلّا خُلُقًا»، و«ما حسُنَ خُلُقًا إلّا إبراهيمُ». وتقول في الظّرف: «ما وصلْتُ إلّا بعدَ الظُّهر»، وفي الجارّ والمجرور: «ما كتبتُ إلّا إليه».

سادسًا ـ الأغراضُ البلاغيّة للقصْر:

يحقّق البلغاءُ باستخدام أسلوب القصر أغراضًا كثيرة، يتلمّسها مَنْ يتأمّل السّياقات التي يرد فيها هذا الأسلوبُ. ومن ذلك:

١ ـ تمكينُ الكلامِ وتقريرُه في الذهن ـ كقوله سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾.

وكقول الشاعر:

وما المَرْءُ إلّا كالشِّهابِ وضَوْئِهِ يَحُورُ رَمادًا بَعْدَ إذْ هُوَ ساطِعُ

وقول الآخر:

وما لامرئٍ طولُ الخُلودِ وإنّما يُخَلِّدُه طولُ الثَّناءِ فيَخْلُدُ

٢ ـ المُبالغةُ في المعنى وتصويرُ الحدّ الأقصى فيه، كقول الشاعر:

وَما المَرْءُ إلّا الأصْغرانِ: لِسانُهُ ومعقولُهُ، والجِسْمُ خَلْقٌ مصوَّرُ

وقول الآخر:

لا سَيْفَ إلّا ذو الفَقَا رِ ولا فَتَى إلّا عَلِيّ

٣ ـ التهوينُ وإصغار الشّأن، كقول المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام، عندما جُرِحت إصبَعُه:

«إن أنْتِ إلّا إصبعٌ دَمِيَتْ وفي سبيلِ الله مَا لَقِيتْ».

٤ ـ التّعريض، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. ليس المرادُ من الآية الكريمة الحقيقةَ التي تقرِّرها وهي قصْرُ التّذكر على أرباب العقول؛ فذلك تحصيلُ حاصل؛ بل المُرادُ ـ والله أعلم ـ الإشارةُ إلى أنّ المشركين بسبب عِنادهم وفَرْط مكابرتهم في حُكْمِ مَنْ لا عقلَ له ولا لُبّ.

ومن جماليّاتِ «القَصْر» أنّه ضرْبٌ من الإيجاز، ووسيلةٌ لتكثيف الدّلالة والتّعبيرِ بالقليل من اللّفظ عن الكثير من المعنى؛ وتُعادِلُ جملةُ القصْر جملتَيْن تقريبًا، فقولُنا: «لا هاديَ إلّا الله» يكافىء قولَنا: الهدايةُ مِنَ الله، وليس هاديًا غيره سبحانه. ويُستعانُ بهٰذا الأسلوب في تحديد المعاني تحديدًا كاملًا، وبخاصّةٍ في المسائل العلمية وما هو قريب منها.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول أسلوب القصر (١):

- بيّن نوعَ القَصْر وطريقه فيما يأتي:

١ - لـيـسَ عَـارٌ بـأنْ يُـقـالَ فـقِـيـرٌ إنّـمـا الـعَـارُ أن يُـقـالَ بـخـيـلُ

٢ - قـدْ عَـلِـمـتْ سَـلْـمـىٰ وجـاراتُـهـا مـا قـطَّـرَ الـفـارسَ إلّا أنـا

٣ - وإِنّـمـا الأمـمُ الأخـلاقُ ما بَقِيَتْ فـإنْ هُـمُـو ذَهَـبَـتْ أخـلاقُـهـمْ ذهَـبُـوا

٤ - محَاسِنُ أوْصافِ الـمُغنّينَ جَمّةٌ ومـا قـصَـبـاتُ الـسَّـبْـقِ إلّا لِـمَـعْـبَـدِ

٥ - ما الدّهرُ عندَكَ إلّا روضةٌ أُنُفٌ يـا مَـنْ شـمـائِـلُـهُ فـي دَهْـرِهِ زَهَـرُ

٦ - سيذكُرُني قومِي إذا جَدَّ جِدُّهُمْ وفـي الـلّـيـلـةِ الـظّـلـماءِ يُفتـقدُ الـبَدْرُ

٧ - قال المصطفى عليه الصلاةُ والسلام: «ليس لكَ من مَالِكَ إلّا ما أكلْتَ فأفنيتَ، أو لَبِسْتَ فأبليْتَ، أو تصدّقْتَ فأبقيتَ».

٨ - بكُمْ أدركَ اللّهُ البَرِيّةَ بعْدَما سعىٰ لِصُّها فيها وهبَّ غشومُها

٩ - ولوْ حمّلَتْني السِّرَّ سَلْمى حملْتُهُ وهَلْ يحْمِلُ الأسرارَ إلّا كتومُها

١٠ - قال سبحانه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾.

ـ الإجابات:

الجملة التي جاء فيها القصر	نوع القصر تبعًا للمقصور	نوع القصر تبعًا للواقع	نوع القصر تبعًا للمخاطَب	طريقة القصْر
١ ـ إنما العارُ أن يقال بخيلُ	موصوف على صفة	إضافي	قلْب	إنّما
٢ ـ ما قطّر الفارسَ إلّا أنا	صفة على موصوف	إضافي	تعين	النفي والاستثناء
٣ ـ إنما الأممُ الأخلاقُ..	موصوف على صفة	حقيقي ادّعائي	تعيين	إنّما
٤ ـ ما قصباتُ السَّبْق إلّا لمعبَدِ	صفة على موصوف	إضافي	إفراد	النفي والاستثناء
٥ ـ ما الدَّهرُ إلّا روضةٌ	موصوف على صفة	إضافي	إفراد	النفي والاستثناء
٦ ـ وفي الليلة الظلماء يفْتَقدُ البدرُ	صفة على موصوف	إضافي	إفراد	تقديم الجارّ والمجرور
٧ ـ ليس لَكَ مِنْ مالِك إلّا	موصوف على صفة	حقيقي	إفراد	النفي والاستثناء
٨ ـ بكم أدرَكَ الله	صفة على موصوف	إضافي	إفراد	تقديم الجار والمجرور
٩ ـ وهل يحْمِلُ الأسرارَ إلّا كتومها	صفة على موصوف	إضافي	إفراد	النفي والاستثناء
١٠ ـ ﴿إن أنتم إلّا تكذبون﴾	موصوف على صفة	إضافي	إفراد	النفي والاستثناء

أسئلةٌ وإجاباتُها حول أسلوب القَصْر (٢):

- بيّن نوعَ القَصْر وطريقَه فيما يأتي:

١ - الله الغفورُ الرحيم.

٢ - المرءُ بآدابه لا بِثيابه.

٣ - ليس اليتيمُ الّذي قدْ ماتَ والِدُهُ   بل اليتيمُ يتيمُ العِلْمِ والأدبِ

٤ - وهَلْ يُنْبِتُ الخطّيَّ إلّا وشيجُهُ   وتنبُتُ إلّا في مغارِسِها النَّخْلُ

٥ - قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

٦ - عُمْرُ الفتىٰ ذِكْرُه لا طولُ مدَّتِه   وموْتُهُ خِزْيُهُ لا يومُهُ الدَّاني

٧ - إلى الله أشكو لا إلى النّاسِ حبَّها   ولا بدَّ من شكوىٰ حبيبٍ يروِّعُ

٨ - ومنَ البَلِيّةِ عذْلُ مَنْ لا يرعوي   عن غَيِّهِ وخِطابُ مَنْ لا يفْهَمُ

٩ - إنّ الجدِيدَينِ في طولِ اختلافِهما   لا يفْسُدانِ ولكن يفسدُ الناسُ

١٠ - وما مَنُعتْ دارٌ ولا عزَّ أهلُها   من النّاسِ إلّا بالقَنا والقَنابِلِ

ـ الإجابات:

الجملة التي جاء فيها القصر	نوع القصر تبعًا للمقصور	نوع القصر تبعًا للواقع	نوع القصر تبعًا للمخاطب	طريقة القصر
١ ـ الله الغفورُ الرّحيم	صفة على موصوف	حقيقيّ	إفراد	تعريف المسند بـ«ال»
٢ ـ المرءُ بآدابه لا بثيابه	موصوف على صفة	إضافي	قلْب	العطف بـ«لا»
٣ ـ ليس اليتيم.. بل اليتيم	صفة على موصوف	إضافي	قلْب	العطف بـ«بل»
٤ ـ وهل ينبت إلّا.. وهل تنبت إلّا	صفة على موصوف في الموضعين	حقيقي ادّعائي	إفراد	النفي والاستثناء
٥ ـ «إنما يخشى اللّهَ.. العلماءُ»	صفة على موصوف	إضافي	حسب المخاطب	إنما
٦ ـ عمْرُ الفتى ذكرُه لا طول.. وموته خزيُه لا يومُه الدّاني	موصوف على صفة في الموضعين	إضافي	قلْب	العطف بـ«لا»
٧ ـ إلى الله أشكو	صفة على موصوف	إضافي	قلْب	التقديم والعطف بـ«لا»
٨ ـ ومن البليّة عذلُ من..	موصوف على صفة	إضافي	إفراد	تقديم الخبر على المبتدأ
٩ ـ إنّ الجديدَيْن لا يفسدان ولكن يفسدُ الناسُ	صفة على موصوف	إضافي	قلب	العطف بـ«لكن»
١٠ ـ وما مَنُعتْ دارٌ.. إلا	صفة على موصوف	إضافي	إفراد	النفي والاستثناء

أسئلةٌ عن القَصْر تُطْلَب إجابتُها:

أوَّلاً ـ حدِّد موضعَ القَصْر فيما يأتي:

١ ـ قال سبحانه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾.

٢ ـ لم ينجحْ إلّا حامِدٌ.

٣ ـ إنّما يخشىٰ الآخرةَ المتّقون.

٤ ـ ما أعطيتُه إلّا درهمَيْن.

٥ ـ إنما أعطيتُ أخي ما يحتاج إليه.

٦ ـ إنّما ضرَبَه عليٌّ وهو غاضب.

٧ ـ حسُنَ سعيدٌ فِكْرًا لا عملاً.

٨ ـ إنّما ذهبْتُ إلى حلَبَ.

٩ ـ ما سكنْتُ إلّا عندَكَ.

١٠ ـ إنّما أحزنني سعيدٌ تصرُّفُه.

ثانيًا ـ حدِّد المقصورَ والمقصورَ عليه، ونوعَ القصر وطريقه فيما يأتي.

١ ـ قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾.

٢ ـ وَإنّـمـا أولادُنـا بـيـنَـنـا أكـبـادُنـا تـمـشـي عـلـىٰ الأرضِ

٣ ـ وما الخوفُ إلّا ما تخوّفَه الفتى ولا الأمْـنُ إلّا مـا رآهُ الـفـتـى أمْـنـا

٤ ـ ومَا الحَرْبُ إلّا ما عَلِمْتُمْ وذقتُمُ ومَا هُوَ عنْـهـا بـالـحَـدِيـث الـمُـرَجَّـمِ

٥ ـ قال المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلامُ: «إنْ أنتِ إلّا إِصْبَعٌ دَمِيتْ وفي سبيلِ الله ما لَقِيتْ».

٦ ـ ومَا الحِرْصُ إلّا فضلَةٌ لو نبذْتَها لـمَـا فـاتَـكَ الـرِّزقُ الـذي أنـتَ آكِـلُـهْ

٧ ـ ليس التغرُّبَ أنْ تشكو نوىٰ سَفَرٍ   وإنّـما ذاكَ فـقْـدُ الـعِـزّ فـي الـوَطَـنِ

٨ ـ إنَّـمَـا هـذه الـحَـيـاةُ مَـتَـاعٌ   والسَّـفـيـهُ الـغـبِـيُّ مَـنْ يـصْـطَـفِـيـهـا

ما مضى فاتَ، والمُؤمَّلُ غَيْبٌ   ولـكَ الـسَّـاعـةُ الّـتـي أنـتَ فـيـهـا

٩ ـ ولا تـصْـطَـنِـعْ إلّا الـكِـرامَ فـإنّـهـمْ   يُـجازونَ بـالـنَّـعْـماءِ مَنْ كـان مُـنْـعِـما

١٠ ـ بالعِلْمِ والمالِ يبني الناسُ مُلْكَهُمُ   لا يُـبـنـى مُـلْـكٌ عـلـى جَـهْـلٍ وإقـلال

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث السّادس

الأساليبُ الإنشائيّة

ويتضمّن:

- الإنشاءُ لغةً واصطلاحًا.

- قِسْما الإنشاء (غير الطّلبيّ - الطّلبي).

- الإنشاء الطّلبيّ وأنواعه:

١ - الأمر (صِيَغُه - خروج صِيَغِه عن دِلالتها الأصلية).

٢ - النّهي (صيغته - الدّلالات المجازية لصيغته).

٣ - الاستفهام (أدوات الاستفهام: الهمزة - هل - أدواته الأُخَر - الدّلالات المجازيّة لأدوات الاستفهام).

٤ - التّمنّي (صيغته - استخدام ليتَ في الترجّي لغرضٍ بلاغيّ).

٥ - النّداء (صِيَغُ النداء - تنزيل البعيد منزلةَ القريب - تنزيل القريب منزلةَ البعيد - خروج النداء عن دلالته الحقيقية إلى دِلالاتٍ مجازيّة).

- وقوعُ الخَبرِ موقعَ الإنشاء، والأغراضُ البلاغيّة لذلك.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الإنشاءُ لغةً واصطلاحًا:

الإنشاءُ في اللّغة: الإيجادُ والإحداثُ، وكلُّ ما قدْ حدَثَ فقد نشأ.

وفي اصطلاح البلاغيين: ذلك الكلامُ الذي لا يحتمِلُ صِدْقًا ولا كَذِبًا، كقولِكَ: اعْلَمْ، هداكَ الله، أعِنْدَكَ نبأٌ منْ كذا؟.. إلخ. فليس في مقدورِكَ أن تقول لقائل ذلك إنّه صادقٌ أو كاذب.

وفي مستطاع المتأمّل أن يأنسَ الفرقَ بين الإنشاء والخبر اعتمادًا على الدّلالة اللغوية نفسها:

فالإنشاءُ إيجادٌ لصِيغةٍ كلاميّة لا توجد دِلالتُها قبلَ النُّطق بها؛ إذ يقْصِدُ المنشِئُ التّعبيرَ عن دِلالةٍ تحدُثُ بِنُطْقِه بالتّعبير الإنشائيّ. وهذا خلافُ الخبَرِ الذي يصِف حقيقةً يرمي المتكلِّم إلى إعلام المخاطب بها. ومن ثَمَّ يقول البلاغيون في تعريف الإنشاء: «هو ما لا يحصُلُ مضمونُه ولا يتحقّق إلّا إذا تلفّظْتَ به».

ـ قِسْما الإنشاء:

الإنشاء قِسْمان: طَلَبيٌّ، وغيرُ طلبيّ.

أمّا غيرُ الطّلبيّ فهو ما لا يستدعي مطلوبًا غيرَ حاصلٍ وقتَ الطّلب. ويضمّ مجموعةً من الصِّيَغ:

١ ـ المَدْحُ والذمُّ ويكونان بـ«نِعْمَ» و«بِئْسَ» و«حسُنَ»، و«حبّذا» و«لا حبّذا».. إلخ.. وأمثلةُ ذلك من الذّكر الحكيم قولُه سبحانه:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

وتقول: «حبّذا مكّةُ بلَدًا»، و«لا حبّذا دِيارٌ أنتَ فيها مظلومٌ».

٢ ـ العُقُود: وتكثُر في الماضي كقولِهم: بِعْتُ، اشتريتُ، وهَبْتُ، أَعْتقْتُ، قَبِلتُ. وقد تجيء بغيره كقولِهِمْ: «أنا بائعٌ»، «عبدي حرٌّ»، «موافقٌ»... إلخ.

٣ ـ القَسَمُ: ويكون بالواو، والباء، والتاء ـ وبغيرها. كقوله سبحانه:

﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم﴾.

وكقولك: «لعَمْرُكَ ما أخطأتُ في هذا».

٤ ـ التّعجُّبُ: ويكون قِياسًا بصِيغتَيْه المعروفتين «ما أفْعَلَه» و«أفعِلْ به». كقوله سبحانه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، وقوله سبحانه: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾.

ويكون سَماعًا بغيرهما، نحو: «لِلّهِ أنتَ!» و«لِلّهِ درُّه فارسًا». وكقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾. وقوله سبحانه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

٥ ـ الرّجاء: ويكون بحَرْفٍ واحدٍ هو «لعلّ»، وبثلاثة أفعال هي: عسى، حَرَى، اخلَوْلَق.

ومثالُ الرّجاء بـ«لعلّ» قولُ ذي الرُّمّة:

لـعَـلَّ انـحـدارَ الـدَّمْـعِ يُـعْـقِـبُ راحـةً   مِنَ الوَجْدِ، أو يشفي شجِيَّ البَلابلِ

ومثالُه بـ«عسى» قولُه سبحانه: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾.

ومثاله بـ«حرى» قولُ الأعشى:

إنْ يقلْ هُنَّ مِنْ بني عَبْدِ شمْسٍ   فحرًى أنْ يكونَ ذاكَ، وكانا

ومثالُه بـ«اخلولق» قولُك: «اخْلَوْلَقَ الحقُّ أن يظهرَ».

وسوى ذلك من الصِّيغ التي لا يطلب بها شيء.

ولا يهتمّ علماءُ المعاني بالإنشاء غير الطّلبيّ لقلّةِ الأغراض البلاغية المتعلّقة به، ولأنّ جمهرةَ صِيَغهِ أخبارٌ نُقِلَتْ إلى معنى الإنشاء.

ـ الإنشاء الطَّلَبيّ وأنواعُه:

وهو «ما يستَدْعِي مطلوبًا غيرَ حاصِلٍ وقْتَ الطَّلَب»، أو هو «ما يتأخّرُ وجودُ معناه عن وجودِ لَفْظِه». تقولُ لِصَديقِكَ: «ادرُسْ، يا محمَّدُ». وتعبيرك هذا يتضمّنُ صيغتَيْن من صِيَغ الإنشاء الطَّلبي هما: الأمرُ، والنِّداءُ. فقولُكَ «ادرسْ» يستدعي شيئًا مطْلوبًا هو «الدِّراسة»، وهي شيءٌ غيرُ حاصِلٍ عندَ تلفظِّك بطَلبه. وقولُكَ: «يا محمّدُ» يستدعي مطلوبًا هو «إقبالُه» عليكَ وانتباهُه، وهو شيءٌ غيرُ حاصلٍ عند تلفُّظِك بطلبه. وكذا فإنّ مدلولَ كلٍّ من التعبيرَيْن يتأخّر عن وجود لفظه.

وما نبحثُه من أنواع الإنشاء الطلبيّ هنا خمسةٌ هي:

١ ـ الأمر.

٢ ـ النّهي.

٣ ـ الاستفهام.

٤ ـ التمنيّ.

٥ ـ النّداء.

وسنأتي على بحثها مفصَّلةً إن شاء الله تعالى.

١ ـ مبحثُ الامرِ:

الأمرُ هو طَلَبُ حصولِ الفعل على جهة الاستعلاء. ويعني الاستعلاءُ أن يَعُدّ الآمِرُ نفسَه عاليًا، سواءٌ أكان عالِيًا على الحقيقةِ ونفسِ الأمْرِ أم ادّعاءً. ومِثالُ الأمر، بمعنى طلبِ حصول الفعل على جهة الاستعلاء الحقيقيّ، قولُ السيِّد لِعَبْدِهِ: احضُرْ حالًا. ومثالُه على جهة الاستعلاء الادّعائي قولُ العَبْدِ لسيِّده: احضُرْ حالًا، على سبيل التعاظم.

ـ صيغ الأمر:

يتّخذ الأمرُ أربع صِيَغٍ هي:

١ ـ فعلُ الأمر ـ كقوله سبحانه حِكايةً عن اليهود لموسى عليه السّلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

٢ ـ المضارعُ المقرونُ بِلام الأمر ـ كقوله سبحانه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾.

٣ ـ اسمُ فِعْل الأمرِ ـ ومنه «عَلَيْكُم»، وهو اسمُ فعل أمر بمعنى «الزموا»، وقد جاء في قوله سبحانه: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾. و«بَلْهَ» بمعنى «دَعْ»، وقد جاء في قول الشاعر:

تَـذَرُ الـجَـمَـاجِـمَ ضـاحِـيًا هـامَـاتُـهـا   بَـلْـهَ الأكُـفَّ كـأنَّـهـا لـم تُـخْـلَـقِ

و«إيهِ» بمعنى «استَمِرَّ»، كما في قول محمّد الفُراتيّ:

إيْـهِ يـا بُـلْـبُـلَ الـفُـراتِ تَـرنَّـمْ   فـوق شُـطْـآنِـهِ وحَـيِّ الـوُرودَا

٤ ـ المصْدَرُ النّائبُ عن فعل الأمر ـ كقوله سبحانه: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، أي: أحْسِنوا إلى الوالدين إحسانًا، وكقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾، أي: اضربوا الرِّقابَ ضَرْبًا. وكقولك: «صبْرًا في الضَّرّاءِ وشُكْرًا في السَّرّاءِ».

وهكذا فالدِّلالةُ الحقيقيّة للأمر هي: **الطَّلبُ على جهة الاستعلاء.**

ـ خروجُ صِيَغ الأمر عن معناها الأصليّ:

قد تخرُج صِيَغُ الأمر عن معناها الأصليّ وهو «الطّلب على جهة الاستعلاء» إلى معانٍ أُخَر، تُستفاد من سياقِ الكلام وقرائنِ الأحوال. وأهمّ هذه المعاني:

١ ـ الدُّعاء ـ حين تُستعمل الصِّيغةُ في سِياق التضرّع والاستغاثة والاستعانة. ويكون عادةً في خِطاب الأدنى لِمَنْ هو أعلى منزلةً منه، كما في قوله سبحانه حِكايةً عن إبراهيم عليه السّلام: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.

وكقوله سبحانه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾.

ومنه في الشعر قولُ المتنبّي يخاطب سَيْفَ الدَّوْلة:

أخَا الجودِ، أعْطِ الناسَ ما أنتَ مالِكٌ   ولا تُـعـطِـيَـنَّ الـنـاسَ مـا أنـا قـائـلُ

وقولُ عمر أبو ريشة يدعو ربّه أن يُحيل دِيارَ العروبة قفْرًا إن كانت ستعطي الرِّجالَ الشجعان:

رُدَّها قفْراءَ إنْ شئْتَ ومَوْجْها رِمالا
نحنُ نَهْوَاها على الجَدْبِ إذا أعطَتْ رِجالا

٢ ـ الالتماسُ ـ وهو طلبُ حصولِ الفعل حين يصدر عن شخصٍ إلى مُساوِيه قدْرًا ومنزلةً. ومن أمثلته هذه الصّيغُ للأمر التي تتقاطر في خِطابِ أحدِ الشعراء لصاحبته:

يا مِزاجًا مِنْ رِقَّةِ الزَّهرِ والفجـ	ـرِ ومِنْ روعةِ الضُّحىٰ والمسَاءِ
بُلبُليُّ التّغريدِ صوتُك يَسْري	في خَيالي منوَّرًا كالرّجاءِ
شجّعيني على الجهادِ تَرَيْنِي	أُنطِقُ الصَّخرَ أرتقي للسّماءِ
علّميني معنى الطّلاقة والخُلْـ	ـدِ مُقيمًا يا ربّةَ الإيحاءِ
طَهّريني بِفَيْضِ قُدْسِك ما اسْطَعْـ	ـتِ، وأَلْقِي عَلِيَّ ثوبَ الرِّضاءِ
وارفعيني إلى سمائِكِ أُنشِدْ	لَكِ شِعْرًا يموجُ موجَ الضِّياءِ
وأفيضي عَلِيَّ بالوَحْيِ أُبدِعْ	كلَّ لَحْنٍ معبِّرٍ عن وفائي

ويتبيّن المتأمِّلُ بيُسْرٍ أنّ أفعالَ الأمر التي تضمنتْها الأبياتُ خرجت عن دِلالتها الأصليّة، وهي طلبُ حصولِ الفعل على جهة الاستعلاء، إلى معنى الالتماس؛ لأنّ الشاعرَ وصاحبتَه على مستوى واحدٍ من القدْر والمنزلة.

٣ ـ التّهديد ـ حين تُستعمل الصِّيغةُ في سِياق عدم الرضى بالمأمور به، كقوله سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. وقوله سبحانه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾.

ومثلُه في الشعر قولُ الشاعر:

فَطَلِّقْها فلَسْتَ لَها بكُفْءٍ	وإلّا يَعْلُ مَفْرِقَكَ الحُسامُ

٤ ـ التّعجيز ـ حين تُستعمل الصِّيغةُ في سِياق إظهار عَجْز المدّعي، كقوله سبحانه: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، وقوله سبحانه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾.

ومنه في الشّعر قولُ الشاعر:

أروني بخيلاً طالَ عُمْرًا بِبُخْلِهِ وَهَاتُوا كَرِيمًا ماتَ من كثْرةِ البَذْلِ

٥ ـ التَّسْخير ـ حين تُستعمل الصِّيغةُ في سياقٍ يكون فيه المأمورُ مُنقادًا لِما أُمِر به، كقوله سبحانه: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾. فليس في مقدورهم أن يفعلوا ما أُمِروا به، وهو أن يكونوا قِرَدَةً، لكنّهم وجدوا قدرةَ الله سبحانه قد تسلَّطَتْ عليهم وأحالَتْهم إلى قِرَدةٍ صاغرين مطرودين، دون أن يكون لهم سلطانٌ فيما حلّ بهم.

٦ ـ الإهانةُ ـ حين تُستعملُ الصِّيغةُ في سِياق عَدَمِ إقامة وزنٍ للمأمور، كقوله سبحانه: ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾، وقوله سبحانه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾، وقوله سبحانه حِكايةً عن موسى عليه السّلام يخاطِبُ السَّحرةَ: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

وفارقُ ما بين التَّسْخير والإهانة أنّه في التسخير يحصُل الفعلُ، أي صيرورتُهم قِرَدةً، وفي الإهانة لا يحصل، إذ المقصود هو قلّةُ المبالاة بهم.

٧ ـ الإباحة ـ حين تُستعمل الصِّيغةُ في سياقِ توهُّم المخاطَبِ حَظْرَ الإتيانِ بالشيء، كقوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

ومنه في الشّعر قولُ كثيّر عَزّة:

أَسِيئي بِنا أَوْ أَحْسِني لا ملومةٌ لدَيْنا ولا مَقْلِيّةٌ إنْ تقلّتِ

أي: مهما اخترتِ في حقّي من ضروب الإساءة والإحسان فأنا راضٍ به غاية الرّضى، ولن تتفاوت حالي إزاءك في الحالَيْن.

٨ ـ التسوية بين الشيئين ـ حين تُستعمل الصِّيغةُ في سياقٍ يتوهّم المخاطَبُ فيه رُجحانَ أحد الطّرفين المتساويين، كقوله سبحانه:

﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾، وقوله سبحانه: ﴿أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ﴾. فليس المراد في الآيتين الأمر بالصّبر أو الإنفاق، بل بيان أن الصّبْر وعدمَه سِيَّانِ (في الأولى)، والإنفاقَ طوْعًا والإنفاق كرهًا سِيَّانِ في القبول (في الثانية).

ومنها في الشعر قولُ المتنبي:

عِشْ عَزيزًا أو مُتْ وأنتَ كريمٌ   بينَ طَعْنِ القَنا وخَفْقِ البُنُودِ

٩ ـ التَّمَنّي ـ حين تُستعمل الصِّيغة في سياقِ طلبِ أمرٍ لا طمَعَ في حصوله، كقول امرىء القيس:

أَلا أيُّها اللَّيلُ الطَّويلُ ألا انجلِ   بصُبْحٍ، وما الإصْباحُ مِنْكَ بأمثلِ

وقول عنترةَ:

يا دارَ عَبْلةَ بالجِواءِ تكلَّمي   وعِمي صَباحًا، دارَ عَبْلةَ، واسْلَمي

فاللَّيلُ لا يصِحّ أن يُطْلَب منه الانجلاءُ، ودارُ عبلةَ لا يصِحّ أن يطلبَ منها التكلُّم.

١٠ ـ الامتنان ـ حين تُستعملُ الصِّيغةُ في سياق إظهار الفَضْل وإسداءِ الشكرِ، كقوله سبحانه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقوله سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾.

١١ ـ الإكرام ـ حين تُستعمل الصيغة في سياق بيان الأهليّة والاستحقاق، كقوله سبحانه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾.

١٢ ـ الدَّوام ـ حين تُستعمل الصِّيغةُ في مطلوبٍ حاصل عند الطَّلَب، كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾، وقوله سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾. والمعنى: داوِموا على إيمانكم، وأدِمْ علينا هِدايةَ الصِّراط المستقيم.

١٣ ـ الإذنُ ـ حين تُستعملُ الصِّيغةُ في سياقِ بيانِ جوازِ الأمرِ والإذن به. تقول لِمَنْ طرَق البابَ: «ادخلْ»؛ تريد أنّك أذِنْتَ له بالدّخول.

١٤ ـ النُّصح والإرشاد ـ حين تُستعمل الصِّيغة في سياق التعليم وبيان ما ينبغي فِعْلُه، كقوله سبحانه: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾.

ومن الأمر الذي خرج إلى النّصح والإرشاد قولُ ابن الوَرْدِيّ:

واهجُرِ الخمرةَ لا تحفِلْ بِها كيفَ يسْعىٰ في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ

وقول أحمد شوقيّ:

تخلَّقِ الصَّفحَ تَسْعَدْ في الحياةِ بِهِ فالنَّفْسُ يُسْعِدُها خُلُقٌ ويُشقِيها

١٥ ـ الاعتبارُ ـ حين تُستعمل الصِّيغة في سِياق أخْذِ العِظة، كقوله سبحانه: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

١٦ ـ التّعجُّب ـ حين تُستعمل الصِّيغةُ في سياق الاستغراب، كقوله سبحانه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾، وكقولِكَ متعجّبًا: «اسمَعُوا ما يقول فلان!».

١٧ ـ التّلهيف أو التّحسير ـ حين تُستعمل الصِّيغة في سياق النّكاية والتّشفّي بالخَصْم، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ﴾. ومنه في الشعر قولُ جرير:

مُوتُوا مِنَ الغَيْظِ غمًّا في جزيرَتِكُمْ لَنْ تقْطَعُوا بَطْن وادٍ دونَه مُضَرُ

والحقُّ أنّ ثمّةَ معانيَ كثيرةً غير هذه يخرج إليها الأمرُ، ويتبيّنها المتأمّلُ بشيءٍ من إعمال البصيرة.

٢ ـ مبحثُ النَّهي:

وهو طَلَبُ الكفِّ عنِ الفعل استعلاءً. والاستعلاءُ المرادُ هنا ضربان: حقيقيٌّ، كقولِ السيّد لعَبْدِه: لا تفعلْ كذا. وادّعائيّ، كقول العَبْد لِسَيّده: لا تفعلْ كذا، متعاظِمًا.

ـ صيغة النّهي:

للنَّهي صيغةٌ واحدة هي الفعلُ المضارع المقرون بـ «لا» الناهية، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

ـ الدِّلالة الحقيقية لصِيغة النَّهي:

تعني صيغةُ النّهي أصْلاً طلبَ الإقلاعِ عن الفعل طلَبًا جازِمًا مُلْزِمًا. وتدلُّ ـ مع ذلك ـ على الفَوْرِ والاستمرار. فقولُكَ لِمَنْ يشربُ الخَمْر: «لا تشرَبِ الخَمْرَ» يستدعي منه أن يكفّ في الحال ويستمرّ كافاً عنها. ولا يُعَدُّ مُمْتثلاً إذا كفّ في الحال ثم عاد إليها، أو إذا استمرّ يشربُ ثم كفّ عنها بعد ذلك.

ـ الدِّلالاتُ المجازية لصِيغة النّهي:

قد تخرج صِيغةُ النّهي عن دِلالتها الحقيقية، أي طلب الإقلاع عن الفعل طلبًا جازمًا ملزِمًا، إلى دِلالات مجازية يحدِّدها السّياقُ وتدلّ عليها قرائنُ الأحوال. وأهمّ هذه الدلالات:

١ ـ الدّعاء ـ حين تُستعمل الصّيغةُ في سياق التخضّع والاستعطاف، كقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ

أَخْطَأْنَا﴾، وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

٢ ـ الالتماس ـ حين تُستعمل الصّيغةُ في سياق نَهْيٍ صادرٍ من شخصٍ إلى مُساويه سِنًّا ومقامًا، كقوله سبحانه حِكايةً عن هارونَ يخاطب موسى عليه السّلام: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ وكقولك لصديقك: «لا تَدَعِ الحَيْرَةَ تستبدّ بك».

٣ ـ التّهديد ـ حين تُستعمل الصّيغة في سِياق عدم الرضى بالمنهيّ عنه والتّلويح بسوء العاقبة في حال الاستمرار على هذا المنهيّ عنه، كقولِكَ لِمَنْ هو دونَك: «لا تمتثلْ لأمري، وسترى النّتيجة». وكقول القائدِ لأحد جُندِه: «لا تُطِعْ أمْرِي، ولا تفعلْ ما أمرتُك به... إلخ».

٤ ـ الإرشاد ـ حين تُستعمل الصّيغة في سياق التعليم وإسداءِ النُّصح، كقوله سبحانه: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. ومنه في الشّعْر قولُ الشاعر:

إذا ما خلَوْتَ الدّهرَ يومًا فلا تقُلْ خَلَوْتُ، ولكنْ قُلْ عَلَيَّ رقيبُ
ولا تحسبَنَّ اللّهَ يَغفُلُ ساعةً ولا أنّ ما تُخفِيهِ عنهُ يغيبُ

٥ ـ التّيئيس ـ حين تُستعمل الصّيغةُ في سياق قطع الأمل في حصول المراد، كقوله سبحانه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وقوله سبحانه: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

ومنه في الشّعر قولُ المتنبّي يمدح سَيْفَ الدّوْلةِ:

لا تطلُبَنَّ كَرِيمًا بعْدَ رؤيتِهِ إنّ الكرامَ بأسْخاهُمْ يدًا خُتِمُوا

٦ ـ الدّوام ـ حين تُستعمل الصّيغة في النّهي عمّا هو مكفوفٌ عنه، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾،

وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

٧ ـ التمنّي ـ حين تُستعمل الصّيغةُ في نَهْيِ غيرِ العاقل، كما في قول الشاعر:

يا لَيلُ طُلْ، يا نَومُ زُلْ   يا صُبحُ قِفْ، لا تطلُعِ

٨ ـ التّحقير ـ حين تُستعمل الصّيغةُ في سياقِ الحطّ من قَدْر المخاطَب والاستهانة به، كقول الشاعر:

لا تطلُبِ المَجدَ، إنّ المجدَ سُلّمُهُ   صَعْبٌ، وعِشْ مستريحًا ناعمَ البالِ

وكقول الحُطَيئةِ في الزِّبْرِقانِ بن بَدْر:

دَعِ المكارِمَ لا ترحَلْ لبُغيتِها   واقعدْ فإنّكَ أنتَ الطّاعِمُ الكاسِي

٩ ـ التّوبيخ ـ عندما تُستعمل الصيغةُ في النّهي عن أمرٍ يشين الإنسانَ ولا يليق به أن يصدرَ عنه، كقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾. وكقول الشاعر:

لا تنهَ عَنْ خُلُقٍ وتأتِيَ مِثْلَهُ   عارٌ عليكَ إذا فعَلْتَ عَظِيمُ

١٠ ـ الائتناس ـ حين تُستعمل الصّيغةُ في سياقِ بثّ الطمأنينة والأنس، كقوله سبحانه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

١١ ـ بيان العاقبة ـ حين ترِدُ الصّيغةُ في سياق الدّعوة إلى التبصُّر وإدراك حقائق الأمور، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وعلى الجملة، فإنّ المعاني التي يخرج إليها النّهيُ عَصِيّةٌ على التّحديد الدّقيق، ويكفي في إدراكها قَدْرٌ من نفاذِ البصيرة والذوقِ المميِّز.

أسئلةٌ وإجاباتها حول الأمر والنّهي (١):

- حدّد دِلالةَ صِيَغِ الأمر والنهي فيما يأتي:

١ - قال سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

٢ - يا دارَ عَبْلَةَ بالجِواءِ تكلّمي   وعِمِي صَباحًا، دارَ عبلةَ، واسْلَمي

٣ - أَسِيئي بِنا أوْ أحسِني لا ملومةٌ   لدَيْنا، ولا مَقْلِيّةٌ إن تقلَّتِ

٤ - قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

٥ - يا لَيْلُ طُلْ يا نومُ زُلْ   يا صُبْحُ قِفْ لا تطلُعِ

٦ - لا تُعانِدْ مَنْ إذا قال فَعَل.

٧ - عِشْ ما بَدا لَكَ سالِمًا   في ظلِّ شاهقةِ القصورِ

٨ - قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾.

٩ - قال سبحانه: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

١٠ - قال سبحانه: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾.

الإجابات:

١ - جاء الأمرُ فيه للإرشاد.

٢ - جاء الأمرُ فيه للتّمنيّ.

٣ - جاء الأمرُ فيه للتّسوية.

٤ - جاء النّهيُ فيه للدّعاء.

٥ - جاء النّهيُ فيه للتمنيّ.

٦ - جاء النّهيُ فيه للإرشاد.

٧ ـ جاء الأمرُ فيه للدّعاء.

٨ ـ جاء الأمرُ فيه لطلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء.

٩ ـ جاء الأمرُ فيه للتسوية.

١٠ ـ جاء الأمر فيه للتوبيخ.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول الأمر والنّهي (٢):

ـ حدِّد دِلالةَ صِيَغِ الأمر والنّهي فيما يأتي:

١ ـ ترفّقْ أيُّها المَوْلىٰ عَلَيْهِمْ فإنّ الرِّفْقَ بالجاني عِتابُ

٢ ـ اتّخذْ لنفسِكَ سُلَّمًا في السَّماء.

٣ ـ أرىٰ العَنْقاءَ تَكْبُرُ أن تُصادا فعانِدْ من تُطيقُ لَهُ عِنادا

٤ ـ أَعَيْنَيَّ جُودا ولا تجْمُدا ألا تبكيانِ لِصَخْرِ النّدىٰ

٥ ـ أريني جَوادًا ماتَ هُزْلًا لعلّني أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلًا مُخَلَّدا

٦ ـ لا تقمْ لأداءِ واجبكَ.

٧ ـ قال سبحانه: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٨ ـ ازبأْ بنفسِك أنْ ترعىٰ مع الهَمَل.

٩ ـ لا تُبارِحْ أيُّها الشَّبابُ.

١٠ ـ قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾.

الإجابات:

١ ـ جاء الأمرُ فيه للدّعاء.

٢ ـ جاء الأمرُ فيه للتّعجيز.

٣ ـ جاء الأمر فيه للإهانة.

٤ ـ جاء النّهيُ فيه للتمنّي.

٥ ـ جاء الأمرُ فيه للتّعجيز.

٦ ـ جاء النّهيُ فيه للتهديد.

٧ ـ جاء الأمرُ فيه للتّعجيز.

٨ ـ جاء الأمرُ فيه للإرشاد.

٩ ـ جاء النّهي فيه للتّمني.

١٠ ـ جاء الأمرُ فيه للدّعاء.

٣ ـ مبحث الاستفهام:

الاستفهامُ ـ لُغةً ـ طَلَبُ الفَهْم. واصطلاحًا: طلَبُ العِلْمِ بشيءٍ لم يكن معلومًا من قبلُ، بوساطةِ واحدةٍ من أدواته.

ـ أدوات الاستفهام:

للاستفهام إحدى عشرة أداةً هي: الهمزةُ ـ هَلْ ـ مَا ـ مَنْ ـ متىٰ ـ أيّانَ ـ أينَ ـ كيفَ ـ أنّى ـ كَمْ ـ أيّ.

وهذه الأدواتُ على ثلاثة أقسامٍ من حيث ما يُطْلَب بها:

١ ـ ما يُطْلَبُ به التصوّر تارةً، والتّصديقُ أخرى ـ وهو الهمزة.

٢ ـ ما يُطْلَبُ به التّصديقُ فحَسْبُ ـ وهو «هَلْ».

٣ ـ ما يُطْلَبُ به التصوّر فحسب ـ وهو بقيةُ أدواتِ الاستفهام.

وسنتناول كلًّا منها على نحوِ مفصَّلٍ إن شاء الله.

ـ الهمزة ـ ولها حالانِ:

أوّلًا ـ أن يُطلبَ بها تصوُّرُ المفرَدِ؛ كإدراكِ المسندِ إليه وحْدَه أو المسند وحْدَه. تقول في طلَب تصوُّرِ المسند إليه: أَعَلِيٌّ زارَكَ أم أحمَدُ؟ أنتَ ههنا تعرِفُ أنّ أحدَهما زَار ولكنّك لا تعرف أهو عليّ أم أحمدُ؛ فتطلبُ بالسؤالِ بالهمزة تعيينَه وتصوّرَه، فتُجاب حينئذ بأنّه عليٌّ ـ مثلًا. وتقولُ في طلَبِ تصوّر المسند: أشاعِرٌ عليٌّ أَمْ كاتبٌ؟ وأنت هٰهنا تعرف أنه يتّصف بإحدى هاتين الصّفتين: الشعر والكتابة، ولٰكنك لا تعرف تحديدًا أهي الشّعرُ أم الكتابة؛ فتطلب بالسؤال بالهمزة تعيينَ

الصِّفة، فتجاب بأنه: شاعِرٌ، مثلاً. وهكذا يظهرُ أنّ **التصوّرَ يعني إدراكَ المُفردِ وتعيينَه، ولذا يُجاب بالتعيين.** وفي مقدورِنا القولُ إنّ التصوّرَ هو طلَبُ معرفةِ المفردِ وتحديدِه، ويُتَوصّل إلى ذلك باستعمال الهمزة.

وحُكْمُ همزةِ التصوّر هٰذه أن يليها المسؤولُ عنه بها. والمفردُ الذي يُطْلَب تصوّرُه وتحديدُه بالهمزة قد يكون:

١ ـ مسنداً إليه، كالمثال السّابق، وكقولِكَ: أَأَنْتَ نظَمْتَ هذه القصيدةَ أم أخوك؟ أنت تعرفُ أنّ هذه القصيدة قد نظمها ناظمٌ، ولكنّك لا تعرف تحديدًا أنّ ناظمَها هو مخاطَبُك أم أخوه؛ ولذٰلك تستعمل همزةَ التصوّر لِطَلب تحديد هذا الناظم الذي جاء هنا مسندًا إليه (مبتدأ)، وجاء بعد الهمزة.

٢ ـ أو مسندًا، كقولِكَ: أمدرِّسٌ أنتَ أَمْ قاضٍ؟ وأنت تعرف أنه متّصفٌ بإحدى الصّفتين، لٰكنّك لا تعرف تحديدًا أيّ الصّفتين له، فتستعمل همزة التصُّور لطَلَبِ معرفةِ المفرد (كونه مدرِّسًا أو قاضيًا) وتعيينه.

٣ ـ أو مفعولًا به كقولِكَ: «أَحَلَبَ زُرْتَ أَمْ دِمَشْقَ؟ تعرف أنت أن الزّيارة منه حاصلةٌ لا محالةَ، لكنّك لا تعرفُ تحديدًا أزار حلبَ أم دمشقَ، ومن هنا تستعمل همزةَ التصوّر تطلبُ بها تحديدَ المفرد (المكان المزور: حلب، دمشق).

٤ ـ أو حالًا، كقولِكَ: «أَمُبْتَسِمًا تلقّاكَ أم متجهِّمًا؟» تعرف أنت أنّ الشّخص تلقّى مخاطَبَك في إحدى حالين: مبتسمًا، مشرقَ الوجه ـ أو متجهِّمًا، منقبِضَ الأسارير. وابتغاء أن تتصوّر الحالَ التي تلقّاه فيها تستعمل همزةَ التصوّر لتطلبَ تعرّفَ المفرد (كونه مبتسمًا أو متجهّمًا).

٥ ـ أو ظرْفًا كقولك: «أَصَباحًا وصَلْتَ أَمْ ظُهرًا؟». تعرف أنّ

مخاطبَك وصلَ إمّا صباحًا وإمّا ظُهرًا، وابتغاء تصوّرِ أيّ منهما وتحديدِه استعْمَلْتَ همزةَ التصوّر؛ الأداةَ المُعَدّة لهذا الغرض.

وقد لاحظْتَ في الأمثلة المتقدّمة جميعًا مجيءَ المسؤول عنه بعد الهمزةِ التي للتصوُّر، ومجيءَ مُعَادلٍ لهٰذا المسؤول عنه بعد «أَمْ» غالبًا. وتسمّى «أم» هذه: متّصلة. ويجوز حذفُ المُعادِل.

ثانيًا ـ أن يُطْلَبَ بالهمزة التّصديقُ بِنِسْبةٍ بين شيئين ثُبوتًا أو نفْيًا. ومعنى التّصديقِ انقيادُ الذّهْن وإذعانُه لوقوع نِسْبةٍ تامّة بين شيئين. فعندما تقول: «أجَاءَ أخوكَ؟» لا تسألُ عن ذاتِ المجيء، ولا عن ذاتِ الأخ، بل تسألُ عن نسبةِ المجيء إلى الأخ: هَلْ حصل منه هٰذا المجيءُ. ونِسْبةُ المجيء إلى الأخ هٰذه تردَّد عقْلُك بين أن تكون محقَّقةً في الواقعِ الخارجيّ أو غير محقَّقة. ويكثر دخولُ همزة التصديق على الجُملة الفعلية كقولِكَ: أتقرأُ القِصَصَ؟ أتُحِبّ السّفَرَ؟ أتحافظُ على الصّلواتِ الخَمْسِ؟. ويقلّ دُخولُها على الجملة الاسمية كقولِكَ: «أعليّ شاعرٌ»، حيث تسألُ عن نسبة الشعر إليه، حاصلةً أو غير حاصلة. ويجابُ التَّصْديقُ بـ «نعم» أو «لا»، ولا يلي المسؤولُ عنه الهمزةَ؛ وليس لها لفظٌ خاصّ يمكن أن يلي الهمزة.

وحاصلُ القولِ أنّ **الهمزةَ تكونُ للاستفهامِ عن التّصوُّر والاستفهامِ عن التّصديق؛ والاستفهامُ عن التصوّر يكون عندَ العِلْم بثُبوت أَصْلِ الحُكْم لأحد الشيئين والتردّد في تعيين واحدٍ منهما؛ والاستفهامُ عن التّصديق يكون عند الجَهْلِ بثبوت أَصْلِ الحُكْم وتردّد الذهن في النسبة (الحكم) بين ثُبوتها ونفيها.**

ـ هَلْ ـ ولها صِفتانِ:

١ ـ اختصاصُها بطلَب التصديق بنسبةٍ بين شيئين ثُبوتًا أو نفيًا؛ بمعنى أنّ السّائلَ بها ينشُد معرفةَ حصولِ النسبة أو عَدَمِ حصولها.

وتدخل على الجملتين، الفعلية كقولِكَ: «هل زارَكَ أحمدُ؟»، والاسميّة، كقولِكَ: «هل أحمدُ زائرُك؟». ويذهب البلاغيّون إلى أنّ «هَلْ» لمّا كانت إنمّا تجيء لطلب التّصديق امتنع أن تأتي في كلّ تركيب يُذكَرْ فيه المُعادِل، كقولكَ: «هل زارَك أحمدُ أَمْ عليّ»؛ لأنّ ذِكْرَ المعادل يفيد عِلْمَ السّائل بثُبوت أَصْلِ الحُكْم، وهو وقوعُ الزيارة، ويُطْلَب تعيينُ الزائرِ أهو أحمدُ أم عليّ، و«هَلْ» تفيد جَهْلَ السائل بأصْل الحُكْم (وهي لِطَلَب التّصديق به)؛ ومن ثم فالجمعُ بين ذِكْرِ المعادل (المفيد عِلْمَ السّائل بثبوت أَصْلِ الحُكْم) وهَلْ (المفيدة جهلَ السّائل بأصْلِ الحُكْم) في تركيبٍ واحد يُفضي إلى التناقض. ويقبُح استعمالُ «هَلْ» في كلّ تركيب يقدَّم فيه المعمولُ على العامِل كقولِكَ: «هَلْ أحمدَ قابلْتَ؟»؛ لأنّ تقديمَ المعمول على العامل يعني غالبًا تخصيصَ العاملِ بالمعمول؛ فقولُكَ: «هَلْ أحمدَ قابَلْتَ؟» يفيد أنّك مُقِرٌّ بوقوع المقابلة فيها وأنّها حصَلَتْ حقًّا، لكنّك تسأل عن الشّخص الذي خصّه مخاطَبُك بالمقابلة. فتقديمُ المفعول هنا «أحمد» يفيد التَّصديقَ بأصْل الحكم (حصول المقابلة). و«هَلْ» مخصّصةٌ لِطَلَبِ التصديق بأَصْل الحُكْم. وهٰكذا يجتمع لدينا في تركيبِ واحدٍ ما يفيد التصديقَ بِأَصْل الحُكْم (التقديم) وما يُسْأَلُ به عن أَصْلِ الحُكْم (هَلْ)، ويؤدّي ذٰلك في النّهاية إلى طلَبِ حصولِ الحاصلِ والاستفهام عن أمرٍ تُقِرّ بأنّك تعرفُه وهو ضربٌ من العَبَثِ.

٢ ـ تَخْليصُها المضارعَ للاستقبال وَضْعًا، بعد أن كان محتمِلاً للاستقبال والحَالِ، ومن ثم لا يصِحُّ أن يُسأل بها عن الفِعْل الواقع في الماضي أو الحال، فلا يجوز أن تقول: «هَلْ تَضرِب زيدًا وهو أخوك؟». فمِثْلُ هذا الاستفهام توبيخٌ، ويكون التّوبيخُ على فعلٍ حَصَل في الماضي أو يحصل الآن. ولأنّها مختصّةٌ بالتصديق وتُخصِّص المضارعَ للاستقبال اختصّت بدخولها على الفعل لفظًا أو تقديرًا. وقد

تدخلُ على الجُمْلةِ الاسميّة لغرضٍ بلاغيّ هو تصويرُ ما سيحصُل مستقبلاً في صُورةِ الحاصل؛ اهتمامًا بشأنه وتدليلاً على شِدَّة الرغبة فيه. تقول: «هَلْ أيّامُنا الخَوالي عائدةٌ؟». تريد: هل ستعود أيّامُنا الخوالي فيما بَعْدُ؟؛ لكنّه لمّا كانت عَوْدتُها مما يُحِبُّه القائلُ ويحرِص عليه كثيرًا أُبرِزَتْ في صورة الحاصل الآن. وهكذا عُبِّر بالجملة الاسمية؛ لأنها أدلُّ على طلبَ حُصول عودة الأيام الخوالي.

ـ نَوْعا «هَلْ»:

«هَلْ» نوعانِ: بسيطةٌ ومركَّبةٌ:

فأمّا البسيطةُ فهي الّتي يُستفهَمُ بها عن وجودِ الشيء في نفسه، أو عدم وجوده، كقولِنا: «هَلْ الحَرَكةُ موجودةٌ؟» أو «هَلْ هي غيرُ موجودة؟» ـ وكقولِنا: «هَلِ العَنْقاءُ موجودة؟» أو «هَلْ هيَ غيرُ موجودة؟». وسمّيت هذه بسيطة لأنّه يُلْحَظُ فيها شيءٌ واحدٌ غير الوجود هو «الحركة» في المثال الأول، و«العنقاء» في الثاني.

وأمّا المركَّبةُ فهي التي يُستفهَم بها عن وجودِ شيءٍ لشيء أو لا وجوده له، كقولِنا: «هَلِ الحركةُ دائمةٌ؟» أو «هَلْ هي غيرُ دائمة؟» وكقولِكَ: «هَلِ الشّمسُ طالعةٌ؟» أو «هَلْ هي غيرُ طالعةٍ؟». وقد سُمّيت هذه مركّبةً؛ لأنّه يُلْحَظ فيها شيئانِ غير الوجود، هما «الحركة» و«الدّوام» في المثال الأوّل، و«الشّمس» و«الطّلوع» في الثّاني. **وفارِقُ ما بينَ الاثنتين أنّنا في «البَسِيطة» نسألُ عن وجودِ الشيء نفسِه أو عدم وجوده؛ وفي «المركّبة» نفترضُ أنّ الشيءَ موجودٌ مسلّمٌ بوجوده، ونحن نسألُ عن صفةٍ من صفاته: هل هي موجودةٌ أم لا.** وعلى الجملة فإنّ مطلوبَ «هَل» البسيطة هو التصديقُ بوجود الشيء فحَسْبُ، ومطلوب المركّبة هو التصديقُ بوجودِ الشيء ووجودِ شيءٍ له.

ـ **أدواتُ الاستفهامِ الأخَر:**

تشتركُ أدواتُ الاستفهام الأُخَرُ في أنّها تكون لطلبِ التصوّر، أي معرفةِ المفرد، فحَسْبُ. وتتباينُ في أنّ المطلوبَ تصوُّرُه بكلٍّ منها مختلِفٌ عن المطلوبِ تصوّرُه بالأخرى. وإليكَ بيانَ ذلك:

١ ـ مَا ـ ويُستفهَمُ بها عن غير العاقِل، وهو أحَدُ أمرين:

أ ـ شرْحُ الاسمِ وإيضاحه، كقولِكَ: «ما الفَدَوْكَسُ؟» طالبًا أن يُشرحَ هذا الاسْمُ ويوضَح مفهومُه؛ وتجابُ بلفظٍ أشهرَ وأنتَ به أعرفُ.

ب ـ ماهِيَّةُ المُسمّى، أي حقيقتُه وجوهرُه، كقولِكَ: «مَا الحَرَكةُ؟» طالبًا أن يُبيِّن لكَ حقيقةُ مسمّى هٰذا اللّفظ، فتجابُ بإيراد ذاتيّاته وخصائصه الدّقيقة. قال سبحانه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟. قال العلاّمةُ التَّفْتَازانِيُّ: «والفرقُ بينَ المفهومِ من اللّفظ بالجُمْلةِ، وبين الماهِيّة التي تُفهَم من الحدّ (التعريف) بالتّفصيل غيرُ قليل؛ فإنّ كلَّ مَنْ خُوطب باسْم فَهِم فهمًا ما، ووقفَ على الشيء الذي يدلّ عليه الاسمُ إذا كان عالِمًا باللّغة؛ وأمّا الحَدُّ فلا يقِفُ عليه إلّا المُرْتاضُ (المدرَّب) بصِناعة المَنْطق».

٢ ـ مَنْ ـ ويُسألُ بها عن العاقلِ، فيُجاب بما يُشَخِّصه ويعيِّنُه؛ كأنْ يُقال: «مَنْ صَقْرُ قُرَيشٍ؟»، و«مَنْ قائدُ معركةِ حِطِّينَ؟»، فيجاب باسمه الخاصّ، فيُقال: «عبدُ الرحمٰنِ الدّاخلُ» في إجابة الأول، و«صَلاحُ الدِّين الأيّوبيُّ» في إجابة الثّاني. وقد يُجاب بوَصْفِه المعيَّن. كأن يُسْأل: «مَنْ أتاكَ بهذا الكتابِ؟» فيُجاب: «الرَّجُلُ الضّريرُ الذي رأيتَه عندي البارحةَ». قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾. وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾؟

٣ ـ مَتَىٰ ـ ويُسأل بها عن الزّمان ـ ماضيًا كان أو مستقبلًا ـ تقولُ: «متىٰ جئتَ؟» ـ فتُجاب: «البارحةَ». وتقولُ: «متى تجيءُ؟» ـ فتُجاب: «غدًا». قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟، وقال سبحانه: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟

٤ ـ أيّانَ ـ ويُسألُ بها عن الزَّمان المستقبَلِ خاصّة، وتردُ كثيرًا في مواضعِ تعظيمِ المسؤول عنه، كقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؟، وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾؟

٥ ـ أينَ ـ ويُسأل بها عن المكان، كقوله سبحانه: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾؟، وقوله سبحانه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟

٦ ـ كَيفَ ـ ويُسأل بها عن الحَال، كقوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾؟ ومِثالُها في الشّعر قولُ الشاعر:

وكَيفَ أخَافُ الفَقْرَ أو أُحرَمُ الغِنىٰ ورأْيُ أميرِ المُؤمنينَ جميلُ

٧ ـ أنّى ـ وتُستعمل تارةً بمعنى «كَيفَ»، فيُسْأَل بها عن الحال، ويجب أن يكون بعْدَها فعلٌ، كقوله سبحانه: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ وتُستعمل تارةً بمعنى «مِنْ أينَ» فيُسأل بها عن المكان، كقوله سبحانه: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟، على معنى: مِنْ أينَ لكِ هٰذا الرّزقُ؟. وتُستعمل بمعنى «متى» فيُسأل بها عن الزمان، كأن تقول: «أنّىٰ رأيتَ أحمدَ؟» و«أنّى تسافرُ؟». على معنى متى.

٨ ـ كَمْ ـ ويُسأل بها عن العَددِ المُبْهَم، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

٩ ـ أيُّ ـ ويُسألُ بها عمّا يميِّز أحدَ المتشاركَيْن في أمرٍ يعمُّها،

كقوله سبحانه: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾؟، و﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾؟. وتستمدّ دِلالتَها مِمّا تضاف إليه، فتفيدُ المعنى الذي تفيدُه أدواتُ الاستفهام من السّؤال عن العاقل، وغير العاقل، والزّمان، والمكان، والحال، والعدد.

ـ الدِّلالاتُ المجازيّةُ لأدوات الاستفهام:

يجدُرُ الانتباهُ إلى أنّ أدوات الاستفهام في معانيها الأصلية (طلب العِلْم بشيءٍ لم يكنْ معلومًا من قَبْلُ) أمرٌ لا ينتمي إلى البلاغة ولا يتجاوز الاستعمالَ النّحويَّ الصّرف. أمّا المُهِمُّ بشأن البلاغة هٰهنا فهو أنّ هذه الأدواتِ قد يُستفهَم بها عن الشّيء «مع العِلْم به»، وهٰكذا يكون لها دِلالاتٌ مجازيةٌ تُفهَم من سِياقِ الكلام بوَسَاطةِ قرائنِ الأحوال. وأهمُّ هذه الدِّلالات:

١ ـ الأمرُ ـ كما في قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ أي: انتهوا. وقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ أي: أَسْلِموا. وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ أي: تذكّرْ واتّعِظْ.

ومن الاستفهام الذي خرَجَ إلى معنى الأمرِ وورد كثيرًا في الذِّكر الحكيم صِيغةُ «أرأيتَ» بمعنى: «أَخْبِرْني». كقوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ (٣٤)﴾؟. أي: أَخْبِرْني عن هذا الذي أعطى قليلاً ثم أَكْدى (توقّف عن العطاء). وقوله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؟، على معنى: أَخْبِرْني أيُّها السّامِعُ عن حال هذا الرجل.

٢ ـ النّهي، كقوله سبحانه: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾؟ أي: لا تخشَوْهُم؛ فالله وحْدَه الجديرُ بأن يُخشى. ومِنه قولُ الشاعر:

أَتَحْسَبُ أنّكَ جِرْمٌ صغِيرٌ   وفِيكَ انطوى العالَمُ الأكبرُ

أي: لا تَحْسَبْ.

وقولُ الآخر:

أتَخالُنِي أرضىٰ الهَوانَ؟ فحاذِرِ واسْلَمْ بنفسِكَ مِنْ أبيٍّ قادرِ

أي: لا تَخَلْني أرضىٰ الهوانَ، فحاذِرْني.

٣ ـ النّفي، كما في قوله سبحانه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾؟ أي: ما جزاءُ الإحسانِ إلّا الإحسانُ. وقوله سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؟

أي: لا أحدَ يشْفَعُ عندَه إلّا بإذنه. ومنه قولُ المتنبّي:

ومَنْ لَمْ يعْشَقِ الدُّنيا قديمًا؟ ولكِنْ لا سبيلَ إلى الوِصالِ

أي: لا أحدَ لم يعشقِ الدُّنيا قديمًا.

وقوله:

يَفْنىٰ الكلامُ ولا يُحِيطُ بفَضْلِكُمْ أيُحِيطُ ما يَفْنى بما لا ينفَدُ

أي لا يُحيط ما يفنىٰ بما لا ينفَدُ.

٤ ـ التّشويق، كقوله سبحانه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟. يشوّقهم البارىءُ سبحانه إلى تِجارةٍ رابحةٍ هي التمسّكُ بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ. وكقوله سبحانه حِكايةً عن إبليس عندما أخذ يوسوِسُ لآدمَ عليه السّلامُ ويُغريه بالأكل من الشّجرة التي نهاه الله تعالى عن الاقتراب منها: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾؟

٥ ـ التعجّب، كقولِه سبحانه حِكايةً عن سُلَيمانَ عليه السّلامُ: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؟. وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾؟

ومنه في الشّعر قولَ المتنبّي يخاطِبُ الحُمّى:

أَبِـنْـتَ الـدَّهْـرِ عِـنْـدي كُـلُّ بِـنْـتٍ   فـكَـيْـفَ وصَـلْـتِ أنـتِ مِـنَ الـزِّحـامِ؟

وقولُ المرحوم عُمَرَ أبي ريشة:

مــا أنـــتِ يـــا دُنْـــيـــا ومَـــا   أبـــقَـــيْـــتِ لِـــلأَحْـــلام مِـــنّـــي؟
تَـــطْـــوِيـــنَ بِـــالإغْـــراءِ أيَّـــــامـــي وأطْـــويـــهـــا تـــمـــنّـــي

وقولي في المغترَب[1]:

مَـالِـي أغـالِـبُ مِ الأحْـزانِ أزمَـضَـهـا: هَجْرَ الحَبيبِ وبُعْدَ الدّارِ عن بَلَدِي

٦ ـ التّنبيه على ضلال، كقوله سبحانه: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟. والمرادُ تنبيهُهُم على أنهم ضالّون وأنّ العذاب مُدْرِكُهم حيثما كانوا. وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾؟

٧ ـ التمنّي، كما في قوله سبحانه: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ بمعنى: لَيْتَ لنا شفعاء؛ لأنهم يعلمون أن لا شفيعَ لهم. ومنه في الشّعر قولُ سُلطانِ العاشقين ابن الفارض:

أيْ لَـيـالـي الـوَصْـلِ، هَـلْ مِـنْ عـودةٍ   ومِـنَ الـتّـغْـلـيـلِ قـولُ الـصّـبِّ أيْ

٨ ـ التهكّم، كقوله سبحانه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؟ كان شُعَيْبُ عليه السّلامُ كثيرَ الصّلاة، فإذا رآه قومُه يصلّي تضاحكوا، وقالوا له ذلك؛ قصْدًا إلى السّخرية والتهكّم، لا إلى حقيقة الاستفهام. وكقوله سبحانه حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السّلامُ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟. وكقوله سبحانه: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾؟.

---

(١) عيسى العاكوب.

٩ ـ الاستِبْطَاء، كقوله سبحانه: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟. ومنه في الشّعر قولُ الشّاعر:

حتّى متى أنتَ في لَهْوٍ وفي لَعِبٍ والمَوْتُ نحْوَكَ يَهْوِي فاتحًا فَاهُ؟

وقولُ الآخرِ يشتكي طولَ التّرحال:

حتَّامَ أبقى دائِرًا حَوْلَ البسيطةِ كالقَمَرْ؟

وقولُ الشَّيخ عدنانَ حقّي:

فإلى متى الآمالُ يسْفَعُها اللّظى في سِجْنِها مِنْ دَهْرِنا الغَدّارِ؟

١٠ ـ الاستبعاد ـ وهو اعتدادُ الشيء بعيدًا حِسًّا ومعنًى، كقوله سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾؟ أي: لا يمكن أن يذَّكّروا ويعتبروا ويرجعوا إلى الحقّ. وكقوله سبحانه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

ومنه في الشعر قولُ الشاعر:

أنّى يكونُ، ولَيْسَ ذاكَ بكائنٍ: لِبَنِي البَناتِ وِراثةُ الأعمامِ

وقولُ البَعِيثِ يهجو جريرًا:

أترجو كُلَيْبٌ أن يَجيءَ حَدِيثُها بخَيْرٍ وقدْ أعْيَا كُلَيبًا قديمُها

١١ ـ التَّحقير، كقوله سبحانه حِكايةً عن المشركين: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؟. ومنه في الشّعر قولُ أحدِهم:

ومَنْ أنتُمْ؟ ـ إنّا نَسِينا مَن انتُمْ ورِيحُكُمْ مِنْ أيِّ رِيحِ الأعاصِرِ؟

١٢ ـ التّكثير، كقولِه سبحانه: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾؟. المرادُ أنّ ما أتاهم من الآيات البيّنات كثيرُ العدد، لكنّهم مع ذلك مكابرون.

ومنه في الشّعر قولُ المعَرّيّ:

صَاحِ، هٰذي قُبورُنا تملأُ الرُّحْـ ـبَ، فأينَ القُبورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ؟

وقول الشاعر يخاطب العربَ:

كَمْ تُظْلَمونَ ولَسْتُمْ تَشْتكونَ وكَمْ تُسْتغضَبونَ فلا يبْدُو لَكُمْ غضَبُ

١٣ ـ التّعظيم، كقوله سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؟

ومنه في الشعر قولُ الشّاعر:

أَضَاعونِي وأيَّ فتًى أضَاعوا لِيومِ كَرِيهَةٍ وسَدادِ ثَغْرِ؟

أي: أضاعوا فتًى عظيمَ الشأن رفيعَ المنزلة.

وقولُ الآخر:

إذا القومُ قالُوا: مَنْ فتًى؟ ـ خِلْتُ أنّني عُنِيتُ، فلَمْ أكْسَلْ ولَمْ أتبلّدِ

١٤ ـ التّسوية، كما في قوله سبحانه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. الاستفهامُ هنا للدّلالة على أنّ إنذارَ الرسول ـ عليه الصّلاةُ والسّلامُ ـ وعدمَه سواءٌ عند هؤلاء. وكقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟. أي: قرْبُ ما توعدونَ وبُعْدُه سواءٌ عندي في عدم الدِّراية. وكقوله سبحانه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

أيْ: جَزَعُنا وصبْرُنا سواءٌ علينا فلا محيصَ لنا.

ومنه في الشّعر قولُ المتنبي:

ولَسْتُ أُبالي بَعْدَ إدراكِيَ العُلا أكانَ تُراثًا ما تناولْتُ أَمْ كَسْبَا

أي: كونُه تُراثًا أو كسْبًا سواءٌ عندي ولا أُبالي بذٰلكَ بعد إدراكي العلا.

١٥ ـ التّقريرُ، وهو حَمْلُ المخاطَبِ على الإقرار بما يعْرِفُه إثباتًا

أو نفيًا؛ لغرضٍ من الأغراض، كقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؟ أي: لقَدْ شرَحْنا لك صدرَك. وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾؟ أي: لقد ربيّناكَ فينا وليدًا.

ويُشتَرَطُ أن يُذكَر بعد الهمزة خاصّةً ما حُمِل المخاطبُ على الإقرار به. وقد جاءت الهمزةُ للتقرير بالفاعل في قوله سبحانه: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾؟. قال عبْدُ القاهر الجُرْجانيّ: «لا شُبْهةَ في أنّهم لم يقولوا ذلك له، عليه السّلام، وهم يريدون أن يُقِرَّ لهم بأنّ كَسْرَ الأصنامِ قد حصَلَ، ولكنْ أنْ يقرَّ بأنه مِنْهُ كانَ».

وقد تأتي الهمزةُ للتقرير بالمفعولِ كقولك: «أَنَحْوًا قرأتَ؟»، وقد تأتي لغير ذٰلك.

١٦ ـ الإنكار، ويكون أيضًا بأن يليَ المنكَرُ الهمزةَ، كقوله سبحانه: ﴿قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾؟ أي: ما بعث الله بشَرًا رسولًا. وقوله سبحانه: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾؟ أي: لم يصْطَفِ البناتِ على البنين. وقد يرِدُ الإنكارُ للتّوبيخ على أمرٍ وقَعَ في الماضي، ومعناه حينئذٍ: «ما كانَ ينبغي أن يكونَ»، كقولِكَ: «أعصَيْتَ ربَّك؟» أي: لِمَ كان العِصْيانُ وما كان ينبغي أن يقع؛ أو يقع في المستقبل، ومعناه حينئذٍ «لا ينبغي أن يكون» كقولِكَ: «أتَعْصِي ربَّك؟»، ومعناه حينئذ: لا ينبغي أن يكون منك عصيانٌ.

وقد يرِدُ الإنكارُ للتكذيبِ في أمرٍ مضى، فيكون بمعنى: «لم يكنْ»، كقوله سبحانه: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾؟، أي: لم يَفعل ذلك؛ أو في أمرٍ يأتي، فيكون بمعنى «لا يكون»، كقوله سبحانه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾؟ أي: أنُكرِهُكم على قبُول الحُجّة وأنتم كارهون لها. والمعنى في هٰذه الحال: لا يكون منّا هٰذا الإلزامُ. ومن هذا الأخير في ميدان الشّعر قولُ الشاعر:

أَأَتـرُكُ، إنْ قـلّـتْ دَراهِـمُ خـالـدٍ، زِيـارَتَـهُ، إنّـي إذًا لَـلَـئـيـمُ

أي: لا يكون منّي هذا التّركُ.

والمنكَرُ الّذي يلي الهمزةَ قد يكون:

ـ الفعل، كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟. فالمنكَرُ هنا هو الفِعْلُ نفسُه؛ أي اتّخاذُ الأصنامِ آلهةً. ومنه في الشعر قولُ امرىء القيس:

أَيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضاجِعي ومَسْنُونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوالِ

أي: لا يكون قَتْلي وذٰلكَ السَّيْفُ البتّارُ وتِلْكَ السِّهامُ المسنونةُ سِلاحي الذي لا يفارقني.

ـ الفاعل، كقوله سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ يُنْكِرُ عليهم أن يكونوا مَنْ بيدِه تقسيمُ رحمةِ الله سبحانه وإعطاؤها لِمَنْ يشاء؛ فهذه الرّحمة من شأنِه وحْدَه سبحانه، وهو المتصرِّف بها.

ـ المفعول، كقوله سبحانه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾؟، أي: لا يكون اتّخاذي غيرَ الله وليًا. وقوله سبحانه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾؟

١٧ ـ التّهويل، ومِثالُه ما جاء في قراءة ابن عبّاس للآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ من فِرْعَوْنَ﴾، بلفظ الاستفهام ورَفْع «فِرْعَوْنُ». يقول بعضُ البلغاء إنّ المُراد هنا أنه لمّا وصَفَ اللّهُ تعالى العذابَ بالشدّة والفظاعة زادَهم تهويلاً بقوله: «مَنْ فِرْعَوْنُ؟» أي: هَلْ تعرِفون مَنْ هو في فرْطِ عُتُوِّه وشدّة شكيمته فما ظنّكم بعذابٍ يكونُ المعذَّبُ به مِثْلَه؟ ـ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ زيادةً لتعريف حاله وتهويل عذابه.

١٨ ـ الوعيد، أو «التهديد» ـ كقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟. وكقولِكَ للمُسِيء: «أَلَمْ أؤدِّبْ فُلانًا؟»، إذا كان ذا عِلْمٍ بذلك التأديب.

١٩ ـ التّحسر، كقول أبي البَقاء الرُّنْدِيّ يبكي حواضرَ الأندلسِ التي سقَطَتْ في أيدي الإفرنج:

فاسْأَلْ بَلَنْسِيَةَ ما شأْنُ مُرْسِيَةٍ أَمْ أينَ شَاطِبَةٌ بَلْ أينَ جَيَّانُ
وأينَ قُرْطُبَةٌ دارُ العُلومِ فكَمْ مِنْ عالِمٍ قَدْ سَمَا فيها لَهُ شانُ

وقولِ شمس الدِّين محمود الكوفيّ:

مَا لِلْمنازِلِ أصْبَحَتْ لا أهلُها أَهْلِي، ولا جيرانُها جيراني

وقول شوقيّ يتحدّث عن جامع بني أميّة في دمشق:

مررْتُ بالمَسْجِدِ المَحْزونِ أسألُهُ هَلْ في المصلّى أَوِ المِحْرابِ مَرْوانُ؟

٢٠ ـ الاستئناس، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾؟

والحقُّ أنه حيثُ يمتنع حَمْلُ الاستفهام على حقيقته ينبغي تلمُّسُ معنًى آخر بلاغيّ يحدِّده السّياقُ وقرائنُ الأحوال، ولا يجوز في حالٍ من الأحوال حصْرُ المعاني التي يخرج إليها الاستفهامُ. ويصِحّ هٰذا الحُكْمُ على أدواتِ الاستفهام جميعًا، فلا تختصُّ به أداةٌ دون الأدوات الأُخَر.

٤ ـ مبحث التمنّي:

التَّمنّي هو طلَبُ الشَّيءِ المحبوبِ الذي لا يُرجى حصولُه:

١ ـ إمّا لكونِه مستحيلاً كقوله سبحانه: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾، وقوله سبحانه: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾. ومنه في الشعر قولُ الشاعر:

لَيْتَ الكواكبَ تدنو لي فأنظِمَها عُقودَ مَدْحٍ، فما أرضى لكُمْ كَلِمِي

وقول الآخر:

ألا لَيتَ الشَّبابَ يعُودُ يومًا فأُخبِرَه بِمَا فعلَ المَشِيبُ

٢ ـ وإمّا لكونه ممكنًا ولكنه بعيدُ الحُصولِ وغيرُ مطموعٍ في نَيْلِه، كقوله سبحانه: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾. وقوله سبحانه: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾. ومنه في الشعر قولُ مروانَ بنِ أبي حَفْصة في رثاءِ مَعْنِ بنِ زائدة:

فلَيْتَ الشَّامِتِينَ به فَدَوْهُ ولَيْتَ العُمْرَ مُدَّ له فطَالا

صِيغة التّمني:

الصِّيغةُ الأصليّة للتمنّي هي «لَيْتَ». وتتمنّى العرب بثلاث صِيغٍ أُخَر هي:

١ ـ هَلْ، ويُتمنّىٰ بها، ويُنْصَب المضارعُ بعْدَها بِأنْ مضمرة على غرار «ليتَ». كما في قوله سبحانه: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾، بمعنى: ليتَ لنا شفعاءَ. حيث يعلمون أن لا شفعاءَ لهم. وقوله سبحانه: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾؟

والغَرَضُ البلاغيُّ من التمنّي بـ «هَلْ» والعدول عن «ليتَ» إبرازُ المتمنَّىٰ المستحيلِ في صُورة المستفهَمِ عنه المُمْكِنِ الحصول؛ إظهارًا لِكَمال العناية به.

٢ ـ لَوْ، ويُتمنَّى بها، ويُنصب المضارعُ في جوابها بأن مضمرة على غرار «لَيْتَ»، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، بمعنى: ليتَ لنا كرّةً.

ومنه في الشّعر قولُ جرير:

ولَّى الشَّبابُ حَمِيدةً أيّامُهُ   لَوْ كانَ ذَلِكَ يُشترىٰ أو يُرْجَعُ

وقولُ مُسْلِمِ بنِ الوليدِ الأنصاريّ:

واهًا لأيّامِ الصِّبا وزَمانِهِ   لَوْ كان أسْعَفَ بالمَقامِ قليلاً

والغرضُ البلاغيّ من التمنّي بـ «لو» والعدول عن «ليتَ» الإشعارُ بِعِزّة المتمنَّى حيث يُبْرَز في صورة الممتنِع؛ لأنّ «لو» حرفٌ يدلّ على امتناع جواب الشَّرْط لامتناع الشَّرْط.

٣ ـ لعلّ، فقد يُتَمنّى بها، فتُعطى حُكْمَ «لَيْتَ»، ويُنصب في جوابها المضارعُ على إضمار أنْ، كما في قوله سبحانه حِكايةً عن فِرْعَوْنَ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾. أصْلُ لعلّ للترجّي، وهو طلَبُ الأمر المحبوبِ الذي يُرجىٰ حصولُه. ولكنّها لم تُحْمَل هنا على معناها الحقيقيّ (الترجّي) لاستحالةِ بلوغِ الأسباب، ونُصْرةِ الأصنام لهم، ورجوعهم عن الكفر. وكان مقتضى الظّاهر استخدامَ الأداةِ الموضوعة أصلاً للتمنّي وهي «لَيْتَ»، لٰكنه عُدِل عن ذٰلك وجِيء بـ «لعلّ» التي تفيد الرّجاء (وهو إمكان الوقوع) لغرضٍ بلاغيّ هو: إبرازُ

المتمنّىٰ البعيدِ الحصول في صورةِ القريب المترقَّبِ الحصول؛ دِلالةً على كمال العناية به والتشوُّق إليه.

أمّا كيف نتبيّن أنّ هذه الأدوات (هَلْ، لَوْ، لعلّ) قد خرجتْ عن معناها الحقيقيّ واستُعملت للدِّلالة على التمنيّ، فهو أن نَلْحَظ أنّها مستعمَلةٌ في شيءٍ بعيدِ الحصول أو مستحيل الوقوع.

ـ استخدامُ «لَيتَ» في التّرجِّي لِغَرضٍ بلاغيّ:

أسْلَفْنا أنّ أداة الترجيّ «لعلَّ» قد تُستخدَم في التمنّي مكانَ «لَيْتَ»، لغرضٍ بلاغيّ هو إبراز المتمنّىٰ البعيدِ الحصول في صورةِ القريب المترقّب الحصول للدِّلالة على كمال العناية به؛ ونضيف هنا أنّ عكْسَ هٰذه الحالِ قد يحدُث أحيانًا، فتُستعمَلُ أداةُ التمنّي «ليتَ» في سياق «الترجِّي» لِغَرض بلاغيّ هو: إبرازُ المُمْكنِ في صورة المستحيل أو البعيد المنال مبالغةً في صعوبة نَيْلِه. ومن ذلك قولُ المتنبّي:

فيا لَيْتَ مَا بَيْني وبينَ أحبَّتي   مِنَ البُعْدِ ما بَيْنِي وبينَ المَصائبِ

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ الاستفهام (١):

ـ حدِّد دِلالَةَ الاستفهام فيما يأتي:

١ ـ أَلَسْتُمْ خيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا   وأندى العالَمِينَ بُطونَ راحِ

٢ ـ قال سبحانه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾.

٣ ـ أَنَلْهُو وأيّامُنا تَذْهَبُ   ونَلْعَبُ والمَوْتُ لا يَلْعَبُ

٤ ـ هَلِ الحَياةُ غيرُ قَنطَرةٍ تُعْبَرُ ولا تُعْمَرُ.

٥ ـ متىٰ يبلغُ البُنْيانُ يومًا تَمامَه   إذا كُنْتَ تَبْنِيه وغيْرُكَ يَهْدِمُ

٦ ـ قال سبحانه: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾.

٧ ـ فعَلامَ يَلْتَمِسُ العدوُّ مَسَاءتي   مِنْ بَعْدِ ما عرَفَ الخلائقُ شاني

٨ ـ أتصونُ يدَيْكَ عن الأذى؟

٩ ـ وهَلْ نافعي أن تُرْفَعَ الحُجْبُ بيننا   ودونَ الّذي أمَّلْتُ مِنكَ حِجابُ

١٠ ـ أتُغضِبُ والدَيْكَ؟

ـ الإجابات:

١ ـ التّقرير والتّأكيد؛ لأنّ المقام للمدْح، وذلك أبلغُ وأقوى؛ فقد وضعَ جريرٌ معناه في صورة الاستفهام الذي هو إنشاءٌ لا يحتمِل الصِّدْقَ والكَذِبَ، وجعل منه حقيقةً لا مشادَّة فيها.

٢ ـ التسوية.

٣ ـ النهي عن اللّعب أو التهكّم.

٤ ـ النفي.

٥ ـ الإنكار وبيان أنّ ذلك لن يكون.

٦ ـ النفي.

٧ ـ التعجّب مِنْ عملٍ لا يعودُ عليه بطائل.

٨ ـ الأمر.

٩ ـ النفي وبيان أن ذلك غير مفيد.

١٠ ـ النهي.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول الاستفهام (٢):

ـ حدِّد دِلالَةَ الاستفهام فيما يأتي:

١ ـ أَضَاعوني وأيَّ فتًى أضاعُوا ... لِيَومِ كَريهةٍ وسَدادِ ثَغْرِ

٢ ـ فهل تسْمَعُ قولًا فيه صلاحُك؟

٣ ـ ومَنْ مِثْلُ كافورٍ إذا الخيْلُ أَحْجَمتْ ... وكان قليلًا مَنْ يقول لها اقْدِمي

٤ ـ مَنْ ذا الّذي بنىٰ الأهرامَ؟

٥ ـ أَعِنْدي وقَدْ مارَسْتُ كلَّ خَفِيَّةٍ ... يُصَدَّقُ واشٍ أو يخيَّبُ سائلُ

٦ ـ أهذا الّذي شَغَلْتَ نفسَك به؟

٧ ـ فَدَعِ الوعِيدَ فمَا وعِيدُك ضَائِري ... أَطنينُ أجنحةِ الذُّبابِ يَضِيرُ

٨ ـ أأنتَ الّذي نجحَ أم أخوكَ.

٩ ـ ومَنْ ذا الذي يُدْلي بعُذْرٍ وحُجّةٍ ... وسَيْفُ المنايا بينَ عينيهِ مُصْلَتُ

١٠ ـ قال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

ـ الإجابات:

١ ـ التعظيمُ وإظهارُ أنّه عليُّ المنزلة.

٢ ـ التّشويق.

٣ ـ النّفي والتّنويه بشجاعته.

٤ ـ التعظيم.

٥ ـ الإنكار وبيان أنّ ذلك لا ينبغي أن يكون.

٦ ـ التّحقير.

٧ ـ التهكّم والتّحقير.

٨ ـ تصوّر المسند إليه.

٩ ـ التّعظيمُ وبيان هَوْل الموقف.

١٠ ـ التهويل.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول التّمنّي:

ـ حدِّد دِلالَةَ صِيَغ التّمني فيما يأتي:

١ ـ قال سبحانه: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

٢ ـ فلَيْتَ اللَّيْلَ كانَ فيهِ شَهْرًا ومَرَّ نهارُه مَرَّ السّحابِ

٣ ـ علَّ اللَّيالي الّتي أضْنَتْ بِفُرْقَتِنا جِسْمي ستجمعُني يومًا وتجمعُهُ

٤ ـ فيَا لَيْتَ ما بيني وبينَ أحبّتي مِنَ البُعْدِ ما بَيْنِي وبينَ المَصَائبِ

٥ ـ لَعَلّي أحجُّ فأزورَك.

٦ ـ فلَيْتَكَ تَحْلُو والحَياةُ مَريرةٌ ولَيْتَكَ ترضى والأنامُ غِضابُ

٧ ـ هلْ زرتَ أخاكَ. وهَلاّ أخلصتَ في عملِكَ.

٨ ـ لو تُسالِمُني الأيّامُ فأتقِيَ شرَّها.

٩ ـ لعلّي أرى طيفَك في المنام.

١٠ ـ لو تزورني فتُسْعِدَني.

ـ **الإجابات:**

١ ـ التّمنّي؛ لإبراز المتمنّىٰ الذي لا طَماعيةَ فيه في صورة المطموع في حصوله؛ إظهارًا لِكمَال العناية به.

٢ ـ التمنّي.

٣ ـ التمنّي، حيث نُزّل المرتجىٰ القريبُ الحصولِ منزلةَ المتمنّىٰ البعيد الحصول.

٤ ـ التّرجّي، حيث نُزّل المرتجى القريب الحصول منزلةَ المتمنّى البعيد الحصول؛ لاستبعاد حصوله.

٥ ـ التمنّي، حيث نُزّل المرتجى الممكن الحصول منزلةَ البعيد الحصول؛ لاستبعاد حصوله.

٦ ـ التّرجي، حيث نُزّل المرتجى الممكن الحصول منزلةَ المتمنّىٰ البعيد الحصول؛ لاستبعاده.

٧ ـ التمنّي على معنى التنديم؛ إذ المعنى: ليتَك زرتَ أخاكَ (في المثال الأول). والتّمنّي على معنى التحضيض مستقبلاً، إذ المعنى: ليتَك تُخْلِص في عملِكَ (في المثال الثاني).

٨ ـ التمنّي.

٩ ـ التمنّي؛ لاستبعاد حصوله.

١٠ ـ التمنّي.

٥ ـ مبحثُ النّداء:

النّداءُ هو طلَبُ المتكلّم إقبالَ المخاطَبِ عليه بحَرْفٍ نائبٍ منابَ «أدعو»، وهذا الحرْفُ قد يكونَ ملفوظًا كما هو قوله سبحانه: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، وقد يكون مقدَّرًا كما في قوله سبحانه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ﴾، إذ التقدير: يا يوسُفُ.

ـ صِيَغُ النّداء:

تنادي العربُ بثماني صِيَغٍ، هي: الهمزة ـ أَيْ ـ يا ـ آ ـ آيْ ـ أيا ـ هَيَا ـ وا. وهي نوعان من حيث الاستعمالُ:

١ ـ ما يُنادىٰ به القريبُ، وهو الهمزةُ وأَيْ.

٢ ـ ما ينادي به البعيدُ، وهو بقيّة الأدوات.

ـ تنزيلُ البعيدِ منزلةَ القريب:

الأصْلُ في استعمال الهمزة وأيْ أن تكونا لِنِداء القريب، كأنْ تقولَ في النّداء بالهمزة: «أَسَعِيدُ، ذاكِرْ دروسَك؛ فالامتحانُ على الأبوابِ». وكقول الشاعر:

أَبُـنَـيَّ، إنّ أبـاكَ كـارِبُ يَـوْمِـهِ   فإذا دُعيتَ إلى المكارِمِ فاعْجَلِ

وكأنْ تقولَ في النداء بـ «أَيْ»: «أيْ أحمدُ، الزمِ الصّدقَ في كلّ ما تقول». وكقول الشاعر:

أيْ صَدِيقي، إنّي قَصَدْتُك لَمّا   لم أجِدْ في الحياةِ غيرَكَ شَهْمَا

هذا هو الأصْلُ في استعمالها، لكنه قد يُخالَفُ الأصْلُ

وتستعملان في نداء البعيد تنبيهًا على أنه حاضِرٌ في القَلْب لا يغيب عنه أصْلاً، كقول الشاعر:

أَسُكّانَ نَعْمَانِ الأَرَاكِ تيَقَّنوا ... بأنّكُمُ في رَبْعِ قلبِيَ سُكّانُ

وقولِ الآخر:

أعَلِيُّ إنْ تكُ بالعِراقِ نَسِيتَني ... فَأَنَا بِمِصْرَ على هواكَ مُقِيمُ

وقولي وقد ذكرتُ بلادي الحبيبةَ وأنا في القُطْرِ الشقيق ليبيا[1]:

أيْ شآمُ، وأنتِ مَهْوىٰ فُؤادي ... كَيْفَ أَحْيَا والرّوحُ عنّي بعيدُ

هاجَنِي الشّوْقُ للرّبوعِ فقلبي ... في التياعٍ وعِيشتي تَنْكِيدُ

ـ تنزيلُ القريبِ منزلَةَ البعيد:

وقد يُنزَّل القريبُ منزلةَ البعيد، فينادىٰ بغير الهمزة وأيْ لأغراضٍ بلاغية يحدِّدُها السّياقُ وقرائنُ الأحوال، ومن هذه الأغراض:

١ ـ الإشارةُ إلى علوّ منزلة المنادىٰ، فيُنزّلُ بُعْدُ المنزلةِ منزلَةَ بُعْدِ المكان، كما في قولِكَ: «أَيَا مَوْلايَ» وأنت معَهُ؛ إشارةً إلى أنّ المنادى عظيمُ القَدْر سَنِيُّ المنزلة. ومن ذلك في الشعر قولُ الشاعر:

يا مَنْ يُرَجّى للشّدائدِ كلِّها ... يا مَنْ إليه المُشْتكى والمَفْزَعُ

وقول الآخر:

يا رجاءَ العُيونِ في كلّ أرضٍ ... لم يكُنْ غيرَ أَنْ أراكَ رجائي

٢ ـ الإشارة إلى انحطاطِ منزلة المنادىٰ، فيُنزَّل انحطاطُ المنزلة منزلةَ البُعْد عن ساحة الحضور. كما في قولِكَ لِمَنْ يجلس معك «يا مِسْكينُ، ابحثْ عمّا يفيدُك». ومن ذلك في الشعر قولُ الشاعر:

أولئِكَ آبائي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ ... إذا جَمَعَتْنا يا جَرِيرُ المَجَامِعُ

---

(١) عيسىٰ العاكوب.

وقولُ الآخر:

أيَا هٰذا أتطْمَعُ في المَعالي ... وما يحظى بِها إلّا الرّجالُ

٣ ـ الإشارةُ إلى غَفْلة السّامع وشرودِه كأنه غيرُ حاضر في مجلس الخِطاب، كقولِكَ للسّاهي: «أيا فلانُ». ومن ذلك في الشّعر قولُ أبي العتاهية:

أَيَا مَنْ عاشَ في الدّنيا طويلاً ... وأفنىٰ العُمْرَ في قِيلٍ وقالِ
وأتعبَ نفسَهُ فيما سيفنىٰ ... وجمّعَ مِنْ حرامٍ أو حَلالِ
هَبِ الدنيا تُقادُ إليكَ عَفْوًا ... أليسَ مَصِيرُ ذٰلكَ للزّوالِ

وقولُ محمود سامي الباروديّ:

يا أيّها السّادِرُ المُزْوَرُّ مِنْ صَلَفٍ ... مهلًا، فإنّكَ بالأيامِ مُنْخَدِعُ

وأضاف الزّمخشريّ أغراضًا بلاغية إضافية يؤدّيها استخدامُ «يا» في نداء القريب وهي:

٤ ـ استبعادُ الدّاعي نفسَه عن مرتبة المَدْعوّ، نحو: «يا اللَّهُ».

٥ ـ التّنبيه على عِظَم الأمْرِ وعلوّ شأنه وأنّ المخاطَبَ مع شدّة حرصه على الامتثال كأنه غافلٌ عنه، كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾.

٦ ـ الحِرْصُ على إقبال المنادىٰ حتى لكأنّه أمرٌ بعيدٌ نحو: يا موسى، أقْبِلْ».

ـ خروج النّداء عن دِلالته الحقيقية:

قد تخرج صِيَغُ النّداء السابقةُ عن دِلالتها الحقيقيّة وهي «طلَبُ الإقبال» إلى دِلالاتٍ أُخَرَ مجازية يحدّدها السّياقُ وقرائنُ الأحوال. ومن أهمّها:

١ ـ الإغراءُ، وهو الحَثُّ على التزامِ الشيء والزيادةِ فيه، كما في قولِكَ لِمَنْ أقبلَ يتظلّم: «يا مظلومُ»، تقصِدُ إلى إغرائه ببث الشكوى وزيادة التظلّم؛ لأنّ الإقبال حاصِلٌ منه.

ومنه في الشّعر قولُ المتنبّي يخاطِبُ سَيْفَ الدَّوْلةِ:

يا أعدلَ الناس إلّا في مُعاملتي فِيكَ الخِصامُ وأنتَ الخَصْمُ والحَكَمُ
أعيذُهَا نظراتٍ مِنكَ صادقةً أن تحْسَبَ الشَّحْمَ فيمَنْ شحْمُهُ ورَمُ

٢ ـ الاستِغاثة، كقولِكَ: «يا لِلَّهِ من ألمِ الفراقِ»، و«يا لَلْعربِ لِفلسطينَ»، و«يا لَلرّجالِ ليومِ الثّأرِ».

٣ ـ النُّدبة، كقول الشاعر:

فَوَاكَبِدي مِمّا أُلاقي مِنَ الهوى إذا حَنَّ إِلْفٌ أو تألَّقَ بارِقُ

٤ ـ التّعجُّب، كقول الفرزدقِ:

فواعَجَبًا حتّى كُلَيْبٌ تسبُّني كأنّ أباها نَهْشَلٌ أو مُجاشِعُ

٥ ـ الزّجْرُ، كقولِ الشّاعر:

أَفُؤادي، متى المتابُ أَلَمّا تَصْحُ والشّيبُ فوقَ رأسِي ألمّا؟

٦ ـ التحسُّر والتوجّع، كقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

وكقول الشاعر:

فيَا قبْرَ مَعْنٍ، كَيْفَ وارَيْتَ جُودَهُ وقد كانَ مِنْهُ البَرُّ والبحرُ مُتْرَعَا

٧ ـ التذكُّر، كقولِ الشّاعر:

أيَا مَنْزِلَيْ سَلْمى، سلامٌ عليكُما هل الأزمُنُ اللّاتي مَضَيْنَ رَواجِعُ

٨ ـ التدلُّه والتحيّر والتضجّر، ويكثر هذا في نداء الأطلال والمنازل والدّيار، كقول الشاعر:

أَيَا مَنازلَ سَلْمىٰ، أينَ سَلْمَاكِ مِنْ أجْلِ هذا بَكَيْناها بكيناكِ

وقد يأتي في نداء المطايا كقول الشاعر:

يا ناقَ جِدّي فقدْ أَفنَتْ أناتُك بي صَبْري وعُمْري وأَحْلاسِي وأنسَاعي

ومن التضجّر قولُ الشاعر:

يا همومَ الحياةِ فُكّي إساري واتْرُكِيني لِحَوْمَتي ونِفاري

وقولُ سلطانِ العاشقين ابنِ الفارض:

يا قلْبُ أنتَ وعدْتَني في حبِّهمْ صَبْرًا فحاذِرْ أن تضِيقَ وتضْجَرا

٩ ـ الاختصاص، حيث تخرج صيغةُ النّداء عن دِلالتها الأصيلة، وهي طلبُ إقبال المنادىٰ عليكَ، إلى دِلالةٍ جديدة هي تخصيصُ الشيء من بين أمثالِه بما نُسب إليه. تقول: «أنا أساعدُ المحتاجين أيّها الرّجُلُ»، وتقول: «أنا أيّها المدرّسُ أوضحتُ المسألة»، تريد في المثال الأول أن تقول: أنا مختصٌّ من بين الرّجال بمساعدة المحتاجين. وفي الثاني أن تقول: أنا مختصّ من بين المدرّسين بإيضاح المسألة. وعلى هذا لا يُرادُ بـ «أيّ» وما جاء بدلًا منه (الرّجل) أو وصْفًا له (المدرّسُ) المخاطَبُ، بلْ هو عبارةٌ عمّا دلّ عليه ضميرُ المتكلّم السابق (أنا).

ولا يجوز في هذه الصّيغة إظهارُ حَرْف النّداء؛ لأنّه فَقَد معنى النّداء تمامًا، وتأتي هذه الصّيغةُ بعد ضميرٍ لبيانه. وما يأتي بعْدَ الضمير يأخذُ واحدةً من أربعِ صُوَر:

١ ـ صورة المنادىٰ، كما في قولِك: «عليك أيها **القائدُ** تتوقّفُ نتائجُ المعركةِ» على معنى: أنتَ مُختصٌّ من بين سائر القوّاد بتوقّف نتائج المعركة عليك.

٢ ـ اسمًا معرّفًا بـ «أل»، كقولِكَ: «نحنُ **الأساتذةَ** نهتمّ بأمور طلّابنا». و«نحن **العربَ** أقرى الناسِ للضّيف».

٣ ـ اسمًا معرَّفًا بالإضافة كقولِكَ: «علَيْنا **مُدَرّسي العربيةِ** يقعُ عبءٌ ثقيلٌ»، و«أنتَ قتيلَ الحبِّ لا شفاءَ لكَ».

٤ ـ اسمًا معرَّفًا بالعلمية، كقول العربيّ: «بِنَا **تَمِيمًا** يُكْشَفُ الضَّبابُ». ويحقّق النّداءُ الذي يخرج إلى الاختصاص أغراضًا بلاغيّة، منها:

١ ـ التفاخُر، كقولِكَ: «أنا أحُلُّ الصِّعابَ أيُّها الرّجلُ»، و«نحن نُكْرِمُ الضَّيْفَ أيّها القومُ».

٢ ـ التّصاغرُ والتّواضع، كقولِكَ: «أنا الفقيرُ المِسْكينُ أيّها الرُّجُلُ»، و«نحن معْشَرُ المضطهَدِينَ أيُّها العربُ».

٣ ـ تفسيرُ الضّمير وبيانُه، كقولِهِم: «اللّهمّ، اغفرْ لنا أيّتُها العِصابةُ»، ومعناه: اللّهمَّ، اغفِرْ لنا مخصوصينَ من بين العَصائبِ. فالصِّيغة صيغةُ نِداء، لكنّها لا تعني النداءَ، بل تعني ما دلّ عليه ضميرُ المتكلّم السابق «نا».

وقوعُ الخَبَر موقعَ الإنشاء:

قد يقع الخبرُ موقِعَ الإنشاء، وذلك لأغراضٍ، منها:

١ ـ التفاؤلُ بلَفْظ الماضي لتصويرِ الشيء في صورة الواقع المحقّق، كما إذا قيل لكَ في مقام الدّعاء لك: «**عافاك** اللّهُ من كلِّ بليّة، وعصَمَكَ من الزّلَلِ، **وأذاقَكَ** حلاوةَ التقوى، **وأودعَ** صدْرَك بَرْدَ اليقين». فهذه الأمور جميعًا مِمّا لم يقَعْ، ومقتضى الظاهر أن يعبَّر عنها بصيغة الدّعاء فيقال: اللّهمَّ عافِهِ، واعصِمْهُ، وأذِقْهُ.. وأودِعْ صدْرَه..، لكنّ المتكلّم أوردها بصيغة الماضي، ووضعَ الخبرَ موضِعَ الإنشاءِ ليصوِّرها في صورةِ الأمور الحاصلة التي حقُّها أن يُخْبَر عنها بألفاظٍ ماضية تفاؤلًا بأنّ حصولَها في حكم الأمر المنتهي.

٢ ـ إظهارُ الحِرْص على وقوع الأمر؛ ذلك أنّ طالبَ الشيء حين تعظُمُ رغبتُهُ به يظلّ يهجِس به ويُكْثِر من تصوّره، حتى إنه قد يخيَّل إليه حاصِلاً، كما تقول: «رزَقنِيَ اللَّهُ حجَّ بيتِه المعمورِ وأكرمَني بزيارةِ قبر نبيّه». وأنتَ هنا تعبّر عمّا لم يقعْ في صورةِ ما وقَع؛ قَصْدًا إلى إظهار حِرْصِك الشديد على وقوع هذا الأمر؛ ونقول مِنْ ثَمَّ إنّ الخبرَ وقعَ موقعَ الإنشاءِ لهذا الغرض.

٣ ـ الاحتراز عن صُورةِ الأمر تأدُّبًا واحترامًا، كقول الولدِ لِوالدِه: «يخصُّني الوالدُ بِساعةٍ من وقته»، بدلًا من «خُصَّني بساعةٍ مِنْ وقتِكَ».

٤ ـ حَمْلُ المخاطَبِ على المَطْلوب، بأن يكون المخاطبُ مِمّن لا يُحِبُّ أن يكذّب الطالبَ، كقولِكَ لزميلٍ لكَ يصعب عليه أن تُنْسَبَ إلى الكذب: «تنتظرُني غدًا» بدلًا من: «انتظرْني»، فأنت بهذا الصَّنيع تحمِلُه على الانتظار بألْطفِ وجْهٍ؛ لأنّه إن لم ينتظرْك غدًا كان خبرُك الذي قلتَه له «تنتظرني غدًا» كاذِبًا، وهو لا يريد لكَ ذلك، ومِنْ ثَمّ ينتظرُك ويحقّق صيغةَ الخبر الذي توجّهتَ به إليه.

٥ ـ المُبالَغةُ في الطّلب للتنبيه على سُرْعة الامتثال، كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾. لم يقُلْ بصيغة النهي: «لا تَسْفِكوا»، بل جاء بدلًا من ذلك بالخبر «لا تَسْفِكُونَ» قصْدًا للمبالغة في النّهي، حتى كأنّهم نُهُوا فامتثَلوا ثم جِيء بِصِيغة الخبر لتصوُّرَ هذا الامتثال.

٦ ـ التّنبيه على تيسير المطلوب لقوّة الأسباب، كقول القائد لجُندِه: «تأخذونَ بِنَواصي ذَوِي الهِياج، وتذبحونَهم ذَبْحَ النِّعاجِ». لم يقل خذوا بنواصيهم، واذبحوهم. . بصِيغة الأمرِ المناسبة لهذا المقام، بل آثر الصّيغةَ الخبرية؛ لينبّه على سهولةِ الأمْر وقوّة أسباب فَتْكِ جنده بأعدائهم من ذوي الشَّغْبِ والهِياج، حتى كأنّهم يقومون بذلك في الحال دون أيّ عائق.

أسئلةٌ وإجاباتُها حول النداء:

ـ حدّدْ دِلالَةَ النّداء فيما يأتي:

١ ـ قال الضَّبِّيُّ يَرْثي ابنَه:

أَأُبَيُّ لا تُبْعِدْ وليسَ بِخالدٍ   حَيٌّ ومَنْ تُصِبِ المَنونُ بعِيدُ

٢ ـ أولئكَ آبائي فَجِئْني بِمِثْلِهِمْ   إذا جَمَعَتْنَا يا جريرُ المَجامِعُ

٣ ـ يا لِلَّهِ للمسلمين.

٤ ـ يا أيُّها السّادِرُ المُزْوَرُّ مِنْ صَلَفٍ   مَهْلاً فإنّكَ بالأيّام منْخَدِعُ

٥ ـ فواعَجَبًا كَمْ يدّعي الفَضْلَ ناقِصٌ   وواأَسَفًا كَمْ يُظهِرُ النَّقْصَ فاضِلُ

٦ ـ أسكّانَ العَقيقِ كفى فِراقا.

٧ ـ يا هُمومَ الحَياةِ فُكّي إساري   واتْرُكِيني لِخَوْمَتي ونِفاري

٨ ـ أيا مَنْزِلَيْ سَلْمى، سَلامٌ عليكُما   هلِ الأزمنُ اللاّئي مَضَيْنَ رَواجِعُ

٩ ـ يا لَكِ مِنْ قُبَّرةٍ بِمَعْمَرِ   خَلا لَكِ الجوُّ فبِيضي واصْفري

١٠ ـ إيهِ يا بلبلَ الفراتِ ترنّمْ   فوقَ شُطْآنِه وحيِّ الوُرودا

١١ ـ قال سبحانه: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾.

١٢ ـ أيا شَجَرَ الخَابورِ ما لَكَ مورقًا   كأنّكَ لَمْ تجزعْ على ابْنِ طَرِيفِ

١٣ ـ نصحْتُك يا نفسُ لا تطمعي   وقُلْتُ حَذارِ فَلَمْ تَسْمَعِي

فإنْ كنتِ تَسْتَسْهِلِينَ الوداعَ   كَمَا تَدّعِينَ إذًا ودّعي

١٤ ـ أيْ بِلادي، وأنتِ مَهْوى فؤادي   كيفَ أحيا والرّوحُ عَنّي بعيدُ

١٥ ـ أيُّها القلْبُ، قد قضيتَ مَراما   فإلامَ الوُلوعُ بالشّهواتِ

- **الإجابات:**

١ - نزّل البعيدَ منزلةَ القريب فناداه بالهمزة؛ للتنبيه على أنّه حاضِرٌ في القلْب، لا يغيب عن الخاطر.

٢ - نزّل القريبَ «جرير» منزلةَ البعيد؛ للإشارة إلى انحطاط منزلته.

٣ - الاستغاثة.

٤ - نزّل القريبَ منزلةَ البعيد فناداه بـ «يا»؛ إشارةً إلى أنه لِغَفْلتِه وشرود ذهنه كأنّه غيرُ حاضر.

٥ - النُّدْبة.

٦ - التحسُّر والتحزّن؛ لِعَدَم تَأَتّي الإقبال من المنادَيْنَ.

٧ - الزَّجْر.

٨ - التذكّر.

٩ - التعجّب؛ لإيحاء المقام بذٰلك.

١٠ - الإغراء؛ لأنه لا يُراد منه الإقبال.

١١ - الاختصاص.

١٢ - التحسّر والتفجّع.

١٣ - الزَّجْر واللّوم.

١٤ - التحيّر والتضجّر.

١٥ - الزَّجْر واللّوم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث السّابع

الفَصْل والوَصْل

ويتضمّن:

- تمهيد في حاجة البليغ إلى إدراك مواطن الفَصْل والوَصْل في الكلام.
- تعريف الفَصْل والوَصْل.
- شرْطُ قُبولِ الوَصْل وجودُ الجهة الجامعة.
- تأتّي بلاغةِ الوَصْل بـ «الواو» دون بقيّة حروف العطف.
- مواضع الفصل:

١ ـ كمال الاتصال.

٢ ـ كمال الانقطاع.

٣ ـ شبهُ كمال الاتصال.

٤ ـ شبهُ كمال الانقطاع.

٥ ـ التوسّط بين الكمالَيْن.

- مواضع الوصل:

١ ـ كمالُ الانقطاع مع إيهامِ الفَصْل خلافَ المراد.

٢ ـ التوسّطُ بين الكمالَيْنِ مع عدمِ وجود مانع من الوصل.

٣ ـ إشراكُ الجملة الثانية في المحلّ الإعرابيّ للأولى.

- محسّنات الوصل.
- العدول عن تناسب الجمل المتّصلة لِغَرضٍ بلاغيّ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ـ تمهيد: حاجةُ البليغ إلى إدراك مواطن الفَصْل والوَصْل:

لا غنى للبليغ عن المعرفة الدقيقة لمواقع الجُمَل وما ينبغي أن يحدُثَ فيها من عَطْفِ بعضِها على بعضٍ أو تركِ هذا العطف وإرسالِها مستأنفةً دون ربطِها بِمَا سبقَها، وعن الاستعمال الصحيح لحروف العطف وإيقاعها مواقعها. وقد نبّه الشّيخُ الإمامُ عبدُ القاهرِ الجُرجانيّ ـ رحمه الله ـ على ذلك، فقال في «دلائل الإعجاز»: «اِعْلَمْ أنّ العِلْمَ بِما ينبغي أن يُصْنَع في الجُمَل من عَطْفِ بعضِها على بعضٍ أو تَرْك العطف فيها والمجيء بها منثورةً تُستأنف واحدةً منها بعد أخرى، من أسْرارِ البلاغة، ومِمّا لا يأتي بتمام الصّواب فيه إلّا الأعرابُ الخُلّصُ والأقوامُ طُبِعوا على البلاغة وأوتوا فنًّا من المعرفة في ذوق الكلام، وهُمْ به أفرادٌ».

ـ تعريف الوَصْل والفَصْل:

الوَصْل هو عَطْفُ جُمْلةٍ فأكثرَ على جملةٍ أخرى بالواوِ خاصة؛ لِصِلةٍ بينهما في المَبْنى والمعنى، أو دَفْعًا لِلَبْسٍ يمكن أن يحصل.

والفَصْلُ تركُ هذا العطف؛ إمّا لأنّ الجملتَيْن متّحدتانِ مَبنًى ومعنًى، أو بمنزلةِ المتّحِدتَيْن، وإمّا لأنه لا صلةَ بينهما في المبنى أو في المعنى.

ومِثالُ الوَصْلِ قولُه سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾. وليس من البلاغةِ تركُ العَطْفِ بالواو في الجملتين الأخيرتين؛ لأسباب سنبيّنها إن شاء الله.

ومِثالُ الفَصْلِ قولُه سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾. فلم تُعْطَفْ جملة ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ على جملة ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ لأنها ليست من مَقُولِهم.

ـ شَرْطُ قُبولِ العَطْف (الوَصْل) وجودُ الجهة الجامعة:

لا يكون عَطْفُ الجملةِ الثانية على الأولى بالواو مقبولًا حتى يكون بين الجملتين «جِهةٌ جامعة»؛ كالتناسُبِ في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، فبينَ الإعطاءِ والاتّقاءِ والتصديق (وهي مسندٌ) تناسُبٌ ظاهرٌ في **المَعْنى** (كونها من أفعال الخير) **والمَبْنى** (كونها أفعالًا ماضيةً مبنيةً على الفتح)، كما أنّ ثمة تناسُبًا في المسند إليه (الفاعل في الجمل الثلاث، وهو واحد). وقد تكون الجهةُ الجامعة التضادَّ، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾، فالذهن يتصوّرُ البكاءَ عند ذِكر الضَّحِك، كما أنّ ثمة تناسبًا بين الجملتين في الإنشائية.

ـ لا تتأتّى بلاغةُ الوَصْل إلّا بـ «الواو» دون بقية حروف العطف:

لا تتحقّقُ بلاغةُ الوَصْل إلّا بـ «الواو» العاطفةِ دون سائر حروف العَطْفِ الأُخَر؛ ذلك أنّ الواوَ هي التّي يقع فيها الاشتباهُ دون سائر حروف العطف؛ لأنها لِمُطْلق الجمْع ولمجرّد جَعْلِ ما بعدَها مشارِكًا لِمَا قبلَها في الإعراب، فيحتاج العطفُ بها إلى إدراكِ معنًى جامع بين المتعاطفين؛ وهذا المعنى هو ما يحتاج البليغُ إلى إدراكه وتعرّفه. أما بقيةُ حروف العطف فيُفيدُ العطفُ بها مع الإشراك في الحكم الإعرابيِّ معانيَ أُخَر كالتّرتيب مع التّعقيب في «الفاء»، وكالتّرتيب مع التّراخي في «ثُمّ»، وكالتّخيير مع الإباحة في «أَوْ». ولذلك يحسُنُ العَطْفُ بهٰذه

الأحرف حين تَحقُّقِ هٰذا المعنى، وإن لم تتوافر الجهةُ الجامعة بين المتعاطفَيْن.

مواضعُ الفَصْل:

يجب الفَصْلُ بين الجملتين في كلّ موضعٍ من المواضع الخمسة الآتية:

الأوّلُ ـ أن يكون بين الجملتين «كمالُ الاتّصال»، ويكون ذلك حين **تكون الجملةُ الثانيةُ بِمَعْنى الأولى أو جُزءًا منها**، حيث تُعامَل الثانيةُ كأنّها الأولى نفْسها. وها هنا يجب الفصْلُ لِعَدم جواز عَطْف الشيءِ على نَفْسِه، أو الجُزء على كلّه. وقد حدّد البلاغيون مواضعَ كمالِ الاتّصال التي يجب فيها الفَصْلُ على هذا النحو:

١ ـ أن تكونَ الجُمْلةُ الثانيةُ بمنزلة التّأكيد اللّفظيّ للأولى (مضمونُ الثّانية هو مضمونُ الأولى) ـ كما في قوله سبحانه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، فُصِل بين الجملتين؛ لأنّ الثانية في منزلة التأكيد اللّفظيّ للأولى. أو تكون الجملةُ الثانية بمنزلةِ التأكيد المعنويّ للأولى (أن يختلفَ مَضْمونا الجملتين، لكنّ مضمونَ إحداهما يقرّر مضمونَ الأخرى) ـ كما في قوله سبحانه: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، فإثباتُ مَلَكِيّته بمنزلةِ التأكيد المعنويّ لِنَفْي بشريّته.

٢ ـ أن تكون الثانيةُ بدلًا من الأولى يُوضِحُ دِلالتَها. وهذا البدلُ قد يكون:

أ ـ بدلَ بعْض كقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾. وجب الفصْلُ بين الجملتين؛ لأنّ الثانية بمثابة بَدلِ البَعْض من الأولى، حيث فُصِّلتِ النِّعَمُ الّتي أجمَلَتْها الأولى.

ب ـ بدلَ اشتمالٍ كقوله سبحانه: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وجب الفصْلُ بين الجملتين؛ لأنّ الثانية بدَلُ اشتمالٍ من الأولى، إذ يشتمل الاتّباعُ الأوّلُ (اتباع المرسلين) الاتباعَ الثانيَ المنطوي على عَدَمِ خُسْران شيء من أشياء الدّنيا وضمان الهداية.

جـ ـ بدل كلّ، كقوله سبحانه: ﴿بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾. وجب الفصْلُ بين جملة «قال الأوّلون» وجملة «قالوا»؛ لأنّ الثانيةَ بدلُ كلٍّ من الأولى؛ إذ هي أوفى من الأولى في بيان المراد.

٣ ـ أن تكون الجملةُ الثّانية بيانًا لخفاءٍ في الجملة الأولى مع اقتضاءِ المقام إزالةَ هذا الخفاء، كقوله سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾. وجب فصْل جملةِ «قال يا آدم» عن جملة «فوسوس»؛ لأنها مُوضِحةٌ لها مبيِّنةٌ لِدلالتها. وكذا الأمر في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾.

الثاني ـ أن يكون بين الجملتين «كمالُ الانقطاع»، ويكون ذلك **حين تكون الجملةُ الثانيةُ مُبَاينةً للأولى تمامَ المُباينة**. حيث يجب الفصْلُ؛ لغياب الجهةِ الجامعة بين الجملتين. وقد حدّد البلاغيون مواضعَ «كمال الانقطاع» التي يجب فيها الفصْلُ على هذا النحو:

١ ـ أَنْ تختلف الجملتانِ خبرًا وإنشاءً في اللّفظ والمعنى، أو في المعنى وحدَه.

ـ مثالُ اختلافِهما لفظًا ومعنًى والأولى إنشاءٌ قولُ الشاعر:

وقالَ رائِدُهم أَرْسُوا نُزاوِلُها فحَتْفُ كلِّ امرئٍ يجْري بمِقْدارِ

وجب الفصْلُ بين الجملتين «أزسوا» و«نزاولُها»؛ لاختلافهما خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنًى؛ حيث الأولى إنشاءٌ لفظًا ومعنًى والثانية خبرٌ لفظًا ومعنى.

ـ ومثال اختلافهما، لفظًا ومعنى، والأولى خبرٌ قولُ الشّاعر:

لَسْتُ مُسْتَمْطِرًا لِقَبْرِكَ غَيْثًا . كَيْفَ يَظْما وقَدْ تضمَّنَ بَحْرا؟

وجب الفَصْلُ بينَ الجملتين «لستُ مستمطِرًا» و«كيفَ يظْمَا» لاختلافهما خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنًى.

ـ ومِثالُ اختلافهما معنًى (وهما خبرانِ لفظًا) قولُكَ: «سافرَ محمّدٌ، رافقَتْهُ السّلامةُ». وجبَ الفصْلُ بين الجملتين لِكَمال الانقطاع بينهما، حيث الأولى خبرٌ لفظًا ومعنًى، والثانية خبرٌ لفظًا إنشاءٌ معنًى؛ إذ هي دعاءٌ بمعنى: «اللّهمّ اجعلِ السّلامةَ رفيقةً له في سفره».

ـ ومثال اختلافهما معنًى (وهما إنشاءانِ لفظًا) قولُكَ: «أَلَيْس الله بكافٍ عَبْدَهُ، أحسِنِ الظنَّ بالله». وجب الفصْلُ بين الجملتين لاختلافهما معنًى، حيث الأولى خبرٌ معنًى، أي الله كافٍ عبده، وإن كانت إنشاءً لفظًا، والثانية إنشاءٌ معنًى ولفظًا.

٢ ـ أن تتّفق الجملتانِ خبرًا وإنشاءً، ولكنْ لا توجد بينهما جِهَةٌ جامعة، كأن تقولَ: «زارني أحمدُ، السّماءُ صافيةٌ». حيث وجب الفصْلُ بين الجملتين لكمال الانقطاع؛ أي التباين التّام بينهما.

الثالث ـ أن يكون بين الجملتين «شِبْهُ كمالِ الاتّصال»، **ويكون ذلك حين تكون الجملةُ الثانية جوابًا لسؤالٍ نشأ عن الجملة الأولى.** ويجب الفصل هنا كما يُفصَلُ الجوابُ عن السؤال. ويسمّى الفصْلُ في مثل هذه الحال «استئنافًا»؛ لكَوْن الجملةِ الثّانية جوابًا لسؤالٍ اقتضتْه الأولى. وتُسمّى الجملةُ الثانية «استئنافًا» و«مستأنفة».

ومن أمثلة ذلك:

ـ قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾. وجب الفصلُ بين الجملتين؛ لأنّ الثّانية جاءتْ في منزلة جوابٍ عن سؤالٍ ناشىء عن الجملة الأولى؛ فكأنّ سائلاً سألَ حين ترامى إلى سَمْعِه الحُكْمُ الذي تضمّنته الجملةُ الأولى: ولِمَ لا تبرّىء نفسَك؟ ـ فأجابَ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

ـ وقولُه سبحانه: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ سَلَٰمٞ﴾. وجب فَصْلُ الجملةِ الثانية «قالَ سَلامٌ» عن جملة «فقالوا سلامًا»؛ لأنّ الثّانية جاءت في موقع جوابٍ عن سؤالٍ ناشىء عن الجملةِ الأولى؛ فكأنّ سائلاً سأل حين سَمِع «فقالوا سَلامًا» ـ: وماذا قال إبراهيمُ عليه السّلامُ في ردّ سَلامِهم؟ فأجاب: «قال سلامٌ». ويشير هذا من وِجْهةٍ أخرى إلى أنّ الخليلَ عليه السّلامُ حيّاهم بأحسنَ منْ تحيّتهم؛ لأنّه حيّاهم بالجملة الاسميّة الدّالّةِ على الدّوام والثّبوت، في حين كانت تحيَّتُهم بالجملة الفعلية الدّالّةِ على التجدّد والحدوث.

ـ ومنه في الشّعر قولُ الشاعر:

جَزَى اللهُ الشّدائدَ كلَّ خيرٍ عَرَفْتُ بِها عَدوِّي مِنْ صَدِيقي

ـ وقولُ الآخر:

زَعَمَ العَواذِلُ أنّني في غَمْرةٍ صَدَقُوا، ولكنْ غَمْرتي لا تَنْجَلي

والملاحَظُ في الأمثلة المتقدّمة جميعًا أنّ المانعَ من الربط بين الجملتين في هذا الموضع هو وجودُ الرابطة القوية بينهما، فأشبهتْ حالةَ كمال الاتّصال، وعومِلَت معاملتها.

الرابع ـ أن يكون بين الجملتين «شِبْهُ كمالِ الانقطاع»، ويكون **ذلك حين تُسْبَق جملةٌ بجملَتين يصِحُّ عطفُهما على أولاهما لوجود**

الجِهة الجامعة، لكنْ في عَطْفها على الثّانية فسَادُ المعنى؛ وابتغاءَ تفادي توهُّم العَطْف على الثانية، واحترازًا من فساد المعنى، يُتَخلّى عن العَطْف مطْلقًا، ويُفصَلُ بين الجملتين.

ويمثّل علماءُ البلاغة لذلك بقولِ الشاعر:

وتظنُّ سَلْمى أنّني أبغي بِها بَدَلاً أراهَا في الضَّلالِ تَهِيمُ

فقد وجبَ فصْلُ جملةِ «أراها» عن جملة «تظنّ» ـ رغم توافر المناسبة بين الجملتين ـ لِكَيْلا يتوهَّم السّامعُ أنّها معطوفةٌ على جملة «أبغي» القريبة منها وتكون عندئذ من مظنوناتِ سَلْمى. ويصير المعنى على هٰذا الظنّ هٰكذا: وتظنّ سَلْمى أنّني أبغي بها بدلًا وأنّني أراها تهيم في الضّلال، وفي ذلك فسادٌ لِلْمعنى ينبغي تفاديه. ويقول البلاغيون إنّ فَصْلَ الجملة الثّانية عن الأولى في مِثْل هذه الحال شُبِّه بـ «كمال الانقطاع»؛ لاشتماله على مانعٍ مع العَطْف، ولم يُجْعَلْ «كمالَ انقطاعٍ» لكونه خارجيًا يُمْكِن التخلُّصُ منه بإقامة القرينة.

الخامس ـ أن يكون بين الجملتين «توسُّطٌ بين الكمالَيْن مع قيام المانع من الوَصْل»، **ويكون ذلك حين يُلْحَظُ بين الجملتين تناسُبٌ وترابطٌ قويّ، لكنّه يحول دون العَطْف مانِعٌ هو عدَمُ صحّة تشريك الجملةِ الثّانية في حكم الأولى؛ لِمَا ينشأ عن ذلك من اختلالٍ في المعنى.**

ومِمّا يمثّل لذلك قولُه سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وفي النصّ القرآنيّ شاهدانِ:

١ ـ فصْلُ جملةِ «اللّهُ يستهزىء بهم» عن جملة «قالوا»؛ لأنّ جملةَ «قالوا» جوابُ شرطٍ لـ «إذا»، فهي مقيَّدةٌ بهٰذا الظّرف، ويعني هذا أنّ قولَهم لشياطينهم إنّا معَكم لا يحدُث إلّا عندما يخْلُون بهم، ومن ثَمّ فإنّ عطف جملة ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ على جملة «قالوا»

يُشْرِكُها في حُكْمِها وهو «التّقييد بالظّرْف المذكور»؛ وينشأ عن ذلك أنّ استهزاء اللّهِ، سبحانه، بهم لا يكون إلّا وقتَ خلْوِّهم إلى شياطينهم، وهذا باطِلٌ طبْعًا، وهكذا وجبَ فصْلُ جملة ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ عن جملة «قالوا» لتفادي المحظور.

٢ ـ فصْلُ جملة «الله يستهزىء بهم» عن جملة «إنّا معَكم»؛ لأنّ جملة «إنا معكم» مفعولُ الفعل «قالوا»، أي إنها مقولُ المنافقين؛ ومن ثمّ فإنّ عطْفَ جملةِ «الله يستهزىء بهم» عليها يترتّب عليه إشراكُها في حُكْمِها؛ أي أن تكون مفعولًا لـ «قالوا»، وتكون عندئذ من مقول المنافقين؛ وواقعُ الحالِ أنّها من مقوله، سبحانه، على سبيل الدّعاء عليهم.

وإذا كان التّطْوافُ في رِحابِ مُوجِباتِ الفَصْل بين الجمل قد طال بنا، فيمكننا تلخيصُ القول في هذا الشأن، وعلى الجملة نقول إنّ الفصْلَ بين الجملتين يكون واجبًا في كلٍّ من المواضع الخمسة الآتية:

١ ـ عندما يكون بين الجُمْلتين «كمالُ الاتّصالِ»؛ وذلك حين تكون الجملة الثانيةُ بمعنى الجملة الأولى أو جُزءًا منها (أن تكون بمنزلةِ التأكيدِ اللّفظيّ أو المعنويّ، أو البَدَلِ، أو البيان والإيضاح، للجملة الأولى).

٢ ـ عندما يكون بين الجملتين «كمالُ الانقطاع»؛ وذلك حين تكون الجملةُ الثانية مُباينةً للأولى تمامَ المُباينةِ (أن تختلف الجملتانِ خبرًا وإنشاءً، أي أن لا توجد بينهما جِهةٌ جامعة).

٣ ـ عندما يكون بين الجملتين (شِبْهُ كمالِ الاتّصالِ)، وذلك حين تكون الجملةُ الثانيةُ جوابًا لسؤالٍ ناشىءٍ عن الجملة الأولى (الفَصْلُ الاستئنافي).

٤ ـ أن يكون بين الجملتين «شِبْهُ كمالِ الانقطاع»، وذلك حين تُسْبَقُ جملةٌ بجملتين يصِحُّ عَطْفُها على أولاهما، لكنه يُتخلّى عن

العَطْف البتّةَ؛ ابتغاءَ دَفْعِ توهّم العطف على الثانية، الّذي يترتّب عليه فسادُ المعنى.

٥ ـ أن يكون بين الجملتين «توسُّطٌ بين الكمالَيْنِ مع قيام المانع من الوَصْل»؛ وذلك عند تَوافرِ التّرابط القويّ بين الجملتين، لٰكنه يُفْصَل بينهما لِعَدم صِحَّة إشراكِ الجُملة الثانية في حُكْم الأولى؛ لاختلال المعنى.

ـ مواضعُ الوَصْل:

يجِبُ الوَصْلُ بين الجملتين في ثلاثة مواضع.

الأوّل ـ أن يكون بين الجملتين «كمالُ الانقطاعِ» مع إيهامِ الفَصْلِ خلافَ المُراد. ويعني ذلك أن تختلف الجملتان خبرًا وإنشاءً، لكنّه يُضْطَرّ إلى الوَصْلِ؛ لأنّ الفصْلَ يوهِمُ المخاطبَ بخلاف مقصود المتكلّم. كأنْ يجري بينك وبين شخصٍ حديثٌ، ثم تقْصِدُ أن تنفي شيئًا تقدّم في ذلك الحديث وتدعو لمخاطبك في الوقتِ نفسه، فتقول: «لا، وسدَّدَ الله خُطَاكَ». فـ «لا» هنا ردٌّ لكلامٍ سابق، كأنت يكون مخاطبُك قد سألكَ: «هل الأمْرُ كذٰلك؟»، فتقول: «لا»، أي: ليس الأمر كذٰلك. وهذه جملة خبرية. ثم تضيف داعيًا له: «وسدّد الله خُطاكَ». وهٰذه جملة إنشائية دعائية. وكأن يسألك ابنُك عند مَقْدَمِك من السَّفر: «أرأيتَ أخي يا أبتي؟» فتقول: لا، ورعاكَ الله. فـ «لا» هنا قائمةٌ مقامَ جملةٍ خبرية. و«رعاك الله» جملةٌ إنشائيةٌ دعائية. وهٰكذا فبين الجملتين في المثالين «كمالُ الانقطاعِ»؛ لاختلافهما خبرًا وإنشاءً، ويستلزم ذلك الفصْلَ بينهما، لٰكنه وجَبَ الوَصْلُ هنا تخلُّصًا من إيهام خلافِ المراد؛ وهو أن يتسلّط النفيُ على الجملة بعده لو تُرِكَ الوصْلُ فيقال: «لا سدّد الله خطاك»، و«لا رعاك الله»، فيكون التّعبيرُ في الحالين دعاءً على المخاطَبِ بدلًا من الدّعاء له. ومِثْلهُ ما يقال مِنْ أنّ أبا بَكْرٍ الصّديق ـ رضيَ الله عنه ـ مرّ برجلٍ في يده ثوبٌ، فقال له:

أتبيع هٰذا؟ فقال الرّجُل: «لا - يَرْحمُك الله»، فقال الصّدّيقُ: «لا تقل هٰكذا، بل قُلْ: لا، ويرحَمُكَ الله».

الثاني - أن يكون بين الجملتين «توسّطٌ بين الكمالين» مع عدمِ وجودِ مانعٍ من الوَصْل. ويكون ذلك عندما تتّفقُ الجملتانِ خبرًا أو إنشاءً لفظًا ومعنًى، أو معنًى فقط، مع جامعٍ بينهما. وقد تبيّن علماء البلاغة ثماني صورٍ لهذا الأمر:

١ - أن تكون الجملتان خبريَّتَيْنِ لفظًا ومعنًى، كقوله سبحانه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾.

٢ - أن تكون الجملتان إنشائيتين لفظًا ومعنًى، كقوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وقولِ سبحانه: ﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.

٣ - أن تكون الجملتان خبريّتين معنًى (ولفظاهُما إنشائيّان)، كقولِكَ: «أَلَمْ أخبِرْكَ بِمَا حَدَثَ، وأَلَمْ أنصحْكَ باجتناب أمثالِ ذٰلكَ؟». ومعنى ذٰلك: أخْبَرْتُك بما حدثَ ونصحتُك باجتناب أمثال ذٰلك؛ فالجملتان خبرٌ معنًى إنشاءٌ لفظًا.

٤ - أن تكون الجملتانِ خبريّتين معنًى (ولفظُ الأولى خبرٌ ولفظُ الثانية إنشاء)، كقوله سبحانه: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. ومعنى ذٰلك: أنّي أُشهِدُ الله وأُشهِدُكُمْ، فالجملةُ الثانية إنشائيةٌ لفظًا وخبريةٌ معنًى.

٥ - أن تكون الجملتان خبريّتين معنًى (ولفظُ الأولى إنشاءٌ ولفظُ الثانية خبر)، كقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾. على معنى: وجدك يتيمًا فآواكَ ووجَدَكَ ضالًّا فهداك. وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ

﴿يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾. على معنى: أُخِذ عليهم ميثاقُ الكتابِ ودرَسُوا ما فيه.

٦ ـ أن تكون الجملتان إنشائيّتين معنًى (واللّفظانِ خبَران)، كقولِكَ: «شافاكَ الله وعافاكَ». على معنى: لِيَشْفِكَ الله وليُعافِك.

٧ ـ أن تكون الجملتان إنشائيّتين معنًى (ولفظُ الأولى إنشاءٌ والثانية خبَرٌ)، كما تقول: «زُرْه وتعرفُ ما يأتيكَ منه». على معنى: زرْه واعرفْ ما يأتيكَ منه. وكقولِكَ: «قُمِ اللَّيْلَ، وتصومُ النهار». على معنى: قم اللّيلَ، وصُمِ النّهارَ.

٨ ـ أن تكون الجملتان إنشائيّتين معنًى (ولفظ الأولى خبرٌ والثانية إنشاءٌ)، كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ عُطِفَتْ جملة «قولوا» على جملة «لا تعبدون» لكونهما إنشائيتين معنًى، ولفظُ الأولى خبرٌ لكنّها إنشاء بمعنى «لا تعبدوا».

الثالث ـ أن يكون لِلْجملةِ الأولى محَلٌّ من الإعراب ويُرادُ إشراكُ الجملة الثانية فيه، حيث لا مانعَ منه.

وقد تكون الأولى خبرَ مبتدأٍ كقولك: «زيدٌ يقرأُ ويكتبُ». وجملةُ يكتب معطوفةٌ على جملة يقرأ في محلِّ رفع. وقد تكون خبرَ إنّ أو إحدى أخواتِها كقول المصطفى ﷺ: «إنكم لتكثرونَ عندَ الفزَعِ وتقلّون عند الطمع».

ـ محسِّناتُ الوَصْل:

تبيّن البلاغيون أوضاعًا أَنِسُوا أنّ الوصْلَ يزداد فيها حسْنًا وروعةً. ومن ذلك.

١ ـ تناسُبُ الجملتين في الاسميّة والفِعْليّة ـ وتناسب الاسميّتَيْن

في نوع المسند من حيث كونُه مفردًا أو جملةً أو ظرفًا ـ وتناسب الفعليتين في نوع الفعل:

ـ مِثالُ تناسبِ الجملتين في الاسمية وفي كون المسند مفردًا قولُهم في المثَل: «الأخذُ سُرَّيطَى والقضاءُ ضُرَّيطَى»؛ أي يأخذُ الدَّيْنَ ويبتلِعُه، فإذا طُولِب للقضاءِ، أَضْرَطَ به. فكلٌّ من الجملتين اسميّةٌ، والمسندُ في كلّ منهما مفردٌ. وكذا قولُ الشاعر الأندلسيّ الرّماديّ:

مَنْ حاكِمٌ بينِي وبينَ عَذُولي   الشَّجْوُ شَجْوي، والعويلُ عَويلي

الشاهد في قوله: «الشجوُ شجوي، والعويلُ عويلي».

ـ ومثالُ تناسب الجملتين في الاسمية وفي كون المسند جملةً قولُهم في المَثَل: «يَداكَ أوْكَتا، وفُوكَ نَفَخ». وقولُ أهلِ زماننا: «العُصْفورُ يتسلّى والصَّيّادُ يتقلّى». حسُنَ الوصْلُ هنا لتناسُبِ الجملتين في الاسميّة وفي كون المسند في كلّ منهما جملةً فعلية.

ـ ومثالُ تناسبِ الجملتين في الاسمية، وفي كون المسند ظرفًا قولُكَ: «أنتَ منّي وأنا منكَ».

ـ ومثالُ تناسب الجملتين في الفعليّة وفي كون الفعل ماضيًا قولُه سبحانه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ﴾.

ـ ومثالُ تناسب الجملتين في الفِعْليّة وفي كون الفعل مضارعًا قولُه سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ﴾.

٢ ـ تناسب الجملتين في الإطلاق والتقييد:

ـ مِثالُ تناسبِ الجملتين في التقييد قولُ أبي بَكْرٍ الصّدّيق رضي الله عنه عندما انتقل الرسولُ الكريم عليه الصّلاةُ والسّلام إلى

ربّه: «بأبي أنتَ وأمّي، طِبْتَ حيًا، وطِبْتَ ميتًا». والشاهدُ قولُه «طِبْتَ حيًّا، وطِبْتَ ميتًا»، حيث حسُن الوصْلُ بين الجملتين لتناسبهما في التقييد؛ إذ قُيدت كلّ منهما بـ «الحال».

ومِثالُه أيضًا قولُك لصديقِكَ: «أعْرِفُك عندما تَعْرِفُ، وأعرفُكَ عندما لا تعرِفُ، وأعرفُك عندما تكون بينَ بينَ». فقد حسُنَ الوصلُ لتناسبِ الجملِ في التقييد بالظّرْف.

ـ أمّا أمثلةُ التناسب في الإطلاق فكثيرةٌ كقول أبي نُوَاس:

نَسِيبُكَ مَنْ ناسَبْتَ بالوُدِّ قلْبَهُ وجارُكَ مَنْ صافَيْتَ لا مَنْ تُصاقِبُ

وقول الآخر:

وتَرْمِينَنِي بالطَّرْفِ، أيْ أنتَ مذنبٌ وتقلِينَنِي، لكنّ إيّاكِ لا أَقْلِي

ـ العدول عن التناسب لغَرضٍ بلاغيّ:

ذكرْنا أنّ ثمّة أوضاعًا يزداد الوصْلُ فيها حُسْنًا، ورأينا أنّ هٰذه الأوضاع تدور في فلَك التناسب بين الجملتين في بعض النواحي. ويحْسُن أنْ نشير ها هنا إلى أنّ هذا التناسب ليس مطْلَقًا في تحقيقه حسْنَ الوصل بين الجملتين، فقد يُعْدَل عنه لأعراضٍ بلاغية منها:

١ ـ حكايةُ الحالِ الماضية واستحضار الصّور الغريبة في الذهن، كما في قوله سبحانه: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾. فالتّكذيب حدث في الماضي والقتلُ حدَث في الماضي، لكنه عُبِّر عن القتْلِ بلفظ «المضارعة» لِفظاعة الأمرِ وقَصْدِ استحضار صورته البغيضة في النفوس. وهكذا تَلحظ أنّ التناسبَ بين الفعلين عُدِل عنه لغرضٍ بلاغي هو حِكايةُ الحال الماضية وتمثيلُ صورتِها أمامَ البصيرة كأنّها تجري الآن، والذي يسّر ذلك وأمكنَ منه هو الفعلُ المضارعُ «تقتلون». ومِثْلُه قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

٢ ـ إفادةُ التجدُّد في إحدى الجملتين والثّبوت في الأخرى، كقوله سبحانه: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾. كانوا يزعمون أنّ مجيئه لهم بالحقّ أمرٌ حادثٌ، وأنّ اللّعِبَ حالةٌ دائمة لإبراهيم عليه السّلام.

وهكذا استفهموا عن حدوث مجيئه لهم بالحقّ بالجملة الفِعلية، لإفادتها التجدّد والحدوث؛ وعن كونه من العابثين بالجملة الاسمية، لإفادتها الثبوتَ والدّوام.

ومِثْلُه قولُه سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾. فقد قُصِد بالجملة الأولى التجدّدَ والحدوث، وبالثانية «الثبوتَ والدوام».

ومحصِّلةُ القول في هذا الشأن: **أنّ التناسبَ بين الجملتين إنّما يُعَدُّ من محسّنات الوَصْل عندما يتّفق ومرادَ المتكلّم، أمّا عندما يخالف هذا المرادَ فلا يُعَدّ من الأمور التي تُضفي على الوصل طلاوة وحسْنًا.**

* * *

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ الفَصْل والوَصْل (١):

ـ حدِّدْ سببَ الفَصْل والوَصْل فيما يأتي:

١ ـ إنّما الدّنيا فَناءُ   ليس للدّنيا ثُبوتُ

٢ ـ اخْطُ معَ الدّهْرِ إذا مَا خَطا   واجْرِ معَ الدّهْرِ كما يَجْري

٣ ـ قال سبحانه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾.

٤ ـ قال سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ حُكْمُ المَنيّةِ في البَريّةِ جاري   ما هذه الدُّنيا بِدَارِ قَرارِ

٦ ـ استعدَّ أخي للسّفر، حزمَ أمتعتَه.

٧ ـ قال سبحانه: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾.

٨ ـ مَنْ لِلْمَحافلِ والجَحَافلِ والسُّرى   فقَدَتْ بِفَقْدِكَ نيِّرًا لا يطْلُعُ

٩ ـ يظنّ أحمدُ أنّني أكرهُه أراهُ مخطِئًا في تصوُّره هٰذا.

١٠ ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾.

ـ الإجابات:

١ ـ فُصِل بين صَدْرِ البيت وعَجُزِه؛ لِكَمال الاتّصال بين الجملتين؛ فإنّ الثانية تأكيدٌ للأولى.

٢ ـ وُصِل بين الجملتين؛ لما بينهما من التوسّط بين الكمالين مع عدَمِ المانع من العَطْف؛ فقد اتفقتا إنشاءً ووُجِدَتْ بينهما مناسبة.

٣ ـ فُصِل بين الجملتين؛ لِمَا بينهما من كمال الانقطاع

لاختلافهما خبرًا وإنشاءً؛ أو لِمَا بينهما من شبه كمال الاتّصال؛ فإنّه يصِحّ أن تكون الثانيةُ جوابًا عن سُؤالٍ مقدّر نشأ عن الأولى؛ فكأنهم تساءلوا: وهَلْ للاستغفارِ من نتيجة؟ ـ فأجاب: إنه كان غفّارًا.

٤ ـ فُصِلَ بين الجملتين؛ لِما بينهما من شِبْه كمال الاتّصال؛ إذ يصِحّ أن تكون الثانيةُ جوابًا عن سؤالٍ ناشئ عن الأولى.

٥ ـ فُصِلَ العَجُزُ عن الصّدْر؛ لِمَا بينهما من كمال الاتّصال؛ إذ إنّ الثانية بمثابة التّوكيد المعنويّ للأولى.

٦ ـ فُصِل بين الجملتين؛ لما بينهما من كمال الاتّصال؛ إذ إنّ الثانية من الأولى بمثابة عَطْفِ البَيان.

٧ ـ وُصِل بين الجملتين؛ لِمَا بينهما من التوسّط بين الكمالين، حيث اتفقتا إنشاءً مع التناسب التامّ بين المفردات.

٨ ـ فُصِل بين الصَّدْر والعَجُز؛ لِما بينهما من كمال الانقطاع المتمثّل في اختلافهما خبرًا وإنشاءً.

٩ ـ فُصِل بين الجملتين؛ لما بينهما من شبه كمال الانقطاع؛ إذ يُوهِمُ عطْفُ جملة «أراه مخطئًا» عل جملة «يظنّ» أن جملةَ «أراه» معطوفةٌ على جملة «أنّني أكرهه» لقُرْبها منها، فتكون من مَظْنوناتِ أحمدَ، وهو غيرُ مُراد.

١٠ ـ وُصِل بين الجملتين، لما بينهما من التوسّط بين الكمالين المتمثّل في اتفاقهما خبرًا لفظًا ومعنًى مع المناسبة التامة بين مفرداتهما.

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ الفَصْل والوَصْل (٢):

ـ حدّدْ سببَ الفَصْل والوَصْل فيما يأتي:

١ ـ اصبِرْ على كيْدِ الحسودِ لا تضْجَرْ من مكائده.

٢ ـ قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾.

٣ ـ فمَا الحَداثةُ عن حِلْمٍ بِمَانعةٍ　قَدْ يوجَدُ الحِلْمُ في الشّبّانِ والشِّيبِ

٤ ـ أنت حسَنُ السّيرةِ تصنعُ المعروف وتُغيث الملهوف.

٥ ـ قال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.

٦ ـ ظلّ يسْعى إلى المَعَالي بِجِدٍّ　والعُلا لا تُنالُ إلّا بكَدِّ

٧ ـ لا تطلُبَنَّ بآلةٍ لكَ حاجةً　قلَمُ البليغِ بغَيْرِ حَظٍّ مِغْزَلُ

٨ ـ قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٠ ـ قال سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

ـ الإجابات:

١ ـ فُصِل بين الجملتين؛ لِمَا بينهما من كمال الاتّصال المتمثّل في أنّ الثانية بمثابة التوكيد اللفظيّ للأولى.

٢ ـ فُصِل بين الجملتين؛ لِمَا بينهما من كمال الاتّصال المتمثّل في أنّ الثانية بمثابة بدل اشتمال منِ الأولى.

٣ ـ فُصِل بين الجملتين؛ لما بينهما من شبه كمال الاتصال المتمثّل في أنّ الثّانية بمثابة الجواب عن سؤالٍ ناشئٍ عن الأولى، وكأنّ سائلاً سأل: وكيفَ لا تحولُ حَداثةُ السِّنّ دون العقل؟ ـ فأجاب: قد يوجد الحِلْمُ. . .

٤ ـ فُصِلت الثّانيةُ عن الأولى؛ لِما بينهما من كمال الاتّصال؛ إذ إنها بيانٌ لها.

٥ ـ فُصِلت الجملتان الثّانية والثّالثة عن الأولى؛ لأنّ كلاًّ منهما بمثابة التوكيد المعنويّ للأولى؛ فبينهما كمالُ الاتّصال.

٦ ـ وصِل بين الجملتين؛ لِمَا بينهما من التوسّط بين الكمالين المتمثّل في اتفاقِهما خبرًا، ووجودِ المناسَبة، وعدمِ وجود مانع العطف.

٧ ـ فُصِل بين الصَّدْرِ والعَجُز؛ لما بينهما من شبه كمال الاتصال المتمثل في أنّ العجزَ بمثابة الجواب عن سؤال ناشىءٍ عن الصدر، فكأنّ سائلاً سأل: ولِمَ لا ينبغي طلبُ الحاجة بالآلة؟ ـ فأجاب: قلمُ البليغ..

٨ ـ فُصِل بين الجملتين؛ لِمَا بينهما من كمال الاتّصال؛ إذ الثانيةُ بمثابة التوكيد المعنويّ للأولى؛ لأنّ تقريرَ كونه وحْيًا نفيٌ لِأَنْ يكون عن هوى.

٩ ـ وُصِل بين الجملتين؛ لِما بينهما من التّوسّط بين الكمالين بوجود المناسبة، وعدم وجود المانع من العَطْف.

١٠ ـ فُصِل بين الجملتين؛ لِما بينهما من كمال الاتّصال المتمثّل في أنّ الثّانية بدلُ بعْضٍ من كلّ.

أسئلةٌ تُطلَبُ إجابتُها على نحو ما تقدّم:

ـ حدِّد سببَ الفَصْل والوَصْل فيما يأتي:

١ ـ قال سبحانه: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ﴾.

٢ ـ قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

٣ ـ لا، وطيّبَ الله ثَراه.

٤ ـ قال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

٥ ـ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾.

٦ ـ قال سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

٧ ـ قال سبحانه: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

٨ ـ أخُوكَ في البيتِ، السَّماءُ صافيةٌ.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ﴾.

١٠ ـ يزعمُ صَديقي أنّي أحسِده على ما عندَه أراهُ مخطئًا في هٰذا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثامن

المعنى وطولُ العِبارة عنه:

المساواة ــ الإيجاز ــ الإطناب

ويتضمّن:

ـ تقديم في دِلالة المساواة والإيجاز والإطناب.

ـ المساواة (حدُّها ـ أمثلةٌ لها).

ـ الإيجاز (نوعاه: إيجازُ القِصَر ـ إيجاز الحذْفِ ـ وجْهَا المحذوف).

ـ الإطناب (أنواعه: الإيضاح بعد الإبهام ـ التوشيع ـ عطف الخاصّ على العامّ ـ عطف العامّ على الخاصّ ـ الإيغال ـ التكرير وأغراضه ـ التكميل أو الاحتراس ـ التتميم ـ التذييل وقسماه وجمالياته ـ الاعتراض وأغراضه).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ـ تقديم في دِلالة المُساواة والإيجاز والإطناب:

كلُّ ما يقصِدُ الإنسانُ إلى التَّعبيرِ عنه وإيصالِه إلى الآخرين من المعاني والانفعالات يمكنُه أن يعبِّر عنه بثلاث طرائق كلاميّة:

أ ـ المُساواةُ، وهي أن يكون لفظُ المتكلّم بمِقْدار أصْلِ مُرادِه لا يزيد عنه ولا ينقص.

ب ـ الإيجازُ، وهو أن يكون لفظُ المتكلّم ناقصًا عن أصْل مُراده، لكنّه مؤدٍّ لِدِلالته الكاملة.

جـ ـ الإطنابُ، وهو أن يكون اللفظُ زائدًا عن أصْل المراد؛ لفائدة إضافية.

وفي مقدور البليغ أن يختارَ الطريقةَ التي يشاء، على شرْط أن يجيء هذا الاختيارُ مطابقًا لمقتضى حال المخاطب. فمَقامُ المساواةِ يقتضي منه أن يجعل ألفاظَه مساويةً لمعانيه؛ ومقامُ الإيجاز يقتضي منه إنقاصَ مِقْدار ألفاظِه عن معانيه؛ ومقامُ الإطناب يُمْلي عليه أن يجعل ألفاظَه أكثرَ من معانيه. إذْ لكلِّ مقامٍ مقالُه المناسب.

فلدينا ها هنا، إذًا، ثلاثة موضوعات:

ـ أولًا: المساواةُ.

ـ ثانيًا: الإيجازُ.

ـ ثالثًا: الإطنابُ. ويقتضي المقامُ أن نفصّل القولَ في كلٍّ منها.

أولًا ـ المساواة:

لا تبعد الدّلالةُ الاصطلاحيّةُ لـ«المساواة» عن دِلالتها اللغوية. فـ«المساواةُ» في اللّغة مصدرُ الفِعْلِ «ساوى بين الشيئيْن» إذا ماثلَ بينهما. ومن ثَمّ فإنّ «المساواة» ـ من حيث هي أسلوب ـ حالٌ للكلامِ يتطابق فيها اللفظُ والمعنى من حيث المقدار. وتُعْرَف المساواةُ بين المعنى والعبارةِ التي تُختار لتأديته بالقياسِ إلى كلام الأوْساطِ من النّاس الذين لم يرتقُوا إلى مرتبة البلاغة ولم ينحطّوا إلى دَرْكِ العِيِّ والفَهاهة. فإنْ ماثلَ مقدارُ تعبيرِك عن معنًى من المعاني مِقْدارَ التعبيرِ عن هذا المعنى لدى أوساط النّاس، فطرْيقتُك هذه «مساواة». ويجعل علماءُ البلاغة من صور المساواة في الأساليب قولَه سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾. وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾.

ومن صُوَر المساواة في الشعر قولُ النّابغة:

فإنّكَ كالليلِ الّذي هوَ مُدرِكي ... وإنْ خِلْتُ أنَّ المنتأىٰ عنكَ واسِعُ

وقول أبي ذُؤَيبٍ الهُذَلِيِّ:

والنّفسُ راغبةٌ إذا رغّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنَعُ

والملاحظُ في هذه الأمثلة تكافؤٌ بين المعنى والمَبْنى في المقدار، دون زيادةٍ أو نقصان.

ومساواةُ اللّفظ للمعنى معْلَمٌ من معالم البلاغة ومِيْسَمٌ من مياسمِ البَراعةِ لا يتأتّى إلّا لأفذاذِ البُلغاء وأساطين الكلام.

والمُساواةُ هي المقدارُ الوسَطُ، والمستوى الذي تُنْسَبُ إليه طرائقُ التعبير الأخرى، فما نقصَ عن مِقْدار «المساواةِ» دون إخلالٍ بالمُراد سُمِّيَ «إيجازًا» ومازاد عنه لفائدةٍ سُمِّي «إطنابًا».

ثانيًا ـ الإيجاز:

تقولُ العربُ: «أَوْجَزَ الكَلامُ: قَلَّ، وأوجزَ الرَّجُلُ كلامَه: قلّله». وقد أسلفْنا أنّ «الإيجازَ» هو أن يكون اللّفظُ ناقصًا عن أصْلِ المُراد مؤدّيًا لدِلالته الكاملة. ويعني ذلك تكثيفَ اللَّفْظِ وتركيزَه على نحوٍ تخرج فيه العبارةُ مُثقَلةً بالدِّلالةِ مُشْبَعةً بالمعنى. وقد رأى فيه العربُ صورةً مُثلى للبيان العالي، وأَنِسُوا فيه جماليةً أعلَوا من شأنها كثيرًا، حتى عدّه بعضُهم خيرَ الكلام حين قال:

خـيـرُ الـكـلامِ قـلِـيـلُ عـلـى كـثـيـرٍ دلـيـلُ

واشترط علماءُ البلاغة لِقُبول الإيجاز وتفضيلِه أن تؤدّيَ العبارةُ المعنى دون إنقاصٍ، فإن كان ثمَّةَ انتقاصٌ من الدِّلالة سمَّوا ذلك «إخْلالًا» لا «إيجازًا». ومن أمثلة الإخلال عندهم قولُ الحَارثِ بن حِلِّزةَ اليَشْكُرِيِّ:

والـعَـيْـشُ خـيـرٌ فـي ظِـلا لِ الـنَّـوْكِ مِـمَّـنْ عـاشَ كـدًّا

فما أراد الشاعرُ قولَه هو: إنَّ العيش الهانىء الرغيدَ مع الحُمْق خيرٌ من العيش الشاقّ المُجْهِد مع العقل. لكنّ عبارته لمْ تُسعِفْه؛ إذ لا تدلُّ دِلالةً واضحةً على هذا المراد؛ ذلك أنه ذكر العيشَ على الإطلاق ودون تحديدٍ لنوعٍ معيَّن منه؛ ممّا أوقعه في نقيصة الإخلال.

ولا تُسمّى طريقةُ تعبيرِه هذه «إيجازًا»؛ لأنّها قصّرتْ عن أداء مُراده من التعبير. ويجعلون من الإخلال أيضًا قولَ عُرْوةَ بنِ الوَرْد:

عَـجِبْتُ لهـمْ إذ يقتُـلونَ نُفوسَهُم ومقـتَـلُهُمْ عنـدَ الـوغـىٰ كـانَ أَعْـذَرَا

أراد عُرْوةُ أن يقول: عَجِبْتُ لهمْ إذْ يقتلون نفوسَهم في السِّلْم، لكنّ عبارته لا تدلّ على ذلك؛ ممّا أوقعَه في نقصية «الإخلال».

نوعا الإيجاز:

للإيجاز نوعان، هما:

١ ـ إيجازُ القِصَر:

ويُسمّونه «إيجازَ البلاغةِ». ويتحقّق بأداء المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة دون حذف. وهذا الضَّرْبُ هو الذي تطمحُ إليه أبصارُ البلغاء، وتتوق إليه قلوبُهم، وهو الحَلْبةُ التي يتنافس فيها المتنافسون. وللقرآنِ الكريم الحظُّ الأوفرُ من هذه الخَصْلة. ومن صور الإيجاز في الذّكر الحكيم قولُه سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. فتَحْتَ كلٍّ من هذه التعابير القِصار تنطوي دِلالةٌ كَبيرة يستلزم تحديدُها فيْضًا من الكلام. وتأمّلْ ما يقولُ القاموسُ المُحيط في مادّة «العَفْو»: «العَفْوُ: عَفْوُ الله، جلّ وعزّ، عن خَلْقِه، والصَّفْحُ، وتركُ عُقوبةِ المستَحِقّ، والمحْوُ، والامّحاءُ، وأَحَلُّ المالِ وأطْيبُهُ، وخِيارُ الشيءِ وأجوَدُه، والفَضْلُ، والمعروفُ...». ولسْتُ إخالُك إلّا أدركْتَ بعضَ المدلولاتِ الكثيرة لهذه الآية الكريمة.

ومِمّا هو مَضرِبُ المَثَلِ في هذا الضَّرْب من الإيجاز قولُه سبحانه: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾. فقد تضمنّت هذه الجملةُ من المعاني ما تنوءُ بِحَمْله الجُمَلُ الكثيرة. إذ جعلتْ في قَتْلِ القاتل حياةً للناس. أما كيفَ يكون في القِصاص حياةٌ فواضِحٌ من أنّ الإنسانَ، حين يضعُ في حِسابه أنّه متى قتلَ اقتُصّ منه فقُتِل، يتفادى القَتْلَ ويمتنعُ عنه أيّما امتناع. وفي هذا حياةٌ له وحياةٌ لمن هَمَّ أن يقتلَه، وحياةٌ لمجموعة كبيرة لا يُعْرَف لها عَدٌّ. وهكذا تنطوي الآيةُ الكريمةُ على دِلالةٍ كبيرة دونَ أن يكون فيها حَذْف. وإنّه لا يُدانيها في بلاغةِ الإيجازِ قولُ العرب «القَتْلُ أنفىٰ لِلْقَتْلِ». وقام نفرٌ من علماء البلاغة بعَقْد مقارنةٍ بين الآية الكريمة وقولِ العرب، وانتهوا إلى تفوّق النصّ الكريم على النصّ العربيّ لأمورٍ، أهمُّها:

١ ـ حُروفُ النَّصّ القرآنيّ، الملفوظةُ عشَرةٌ وحُروفُ النَّصّ العربيّ أربعةَ عشر، فهو أقلُّ لفظًا وأوفى معنًى.

٢ ـ يوضِحُ النصُّ القرآنيّ المطلوبَ وهو «الحياةُ»، فيكون أزْجَرَ عن القَتْل بغير حقّ؛ لِكَونه أدعى إلى الاقتصاص، بينما يدلّ النَّصُّ العربي على «الحياة» لُزومًا لا نصًّا، وفرْقٌ بين التّصريح بالمطلوب والإيماء إليه من بعيد.

٣ ـ يُفيدُ تنكيرُ كلِمة «حياةٌ» في النصّ القرآنيّ كونَها حياةً عظيمة؛ إذ هي حياةٌ للجميع، وليس ذلك في النصّ العربيّ.

٤ ـ يُفِيد النصُّ القرآنيُّ أنّ القِصاصَ سَببٌ في الحياة في كلّ الأزْمانِ والأمكنة ولدى كلّ الأفراد، في حين أنّ القَتْل في النصّ العربيّ ربّما لا يكون أنفى للقتل.

٥ ـ سلامةُ النصّ القرآنيّ من التكرار، ووقوع النصّ العربيّ فيه.

٦ ـ أدخلَ النصُّ القرآنيُّ «في» على «القِصاص»، وهذه الصِّيغةُ تجعلُ القِصَاصَ كالمَنبع الذي لا يتوقّفُ للحياةِ، وليس في النّصّ العربيّ شيءٌ من هٰذا.

٧ ـ تحلّى النصُّ القرآنيّ بِزِينة «الطِّباق» بين «القصاص والحياة»، وخلا النصُّ العربيّ من ذٰلك.

٨ ـ يَفُوحُ من النصّ القرآنيّ عَبيرُ عدالةِ السَّماء؛ إذ مؤدّى الأثرِ الكريم هٰكذا: في نَوْع من القَتْل حياةٌ عظيمةٌ. ففيه، من ثمّ، وعْيُ الأشياءِ بكلّ أبعادها. أمّا النصّ العربيُّ فتفوحُ منه رائحةُ ظُلْمِ الجاهلية وتعميماتُها التي لا تُبقي ولا تذَر.

٩ ـ ثمّة فرْقٌ هائلٌ تتلمّسُه البصيرةُ المُستنيرةُ بين «القِصاص» المُوحي بجِناية الجاني على نفسه وبين «القتْل» الذي قد ينصرِف إلى غير الجاني.

ومِن الإيجاز قولُه سبحانه: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾. هذه الآيةُ التي حارَ في فَصاحتها جميعُ البلغاء.

ومن صُوَره الرائعة في الشعر قولُ الشَّريفِ الرَّضِيِّ يصفُ قومًا بالشجاعة في أثناء وصْفهم بالغَرام:

مَالُوا إلى شُعَبِ الرِّحالِ وأسْنَدوا أيْدِي الطِّعانِ إلى قُلوبِ تخْفُقُ

٢ ـ إيجاز الحَذْف:

ويتحقّق بأداءِ المعنى مع حذْفِ شيء من التّركيب تدلّ عليه قرينةٌ. والجزءُ المحذوف أنواعٌ كثيرة. فقد يكون:

١ ـ حرْفًا، كقوله سبحانه: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا﴾، حيث حُذفت نون «أكن» تخفيفًا.

٢ ـ أو اسمًا مُضافًا، كقوله سبحانه: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ أي: «أهل» القرية. وكقوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾، أي: تَناوُلُها، وقوله سبحانه: ﴿حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾، أي: «تناولَ» طيّبات.

٣ ـ أو اسمًا مضافًا إليه، كقوله سبحانه: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾، أي: بِعَشر «لَيالٍ». وقوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾، أي: من قبل «ذلك» ومن بعْده.

٤ ـ أو اسمًا موصوفًا، كقوله سبحانه: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾، أي: «حُورٌ» قاصراتُ الطّرْف. وقوله سبحانه: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، أي: «عملاً صالحًا». وقوله سبحانه: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾، أي: «دُروعًا» سابغات.

٥ ـ أو اسمًا صفةً ـ وهو قليلٌ في كلام العرب، كقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ أي: كلّ سفينة «صالحة». وقوله سبحانه: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ أي: مضافًا إلى رِجْسِهم.

٦ ـ أو شرطًا، كقوله سبحانه: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: فإن تتبعوني يُحْبِبْكم الله.

٧ ـ أو جوابَ شرْطٍ، وهو نوعان:

أ ـ أن يُحذفَ لمجرّد الاختصار، كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: أعرضوا. وكقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: لكان هذا القرآنَ.

ب ـ أن يُحذَف للدّلالة على أنّه شيءٌ لا يُحيط به الوصْفُ وأنّ العبارةَ عاجزةٌ عن تحديدِه؛ لِتَذْهبَ النّفسُ في تصوّره كلَّ مذْهَب، كقوله سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾. حُذِف جوابُ الشّرْط هنا لتتخيّلَ النّفسُ ما شاءت أن تتخيّلَ مُطْلَقةَ العِنان لا يعوقُ تصوّرَها تعبيرٌ أيًا كانت قدرتُه على التصوير. والتصوّرُ البشريّ مقيّدٌ بمُعْطَياتِ الحِسّ من المرئيّ والمَسْموعِ، ومن ثم يظلّ التعبيرُ دون الغاية. ألم يقُلِ المصطفى ﷺ مشيرًا إلى الجنّة: «فيها ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أذنٌ سَمِعَتْ، ولا خطرَ على قلْبِ بَشَر»، منبّهًا على قُصور تصوّر البشر.

ومن هذا أيضًا قولُه سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾. وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٨ ـ أو مسندًا، كقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، أي: خلقهن الله.

٩ ـ أو مسندًا إليه ـ كما في قول حَاتمِ الطّائيّ:

أَمَاوِيَّ مـا يُغـنـي الـثّـراءُ عـن الـفـتـىٰ إذا حشرَجَتْ يومًا وضاقَ بِها الصَّدْرُ

أي: حشرجت «النّفسُ» يومًا.

١٠ ـ أو متعلّقًا، كقوله سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عمّا يفعلون.

١١ ـ أو جملةً، كقوله سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، أي: فاختلفوا، فبعث. وكقوله سبحانه: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ﴾، أي: فضَربَ بها فانفجرت.

١٢ ـ عددًا من الجمل، كقوله سبحانه: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾. أي: فأَرسِلُوني إلى يوسُفَ لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه إليه، فأتاه، فقال له: يا يوسف.

وجهانِ للحَذْف:

يستخدِمُ البلغاءُ الحَذْفَ على وجهين:

١ ـ أن يُقيموا مقامَ المحذوف شيئًا يدلّ عليه، كقوله سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ لا تكون جملةُ «فقد كذّبت رُسُل» جوابَ الشرط؛ لأنّ جواب الشَّرْط ينبغي أن يترتّب مضمونه على مضمون الشّرْط، وليس الأمرُ كذٰلك هنا؛ لأنّ تكذيبَ الرّسلِ سابقٌ لتكذيب النبيّ عليه الصّلاةُ والسلام. وجملةُ «فقد كذّبت» علّةٌ للجواب المحذوف، وهو «الصّبر على الابتلاء». ويمكن تقدير الكلام هٰكذا:

«وإن يكذّبوكَ ـ فاصْبِرْ ولا تحزَنْ ـ فقد كُذّبتْ رسلٌ من قبلك»، فحالُك كحالهم. فهٰذه، إذًا، دعوةٌ للتأسّي وتعزية النفس.

٢ ـ ألاّ يقيموا مقامَ المَحْذوف شيئًا يدلّ عليه، بل يتركوا أمرَ

إدراكه إلى القرينة الدّالّة. وفي هذه الحال يُستدَلُّ على الحَذْف بأدلّةٍ، منها:

أ ـ العقلُ والعُرْفُ، كما في قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾، أي: حُرّم عليكم أكْلُها والانتفاعُ بها. وقد دلّ العقلُ على أنّ في الكلام حَذْفًا، وحدّد العُرْفُ نوعَ المحذوف، وهو «الأكْلُ والانتفاع»؛ إذْ شأنُ الناس أن يستفيدوا من المذبوح المحلَّل في هٰذين الأمرين.

ب ـ العقلُ والشّروعُ في الفِعْل، كما إذا قال القارىءُ: «باسم الله»؛ أي: باسْم الله أقرأُ. حيث دلّ العقلُ على أنّ في الكلام حَذْفًا لحاجة الجارّ والمجرور إلى التعليق، ودلّ الشروع في الفعل (وهو هنا القراءةُ) على خُصوص المحذوف وهو «أَقرأُ». وكذا الأمرُ في تقدير متعلَّق البَسْملة عند البدء بكلّ فعل.

جـ ـ العقلُ وحدَه، حيث يُعتمد عليه في تبيّن الحَذْف وفي تحديد المحذوف، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾. أي أمرُ ربك. قال الزّمخشريُّ: «إنّ هذا تمثيلٌ لظهورِ آياتِ اقتداره وتبيّنِ آثار قَهرِه وسُلْطانه، مُثّلت حالُه في ذٰلك بِحالِ المَلِك إذا حضَر بنفسه ظهرَ بحضوره من آثار الهيبة والسّياسةَ ما لا يظهرُ بحُضورِ عساكِره كُلِّها ووُزرائه».

د ـ ارتباطُ الكلام بمناسبةٍ معيّنة، كقولِكَ لِمَنْ أَعْرَسَ: «بالرِّفاء والبنينَ»، أي: بالرِّفاءِ والبنينَ أعرسْتَ. وكقولِكَ لمن أتىٰ من أداء فريضة الحجّ «حجًّا مبرورًا وسَعْيًا مشكورًا» أي: «حججْتَ حجًّا مبرورًا وسعيتَ سعيًا مشكورًا».

ثالثًا ـ الإطناب:

الإطنابُ ـ كما قدّمنا ـ أن يكون اللّفظُ زائدًا على أصْلِ المراد

لفائدةٍ. ويتحقّق هذا حين يؤدّي المتكلّمُ معناه بعبارةٍ زائدة عمّا يستحِقّ أداءُ هذا المعنى وتوصيلُه حَسْبَ متعارَفِ أوْساطِ الناس؛ بمعنى أن تكون عبارتُه التي يوصِّلُ بها هٰذا المعنى أطولَ من عبارةِ متوسِّطِيّ الناس عن هٰذا المعنىٰ نفسه، لو حدث أنّهم عبّروا عنه.

وشرْطُ زيادة العبارةِ أن تكون لفائدةٍ. ومِثالُ ذٰلك من الذّكر الحكيم قولُه سبحانه حكايةً عن زكريّا عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

مِثْلُ هذا المعنى يمكن أن يؤدّى حسْبَ متعارف الأوساط بأن يقول سيِّدنا زكريّا عليه السّلامُ: «ربِّ، إنّي كَبِرْتُ». هذه الألفاظُ الثلاثة هي التي يستحقّها أصْلُ المراد، وما زاد عن ذلك داعيةٌ إلى وصْفِ العبارة بـ«الإطناب» على غرار ما جاء النصُّ القرآنيّ. ولكنّ هذه الزيادةَ يقتضيها موقفُ بثِّ الشّكاية واستدْرارِ الرّحمة واستعطاف الباريء، جلّ وعلا.

ومِثالُ «الإطناب» أيضًا قولُه سبحانه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾. فمقولُ كَلِيم الله ـ عليه السّلامُ ـ يُمكن تأديتُه بلفظٍ أقلّ في متعارف الأوساطِ، كأن يُقال: «هِيَ عَصا» لكنّ هذه الزيادة في العِبارة يقتضيها مَقامُ التكلّم مع الحبيب؛ حيث يثير المتكلّمُ من الأحاديث ما لَزِمَ وما لَمْ يلزم؛ لإطالة أمدِ الحديث والظّفر بالمُشاهدة. وعن هذا المعنى صدَرْتُ حين قُلْتُ أخاطب مدينة الرَّقّة[1]:

جارةَ الشّطِّ، حدِّثينا وزيدي   فحديثُ العشّاق شَوْقًا يَزيدُ

وقد تكون الزيادةُ في اللّفظ لغيرِ فائدةٍ، فلا تُسمّىٰ «إطنابًا»، بل هي أحدُ شيئين:

---

(١) عيسىٰ العاكوب. ◦

١ـ تَطْويل، وذلك حين تكون الزّيادةُ في الكلام غيرَ متعيِّنة، كقول عَدِيّ بنِ زَيْدٍ العِباديّ يصوّر فِعْلَ الزَّبّاء بِجَذيمةَ بن الأَبْرَش:

وقَـدَّدَتِ الأديـمَ لِـراهِـشَـيْـهِ وأَلْـفـىٰ قـولَـهـا كَـذِبًـا ومَـيْـنـا

قدَّدَت: قطَّعت. والرّاهِشان: العِرْقان في بطن الذراع. والشّاهدُ قولُه: «كذبًا ومينًا» فالكذِبُ والمَيْنُ بمعنًى واحد، ولا فائدة في الجمع بينهما، وليس في مقدورنا أن نحدِّد الزائدَ منهما، إذ في مقدورنا حذفُ أيٍّ منهما دون تغيّر المعنى. ومِنْ ثمّ يسمّىٰ هذا «تطويلاً».

ومِثْلُه أيضًا قولُ الشّاعر:

ألا حـبّـذا هِـنْـدٌ وأرضٌ بِـهـا هِـنْـدُ وهِنْدٌ أتى مِنْ دونِها النَّأْيُ والبُعْدُ

فالنّأيُ والبُعْدُ بمعنًى واحدٍ، وليس في مقدورنا تعيينُ الزائد منهما.

٢ ـ حَشْو، وذلك حين يكون في مقدورنا تعيينُ الزائد. وهو ضربان:

(أ) حشْوٌ مُفْسِدٌ للمعنى، وهو زيادةٌ متعيّنة دون فائدة، كزِيادة لفظ «النّدى» في قول المتنبّي يرثي غلامًا:

ولا فضْلَ فيها للشّجاعةِ والنّدىٰ وصَبْرِ الفتى لولا لِقاءُ شَعُوبِ

شَعوب: اسمُ المنيّة. يريد الشاعرُ أن يقول إنّ الذي جمّل الشّجاعةَ والكرَمَ والصَّبْرَ في الشّدائد هو صُعوبةُ الموت؛ فصعوبةُ الموتِ وكرْهُ الناس إيّاه هما اللّذانِ جعلا للشّجاعة والبذْل والصّبر هٰذه القيمةَ التي نعرفها.

وهٰذا الاستنتاج صحيحٌ بالنّسبة إلى الشجاعة والصّبر، وغيرُ صحيح بالنّسبة إلى النّدى. فلا فضلَ حقيقةً للشّجاعة عندما يتيقّنُ الشّجاع عدمَ الهلاك، ولا فضلَ حقيقةً للصّبر عندما يتيقّن الصابرُ زوالَ

المكروه. والفضلُ كلُّ الفَضْلِ للرّجل يبذل مالَه وهو متيقّن الخلودَ في الحياة وعارفٌ حاجتَه الدائمة إلى المال. وهكذا فإن إدراج «النّدى» في سياق الحديث عن الشّجاعة والصّبر في هذا المقام لا يستقيم، وهو حشْوٌ مفسِدٌ للمعنى.

(ب) حشْوٌ غيرُ مفسدٍ، كلفظ «قبلَه» في قول زُهَيْرِ بن أبي سُلْمى:

وأعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ والأمسِ قبْلَهُ ولكنَّني عن عِلْمِ ما في غَدٍ عَمي

فقوله «قبلَه» زِيادةٌ متعيّنةٌ دون فائدة؛ لأنّ لفظَ الأمس يدلّ هو نفسُه على القَبْلِيّة، فلا حاجة إلى التّدليل عليها بلفظ «قبله». وما دام المعنى لا يبطلُ بوجودِ هذا اللّفظ، فهو إذًا «حشْوٌ غيرُ مُفْسِدٍ». ومثله قولُ الشّاعر:

ذكَرْتُ أخي فعَاودني صُداعُ الرَّأسِ والوَصَبِ

فالمعروف أنّ الصُّداع لا يكون في غير الرأس، ومن ثم فإضافته إلى الرأس زيادةٌ متعينة، لكنّ المعنى لا يبطل بذكرها؛ وهكذا فلفظ «الرأس» في البيت «حشْوٌ غيرُ مفسدٍ».

أنواع الإطناب:

للإطناب أنواعٌ كثيرة، ولعلّ أهمّها ما يأتي:

١ ـ الإيضاحُ بعد الإبهام، إذ يَعْمِدُ البلغاءُ أحيانًا إلى طريقةٍ في عرْضِ معانيهم يأتون فيها بالمعنى مُبْهَمًا أولًا، ومُوضَحًا ثانيًا. وذٰلك ليُرى المعنى في صورتين مختلفتين: إحداهما مبهمةٌ، والأخرى موضَحة، فيكون كعَرْض الحَسْناءِ في لِباسَيْن متغايرين، يُبرِز كلٌّ منهما جانبًا من جمالها. ولهذه الطريقة جماليّةٌ أخرى، وهي تمكينُ المعنى في النفس؛ وذٰلك لأنّ المعنى إذا أُلقي مبهَمًا تاقت النفسُ إلى معرفته

موضَحًا، فتتنبّه إلى ما يأتي بعد ذٰلك، فإذا جاءها كما تشتهيه تمكّن لديها فضلَ تمكّن، وكان شعورُها به أتمّ. وقد يحقّق جماليّةً ثالثة، وهي إكمالُ لذّة العِلْم بهذا المعنى؛ وذٰلك لأنّ الشيء الذي يُعْلَمُ دفعةً واحدةً لا يسبق حصولَ اللّذة به أَلَمٌ، وإذا عُلِمَ جزءٌ منه دون آخر تشوّقت النفسُ إلى تعرّف المجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذّةٌ، وبسبب حرمانها من الباقي ألمٌ، حتى إذا علمتِ الجزءَ المجهولَ حصلتْ لها لذّةٌ أخرى، ومعلومٌ من أحوال النفس أنّ اللّذةَ بعد الألم أقوى من اللّذة التي لم يسبقْها ألم.

ومن أمثلة الإطناب القائم على الإيضاح بعد الإبهام قولُه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾. وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾؛ فإن «اشرح» يفيد طلبَ شرح لشيءٍ ما لَهُ، وقوله: ﴿صَدْرِى﴾ يفيد تفسيرَه. وقوله سبحانه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾. جاء «الأمر» مبهمًا أوّلًا، ثمّ وُضِّحَ وبُيِّن في قوله سبحانه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾. وفي ذٰلك توجيهٌ للذّهن إلى معرِفته وتفخيمٌ لشأن المبيَّن وتمكينه في النفّس.

٢ ـ التّوشيع، وهو أن يُؤتى في آخرِ الكلام بمثنّى مفسَّرٍ بِاسْمَيْن ثانيهُما معطوفٌ على الأوّل. وبذلك يُرى المعنى في صورتين، يخرج فيهما من الإبهام إلى الإيضاح. وأصْلُ «التوشيع» في اللّغة: لفُّ القُطْن المندوفِ. فكأنّهم جعلوا التعبيرَ عن المعنى الواحد بالمثنّى المفسَّر باسْمين بمنزلة لَفّ القطن بعد النّدْف.

ومن أمثلة التوشيعِ في الشعر قولُ الشاعر:

سَقَتْنيَ في لَيْلٍ شَبيهٍ بِشَعْرِهَا   شَبيهةَ خدَّيْها بِغَيْرِ رقيبِ
فما زِلْتُ في لَيْلَيْنِ: شعْرٍ وظُلْمةٍ   وشَمْسَيْنِ: مِنْ خَمْرٍ ووجهِ حَبيبِ

والشاهدُ هنا قولُه: «لَيْلَيْنِ: شَعْرٍ وظُلْمةٍ» و«شمسَيْنِ: خمرٍ ووجه حبيبٍ».

وقال البحتريّ:

لـمّـا مَشَيْـنَ بِـذِي الأَراكِ تَـشـابَـهَـتْ أعْـطـافُ قُـضْـبـانٍ بـهِ وقُـدودِ
في حُـلَّـتَـيْ حِـبَـرٍ ورَوْضٍ فـالـتـقـى وَشْـيـانِ: وشْـيُ رُبًـى ووَشْـيُ بُـرودِ
وسَـفَـرْنَ فـامـتـلأتْ عـيـونٌ راقَـهـا وَزْدانِ: وزدُ جـنًـى ووزدُ خُـدودِ

قال في البيت الثاني: «وشيانِ: وشْيُ رُبًى ووشْيُ بُرُودِ»، وقال في الثالث: «وزدَانِ: وزدُ جنًى ووزدُ خدودِ».

٣ ـ عَطْفُ الخاصّ على العام للتّنبيه على فضْلِه حتى كأنّه ليس من جِنسه، كقوله سبحانه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وكقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ أُفرِدَ جبريلُ وميكالُ بالذّكر، مع أنهما من الملائكة؛ لفضلهما كأنهما من جنسٍ آخر.

٤ ـ عَطْفُ العامّ على الخاصّ للدّلالة على الاهتمام بالخاصّ بذكره مرّتين، كقوله سبحانه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾.

٥ ـ الإيغال، وهو خَتْمُ الكلامِ بما يُفيد نُكتةً يتمّ المعنى من دونها، كالمبالغة في التشبيه أو تحقيقه، أو زيادة الحثّ والترغيب. وأصْلُ «الإيغالِ» في اللّغة: الإبعادُ في الأمْرِ والوصولُ فيه إلى غايةٍ بعيدة.

ومن الإيغال الّذي يفيدُ المبالغَةَ في التشبيه قولُ الخَنساء:

وإنَّ صَـخْـرًا لَـتَـأْتَـمُّ الـهُـداةُ بـه كـأنَّـه عَـلَـمٌ فـي رأسِـهِ نـارُ

العلَمُ: الجبل. شبّهتْ صَخْرًا بالجَبل في الظّهور والارتفاع، وكان يكفيها ذٰلك تطاولًا وفخْرًا، لكنّها لم تكتفِ بهذا القدْرِ بل مضت حتى جعلتْ في رأس الجبل نارًا، مبالغةً في الظّهور والوضوح والاشتهار. ومهما يكن، فإنّ قول الخنساء «في رأسه نار» إيغالٌ للمبالغة في التّشبيه.

ومن الإيغالِ الذي يُفيد تحقيقَ التشبيه قولُ زُهَيْرِ بنِ أبي سُلْمىٰ:

كأنَّ فُتاتَ العِهْنِ في كلّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ به حَبُّ الفَنا لم يُحَطَّمِ

شبّه زهيرُ قِطَعَ الصّوفِ الصغيرةَ في منازلهنّ بحَبِّ الفَنا، وزاد على ذٰلك بأن جعل حبَّ الفنا غيرَ محطّم؛ لأنّ الفَنا أحْمَرُ الظّاهر أبيضُ الباطن، فلا يُشبهه الصّوفُ الأحمرُ إلّا حين يكون غيرَ محطّم. وهٰكذا فقولُه «لم يحطَّمِ» إيغالٌ تمّ المرادُ من دونه، ولكن جيء به لنكتةٍ هي تحقيق التشبيه.

٦ ـ التكرير، وهو ذِكْرُ الشيء مرّتيْن أو أكثرَ لأغراضٍ:

أ ـ التّأكيدُ وتقريرُ المعنى في النّفس، كقوله سبحانه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. أكّد الرَّدْعَ والإنذارَ بتكريرهما؛ ليكون ذلك أوقعَ للمعنى في النفس وأبلغ تأثيرًا فيها. ومثلُ ذلك أيضًا قولُه سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾. ذُكِر التعبيرُ نفسُه مرّتين؛ ليقع في رُوعِ الإنسان وجودُ اليُسْر مع العُسْر. وما أجملَ ما قال المُصطفى ﷺ: «ما غلبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»؛ إذ «العُسْرُ» المعرَّفُ واحِدٌ في التعبيرين، أمّا «اليُسْرُ» المنكَّر في التعبيرين فليس واحدًا، بل هما «يُسْرانِ».

ب ـ ملاينةُ المُخاطَبِ لِقُبول مضمونِ الخِطاب، كقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ

﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾، كرّر هذا المؤمنُ قولَه «يا قَوْم» تليينًا لِقُلوبهم وإظهارًا لإخلاصه لهم في النّصح؛ ليتلقَّوا الكلامَ منه بالقبول.

جـ ـ قَصْدُ الاستقصاءِ والاستيعاب، كقولِكَ: «مَشَيْتُ حَلبَ شِبْرًا شِبْرًا، وتعرّفتُ أعلامَها علَمًا علَمًا». والتّكريرُ في المِثالَيْنِ لِقَصْد بيانِ الاستيعاب والشّمول.

د ـ التّنويهُ بِشَأْنِ المتحدَّث عنه أو النَّيلُ منه:

الأوّلُ كقولِهم: «الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسُفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ».

والثاني كقولِ جَرير يهجو الفرزدقَ:

هُوَ القَيْنُ وَابنُ القَيْنِ لا قَيْنَ مِثْله   لِفَطْحِ المَسَاحي أوْ لِجَدْلِ الأداهِمِ

القَيْنُ: الحَدّاد. المَسَاحي: جمْعُ مِسْحاة: أداة تُسوّى بها الأرضُ. وفطْحُها: تسْوِيتُها وتَعْريضُها. والأداهِمُ: جمْعُ أدهَم، القَيْدُ. كرّر لفظَ «قين» ثلاث مرّات للنَّيلِ من مهجوّه، وإظهار أنّه حدّادٌ ابن حدّاد، متمكّنٌ من صنعته، مستغرِقٌ في شؤونها، ولا شأنَ له بمعالي الأمور.

هـ ـ المبالغةُ في التوجّع والتحسّر، كقولِ الحُسَين بن مُطَيْرٍ الأسديّ:

فيا قَبْرَ مَعْنٍ، أنتَ أوّلُ حُفرةٍ   مِنَ الأرضِ خُطَّتْ للسّماحةِ مَوْضِعَا

ويا قبرَ مَعْنٍ، كيفَ وارَيْتَ جودَهُ   وقدْ كانَ مِنْهُ البَرُّ والبَحْرُ مُتْرَعَا

كرّر الشّاعرُ تعبيرَ «يا قبرَ معْنٍ»؛ تعبيرًا عن توجّعه وتحسّره.

و ـ وَصْلُ الكلام؛ حيث يُكرّرُ ما قدْ بَعُدَ لئلّا يجيءُ الكلامُ مبتورًا لا طلاوةَ فيه، كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ

كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ﴾، كرّر لفظ «رأيت» بسبب طول الفَصْل بين «رأيت» الأولى، و«ساجدين». وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ومنه في الشّعر قولُ الشاعر:

لـقَـدْ عَـلِـمَ الـحَـيُّ الـيَـمـانـونَ أنَّـنـي إذا قُـلْـتُ أمّـا بَـعْـدُ أنّـي خـطـيـبُـهـا

كرّر «أنّني» بسبب طول الفَصْل.

ز ـ التّرديدُ، وهو تكريرُ اللّفظ متعلّقًا بغير ما تعلّق به أوّلاً، كقولهم: «السّخيُّ قريبٌ من الله، قريبٌ مِنَ الناس، قريبٌ مِنَ الجنّة. والبخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ مِنَ النّاس، بعيدٌ مِنَ الجنة».

ح ـ التلذّذ بذِكْره كقول مَرْوانَ بن أبي حَفْصَةَ:

سَقىٰ الله نَجْدًا والسّلامُ على نَجْدِ ويا حبّذا نجدٌ على القرْبِ والبُعْدِ

ط ـ الإرشادُ إلى الطريقة المثلى، كقوله سبحانه: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾.

ي ـ تعداد الأفضالِ لِحَمْل المخاطب على الإقرار، كقوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. لأنه سبحانه ذكرَ نعمةً بعد نِعْمةٍ وعقّب كلّ نعمةٍ بهذا القول، وبيّن أنّ الغرضَ من ذِكْره عقيبَ نعمةٍ غيرُ الغرض من ذكره عقيبَ نعمةٍ أخرى.

٧ ـ التكميلُ أو الاحتراس، وهو أن يخشىٰ المتكلّمُ فهْمًا خاطئًا لمُراده، فيكمّل بما يوضحُ هذا المرادَ، كقوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. زاد سبحانه: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لِيُفهِمَ أنّ تذلُّلَهم للمؤمنين ليس ناشئًا عن ضعْفٍ وعجز. وقوله سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ

﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾. زاد سبحانه: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾؛ لِيُفهِمَ أنّ شِدَّتهم على الكفّار ليست جِبِلّةً لهم وخُلُقًا لا يستطيعون منه فكاكًا.

ومنه في المنظوم قولُ طَرَفَةَ بنِ العَبْد يمدح قَتادةَ بنَ مَسْلَمَةَ الحَنَفيّ ويدْعو له:

فَسَقى دِيارَكَ غيرَ مُفسِدِها صَوْبُ الرَّبيعِ ودِيمَةٌ تَهْمِي

الدِّيمةُ: المطرُ يدوم وقتًا. تهمي: تسيلُ. لأنّ المطرَ قد يُفسِدُ الدِّيارَ ويأتي عليها، تحرّز عن ذٰلك بقوله «غيرَ مُفسِدها».

٨ ـ التَّتْميم، وهو أن يُؤتىٰ في كلام لا يوهِمُ خلافَ المقصود بزيادةٍ لغرضٍ بلاغيّ كالمبالغة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: مع حبّه. وقد زِيد قولُه سبحانه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ للتدليلِ على فرْط سخائهم؛ لأنّ الجودَ الحقيقيَّ لا يكون حتى تجودَ وما لديكَ قليل. وقد يكون الغرضُ البلاغيّ تقليلَ المدّة، كما في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾. الإسْراءُ في اللّيلِ دائمًا، فزيدت «ليلاً» للدّلالةِ على تقليلِ مدّة الإسراء وأنّه كان في بعض اللَّيْلِ؛ فالتّنكيرُ فيه يدلّ على معنى البَعْضِيّة.

٩ ـ التذييلُ، وهو تعقيبُ جملةٍ بأخرى تتضمَّنُ معناها؛ تأكيدًا لها. وهو قِسْمان:

أ ـ قسمٌ يجري مجرىٰ المَثَل لاستقلاله بمعناه وشيوع استعماله، كقوله سبحانه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تذييلٌ مستقِلٌ بمعناه جارٍ مجرى المَثل، وقد جيء به تأكيدًا لمفهوم ما قبله.

ومنه في الشعر قولُ الحطيئة:

نزورُ فتًى يُعْطي على الحَمْدِ مالَه ومن يُعطِ أثمانَ المَحامدِ يُحْمَدِ

قولُ الحطيئة «ومن يعطِ أثمانَ المحامِدِ يُحمد» تذييلٌ مستقلٌ بمعناه جارٍ مجرى المثَل، أكّد مضمونَ ما قبلَه وسوّغ قبوله.

وقولُ النابغة:

ولَسْتَ بمُسْتَبقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ   على شَعَثٍ، أيُّ الرِّجالِ المهذَّبُ

دلّ صدرُ البيتِ على نفْي وجود الكامل من الرِّجال، وأنّ الإنسانَ لا يستطيع الاحتفاظَ بصديقه إلّا بقبول ما فيه من عيوبٍ ونقائص، وجاء عجزُ البيتِ ليحقّقَ هٰذا ويقرّره؛ فأيّ الرِّجالِ الخالِصُ من كلّ العيوب.

ب ـ لا يجري مجرى المَثل، حيث لا يستقلّ بمعناه بل تتوقّف دِلالتُه على ما قبله، كقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ١٧﴾. أفاد مطْلَعُ الآيةِ الكريمة أنّ هذا الجزاءَ سببُه كفرُهم، ومن ثم فقولُه سبحانه: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ تذييلٌ أريد منه تأكيد مدلولَ الجملة السابقة. وهو لا يجري مجرىٰ المثل؛ لأنه يعتمد في دلالته على ما قبله، ومعناه على هٰذا: وهل نجازي ذٰلك الجزاءَ. هٰذا في أحد رأيين.

ـ جماليّةُ التّذيِيل:

يقول بعضُ علماء البلاغة عن التذييل: «ولَهُ في الكلام موقِعٌ جليلٌ ومكانٌ شريفٌ خطير؛ لأنّ المعنى يزدادُ به انشراحًا، والمَقْصِدَ اتضاحًا. وينبغي أن يُستعمل في المواطنِ الجامعة والمواقف الحافلة؛ لأنّ تلك المواطنَ تجمع البطيءَ الفَهْم، والبعيدَ الذّهن، والثّاقبَ القريحة، والجيِّدَ الخاطر، فإذا تكرّرت الألفاظُ على المعنى الواحد تأكّد عند الذّهن اللّقِن، وصحّ للكَليل البليد». (التخليصُ في علوم البلاغة ـ شرح البرقوقيّ ط ـ ٢ ـ دون نسبة).

١٠ ـ الاعتراض، وهو أن يُؤتى في تضاعيف الكلام بجملةٍ أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب؛ لغرضٍ من الأغراض. وأهَمُّ هذه الأغراض:

أ ـ التنزيهُ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾. قوله «سبحانه» اعتراضٌ جيء به في تضاعيف الكلام لِقَصْد تنزيهه تعالى عمّا يقولون.

ب ـ الدُّعاءُ، كما في قول عَوْفِ بن محلِّم الشَّيباني يشكو كِبَرَه وضَعْفَه:

إنّ الثمانينَ ـ وبُلِّغتَها ـ قدْ أحْوجَتْ سَمْعي إلى تَرْجُمانِ

تَرْجُمان: مفسِّر ومُكرِّر. وقوله: «وبُلِّغتَها» اعتراضٌ في تضاعيف الكلام؛ قَصْدًا إلى الدُّعاء لمخاطَبه أن يوصله الباريءُ سبحانه إلى سنّ الثّمانينَ التي بلغَها الشاعر. والواو اعتراضية، لا عاطفة ولا حالية.

وقول المتنبّي:

وتَحتقِرُ الدّنيا احتقارَ مُجرِّبٍ يرى كلَّ ما فِيها، وحاشاكَ، فانيا

قوله: «وحاشاكَ» اعتراضٌ على سبيل الدُّعاء، وهو رائعٌ في موضعه.

ج ـ التّنبيهُ، كقول الشاعر:

واعْلَمْ، فعِلْمُ المَرْءِ ينفعُهُ، أنْ سَوْفَ يأتي كُلُّ ما قُدِرا

قوله: «فعِلْمُ المرء ينفعه» اعتراضٌ جيء به في تضاعيف الكلام؛ قصْدًا إلى التّنبيه على فضيلة العلم ومنزلته، ممّا يزيد المخاطَبَ إقبالًا عليه.

د ـ تخصيصُ أحدِ الأمرين بزيادة التّوكيد في أمرٍ عُلّق بهما،

كقوله سبحانه: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه حملته أمّه وهنًا على وهنٍ وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾. فقوله سبحانه: ﴿أن اشكر لي﴾ تفسيرٌ لقوله سبحانه: ﴿ووصّينا الإنسان﴾، وقد جاءت جملةُ ﴿حملته أمّه﴾ معترضةً بين المفسَّر والمفسِّر تخصيصًا للوالدة بزيادة توكيدِ حقّها العظيم.

هـ ـ الاستعطاف، كقول المتنبّي:

وخُفوقُ قَلْبٍ لَوْ رأيتِ لَهيبَه يا جَنَّتِي لرأيتِ فيه جهنّما

قوله: «يا جَنّتي» اعتراضٌ؛ جيءَ به للاستعطاف والمطابقة مع جهنم.

و ـ التّهويل، كقوله سبحانه: ﴿وإنّه لقسمٌ ـ لو تعلمون ـ عظيمٌ﴾. قوله سبحانه: ﴿لو تعلمون﴾ اعتراضٌ جيء به للتّهويل وإعلاء شأن القسَم.

ز ـ بيان السّببِ لأمرٍ فيه غرابة ـ كما في قول ابنِ مَيّادة:

فلا هَجْرُهُ يبدُو، وفي اليَأسِ راحةٌ ولا وصلُهُ يبدو لنا فنُكارِمُهْ

فقوله فلا هجرُهُ يبدو يوحي بأنّ هجْرَ الحبيبِ أحدُ مطلوبَيْه، ولأنّ من المستغرب أن يطلبَ المُحِبُّ هجْرَ المحبوب جاء قوله: «وفي اليأسِ راحةٌ»؛ ليوضح سببَ طلبه ظهورَ هجْرِه؛ فهٰذا القول إذًا اعتراضٌ أُريدَ منه بيانُ سبب الأمر الغريب.

أسلفْنا أنّ الاعتراضَ قد يكون بجملةٍ، وقد جاءت الأمثلةُ المتقدمة لتدلّل على ذلك. وقد يكون الاعتراضُ بأكثر من جملة، كما أشرنا قبل. ومن صُوَرِه في الذّكر الحكيم قولُه سبحانه: ﴿فأتوهنّ من حيث أمركم الله ـ إنّ الله يحبّ التّوّابين ويحبّ المتطهّرين ـ نساؤكم حرثٌ لكم﴾. فقوله سبحانه: ﴿إنّ الله يحبّ التّوّابين ويحبّ المتطهّرين﴾

اعتراضٌ بين المفسَّر ﴿فَأْتُوهُنَّ ..﴾ ومفسّره ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، وهو أكثرُ من جملة. ومنه أيضًا قولُه سبحانه حِكايةً عن أمّ مَرْيَمَ عليها السّلامُ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ـ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ـ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾. قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ ... وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ ...﴾ ليس من كلامِ أمّ مريم؛ فهو اعتراضٌ في تضاعيف الكلام بأكثرَ من جملة.

جَماليّاتُ الإيجازِ والإطناب:

لم تكنْ كلِمةُ علماءِ البلاغة واحدةً بشأن فضلِ الإيجاز والإطناب. إذ رجّح فريق منهم جانبَ الإيجاز، وبيّنوا أنّ مبعث فَضْله أنّه معْلَمُ تمكُّنٍ في الفَصاحة ورسوخِ قدمٍ في ميدان ملَكةِ البلاغة، وأنّه يحقّق للنّفس المتلقّية مَلاذًّ كثيرةً دفعةً واحدةً؛ إذ يأتيها ما يشبه الشّعاعَ الغامرَ من مصْدرٍ ضئيل، فيفعل فيها الأفاعيلَ. وانتصر آخرون للإطناب مؤيّدين مذهبَهم بأنّ النُّطقَ في أساسه تعبيرٌ وبيانٌ، والبيانُ لا يكون إلّا بالإشباع، والإشباعُ لا يقعُ إلّا بالإقناع. وعند هؤلاء أنّ أفضلَ الكلام أَبْينُه، وأَبْينَه أشدُّه إحاطةً بالمعاني، ولا يُحاط بالمعاني إحاطةً تامّةً إلّا بالاستقصاء والإطناب. ومضى فريقٌ ثالث إلى القول إنّ لكلّ مقامٍ مَقالًا؛ فلِلإيجاز مواضعُ وللإطناب مواضع، والحاجةُ إلى الإيجاز في موضِعه كالحاجة إلى الإطناب في موضعه. وقالوا إنّ كُتبَ السّلطان في الأمور العظيمة وتفخيم مواقع النِّعَم المتجدّدة أو في التّرغيب في الطّاعة والتّحذير من العِصيان ينبغي أن تكون مُشْبعةً مستقصاةً. وعلى الجملة فإنّ الذّوق المُميِّز هو الحاكِمُ الأوّلُ في استجادة الجميلِ واستقْباحِ القبيح في كلّ الأساليب.

أسئلةٌ وإجاباتها حول الإيجاز والإطناب والمساواة (١):

ـ حدّد فيما يأتي الطريقةَ التي أتى عليها الكلامُ من إيجازٍ أو إطنابٍ أو مساواةٍ:

١ ـ فهمتُ المسألةَ.

٢ ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٣ ـ قال سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.

٤ ـ قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

٥ ـ مقتلُ المرءِ بين فكّيْهِ.

٦ ـ لا توقظِ الفتنةَ، دعْها نائمة.

٧ ـ قال سبحانه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾.

٨ ـ اقرأ المحاضراتِ كلّها، واللغةَ العربية.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾.

١٠ ـ كلُّ ابنِ آدم خطّاءٌ.

ـ الإجابات:

١ ـ فيه مساواة؛ إذ جاء اللّفظُ على قدرِ المعنى دون زيادةٍ أو نُقصان.

٢ ـ في هذه الآية الكريمة إطنابٌ؛ إذ صُرّح بأمّهاتِ المُمْكنات؛ ليكون ذلك دليلاً على القُدْرة، وكان في الإمكان تلخيصُ هٰذا بالقول: إنّ في خلْقِ كلّ مُمْكِنٍ لآياتٍ للعُقلاء، لكنّ التّفصيل هنا مفيدٌ؛ ابتغاءَ لَفْتِ الأنظار إلى باهرِ صُنْعِه ولطيفِ تدبيره، سبحانه.

٣ ـ فيه إطناب بالتّتميم؛ إذ إنّ «على حبّه» فَضْلةٌ أُريد بها المبالغةُ في مدْحِهم بالسّخاء، إذ المعنى: يُطعمونه مع حبِّهم واشتهائهم له.

٤ ـ فيه مساواةٌ؛ لأنّ اللّفظَ على قَدْر المعنى.

٥ ـ فيه إيجاز بالقِصَر؛ لأنّ ألفاظَه أقلُّ كثيرًا من معانيه.

٦ ـ فيه تكرير؛ إذ إنّ الجملتين بمعنًى واحدٍ لِقَصْد الزّجر والرّدع.

٧ ـ فيه إيجازٌ بالحَذْف؛ حيث حُذِف منه حَرْفُ «لا» إذ الأَصْلُ: لا تفتأ.

٨ ـ فيه إطنابٌ بذِكْر الخاصّ بعدَ العام؛ لبيان فَضْلِ الخاصّ.

٩ ـ فيه إيجازٌ بالحَذْف؛ حيث حُذِفت منه جملةٌ؛ إذ الأَصْلُ: فضَرب فانفلق.

١٠ ـ فيه إيجازُ قِصَرٍ؛ لتضمّن اللّفظِ القصيرِ المعنى الكثير.

أسئلةٌ وإجاباتُها حولَ الإيجاز والإطناب والمساواة (٢):

ـ حدّد فيما يأتي الطريقةَ التي أتى عليها الكلامُ من إيجازٍ أو إطنابٍ أو مساواة:

١ ـ كلُّ النّاس ـ إلّا مَنْ عصَم ربُّك ـ مُبْتَلَوْن بِداءِ الحِرْص.

٢ ـ مِمّنْ تعلّمتَ الجِدَّ والاجتهادَ؟

٣ ـ إذا أنتَ لمْ تَشْرَبْ مِرارًا على القذىٰ ظَمِئتَ وأيُّ الناس تصفُو مَشارِبُهْ

٤ ـ قال سبحانه: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

٥ ـ جُوزِيَ المُذْنِبُ بما اقترف، وهل يُجازى إلّا المُذْنِبُ.

٦ ـ أكرمتُ أولادي وبناتي ووالدي وأفرادَ أسرتي.

٧ ـ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٨ ـ قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾.

٩ ـ قال أعرابيٌّ لآخَرَ: «إنْ شككْتَ فيَّ فاسأل قلبَكَ عنْ قلبي».

١٠ ـ لكلّ شيءٍ إذا ما تمّ نقصانُ.

ـ الإجابات:

١ ـ فيه إطنابٌ بالاحتراس.

٢ ـ فيه تطويل؛ لأنّ الزّائدَ غيرُ متعيِّنٍ في كلمتَي «الجِدّ والاجتهاد».

٣ ـ فيه إطنابٌ بالتّذييلِ، وقولُه: «وأيّ النّاسِ تصفو مشاربه» جارٍ مجرى المثَل.

٤ ـ فيه إيجازٌ بِحَذْف جملتين، فتقديرُ الكلام: فذهَبا بالرّسالةِ فكذّبوهما.

٥ ـ فيه إطنابٌ بالتذييلِ، وليس جاريًا مجرى المثَلِ؛ لتوقّفه على ما قبلَه.

٦ ـ فيه إطنابٌ بذكر العامّ بعد الخاصّ اهتمامًا بالخاصّ.

٧ ـ فيه إطنابٌ بالتّكرار، للتّأكيد والإنذار والتّهديد.

٨ ـ فيه إطنابٌ بالاحتراسِ في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾.

٩ ـ فيه إيجازُ القِصَر؛ إذ يتضمّن سؤالُ القَلْبِ عن القلب معانيَ عصيّةً على الحَصْر.

١٠ ـ فيه إطنابٌ بالاحتراس.

أسئلةٌ وإجاباتها حولَ الإيجاز والإطناب والمساواة (٣):

ـ حدّدْ فيما يأتي الطّريقةَ التي أتى عليها الكلامُ من إيجازٍ أو إطنابٍ أو مساواة:

١ ـ «البخيلُ بعيدٌ من اللَّهِ بعيدٌ من الناسِ بعيدٌ من الجَنّة».

٢ـ واحرِصْ على حِفْظِ القُلوبِ مِنَ الأذى   إنّ الزّجاجةَ كسْرُها لا يُشعَبُ

٣ ـ إنّ امرأً أحْسَنَ إليكَ، وصانَ حُرمتَكَ، وحفِظَ سرَّكَ، إنّه جدير بثقتك به.

٤ ـ كان عُمَرُ ـ رضي الله تعالى عنه ـ ثانَي الخلفاء الراشدين.

٥ ـ قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾.

٦ ـ قال سبحانه: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾.

٧ ـ نجحَ محمّدٌ باجتهاده، وما ينجح إلّا الجادّون.

٨ ـ نَزْرُ الكَلامِ مِنَ الحَياءِ تخالُهُ   ضَمِنًا وليسَ بجِسْمِهِ سُقْمُ

٩ ـ أُمسي وأُصْبِحُ مِنْ تَذكارِكُمْ وَصِبا   يرثي لِيَ المُشفِقانِ: الأهلُ والولَدُ

١٠ ـ قال سبحانه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾.

ـ **الإجابات:**

١ ـ فيه إطنابٌ بالترديد.

٢ ـ فيه إطنابٌ بالتذييل الجاري مجرى المثل.

٣ ـ فيه إطنابٌ بالتكرير لِطُولِ الفَصْل.

٤ ـ فيه إطنابٌ بالاعتراض؛ لِقَصْد الدّعاء.

٥ ـ فيه إيجازٌ بِحَذْفِ المُضاف؛ إذْ أصْلُ الكلام: ولٰكنّ ذا البِرِّ مَنِ اتّقى.

٦ ـ فيه إيجازٌ بالحَذْفِ؛ لِحَذْف جواب القسم؛ إذ تقديرُ الكلام: وحقِّ هٰؤلاء لأعذِّبنّ أولٰئك.

٧ ـ فيه إطنابٌ بالتذييل غير الجاري مجرى المثل لتوقّفه على ما قبْلَه.

٨ ـ فيه إطنابٌ بالتكميل، بذِكْر «من الحياء»؛ لدفْعِ توهّم أنّ قلة الكلامِ بسبب العِيّ.

٩ ـ فيه إطنابٌ بالتوشيع؛ لِغَرضِ الإيضاحِ بعد الإبهام.

١٠ ـ فيه إطنابٌ بالإيضاحِ بعد الإبهام؛ لِعَرْض المعنى في صورتين مختلفتين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الكتابُ الثاني

عِلْمُ البيَان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

البيانُ لغةً واصطلاحًا:

البيانُ ـ لغةً ـ الكشفُ والإيضاحُ والظهور، قال سبحانه في وصْف القرآن الكريم: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾.

ويُسمّى العِلْمُ الذي يعالج مسائلَ البيان بوساطة الألفاظ «عِلْمَ البيان»، ويُعرَّف في الاصطلاح البلاغي بأنّه: «عِلْمٌ يُعْرَف به إيرادُ المعنى الواحدِ في طرقٍ وتراكيبَ مختلفة في وضوح الدّلالة عليه».

وجليّ أنّ التراكيب ليست على درجة واحدة في وضوح دلالتها على المعنى الواحد المراد التعبيرُ عنه؛ إذ إنّ بعضها أوضحُ من بعض، ومِمّا يمثَّل به لهذا التّفاوت في وضوح دِلالة التّراكيب ما يُقال إنه «اجتمع جريرٌ والفرزدقُ والأخطلُ في مجلس عبد الملك، فأحضر بين يديه كِيسًا فيه خمسُمِائة دينار، وقال لهم: لِيَقُلْ كلٌّ منكم بيتًا في «مَدْح نفسه»، فأيُّكم غلَبَ فله الكيسُ. فبدَرَ الفرزدقُ فقال:

أنا القَطِرانُ، والشُّعراءُ جَرْبىٰ ... وفي القَطِرانِ لِلْجَرْبى شِفاءُ

فقال الأخطلُ:

فإنْ تكُ زِقَّ زاملةٍ فإنّي ... أنا الطّاعونُ، ليس له دواءُ

فقال جرير:

أنا الموتُ الّذي آتيْ عليكُمْ ... فليسَ لِهاربٍ منّي نَجاءُ

فقال: خُذِ الكيسَ، فلَعَمْري إنّ الموتَ يأتي على كلّ شيء».

فقد سُئل كلٌّ من الثلاثة أن يعبّر عن معنًى واحد هو «مدْحُ النّفس». وقد مدح كلٌّ منهم نفسَه بطريقة تختلف عن طريقة الآخر في درجة وضوح دلالتها على المعنى المراد. إذ شبّه الفرزدقُ نفسَه بالقَطِران، وجعل من الشعراء إبلاً جربى، وبيّن أنه دواءٌ لهم، لا غنى لهم عنه، كما لا تستغني الإبلُ الجربى عن القطران. ثم تناول المعنى نفسَه الأخطلُ، فشبّه نفسَه بالطاعون، ذلك المرض الذي يفتك بالمُصابين فلا يُبقي ولا يذَرُ، ثم أُحيل المعنى إلى جرير فشبّه نفسَه بالموت الذي لا ينجو منه أحدٌ. وهكذا فقد أورد كلٌّ منهم المعنى نفسَه، ولكن بطريقةٍ تختلف عن طريقة الآخر في وضوحِ دِلالتها على المعنى المُراد. ورغم أنهم جميعًا استخدموا صيغةَ التشبيه في أداء المعنى المراد، لكنّ الأشياءَ التي شبّهوا أنفسَهم بها متفاوتةٌ في وضوح دِلالتها على التغنّي بالذّات ومَدْحِها من خلال إحراز قدْرٍ من القدرة على الفتْك متفاوتٍ في حجمه: القَطِران، الطّاعون، الموت.

وقد يشاءُ المتكلِّمُ التعبيرَ عن معنى «كرم محمّدٍ»، فيستخدم لذلك طرائقَ مختلفةً في دِلالتها على هذا المعنى. فقد يعْمِد إلى استخدام صيغة التّشبيه، التي تنطوي على أساليبَ مختلفة في دِلالتها، فيقول: «محمّدٌ كالبَحْر في العطاء»، و«محمّدٌ كالبَحْرِ» و«محمّدٌ بحرٌ». فنحن هنا إزاء ثلاثةِ تراكيبَ تُورد معنًى واحدًا هو «كرمُ محمد» بثلاث مراتب من وضوح الدّلالة:

محمّدٌ بحرٌ ـ التركيبُ الأوضحُ دِلالةً على كرم محمد.

محمّدٌ كالبحرِ ـ التركيب الأقلّ وضوحًا من السابق.

محمّدٌ كالبحرِ في العطاءِ ـ التركيب الأقلّ وضوحًا من سابقَيْه.

وهكذا نخلصُ إلى القول إنّ كلّ معنى من المعاني يمكن إيرادُه

بطرائق مختلفة في وضوح الدّلالة عليه. والعِلْمُ الذي يُعرَفُ به إيرادُ المعنى الواحد في طرقٍ وتراكيبَ مختلفة في وضوح الدّلالة عليه يُعْرَف بـ «علم البيان».

هذا ويضمّ «علمُ البيان» ـ عند جمهرة البلاغيين ـ ثلاثةَ مباحث أساسية، هي:

١ ـ مبحث التشبيه.

٢ ـ مبحث المجاز.

٣ ـ مبحث الكِناية.

وسيأتيكَ حديثُها مفصَّلاً فيما يأتي من الصفحات، والله المستعان.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأوّل

التشبيه

ويتضمّن:

- تعريف التّشبيه لغةً واصطلاحًا.
- أركان التّشبيه الأربعة.
- أنواع المشبه به.
- تقسيم طرفي التشبيه:

أولًا: تقسيم الطرفين من حيثُ الحِسّيةُ والعقلية (حسّيان ـ عقليّان ـ المشبّه عقليّ والمشبّه به حسّي ـ المشبّه حسّي والمشبّه به عقليّ).

- الحسيّ الخياليُّ، والعقليّ الوَهْميّ والوجدانيّ.

ثانيًا: تقسيم الطرفين من حيث إفرادُهما وتركيبهما (مفردان ـ مركّبان ـ المشبّه مفرد والمشبّه به مركّب ـ المشبّه مركّب والمشبّه به مفرد).

ثالثًا: تقسيم الطرفين من حيث تعدّدُهما أو تعدّد أحدهما (التّشبيه الملفوف ـ التشبيه المفروق ـ تشبيه التسوية ـ تشبيه الجَمْع).

وجه الشّبه:

- تعريف وجه الشبه.
- تقسيمات وجه الشبه:

أولاً: التحقيقيّ والتخييليّ.

ثانيًا: المفرد والمركّب والمتعدّد.

ثالثًا: الحسّي والعقليّ والمختلف.

ـ اعتداد المركّب من حسّي وعقليّ عقليًا ـ طرفا الحسّيّ التامّ والجزئيّ حسّيان ـ طرفا العقليّ عقليان أوْ حسّيان أو مختلفان. جمالية الوجه المركّب الحسّي.

ـ أقسامُ التّشبيه تبعًا لوجه الشّبه (تشبيه تمثيل ـ تشبيه غير تمثيل ـ تشبيه مفصَّل ـ تشبيه مجمل ـ تشبيه قريب مبتذل ـ تشبيه بعيد غريب).

ـ تشبيه التمثيل (تعريفه ـ تقسيمه من حيث الأداة ـ أوضاعه في الكلام ـ تأثير التمثيل في إدراك المعاني).

أدوات التشبيه:

(الكاف وكأنّ ـ الأفعال ـ الأسماء) ـ تقسيم التشبيه تبعًا للأداة: مُرْسَل ـ مؤكَّد.

أغراض التشبيه:

ـ الأغراض الراجعة إلى المشبّه.

ـ الأغراض الراجعة إلى المشبه به.

ـ تقسيم التشبيه تبعًا للغرض (المقبول ـ المردود).

درجات التشبيه في قوة المبالغة ووضوح الدّلالة.

التّشبيه الضِّمنيّ.

التّشبيه المقلوب.

جماليّات التشبيه

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التّشبيه

التّشبيهُ لغةً واصطلاحًا:

التّشبيه - لغةً - التمثيلُ، قال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. وتقول العربُ: شبَّهَهُ إيّاهُ، وشبّهه به، تشبيهًا: مثّلَهُ.

والتّشبيهُ - اصطلاحًا - **الدّلالةُ على مُشاركةِ أمرٍ لأمرٍ في معنًى بإحدى أدوات التشبيه لفظًا أو تقديرًا؛ لغرضٍ يقِصدُه المتكلّم.**

فعندما تقول في وصْف فتاةٍ: «خدُّها كالوَرْد في الحُمْرة»، تكون قد دلَلْتَ على مشاركة «خدّها» للورْد في معنًى هو «الحُمْرة»، وقد تأتّى لك ذلك بوساطة أداةٍ موضوعةٍ لذلك هي «الكاف»، وقد فعلْتَ ذلك لبيانِ حال خدّها من حيث اتصافُه بالحمرة.

وعندما يقول الشاعر:

أنتَ مِثْلُ الغُصْنِ لِينًا ... وشَبِيهُ البَدْرِ حُسْنا

يكون قد دلّ على مشاركة مخاطَبهِ لِلْغصن في اللّين والتثنّي (في صدْر البيت) وعلى مشاركته للبدْرِ في الحُسْن (في عجز البيت)، بوَساطة الأداة «مثل» في الأول، والأداة «شبيه» في الثّاني.

أركان التشبيه الأربعة:

لعلّكَ لاحظْتَ أنّ صِيغة التّشبيه في الأمثلة المتقدّمة تقوم على أربعة أركان هي:

١ ـ المشبَّهُ، وهو الأمرُ الأوّلُ الذي يُراد إلحاقُه بغيره.

٢ ـ المشبَّه به، وهو الأمرُ الثاني الذي يُلْحَق به المشبّه.

ويسمّى هذانِ طرفَي التّشبيه.

٣ ـ وجْهُ الشَّبهِ، وهو المعنى المشترك بين الطرفين، ويكون في المشبّه به أقوى منه في المشبّه؛ وقد يُذْكَر في الكلام، وقد يُحْذَف.

٤ ـ أداةُ التّشبيه: وهي اللّفظ الذي يدلّ على التشبيه، ويتمّ به الرّبطُ بين المشبّه والمشبّه به؛ وقد تُذْكَر الأداةُ، وقد تُحذف.

ـ أنواع المشبَّه به:

يجوزُ حذفُ الوجْه وبقاءُ الأداة، أو العَكْسُ بحذفِ الأداة وبقاء الوجه، كما يجوزُ حذفُ الوجْهِ والأداةِ معًا. ومع حذْفِهما يأخذُ المشبه به أحدَ الأنواع الآتية:

١ ـ أن يقع خبرًا للمشبّه كقولِكَ: «خالد بنُ الوليد سيفٌ امتشقَه الإسلامُ على أعدائه»، حيث تدّعي الاتحادَ بينَه وبين السّيف مبالغةً في تشبيهه بالسّيف في المضاء. وفي هذه الحالِ قد يُحْذَفُ المشبّه لِقرينةٍ تدلّ عليه، كقول الشاعر:

أَسَدٌ عَلَيَّ، وفي الحُروبِ نَعَامةٌ فَتْخاءُ تنفِرُ مِنْ صَفيرِ الصّافِرِ

أي: هو أسدٌ. ومنه قوله سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: هم صمّ...

٢ ـ أن يقع خبرًا لِما دخل على المشبّه من النّواسخ، كقولِكَ: «إنّ أولادَنا أكبادُنا تمشي على الأرض»، وكقول البحتريّ:

بِنْتَ بالفضْلِ والعُلُوّ فأصْبحْـ ـتَ سَماءً وأصْبحَ النّاسُ أرْضا

فكلّ مِنْ (سماء وأرضا) هو المشّبه به، ووقع كلّ منهما خبرًا لأصبح.

٣ ـ أن يقع حالاً من المشبّه، أو صفةً له، ـ والأولُ كقول الشاعر:

بدَتْ قَمَرًا، ومَالَتْ خُوطَ بانٍ وفاحَتْ عَنْبَرًا، ورَنَتْ غَزَالا

والثاني كقولك: «مرزتُ برجلٍ بَحْرٍ» و«فلانٌ رجلٌ أسدٌ».

٤ ـ أن يقع مضافًا للمشبّه، كما في قول الشاعر:

والرِّيحُ تَعْبَثُ بالغُصونِ وقد جرى ذَهَبُ الأصيلِ على لُجَيْنِ الماءِ

فأصل التّعبير: «الماء المشبّه باللُّجَيْن»، حيث قُدِّمَ المشبّه به، ثم أضيف إلى المشبّه.

٥ ـ أن يقع مصْدرًا مبيّنًا لِنَوْع المشبّه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: مَرًّا كمرِّ السَّحاب في السّرعة. فالمشبّه هو المصدر المحذوف الذي كشف عنه المصدر المذكور، الذي هو المشبه به. وقال المعرّيّ:

هَرَبَ النّومُ عَنْ جفونِيَ فِيها هربَ الأمْنِ عن فؤادِ الجَبَانِ

أي: هرب هربًا كهَرَبِ الأمن.

٦ ـ أن يكون مُبيِّنًا بالمشبّه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: حتى يتبيّن لكم الفجْرُ كالخيطِ الأبيض؛ فالفجرُ مشبّهٌ بالخيْطِ الأبيض، وقد جاء بعد المشبّهُ مُبيّنًا له.

ومنه قول الشاعر:

فما زِلْتُ في لَيْلينِ: شَعْرٍ وظُلْمةٍ وشَمْسَيْنِ: مِنْ خَمْرٍ ووجْهِ حَبيبِ

شبّه الشاعرُ «الشَّعرَ» بـ «اللّيل» في السوّاد، لكنّه قدّم المشبّه به «اللّيل» على المشبّه «الشّعر» الذي أتى به بيانًا للمشبّه

شروط التشبيه:

يجعل البلاغيون شرْطًا للتشبيه الاصطلاحيّ وجوبَ ذِكْر الطرّفين: المشبّه والمشبّه به على وجْهٍ ينبىء عن التّشبيه، على نحوٍ لا يستقيم فيه المعنى إلّا بالحَمْل على التّشبيه، كما يشترطون لذلك أداةَ التّشبيه ملفوظةً أو مقدَّرةً.

ـ تقسيم طرفَي التشبيه:

يقسّم البلاغيون طرفي التّشبيه ثلاثةَ تقسيمات تبعًا لثلاثة جوانب يلحظونها في الطّرفين:

١ ـ مِنْ حيثُ حِسّيّةُ الطّرفين وعقليّتُهما.

٢ ـ مِنْ حيثُ إفرادُ الطّرفين وتركيبُهما.

٣ ـ مِنْ حيث تعدّدُ الطرفين أو تعدّد أحدِهما.

وإليك تفصيلَ القول في هذه التقسيمات:

أولّا: تقسيمُ الطرفين من حيث الحِسّيةُ والعقْلية:

ينقسم الطرفانِ تبعًا للحِسّية والعقلية على أربعة أقسام:

١ ـ أن يكونا حسّيّين أي مُدْرَكَيْن بإحدى الحواسّ الخَمْس الظاهرة، وهي: البصَرُ، والسّمْعُ، والشمّ، والذّوق، واللّمس. ويعني هذا أنّ الطّرفين يكونانِ من المُبْصَراتِ، أو المَسْموعاتِ، أو المشموماتِ، أو المَذُوقاتِ، أو الملموساتِ.

ـ فمن تشبيه مبصَرٍ بمبصرٍ قولُ الشاعر:

أنتَ مِثْلُ الغُصْنِ لِينًا وشَبِيهُ البَدْرِ حُسْنا

ـ ومن تشبيه مَسْموعٍ بمسموع قولُ ابنِ سَناء المُلْكِ في وصْف ساقية:

وسَاقِيَةٍ نَزَلْتُ بِها وإلْفِي أودِّعهُ كتوديعِ المَروعِ
فصَوْتُ أنينِها يَحْكي أنيني وفيضُ مِياهِهَا يحْكي دموعي

- ومن تشبيه مشمومٍ بمشمومٍ قولُك: «رائحتُه كرائحةِ العَنبرِ وأَرِيجُهُ كأريجِ المِسْك».

- ومن تشبيه مَذُوقٍ بمذوق قولُكَ: «طَعْمُه كطَعْم التفّاح، ومذاقُه كمَذاقِ العسَل».

- ومن تشبيه ملموسٍ بملموس قولُ الشاعر:

لها بَشَرٌ مِثْلُ الحَرير ومَنْطِقٌ رخيمُ الحَواشي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

وقول الشاعر:

أنْتِ كالوَرْدةِ لَمْسًا وشَذًا جادَها الغيثُ على غُصْنٍ نَضِرْ

٢ - أن يكونا عقليّين، أي مدْرَكَيْن بالعقل، كقولِكَ: «العِلْمُ كالحَياةِ»، و«الجَهْلُ كالموتِ»، و «الضّلال كالعمى». فالطّرفان في كلّ من هذه الأمثلة إنما يُدْرَكانِ بوساطة العقْل؛ ووجهُ الشّبه في الأول «الأثرُ الجليل»، وفي الثّاني «فقدانُ النّفع»، وفي الثّالث «عدَمُ الاهتداء».

٣ - أن يكون المشبّهُ عقليًا والمشبّه به حسيًا، كقولهم: «العِلْمُ كالنُّور»، و«الجَهْلُ كالدَّيْجُورِ» [الظلمة]، و«الظُّلْمُ كالظُّلْمة»، و«خُلُقٌ كشذا المِسْك».

٤ - أن يكون المشبّه حسّيًا والمشبّه به عقْليًا - كما في قول الشاعر:

وأرضٍ كأخْلاقِ الكريمِ قطَعْتُها وقد كحّلَ اللّيلُ السِّماكَ فأبصَرا

شبّه الشاعرُ الأرضَ - وهي حسيّة - بالخُلِق الكريم - وهو عقليّ - في الرّحابة والسَّعة. ويقول البلاغيون إنّ تشبيهَ المحسوس بالمعقول

إنما يقوم على أساس تقدير المعقول محسوسًا، وجعْلِهِ كالأصْل لذلك المحسوس على طريق المبالغة.

ومن هذا الضرب قولُ الشاعر:

وفتكْتَ بالمَالِ الجزيلِ وبالعِدا، فتْكَ الصَّبابةِ بالمُحِبِّ المُغْرَمِ

فقد شبّه الفتْكَ بالمال الجزيل وبالعِدا، وهو أمرٌ حسّي، بفتك العِشْق بالعاشق، وهو أمر عقليّ.

الحِسّيُّ الخياليّ، والعقليّ الوَهْميّ والوِجْدانيّ:

لاحظ البلاغيون أنّ من المشبّه والمشبّه به ما لا يُدْرَكُ بالحسّ ولا بالقوة العاقلة، كالخياليّات والوهميّات والوجدانيّات، ومن ثم توسّعوا في تفسير الحسّيّ والعقليّ بحيث يشملانها. فأدخلوا في الحسّي «الخياليّ» وهو الشيءُ المعدوم الذي ركّبتْهُ المخيّلةُ من أمورٍ مُدْرَكةٍ بالحسّ كما في قول الصَّنَوْبَرِيّ:

وكأنّ مُخْمرَّ الشقيـ ـقِ إذا تصوّبَ أو تصعّدْ
أعْلامُ يَاقوتٍ نُشِرْ نَ على رِماحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

فالشّاعر هنا يشبّه هذا الزهرَ الأحمر حالَ تثنّيه سُفلًا وعُلْوًا بهيئة أعلام من ياقوتٍ منشورةٍ على رماحٍ من زبرجد. وجليٌّ أنّ كلًّا من العَلَمَ والياقوت والرّمح والزبرجد محسوسٌ لكنّ المركّبَ الذي تشكّلهُ هذه الأمور مجتمعةً ليس محسوسًا؛ لأنّه ليس بموجود، والحِسّ لا يدرِكُ إلّا ما هو موجودٌ في المادّة حاضِرٌ عند المُدْرِك على هيئةٍ مخصوصة.

فالحسيُّ إذًا ما يُدْرَك بذاتِه أو بمادّته بإحدى الحواسّ الخمْس، وبذلك يشمَل الخياليّ. كما أدخلوا في العقليّ «الوَهْميّ»؛ وهو ما لا يُدْرَك هو ولا مادّته بإحدى الحواسّ الظاهرة لِعَدمِ وجوده خارجًا،

ولكنّه لو وُجد لم يُدرَك إلّا بها. ويخترعه الوَهْمُ من عند نفسِه من غير أن يكون له، ولا لمادّته، وجودٌ في الخارج. ومنه قولُ امرىء القيس:

أيقتُلني والمَشْرَفِيُّ مُضاجِعي ومَسْنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوالِ

ومنه في الذّكر الحكيم قولُه سبحانه في شجرة الزّقُّوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾. وواضِحٌ أن أنيابَ الأغوالِ ورؤوسَ الشياطين لم توجدْ هي ولا مادّتها، بل هي من اختراعات الوَهْمِ وافتراضاته كما يقول البلاغيون، والله أعلمُ بمُراده.

وأدخل البلاغيون في العقْليّ أيضًا «الوِجْدانيَّ»، وهو ما يُدْرَك بالقوى الباطنة، كاللّذة والألم، والفرح والغضب، والعطش والجوع، والرِّي والشِّبَع، وما شاكل ذلك من الحالات التي لا يُدرِكها الحسُّ الظاهريّ، ولا العقلُ الصّرْفُ الذي لا يستند إلى حسّ باطنيّ، وإنما تُدْرَك بإحساسٍ باطنيّ؛ كأنْ يشبِّه الجائعُ ما يُحِسُّه من ألَمِ الجوع بالموت، أو أن يشبّه الظّامىءُ ما يجده من وهج العطش بالنّار.

ثانيًا: تقسيمُ الطرفين من حيث إفرادُهما وتركيبهما:

وينقسم الطرفان تبعًا للإفراد والتركيب على أربعة أقسام:

١ ـ أن يكونا مفردَيْن، وهذانِ إمّا أن يكونا مطْلَقين عن التّقييد بنحْوِ وصْفٍ، أو إضافة، أو حالٍ، أو مفعول، أو ظرْفٍ، أو غير ذلك، أو يكونا مقيّدَيْن بشيء من ذلك، أو يكون أحدهما مقيّدًا، والآخر مطلقًا. فالمفردان المطلقان كقولك: ضوءُه كالشّمسِ، وخدُّهُ كالورْدِ، وثغرُهُ كالدُّرِّ.

والمفردان المقيّدانِ كقول الشاعر:

إنّي وتزْييني بِمَدْحِيَ مَعْشَرًا كمُعلِّقٍ دُرًّا على خِنْزيرِ

شبّه الشاعرُ نفسَه مقيَّدًا بعملٍ خاصّ هو مدْحُه مَنْ ليسوا أهلًا

للمدح، بمعلّقٍ مقيَّدٍ بعمل خاصّ، وهو تعليقه دُرًا على خنزير، أي تعليق شيءٍ نفيسٍ بعُنقِ مخلوق خسيسٍ غير قابل للزينة. وواضح هنا أن المشبَّه مقيّدٌ بحالٍ والمشبّهَ به مقيّدٌ بمفعولٍ وجارّ ومجرور، والمعنى المشترك بينَ الطرفين (وجه الشبه) هيئةُ مَنْ يضع الشيء في غير محلّه.

والمشبّهُ المطلَقُ والمشبّه به المقيّدُ كقول الشاعر:

والشّمسُ كالمِرآةِ في كفِّ الأشَلْ ... لمّا رأيتُها بَدَتْ فوقَ الجبَلْ

شبّه الشاعر «الشمسَ» بالمرآةِ في يدٍ شلاّء، والمشبّهُ (الشمس) مطلقٌ عن التّقييد بشيءٍ، أمّا المشبّه به (المرآة) فمقيّدٌ بكون المرآة في يدٍ شلاّء.

والمشبّهُ المقيّدُ والمشبّه به المطلق كقولِكَ: «صَمْتُ الأحْمق بلاغةٌ ونَوْمُ العالِم عِبادةٌ». فقد شبّهتَ «الصّمتَ» مقيدًا بإضافته إلى الأحمق بالبلاغةِ مطلقةً، وشبّهتَ «النّومَ» المقيّد بإضافته إلى العالِم بالعِبادة مطلقةً.

٢ ـ أن يكونا مركّبين ـ وذلك بأن يُقْصَدَ إلى عدّة أشياء مختلفة في كلّ من الطَّرفين، ثم تُنتزع منها هيئتان تُجعَل إحداهما مشبّهًا والأخرى مشبّهًا به في هيئة تعمّهما، وذلك كقول بَشّار:

كأنّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسِنا ... وأسيافَنا لَيْلٌ تهاوى كواكِبُهْ

شبّه بشّارُ الهيئةَ المنتزعةَ من صُورة السّيوف التي يتطاير منها الشّررُ وتتألّقُ في حركَةٍ سريعةٍ مختلفة الاتجاهات وتأخذ أشكالاً متناسبة، وهي تمْخَرُ غُبارَ الحرْب الذي انعقد فوق رؤوس المقاتلين، بالهيئة المنتزعةِ من النّجوم المتساقطة إلى جهات مختلفة في جِنح اللّيل المظلم. وهكذا فالمشبّه مركّبٌ من النّقْعِ المُثار فوق الرؤوس، ومن السّيوف اللاّمعة المتضاربة في أثنائه؛ والمشبّه به مركّبٌ من اللّيل

المظلم، ومن الكواكب المتهاوية فيه. وهذا من التشبيهات التي أعْلَتْ منزلةَ بشّار، وجعلته من المجوّدين في هذا الفن.

ومنه قولُ الشاعر:

كـأنّ سُـهَـيـلاً والـنّـجـومُ وراءَه ـ صُـفـوفُ صَـلاةٍ قـامَ فـيـهـا إمـامُـهـا

شبّه الشاعرُ هيئةَ سُهَيلٍ وقد تقدّم النّجومَ واصطفّتْ هي وراءه بهيئة صفوفٍ من المصلّين يتقدّمهم إمامُهم، فالمشبّه مركّب من سُهَيلٍ ومن النجومِ وراءه؛ والمشّبهُ به مركّبٌ من صفوف المصلِّين ومن الإمام الذي قام فيها.

وهذا الضّرْبُ نوعانِ: نوعٌ يصِحّ فيه تشبيهُ كلّ جزء من أجزاء أحدِ طرفَيْه بما يقابلُه من أجزاء الطّرف الآخر، وذلك حين يكون ثمة تناظرٌ بين الأجزاء المكوِّنة لكلّ من الطّرفين. ونوع لا يصحّ فيه تشبيهُ كلِّ جزءٍ من أجزاء طرفَيْه بما يقابلُه من أجزاء الطرف الآخر؛ لغياب التّناظر بين الأجزاء المكوِّنة لكلّ من الطرفين.

فمِمّا يصِحّ فيه تشبيهُ أجزاء الطّرف الأوّل بما يقابلها من أجزاء الطّرف الثاني تشبيهُ بشّار في البيت السّابق، حيث يشبّهُ النّقعُ بالليل، وتشبَّه السّيوفُ بالكواكب. لكنّ غرض الشّاعر لم يتعلّق بالتّشبيه على هذه الصّورة، بل قصَدَ إلى تشبيه الهيئة بالهيئة؛ ممّا نشأ عنه هذه الروعةُ في التّصوير والقوةُ في التّمثيل.

وممّا لا يصِحّ فيه تشبيهُ كلّ جزء من أجزاء الطّرف الأول بما يقابله من أجزاء الطرف الثاني قول الشاعر:

كـأنّـمـا الـمِـرّيـخُ والـمُـشْـتَـري ... قُـدّامَـهُ فـي شـامـخِ الـرِّفْـعَـة

مُـنْـصَـرِفٌ بـالـلّـيـلِ عـن دَعْـوةٍ ... قـدْ أُسـرِجـتْ قُـدّامَـهُ شـمْـعَـة

فالشّاعرُ هنا يشبّه الهيئةَ المنتزعة من المرّيخ والمشتري أمامه يتألّق

بهيئةِ شخص منصرفٍ ليلاً عن دعوةٍ وتتألّق أمامه شمعةٌ مضيئة. وواضحٌ أنّ كلاً من الطرفين مركّبٌ من أشياءَ مختلفة، ولكنّنا لا نستطيع أن نقابل بين أحد أجزاء الطّرف الأول بما يقابله من أجزاء الطّرف الثّاني، فلا نستطيع مثلاً أن نقول: المرّيخ كمنصرفٍ باللّيل عن دعوةٍ، فذلك ضربٌ من السّخف لا نُحْسَد عليه.

٣ ـ أن يكون المشبّهُ مفردًا والمشبه به مركّبًا، ومثلهُ قول الصّنوبريّ المتقدّم:

وكأنّ محمرَّ الشّقيق ـ إذا تصوّبَ أوْ تصعَّدْ
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْ نَ على رِماحٍ مِنْ زبرجَدْ

جاء المشبّهُ «محمرّ الشقيق» مفردًا مقيّدًا بحالٍ، وجاء المشبّه به مركّبًا من أعلام الياقوت ورِماح الزّبرجد، أي هيئة أجْرامٍ حُمْرٍ مبسوطةٍ على رؤوس عِيدانٍ خُضْرٍ مستطيلة.

ومن هذا القبيل قولُ الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُداةُ به كأنّه عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

جاء المشبّه «صخرًا» مفردًا، وجاء المشبّهُ به مركّبًا من العَلَم (الجبل) ومن النّار في رأسه.

٤ ـ أن يكون المشبّهُ مركّبًا والمشبّهُ به مفردًا، ومِثْلهُ قولُ الشاعر:

لا تعْجَبُوا مِن خالِهِ في خَدِّهِ كلُّ الشَّقيقِ بنُقْطةٍ سَوداءِ

جاء المشبّهُ مركّبًا من الخَال والخدّ، وجاء المشبّه به مفردًا، وهو «الشقيق». ومن هذا القبيل قولُ أبي تمّام:

يا صاحِبَيَّ تقصَّيا نَظَرَيْكُما تَرَيا وجوهَ الأرضِ كيفَ تصوَّرُ
تَرَيا نَهارًا مُشْمِسًا قد شابَهُ زهرُ الرّبا، فكأنّما هُوَ مُقْمِرُ

شبّه أبو تمام هيئةَ النهار المشرق الذي خالطه زهرُ الرّبا فقلّل من

إشراقه، بليلٍ أضاءه نورُ القمر. وواضحٌ أنّ المشبّهَ هيئةٌ مركّبة من النّهار وضِياءِ الشمْس والزّهْر النّابت في الرّبا، أمّا المشّبه به فقد جاء مفردًا مقيدًا بصفة (ليل مقمر).

تحديدانِ مهمّان:

١ ـ يُراد بالقَيْد الذي يقيَّد به أحدُ الطرفين أو كِلاهما ما يكونِ له دخلٌ في وجه الشّبَه، حيث لا يتمّ التشبيهُ من دونه ـ فتشبيه الشّمس بالمرآة في كفّ الأشلّ ينطوي على مشبّه مفردٍ هو «الشّمس» ومشبّه به مقيّد هو «المرآة في كفّ الأشلّ»، وقيدُ «كون المرآة في يد شلّاء» له دخلٌ في وجه الشّبه؛ لأنّ وجْهَ الشّبه هو الهيئةُ الحاصلةُ من الاستدارة، والحركةِ السّريعة المتّصلة، والإشراقِ المتموِّج. وهذا المعنى لا يتأتّى، ولا يستقيم دون ملاحظة هذا القيد. وكذا الحالُ في تشبيه السّاعي المخفِق بِمَنْ يرْقُمُ على الماء؛ حيث تجب ملاحظةُ القيد في كلٍ من المشبّه والمشبّه به: السّاعي المقيّد بالإخفاق كالرَّاقم المقيّد بكَوْنِ رَقْمِه (كتابته) على الماء. لأنهما يؤثّران في وجه الشبه الذي هوَ المساواةُ بين الفعلِ وتركِهِ في كون النتيجة سَلْبًا. وعلى هذا فالمرادُ بالقيد ما كان له تعلّقٌ بوجه الشّبه أو تأثيرٌ في تكوينه.

٢ ـ الفرْقُ بين الطّرف المفردِ المقيّدِ بقَيْد والطّرفِ المركّب أنه في المركّب تكون الأجزاءُ كلُّها مقصودةً بذاتها في التّشبيه، أمّا في الطّرفِ المفردِ المقيّدِ فإنّ المقصودَ بذاته في التّشبيه هو أحدُ أجزاء الطّرف، وما عداه تَبَعٌ له ولاحق.

ثالثًا: تقسيم الطّرفين من حيث تعدّدُهما أو تعدّدُ أحدِهما:

ينقسم طرفا التّشبيه تبعًا لتعدّدهما، أو تعدّد أحدهما على أربعة أقسام، على نحو يصِحّ معه تقسيمُ التّشبيه من هذه الوجهة على هذه الأقسام الأربعة:

١ ـ التّشبيهُ الملفوفُ ـ واللّفُ هنا الضَّمُّ، ومعناه أن يتعدّد الطرفانِ، ويُجْمع كلّ طرفٍ مع مثله: المشبّه مع المشبّه، والمشبّه به مع المشبّه به ـ حيث يُؤتى بالمشبَّهات أولاً بطريقِ العَطْفِ أو غيره، ثم بالمشبهات بها كذلك ـ وقد يُعْكَس الأمرُ بأن يُؤتى بالمشبّهات بها أولاً بطريق العَطْف أو غيره، ثم بالمشبّهات على هذا النحو.

ومن تعدّد الطرفين ومجيئهما معطوفَيْن قولُ امرىء القيس يصِفُ عُقابًا بكثرة اصْطياد الطّيور:

كأنّ قلوب الطّير رطْبًا ويابسًا لدى وَكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَفُ البالي

شبّه الشّاعرُ قلوبَ الطّيرِ الرّطْبةَ بالعُنّاب في الشكل والمقدار واللون، وشبّه قلوب الطير اليابسةَ بالحَشَفِ البالي في هذه الأمور الثّلاثة. وقد جاء المشبّهُ متعدّدًا: قلوبُ الطّيْر الرَّطْبةُ + قلوبُ الطّير اليابسة. وجاء المشبّهْ به متعدّدًا أيضًا: العُنّاب + الحَشَفُ البالي. وقد جمع المشبّهين في صدْرِ البيت على طريقِ العَطْف، كما جمَعَ المشبّهين بهما في عَجْزِ البيت.

ومن تعدّد الطرفين غير معطوفين قولُكَ: «والِدَاكَ القَمَرانِ»، و«ضَيْفَاكَ الأسَدانِ»، و«أخوَاكَ البَحْرانِ»؛ حيث تعدّد المشبّهُ والمشبّهُ به دون عطْف.

ومن عطْفِ أحدهما دون الآخر قولُك: «أبُوكَ وأمُّكَ القَمَرانِ»، و«والِداكَ الشمسُ والقمرُ». في المثال الأول جاء المشبّهُ معطوفًا «أبوك وأمّك»، وجاء المشبّهُ به غيرَ معطوف. وفي المثال الثاني جاء المشبّهُ غيرَ معطوفٍ «والداك» وجاء المشبه به معطوفًا «الشمس والقمر».

وقد يُؤتى بالمشبَّهات بها أولاً بطريق العَطْف أو غيره، ثمّ بالمشبّهات على هذا الطريقِ أيضًا. تقول: «كاللَّيلِ والبَدْرِ والغُصْنِ شَعرُ سُعادٍ ووَجْهُها وقَدُّها». جاءت المشبّهاتُ معطوفة «شعرُ سعادٍ ووجهها

وقدّها»، وكذا جاءت المشبهات بها «اللّيل والبدر والغصن»، لكنه قدّم المشبّهات بها. ومن عطف أحدهما دون الآخر قولك: «كالقمرَيْنِ ليلى وسُعاد» و«كالأسد والبحر صَدِيقاكَ». ففي المثال الأول جاء المشبه معطوفًا «ليلى وسعاد» وجاء المشبّه به غير معطوف «القمرين» وقدّم المشبه به. وفي المثال الثاني جاء المشبّهُ غيرَ معطوفٍ «صديقاك» وجاء المشبه به معطوفًا «الأسد والبحر» وقدّم المشبه به.

٢ ـ التّشبيهُ المفروق ـ وهو أن يُجمع كلُّ مشبّهٍ مع ما شُبِّه به في عدد من التّشبيهات يتعدّد فيها الطّرفان، ولكن يفرَّق فيها بين المتماثلات: المشبّهات أو المشبّهات بها ـ عكس السّابق. ومنه قول ابن سُكَّرة:

الخدُّ وَرْدٌ والصُّدْغُ غاليةٌ والرِّيقُ خمرٌ والثّغرُ كالدّرَرِ

الصُّدغ: الشّعَر المنسدل على الخدّ. والغالية: أخلاطٌ من الطِّيب.

وقال الشاعر:

إنّما النفسُ كالزّجاجةِ والعِلْـ ـمُ سِرَاجٌ، وحِكمةُ الله زَيْتُ
فإذا أشرقتْ فإنّكَ حيٌّ وإذا أظلَمَتْ فإنّكَ مَيْتُ

٣ ـ تشبيهُ التسوية ـ وهو أن يسوَّى بين المشبّهات في إلحاقها بشيء واحد، وذلك بأن يتعدّد المشبّه دون المشبّه به. ومنه قولُ الشاعر:

صُدْغُ الحبيبِ وحالي كِلاهُمَا كاللّيالي
وثغرُهُ في صفاءٍ وأدمعي كاللآلي

ففي البيت الأوّل شبّه الشّاعرُ صدْغَ حبيبه وحالَه باللّيالي في السّواد، وفي البيت الثّاني شبّه ثغرَ حبيبه وأدمعَه باللآلىء في الصّفاء

والتألّق. وهكذا يكون قد سوّى بين المشبّهين بأن ألحقهما بشيءٍ واحد وشبّههما به.

٤ ـ تشبيهُ الجَمْع ـ وهو أن يُجمع بين شيئين أو أكثر في مشابهةِ شيءٍ واحدٍ، وذلك بأن يتعدّد المشبّه به دون المشبّه. ومنه قولُ البحتريّ:

بـاتَ نـدِيـمًـا لِـيَ حـتَّـى الـصَّـبـاخ   أغْـيَـدُ مَـجْـدولُ مـكـانِ الـوِشَـاخ
كـأنَّـمـا يَـبْـسِـمُ عَـنْ لُـؤلُـؤٍ   مـنـضَّـدٍ أو بَـرَدٍ أو أقـاخ

شبّه الشاعرُ في البيت الثّاني ثغْرَ محبوبه بثلاثة أشياء: اللؤلؤ المنضّد، والبَرَد، والأُقحوان، وهو نَوْرٌ طيّبُ الرائحة، وأوراقُه تشبه الأسنان. وبيّنٌ أنّ المشبّهَ شيءٌ واحد «الثّغر» والمشبّه به متعدّد.

ومثلُه قولُ الشاعر:

ذاتُ حُسْنٍ لَوِ استزَادَتْ مِنَ الحُسْـ   ـنِ إلـيـهِ لَـمَـا أصـابَـتْ مَـزِيـدا
فَهِيَ الشّمسُ بَهْجةً والقضيبُ الـ   ـلّدْنُ قَدًّا والرِّيمُ طَرْفًا وجِيدا

فقد شبّه الشّاعرُ، في البيت الثّاني، هذه المرأةَ بثلاثة أشياء: الشّمس والقضيب والريم ـ ومن ثَمّ فالمشبّه شيءٌ واحد والمشبَه به متعدّد.

وجهُ الشّبه:

ـ تعريف وجه الشّبه:

وجْهُ الشّبهِ هو المعنى الذي اشترك الطرفانِ فيه، كالكَرَم في قولِكَ: «محمّدٌ كحاتِم»، والشّجاعةِ في قولِكَ: «زيدٌ كالأسَدِ»، والرّزانةِ في قولِكَ «حِلْمُه كالجَبَل». وعندما عنّ لامرىء القيس أن يصوّر اندفاع فرسه قال:

مِكَرٍّ مِفَرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا   كجُلمودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

أي إنّ هذا الفرسَ يَشْرَكُ جُلمودَ الصّخر الذي قذَف به السّيلُ من علٍ في معنًى خاصٍّ هو الاندفاعُ و«سرعة الهُوِيّ».

ويجعل علماءُ البلاغة شرْطًا أساسيًّا لوجه الشّبه أن يكون له مزيدُ اختصاصٍ بالطّرفين في قصْد المتكلّم، ليفيد التّشبيه فائدته المرجوّة.

ـ تقسيماتُ وجْهِ الشبه:

أولًا: التّحقيقيّ والتخييليّ: وإليك تفصيلَ القول في كلّ منهما:

١ ـ وجْهُ الشبّه التحقيقيّ:

وهو ما يكون قائمًا بالطّرفين حقيقةً؛ أي إنّه وصْفٌ موجودٌ فيهما وجودًا حقيقيًا. تقول: «وجهُ ليلى كالبَدْرِ، وشعرُها كاللّيل، وقَدُّها كالغُصْن». وواضحٌ أنّ وجه الشبه بين الطّرفين هو «الإشراق» في الأوّل، و«السّواد» في الثّاني، و«الاعتدال» في الثّالث. وهذه المعاني الثّلاثة قائمةٌ بالطّرفين على سبيل الحقيقة.

٢ ـ وجْهُ الشبه التخييلي:

وهو ما لا يكون قائمًا بالطّرفين، أو بأحدهما، إلا تخيُّلاً؛ بمعنى أنّ الخيالَ يفترضه من عنده بِجَعْله غيرَ المحقّق محقَّقًا. وممّا جاء فيه الوجه متخيَّلاً في المشبّه ومحقَّقًا في المشبّه به قولُك: «سِيرَةُ محمّدٍ كالمِسْكِ»، و«أخلاقُه كنَفْحِ الطِّيبِ». ووَجْهُ الشّبه في المِثالين هو «الرائحة الطّيبة»، وهي قائمةٌ في المشبّه به تحقيقًا وفي المشبّه تخييلاً؛ فإنّه قد شاعَ عند النّاس وصْفُ كلٍّ من «السّيرة» و«الأخلاق» بالطّيب مبالغةً، حتى خُيِّل أنهما من ذواتِ الرائحة الطيّبة. ومختصرُ القول أنّ وجْهَ الشّبه «الرائحة الطيّبة» متخيَّلٌ في المشبَّه تَخَيُّلًا في المِثالَيْن.

ومثالُ ما جاءَ فيه الوجهُ متخيَّلاً في المشبَّه به ومحقّقًا في المشبه قولُ الشاعر:

يـا مَـنْ لَـهُ شَـعَـرٌ كـحَـظِـيَّ أَسْـودُ   جِـسْـمـي نـحِـيـلٌ مِنْ فِراقِكَ أصْفَرُ

فإنّ وجْهَ الشبه بين الشعر والحظّ هو «السّواد». وهو قائمٌ في المشبّه تحقيقًا وفي المشبّه به تخييلاً؛ فقد شاع وصْفُ الحظّ العاثر بالسّواد مبالغةً، حتى تُخيِّل أنّه من ذوات اللّون الأسود. ومهما يكن، فإنّ وجه الشبه «السّواد» متخيَّلٌ في المشبّه به تخيّلاً.

قال الشيخ عبدُ القاهِر الجُرجانيّ: «ومِمّا هو حسَنٌ جميلٌ من هذا الباب قولُ الصّاحب كتبَ به إلى القاضي أبي الحسَن: رُوِيَ عن القاضي أنه قال: «انصرفْتُ عن دارِ الصّاحب قُبيلَ العيدِ فجاءني رسولُه بعِطْرِ الفِطْر ومعَه رُقْعةٌ فيها هذانِ البيتان:

يـا أيُّـهـا الـقَـاضـي الّـذي نَـفْـسـي لـه   مـعَ قُـرْبِ عَـهْـدِ لِـقـائِـه مُـشْـتـاقَـةْ
أهْـدَيْـتُ عِـطْـرَ مِـثْـلَ طِـيـبِ ثَـنـائِـه   فـكـأنّـمـا أُهْـدي لَـهُ أخْـلاقَـهْ

وكونُ هذا التّشبيه مِمّا نحن فيه من أوضح ما يكون؛ فليس بخافٍ أنّ العادة أن يشبّه الثناءُ بالعِطْر ونَحْوِه ويُشْتَقّ منه، وقد عكَس، كما ترى، وذلك على ادّعاء أنّ ثناءه أحَقُّ بصِفةِ العِطْر وطيبه من العِطْر وأخصُّ به وأنّه قد صار أصْلاً حتّى إذا قِيسَ نوعٌ من العِطْر عليه فقد بُولغ في صفته بالطِّيبِ، وجُعِل له في الشّرف والفَضْل على جِنْسه أوفرُ نصيب».

ومن هذا القَبيلِ قولُ القاضي التّنوخِيّ:

رُبَّ لَـيْـلٍ قَـطَـعْـتُـهُ بِـصُـدودٍ   وفِـراقٍ مـا كـانَ فـيـهِ وَداعُ
مُـوحِـشٍ كـالـثّـقـيـلِ تَـقْـذى بـه الـعيْـ   ـنُ وتـأبـى حـديـثَـهُ الأَسْـمـاعُ
وكـأنّ الـنُّـجـوم بَـيْـنَ دُجَـاهُ   سُـنَـنٌ لاحَ بـيـنـهُـنَّ ابـتِـداعُ

والشاهدُ هنا ما جاء في البيت الأخير من تشبيه النّجوم بين ظُلْمة اللّيل بالسّنن التي لاح بينها ابتداع. ووجْهُ الشّبه في هذا التّشبيه هو الهيئةُ الحادثةُ من حصول أشياءَ بيضٍ مشْرقةٍ في جوانب شيءٍ مظلم أسود، وهذه الهيئةُ موجودةٌ في المشبّه تحقيقًا وغيرُ موجودة في المشبه به إلّا على طريق التخييل؛ ضرورةَ أنّ «الإشراق» ـ لِكَوْنه حِسّيًا ـ لا تتصف به السُّنّة لأنها أمرٌ عقليٌّ، وأنّ «الإظلام» ـ لكونه حسيًا أيضًا ـ لا تتصف به البِدْعة لأنّها أمرٌ عقليّ كذلك؛ وهكذا فوجْهُ الشبّه غيرُ موجودٍ في المشبّه به إلّا على طريق التخيّل والتوهّم بافتراض غير الحاصل حاصلاً.

أمّا كيف حدث هذا التخيّلُ والتوهّم فيقول علماء البلاغة إنه لمّا كانت البِدْعةُ، وكلُّ ما هو ضلالٌ، مِمّا يجعل صاحبَه كمن يمشي في الظّلام، فلا يهتدي إلى طريق النّجاة، شُبِّهت البِدْعةُ بالظّلمة وشاع وصفُها بها، وكان من أثر هذا الشيوع أن تُخُيِّل أنّ البدعةَ من الأجْرام ذوات اللّون الأسود ـ كما تُخُيِّل الكفرُ من الأجرام التي لها سوادٌ في قولهم: «شاهدتُ سوادَ الكُفْرِ في جبينِ فلان» ـ ولَزِم بطريق العكس أن تُشبَّه السُّنّةُ، وكلُّ ما هو هدى، بالنور، وشاع وصْفُها به حتى تُخُيِّل أنّ السّنّةَ من الأجرام ذوات اللّون الأبيض المُشْرق ـ كما تُخيّلت الشريعةُ الغرّاءُ من الأجرام التي لها بياضٌ في قوله ﷺ: «أتيتُكم بالحَنِيفيّة البيضاءِ ليْلُها كنهارِها» ـ فبسببِ هذا التخيُّل، واعتدادِ ما ليس بمتلوّنٍ متلوّنًا صحّ تشبيهُ النّجوم بين الدّجى بالسّنن بين الابتداع ـ وصار واضحًا جليًا.

الأساسُ في تشبيه المحسوس بالمعقول:

واضحٌ أنّ الأمثلة الثلاثة الأخيرة من قبيلِ تشبيه المحسوس بالمعقول، ويقرِّر علماءُ البلاغة أنّ تشبيه المحسوس بالمعقول لا يجوز إلّا إذا تخيّلنا المعقولَ محسوسًا، وافترضناه أصْلاً في وجه الشّبه يُقاس به المشبَّهُ مبالغةً. ومن ثَمّ فإنّه في بيت التّنوخي كان علينا أن نتخيّل غيرَ المتلوّنِ (السّنن ـ الابتداع) أصْلاً للمتلوّن الحقيقيّ؛ فنتخيّلَ «السّنن»

في هذا المثال أصْلاً في البياضِ نقيس عليه، و«البِدَع» أصْلاً في السّواد نقيس عليه كذلك.

طيبعةُ وجودِ وجْه الشّبه في الطّرفين:

ينبّه عُلماءُ البلاغة في هذا الشأن على أمرين:

الأوّل: وجوب وجود وجه الشّبه في الطّرفين تحقيقًا أو تخييلاً:

فإذا لم يوجد في الطّرفين على واحدةٍ من هاتين الصّفتين لم يصِحّ جعْلُه وجهَ شبهٍ. ويمثّل علماءُ البلاغة لذلك بقولهم: «النّحْوُ في الكلامِ كالمِلْح في الطّعام». وجليّ أنّ هذا تشبيهٌ طرفاه النحوُ مقيّدًا بكونه في الكلام والمِلْحُ مقيّدًا بكونه في الطعام. وقد ذهب بعضُهم إلى أنّ وجه الشبه في هذا التشبيه هو «كونُ القليلِ مُصْلِحًا والكثيرِ مُفْسِدًا»، لكنّنا حين نلتمس وجودَ وجه الشبه هذا في الطّرفين نلحظُ أنّه غيرُ موجودٍ في المشبّه لا تحقيقًا ولا تخييلاً وإن كان موجودًا في المشبّه به. فالنّحْوُ في الكلام لا يحتمل قِلّةً ولا كثرةً، بل هو عبارةٌ عن مراعاةِ قواعدَ وأحكام تحقُّقُها يُصْلِح الكلامَ والإخلالُ بها يُفسِده. أمّا المِلْحُ فيحتمل القلّة والكثرة؛ إذ القليلُ منه مُصْلِحٌ والكثير مفسد. ولأنّ «كونَ القليل مصْلِحًا والكثير مفسدًا» غيرُ متحقّق في كلا الطرفين لا تحقيقًا ولا تخييلاً لم يصحّ جعلُه وجهَ شبه في هذا التشبيه. وإنّ وجه الشبه الصحيح في هذا التشبيه هو «الصّلاحُ إذا استُعملا والفسادُ إذا أُهمِلا»؛ ذلك أنّه المعنى الذي يشترك فيه الطّرفان حقيقةً.

الثاني: جوازُ كونِ وجْهِ الشّبه في أحد الطرفين ادّعائيًا وفي الآخر حقيقيًا:

من تصرّفاتِ العرب في كلامهم أن يقولوا للجَبان الرِّعديد: «هو أسَدٌ» وللبخيل الشّحيح: «هُوَ حاتِمٌ». وغيرُ خافٍ أنّ وجه الشبه بين الطّرفين هو «الشجاعةُ» في المثال الأول، و«الجُودُ» في المثال الثاني. ويقول علماءُ البلاغة إنّ الشّجاعة في الجَبان، والجودَ في البخيل أمرانِ

ادّعائيان لا محالة. ولكن كيف تمّ ذلك فتجرّأ المتكلّمون على قَوْلِ ما يُخيِّل للمرء أوّلَ وهلة أنه متناقض؟

يقول علماءُ البلاغة إنّ أساس ذلك أنْ يُنزَّل التضادُ بين الطرفين المتضادّين منزلةَ التناسب بينهما، وأن يُبْرَز الخسيسُ في صورة الشّريف، وبذلك يُجعل «الجُبْنُ» مثلاً بمنزلة «الشجاعة» و«البُخْل» بمنزلة «الجُود»، ويُعَدّ الجبانُ شجاعًا، والبخيلُ جوادًا. وبناء على هذا التأويل صار صحيحًا أن يكون وجْهُ الشبه في المثال الأول «الشّجاعة» وفي الثاني «الجود»، وغدا واضحًا اشتراكُ الطّرفين في الوجه. ويسمّي البلاغيون هذا الضرب من التّشبيه «تشبيه التضادّ».

لكنّ تنزيلَ التضادّ منزلةَ التناسب ليس أمرًا اعتباطيًا بل لا بدّ له من داعٍ يدعو إليه في مقاصد المتكلِّم. وعلى الجملة فإنّ البلاغيين يجعلون لتنزيلِ التّضادّ منزلةَ التّناسب واحدًا من غرضين:

١ ـ التهكّم والسّخرية، إذ قد يقول المتكّلم لجبانٍ مُولّي الدُّبُرِ في المعركة «إنّكَ نظيرُ الأسَدِ»، وهو يفعل ذلك متهكّمًا ساخرًا.

٢ ـ التظرّف والتّمليح، كأنْ يقولَ الصّديقُ عن صديقه البخيل: «حاتِمُ الطّائيِ»، أي أنتَ كحاتم.

أمّا كيف يُفرَّق بين الغرضين فمرجِعُ ذلك إلى المَقامِ الذي يُقال فيه الكلام وقصْدِ المتكلّم من كلامه.

ثانيًا: وجْهُ الشّبه المفرد، أو المركّب، أو المتعدّد وإليكَ تفصيل القول في كلّ منهما.

١ ـ وجه الشّبه الواحد:

وهو ما لا تركُّبَ فيه ولا تعدّد، كالحُمْرة في قولكَ: «خدُّهُ كالوَرْدِ»، والسّوادِ في قولكَ: «شعَرُ هِند كاللّيلِ»، والحلاوة في قولِكَ: «مذاقُهُ كالعَسَلِ».

٢ ـ وجه الشّبه المركَّب المنزّل منزلةَ الواحد:

وهو ما كان هيئةً انتزعها العقلُ من عدّة أمور؛ ويكون ذلك بأنْ يعَمِد المتكلّمُ إلى مجموعة أوصافٍ لشيئين، فينتزع منها هيئةً يشترك فيها طرفا التّشبيه، ولا يصلح واحدٌ من أجزائها على انفراده وجهَ شبَهٍ، وعلى نحْوٍ يُخِلّ فيه سقوطُ واحدٍ من أجزائها بالتّشبيه.

ومثالُ التشبيه ذي الوجه المركَّب المنزّل منزلةَ الواحد قولُ بشّار:

كأنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسِنا وأسْيَافَنَا ليلٌ تهاوى كَواكِبُهْ

فوجهُ الشبّه هنا هو مجموعُ الهيئةِ المنتزعة من تساقط أجْرام مشرقةٍ مستطيلةِ الأشكال، متناثرةٍ في جوانب شيء مظْلم. ولا يأذنُ العُرفُ البلاغي بأن يُجْعَل واحدٌ من أجزاء هذه الصورة وجهَ شبهٍ، لأن الشاعر قصد جعْلَ الطرفين مشتركين في هذه الهيئة الملتئمة، وكذا لا يصحّ استبعادُ واحدٍ من أجزاء هذه الصورة؛ لأنّه لا يُنظر إليها إلّا بوصفها هيئةً متضامّةَ الأجزاءِ.

ومثلُه قول الشاعر:

والبَدْرُ في كَبِدِ السَّماءِ كَدِرْهَمٍ مُلْقًى على دِيباجةٍ زَرْقاءِ

حيث جاء وجهُ الشّبه هيئةً منتزعةً من طُلوع صورةٍ بيضاء مشرقة مستديرة في رُقْعةٍ زرقاءَ مبسوطة.

ومبْعَثُ تنزيل هذا النوع من وجه الشبه منزلةَ الواحد كونُه هيئةً مركَّبةً من أجزاءٍ تضامّتْ وتلاصقتْ حتى صارت كالشيء الواحد الذي لا يقبل التجزئةَ، ولم يجعلْه البلاغيون واحدًا حقيقيًا، لتركُّبِهِ من جملةِ أمورٍ، ولا تركُّبَ في الواحد.

٣ ـ الوجه المتعدِّد:

وهو ما كان عدّةَ أمورٍ عمَدَ المتكلّمُ إلى جعْلِ كلٍّ منها وجهَ شبهٍ

قائمًا بذاته. تقول: «هِنْدُ كأُخْتِها طولاً وقَدًّا وذكاءً وتهذيبًا». و«هذه الفاكهةُ كالّتي أكلْناها أمسِ في الطّعمِ واللّونِ والرّائحة». وجليٌّ أنّ وجه الشبه في كلٍّ من هذين المثالين أمورٌ متعدّدة يصْلُح كلٌّ منها أن يكون وجهَ شبهٍ على انفراده. والمتكلّمُ إنما يقْصِد الدلالةَ على اشتراك الطّرفين في كلّ واحدٍ من هذه الأمور، وليس الدّلالةَ على اشتراك الطرفين في هيئة مركبة منها.

ومختصرُ القول أنّ وجه الشّبه حين يُنظرُ فيه إلى شيءٍ واحدٍ لا تركُّبَ فيه ولا تعدّد يسمّى «واحدًا»، وحين يُنظر فيه إلى هيئةٍ مركّبة من مجموعة أشياء تشكّل وحدةً لا تتجزّأ ويُخِلّ بالتشبيه حذْفُ أحدِ مكوّناتها يسمّى «مركّبًا»، وحين يُنظَر فيه إلى أمور متعدّدةٍ يُراد جعْلُ كلّ منها وجهَ شَبَهٍ قائمًا بذاته، ولا يُخِلّ بالتّشبيه حذْفُ أحدِها أو تقديمه أو تقديره، يسمّى «متعدّدًا».

بقيَ أن نشير إلى أن قيامَ وجه الشّبه بالطّرفين وانتزاعَه منهما معًا يوجِبُ ألاّ يأتي وجهُ الشّبه المركّب إلّا مع طرفين مركّبين، أو مقيّدين، أو أحدهما مركّب والآخر مقيّد، ولو تقديرًا.

ثالثًا: وجْه الشبْه الحسّيّ والعقليّ والمختلف. وهاكَ تفصيلَ القول في كلٍّ من هذه الثلاثة:

١ ـ وجه الشّبه الحِسّي:

يكون وجهُ الشبه حِسيًا أي مُدْرَكًا بالحِسّ الظاهر، وهذا الضّرْبُ قد يكون مفردًا أو مركّبًا أو متعدّدًا.

ـ والمفردُ الحسّيّ كالحُمرةِ في قولِكَ «خدُّهُ كالوَرْدِ»، وخفاءِ الصّوتِ في قولكَ: «صوتُ غِناءِ هذا المغنّي كالهَمْسِ»، وطيبِ الرائحة في قولك: «نكهتُهُ كالعَنْبرِ»، ولذّةِ الطّعْم في قولكَ: «رُضابُ الحبيبِ كالخمْرِ»، ولينِ الملْمسِ في قولكَ: «له بَشَرٌ كالحَريرِ».

ـ والمركّبُ الحسّي يكون طرفاه مركّبين، أو مفردين مقيَّدين، أو مختلفين. ومِثالُ المركّبِ الحِسّي ذي الطّرفين المركّبين قولُ بشّار:

كأنّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسِنا وأسيافَنا لَيْلٌ تهاوى كواكِبُهْ

وقد تقدّم أنّ وجه الشبه هنا هو الهيئةُ الحاصلة من تساقط أجزاء مشرقةٍ مستطيلةٍ متناسبة المقادير، متناثرةٍ في أثناء شيء مظْلم. وواضحٌ أنّ هذه الهيئة حسيّة تُدرَك أجزاؤها بحاسّة البصر. وبيِّنٌ أيضًا أنّ طرَفي التشبيه مركّبان.

أما المركّبُ الحسّي ذو الطّرفين المقيّدين فكقول قَيْسِ بن الخَطيم:

وقدْ لاحَ في الصُّبحِ الثُّريا كما ترىٰ كعُنقودِ مُلاّحِيَّةٍ حينَ نَوّرا

ووجهُ الشّبه في هذا التشبيه هيئةُ اجتماع صُوَرٍ بيضٍ مستديرةٍ صغارِ المقادير في رأي العين، على وضعٍ خاصٍّ «لا هي متضامّةٌ ولا متباعدةٌ كثيرًا». وهذه الهيئة حسيّةٌ تُدرَك أجزاؤها بحاسّة البصر. وطرفا التشبيه (الثُّريّا، العنقود) مفردان قُيِّد كلّ منهما بقيدٍ خاصّ؛ ظهورُ الثُّريا مقيّدٌ بكونه وقعَ في وقتِ الصّبح، وعنقودُ المُلاّحية في حال إخراج النَّوْر.

وأمّا المركّب الحِسّيّ فيما طَرفاه مختلفانِ أحدُهما مفردٌ والآخر مركّب فمِثالُه قولُ الصَّنَوْبَرِيّ:

وكأنّ مُحْمَرّ الشّقيقِ ـ إذا تصوّبَ أوْ تصعَّدْ
أعلامُ ياقوتٍ نُشِرْنَ على رِماحٍ مِنْ زَبَرجَدْ

فإنّ وجهَ الشّبه فيه هيئةٌ حاصِلةٌ من نَشْر أجرامٍ حُمْرٍ مبسوطةٍ على رؤوس أجرامٍ خُضْرٍ مستطيلة. وهذه الهيئة حسّيةٌ تدرَك بحاسّة البصر. والمشبّه مفردٌ لأنّه اسمٌ لمُسمّى واحدٍ هو «الشقيق»، لكنّه روعي فيه

قيودُه من الاحمرار والتصوّب والتصعّد. والمشبّه به مركّب؛ لأنّ الشاعر قصَدَ فيه إلى هيئةٍ قوامُها أعلامٌ من الياقوت منشورةٌ على رماحٍ من زبرجد.

وعكْسُ هذا التّشبيه تشبيهُ نهارٍ مُشْمِسٍ قد شابه (خالطه) زهرُ الرُّبا، بليل مقمرٍ ـ وهو ما جاء في قول أبي تمّام:

يا صَاحِبَيَّ تقصَّيا نظَرَيْكُما   تَرَيَا وجوهَ الأرضِ كيفَ تصوَّرُ
تَرَيَا نهارًا مُشْمِسًا قد شابَهُ   زهرُ الرُّبا فكأنّما هو مُقْمِرُ

ووجهُ الشّبهِ ها هنا هيئةُ اختلاطِ شيءٍ أسودَ بشيءٍ أبيضَ وضّاء. وهو مِمّا يُدْرَك بحاسّة البصر. وقد جاء المشبّه مركّبًا، لأنه قُصِدَ فيه إلى هيئةِ النّهارِ المشمِس، وقد خالطَه زهرُ الرّبا، ممّا أنقصَ من ضيائه وجعله شبيهًا باللّيل المُقْمر. أمّا المشبهُ به وهو «اللّيل» فمفردٌ مقيّد بوصْفِ الإقمار.

ومثالُ المتعدِّد الحسّي قولُ الشاعر:

مُهَفْهَفٌ وجَنَتَاهُ   كالخَمْرِ لَوْنًا وطَعْمَا

فإنّ وجهَ الشّبه فيه كُلٌ من الحُمْرةِ والحَلاوة، وهمَا حسّيان، يدْرَك الأوّلُ منهما بحاسّة البصر، والثاني بحاسّة الذوق.

٢ ـ وجه الشّبه العقليّ:

يكون وجهُ الشبّه عقليًا، أو مدرَكًا بالقوة العاقلة، ويأتي واحدًا، أو مركّبًا أو متعدّدًا.

والوَجْهُ الواحِدُ العقليّ طرفاه عقليّانِ، أو حسّيّان، أو مختلفان، وإليك الأمثلةَ:

ـ فالواحدُ العقليّ ذو الطرفين العقليين كالنّفع في قولكَ: «العِلْمُ كالحياةِ»، وكعدم النّفع في قولِكَ: «الجَهْلُ كالموتِ».

والواحدُ العقليّ ذو الطّرفين الحسّيّين كالهداية في قول المصطفى ﷺ: «أصْحابي كالنّجومِ بأيِّهِمْ اقتديتُم اهتديتُم»، وكالوفاء في تشبيه الشاعر القديم أميرَه بالكَلْب في قوله: «أنت كالكَلْبِ في الوفاء».

والواحدُ العقليّ ذو الطّرفين المختلفين حِسًّا وعقلاً كالهداية في قولكَ: «العِلْمُ كالنُّور»؛ إذ العِلْمُ يوصِلُ إلى المطلوب ويفرّق بين الحقّ والباطل كما أنه بالنّور يدرَكُ المطلوبُ ويفْصَل بين الأشياء. والمشبّه عقليّ والمشبّه به حسّي. وكاستطابةِ النّفس في قولكَ: «عِطْرٌ كالخُلُقِ الكريم». فالمشبّه حسّي والمشبه به عقليّ، ووجه الشبه مِمّا يدرك بالعقل:

ـ والوجهُ المركّبُ العقليّ كحِرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمّل المعاناة في استصحابه في قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾. فقد شبِّهت حالُ اليهود المنتزعةُ من حَمْلِهم للتوراة، بمعنى تكليفهم العملَ بها، وكونِ المحمول مستودعَ العِلْم النافع لهم، وعدمِ حمْلهم لها بمعنى عدم العمل بمقتضاها والانتفاع بما فيها، مع تحمّلهم ما طُلب إليهم ممّا يثقل عليهم ويشقّ على نفوسهم ـ نقول شبِّهتْ هذه الحالُ بحالِ الحمار المنتزعة من حَمْلِهِ أوعيةَ العلوم، ومستودَع ثمارِ العقول، وعدَم انتفاعه بما يحمل، مع معاناته مشاقّ الحَمْل. ووجه الشّبه بين الحالين كما أسلفنا:

هيئةُ الحِرْمان من الانتفاع بأبلغِ نافع، مع معاناة الكدّ في استصحابه. وجليّ أن هذه الهيئة أمرٌ عقليّ حُصِّل من عدّة أمور.

ومن هذا القبيل أيضًا قولُ الشاعر:

والمستجيرُ بِعَمْرٍو عندَ كُرْبَتِهِ   كالمُسْتجيرِ مِنَ الرّمضاء بِالنارِ

فإنّ وجهَ الشّبه فيه هو الهيئةُ الحاصلة من الالتجاء من الضارّ **إلى** ما هو أضرُّ منه طمَعًا في الانتفاع به. وبيِّنٌ أنّه مركّبٌ من هذه الأمور المتعدّدة، وأنه أمرٌ عقليّ، فالوجهُ المركّبُ العقليّ هو هيئة منتزعة من عدّة أمور عقلية.

- والوجه المتعدّد العقليّ كالنّفع والضرر في قول الشاعر:

طَلْقٌ شديدُ البَأْسِ، راحتُه كالبحرِ فيهِ النّفعُ والضّرَرُ

وكلٌّ من النّفع والضّرر أمرٌ عقليّ.

٣ ـ وجه الشّبه المختلف:

يكون وجهُ الشّبه مختلفًا، بعضُه حسّيٌّ وبعضُه عقليّ على غرار ما هي الحال في وجه الشّبه المتعدّد. ومثالُه الرَّونقُ والمَضاءُ في قول الشاعر:

هذا أبُو الهَيْجاءِ في الهيجاءِ كالسّيفِ في الرَّونقِ والمَضاءِ

والرونقُ حسّي والمضاءُ عقليّ. وأبو الهيجاء لقبُ عبدِ الله بن حَمْدان العَدَويّ، والهيجاءُ اسمٌ من أسماء الحرب.

اعتدادُ المركَّب من حسّيٍّ وعقليٍّ عقليًا:

قد يوجدُ الوجهُ المختلف حِسًا وعقلاً في المركّب المنزّل منزلةَ الواحد تبعًا لاختلاف الأجزاء المركّب منها؛ إذ إنّ بعضها حسّيّ وبعضها الآخر عقليّ؛ كما هي الحال في تشبيه الحَسْناء الوضيعة الأصْلِ بِخَضْراء الدِّمن. فإنّ وجه الشّبه في هذا هو «حُسْنُ المنظرِ مَعَ سُوءِ المَخْبَر». وهذا الوجهُ مجموعُ أمرين أحدُهما حسّيّ والآخر عقليّ.

مثلُ هذا الوجه يعدّه علماءُ البيان من قبيل العقليّ، **مغلّبين بذلك**

العقلَ على الحِسّ؛ بسبب اتّساع القدرة الإدراكية للعقل بحيث تشمل المحسوساتِ والمعقولات، خِلافًا للحواسّ التي تقتصر قدرتُها الإدراكية على المحسوسات. وهكذا فإنّ المركّب إمّا حسّيٌّ فحسبُ، وإمّا عقليّ فحسْبُ متضمِّنًا العقليَّ الصِّرْفَ والمختلِفَ حِسًّا وعقلاً. أما المتعدّد فقد يكون حسّيًا أو عقليًّا أو مختلفًا.

طرَفا الحِسّي التّام والجزئيّ حِسّيانِ لا محالةَ:

إنّ وجه الشبه الحِسّي، سواء أكان مفردًا أو مركّبًا أو متعدّدًا، لا يكون طرفاه إلّا حِسّيّين؛ أي إنّه لا يجوز أن يكون كلاهما أو أحدُهما عقليًا لامتناع أن يُدْرَك بالحِسّ من غيرِ الحِسّي شيء، وذلك لأنّ وجه الشّبه أمرٌ مأخوذٌ من الطّرفين موجودٌ فيهما، فإذا أُدرك بالحِسّ فإن طرفيه حسيّان حتْمًا؛ إذ المُدْرَك بالحسّ لا يكون إلّا جِسْمًا أو قائمًا بالجِسْم.

وكذا الحالُ في وجه الشّبه الذي بعضُه حسّي كما في المتعدّد المختلف، أو المركّب المختلف، فإنّ طرفيه يجب أن يكونا حسّيّين؛ ومبعثُ ذلك أنّ كلّ واحدٍ من المتعدّد، أو كلّ جزءٍ من المركّب، يجب أن يقوم بالطّرفين أو يدرَك فيهما، ويمتنع بداهةً قيامُ الحسّي بالعقليّ أو إدراكُه فيه، فلا بدّ من أن يكون الطرفان حِسّيين.

طرفا العقليّ عقليّانِ أو حِسّيانِ أو مختلفان:

يصِحّ مجيءُ طرفي العقليّ عقليين أو حِسيّين أو مختلفين. فالعقليّانِ كقولكَ: «غيابُ فلانٍ كَحُضوره» في «عدم النفع مثلاً»، والحِسّيان كقولكَ: «عنترةُ كالطُّودِ» في «الثبات»، والمختلفان كقولكَ: «حِلْمُ فلانٍ كالجبَلِ» في «الرّزانة»، أو «أرضٌ كأخلاق الكريم» في «الاتّساع». فقد تباين الطّرفان في هذه الأمثلة ما بين حسّيين وعقليّين ومختلفين، ووجهُ الشّبه فيها جميعًا عقليّ.

وجملةُ الأمرِ أنّه يجوز في طرفي وجه الشّبه العقليّ أن يكونا عقليين أو حسّيين أو مختلفَيْن؛ وينشأ عن هذا أنَّ وجه الشّبه العقليّ أعمُّ من الحسّيّ؛ لأنّ المعقول قد يقوم بالمحسوس، كقيام معنى الإقدام بعَمْرِو بن مَعْدِي كَرِب، والسّماحةِ بحاتم الطّائيّ، والحِلْم بالأحْنَفِ بن قَيْس، ولأنّ العقل قد يدرك أمرًا معقولاً في شيء محسوس، كإدراك معنى «الشّجاعة» في خالد بن الوليد، وإدراك معنى «السّماحة» في حاتم.

جماليّة الوجه المركّب الحسّيّ:

لاحظ الشيخُ عبدُ القاهر أنّ للوجه المركّب الحسّي صورًا بديعة رائعة، ذلك أنه قد يُنتزع من هيئة حركة الجسم أو من هيئة سكونه. وما يُنتزع من هيئة حركة الجسم نوعان:

ـ **الأوّل**: أن يُراعى مع الحركة شيءٌ من أوصاف الجسم كالشَّكْل واللّون، وعلى هذا يكون الوجه منتزعًا من مجموع الأمرين، حركةِ الجِسْم، وشيءٍ من أوصافه، ومِثْله قولُ الرّاجز:

ـ والشّمسُ كالمِرآةِ في كفّ الأشَلّ ـ.

فإنّ وجه الشّبه فيه هو الهيئةُ المنتزعة من الحركة السّريعة المتّصلة مع الاستدارة والإشراق المتموّج ـ وجليّ أن القائل قد لحِظ مع حركةِ الجسم استدارَتَه، وأنّه ذو شعاعٍ برّاق متموّج حتى أحدث هذا المنظرَ الرائق. واسمعْ ما يقول الشيْخُ فإنّ لِلْعربية على لسانه عذوبةً خاصّة: «أرادَ أن يُريَكَ مع الاستدارةِ والإشراقِ الحركةَ التي تراها للشمس إذا أنعمتَ التأمّلَ، ثمّ ما يحصُل في نورها من أجل تلك الحركة؛ وذلك أنّ للشّمس حركةً متّصلة دائمة، ولنورها بسبب ذلك تموّجٌ واضطراب، ولا يتحصّل هذا الشّبهُ إلّا بأن تكون المرآةُ في يد

الأشلّ؛ لأنّ حركته تدوم وتتّصل ويكون منها سرعة، وبدوام الحركة يتموّج نورُ المرآة، وتلك حالُ الشمس فإنّك تَرى شُعاعَها كأنه يهمُّ بأن ينبسطَ حتّى يفيضَ مِنْ جوانبها، ثمّ يبدو له فيرجع من الانبساط الذي تراه إلى انقباضٍ كأنه يجمعُه من جوانب الدّائرة إلى الوسطِ».

ومثلُ التّشبيه السّابق قولُ الوزير المهلّبيّ:

والشّمسُ مِنْ مشرِقِها قدْ بَدَتْ   مُشْرِقَةً ليسَ لهَا حاجِبُ
كأنّها بَوْتَقَةٌ قَدْ أُحمِيَتْ   يجولُ فيها ذَهَبٌ ذائِبُ

يقول الشّيخ: «وذلك أنّ الذّهبَ إذا ذاب تشكّلَ بشكل البوتقة في الاستدارة، وأخذ يتحرّكُ فيها بجملته تلكَ الحركةَ العجيبة كأنه يهمّ بأن ينبسطَ حتى يفيضَ من جوانبها لِمَا في طبْعِهِ من النّعومة، ثم يبدو له فيرجع إلى الانقباض لِما بين أجزائه من شدّة الاتصال والتلاحم».

وواضحٌ ههنا أيضًا أنه لُحِظ مع حركة الجسم المذكورة وصْفانِ من أوصافه هما: الاستدارة والإشراق؛ وقد انتزاع الوجهُ من مجموع الأمرين.

الثّاني: ألاّ يراعى مع الحركة شيءٌ من أوصاف الجسم، بل يكون الوجهُ منتزعًا من حركة الجسم المجرّدة عن غيرها. وابتغاءَ تحقّقِ معنى التركيب في الوجه لا بدّ من وجود حركاتٍ كثيرة إلى جهات مختلفة. ومن ذلك قولُ ابن المعتزّ:

وكأنّ البَرْقَ مُصْحَفُ قارٍ   فانطِباقًا مرّةً وانفِتاحًا

فإنّ وجه الشّبه هو هيئةُ الحركاتِ المختلفة باختلاف الجهات. وواضحٌ أنّ هذه الهيئةَ تحقيقيةٌ في المُصْحف، تخييليّة في البرق؛ حيث لا انفتاح ولا انطباق حقيقةً، وإنّما هو ظهورٌ يعقبُه خفاءٌ والعكس، وهو مشابِهٌ بعضَ الشّبه هيئةَ المُصْحف يفتحه القارىء مرّة ويُطْبقه

أخرى. والشّاعر في وجه الشّبه هذا راعى تلك الحركاتِ المختلفة النواحي عند انفتاح المُصْحَف وانطباقه، وعند ظهور البرق واختفائه.
هذا وقد بدا لبعض النّقاد أنَّ تشبيه البرق بالمصحف من التّشبيهات غير الموفّقة؛ لأنّ الحالَ النّفسيةَ التي تدرِكُ الإنسانَ إزاءَ صورة البرق وهو يلتمِعُ وينقضي سريعًا، غيرُ الحال النّفسية التي تدركه إزاءَ صورة المصحف وهو يُفْتَح ويطبق على نحو متتابع. ونحسبُ أنّ في هذا شيئًا من الحقيقة؛ إذ يحسُنُ تقاربُ ما يمكن أن يولّده كلٌّ من طرفي التّشبيه من انفعال.

ومِنْ جيّد هذا الضَّرْب قولُ الشاعر يصِفُ روضةً:

حُفَتْ بِسَرْوٍ كالقِيانِ تلحّفتْ خُضْرَ الحَريرِ على قوامٍ معتَدِلْ
فكأنّها والرّيحُ تخْطِرُ بيْنَها تبغي التّعانقَ ثمّ يمنعُها الخَجَلْ

فإنّ وجه الشّبه في هذا البيت منتزعٌ من هيئة حركة التهيّؤ للدنوّ من أجل العِناق وحركة التّراجع السّريع إلى أصل الافتراق، وتكرّرها مرةً إثر أخرى. والملحوظُ في انتزاعِ الوجه ههنا هو الحركاتُ التي لم تقترن بشيء آخر من أوصاف الجسم.

وما يُنتزَع من هيئةِ سكون الجسم نوعانِ أيضًا:

الأول: أن يراعى مع هيئة السّكون شيء من أوصاف الجسم، ويُنتزَع الوجهُ من مجموع الأمرين: سكون الجِسْم وشيءٌ من أوصافه.
ومن لطيف هذا الجنس قولُ الشاعر في صفة المصلوب:

كأنّه عاشِقٌ قدْ مَدّ صَفْحَتَهُ يومَ الوداعِ إلى توديعِ مرتحِلِ
أو قائمٌ مِنْ نُعاسٍ فيهِ لُوثَتُهُ مواصِلٌ لتمطّيهِ مِنَ الكَسَلِ

وجهُ الشّبه في البيت الأوّل منتزعٌ من هيئة سُكون عنق المَصْلوب وصفحته، ويدَيْهِ حالَ امتدادهما، مع اصفرار الوجه ـ فالمراعى في

انتزاع الوجه هو أمران: هيئة السكون، مع اصفرار اللّون الملحوظ في البيت.

أمّا في البيت الثّاني فإنّ الوجه منتزعٌ من هيئة سكون العنق والصّفحة واليدين مع اصفرار اللون أيضًا وتراخي الجسم ـ فالمراعى في انتزاع الوجه أمرانِ أيضًا هيئة السّكون مع الإصفرار والتّراخي.

الثاني ـ ألاّ يراعى مع هيئة السّكون شيءٌ من أوصاف الجسم، فيُنتزَع الوجهُ من هيئة السّكون الصّرف ـ وابتغاءَ تحقُّق معنى التّركيب في الوجه لا بدّ من تعدّد أفراد هيئة السكون؛ يصوِّرُ هذا قولُ المتنبّي يصِف كلْبَ الصّيد حالَ جلوسه:

يُقْعِي جلوسَ البدويِّ المُصْطَلي بـأربـعٍ مَـجْـدولـةٍ لـم تُـجْـدلِ[1]

فإنّ وجه الشّبه هنا منتزَعٌ من هيئة مواقع الأعضاء في إقعاء الكَلْب وفي جلوس البدويّ المصطلي؛ وذلك أنّ الأعضاء في الإقعاء والجلوس تحتلّ مواقعَ خاصة، يُحْدِثُ مجموعُها هيئةً خاصة، فيها ضرْبٌ من التّناظر. وقد رُوعي في انتزاع الوجه أن يكون من هيئة السّكون وحْدَها لا يقترن بها شيء من أوصاف الجسم.

---

(١) يُقعي: يجلس على أليته. والاصطلاء: الاستدفاء بالنار. والمجدولة: المفتولة خِلْقةً.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أقسام التشبيه تبعا لوجه الشبه

ينقسم التشبيهُ بمقتضى وجه الشّبه ستّة أقسام:

١ ـ تشبيهُ تمثيلٍ ـ وهو ما كان وجهُ الشبه فيه هيئةً منتزعة من متعدّد، حِسّيًا كان ذلك الوجهُ أو غيرَ حسّي.

* فتشبيهُ التّمثيل الحسّي كتشبيه مُثار النّقع مع الأسْياف بليلٍ تهاوى كواكبه، وتشبيهِ الثّريا بعنقود المُلاّحية حين يُزْهِر، وتشبيه الشمس بالمرآة في كفّ الأشلّ. وهي التشبيهات التي عرَضْنا لها قبلُ.

* وتشبيه التمثيل غير الحسّي كتشبيه حال اليهود بحال الحِمار؛ فإنّ وجه الشبه فيه هيئةٌ منتزعة من عدة أمور عقلية هي «الحِرْمانُ من الانتفاعِ بأبلغ نافعٍ مع الكدّ والتّعب في استصحابه»، وكتشبيه المستجير بِعَمْرو عند كُرْبته بالمستجير من الرمضاء بالنّار؛ إذ إن وجه الشّبه فيه هيئةٌ منتزعة من أمرين عقليين هما: الالتجاء من الضارّ إلى الأشدّ ضررًا، والطّمع في الاحتماء به.

٢ ـ تشبيهُ غيرِ تمثيلٍ ـ وهو ما لم يكن وجهُ الشبه فيه هيئةً منتزعة من متعدّد، بل كان أمرًا واحدًا أو متعدّدًا.

* فتشبيه غير التمثيل مِمّا يكون الوجهُ فيه أمرًا واحدًا، كقولكَ: «صوتُه كتغريدِ البُلبُل»، حيث الوجهُ «جمال الصّوت»، وكقولكَ: «وجهُهُ كالبَدْر»، حيث الوجهُ «الضّياء»، وكقولكَ: «رائحتُه كأريج المِسْك» في «الطّيب». ووجه الشبه في كلّ هذه الأمثلة أمرٌ واحد لا تركيبَ فيه ولا تعدّد.

* وتشبيهُ غير التمثيل مِمّا يكون الوجهُ فيه متعدّدًا، كقولكَ: «هذه الفاكهةُ مِثْلُ هذه طَعْمًا ولَوْنًا وشكْلًا»؛ فإنّ وجه الشبه كلٌّ من الطَّعْم واللّونِ والشّكْل.

٣ ـ تشبيهٌ مُفصَّل ـ وهو ما صُرِّح فيه بذِكْر وجه الشبه على طريقته؛ أي أن يأتي وجهُ الشبه مجرورًا بفي أو منصوبًا على التمييز على معنى «في» كقولِكَ: «طبْعُ فَريدٍ كالنّسيم في الرِّقة أو رِقةً، ويدُه كالبَحْرِ في الجُود أو جُودًا، وألفاظُه كالعَسَلِ في الحلاوة أو حلاوةً». فهذه النماذجُ جميعًا من التّشبيه المفصّل؛ لأنه صُرِّح فيها بذكر الوجه على طريقته.

٤ ـ تشبيهٌ مُجْمَل ـ وهو ما لم يصرَّح فيه بذِكْر وجه الشّبه على طريقته، كقولهم: «النّحوُ في الكلامِ كالمِلْحِ في الطعام»، إذ لم يصرّح بذِكْر الوجه، وهو هنا «الإصلاح» في كلٍّ. والتّشبيهُ المجمل، تبعًا لوجه الشبه فيه، قِسْمان:

أ ـ ما يكون الوجهُ فيه ظاهرًا يُدْرِكهُ العامّةُ والخاصّة كقولكَ: «شَعَرُ الحبيبِ كاللّيلِ، وقدُّه كالغُصْنِ، ووجْهُه كالبَدْر». فوجه الشبه في كلٍّ من هذه الأمثلة واضحٌ لا يَحتاج إلى إعمالِ الفِكْر.

ب ـ ما يكون الوجهُ فيه خفيًّا لا يُدْرِكُه إلّا الخاصّة؛ لاقتضائه التفكّرَ والتأمّل. قال الشيخُ عبدُ القاهر: «وأمّا ما يَدِقُّ ويغمُضُ حتّى يحتاج في استخراجه إلى فضْلِ رويّةٍ ولُطْفِ فكرةٍ، فنحْوُ قول كَعْب الأشقريّ وقد أوفدَه الحجّاجُ على المهلّب فوصَف له بنيهِ وذكر مكانَهم من الفضْل والبأس، فسأله في آخر القصّة، قال: فكيفَ كان بنو المهلّب فيهم [أي جملة المحاربين] قال: كانوا حُماةَ السَّرْحِ نهارًا فإذا ألْيلُوا ففرسانَ البَياتِ، قال: فأيُّهُمْ كان أنْجد، قال: كانوا كالحَلْقةِ المفرَغة لا يُدرىٰ أين طرفها، فهذا كما ترى ظاهرُ الأمر في فقره إلى

فَضْلِ الرِّفْق به والنظر، ألا ترى أنه لا يفهمه حقَّ فهمه إلّا مَنْ له ذهنٌ ونظر يرتفع به عن طبقة العامة».

وحين قال كعبُ الأشقَريّ: «كانوا كالحَلْقة المفرغة لا يُدرىٰ أين طرفاها» إنما أراد أنّهم ـ في تناسُبهم في الشّرفِ والشجاعةِ وعدم تفاوتهم فيهما بحيث يمتنع تفضيلُ أحدهم على الآخر ـ كالحلْقةِ المتّصلةِ الجوانب؛ فإنّ أجزاءها متناسبة في الصّورة، ويمتنع تعيينُ بعضِها طرفًا وبعضها وسطًا. ووجهُ الشبه بين الطرفين هو «التّناسبُ الكلّي الخالي من التفاوت»، وقد دلّ عليه قولُه: «لا يُدرىٰ أين طرفاها». وهذا التناسبُ الكلّي هو تناسبٌ في الشّرَف في جانب المشبّه، وتناسبٌ في صورة الأجزاء من المشبه به. ومثلُ هذا الوجه خفيٌّ دقيق، يصعُبُ على العامّة إدراكُه.

والتّشبيهُ المجملُ من حيث وصْفُ طرفيه بوصفٍ مشعِرٍ بوجه الشبه على أقسامٍ:

أ ـ ما لم يُذْكَر فيه وصْفُ أحد الطّرفين، كقولك: «زيدٌ كالأسَدِ». لم يُوصف أيٌّ من الطرفين بوصْفٍ يشعِرُ بوجه الشّبه الذي هو «الشجاعة».

ب ـ ما ذُكِر فيه وصْفٌ للمشبّه دون المشبه به، كما في قول المصطفى ﷺ: «أصحابي كالنّجوم بأيّهم اقتديتُم اهتديتُم». وجه الشّبه في الحديث هو «الهِداية» في كلٍّ، وقد أشْعَر به قولُه: «بأيّهم اقتديتم اهتديتم». وهو وصْفٌ خاصّ بالمشبه.

ج ـ ما ذُكِر فيه وصفٌ للمشبَّه به دون المشبّه، كقول زيادِ الأَعْجمِ:

فأنّا ومَا تُلْقي لنا إنْ هَجَوْتَنا لكالبَحْرِ «مهْما تُلقِ في البحرِ يغْرقِ»

يشبّه الشاعرُ حالَ قومه إذ يرْميهم المخاطَبُ بالنّقائص فلا يتأثّرون بذلك لِما لهم من شأنٍ عظيم، بحالِ البحر العظيم لا يتأثّر أيًّا كان مقدارُ ما يُلقىٰ فيه. ووجهُ الشبه «الأمرُ الخطيرُ لا يتأثّر بالشّيء الحقير». وقد جاء قولُه «مَهما تُلقِ في البحرِ يغرق» وصفًا خاصًا بالمشبّه به مشعِرًا بوجه الشبه المذكور.

د ـ ما ذُكِر فيه وصفٌ للمشبّه وللمشبّه به، كقول أبي تمّام:

صَدَفْتُ عنْهُ ولم تصْدِفْ مَواهِبُه عنّي وعاوده ظنّي فلَمْ يَخِبِ
كالغَيْثِ إنْ جئتَه وافاكَ ريِّقُهُ وإنْ ترحَّلْتَ عنهُ لجّ في الطَّلَبِ[١]

وصفَ الشاعرُ «الممدوح» بأنّ عطاياه فائضةٌ عليه، أعرضَ عنه أو لم يُعرض، ثم وصَف «الغيث» بأنه يصيبك جئتَه أو ترحلتَ عنه؛ أي إنه وصفَ المشّبه والمشبّه به؛ ووجهُ الشبه «الإفاضةُ في حالَي الطّلب وعدمه وحالَي الإقبال عليه والإعراض عنه». والوصفان المذكوران مُشْعِران بهذا الوصف.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ التّشبيهَ المجمل لا يُخرجه عن إجماله أن يُذكَرَ لأحد الطرفين وصْفٌ مشْعِرٌ بوجه الشبه.

٥ ـ تشبيهٌ قريبٌ مبتذَل ـ وهو ما ينتقل فيه الذّهنُ من المشبّه إلى المشبه به من غير إمعانٍ في النظر والتأمّل بسبب وضوح الشبه فيهما ـ كتشبيه الشجاعِ بالأسد في «الإقدام»، والكريم بحاتم في «السّماحة»، والخَدِّ بالوَرْدِ في الحُمْرة، والوجهِ بالبدر في «الإشراق». فكلٌّ من هذه التّشبيهات قريبٌ متداول بين الناس لسهولة انتقال الذّهن فيه من المشبّه إلى المشبه به بسبب وضوح الشّبه بين الطّرفين.

وقد ذكر البلاغيون لوضوح وجه الشبه ثلاثةَ أسباب:

---

(١) صدفت: أعرضتُ. وافاك: أتاك. رَيِّقه: أوّلهُ. وريِّق كلّ شيء أفضلُه.

أ ـ أن يكون الوجهُ أمرًا جُمْليًا لا تفصيلَ فيه؛ فإنّ الجملةَ أسبقُ إلى النّفوس من التّفصيل وبالنّظر الأوّل يدرِك المرءُ الوصفَ على الجملة، ومن ثم فإدراكُ «مطْلَق السّواد» في تشبيه اللّيل بموج البحر في بيت امرىء القيس المشهور، أيسرُ كثيرًا من إدراك «السّواد الحالك»، في تشبيه سواد النُّوقِ بسَواد خافية الغُراب في قول عنترة:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلُوبةً سُودًا كخافيةِ الغُرابِ الأسْحَمِ

ب ـ أن يكون وجهُ الشّبه قليلَ التّفصيل مع غلبةِ حضور المشبّه به في الذهن عند حضور المشبّه لِقُرْب المناسبة بين المشّبه والمشبّه به؛ إذ لا اختلافَ في أنّ الشيء مع ما يناسبه أسهلُ حضورًا منه مع ما لا يناسبه، كأنْ تُشَبَّه الجرّةُ الصغيرةُ بالكُوز في المِقْدار والشّكْل، فإنه قد لُوحظ في وجه الشبه تفصيلٌ ما حيث تناول المقدَارَ والشّكل، لكن غلبةَ حضور الكُوز في الذهن عند حضور الجرّة أضعفتْ تأثيرَ التفصيل في وجه الشبه، وهيّأت لسُرعةِ انتقال الذّهن إلى المشبه به، ووضوح وجه الشبه.

ج ـ أن يكون وجهُ الشّبه قليلَ التفصيل مع غلبة حضور المشبه به في الذّهن مطلقًا لتكرّر المشبه به على الحسّ؛ فإنّ المتكرِّر على الحسّ، كصورة القمر غيرَ مُنْخَسِفٍ، أسهلُ حضورًا ممّا لا يتكرّر على الحسّ، كصورة القمر منخسفًا؛ وذلك كتشبيه الشّمس بالمرآة المجلوّة في الاستدارة والاستنارة، فإن في وجه الشبه شيئًا من التّفصيل، لكنّ غلبةَ حضور المشبّه به «المرآة» في الذّهن مطْلقًا أضعفت تأثيرَ التّفصيل، وهيّأت لِسُرعةِ انتقالِ الذّهن إلى المشبّه به ووضوح وجه الشبه، ومن هنا كان التشبيه قريبًا مبتذلاً.

٦ ـ التّشبيه البعيدُ الغريبُ ـ وهو ما لا ينتقلُ فيه الذّهنُ من المشبّه إلى المشبّه به إلّا بعد إعمالِ فِكْرٍ وطولِ تأمّل بسبب خفاء وجه

الشبه فيهما، كتشبيه هيئة الخال على الخدّ بالشَّقِيق في قول الشاعر:

لا تَعْجَبُوا مِنْ خالِه في خَدِّهِ   كلُّ الشَّقيقِ بِنُقْطةٍ سوداءِ

فإنّ وجه الشبه هو الهيئةُ الحاصلة من وجود نقطةٍ مستديرة سوداء وسَطَ رُقعةٍ مبسوطةٍ حَمْراء، وواضحٌ أنّ الذهن لا ينتقل من المشبّه (الخال في الخدّ) إلى المشبه به (الشقيق بنقطته السوداء) إلّا بعد معاودة النظر وإنعام التأمل.

وقد استبانَ البلاغيون لخفاءِ وجْهِ الشّبه ثلاثةَ أسباب:

١ ـ أن يكون الوجهُ أمرًا كثيرَ التفصيل يحتاج إلى كثرة الملاحظات والاعتبارات، كقول الشاعر:

ـ والشَّمْسُ كالمِرآةِ في كفّ الأشَلّ ـ

فإنّ وجه الشّبه فيه كثيرُ التفصيل على نحو ما قدّمنا؛ ومن ثَمّ لا يقع في نفس الرّائي للمرآة الدائمة الاضطراب إلّا بعد إعادة التأمّل. ومثلهُ تشبيهُ مُثارِ النَّقْع يتخلّله بريقُ السّيوف المتلاحمة بليلٍ تتهاوى كواكبه، وتشبيهُ هيئةِ إقعاء الكَلْب بهيئة جلوس البدويّ المُصْطَلي.

٢ ـ أن ينذُرَ حضورُ صورة المشبّه به في الذهن عند استحضار صورة المشبّه لِبُعْدِ التناسب بين الصّورتين وعدمِ التجانس بينهما ـ كقول الشاعر يصف أزهارَ البنفسج على سِيقانها:

ولازَوَرْدِيّةٍ تَزْهُو بِزُرْقَتِها   بين الرِّياض على حُمْرِ اليواقيتِ
كأنّها فوقَ هاماتٍ ضَعُفْنَ بها   أوائلُ النّارِ في أطْرافِ كِبْريتِ

فإنّ الذّهنَ لا ينتقل من المَشبّه (البنفسجة اللازوردية) إلى المشبه به (أوائل النار في أطراف الكبريت) إلّا بعد إعمالِ فكرٍ وطول تأمل؛ لأنّ صورة النّار في أطراف الكبريت ينذر حضورُها في الذّهن عند استحضارِه صورةَ البنفسج على سِيقانه لِمَا بينهما من عدمِ التجانس

وبُعْدِ المواطن؛ فهذا زهرٌ نَدِيٌّ لطيفٌ وهذا لَهَبٌ حارّ عنيف، وهذا يسكنُ الخمائل وذاك يستوطن المنازلَ. وجليّ هنا أنّ ثمّة تباعدًا بين الحال النفسية التي يولّدها كلٌّ من طرفي التشبيه: الورد والنار. وقد ينال هذا من قيمة هذا التشبيه.

٣ ـ أن يندر حضورُ صورةِ المشبه به في الذهن مطلقًا، حضرتْ فيه صورةُ المشبه أو لم تحضر. ويحدّد علماء البلاغة لندرة حضور المشبه به في الذهن أحدَ أمورٍ أربعة: ١ ـ لكونِ المشبَّه به أمرًا وهْمِيًا، اختلقه الوهْمُ من عنده، كأنياب الأغوال. ٢ ـ لكونه مركَّبًا خياليًا. كأعْلامِ ياقوتٍ نُشِرْن على رماح من زبرجد. ٣ ـ لكونه مركَّبًا عقليًا، كمَثَل الحِمار يحْمِل أسفارًا. ٤ ـ لقلّة تكرّره على الحسّ، كالمرآة في الكفّ الأشلّ.

وتكون نَدْرةُ حضورِ المشبه به سببًا لخفاء وجه الشبه؛ لأنّ هذا الوجه فرعٌ للطّرفين ومستخْلَصٌ منهما، ولا يتأتى الوصولُ إليه إلّا بعد حضور الطّرفين، فإذا ندر حضورُهما ندرَ التفاتُ الذّهن إلى ما يجمعهما ويصلُحُ سببًا للتشبيه بينهما.

معنى التفصيل في وجه الشبه:

يُراد بالتفصيل في وجه الشّبه ما فيه من كثْرةِ الاعتبارات والملاحظات؛ وذلك بأن يُنظَر في أكثر من وصْفٍ واحد لشيء واحد أو أكثر، سواء أكان ذلك الوجهُ متعدّدًا أو مركّبًا اعتباريًا. على أنّ حاجة المركّب إلى إعْمال الفِكْر ودقة النّظر أكثرُ من حاجة المتعدّد، ذلك أنه يراعي في المركّب الهيئةُ التركيبية التي تنشأ عن تضامّ الأجزاء وارتباط بعضها ببعض.

ومثالُ تعدّد الأوصافِ لشيءٍ واحد ما تلحظه في تشبيه المفرد

المقيّد بِمِثْلِه كالذي جاء في «تشبيه الثريّا بعنقود المُلاّحية»، حيث روعي في الوجه عدّةُ أوصافٍ لشيء واحد. فقد تضمّن الوجهُ تحديدًا لشكلِ الأجرام ولونِها ومقدارِها وهيئة أوضاعهاِ، وهذه في مجموعها أوصافٌ لشيء واحدٍ هو «الثّريا» مشبه بِمِثْلِهِ وهو «عنقود الملاحية».

ومثالُ تعدّد الأوصاف لأكثرَ من شيء واحد ما تلحظه في تشبيه المركّب بالمركّب، كما في تشبيه بشّار «مُثار النّقْع مع الأسْياف اللامعة بالليل مع الكواكب المتهاوية»، حيث رُوعي في الوجه عدّة أوصافٍ لأكثرَ من شيء واحد: اللّون القاتِم، بريق الأجْرام في أثنائه، وحركاتها، وتناسب أشكالها، وتباين مواقعها ـ وهذه في مجموعها وصْفٌ لمركّبٍ مشبّهٍ بمثله.

أوجه التفصيل:

للتفصيل في وجه الشّبه وجوهٌ كثيرة، أكثرُها قبولاً عند البلاغيين صورتان:

الأولى. أن تأخذَ بعضًا من الأوصاف وتدَعَ بعضًا، كما في قول امرىء القَيْس:

حَمَلْتُ رُدَيْنِيًّا كأنّ سِنانَه سنَا لَهَبٍ لمْ يتّصِلْ بِدُخانِ[1]

المشبّهُ هو سِنانُ الرُّمح، والمشبّه به هو اللّهب ذو السنا أي الضياء. وقد أخذ الشاعرُ بعضَ الأوصاف من كلٍّ منهما وترك بعضًا، فقد لَحظ في كلّ منهما الشّكلَ المخروطيّ الدقيق الطّرَف، والزُّرْقةَ الصّافية، واللّمعان. وفي جانب المشبه به جعل اللّهبَ دون دخان، وبذلك حقّق التّشبيه. ولو أنه جعل اللّهب متّصلاً بالدخان ما تحقّق له

(١) الرّديني: رمحٌ منسوب إلى رُدَيْنَةَ.

التّشبيه، إذ ليس في رأس السّنان ما يشبه الدخانَ. ومثلُه قول الشّاعر:

كأنّ عُيونَ الوَحْشِ حولَ خِبائِنَا   وأرحُلِنا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ

يتحدّث الشاعر عن كثرةِ اصطيادِهم للوحوش، وأنهم كانوا يأكلونها ويُلقون عيونَها حولَ أخبيتهم. ويشبّه عيونَ الوحوش بالجَزْع غير المثقوب. وبيّنٌ أنه أخذ في المشبّه والمشبه به بعضَ الأوصاف المشتركة: الشّكل، اللّون، لكنّه جعل الجَزْعَ غيرَ مثقّب تحقيقًا للتشبيه وبيانًا لتساوي الطّرفين في وجه الشّبه، ولو أنه أبقى صفة التثقيب للجَزْع لخالفَ العيونَ في الشّكل، فهي غير مثقّبة. والجَزْع: الخَرَزُ اليمانيّ الصّينيّ، فيه سوادٌ وبياضٌ تشبَّه بين الأعينُ.

الثانية: أن تأخذ جميع الأوصاف، بأن تلحظَ وجودَها جميعها في وجه الشّبه، وذلك كما في قول الشاعر:

وقدْ لاحَ في الصُّبْحِ الثُّريّا كما ترى   كعُنقودِ مُلاّحيَّةٍ حِينَ نَوّرا

فقد راعى في المشبّه والمشبّه به الشَّكْلَ والمِقْدارَ واللّونَ والوضْعَ المتميز. وكذا الحالُ في كلّ تشبيهات الهيئات.

التّشبيه البليغ:

يرى البلاغيّون أنّ التشبيهَ البليغ حقًا هو ما كان من البعيدِ الغريب دون القريبِ المبتذَل، كما في تشبيه الهيئات المنتزعة من أمورٍ متعدّدة، سواءٌ أكان وجهُ الشبه مركّبًا أم غيرَ مركب، وسواء أذُكِرتْ أداة التّشبيه أمْ لم تذكر؛ لِمَا هو مركوزٌ في الطِّباع من أنّ الشيءَ إذا نِيل بعد الاحتيال له ومعاناةِ التوسّل إليه كان نَيْلُهُ أحلىٰ وموقعُه في النفس ألذَّ وأشهى. ومن ثَمّ قالوا في المثَل: «كلُّ ممنوعٍ مرغوبٌ»، وقال الشاعر:

وزادَهُ كَلَفًا في الحُبِّ أنْ منَعَتْ   وحُبَّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعا

جعلُ القريبِ المبتذلِ غريبًا بعيدًا:

لاحظ البلاغيّون أنّ التّشبيهَ القريبَ المتداول قد يتصرّف فيه الماهرُ في صَنْعة الكلام على نحوٍ يغدو فيه غريبًا ممتنِعًا، لا ترتقي إليه مدارِكُ العامّة. قال المتنبّي من قصيدةٍ يمدح بها هارونَ بنَ عبدِ العزيز:

لم تلقَ هذا الوجهَ شمْسُ نَهارِنا   إلّا بِوَجْهٍ ليسَ فيه حَياءُ

قصد أبو الطيّب إلى تشبيه وجه الممدوح بالشّمس في الإشراق، وهذا تشبيهٌ مبتذلٌ تلوكه ألْسِنَةُ العامّة. لكنّ الشّاعرَ أعْملَ ريشتَه الصَّناعَ فعمَد إلى بثّ الحياة في الشمس وتشخيصِها، حين جعل منها مخلوقًا يلقى الناسَ ويتجرّأ على لقاء مَنْ هم أظهرُ منه في الإشراق. فالشمسُ مشْرِقةٌ ووجهُ الممدوح مشرِقٌ، بل أكثرُ إشراقًا منها. ومن ثَمّ فعليها ألاّ تلقاه البتّةَ أو تلْقاه مُطْرِقةً خجَلًا. وإذْ أصرّتْ على لقائه فإنها لم تلقَه إلّا بوَجْهٍ ليس فيه حياء. وقد أفاد ذلك بطريق دقيقٍ خَفِيٍّ عِظَمَ حظّ الممدوح من وضاءة الوجه وإشراقه، وأنه أعظمُ إشراقًا من الشمس. وبهذا الصّنيع أخرجَ الشاعرُ التشبيهَ عن الابتذال، وكساه صورةً رائعة تستميل النظرَ وتثير الإعجابَ، وعلى الجُملة فإنّ تشبيه المتنبّي تشبيهٌ ضمنيٌ؛ لأنّ وجهَ الممدوح إذا كان أتمّ من الشّمس في الإشراق استلزمَ ذلك اشتراكَهما في أصْلِ الإشراق.

وشبيهٌ به قولُ الشاعر:

إنَّ السّحابَ لَتَسْتَحْيي إذا نَظَرَتْ   إلى نَداكَ فقَاسَتْهُ بِمَا فيها

فقد قصدَ تشبيهَ الممدوح بالسّحاب في الفَيْضِ، وهو تشبيه مبتذَلٌ متداول، لكنّه شخّص السّحابَ وجعله مِمّن ينظرُ ويقيس ويدرِك الفروقَ ويعرف حدَّه فيقف عنده، وبهذا ينهض بتشبيهه إلى مستوى رفيع.

على أنّ ثمّةَ أنواعًا للتّشبيه الذي ارتُقي به ونُقِل من الابتذال إلى

الغَرابة. ومن ذلك ضَرْبٌ يُسَمّى «التشبيهَ المشروط». أي المقيّد بِشَرْطٍ، كأنْ تقول: «هذا الشيءُ كهذا الشيءِ لو كان بصفةِ كذا، أو لولا أنه على صفة كذا». والتقييدُ بالشَّرْط قد يكون في المشبّه به، وقد يكون في المشبّه، وقد يكون في كِلَيْهما. فتقييدُ المشبّه به كقولِ رشيد الدّين الوَطْوَاط:

عَزَماتُهُ مِثْلُ النجومِ ثَواقِبًا   لَوْ لَمْ يكنْ لِلثاقباتِ أُفولُ

فقد شبّه العَزمَ بالنّجم في الثّقوب أي النفوذ والمَضاء، وهو تشبيهٌ مبتذل قريب؛ لِوضوحِ وجه الشبه فيه، لكنّ حصولَ الأُفول للثاقبات دون العَزماتِ دلّ على أنّ المشبّه أتمُّ من المشبّه به في وجه الشبه، وبذلك أبرز الشاعرُ التّشبيهَ في صورة الغريب البعيد.

وتقييد المشبّه كما في قول بَدِيع الزّمان:

يَكادُ يحْكِيكَ صَوْبُ الغَيْثِ مُنسَكِبا   لو كَان طَلْقَ المُحَيَّا يُمْطِرُ الذَّهَبَا
والبدْرُ لَوْ لَمْ يغِبْ والشمسُ لو نطقَتْ   واللّيثُ لو لَمْ يُصَدْ والبحرُ لو عَذُبا

فقد شبّه كُلاً من الغَيْثِ والبَدْر والشّمس واللّيث والبَحْر بالممدوح، وقيّد كُلاً منها بقَيْدٍ يزيد من تفوّق المشبّه به على المشبّه في وجه الشبه.

وتقييدُ الطّرفين كقولكَ: «زيدٌ إذا غضِبَ كعَمْروٍ إذا حَلُمَ».

ومن هذا النوع من التّشبيه ضرْبٌ آخر يُسمّى «تشبيهَ التفضيل». وطريقته أن يشّبه المتكلّمُ شيئًا بِشَيء ثم يعود فيرجّح المشبّهَ على المشبه به، ومنه قول الشاعر:

حَسِبْتُ جَمالَه بدْرًا مُنِيرًا   وأينَ البَدْرُ من ذاكَ الجَمالِ؟

وقول الآخر:

مَنْ قاسَ جَدْواكَ بالغَمامِ فَمَا   أَنْصَفَ في الحُكْمِ بينَ شيئَيْنِ

أنــتَ إذا جُــدْتَ ضــاحِــكٌ أبَــدًا   وذاكَ إنْ جــادَ دامِــعُ الــعَــيْــنِ

ومنه ضرْبٌ ثالث يُسمّى «تشبيهَ التشكيك» مبالغةً في الإيلام، كقول الشاعر:

ومــا أدري، وسَــوفَ إخــالُ أدري   أَقَــوْمٌ آلُ حِــصْــنٍ أمْ نِــســاءُ؟

أي: أهم كالقومِ (الرّجال) أم كالنساء.

وقد يكون التّشكيكُ للمبالغة في الإعجاب، كقول الشاعر:

باللّهِ يا ظَبَياتِ القَاعِ قُلْنَ لنا: لَيلايَ مِنْكنَّ أمْ ليلى مِنَ البَشَرِ؟

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تشبيه التّمثيل

تشبيهُ التّمثيلِ أو التمثيلُ هو ـ كما قدّمنا ـ التشبيهُ الذي وجهُه وصْفٌ منتزَعٌ من متَعدّد، أي أمرَيْنِ أو أمور؛ وذلك كتشبيهِ الثّريا بعُنقود المُلاّحيّة، وتشبيهِ مُثار النّقع مع الأسْياف باللّيل الذي تتهاوى كواكبُه، وتشبيهِ الشّمسِ بالمرآة في كفّ الأشَلّ.

وشرَطَهُ السّكاكيُّ بأنْ يكون غيرَ حقيقيّ، حيث جاء قولُه: «التّشبيهُ متى كان وجهُهُ وصْفًا غيرَ حقيقيّ وكانَ منتزَعًا من عدّة أمور خُصّ باسم التمثيل؛ كما في تشبيه مَثَلِ اليهود بمَثَلِ الحِمارِ؛ فإنّ وجه الشّبهِ هو حِرمانُ الانتفاعِ بأبلغِ نافعٍ مع الكدّ والتّعبِ في استِصْحابه، فهو وصْفٌ مركّبٌ من متعدّد، وليس بحقيقيّ، بل هو عائدٌ إلى التوهّم».

ويحتاج التّمثيلُ في كثيرٍ من الأحيان إلى كدّ الذّهن في فهْمه، ذلك أنّ استخراجَ الصورة المنتزعة من أمورٍ متعدّدة لتكونَ وجهَ الشّبه ليس بالأمر الهيّن. ومن التمثيل قولُ الشاعر:

ولاحَتِ الشّمسُ تحْكي عندَ مطلَعِها مِرآة تِبْرٍ بَدَتْ في كفّ مُرْتَعِشِ

فقد شبّه الشّمسَ عند طلوعها حمراءَ لامعةً مضطربةً بمرآةٍ من ذهَبٍ تضطرب في كفّ ترتعش. ووجهُ الشبه هيئةٌ منتزعة من الاستدارةِ والحُمْرةِ واللّمعان والاضطراب.

ـ تشبيه التمثيل من حيث الأداةُ:

لتشبيهِ التمثيل نوعانِ من حيث ظهورُ الأداةِ وخفاؤها:

١ ـ ما ذُكِرتْ فيه الأداةُ، كقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾. فقد شبّه اليهودَ الذين حُمّلوا التوراةَ ولم يعقِلوا ما بها بالحمار الذي يحْمِلُ الكتبَ النافعة ويعانِي في حَمْلِها ولا يستفيد منها شيئًا، وأداة التّشبيه الكافُ، ووجْهُ الشّبه هو «حِرمانُ الانتفاعِ بأبلغِ نافعٍ مع معاناة الكدّ في استصحابه».

وكقول البحتريّ:

دانٍ على أيدي العُفاةِ وشاسِعٌ عَنْ كلّ نِدٌّ في النّدى وضَرِيبِ
كالبَدْرِ أفْرَطَ في العلُوّ وضَوْءُهُ لِلْعُصْبةِ السّارِينَ جِدُّ قريبِ

فقد شبّه الممدوحَ في قربه من ذوي الحاجات وإغداقه عليهم مع بُعْدِه عن أن يكون له نظيرٌ أو مثيل في السّخاء ـ بالبدْرِ في قرْب ضوئه من السّارين ليلاً مع إفراط عُلوّه وبُعْدِه في السّماء. وأداةُ التشبيه الكافُ. ووجهُ الشبه هيئةُ «قُرْبِ الفَضْل مع بُعْدِ المنزلة».

٢ ـ ما لم تُذْكَر فيه الأداةُ، كقولكَ لِمَنْ يتردّد في الشيء ويتراوح بين أن يفعلَه وألا يفعلَه: «أراكَ تُقدّمُ رِجْلاً وتؤخّر أخرى». وأصْل التعبير: «أراكَ في ترددّكَ وتقلُّبِ رأيكِ كمَنْ يقدّم رِجْلاً مرةً، ثم يؤخّرها مرةً أخرى». فالأداة هنا محذوفةٌ، ووجهُ الشبه هيئةُ الإقدام والإحجام مع الشكّ.

ـ أوضاع تشبيه التمثيل في الكلام:

لاحظ البلاغيّون أنّ تشبيه التمثيل يحتلّ أحدَ موقعين من الكلام:

١ ـ أن يجيءَ في مطْلَع الكلام، حيث تُعْرَضُ الفكرةُ ممثّلاً لها منذ البدء. وفي هذا الأسلوب تُقدَّم صورة المشبّه بشيء من التفصيل، ثم يأتي التمثيل ليكون تصويرًا محسوسًا لفكرة المشبه. ويأْنَسُ المتلقّي

في هذا الضّرب من عَرْض الفِكَر قدرةً عاليةً على الإفصاح والإبانة والوضوح التامّ: ويكثُرُ مجيءُ ذلك في الذّكْر الحكيم، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾. وقوله سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾.

٢ ـ أنْ يجيءَ بعد تمام المعنى، قصْدًا إلى تقريره وتثبيته في النفس، وهو هنا بمثابة البُرهان المدلَّل به على صِحّة الادّعاء. وذلك كقول الشاعر:

إذا أخُو الحُسْنِ أضحى فِعْلُه سَمِجًا رأيتَ صورتَه مِنْ أقْبحِ الصُّورِ
وهَبْكَ كالشّمسِ في حُسْنٍ ألَمْ ترَنا نفِرُّ مِنْها إذا مالَتْ إلى الضّرَرِ

شبّهَ صاحبَ المرأى الحسَنِ والفِعْلِ القبيح بالشّمس نفرُّ منها حين نأنسُ ضررَها بجامع النّفور من كلّ. وقد جاء التمثيل بعد عَرْضِ المعنى فكان دليلاً على إمكانه وصحّته.

ـ تأثيرُ التّمثيل في إدراك المعنى:

أدرك علماءُ البلاغة فعاليةَ التّمثيل في إيصال المعاني وتبيّنوا ما يفعلُه في النّفس حين تُقدَّم لها الفِكَرُ في قوالبَ منه. يقول الشّيخ عبدُ القاهر: «واعْلَمْ أنّ مِمّا اتفقَ العقلاءُ عليه أنّ «التّمثيلَ» إذا جاءَ في أعقابِ المعاني أو أُبرِزَتْ هي باختصارٍ في مَعْرِضِهِ، ونُقِلَتْ عن صُوَرِها الأصليّة إلى صورته، كساها أُبّهةً، وكسَبَهَا مَنْقَبَةً، ورفعَ من أقدارِها، وشبَّ من نارِها، وضاعفَ قُواها في تحريك النّفوس لها، ودعا القلوبَ إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صَبَابَةً وكلَفًا، وقَسَر الطِّباعَ على أن تعطيَها محبّة وشَغَفا». ويمكِنُ تلخيصُ عمل التّمثيل في إدراك المعاني على هذا النّحْ: .

١ - حين يجيء التّمثيلُ بعد المعنى الغريبِ يُفيد إقامةَ الحجّة على صحّة وجود هذا المعنى في نفسِه وزيادةَ التثبّت والتقرير ونفْيَ الرّيب والشكّ. فعَمَلُ التمثيلِ في مثل هذا السّياق كعمل كَشْف الحِجاب عن الموصوف المخبَر عنه حتى يُرى ويُبصَر؛ فقد يسمع الإنسانُ بشيء وتُذْكَر له بعضُ أوصافه ولكنّه يظلّ منكِرًا له مخالفًا فيه، حتي إذا شاهده ورآه تحقّق من وجوده ولم يبقَ لديه أدنى شكّ فيه، ولذلك يقولون: «ليس الخبَرُ كالمُعاينَةِ»، و«ليسَ مَنْ رأى كمَنْ سَمِعَ».

ومثالُ مجيء التّمثيلِ بعد المعنى الغريب وإفادتهِ إقامةَ الحجّة على صحّة وجود هذا المعنى قولُ المتنبي:

فَإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ مِنهُمْ   فإنّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغزالِ

أراد الشّاعرُ أن يقول إنّ ممدوحَه فاق النّاسَ وتجاوزهم إلى درجة أنه لم يَعُدْ بينه وبينهم مقاربةٌ، بل صار كأنّه جِنسٌ قائمُ بنفسه. وهذا أمرٌ غريب، يصعبُ على العقل قبولُهُ والتصديقُ به. وهكذا يكون على الشاعر تأييدُ ادّعائه في إمكانِ وجودِ هذا الأمر أصْلاً، ثم وجوده في ممدوحه. حتى إذا قال في عَجْزِ البيت:

- فإنَّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغزال -

فقد احتجّ لِدَعْواه، وأوضح أنّ ما ادّعاه له أساسٌ في الوجود؛ إذ من المعروف عند النّاس أنّ المِسْكَ - وهو من الدّمِ أصْلاً - خرج عن صِفةِ الدّمِ وحقيقته، حتّى لا يُعَدّ في جنسه، إذ لا يوجد في الدّم شيءٌ من الأوصافِ الشّريفة الخاصّة بالمِسْك لا ما قلّ ولا ما كثر، ولا في المِسْك شيءٌ من الأوصاف التي جعلتِ الدّمَ دمًا.

ومثلُه قول المتنبي أيضًا:

وما أنا مِنهُمُ بالعَيْشِ فيهِمْ   ولكنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغامُ

٢ - وحين يجيءُ بعد المعنى العاديّ الذي لا يُحتاج في ادّعاء كونه موجودًا إلى بيّنة وحُجّة وإثباتٍ يفيد بيانَ المقدار فيه ووضْعَ قياسٍ من غيره يكشِف عن حدّه ومَبْلَغِه في القوّة والضّعف والزّيادة والنقصان. وذلك كما في قول الشاعر:

فأصْبَحْتُ مِنْ ليلىٰ الغداةَ كقابضٍ على الماءِ خانتْهُ فُروجُ الأصابعِ

فقد أراد الشاعرُ أن يعبّر عن معنًى بسيط هو خيبةُ ظنّه في التّمتّع بليلىٰ والسعادة بوَصْلها. وخيبةُ ظنّ الإنسان بشيءٍ من الأشياء ليس أمرًا منكَرًا ولا عجيبًا ولا ممتنعَ الوجود. وقد مثّل الشّاعر لمعناه قاصِدًا إلى بيانِ مقدارِ خيبةِ الظنّ هذه، والإشارةِ إلى أنّه لم يحصُلْ من ظنّه على أيّ شيء مِثْلَما أنّ القابضَ على الماء بكفّه لا يحصُل على شيء. فالشاعرُ لمّا قال:

. . . . كقابضٍ على الماء خانته فروجُ الأصابعِ

أراكَ رؤيةً لا تشكّ معها ولا ترتابُ أنه بلَغ في خيبة ظنّه وبَوارِ سَعْيه إلى أقصى المبالغ وانتهى فيه إلى الغاياتِ حتّى لم يحظَ لا بما قلّ ولا ما كثُرَ.

ويبدو لنا أنّ قُدْرةَ التّمثيل على توصيلِ المعاني ومضاعفةِ قدرة الإنسان على إدراكها راجعةٌ إلى تفاوت استجابة الإنسان لِمُعْطَيات حواسّه؛ إذ إن ما يأتيه من العَيْن أكثرُ قبولاً لديه مِمّا يأتيه من الحواسّ الأُخَر. والتمثيلُ في جوهره ضرْبٌ من الانتقال في عَرْض المعنى من الصّفة والخبَر إلى العِيانِ ورؤية البصَر؛ إنّه ضرْبٌ من المشاهدة، والمشاهدةُ تؤثّر في النّفس حتى مع عِلْم الإنسان بصِدْق الخبر المنقول إليه، كما أخبر الله سبحانه عن إبراهيمَ عليه الصّلاةُ والسّلام في قوله: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾. وما يقول عبدُ القاهر في هذا الشأن يجيءُ بَرْدًا على الأكْباد: «إنّ أُنسَ النفوسِ موقوفٌ على أن تُخرِجَها من

خفيٍّ إلى جَلِيٍّ، وتأتيَها بِصَريحٍ بعدَ مَكْنِيٍّ، وأن تردَّها في الشيء تعلُّمُها إيّاه إلى شيء آخرَ هي بشأنه أعلمُ، وثقتُها به في المعرفة أحْكَمُ، نحو أن تنقُلها عن العقلِ إلى الإحساس، وعمّا يُعلَمُ بالفكرِ إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع؛ لأنّ العِلْم المستفادَ من طرق الحواسّ أو المركوزَ فيها من جهة الطبْع وعلى حدّ الضرورة يفضُلُ المستفادَ من جهةِ النّظَر والفكر في القوة والاستحكام... وضرْبٌ آخر من الأُنس، وهو ما يوجبه تقدُّمُ الإلفِ كما قيل:

ـ مـا الـحُـبُّ إلّا لـلـحـبـيـب الأول ـ

.... وإذْ نقلتَها (النّفس) في الشيء بمَثَلِه عن المدرَكِ بالعقل المحض وبالفكرة في القلب إلى ما يُدرَكُ بالحواسّ أو يُعْلَم بالطّبع وعلى حدّ الضرورة فأنتَ كمَنْ يتوسّل إليها للغريب بالحميم، وللجديد الصُّحبةِ بالحبيبِ القديم، فأنتَ إذَن مع الشّاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسِك غيرَ ممثَّلٍ ثمّ مثَّله كمَنْ يُخبِرُ عن شيءٍ من وراء حجاب، ثم يكشف عنه الحجابَ، ويقول: ها هو ذا فأبصِرْ تجدْه على ما وصفتُ».

أسئلة وإجاباتها حول التّشبيه التّمثيليّ:

- حدّد التشبيهَ مع بيان نوعه فيما يأتي:

١ - نشَرَتْ إليَّ غَدائرًا من شَعْرِها حذرَ الكواشِحِ والعدوِّ الموبِقِ
فكأنّني وكأنّها وكأنّهُ صُبْحانِ باتا تحتَ لَيْلٍ مُطْبِقِ
٢ - أُقْحُوانٌ مُعانِقٌ لِشَقيقٍ كثُغورٍ تعضُّ وَرْدَ الخُدودِ
٣ - لا تَحْسَبوا أنّ رقْصي بينَكم طرَبًا فالطَّيْرُ يرقصُ مَذْبوحًا منَ الألَم
٤ - مَنْ يَهُنْ يسهُلِ الهوانُ عليه ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ
٥ - اصْبِرْ على حسَدِ الحسو دِ فإنَّ صَبْرَكَ قاتِلُهْ
فالنَّارُ تأكُلُ نفْسَها إنْ لَمْ تَجِدْ ما تأكُلُهْ

- الإجابات:

١ - شبّه هيئةَ اجتماعِه بها يلفُّهما شعرُها الأسودُ بهيئة صُبْحين باتا ليلتَهما تحتَ ليلٍ مظلم، ووجْهُ الشّبه هو هيئةُ شيء أسودَ ينضوي تحته شيئانِ يخالفانه في اللّون؛ وهذا التّشبيه تشبيهُ تمثيلٍ لجريانه في الهيئات، وهو تشبيهٌ مجمَلٌ لِعَدم ذكر وجه الشبه، وغريبٌ لخفاء الوجه، بسبب الدّقة التركيبية التي ينطوي عليها.

٢ - شبّه هيئةَ معانقة الأُقْحُوان ذي اللّون الأبيض للشّقيق ذي اللّون الأحمر بهيئة الثّغور وهي تعضُّ الخدودَ الحُمْر؛ ووجهُ الشبه فيه هيئةُ شيء ذي بياض يخالِطُ شيئًا مائلاً إلى الحمرة. والتشبيه هنا تشبيهُ تمثيل؛ لجريانه في الهيئات، ومجمل؛ لِعَدم ذِكْر الوجه، وغريبٌ؛ لخفاء الوجه. كما أنّ قوله «وزْد الخدود» ينطوي على تشبيه مؤكّد؛ لإضافة المشبّه به إلى المشبه.

٣ ـ شبّه هيئةَ اضطراب المتألّم وانتفاضِه من شدّة الألم بهيئة الطّائر المذبوح الذي ينتفض، لشدّة ما يعانيه بسبب مفارقة الرّوحِ الجسدَ، وهو تشبيهُ تمثيل؛ لجَرَيانه في الهيئات، ومجُمَلٌ؛ لعدم ذكر الوجه، وغريبٌ لخفاء الوجه، وهو تشبيهٌ ضمنيّ.

٤ ـ شبّه هيئة الإنسان يستسهل الذلّ ويستمرئه، ولا يتألّم له، بهيئة ميّتٍ يُجرَح فلا يُبدي حراكًا ولا يكون منه تألُّمٌ أو تأذّ. ووجه الشبه الهيئة المنتزعة من عدم التأثّر بما ينبغي التأثّرُ منه. وهو تشبيه تمثيل؛ لجريانه في الهيئات، ومجمل؛ لعدم ذكر الوجه، وغريبٌ؛ لدقّته. وهو أيضًا تشبيه ضمنّي أدركناه من الدّلالة العامّة للكلام.

٥ ـ شبّه هيئة الحسودِ يُتْرَك دون أن يُعبأ به فيأكلُ الحسدُ قلبَه بهيئةِ النّار لا تزوّد بالوقود، فتعود إلى نفسِها، ويأكلُ بعضُها بعضًا؛ تشبيهُ تمثيلٍ، مجملٌ، غريبٌ.

أدواتُ التّشبيه

أدواتُ التّشبيه هي ألفاظٌ تدلّ على معنى المُماثلة والمشاركة، كالكاف في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

ومثلُ الكاف كلُّ ما يدلّ على المماثلة والمشاركة. وعلى الجملة فأدواتُ التشبيه حَرْفانِ وأفعالٌ وأسماءٌ تفيد جميعًا معنى المماثلة والمشاركة. وإليك تفصيلَ القول فيها:

١ ـ الحَرْفان، وهما: الكاف و«كأنّ»:

ـ أمّا «الكافُ» فهي أصلٌ في الدّلالة على معنى المماثلة والمشاركة. والأصلُ فيها أن يليها المشبّهُ به إمّا لفظًا كما في قول الشاعر:

أنَا كالماءِ ـ إنْ رَضِيتُ ـ صفاءً وإذا ما سخِطْتُ كنتُ لَهِيبا

وإمّا تقديرًا كما في قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾، بعد قوله سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا . . .﴾ الآية. إذ الأصلُ: «كَمَثَلِ ذوي صيِّب». ويقول البلاغيون إنّ تقدير المشبّه به المحذوف بـ «ذوي» مرجعه إلى أنّ الضمائر الثّلاثة في ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ هي للمنافقين، وهؤلاء غيرُ مذكورين في الآية، وهكذا قُدِّر المشبّهُ به بـ «ذوي» لتعود عليه هذه الضمائر التي لا بدّ لها من مرجع، وقد قُدِّر لفظُ «مَثَل» ليشاكل المعطوفَ عليه السّابق وهو قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾

وليأخذ نسقُ الكلام هذه الصورة: «مثَلُهم كَمَثَلِ الّذي استوقد نارًا... أو كَمَثَل ذوي صيِّبٍ....».

وقد يلي «الكافَ» غيرُ المشبّه به؛ وذلك إذا كان المشّبه به مركَّبًا أي هيئة منتزعة من أمورٍ لم يعبّر عنها بمفردٍ يدلّ عليها كلفظ «مثل أو حال»، وذُكِر بعد الكاف بعضُ ما تنتزع منه تلك الهيئة، كقوله سبحانه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾، فليس المرادُ هنا تشبيهَ حال الدّنيا بالماء، بل المرادُ تشبيهُ حال الدنيا في إقبالها على الإنسان في زِيّ حسناءَ فاتنةٍ، واغترارِه بابتسامتها الخادعة وطِلائها الكاذب، وما يعقبُ ذلك من زوال نعيمها وامّحاء بهجتها وذهاب نضارتها، بحال النبات يغذّيه الماءُ فيخضَرّ، وينضُر، ويزداد إشراقًا، ثم لا تلبث أن تذهب هذه الخُضرةُ وتتلاشى هذه النّضْرةُ ويتوارى هذا الإشراقُ، ويتحوّل النباتُ الأخضر النّضِر المشرق إلى هشيم تذروه الرّياح، وكأنه لم يكن. ووجْهُ الشبه هو الهيئةُ الحاصلة في كلٍّ من حُسْنٍ وبهجةٍ وهناءةٍ يتْلوها تلَفٌ وشَقاءٌ وفناء. وظاهرٌ هنا أنّ المشبه به لم يلِ الكاف؛ لأنه هيئة لم تُدَلّ عليها بمفردٍ كلفظ «مثل»، ولا استلزم الحالُ تقديرَه لأن الملحوظَ هنا هو الهيئةُ الحاصلة من مجموع الكلام الذي ذُكر بعد الكاف، وملاحظةُ الهيئةِ مستغنيةٌ عن هذا التقدير، ولكنْ ولِيَ الكافَ شيءٌ يتعلّق بالهيئة، وهو «الماء».

- وأمّا «كأنّ» فالأصلُ فيها أن يليها المشبّهُ عكس الكاف. وهي تفيد التّشبيهَ إذا كان خبرُها جامدًا، كما في قول الشاعر:

كأنَّ الثُّريّا راحةٌ تَشْبُرُ الدّجى   لتنظرَ طالَ اللّيلُ أمْ قدْ تعرَّضا

وتفيد الشّكَّ إذا كان خبرُها مشتقًا أو شبيهًا بالمشتق. مثلُ الأولِ قولُ الشّاعر:

كأنكَ مِنْ كلِّ النّفوسِ مركّبٌ   فأنتَ إلى كلِّ النفوسِ حبيبُ

ومثلُ الثاني قولُكَ: «كأنّ محمدًا أخوكَ» على معنى: متولّد من ماءِ أبيك. وهي في المثالين للشكّ؛ حيث إنّك تشكّ في تركيبه من كلّ النفوس أو في أُخوّته. ولا يجوز أن تكون «كأنّ» ههنا للتشبيه، لأنّ اسمَها وخبرها متّحدانِ خارجًا، والشيءُ لا يشبَّهُ بنفسه.

٢ ـ الأفعال: وهي تلك التي تفيدُ معنى المماثلة والمشاركة، ماضيةً كانت أو مضارعة، كمَاثلَ ويُماثِلُ، وشابَهَ ويُشابهُ، وحاكىٰ ويُحاكي ويَحْكي، وضارَعَ ويُضارع، وضاهىٰ ويضاهي. تقول: «محمّدٌ ماثلَ البحرَ عطاءً»، و«هو يماثِلُ البدرَ ضِياءً»، و«محمّدٌ شابَه الجبلَ رسوخًا»، و«هو يشابهُ اللّيثَ إقدامًا»، و«محمّدٌ حاكىٰ الأحْنفَ حِلْمًا» و«هو يحاكي حاتِمًا سماحةً»، و«يحكي الغيثَ عطاءً»، و«محمّدٌ ضارعَ الأسدَ شجاعةً»، و«هو يضارعُ النّجمَ رِفعةً»، و«محمّدٌ ضاهى إياسًا ذكاءً» و«هو يضاهي سَحْبانَ فَصاحةً».

وواضحٌ أنّ المشبّه به يأتي في صورةِ المفعول به لهذه الأفعال.

وقد يقوم مقامَ أداة التّشبيه «فِعْلٌ» يدلّ على حال التّشبيه من القرْبِ والبُعْد بين الطّرفين. والفعلُ المراد هنا يأتي لليقين، ويأتي للظنّ.

ـ والفعلُ اليقينيّ يفيد قربَ المشابهة بين الطّرفين؛ لأنّ أفعال اليقين تدلّ على تيقّنِ الاتّحادِ بين الطّرفين وتحقّقه؛ وهذا يفيد التّشبيه مبالغةً. وذلك كقولكَ: «وجدْتُ زيدًا أسَدًا»، و«رأيتُ الدّنيا سرَابًا خادِعًا».

ـ والفعلُ الظنّي يُفيد بُعْدَ المشابهة بين الطّرفين؛ لأنّ أفعال الظنّ والحُسبان تدلّ على مجرّد الرُّجحان والاحتمال، وهذا يفيد

التشبيه ضعفًا. قال سبحانه: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾. وقال الشاعر:

قومٌ إذا لبِسُوا الدّروعَ حَسِبْتَها سُحُبًا مزرَّدَةً على أقْمارِ

٣ ـ الأسْماءُ: وهي «مِثْلُ» و«شِبْهُ» وما نحا نحوَهما من الأسماء التي تدلّ على معنى المماثلة والمشاركة. ويلحق بها الأوصافُ المشتقّة المفيدة لهذا المعنى كـ «مُمَاثِل» و«مُشابِه» و«مُحاكٍ»... إلخ. تقول: «فاطمةُ مِثْلُ زينبَ في الذّكاءِ»، و«هي شِبْهُ خديجَةَ في الحياءِ»، و«فاطمةُ مماثِلَةُ أمِّها في الفَصاحة»، و«هي مشابِهةُ جَدّتِها في الأناة».

والأصْلُ في مِثْلِ وشِبْهِ وما جرى مجراها من الأسماء المضافة لما بعدها أن يليها المشبّهُ به لفظًا أو تقديرًا.

تقسيم التّشبيه تبعًا للأداة:

ينقسم التشبيهُ تبعًا لأداته على قسمين:

١ ـ التّشبيهُ المُرْسَل ـ وهو ما ذُكِرتْ فيه أداةُ التّشبيه لفظًا أو تقديرًا ـ فمثالُ ما ذُكِرتْ فيه الأداة لفظًا قولُه سبحانه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾.

وقول الشاعر:

إنّما الدّنيا كَبَيْتٍ نَسْجُهُ من عنكَبوتِ

ومِثالُ ما قُدِّرت فيه الأداةُ قولُك: «سَجْعُه سَجْعُ الحَمَام ووَشْيُهُ وشْيُ الطّاووسِ»، وذلك إذا قدّرتَ في نفسك وجودَ الكاف، وأنّ المشبَّهَ مِثْلُ المشبّه به لا عينه. وسُمّي «مُرْسلًا»؛ لإرساله عن التّأكيد، أي خلُوّه من التأكيد الذي يكتسبه التّشبيهُ عند حذْف أداته؛ ذلك أنّ حذْفَ الأداة يُشعِر بحسب الظاهر أنّ المشبّهَ هوَ المشبّهُ به نفسُه.

٢ ـ التّشبيهُ المؤكّد: وهوما تُركَت فيه الأداةُ لفظًا وتقديرًا؛ أي تُرك التّصريحُ بها، وتُنوسِيَ تقديرُها في نظْمِ الكلام أيضًا إشعارًا بأنّ المشبّه عينُ المشبّه به مبالغةً، تقول: «ريحُهُ ريحُ المِسْك ونفْحُه نفْحُ الطِّيب». وأنت هنا تترك ذكرَ الأداة، ولا تقدِّرُها في نفسِك، ادّعاءً منك أنّ المشبّهَ هو المشبّهُ به عينُه لا شيء سواه. ويجعل البلاغيون من ذلك قولَه سبحانه عن الجِبال يومَ القيامة: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، يريد ـ والله أعلمُ بما يريد ـ أنّ الجبالَ يوم القيامة بعد النّفخة الأولى تسيرُ في الهواء كالسّحابِ تسوقه الرِّياحُ. والتّشبيه هنا مؤكّدٌ ومنه قولُ الشاعر:

هـمُ الـبُـحـورُ عَـطـاءً حـيـنَ تـسـألُـهُـمْ وفـي الـلّـقـاءِ إذا تُـلـقـىٰ بِـهِـمْ بُـهَـمُ[1]

ويدخلُ في التّشبيه المؤكّد ضرْبٌ من التّشبيه يُضاف فيه المشبّه به إلى المشبّه بعد حذْف الأداة وتقديم المشبّه به على المشبّه ـ والإضافةُ هنا بيانيةٌ يتّحد فيها مفهوما المضافِ والمضاف إليه. ومن ذلك قولُ الشاعر يصف القمرَ لآخِرِ الشّهر قبل السِّرار:

كـأنّـمـا أَدْهَـمُ الإظْـلامِ حـيـنَ نَـجـا مِنْ أشْهَبِ الصُّبْحِ ألقَى نَعْلَ حافرِهِ

فأصلُ «أدهمُ الإظلام»: إظلامٌ كالأدهم، وأصلُ «أشهب الصّبح»: صُبْحٌ كالأشهب. وهو هنا يشبّه الظلامَ بالفَرس الأسود اللّون، والصّبحَ بالفرَسِ الأبيض الذي فيه سواد. وقد حُذِفت الأداةُ في التّشبيهين وقُدِّم المشبّهُ به على المشبّه ثم أضيف إليه.

ومنه قولُ ابن خفاجة يصف اعتدالَ الرّيح وقت الأصيل:

والرِّيحُ تعْبَثُ بالغُصونِ وقدْ جَرى ذَهَبُ الأصيلِ على لُجينِ الماءِ[2]

---

(١) بُهَم: جمع بُهْمَة، وهو الشجاعُ الذي لا يُهتدى من أين يُؤتىٰ؛ أي يستبهِمُ الوصولُ إليه لضَرْبه أو للإيقاع به.

(٢) عبَثُ الرّيح بالغضون: إمالتها إيّاها. الأصيل: الوقت بين العصر إلى الغروب يوصف عادة بالصّفرة. اللّجين: الفضة.

فقد شبّه الشاعرُ الماءَ بالفضّة في النّقاء والصّفاء؛ إذْ أصْلُ تعبيره: ماءٌ كاللّجين، ثمّ حذفَ الأداةَ وقدّم المشبَه به على المشبّه ثم أضافه إليه.

أمّا مبعثُ تَسْميةِ هذا الضّرب بـ «المؤكَّد» فهو أنَّه أُكِّد وثُبِّت بدعوى اتّحاد المشبّه والمشبّه به، وأنّه لا يتميّز أحدُهما عن الآخر في شيءٍ. وهذا متأتٍّ مِن حذْفِ الأداة التي يُفيد وجودُها التفاوتَ بين المشبّه والمشبّه به.

أغراضُ التّشبيه

أغراضُ التّشبيه هي البواعثُ التي تحمِلُ المتكلّمَ على أن يعقِدَ في كلامه مشابهةً بين شيئين. وهذه الأغراضُ نوعانِ:

١ ـ ما يرجِعُ إلى المشبّه، وهو الأكثر.

٢ ـ ما يرجع إلى المشبّه به.

أولًا: الأغراضُ التي ترجع إلى المشبّه:

١ ـ بيانُ حال المشبّه، أي الوصْفُ الذي هو عليه، وذلك حين يجهل المخاطبُ حالَ المشبّه وينشُد تعرّفَه، فيوضحُ له بإلحاقه بمشبّه به يعرّفه. تقول: «شجَرُ النّارِنْج كشَجَرِ البرتقالِ»، و«ثوبُ فلانٍ كثوبِكَ في السَّواد». ومنه قولُ امرىء القيس يصف عُقابًا بكثرة اصطياد الطيور:

كأنَّ قلوبَ الطّيرِ رَطْبًا ويابِسًا   لدى وَكْرِهَا العُنّابُ والحَشَفُ البالي

فقد شبّه الشاعرُ الرّطْبَ من قلوب الطيّر بالعُنّاب، واليابسَ منها بالحَشَف البالي، وقصْدُه في هذا التشبيه بيانُ أوصافِها من حيث الشّكلُ والمقدار واللّون.

ومن هذا القبيل قولُ النابغة يمدح النُّعمانَ بن المنذر:

فَإنّكَ شمْسٌ والمُلوكُ كواكِبُ   إذَا طَلَعَتْ لَمْ يبدُ منهنّ كوكبُ

فقد شبّه النابغةُ النعمانَ بين سائر الملوك بالشّمس بين سائر الكواكب، وقصَد من ذلك إلى بيان حال النّعمان مع سائر الملوك من

وجهة أنه خِيارُهم وصَفوتُهم، وإذا ظهر بينهم غمرتْ أفضالُه أفضالَهم وطغى شأنُه على شأنهم كحال الشّمس مع الكواكب. ووجهُ الشّبه هو الهيئة الحاصلةُ من الشيء الخطير يتضاءل عند وجوده الشيءُ الحقير. ويستدعي تحقيقُ هذا الغرض معرفةَ المخاطَب حالَ المشبّه به حتى لا يلزم تعريفُ المجهول بالمجهول.

٢ ـ بيانُ مقدار حال المشبّه في القوة والضّعْف والزيادة والنقصان، وذلك حين يعْرِف المخاطبُ حالَ المشبه، ويجهل مقدارَ هذه الحال وينشُدُ تعرّفه، فيوضَح له هذا المقدارُ بإلحاق المشبّه بمشبهٍ به يُعرفُ مقدارُ حالِهِ، قال عنترة:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلُوبةً سُودًا كخافيةِ الغُرابِ الأسْحَمِ

فالمخاطبُ هنا يعرف حالَ المشبّه وهو «السّواد»، ولكنّه يجهل درجةَ سواده، فجاء المتكلّمُ بهذا التشبيه ليبيِّن مقدارَ سواده وأنه في سواد الغُراب الأسْحم الذي يعرف المخاطبُ شدّة سواده.

ومنه قول الشّاعر:

إذا قامَتْ لِحَاجَتِها تثنَّتْ كأنّ عِظامَها مِنْ خَيْزُرانِ

فقد نبّه الشاعر بقوله «تثنّت» على الوصْفِ المشترك بين الطّرفين، أي على حالةٍ من اللّين والانثناء، والمخاطبُ عرفَ ذلك، لكنه لا يعرف مقدارَ هذه اللّيونة، حتى إذا جاء الشاعرُ بالتشبيه أدرك المخاطبُ درجةَ هذه الليونة وبُيّن له أنّها على حدّ لُيونة الخيزران المعروف عند المخاطب بِلِينه وتثنّيه. ويستدعي تحقيقُ هذا الغرض أن يكون المشبهُ به أعرفَ بوجه الشّبه وأشهرَ به عند المخاطب من المشبه، وأن يكون المشبهُ به على حدّ مقدار المشبّه لا أزيد ولا أنقص؛ ليتعيّن مقدارُ المشبه على ما هو عليه.

٣ ـ بيانُ أنّ المشبّه أمرٌ ممكنُ الوجود، حين يكون أمرًا غريبًا يمكن أن يخالَف فيه ويُدَّعى امتناعه، فيُمثَّل بشيءٍ مسلَّم الوقوع ليكون بمثابة الدّليل على ثبوته، كما في قول المتنبّي في جملة قصيدةٍ يرثي بها أمَّ سيفِ الدّولة الحَمْدانيّ:

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهُمْ فإنَّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغَزَال

عندما ادّعى الشاعرُ أنّ ممدوحه فاق الخَلْق وتجاوزهم حتى صار أصْلاً برأسهِ وجنسًا بنفسه، أنِس أنه ادّعى أمرًا يكاد يكون ممتنعًا وأنّ كثيرين سيردّون عليه دَعْواه، ومن ثَمّ احتجّ لهذه الدعوى وبيّن أنها أمرٌ ممكنٌ له ما يشبهه في الوجود الملموس، وهو المِسْك الّذي هو من الدّماء، لكنّه لا يُعَدّ من الدّماء؛ لِمَا فيه من الأوصاف الشريفة التي لا توجد في الدّم. وهذا التّشبيه ضِمْنيّ ومُكَنّى عنه؛ لأنّ المعنى الصريح لهذا الكلام: أنْ لا بِدْع ولا غرابة في أن يخرج الممدوحُ عن بني جنسه لمعنًى فيه ليس فيهم؛ ذلك أنّ المِسْك بعضُ دَمِ الغزال وهو ـ رغم ذلك ـ لا يُعدّ من الدّماء لما اختصّ به من معنى كريم.

ومنه قول الشاعر:

وَيْلاهُ إنْ نظرَتْ وإنْ هيَ أعْرَضَتْ وقْعُ السِّهامِ ونزْعُهنَّ أَلِيمُ

ادّعى الشّاعرُ في صَدْر البيت أنّ كلاّ من نَظَرِها وإعراضِها ممّا يُؤلِم، ثم أدرك أنّ هذا في الظاهر كالممتنع، ولذلك احتجّ لدعواه بأن شبّه نظَرَها بِوَقْع السّهام، بيانًا لأنّ هذا الأمرَ الذي يمكن أن يُخالَف فيه ممكنُ الوجود. والتّشبيه ضمنّي.

ويقتضي تحقيقُ هذا الغرض أن يكون المشبَّهُ به أعْرفَ وأشْهرَ بوَجْهِ الشّبه من المشبّه.

٤ ـ تقريرُ حال المُشبَّه وتمكينُها في ذِهْن السّامع بإبرازها في

صورةٍ هي فيها أوضحُ وأقوى. ويكثر هذا في تشبيه الأمور المعنوية العَصِيّة على الإدراك بأمورٍ حسيّةٍ يسهُل إدراكُها، كما في تشبيه مَنْ يحاوِلُ الحصولَ على شيء عَبَثًا بِمَنْ يرْقُم على الماء، وكقولهم: «التعلّمُ في الصِّغَرِ كالنقشِ في الحجرِ». ومنه قولُ الشاعر:

إنّ القُلوبَ إذا تنافرَ وُدُّها   مِثلُ الزُّجاجةِ كَسْرُها لا يُجْبَرُ

فقد شبّه الشاعرُ القلوبَ المتنافرة المتناكرة بالزّجاجة المتصدّعة بجامع هيئة الشيء التّالفِ يتعذّر رجوعُه إلى حالِه الأولى، ولمّا كان المعنى الذي عَرَضَه الشاعرُ، وهو تنافرُ القلوبِ وعودتُها إلى التواصل، من الأمور العقلية التي لا تستيقنُها القلوبُ بيُسْرٍ ولا تركَنُ إليها الأذهانُ دون تساؤل، عمَد الشاعرُ إلى تصوير هذا المعنى بصورة تراها العينُ وتطمئنّ إليها النفس؛ إذ شبّهه بالزّجاجة حين تتصدّع. ومثل هذا التّشبيه يقرّر المعنى ويمكّنه في ذهن السامع وينفي عنه ما يحيط به من توهّم. وأساس ذلك أن الفِكْرَ بالحسيّات أتمُّ منه بالعَقْليّات؛ لتقدم الحسّيّات وطولِ أُلفةِ النفس لها.

ويقتضي تحقيقُ هذا الغرض أمرين اثنين: أعرفيّة المشبه به بوجه الشبه وأتميّته فيه؛ لأنّ النفسَ إلى الأعرف والأشهر أَميلُ، وهكذا فالتشبيه به لِقَصْد التقرير والتقوِّية أجدر.

٥ ـ تزيين المشبَّه للمخاطب، ترغيبًا فيه أو تعظيمًا له، بتصويره في صورةٍ تُهيج في النفس قوى الاستحسانِ، حيث يَعْمِد المتكلّمُ إلى إلحاقِ المشبّه بمشبّهَ به تستحسنه النفسُ وتحبّه، وبذلك يُرغَبُ فيه أو تعظّم منزلته؛ لِما هو مركوزٌ في طَبْع الإنسان من أنّ المتماثلين حُكْمُهما واحد. قال أبو العلاء المعرّيّ يصِف الشيبَ:

خَبريني ماذا كَرِهتِ مِنَ الشَّيـ   ـبِ فلا عِلْمَ لي بِذَنْبِ المَشيبِ
أَضِياءَ النّهارِ، أمْ وضَحَ اللّؤْ   لُؤِ، أم كونَه كثَغْرِ الحَبيبِ

فقد أتى الشاعر في البيت الثّاني بثلاثة تشبيهات: للشّيب ضياءٌ كضياء النّهار، وبياضٌ كبياضِ اللّؤلؤ، وهو أبيضُ كأسْنان الحبيب. ومعلومٌ أنّ الشّيبَ أمرٌ تكرهه النّفس وتعافه، لكنّ المعرّيّ عمَد إلى تزيينه بإلحاقه بمشبّهاتٍ بها تستحسِنُها النفسُ وتحبّها.

ومنه قول الشاعر:

لـه خـالٌ عـلـى صَـفَـحـاتِ خـدٌ كـنُـقْـطـةِ عـنـبـرٍ فـي صَـحْـنِ مَـرْمَـرْ
وألـحـاظٌ كـأسْـيـافٍ تـنـادي عـلـى عـاصـي الـهـوى: الله أكـبـرْ

حيث شبّه الخالَ على وَجْنة الحبيب بنُقطة عنبر في صحن من المرمر، بجامع هيئةِ نُقْطةٍ سوداءَ في رقعةٍ بيضاء. وغرَضُه من ذلك تزيينُ المشبّه لأنّ نقطةَ العنبر في صحن المرمر من الصّور التي تبتهج لها النّفس ويطرب لها الحِسّ.

٦ - تقبيحُ المشبّه للمخاطب؛ تنفيرًا منه أو تحقيرًا له، بتصويره في صورة تهيج في النفس قوى الاستكراه والنّفور، حيث يعْمِدُ المتكلّمُ إلى إلحاق المشبّه بمشبّهٍ به تتقزّز منه النّفسُ ويمجُّه الطبعُ، وبذلك يُنفر منه أو تُحقّر منزلتُهُ اعتمادًا على ما تقدّم من أنّ المتماثلين حُكْمُهما واحدٌ. قال الشاعر:

والـوَرْدُ فـي شـطّ الـخـلـيـجِ كـأنّـهُ رَمَـدٌ ألـمَّ بِـمُـقْـلَـةٍ زرقـاءِ

حيث شبّه الوردَ الذي نبَتَ في شطّ الخليج بالرّمد الذي أصاب مقلةً زرقاء، بجامع الهيئة الحاصلة من وُجود لونٍ أحمرَ فوق لونٍ أزرق في وَضْع خاصّ - وغرضُ الشّاعر من هذا التّشبيه تقبيحُ المشبّه وتنفير المخاطب منه.

ومن هذا القبيل قولُ الشاعر:

وإذا أشـارَ مـحـدِّثًـا فـكـأنّـه قِـرْدٌ يُـقَـهْـقِـهُ أو عـجـوزٌ تَـلْـطِـمُ

فقد شبّه الشّاعرُ هيئةَ إنسانٍ بغيض يشير في أثناء حديثه بهيئة قِرْدٍ يضحك، أو بهيئة عجوز تصفَعُ خدّيها، بجامع بشاعةِ المنظر وقُبْحه. وغرضُه من هذا التشبيه تقبيحُ المشبّه وتشويهُهُ تنفيرًا للمخاطب منه.

ويقتضي تحقيقُ التزيين والتّقبيح أن يكون المشبّه به أتمّ وأشْهرَ من المشبّه في وجْه الشبه.

٧ ـ استطرافُ المشبّه، أي جَعْلُه طريفًا حديثًا بديعًا. ويتمّ ذلك بإحدى طريقتين:

١ ـ إبرازُ المشبّه في صورةٍ ممتنعةِ الوجود خارجًا، أو نادرة الحضور في الذهن.

٢ ـ التّشبيه بشيء يندر حضوره في الذّهن عند حضور المشبّه لِمَا بين الطّرفين من بُعْدِ المناسبة.

الأول كقول ابن لنكك البَصْرِيّ:

ورَوْضٍ عَبْقَرِيِّ الوَشْي غَضٍّ   يشاكِلُ حين زُخْرِف بالشّقيقِ
سماءَ زَبَرْجدٍ خضراءَ، فيها   نجومٌ طالِعاتٌ مِنْ عَقيقِ

فقد شبّه في هذين البيتين هيئةَ الرَّوْض الذي زخرفتْه شقائقُ النّعمان الحمراءُ بهيئة سماء من زبرجد أخضرَ طلَعَتْ فيها نجوْمٌ من عقيقٍ أحمر. ووجْهُ الشبه الهيئةُ الحاصلة من اجتماع لَوْنَيْنِ أخضرَ غالبٍ وأحمرَ قد غطّى بعضه. وغرَضُ الشاعر من هذا التشبيه استطرافُ المشبّه؛ لإبرازه في صورة الممتنع خارجًا أو النادر الحضور في الذهن.

والثّاني كقولِ ابن الرّوميّ يتحدّث عن البنفسجةِ:

ولا زَوَرْديّةٍ تزهُو بِزُرْقَتِها   بينَ الرّياض على حُمْرِ اليَواقيتِ
كأنّها فوقَ قاماتٍ ضَعُفْنَ بها   أوائلُ النّارِ في أطْرافِ كِبْريتِ

فإنّ صورةَ اتصال النّار بأطراف الكبريت ليس مِمّا يندر حضورُه في الذّهن على الإطلاق، بل يندُر حضورُها عند حضور صورة البنفسج، لِما بين الطّرفين من البُعْد. ولأنّ الشاعرَ أراك القُرْبى بين المتباعِدَيْن أشدّ التباعد، النّبات الغضّ ولهب النار، فقد جعل المشبّهَ طريفًا. ويقول البلاغيون:

إنّ مَبْنى الطِّباع على أنّ الشيءَ إذا ظهر في مكانٍ لا يُعْهَد ظُهورُهُ فيه كانتْ صَبابةُ النفسِ به أكثرَ، وكان بتعلّق القلْبِ به أجدَرَ.

ويقتضي تحقيقُ هذا الغرض ندرةَ المشبّه به وخفاءه.

ـ ما يُشترَط في التشبيه الذي يعود فيه الغرضُ إلى المشبّه:

شرْطُ التشبيهِ الّذي ترجع أغراضُه إلى المشبّه أن يكون المشبّه به «أشْهَرَ» و«أتمَّ» في وجْه الشّبه من المشبّهِ لِيَصِحّ الإلحاقُ أو القياس. يقول السّكاكيُّ: «إنّ حَقّ المشبّه به أن يكون أعْرَفَ بجِهة التشبيه من المشبّه، وأخصَّ بها، وأقوى حالاً معها». وقد صَاغ المعرّيُّ هذه القاعدةَ البلاغيةَ شعرًا حين قال:

ظَلَمْنَاكَ في تشبيهِ صُدْغَيْكَ بالمِسْكِ   وقاعدةُ التَّشبيهِ نُقصانُ ما يَحْكي

وقد شرط البلاغيون «الأعْرَفِيَّةَ» في كلّ أغراض التشبيه خلا «الاستطرافَ». وأساسُ هذا الاشتراط أنّ المشبّه به هو المعرِّف لِحال المشبّه، ومعرِّفُ المجهولِ ينبغي أن يكون معلومًا، وإلّا لَزِم تعريفُ المجهول بالمجهول.

أمّا «الأتَميّةُ» فقد شرَطها البلاغيّون عندما يقْصِد المتكلّمُ تقريبَ المشبّه وتمكينَه من نفس المخاطب؛ لِمَا هو معروفٌ من أنّ النفس البشرية أَميلُ إلى الأتمّ الأقوى من غيره. وهي شرْطٌ أيضًا عند إرادة تزيين المشبّه أو تقبيحه، كما أسلفنا. ورغم عدم اشتراطها في الأغراض الأُخَر تظلّ القاعدةَ الأساسية في التشبيه.

ثانيًا: الأغراضُ التي ترجع إلى المشبّه به:

قد يرجِعُ الغَرضُ من التشبيه إلى المشبّه به، وذلك ضَرْبانِ:

أحدُهما: إيهامُ المخاطبِ أنّ المشبه أتمُّ من المشبّه به في وجه الشبه ـ ويكون ذلك في التشبيه المقلوب الذي يُجْعَلُ فيه الناقصُ مشبَّهًا به بادّعاء أنه أكملُ في وجه الشّبه مبالغةً، كما في قول محمّدِ بن وُهَيْب الحِمْيَرِيّ يمدَحُ المأمونَ:

وبَدَا الصّباحُ كأنّ غُرّتَهُ وجْهُ الخليفةِ حينَ يُمتَدحُ

أصْلُ الغُرّة بياضٌ في جَبْهة الفَرَس أكبرُ من الدّرهم، وقد استُعيرت لبياض الصّبح. وقد أراد الشاعرُ إيهامَ أنّ وجهَ الخليفة أتمُّ من الصّباح في الوضوح والضّياء مبالغةً في وصْف وجهه بالطّلاقة والتهلُّل عند استماع المديح. وقد قيّد الشاعرُ إشراقَ وجه الخليفة بوقتِ سَماع المديح ليُدلّل على اتّصاف الممدوح بمعرفة حقّ المادح وتعظيم شأنه عند الحاضرين بالإصْغاء إليه والابتشاش له، وعلى كماله في صِفة الكرم، ذلك أنه يتهلّل بِشْرًا وطَلاقةً عند استماع المديح، وهذا شأنُ الكِرام؛ ألَمْ يقُلْ زهير في ممدوحه:

تراهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهلّلاً كأنّكَ تُعْطيهِ الّذي أنتَ سائِلُهْ

ومنه قولُ البُحْتُريّ في بِرْكة المتوكّل:

كأنّها حينَ لَجّتْ في تدفُّقِها يدُ الخليفةِ لمّا سالَ واديها

شبّه البركةَ في تدفّق الماء منها بيد الخليفة من تدفّقها بالعطاء قاصِدًا إيهامَ أنّ يدَ الخليفة أقوى تدفقًا بالعطاء من البِرْكة بالماء مبالغةً في وصْفه بالكرم؛ وفي إضافة الوادي إلى يد الخليفة ما فيه من تقوية هذا الادّعاء.

وإلى هذا ينتمي قولُ الشاعر:

والبَدْرُ في أُفُقِ السّماء كغادةٍ بيضاءَ لاحَتْ في ثيابِ حِدَادِ
حتَّى بَدا وجهُ الصّباحِ كأنَّهُ وجْهُ الحبيبِ أتى بِلا مِيعادِ

ففي التشبيهين كليهما قَصْدٌ إلى إيهام أنّ المشبّه أقوى في وجه الشبه من المشبه به.

الثّاني: بيانُ المتكلّم اهتمامَه بالمشبّه به - كأنْ يقولَ الجائعُ: «وجْهُ حبيبي كالرّغيف في الاستدارةِ والتلذّذ به» - وهو في هذا يدّعي أنّ الرّغيف أظهرُ في وجْهِ الشّبه من وجه حبيبه؛ ليبيّن بهذا التشبيه اهتمامَه بالمشبّه به وأنّه لِشِدّة جوعه لا يبرحُ مخيّلتَه ولا يغيب عن خاطره. وكأن يقولَ الفقيرُ: «وجْهُ حبيبي كالدِّينار في الاستدارة والإشراق»، مدّعيًا أنّ الدّينار أظهرُ من المشبّه في وجه الشبه، ليبيّن بهذا التشبيه مبلغَ عنايته بالمال وأنّه لِشِدّة فاقته لا يغيب عن مخيّلته. ويسمّي البلاغيّون التشبيهَ المشتملَ على هذا النوع من الغَرض «إظهارَ المطلوب». ويقولون أنّ هذا الضَّرْبَ من التشبيه لا بدّ فيه من قرينةٍ تبيّن انصرافَ المتكلِّم عن تشبيه الشيء بشيءٍ مألوف تشبيهُهُ إلى شيءٍ آخرَ أكثرَ حضورًا في ذهنه؛ لكونه مطلوبَه في تلك اللّحظة.

تقسيم التشبيه تبعًا للغَرض:

ينقسم التّشبيهُ تبعًا للغرض على قسمين: مقبول، ومردود. وإليكَ تفصيلَ القول فيهما:

١ - التّشبيه المقبول: هو التشبيهُ الّذي يفي بالغرض الذي قصَد إليه المتكلّمُ حين أتى بالتشبيه:

فإن قصَد المتكّلمُ بيانَ حال المشبّه وجبَ أن يكون المشبّهُ به أعْرَفَ بوجه الشبه عند المخاطب، حتى لا يشبّه بأمرٍ مجهول لا يعرفه المخاطب.

وإنْ قصَد بيانَ مقدار حال المشبّه وجبَ أن يكون المشبّهُ به على قدْرِ المشبّه في وجه الشبه لا يزيد عنه ولا ينقص.

وإنّ قصَد بيانَ إمكان المشبّه وجبَ أن يكون المشبه به أمرًا مسلَّمَ الوقوع عند المخاطب.

وإن قصَد تقريرَ المشبّه وتمكينَه من النّفس وجب أن يكون المشبّهُ به أتمَّ في وجه الشبه من المشبّه، لِمَا هو مركوزٌ في الطبّاع من مَيْلِ النّفوس إلى الأتمّ الأقوى والثقة به.

وإنْ قصَد تزيينَه أو تقبيحَه وجبَ أن يكون المشبّهُ به أتمَّ في وجه الشّبه من المشبّه. وثمة اختلاف في هذا الشأن.

وإنْ قصَد استطرافَه وجبَ أن يكون المشبّهُ به غريبًا أو بعيدَ التصوّر.

٢ ـ التّشبيه المردود: وهو التّشبيهُ الّذي لا يفي بالغرض الذي قصَد إليه المتكلّمُ حين أتى بالتّشبيه، وذلك بأن يكون على خلاف شرْط التّشبيه المقبول الذي أسلفْنا القولَ فيه.

فالتّشبيهُ الّذي يُراد منه بيانُ الحال يكون مردودًا حين يكون المشبّهُ به مجهولَ الصفة عند المخاطب؛ والّذي يُراد منه بيانُ مقدار الحال يُرَدّ حين يكون المشبّه به أقلّ أو أكثر من المشبّه في وجه الشبه؛ والّذي يُراد منه بيانُ الإمكان يُرَدّ حين يكون وجهُ الشبه غيرَ مسلّم الوجود في المشبه به؛ والّذي يُراد منه التقريرُ يُرَدّ حين لا يكون المشبه به أتمَّ في وجه الشبه من المشبه؛ والّذي يُراد منه التزيينُ أو التّقبيح يُرَدّ حين لا يكون المشبه به أتمَّ في وجه الشبه من المشبه؛ والذي يُراد منه الاستطرافُ يُرَدّ حين لا يكون المشبه به غريبًا أو بعيدَ التصوّر.

درجاتُ التشبيه
في قوّة المبالغة ووضوح الدِّلالة

ليست أساليبُ التشبيه على درجةٍ واحدة من قوة المبالغة ووضوح الدلالة ـ وعلى الجملة فإنّ لها مراتبَ ثلاثًا في هذا الأمر:

الأولى: وهي عُلْيا المراتب في قوّة المبالغة ووضوح الدلالة ـ ويحتلّها التشبيهُ الذي تُرِك فيه ذِكْرُ الوجْه والأداة جميعًا، كأن تقول: «زيدٌ أسَدٌ»؛ فإنّ هذا التّشبيه له من قوة المبالغة ما ليس لسواه. ومَأتى هذه القوة أمرانِ:

١ ـ أنّ ترْكَ وجْه الشّبه يفيد، بحسب الظاهر، عمومَ جهة إلحاق المشبه بالمشبه به؛ بمعنى أنّ المشبّه «زيد» ـ في المثال السابق ـ يماثل المشبّهَ به «أسد» في كلّ صِفاته من القوّة والمهابة والضّخامة والجُرأة... وما يتّصل بذلك من أوصاف الأسد. فترْكُ الوجْهِ يفسح المجالَ لتشبيه المشبّه بالمشبّه به في كلّ ما عُرِف عنه من صفات. وهذا يقوّي دعوى الاتحاد بين الطرفين.

٢ ـ أنّ ترْكَ الأداة يفيد، بحسب الظّاهر، أنّ المشبّه به في المثال المذكور محمولٌ على المشبّه، والحَمْلُ يستلزم اتّحادَ الطّرفين معنى؛ أي أن يكون المشبّه هو المشبّهُ به تمامًا وليس شيئًا آخر.

الثّانية: وهي وسْطى المَراتب ـ ويحتلّها التّشبيهُ الّذي ترك فيه ذِكْرُ الوجه أو الأداة، كأن تقول: «زيدٌ كالأسَد»، أو «زيدٌ أسَدٌ في الجرأة».

ومبعثُ كون التشبيه في هاتين الصّورتين في المرتبة الوسْطى أنّك بذِكر الأداة دلَلْتَ على التّفاوت بين المشبّه والمشبّه به ولم تترك مجالاً للمبالغة، وبِذِكرِ الوجه حصرْتَ التشابهَ، فلم تدعْ للخيال مجالاً في الظنّ بأنّ التّشابه حاصِلٌ في كثير من الصفات. ويعني هذا في النهاية أنّ التشبيهَ في الصّورتين اشتمل على معنى الاتحاد بين الطرفين من وِجْهة واحدة.

الثّالثة ـ وهي الأخيرة ـ: ويحتلّها التّشبيهُ الذي ذُكِر فيه الوجهُ والأداةُ جميعًا ـ كما تقول: «زيدٌ كالأسَدِ في الشّجاعة» ـ وإنّما كانت هذه المرتبةُ دنيا المراتب لِخُلُوّ التّشبيه فيها من سببي القوّة المتوافرين في تشبيهات المرتبة الأولى: عُموم وجهِ الشبه، حَمْل المشبّه به على المشبه بأنه هو.

التشبيهُ الضّمنيُّ

وهو صورةٌ خاصة للتّشبيه، لا يأتي فيها المتكلّم بالمشبّه والمشبّه به على النّهج المعروف في الدّلالة على مشاركة أمرٍ لِأَمْر في معنًى على نحو واضح، بل يُفهَم فيها التّشبيه فهمًا ضمنيًا قائمًا على اللّمح والاستنتاج. ويأتي المشبّه به برهانًا على إمكان ما أُسنِد إلى المشبه. ويعْمِد المتكلّم إلى هذا الأسلوب عندما يعْرِض فكرةً يأنَسُ أنّ مخاطبه قد يُخالِفه فيها ويُنكِر عليه مذهبَه إزاءها، فيأتي بعدها بأمر يعرِفُه المخاطبُ ويسلّم به، فكأنّ المتكلّمَ يقول لِلْمخاطب: لا تُنكِرْ عليّ ما أزعمُ فإنّ لِما قلتُ مثيلاً تعرفُه ولا تجادِل فيه.

اسْمَعْ ما يقول البُحْتُرِيُّ:

ضَحُوكٌ إلى الأبطالِ وهْوَ يَروعُهُمْ وللِسَّيفِ حدٌّ حين يَسْطُو ورَوْنَقُ

أراد الشاعرُ أن يقول: إنّ حال الممدوح، وهو يَروعُ الأبطالَ ويُخيفهم ويبعث الرّعبَ في قلوبهم مع أنه يضحك لهم، كحال السّيف وهو ينزِلُ على هَامِ الكُماةِ فيسقطها مع أنه يلمعُ ويَبْرُق. ولكن الشّاعر لم يَعْرِض فكرتَه على هذا النحو الواضح من التشبيه الواضح المعالم، بل أَوْحى بالتّشبيه إيحاءً يُلحظ في عَرْض المعنى. وهذا هو «التّشبيه الضّمنيّ».

ومنه قول المتنبّي:

مَنْ يَهُنْ يسْهلِ الهوانُ عَلَيْهِ ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

أراد أبو الطيّب أن يقول إنّ من اعتاد الهوانَ استساغَه واستمرأه ولا غرابة في ذلك فقد عرَفْنا أن الميت إذا جُرِح لا يتألّم. فكأنه قال: إنّ حالَ معتاد الهوان يستسهله كحالِ الميت يُجْرَح فلا يتألّم، لكنه آثر الأداءَ الضمنيّ لهذا التّشبيه لِيَدَع للعقل مَنْدوحةَ اكتشافه.

وينتمي إلى هذا القبيل قولُ أبي تمّام:

لا تُنْكِري عَطَلَ الكريمِ مِنَ الغِنى   فالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمكانِ العَالي

أراد الشّاعرُ أن يقول: إنّ حالَ الكريمِ يبتعدُ عنه الثّراءُ كحالِ المكان العالي ينأى عنه السَّيْلُ. لكنه لم يفعل ذلك مُؤْثِرًا طريقةَ التّشبيه الضمنيّ. وما أروع ما يقول عبدُ القاهر في مناقشة التّشبيه في هذا البيت:

«فهذا قدْ خيّلَ إلى السّامع أنّ الكريم إذا كان موصوفًا بالعلُوّ والرِّفْعةِ في قدْره، وكان الغِنىٰ كالغيثِ في حاجة الخَلْق إليه وعِظَم نفْعه، وجب بالقياس أن يَزِلّ عن الكريم، زليلَ السَّيْلِ عن الطّودِ العظيم، ومعلومٌ أنّه قياسُ تخييلٍ وإيهام، لا تحصيل وإحكام».

أمثلة للتّشبيه الضمنيّ:

١ ـ قال أبو تمام يمدحُ أحدَهم:

ليسَ الحِجابُ بمُقْصٍ عنكَ لي أملاً   إنّ السّماءَ تُرَجّى حين تَحْتَجِبُ

المشبّه حالُ الممدوح يحتجبُ عن الشّاعر فيقرُبُ أملُه بعطائه، والمشبّهُ به حالُ السّماء تستتر بالغيم فيُرجى إِذْ ذاك غيثُها.

٢ ـ قال ابنُ الرّوميّ:

قد يَشِيبُ الفتى وليسَ عَجيبًا   أن يُرى النَّوْرُ في القَضيبِ الرّطيبِ

المشبّهُ حالُ الفتى يعتلي الشّيبُ رأسَه، والمشبّهُ به حالُ الغصن الرطيب يظهر عليه الزّهر الأبيض.

٣ ـ قال المتنبيّ:

وما أنا مِنهمُ بالعيشِ فيهمْ ولكِنْ مَعْدِنُ الذّهبِ الرَّغامُ

المشبّهُ حالُ الشّاعر ينفي كونَه من أهْلِ عصره رُغمَ عيشه بين ظَهرانَيْهم، والمشبّهُ به حالُ الذّهَب ليس تُرابًا ويوجد مع التراب.

٤ ـ وقال المتنبّي أيضًا:

ومِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عنّي أسْرَعُ السُّحْبِ في المسيرِ الجَهامُ

المشبّهُ حالُ تأخّر عطاء الممدوح مع توقّع كثرته، والمشبّهُ به حالُ السّحاب يُبطىء في المسير فيُتوقّع غزارةُ غيثه.

التشبيهُ المقلوب

وهو تشبيهُ الزائد بالنّاقصِ وإلحاقُ الأصْلِ بالفرع لِقَصْد المبالغة. وأساسُ هذا الضرب من التّشبيه أنْ يقصِد المتكلّمُ إيهامَ المخاطب أنّ الشيء القاصرَ عن نظيره في الصفة زائدٌ عليه في استحقاقِ هذه الصفة ووجوبِ أن يُجْعَل هذا القاصرُ أصْلاً فيها، فيصِحّ ـ وفق ادّعائه ـ أن يُجعلَ الفرعُ أصْلاً، ويُسمّى «التّشبيهَ المقلوب» أو «المنعكس»؛ لأنّ التشبيهَ يُعْكَس فيه فيُجْعَلُ المشبّهُ مشبهًا به، والمشبَّه به مشبّهًا، قَصْدًا إلى المبالغة.

والمِثالُ التقليديّ له قولُ محمّدِ بن وُهَيْبِ الحِمْيريّ يمدح المأمون:

وبَدا الصّباحُ كأنّ غرّتَه وجْهُ الخليفةِ حين يُمْتَدَحُ

في سياق المدْح أراد الشّاعرُ أن يبالغَ في وصْف وجه الخليفة بالضّياء والإشراق، فادّعى أنّ وجهَ الخليفة أعرفُ وأشهرُ وأتمّ وأكمل في النّور والضّياء من الصّباح، كلّ ذلك مبالغة في وصف وجهه بالطّلاقة والبِشْر والتهلّل عند استماع المديح. ونجتزىء شيئًا ممّا قال عبدُ القاهر في فَضْل هذه الطريقة التي أسْماها «جعْلَ الفرعِ أصْلاً»:

«فإنّ في الطريقة الأولى [طريقة التّشبيه المقلوب] خِلابةً وشيئًا من السِّحْر، وهو أنه كأنّه يستكثِرُ للصّباح أن يُشبَّه بوجه الخليفة ويُوهِم أنه قد احتشد له واجتهد في طلَب تشبيهٍ يفخّم به أمرَه؛ وجِهَتُه الساحرةُ أنّه يوقع المبالغةَ في نفسِك من حيث لا تشعر ويفيدُكَها من

غير أن يظهر ادّعاؤه لها؛ لأنه وضعَ كلامه وضعَ مَنْ يقيس على أصْل متّفقٍ عليه ويُزجي الخبرَ على أمرٍ مسلَّم لا حاجةَ فيه إلى دعوى ولا إشفاق من خِلاف مخالِفٍ وإنكار منكر. . . والمعاني إذا وردتْ على النفس هذا المورد كان لها ضَرْبٌ من السّرور خاصٌ وحدث بها من الفرح عجيبٌ، وكانت كالنّعمةِ لم تكدّرْها المِنّةُ، والصّنيعةِ لم ينغّصْها اعتدادُ المصطنع لها».

ويقول البلاغيون إنّ هذا التّشبيه إنما يحسُنُ عندما يَعْكِس المتكلّمُ المعنى المتعارفَ، بأن يجعل المشبّهَ به مشبّهًا، والمشبَّه مشبّهًا به. ومنه قولُ البُحْتُرِيّ:

في طَلْعةِ البَدْر شيءٌ من محاسِنِها   ولِلْقضيبِ نصيبٌ من تثنّيها

فالمتعارفُ عند الناس تشبيهُ الوجْه الحسَن بالبَدْر، والقدّ المستقيم الميّاس بالقضيب، لكنّ الشاعر عكَس هذه الطريقة مبالغةً. وزاد هذه المبالغةَ ادّعاؤه أنّ حظّ طَلْعة البدر مِمّا عندها من المحاسن يسيرٌ ضئيل؛ فهو «شيءٌ» أيْ قليل، وكذا فإنّ نصيبَ القضيب من تثنيها محدود.

ومن هذا القبيل قولُ البحتريّ أيضًا يصِفُ بركةَ المتوكّل:

كأنّها حينَ لجّتْ في تَدَفُّقِها   يَدُ الخليفةِ لمّا سالَ واديها

أراد الشاعرُ أن يشبّه يَدَ الخليفة بالبِرْكة في التدفّق والعطاء، لكن موقفَ المادحِ اقتضى منه إيهامَ أنّ يدَ الخليفة أقوى تدفّقًا بالعطاء من البركة بالماء بمالغةً في وصْفِه بالكرَم فقلب التّشبيهَ المألوف جاعلاً المشبّه «يد الخليفة» مشبَّهًا به، والمشبَّهَ به «البركة» مشبّهًا، فكان له ما أراد من مبالغة.

وكالبيت السابق قولُ الشاعر:

والبَدْرُ في أفقِ السّماءِ كغادةٍ بيضاءَ لاحَتْ في ثيابِ حِدادِ
حتّى بدا وجْهُ الصّباحِ كأنّه وجْهُ الحبيبِ أتى بِلا مِيعادِ

ففي كلّ من هذين البيتين تشبيهٌ مقلوب قصَد المتكلّمُ منه إيهامَ أنّ المشبّه أقوى في وجه الشبه من المشبه به.

ويقرُب من هذا التشبيه ضربٌ من التشبيه يسمّيه البلاغيون «تشبيه التّفضيل»، يشبّه فيه المتكلّمُ شيئًا بشيء لفظًا أو تقديرًا، ثم يعدِل عن التّشبيه زاعمًا أنّ المشبّه أفضل من المشبّه به. كقول الشاعر:

حَسِبْتُ جمالَه بَدْرًا مُنيرًا وأينَ البَدْرُ من ذاكَ الجمالِ؟

وقول الآخر:

مَنْ قاسَ جَدْواكَ يَوْمًا بالسُّحْبِ أخْطَأَ مَدْحَكْ
السُّحْبُ تُعطي وتَبْكي وأنتَ تُعطي وتَضْحَكْ

ونحسَبُ أنّ مرجعَ الخِلابة والسّحر في تشبيه التّفضيل إيهامُ الحقيقة وادّعاءُ الصّدق؛ ففي البيت الأول أفاد كلامُ الشّاعر أنه ظنّ لأوّل وهلةٍ أنّ جمال محبوبه كجمال البدر المنير، لكنّه بعد التقصّي والتحقّق من جَلِيّة الأمر وجد بَوْنًا شاسعًا بين البَدْر وبين محبوبه، فحُكْمه النهائيّ بتفضيل الحبيب على البدر حصيلةُ استبانةِ الرّشْدِ كما قال أبو الطيّب:

بأبي الشّموسُ الجانحاتُ غواربا اللاّبساتُ من الحريرِ جلاببا
بيضٌ دعاهُنّ الغبيُّ كواعِبًا ولو استبانَ الرُّشْدَ قال كواكبا

جماليّات التشبيه

التّشبيه إحدى وسائل البيان التي علّمها خالقُ الإنسانِ للإنسان؛ ليصوّر بوساطتها انفعالَه بالأشياء وتصوّرَه للمعاني والفِكَر. والتشبيه أداة تعليم وتعريف تعتمد أساسًا لها إلحاقَ المجهول لدى المخاطب بمعروفٍ لديه. وهو شكلٌ من أشكال الدّلالة يعتمد القياسَ والتمثيل والتصوير، ويقدّم للمخاطب ضربًا من المعرفة المجسَّدة الممثّلة المصوّرة، فحالُ الإخبارِ معه حالُ ناقلِ الخبر ومعه الدّليل، والمدّعي شيئًا ومعهُ البرهان عليه. ويبدو أنّ في جِبِلّة الإنسان احتفاءً خاصًا بالمعرفةِ التي تُقْرَن بالصّورة والعِلْمِ الذي يقترن بالمثال.

وقد لاحظ مُعَلّمُ البلاغة العربية الأولُ، عبدُ القاهر الجرجانيّ، أنّ المعانيَ حين تُورد بطريق التمثيل ـ وهو ضربٌ من التشبيه ـ تحظى لدى المتلقّي بقدْرٍ من الفخامة والنّبل والشّرف والكمال لا يكون لها حين تتعرّى من رداء التّشبيه. ومرجعُ ذلك في رأي الشيخ إلى أنّ التّشبيه يلبّي مطالبَ إدراكيةً كثيرة ويحقّق للنّفس كثيرًا من البَهجات:

١ ـ فالتّشبيهُ في مظهرٍ من مظاهره طريقةٌ لعَرْض المعرفة تتدرّج بالنفس من المجهول إلى المعلوم ومن الغامض إلى الواضح، وأُنْسُ النفوس موقوفٌ على أن تُخْرجها من خفيّ إلى جليّ، وتأتيها بصريح بعد مَكْنيّ، وأن تردّها في الشيء تعلّمها إيّاهُ إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتُها به في المعرفة أحْكَمُ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعمّا يُعْلَم بالفِكْر إلى ما يُعْلَم بالاضطرار والطّبع. وجملةُ

القول أنّ المعرفة المحصّلة من طريق الحواسّ تفضُلُ لدى النّفس تلك التي تُحصّلها من جهة النّظر والفكر في القوّة والاستحكام، ولذلك قالوا. «ليس الخبرُ كالمُعاينة» و«ليس من رأي كمن سمع».

٢ ـ والتشبيهُ يمثّل للنفس مدركاتِ العقول بمدركات الحواسّ فيُحدِث لها ذلك ضرْبًا من الأُنس سببُه طولُ مَعْشرِها للمعاني الأُوَل التي أتتها من طريق الحواسّ، فهي الحبيبُ الأوّل الذي ملأ القلبَ فلم يدَعْ لغيره مكانًا، كما قال أبو تمام:

نقّل فؤادَكَ حيث شئتَ من الهوى ما الحُبُّ إلّا للحَبيبِ الأوّلِ

ويقول عبدُ القاهر: «إنَّ العِلْمَ الأولَ أتى النفسَ أولًا من طريق الحواسّ والطّباع ثم من جهة النظر والرَّوِيّة، فهو إذن أمسُّ بها رَحِمًا، وأقوى لديها ذِمَما، وأقْدَمُ لها صُحْبةً، وآكدُ عندها حُرْمةً، وإذا نقلْتَها في الشيء بمِثْله عن المُدْرَك بالعقل المَحْض وبالفكرة في القلب إلى ما يُدْرَك بالحواسّ أو يُعْلَم بالطبّع وعلى حدّ الضرورة فأنتَ كمَنْ يتوسّل إليها للغريبِ بالحَميم، وللجديد الصُّحْبة بالحبيب القديم».

٣ ـ يقرّب التّشبيهُ بين المتباعدين ويصوّر شبَه الشيء في غير جنسه وشكْلِه فيُحْدِث ذلك في النفس ضرْبًا من «التعجيب» و«الإدهاش» واضحَ المعالم بيّن الآثار. ويقول الشيخُ عبدُ القاهر: «إنّك إذا استقرَيْتَ التّشبيهاتِ وجدْتَ التباعدَ بين الشيئين كلّما كان أشدَّ كانت إلى النّفوس أعجبَ، وكانت النفوسُ لها أطْربَ، وكان مكانُها إلى أن تُحْدِث الأَرْيَحِيّةَ أقربَ، وذلك أنّ موضعَ الاستحسان ومكانَ الاستظراف، والمُثيرَ للدّفين من الارتياح، والمتألّفَ للنّافر من المسرّة، والمؤلّفَ لأطراف البهجة، أنّك ترى بها الشيئين مِثْلَيْن متباينين، ومؤتلفين مختلفين، وترى الصّورةَ الواحدة في السّماء والأرض.. ومَبْنى الطّباع، وموضوعُ الجِبلّة على أنّ الشيءَ إذا ظهر من مكانٍ لم

يُعْهَد ظهورُه منه، وخرج من موضع ليس بِمَعْدِنٍ له، كانت صَبابةُ النفوسِ به أكثرَ، وكانَ بالشّغفِ منها أجدرَ، فسواءٌ في إثارة التعجّب، وإخراجك إلى رَوْعة المستغرب، وجودُك الشيءَ مِنْ مكانٍ ليس من أمكنته، ووجودُ شيءٍ لم يوجَدْ ولم يُعْرَف من أصْله في ذاته وصفته».

٤ ـ والتّشبيهُ يمثّل الأشياءَ والمعاني بالصّورة المشاهدة فيزيد النّفسَ أُنسًا هو في جوهره اطمئنانُ قلْب الرّائي المعاينِ المُشاهِد. فقد «تعبّر عن المعنى بالعبارة التي تؤدّيه وتبالغُ وتجتهد حتّى لا تدع في النّفوس مَنْزَعًا، نحو أن تقول وأنت تصِفُ اليومَ بالطّول: «يومٌ كأطولِ ما يُتوهَّم» و«كأنّه لا آخرَ له»، وما شاكلَ ذلك من نحو قوله:

في لَيلٍ صُولٍ تناهى العَرْضُ والطُّولُ كـأنّـمـا لـيـلُـهُ بـالـلّـيـل مَـوْصُـولُ

فلا تجد له من الأُنْس ما تجده لقوله:

ويـومٍ كـظـلّ الـرُّمْـحِ قـصّـرَ طـولَـه دَمُ الزّقّ عنّا واصطفاقُ المزاهرِ

على أنّ عبارتَك الأولى أشدُّ وأقوى في المبالغة من هذا، فظِلُّ الرّمح على كلّ حالٍ متناهٍ تُدرِك العينُ نهايته، وأنتَ قد أخبرتَ عن اليوم بأنّه كأنّه لا آخرَ له، وكذلك تقول «يومٌ كأقصر ما يُتصوّر» و«كأنّه ساعةٌ» و«كَلَمْح البَصَر». . . . فتجد هذا، مع كونه تمثيلاً، لا يؤنسك إيناسَ قولِهم: «أيّامٌ كأباهيم القَطَا» وقولِ ابن المعتزّ:

بُـدّلْـتُ مِـنْ لـيـلٍ كـظـلّ حَـصَـاةِ لَـيْـلاً كَـظِـلّ الـرُّمْـحِ غـيـرَ مُـواتِ

وقول آخر:

ظَـلِـلْـنـا عـنـدَ بـابِ أبـي نُـعَـيْـمٍ بِـيَـوْمٍ مـثـلِ سَـالـفـةِ الـذُّبـابِ

وكذا تقول: «فلانٌ إذا همّ بالشيء لم يزُل ذاك عن ذكره وقلبه، وقصَرَ خواطره على إمضاء عزمه، ولم يشغَله شيء عنه»، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن، ثم لا ترى في نفسك له هِزّةً ولا تُصادف لما تسمعه أَرْيَحِيّةً، وإنّما تسمع حديثًا سَاذجًا وخبرًا غُفْلاً، حتى إذا قلت:

إذا هـمّ ألـقـى بيـنَ عـيـنَـيْـهِ عَـزْمَـه ونـكّـبَ عَـنْ ذِكْـرِ الـعـواقِـبِ جَـانِـبـا

امتلأت نفسُك سرورًا وأدركتْك طُرْبة ـ كما يقول القاضي أبو الحسن ـ لا تملِك دفعها عنك. ولا تَقُلْ إنّ ذاك لمكان الإيجاز، فإنه وإن كان يوجب شيئًا منه، فليس الأصْلَ له، بل لِأَنْ أراك العزمَ واقعًا بين العينين، وفَتَح إلى مكان المعقول من قلبك بابًا من العين».

٥ ـ للتّشبيه قدرةٌ عالية على استقصاء المعنى ولمّ شتات الصّورة، ومن ثمّ يمكّن من تصوير المعاني العَصِيّة على التّعبير والمواقف المتأبية على الوصْف. ومن التّشابيه التي راقت عبدَ القاهر وجعَلَها مِثالاً لبليغ الاستقصاء وعجيبه قولُ ابنِ المعتزّ:

كأنّا وضَوْءُ الصُّبحِ يستعجِلُ الدُّجى نُـطِـيـرُ غـرابًـا ذا قَـوادِمَ جُـونِ

وتستهوي الصّورةُ الشّيخَ فيأخذ في تحليلها وَفْق منهجه التّعليمي قائلاً: شبّهَ ظلامَ اللّيل حين يظهر فيه الصّبحُ بأشخاصِ الغِرْبان، ثم شَرَط أن تكون قوادمُ ريشها بيضًا؛ لأن تلك الفِرَقَ من الظلمة تقع في حواشيها من حيث تلي معظمَ الصّبح وعمودَه لُمَعُ نُورٍ يُتخيّل منها في العين كشكل قوادمَ إذا كانت بيضاء. وتمامُ التّدقيق والسّحر في هذا التّشبيه في شيء آخرَ، وهو أن جعَل ضوءَ الصّبح، لقوة ظهوره ودفْعِه لظلام الليّل، كأنه يَحْفِزُ الدُّجى ويستعجلها ولا يرضى منها أن تتمهّل في حركتها. ثم لمّا بدأ بذلك أولاً اعتبره في التّشبيه آخِرًا فقال: «نُطِير غُرابًا» ولم يَقُلْ «غراب يطير» مثلاً، وذلك أنّ الغرابَ وكلَّ طائر إذا كان واقعًا هادئًا في مكان، فأُزعِج وأُخيفَ وأُطِير منه، أو كان قد حُبس في يدٍ أو قفَصٍ فأرسل، كان ذلك لا محالةَ أسرعَ لطيرانه وأعجلَ وأمدّ له وأبعدَ لِأَمَدِه، فإنّ تلك الفَزْعةَ التي تعرِض له من تنفيره أو الفرحةَ التي تُدركه وتَحْدُث فيه من خَلاصه وانفلاته، ربما دعَتْه إلى أن يستمرّ حتى يغيب عن الأفق ويصير إلى حيث لا تراه

العيون، وليس كذلك إذا طار عن اختيار، لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأوّل، وأن لا يُسْرِع في طيرانه، بل يمضي على هِينَتِهِ ويتحرّك حركةَ غيرِ المستعجلِ.

واسْمَعْ ما يقول الأخْطَلُ في تصوير نَشْوةَ الشّراب وهي تَسْري في أعطافِ الشارب:

تَـدِبُّ دَبِـيـبًـا فـي الـعِـظـامِ كـأنَّـهُ   دَبِـيـبُ نِـمَـالٍ فـي نـقًـا يـتـهـيَّـلُ

معلومٌ أنّ اللّذة التي يجدها الشّاربُ من الأمور التي يعِزّ التعبيرُ عنها على نحوٍ واضح، ولكنّ الأخطلَ مثّل هذا الإحساسَ الداخليّ في صُورةٍ معايَنةٍ يعرفها كثيرون منّا، ومَنْ عرَف دبيبَ النّمال في كثيب الرّمْل الناعم تصْعَد فينثالُ تحتَها الرّملُ فتهبط مُترنّحةً يَمْنةً ويَسْرة، ثمّ تعاود الكرّةَ من جديد، يدرِكُ مبْلَغَ الرّوعة والبراعة في هذا التّشبيه، ويشهد للشّاعر بالفِطْنة والذّكاء وخِصْب الخيال.

ويقول البلاغيون إنّ من بديع التشبيه قولَ المتنبّي:

بَلِيتُ بِلى الأطْلالِ إن لَمْ أقِفْ بِها   وُقُوفَ شَحيحٍ ضاعَ في التُّرْبِ خاتَمُهْ

فقد استبدّ بالشّاعر إحساسُ الوفاء لِمَنْ سكن الدّيار فدعا على نفسه بأن ينتابَه ما انتاب أطلالَ الأحبّة من بِلى إن هو لم يقف بها وقوفَ المتعلّق بها المُنْشَدِّ إليها الّذي يعِزّ عليه مغادرتُها. ولكنْ أيةُ هيئةٍ تلك التي تصوّر انفعالَه وتستقصيه ولا تدَعُ منه شيئًا؟ إنّها هيئةُ الشحيح الذي ضاعَ خاتمُه في التّراب فوقف ينقّب ويبحث ويفتّش وكأنه قد أضاعَ قِطْعةً من قلْبه يفقد الحياةَ بفقْدِها.

٦ ـ يُضاف إلى جماليّات التّشبيه وخِلابته وسِحْره جماليّةٌ أخرى أساسُها إعجابُنا بِمَنْ يُحْسِنون محاكاةَ الأشياء وتصويرَها التّصويرَ الدّقيق، وقد نبّه على ذلك أرسطو في كتابه «فنّ الشّعر». ونجد أصداءَ

لها عند نفر ممّن عرضوا لِسِحْر البيان العربيّ منذ الجاحظ. ولا مُواربةَ في أنّ أيًا منّا سيعتريه إحساسُ الإعجاب بالصَّنعةِ في تشبيه السّرْو بالنساء في قول الشاعر يصف روضةً:

حُفَّتْ بسَرْوٍ كالقِيانِ تلحّفتْ خُضْرَ الحَريرِ على قَوام مُعْتَدِلْ
فكأنّها والرّيحَ حين تُميلُها تَبْغي التعانقَ ثمّ يمنعُها الخَجَلْ

قال عبدُ القاهر:

«المقصود من البيت الأول ظاهرٌ. وفي البيت الثّاني تشبيه من جِنس الهيئة المجرّدة من هيئات الحركة، وفيه تفصيل طَريفٌ فاتن، فقد راعى الحركتين حركة التهيُّؤ للدنوّ والعِناق وحركة الرّجوع إلى أصل الافتراق، وأدّى ما يكون في الحركة الثّانية من سرعةٍ زائدة تأديةً تحسَبُ معها السّمْعَ بصرًا، تبيينًا للتشبيه كما هو وتصوّرًا، لأنّ حركة الشّجرة المعتدلة في حال رجوعها إلى اعتدالها أسرعُ لا محالةَ من حركتها في حال خروجها عن مكانها من الاعتدال، وكذلك حركةُ مَنْ يُدرِكه الخجَلُ فيرتدع، أسرعُ أبدًا من حركته إذا هَمّ بالدنوّ، فإزعاج الخوفِ والوجَل أبدًا أقوى من إزعاج الرّجاء والأمل».

أسئلة وإجاباتها حول التشبيه:

أولًا: بيِّن فيما يأتي طرفي التّشبيه، والحاسّة التي يُدرَك بها كلّ منهما:

١ ـ صوتٌ كأغاريد البلابلِ، ونكهةٌ كرِيح الخُزامى.

٢ ـ وقَصائدٌ مِثْلُ الرّياضِ أضَعْتُها   في باخِلٍ ضاعتْ به الأَحْسابُ

٣ ـ قال سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

٤ ـ والدّهرُ كالبَحْرِ لا ينفكُّ ذا كدَرٍ   وإنّما صفْوُهُ بينَ الورى لُمَعُ

٥ ـ دواء كالعَلْقمِ، ولَسْعٌ كلَسْعِ الأرْقمِ.

٦ ـ والبَدْرُ في أفقِ السّماءِ كغادةٍ   بيضاءَ لاحتْ في ثِيابِ حِدادِ

٧ ـ رُضابٌ كالعَسَل وجَبينٌ كالقمر.

٨ ـ شعر كالحرير، وقدٌّ كالغصن.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾.

١٠ ـ رائحةٌ كالمسك، وصوتٌ كصوتِ المِزْمار.

ـ الإجابات:

١ ـ المشبه هو «الصوت» والمشبه به هو «أغاريد البلابل» ويدرَكان بحاسّة السّمع (في المثال الأول) ـ المشبّه هو «نكهة» والمشبه به هو «ريح الخُزامى» ويدرَكان بحاسّة الشمّ (في المثال الثاني).

٢ ـ المشبّه «قصائد»، والمشبّه به «الرّياض»، يدرَك الأوّلُ بالسّمْع، والثاني بالبصر.

٣ ـ المشبّه هو الضمير في «كأنّهم»، والمشبّه به هو «أَعجاز نخل»، ويدركان بحاسّة البصر.

٤ ـ المشبّه هو «الدّهر»، والمشبّه به «البحر»، يدرَك الأول بالعقل، والثاني بالبصر.

٥ ـ المشبّه هو «الدّواء»، والمشبه به «العلقم»، ويدرَكان بالذّوق (في المثال الأول). المشبه هو «لسْعٌ»، والمشبه به «لسْع الأرقم» (وهو من أشدّ الحيّات فتكًا)، ويدرك كلٌ منهما باللّمس (المثال الثاني).

٦ ـ المشبّه هو «البدر»، والمشبه به هو «غادة»، ويدرَكان بحاسة البصر.

٧ ـ المشبّه هو «رُضاب» والمشبه به «العَسَل»، ويدرَكان بحاسّة الذوق (في المثال الأول). والمشبّه هو «جبين»، والمشبه به هو «القمر»، ويدرَكان بحاسّة البصر (المثال الثاني).

٨ ـ المشبّه هو «شعر» والمشبه به «الحرير» ويدرَكان بحاسّة اللّمس (المثال الأول). المشبه هو «قَدٌّ» والمشبّه به هو «الغصن»، ويدرَكان بحاسّة البصر (المثال الثاني).

٩ ـ المشبه هو الضمير في «عادَ» والمشبه به هو «العُرْجُون القديم» ويدرَكان بحاسّة البصر.

١٠ ـ المشبّه هو «رائحة» والمشبه به هو «المِسْك»، ويدرَكان بحاسة الشمّ (المثال الأول). المشبه هو «صوت»، والمشبه به هو «صوت المزمار»، ويدرَكان بحاسّة السمع (المثال الثّاني).

ثانيًا: حدّد فيما يأتي طرفي التّشبيه وحاليهما، ونوع التّشبيه تبعًا لهذين الطرفين:

١ ـ قُصورٌ كالكواكبِ لامعاتٍ   يكَدْنَ يُضِئْنَ للسّاري ظلاما

٢ ـ علمٌ لا ينفع كدواءٍ لا ينجع.

٣ ـ والدّهرُ يَقْرعُني طوْرًا وأَقْرَعُه   كأنّه جَبَلٌ يَهْوي إلى جبَلِ

٤ ـ إذا ما الرّعْدُ زمجرَ خِلْتَ أُسْدًا   غِضابًا في السَّحابِ لها زَئيرُ

٥ ـ الصّديقُ المجامِلُ والأخُ الجاهل كلاهما كجَمْرِ الغضا.

٦ ـ فإن أغْش قوْمًا بعْدَه أو أزرْهُمُ فكالوَحْشِ يُدْنيها مِنَ الأنسِ المَحْلُ

٧ ـ قال عليّ كرّم الله وجهَه: «مَثَلُ الذي يعْلَمُ الخيرَ ولا يعملُ به مثلُ السّراج الذي يضيءُ للنّاسِ ويَحْرِق نفسَه».

٨ ـ الحقُّ سيفٌ على أهلِ الباطلِ.

٩ ـ وفتكتَ بالمالِ الجزيلِ وبالعِدا فَتْكَ الصَّبابةِ بالمُحِبِّ المُغْرَمِ

١٠ ـ لَـيْـلٌ وبَـدْرٌ وغُـصْـنُ شَـعْـرٌ ووَجْـهٌ وقَـدُّ
خَـمْـرٌ ودُرٌّ ووردُ رِيـقٌ وثَـغْـرٌ وخَـدُّ

١١ ـ فكم معنًى بديعٍ تحتَ خَطٍّ هـنـاكَ تـزاوجـا كـلَّ ازدواجِ
كـرَاحٍ فـي زجـاجٍ أو كـروحٍ سَرَتْ في جِسْمٍ معتدِلِ المِزاجِ

١٢ ـ لهُ خَالٌ على صفَحَاتِ خدٍّ كنُقْطةِ عَنْبرٍ في صَحْنِ مَرْمَرْ

١٣ ـ يكادُ يحكيك صوبُ الغيثِ منسكِبًا لو كان طلْقَ المُحَيَّا يُمطِر الذَّهَبا
والبَدْرُلوْلَمْ يغِبْ والشّمسُ لو نطَقَتْ والأُسْدُ لوْ لَمْ تُصَدْ والبحرُ لوْ عذُبا

١٤ ـ أنـا فـي أمّـةٍ تـداركـهـا الـلّـ ـهُ غـريـبٌ كـصـالـحٍ فـي ثـمـودِ

١٥ ـ ليلتي هذه عَروسٌ مِنَ الزّنـ ـجِ علـيـهـا قـلائـدٌ مـن جُـمـانِ

ـ الإجابات :

الرقم	المشبه	المشبّه به	حال المشبّه	حال المشبه به	نوع التشبيه
١	قصور	الكواكب	مفرد حسّي	مفرد حسّي	
٢	علم لا ينفع	دواء لا ينجع	مفرد مقيّد عقلي	مفرد مقيّد حسّي	
٣	الهاء في «كأنه»	جبلٌ يهوي	مفرد مقيّد عقلي	مفرد مقيد حسّي	
٤	صوت الرعد	صوت السباع الغضاب	مفرد حسّي	مفرد مقيّد حسّي	
٥	الصديق المجامل والأخ الجاهل	جمر الغضا	متعدّد حسّي	مفرد مقيد حسّي	
٦	ضمير الفاعل في «أغش»	الوحش	مفرد مقيّد حسّي	مفرد مقيّد حسّي	
٧	الذي يعلم الخير ولا يعمل به	السّراج	مفرد مقيّد حسّي	مفرد مقيّد حسّي	
٨	الحقّ	سيف	مفرد عقليّ	مفرد مقيّد حسي	
٩	فتكه بالمال وبالعدا	فتك الصبابة	مفرد حسّي	مفرد مقيد عقلي	
١٠	ليل وبدر وغصن	شعر ووجه وقدّ	متعدد حسّي	متعدد حسّي	ملفوف
١١	المعنى البديع تحت الخط	الراح أو الروح	مفرد عقلي مقيد	الأول مفرد مقيد حسّي والثاني مفرد مقيد عقلي	جمع
١٢	صورة الخال على صفحة الخد	صورة نقطة العنبر في صحن المرمر	مركّب حسّي	مركّب حسّي خيالي	
١٣	صوبُ الغيث والبدر والشمس والأسد والبحر	المخاطب المدلول عليه بكاف الخطاب	متعدّد حسّي مقيد	مفرد حسّي	
١٤	المتنبي بين المختلفين عنه	نبيّ الله صالح في ثمود	مفرد مقيد حسّي	مفرد مقيّد حسّي	
١٥	الليلة وقد أضيئت فيها الأنوار	العروس الزنجية تزيّنت باللؤلؤ	مفرد مقيد حسّي	مفرد مقيد حسي	

ثالثًا: حدّد وجهَ الشبه ونوع التّشبيه تبعًا له فيما يأتي:

١ ـ لفظٌ كالسحر، وخلُقٌ كالعِطْر.

٢ ـ له صوتٌ كرنين الأوتار.

٣ ـ التّقيُّ كالمِصْباح يضيء في الظلام.

٤ ـ زيدٌ كأخيه شجاعةً وعفّةً وجودًا.

٥ ـ خَطابةُ قُسّ كالسّحر تأخذ بمجامع القلب.

٦ ـ وما المَرْءُ إلّا كالشّهابِ وضوئهِ يحورُ رَمَادًا بعْدَ إذْ هُوَ ساطِعُ

٧ ـ مُهَفْهَفٌ وجْنَتاهُ كالخَمْرِ لونًا وطعما

٨ ـ طلْقٌ شديدُ البأسِ راحتُه كالبَحْرِ فيهِ النّفْعُ والضّرَرُ

٩ ـ النّساءُ حبائلُ الشيطانِ.

١٠ ـ هذا أبو الهَيْجاءِ في الهيجاءِ كالسَّيْفِ في الرَّوْنَقِ والمَضاءِ

١١ ـ قال عليه الصّلاةُ والسلام: «مُضَرُ صَخْرَةُ الله التي لا تُنْكَل».

١٢ ـ كأنَّ انتضاءَ البَدْرِ مِنْ تحتِ غَيْمِهِ نَجاءٌ مِنَ البَأساءِ بعْدَ وُقوعِ

١٣ ـ وأَرْضٌ كأخْلاقِ الكريمِ قطعْتُها وقد كحّلَ اللّيلُ السِّماكَ فأَبْصَرا

١٤ ـ قال البُحْتُريُّ يصِف فَرسًا:

ترى أحْجالَهُ يَصْعَدْنَ فيهِ صُعودَ البَرْقِ في الغَيْمِ الجَهامِ

ـ الإجابات:

الرقم	وجه الشبه	نوع التّشبيه تبعًا للوجه
١ ـ المثال (١)	التأثير	تحقيقيّ؛ إذ وجه الشبه متحقّق في الطرفين، واحد، عقليّ، مجمل، قريب.
المثال (٢)	استطابة النفس	تخييلي؛ لتخيله في المشبه، واحد، عقليّ، مجمل، قريب.
٢ ـ	النّغم الحسن	تحقيقي، لتحقق الوجه في الطرفين، واحد، حسّي، مجمل، قريب.
٣ ـ	الإضاءة في الظلام	تخييلي؛ لتخيّل معناه في المشبه، واحد، حسي، مجمل، قريب.
٤ ـ	الشجاعة والعفة والجود	تحقيقي؛ لتحقق وجه الشبه في الطرفين، متعدّد، عقلي، مفصل للتصريح بوجه الشبه، غريب لخفاء الوجه بسبب تعدّده.
٥ ـ	التأثير والنفاذ	تخييلي في المشبه، واحد، عقليّ، مجمل، قريب.
٦ ـ	الوجود الذي يعقبه الفناء	تحقيقي، مركّب، عقليّ، تمثيل؛ لأنه يجري في الهيئات، مجمل، غريب.
٧ ـ	اللّون والطعم	تحقيقي في اللون، تخييلي في الطعم، متعدّد، حسّي، مفصّل، غريب.
٨ ـ	النفع والضرر	تحقيقي، متعدّد، عقليّ، مجمل، غريب.
٩ ـ	الإغواء أو الإغراء	تحقيقي، واحد، عقليّ، مجمل، قريب.
١٠ ـ	الرونق والمضاء	تحقيقي، متعدّد، حسّي في الرونق، عقلي في المضاء، مفصل، غريب.
١١ ـ	الوطأة	تحقيقي، واحد، حسّي، مجمل، قريب.
١٢ ـ	هيئة التخلّص من حالة إلى أخرى أفضل منها	تحقيقي مركب، عقليّ، تمثيل، مجمل، غريب.
١٣ ـ	السعة والسهولة	تحقيقي، متعدّد، حسّي في المشبه، عقليّ في المشبه به، مجمل، غريب.
١٤ ـ	هيئة اجتماع لونين مختلفين	تحقيقي، مركّب، حسّي، تمثيل، مجمل، غريب.

رابعًا: حدِّد وجهَ الشَّبه، ونوعَ قيامه بكلٍّ من الطرفين من حيث تحقّقُه أو تخيّله أو ادعاؤه في العبارات الآتية:

١ ـ تُحطِّمُنا الأيّامُ حتّى كأنّنا زُجاجٌ ولكنْ لا يُعادُ لَنا سَبْكُ

٢ ـ ثوبُ المؤمنِ كقَلْبه.

٣ ـ والنفسُ كالطِّفلِ إن تُهمِلْه شبَّ على حُبِّ الرّضاعِ وإنْ تَفْطِمْه يَنْفَطِمِ

٤ ـ بَاقِلُ كسَحْبانَ.

٥ ـ الحياةُ قنطرةٌ فاعبُروها ولا تَعْمُروها.

٦ ـ فانهضْ بِنارٍ إلى فحْمٍ كأنّهما في العَيْنِ ظُلْمٌ وإنصافٌ قد اتّفقا

ـ الإجابات:

١ ـ وجهُ الشّبه هو «سرعة الكَسْر»، وهي قائمةٌ بالطّرفين حقيقةً.

٢ ـ وجه الشّبه هو «البياض»، وهو حقيقي في المشبه، تخييلي في المشبه به؛ فإنّ القلوب ليست من ذوات الألوان. وقد جعل القلْبَ مشبّهًا به؛ لاعتباره أصلاً في البياض على سبيل المبالغة.

٣ ـ وجهُ الشبه هو «تحكّم العادة»، وهو قائمٌ بالطرفين حقيقةً.

٤ ـ باقِلُ يُضْرَبُ به المَثَلُ في العِيّ، وسَحْبانُ يُضْرَب به المثَلُ في الفصاحة. ووجْهُ الشبه هنا هو «الفَصاحة»، وهو في المشبه ادّعائيّ، وفي المشبه به حقيقي؛ وذلك بتنزيلِ التضادّ بين الطرفين منزلةَ التناسب، وجَعْلِ العِيّ بمنزلة الفصاحة تهكّمًا أو تمليحًا.

٥ ـ وجْهُ الشّبه هو «سُرْعةُ مرورِ الإنسان بهما»، وهو قائم بالطرفين حقيقةً.

٦ ـ وجه الشّبه هو هيئةُ اجتماع بياض بسواد، حيث شبّه النارَ والفَحْمَ مجتمعين بالعَدْل والظّلْمِ مجتمعين أيضًا في الهيئة المذكورة،

وهي قائمةٌ بالمشبه حقيقةً، وبالمشبه به تخيلاً بعد اعتداده أصْلاً في هذه الهيئة، يُقاس عليه مبالغةً.

خامسًا: حدِّد أركانَ التشبيه وأقسامه تبعًا لكلٍّ من هذه الأركان، والغرضَ منه فيما يأتي:

١ ـ تُحَطِّمُنا الأيّامُ حتّى كأنّنا زُجاجٌ ولكنْ لا يُعادُ لنا سَبْكُ
٢ ـ إنّي إذا خَفِيَ الرِّجالُ وجَدْتَني كالشَّمْسِ لا تخفى بكلِّ مكانِ
٣ ـ كأنَّ بَنِي نَبْهانَ يومَ وفاتِه نُجومُ سَماءٍ خرَّ من بَيْنِها البَدْرُ
٤ ـ ونَحْنُ كماءِ المزن ما في نصابنا كَهامٌ، ولا فينا يُعَدُّ بخيلُ
٥ ـ كمْ نعمةٍ مرَّتْ بِنا وكأنّها فرَسٌ يُهَرْوِلُ أو نسيمٌ ساري
٦ ـ كأنَّ سُهَيْلاً والنجومُ وراءه صفوفُ صلاةٍ قام فيها إمامُها
٧ ـ العِلْمُ في الصَّدْرِ مثلُ الشمسِ في الفَلَكِ والعقْلُ للمَرْءِ مِثْلُ التّاجِ للمَلِكِ

٨ ـ قال المتنبي يصِف أسدًا:

ما قُوبِلَتْ عَيْناه إلّا ظُنّتا تحتَ الدُّجى نارَ الفَرِيقِ حُلولا

ـ الإجابات:

الترتيب	الأداة	أقسامه تبعًا لها	المشبه به	أقسامه تبعًا له	المشبه به	أقسامه تبعًا له	الوجه	أقسامه تبعًا لها	الغرض من التشبيه
١	كأن	مرسَل	ضمير «نا»	حسي مفرد	زجاج	حسي مفرد	سرعة الكسر	مجمل، غير تمثيل	بيان حاله
٢	الكاف	مرسَل	الياء في «وجدتني»	حسي مفرد	الشمس	حسي مفرد	نباهة الذكر	مفصّل غير تمثيل	بيان حاله
٣	كأن	مرسَل	بنو نبهان	حسي مفرد مقيّد	نجوم	مركب	فقد الأحسن	مجمل، غير تمثيل	بيان حاله
٤	الكاف	مرسَل	قوم الشاعر	حسي مفرد	ماء المزن	حسي مفرد	نقاء الجوهر	مجمل، غير تمثيل	بيان مقدار حاله
٥	كأنّ	مرسَل	نعمة	عقلي مفرد	الفرس أو النسيم	حسي مقيد	السرعة	مجمل، غير تمثيل	بيان مقدار حاله
٦	كأنّ	مرسَل	سهيلًا والنجوم	حسي مركب	صفوف	حسي مركب	صورة جِرْم مضيء يتقدّم مجموعة أجرام مضيئة	مجمل، تمثيل	بيان حاله
٧	مثل	مرسَل	العلم	عقلي مفرد	الشمس	حسي مفرد	الهداية والنفع	مجمل، غير تمثيل	بيان حاله
	مثل	مرسَل	العقل	عقلي مفرد	التاج	حسي مفرد	الزينة	مجمل، غير تمثيل	تحسين المشبه أو تقريره أو بيان مقدار حاله
٨	ظُنّتا	مرسَل	عينا الأسد	حسي مفرد	نار الفريق	حسي مفرد	الاحمرار والبريق	مجمل، غير تمثيل	بيان مقدار حاله

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني:

المجاز

ويتضمن:

- مقدّمة في معنى الحقيقة والمجاز.
- نوعا المجاز: المجاز المفرد، المجاز المركّب.
- المجاز العقلي.

١ ـ المجاز المفرد ـ وقسماه:

الاستعارة ـ المجاز المرسل.

* الاستعارة:

- تعريفها لغةً واصطلاحًا.
- أركانُها.
- شروط تحقيق الاستعارة.
- قرينة الاستعارة.
- تقسيمات الاستعار:

أولًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للطّرفين (الوِفاقيّة، العِناديّة، قِسْما الاستعارة العناديّة: التهكُّميّة ـ التمليحيّة).

ثانيًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للجامع (الدّاخلية ـ غير الدّاخلية، العامّيّة ـ الخاصيّة، تغريب الاستعارة المبتذلة).

ثالثًا: تقسيم الأستعارة تبعًا للطّرفين والجامع.

رابعًا: تقسيم الاستعارة تبعًا لِذِكْر أحد طرفيها (التصريحية - المَكْنية).

- الاستعارة التصريحية تبعًا لِلّفظ المستعار: أصْليّة، تبعيّة - قرينة الاستعارة التبعيّة.

- الاستعارة التصريحية تبعًا للمُلائم: مرشّحة، مجرّدة، مُطْلقة.

- الاستعارة المَكْنية (تعريفُها - أمثلةٌ لها - قرينتُها - تقسيماتها: أصليّة، تبعيّة، مرشحة، مجرّدة، مطلقة).

- محسنات الاستعارة.

* المَجاز المُرْسَل:

- تعريفُه.

- أمثلةٌ له.

- علاقاته (السّببية - المُسَبَّبيّة - اللاّزمية - المَلْزومية - الكُلّية - الجُزْئية - الحَالّيّة - المَحليّة - الآليّة - اعتبار ما كان - اعتبار ما يكون - المُجاورة - العُموم - الخُصوص - التعلّق الاشتقاقي).

٢ - المَجاز المركّب:

- تعريفُه.

- قِسْماه:

١ - الاستعارة التمثيلية.

٢ - المجاز المركَّب المُرْسَل.

- المجاز العَقْليّ (المُراد منه - صُوَرُه وعلاقاته - جماليّاته).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدّمة في معنى الحقيقة والمجاز:

ما يهمّ علمَ البيان هو «المَجاز» دون الحقيقة؛ لأنّ المجاز هو الّذي يحصل فيه اختلافُ الطّرق والتّراكيب في وضوح الدّلالة على المعنى المُراد. أمّا الحقيقةُ فلا يحصل فيها اختلاف؛ لأنّ الدّلالة فيها ثابتةٌ لا تتغيّر، فإمّا أن يَعْرِفَها المخاطبُ دفعةً واحدة وإما أن يجهلَها دفعةً واحدة أيضًا.

وقد اقتضى التّفاهمُ بين النّاس أن يكون لكلّ شيء اسمٌ يُستدَلّ به عليه، فإذا ذُكِر ذلك الاسمُ عُرِف منه ذلك الشيء؛ وبذلك عَرَف الإنسانُ أسماءَ الأشياء، أي الكلمات الدّالة عليها. فلفظُ «أسَد» مثلاً دالٌّ في الوَضْع على الحيوان المفترس. لكنّ العربيّ في أثناء استعماله استخدم هذا اللّفظَ في مُسمًّى آخر غيرِ ذلك الحيوان، وهو الرّجل الشجاع. وهكذا فإنّ لفظ «أسَد» في استعماله الأوّل، أي في ذلك الحيوان، حقيقةٌ - وفي استعماله اللاّحق، أي استعماله في الإنسان الّذي له خُصوصيّة الشجاعة، مجازٌ. وكذا الحالُ في لفظ «بَحْر» الّذي استخدمه العربيّ أولًا للدّلالة على ذلك الحيز العظيم من الماء، لكنّه في مسيرة تكلُّمه استخدمه أحيانًا في مدلولٍ آخر غير ذلك الحيز العظيم من الماء، وهو الرجل الكريم. وتبعًا لذلك فإنّ لفظ «بَحْر» في استعماله الأوّل، أي في ذلك الحيز العظيم من الماء، حقيقةٌ، وفي استعماله اللاّحق، أي في الرّجل الكريم، مجاز.

هذه هي الحالُ في الواقع اللغويّ العربيّ في تاريخه الطويل، أمّا المرادُ من الحقيقة والمجاز لغةً واصطلاحًا فإليكَ القولَ فيه:

ـ الحقيقةُ:

الحقيقةُ ـ لغةً ـ وصْفٌ على وزن فَعِيل بمعنى فاعل، أي حقيق بمعنى حاقّ، وهو مأخوذٌ من «حقَّ الشيءُ» إذا ثبت، فالحقيقُ الثّابت. أو بمعنى مفعولٍ، أي حقيقٌ بمعنى محقوق، وهو مأخوذ من حقَقْتُ الشيءَ إذا أثبتَّه، فالحقيقُ هنا المُثْبَت. وهكذا فالحقيق ـ لغةً ـ الثابتُ أو المُثْبَت. لكنّ العلماءَ اصطلحوا على نَقْل هذا اللفظ «حقيق» من كونه وصْفًا بمعنى ثابت أو مثبت، وجعلوه اسْمًا للكلمة التي تُستعمل في معناها الأوّل، ككَلِمة «أسَد» في الحيوان المفترس، و«بَحْر» في الحيز العظيم من الماء. لأنّ هذه الكلمةَ ثابتةٌ في مكانِها الأصْليّ أو مُثْبَتةٌ في مكانها الأصليّ، وقد أُلحقت بها التّاءُ للدّلالة على نَقْلها من الوَصْفية إلى الاسمية.

وهكذا قال البلاغيون إنّ الحقيقةَ ـ اصطلاحًا ـ هي الكلمةُ المستعملة فيما وُضِعَتْ له في اصطلاح التّخاطب. فكلمةُ «أسَد» حين تُستعمل في الحيوان المفترس المعروف «حقيقةٌ»؛ لاستعمالها فيما وُضِعَتْ له في كافة الاصطلاحات. وكلمةُ «الصّلاةِ» حين يستعمِلُها المتكلّم بعُرْف الشّرْع في الأركان الخاصّة «حقيقةٌ» أيضًا؛ لاستعمالِها فيما وُضِعَتْ له في اصطلاحات أهل الشرع. وكلِمةُ «الصّلاة» حين يستعملها المتكلّمُ بِعُرْف اللّغة في «الدّعاء» حقيقةٌ أيضًا؛ لاستعمالها فيما وُضِعَتْ له في اصطلاح أهل اللّغة. ولكلّ قوم من المخاطبين عُرْفٌ خاصٌّ بهم يُحدَّد على أساسه الاستعمالُ الحقيقيّ والاستعمال المجازيّ.

ـ المجاز:

يرى عبدُ القاهر أنّ المَجازَ ـ لغةً ـ مصْدَرٌ مِيميٌّ على وزن «مَفْعَل» من جازَ المكانَ يجوزُه إذا تعدّاه. **ثم نُقِل إلى الكلمة المستعملة في غير ما وُضِعَتْ له؛ لأنها جائزةٌ مكانَها الأصليَّ، أوْ**

مَجُوزٌ بها مكانُها الأصليّ. وهكذا اتّخذ المصْدرُ «مجاز» معنى اسمِ الفاعل «جائز» أو اسمِ المفعول «مَجوزٌ به».

وذهب الخطيبُ القَزْوينيُّ إلى أنّ المَجاز ـ لغةً ـ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى مكان الجواز من قولهم: «جَعلْتُ كذا مَجازًا إلى حاجتي» أي طريقًا إليها، على معنى «جاز المكانَ» بمعنى سَلَكَه واتّخذه طريقًا إلى كذا. ثمّ نُقِل إلى **الكلمة المستعملة في غير ما وُضِعَتْ له؛ لأنها طريقٌ إلى تصوير المعنى المراد منها.**

نوعا المجاز:

للمجازِ نوعانِ: مُفْرَدٌ، ومركَّبٌ.

والمجازُ المفردُ هو:

الكلمةُ المستعملةُ في غير ما وُضِعَتْ له في اصطلاح التّخاطب؛ لِعلاقةٍ بين المعنى الأوّل «الوَضْعِيّ» والثّاني «المَجازيّ»، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الأوّل.

وهذا المجازُ موضِعُه الكلماتُ المفردة، وطريقُهُ اللغةُ الّتي تحدِّد كونَ الكلمة حقيقةً أو جائزةً موضعَها متّخِذةً دِلالةً غير دلالتها الوَضْعية. قال عبدُ القاهر: «فإذا وصَفْنا بالمجازِ الكلمةَ المفردة كقولِنا «اليدُ مجازٌ في النِّعمةِ» و«الأسدُ مجازٌ في الإنسان وكلّ ما ليس بالسَّبُع المعروفِ» كان حُكْمًا أجريْناه على ما جرى عليه مِنْ طريق اللّغة؛ لأنّا أردْنا أنّ المتكلّمَ قد جاز باللّفظةِ أصْلَها الذي وقعتْ له ابتداءً في اللّغة وأَوْقَعَها على غير ذلك إمّا تشبيهًا وإمّا لِصِلةٍ أو مُلابسةٍ بين ما نَقَلها إليه وما نَقَلَها عنه».

وقد انطوى تعريفُ المَجاز المفرد على مصطلحَيْن يَرِدانِ كثيرًا في حديثِ المجاز هما: العلاقةُ، القرينة. ونقدّمهما لك بشيءٍ من التحديد:

العلاقةُ: هي صِلةٌ أو مُلابَسَةٌ بها يتعلّق المعنى المجازيُّ للكلمة بمعناها

الوضعيّ، مِمّا يسهّل انتقالَ الذهن من المعنى الأول «الوَضْعيّ» إلى المعنى الثاني «المجازيّ». فالعلاقةُ بين «أَسَد» بمعنى السَّبُع المعروف، و«أَسَد» بمعنى الرّجل الشّجاع هي المُشابهةُ. وعلاقةُ المشابهة هذه هي الّتي تسهّل انتقالَ الذهن من المعنى الوَضْعيّ لـ «أسد» إلى معناه المجازيّ في قولك: «رأيتُ أسَدًا في القَصْر»؛ تريد رجلًا شجاعًا.

القرينةُ: هي الأمرُ الّذي يَنصِبُه المتكلِّمُ دليلًا على أنّه أراد باللّفظ غيرَ معناه الوضعيّ. وهذه القرينةُ نوعانِ: لفظيّة، وحَالية. فاللّفظية هي الّتي يُتلفَّظ بها في التّركيب كقولِك «في القَصْر» في المثال السابق؛ حيث دلّ هذا التعبيرُ على أنّ المُراد بـ «أسدًا» في الجملة غيرُ معناه الوضعيّ، أي السّبع المعروف. والحَالِيّةُ هي التّي تُدْرَك من حال المتكلّم أو من الواقع.

ومن المجاز المفرد كلمةُ «أسد» في الرّجل الشجاع في قولكَ: «رأيتُ أسدًا يعلِّم الناسَ فنونَ الحَرْب». وكلمةُ «الغيث» في النّبات في قولكَ: «رَعَتِ الماشيةُ الغَيْثَ». فكلٌّ من «أسد» و«الغيث» مجازٌ مفرد.

قسما المجاز والمفرد:

يُقْسَم المجازُ المفرَدُ تبعًا لِلْعلاقة على قسمين:

١ ـ الاستعارة. ٢ ـ المجاز المُرْسَل.

فحين تكون العلاقةُ بين المعنى الوَضْعيّ للكلمة ومعناها المجازيّ **المُرادِ في السّياق «المشابهةَ» يُسمّى المجازُ «استعارةً»؛ كما في كلمة «أسد»** المستعارة للرّجل الشّجاعِ **في قولنا المتقدّم: «رأيتُ أسدًا يعلّم** الناسَ فنونَ الحرْب»؛ فإنَّ العلاقة بين **«الأسَد»** بمعناه الوضعيّ (السَّبُع) والأسد بمعناه المجازيّ (الشّجاع) هي المشابهةُ في الإِقْدام.

وحين تكون العلاقةُ بين المعنَيَيْن شيئًا آخر غير المشابهة **فإن**

المجازَ يُسمّى «مجازًا مُرْسَلًا»، كما في كلمة «الغَيْث» المستعملة في النّبات في مِثالنا: «رَعَتِ الماشيةُ الغَيْثَ»؛ فإنّ العلاقة بين الغيث والنّبات هي «السّببيّة»؛ أي كون الغيث سببًا للنّبات.

وصَفوَةُ القول:

أنّ استعمالَ الكلمةِ في غير ما وُضِعَتْ له لِعَلاقة المشابهة يُفْضِي إلى الاستعارة، واستعمالَها هكذا لِعلاقة غير المُشابهة يُفْضِي إلى المجاز المُرْسَل.

وإليكَ تفصيلَ القول في هذين الفنّين:

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فنّ الاستعارة

الاستعارةُ ـ لغةً ـ مِنْ عَارَ الشيءَ يَعُورُه ويَعِيره؛ أخذَه وذهبَ به، كما تؤخذ العارِيَّةُ، وهي ما يتداولونه بينهم.

وهي في الاصطلاح البلاغيّ:

الكلمةُ المستعمَلةُ في غير معناها الوَضْعيّ لِعلاقة المُشابهة، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الوضعيّ.

وقد أوضحَ هذا عبدُ القاهِرِ حين قال: «اعلم أنّ الاستعارةَ في الجُمْلةِ أنْ يكون لِلّفظِ أصْلٌ في الوضعِ اللغويّ معروفٌ تدلُّ الشواهدُ على أنّه اختصَّ به حين وُضِع، ثم يستعمله الشّاعرُ أو غيرُ الشاعر في غيرِ ذلِكَ الأصْلِ ينقلُه إليهِ غيرَ لازمٍ فيكون هناك كالعارِيّة».

وجوهرُ الاستعارةِ أنّها تشبيهٌ حُذِف أحَدُ طرفَيْه ووجْهُ شبَهِه وأداتُه، وهي أبلغُ مِنَ التّشبيه؛ لقوّة ادّعاء الاتّحاد والامتزاج بين المشبّه والمشبّه به، إلى حدّ زَعْم أنهما صارا معنًى واحدًا، يُستعمل فيه لفظٌ واحد. تقول: «رأيتُ أسدًا في شُرْفةِ القَصْرِ»، فيكون هذا تعبيرًا استعاريًا أصْلُه: «رأيتُ رجلًا شجاعًا كالأسَدِ في شرفة القَصْرِ». وجليٌّ أنّك في التعبيرِ الاستعاريّ حذفْتَ المشبّه «رجلًا» وأداةَ التشبيه «الكاف» ووجهَ الشبهِ «الشجاعة». أمّا عِبارةُ «في شُرْفةِ القَصْر» فجاءت قرينةً تدلّ على أنّ مرادك بالأسَدِ في هذا السّياق «الشّجاعُ».

وعلى هذا فإنّ كلمةَ «أسد» في المثال استعارةٌ؛ لأنّها مستعملةٌ

في غير معناها الوَضْعيّ لعلاقة المشابهة بين المعنى المجازيّ «الشّجاع» والمعنى الوَضْعيّ «السَّبُع المعروف»، مع قرينةِ «كَوْنِ الأسد في الشّرفة» التي منعت إرادةَ المعنى الوضعيّ.

وتقولُ: «رأيتُ قَمَرًا في بَيْتِ الجيران»، فيكون هذا تعبيرًا استعاريًا أَصْلُه: «رأيتُ فتاةً وضيئةَ الوَجْهِ كالقمرِ في بَيْتِ الجِيران». وقد حذَفْتَ في التعبير الاستعاريّ المشبّهَ «فتاة»، وأداةَ التشبيه «الكاف»، ووجْهَ الشَّبَه «الوضاءة والإشراق». وجاءت عبارةُ في بيت الجيران قرينةً تحدّدُ مُرادَكَ من لفظ «قمر» بأنه الفتاةُ الحسناء، لا القمر الحقيقيّ.

وهكذا نقول إنّ كَلِمةَ «قمر» في المثال استعارةٌ؛ لأنها مستعملةٌ في غير معناها الوَضْعيّ لِعَلاقة المشابهة بين المعنى المجازيّ «الفتاة الحَسْناء» والمعنى الوضعيّ «الجِرْم الوضّاء في السّماء»، مع قرينة «كون القمر في بيت الجِيران» التي حدّدت المرادَ من اللّفظ، وأنّه المعنى المجازيّ لا الوضعيّ.

أركانُ الاستعارة:

أركانُ الاستعارةِ ثلاثةٌ هي:

١ ـ المُستعارُ منه ـ وهو ذاتُ المشبّه به، كالسَّبُع في قولكَ: «رأيتُ أسَدًا في شُرْفةِ القَصْر»، حيث يُستعار منه اللّفظُ الموضوع له «أسد»، ويُعطى لغيره «الشجاع».

٢ ـ المُستعارُ له ـ وهو ذاتُ المشبَّه، كالرّجل الشجاع في المثال السّابق، حيثُ يُستعار له اللّفظُ الموضوعُ لغيره «أسد».

٣ ـ المُستعارُ ـ وهو اللّفظُ المنقولُ «أسد»؛ لأنّه استُعير من صاحبه «السَّبُع» لغيره «الشّجاع».

وهكذا يتبيّنُ أنّ التشبيهَ يكون في المعاني، أما الاستعارة فتكون في الألفاظ.

شروط تحقيق الاستعارة:

يقتضي تحقيقُ الاستعارة أربعةَ أمور:

١ ـ تناسي التّشبيه الذي جرَتْ فيه الاستعارةُ تمامًا، وادّعاء أنّ المشبَّه فرْدٌ من أفراد المشبّه به مبالغةً في اتّصاف المشبه بوَجْه الشبه. كأن تقول: «رأيتُ بَحْرًا يُلْقي محاضرةً كأنه اللّيلُ في السّواد». أمامك ههنا استعارةٌ، وهي لفظُ «بحر» المستعار من معناه الوَضْعيّ لِلْعالِم المتبحّر؛ وتشبيهٌ هو تشبيهُ هذا العالِم باللّيل في السّواد. والّذي يجب تناسيه منهما هو التّشبيه الذي بُنيتْ عليه الاستعارةُ، وهو تشبيهُ العالِم بالبَحْر، لا التشبيه الثاني الذي لا يضرّ بالاستعارة، لأنّها لم تُبْنَ عليه.

٢ ـ عدمُ الجَمْع بين الطّرفين أصْلاً، أو الجمع بينهما على نحوٍ لا ينبىء عن التّشبيه ولا يدلّ عليه.

ومثالُ عدم الجَمْع البتّةَ قولُكَ: «لَقِيْتُ قمَرًا في المدرسة»، وقولُكَ: «عَيْنا الحِفْظ تَحْرُسانِكَ». في المثال الأول شبّهتَ الفتاةَ بالقمر في الحُسْن، ثم استعرْتَ لفظ المشبه به للمشبه. وأنتَ هنا لم تذكر سوى المشبه به «القمر». وفي الثاني شبّهْتَ الحفظَ بإنسانٍ في الحِراسة، ثم استعرْتَ تقديرًا لفظَ الإنسان لِلْحِفْظ، ثمّ حذفتَه ورمزتَ إليه بشيء من خواصّه، وهو «العَيْنان». وهنا أيضًا لم تذكر سوى المشبه. وأنتَ في الاستعارتين لم تجمع بين المشبّه والمشبّه به بل ذكرْتَ واحدًا منهما فحسْبُ لفظًا أو تقديرًا.

ومثالُ الجَمْع بين الطّرفين على نحوٍ لا ينبىء عن التّشبيه قولُك: «سَيْفُ عَلِيٍّ في يدِ أسدٍ»، فثمّة استعارةٌ جاز الجمعُ فيها بين الطّرفين «عليّ» المشبّه، و«أسد» المشبّه به، وظلّت كلمةُ «أسد» مع ذلك استعارة؛ لأنّ هذا الْجمعَ بين الطّرفين جاء على نحْوٍ لا ينبىء عن

التّشبيه؛ ومبعثُ ذلك أنّ سِياق الكلام لإثبات شيءٍ واقعٍ على الأسد، وهو كونُ السّيف في يده، وليس لإثبات التّشبيه.

٣ ـ تجنّب ذِكْر الأداةِ لا في اللّفظ ولا في التقدير.

٤ ـ كون المشبّه به كليًا حقيقةً أو تأويلاً ليتسنّى ادّعاءُ دخولِ المشبّه فيه واعتدادُه فَرْدًا من أفراده.

فمِنَ الكلّي الحقيقيّ اسمُ الجِنْس كلفظ «أسَد»؛ فإنّ معناه كلّيٌّ يشمل أفرادًا كثيرين، فيصِحّ أنْ يُستعار للشّجاع باعتدادِه أحدَ أفراد «الأسد» ادّعاءً.

ومِنَ الكلّيّ التأويليّ علَمُ الشّخْصِ المشتهِر بِوَصْفٍ؛ إذ يصِحّ اعتدادُه كلّيًا، ثمّ استعارتُه لِمَن شاركه في هذا الوصف. مثل «حاتم»، وهو اسمٌ تضمّن الاتصافَ بالجُود، و«مَادِر» وهو اسمٌ تضمّن الاتصافَ بالبُخل، و«سَحْبان» المتضمّن الاتّصافَ بالفصاحة. ولأنّ الأمرَ كذلك صحّ أن تقول: «رأيتُ اليومَ حاتِمًا» تريد رجلاً كريمًا. وأنت في هذا تتأوّل في «حاتم» فتجعله كأنه موضوعٌ للجَواد مطلقًا.

وينبغي أن يكون معلومًا أنّه لا تصِحّ الاستعارةُ في عَلَم الشّخْص غيرِ المشتهر بوَصْفٍ؛ لأنّ معناه جزئيّ فهو متشخِّصٌ ومتعيّن خارجًا، وهذَا التّحديد له يمنع من الاشتراك فيه.

قرينةُ الاستعارة:

أسْلَفْنا أنّ الاستعارة من المجاز، حيث إنّ «المستعيرَ يعْمِد إلى نَقْلِ اللّفظ عن أصْله في اللّغة ويجوزُ به مكانَه الأصليّ إلى مكانٍ آخر». **وبيّنا أيضًا أنّ كلّ مجاز يستلزِم قرينةً تصْرِف الذّهْنَ عن المعنى الوضْعيّ للكلمة إلى المعنى المجازيّ.** وقرينةُ الاستعارةِ **مؤشّرٌ دِلاليّ يحدِّد كونَ الكلمةِ مستعارةً من معناها الوَضْعيّ لمعنى آخر بينه وبين**

الأوّل علاقةُ تشابه. فإذا قلتَ: «رأيتُ أسدًا» احتمل هذا التعبيرُ أن تريد أنّك رأيتَ واحدًا من جنس السَّبُع المعلوم، وأن تريد أنّك رأيتَ شُجاعًا باسلاً شديد الجرأة. أمّا حَصْرُ الدّلالة في المعنى الثاني فيقتضي إيرادَ كلامٍ يأتي قبلَ كلمة «أسد» أو بعدَها، أو يستلزم شاهِدَ حالٍ، كأن تقولَ «رأيتُ أسدًا» ومخاطبُك يرى رجلاً شجاعًا. ويُسمّى محدِّد الدّلالة المجازية، سواءٌ أكان لفظًا أو شاهدَ حال، القرينةَ. ولعلّكَ عرفْتَ أنّ قرينة الاستعارة ضَرْبانِ:

١ ـ **قرينةٌ لفظيةٌ**: وهي لفظٌ مختصّ بالمشبّه يذكُرُه المتكلّمُ، فيصرف ذهنَ المخاطب عن المعنى الوضعيّ لِلَفظِ المشبه به إلى معنى آخر. تقول: «وعدَ البَدْرُ بالزّيارة»، فيُستدلّ بتعبير «وعَد» على أنّ المُراد بـ«البدر» فتاةٌ حسناء كالبَدْر، وعلى أنّ في لفظ «البدر» استعارة. ويُسمّى أمْثالُ «وعَد» الّتي تَصْرِفُ الذّهنَ عن المعنى الوضعيّ إلى المعنى المجازي، قرائنَ لفظية. وتقول: «رأيتُ مَهَا القَصْرِ» تريد النساءَ الحسانَ في القَصْر، والقرينةُ هنا لفظية أيضًا وهي «القَصْر».

٢ ـ **قرينةٌ غيرُ لفظية**: وهي أمرٌ خارجٌ عن اللّفظ يصْرِف المشبّه به عن إرادة معناه الوَضْعيّ، كشاهِد الحَال واستحالة المعنى. ومِمّا قرينتُه حالِيّة قولُك: «عَنّتْ لنا ظبيةٌ» ومخاطبُكَ يرى فتاةً حَسْناء مُقْبِلةً. فالقرينة التي دلّت على أنّ المُرادَ بالظّبية هنا الفتاةُ الحسناء لا «الغزال» هي قرينةٌ حالية؛ وهي اقترانُ القول برؤية الفتاة الحسناء مقبلةً. وممّا قرينتُه الاستحالةُ قولُكَ: «ضحِك المشيبُ برأسِ فلان». شُبّه انتشارُ الشّيب في الرأس بالضّحك، بجامع البياض في كلّ، حيثُ يصْحَبُ الضّحِكَ ظهورُ الأسنان البِيض، ثمّ استُعير الضّحِكُ للانتشار، ثم استُعير «ضَحِك» لـ«انتشَر» تبعًا لاستعارة المَصْدر لِلْمصدر على سبيل الاستعارة التبعية كما ستعلم. والقَرينةُ هنا هي استحالةُ صُدورِ الضّحك بمعناه الوضعيّ عن المشيب.

وهي من حيثُ مكوِّنُها نوعانِ أيضًا:

١ ـ ما تكوَّنَ من أمْرٍ واحدٍ لا تعدُّدَ فيه، وهو الشّائعُ في أمْرِ الاستعارات، كقولِك: «رأيتُ أسَدًا يَرْمي». فالقرينةُ هي لفظ «يرمي» وهو أمرٌ واحدٌ لا تعدّد فيه.

٢ ـ ما تكوّن مِنْ عددٍ من الأمور يكفي كلٌّ منها للدّلالة على الاستعارة كقولكَ: «رأيتُ أسَدًا في المجلس يُلقي مُحاضرةً». فالقرينةُ أمرانِ هما: «في المَجْلِس» و«يُلقي محاضرة»، وكلّ منهما يكفي لتعيينِ المعنى المجازيّ لكلمة «أسد» في الرجل الشّجاع ومَنْعِ إرادة المعنى الوضعيّ.

ولا ينبغي أن تنسى إذًا أنّ وظيفةَ القرينة في الاستعارة هي:

تعيينُ المعنى المرادِ ومَنْعُ إرادةِ المعنى الوضعيّ؛ وغيابُ القرينة يُبْطِل هذه الوظيفةَ، ويصْلُح اللفظُ عندئذٍ لإرادةِ المعنى الوضعيّ أو المعنى المجازيّ.

تقسيمات الاستعارة:

يجعل البلاغيون للاستعارة أقسامًا كثيرة تبعًا لِلوجْهة التي ينظرون منها إليها. وإليكَ هذه التّقسيماتِ مفصّلةً.

أولًا : تقسيم الاستعارة تبعًا للطّرفين:

الاستعارة الوفاقية، والاستعارة العنادية.

أ ـ الاستعارة الوِفاقية:

هي الاستعارةُ التي يمكن اجتماعُ طرفيها في شيءٍ واحدٍ لِما بين الطّرفين من الوِفاق. كقولِكَ: «فلانٌ أحيتْهُ المَوْعظةُ» أي هدَتْه. فقد شبّهْتَ الهِدايةَ، التي هي الدّلالةُ على الطّريق القويم، بـ«الإحياء» بمعنى

جَعْلِ الشيء حيًّا، بجامع ما يترتّب على كلٍّ من المنافع، ثم تُنوسي التّشبيه وادُّعي أنّ المشبّه فَرْدٌ من أفراد المشبّه به، ثم استُعير لفظُ «الإحياء» لـ«الهِداية» و«أَحْيا» لـ«هَدى» تبعًا لاستعارة المَصْدر للمصدر.

ولمّا كان الإِحْياءُ (المستعار منه) والهِدايةُ (المستعار له) مِمّا يمكن اجتماعُهما في شيءٍ واحد سُمِّيت الاستعارةُ «وفاقيةً». وهكذا يقال إن **استعارةَ الإحياء للهداية وِفاقية.**

وتقول العربُ: «حبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ». وههنا شُبِّه فَقْدُ التمييز وعدَمُ القدرةِ على تبيُّن ما هو صالحٌ وما هو فاسد من جانب المُحِبّ، بالعَمى والصَّمَم، بجامع فَقْدِ الإدراك وسَلْبه في كلّ، وبعْدَ تناسي التّشبيه والادّعاء استُعير العَمى والصَّمَمُ لِفَقْد التمييز، ثم استعير «يُعْمِي» و«يُصِمّ» لـ «يُفقِد الإدراكَ والتمييز» تبعًا لاستعارة المصدر. ولَمّا كان «العَمى» و «الصَّمَم» (المستعار منه) وفقْدُ التّمييز (المستعار له) مِمّا يمكن اجتماعُهما في الإنسان فيكون أعمى أصمَّ فاقِدًا التّمييز معًا، سُمّيت هذه الاستعارةُ وِفاقيةً، بسبب إمكان اجتماع الصّفتين في شيءٍ واحد.

ومن ذلك **استعارةُ الاستفاقة للتنبّه** في قول الشاعر:

تنبّهوا واستفيقوا أيُّها العَرَبُ فقدْ طمى الخَطْبُ حتّى غاصتِ الرّكُبُ

وجملةُ القولِ أنّ هذه الاستعارةَ تجيء في إعطاءِ المعقول اسْمَ معقولٍ آخرَ حِينَ يكون لأحَدِ المعنيين شبَهٌ بالآخر.

ب ـ الاستعارة العِنادية:

وهي الّتي لا يُمكن اجتماعُ طرفَيْها في شيءٍ واحد لِما بينهما من التّعانُد وامتناعِ الاجتماع. ومن ذلك أن تستعيرَ اسمَ المعدومِ للموجود؛

لانتفاءِ النّفع في كلٍّ، كما في قولكَ: «رأيتُ ميتّا يتحدّث»، أي جاهلاً. شبّهتَ الجَهْلَ بالموت بجامع عدم النّفع في كلٍّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعَرْتَ «الموتَ» لـ«الجهل»، ثم استعَرْتَ «الميت» لـ«الجاهل» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر. ولمّا كان الجَهْلُ والموتُ ممّا لا يتأتّى اجتماعُهما في شيء واحد، فلا يُوصَف الميت بالجَهْل، سُمّيت استعارة عِنادية. وهكذا يقال إن **استعارةَ الموتِ للجهل عنادية**.

ومنه استعارةُ «الموتى» للشّعراء الضّعفاء في قول حافظ يرثي شوقيًا:

قد كُنْتُ أوثِرُ أن تقولَ رِثائي   يا مُنْصِفَ المَوْتى مِنَ الأَحْياءِ

حين شبّه ضعْفَ الشاعرية بالموت بجامع انعدام الفائدة في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير «الموت» لـ«ضعْف الشاعرية»، ثم استُعير «الموتى» لـ«الشعراء الضعفاء» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر. ولمّا كان الموتُ وضعْفُ الشاعريةِ مِمّا لا يمكن اجتماعُهما في شيءٍ واحد، فلا يوصف الميتُ بضَعْفِ الشاعرية، فإنّ هذه الاستعارة عنادية.

ولعلّكَ لاحظتَ أن الوِفاقية والعِنادية قد اجتمعتا في البيت السّابق، كما اجتمعتا في قوله سبحانه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَهُ ﴾، أي أو من كان ضالًّا فهديناه. ففي هذه الآية الكريمة ـ كما في البيت السّابق ـ استعارتانِ: استُعير «الميتُ» لـ«الضّالّ» بجامع ترتُّب نفي الانتفاع في كلّ، والاستعارةُ عناديةٌ لأنّ الضّلال والموت لا يجتمعان في شيءٍ واحد فلا يُوصَف الميتُ بالضّلال.

ـ ثمّ استُعير «أحيا» لـ«هدى» والاستعارةُ هنا وِفاقية؛ لأنّ الهدايةَ والحياةَ يمكن أن يجتمعا في شيءٍ واحدٍ، إذ يوصفُ الحيُّ بالهداية.

ولا ينبغي أن تنسى من ثمّ، أنّ:

الاستعارة تكون وفاقيةً حين يمكن اجتماعُ طرفَيها في شيءٍ واحد لِمَا بينهما من الوِفاق، وتكون عناديةً حين لا يُمكن اجتماعُ طرفيها في شيءٍ واحدٍ لِما بينهما من العِناد.

قِسْما الاستعارة العنادية:

تنقسم الاستعارةُ العنادية على:

التّهكُّمية والتمليحيّة.

يراد بالتهكُّميّة التهكُم والاستهزاء، ويراد بالتّمليحيّة التّمليح والظّرافة. وفي هاتين الاستعارتين يُستعمَل اللّفظُ لمعنًى شريف في ضدّه أو نقيضه؛ إبرازًا للخسيسِ في صورة الشّريف لِقَصْد التهكّم والاستهزاء، أو التّمليح والظرافة.

تقول: «رأيتُ أسَدًا» تعني جَبانًا، و«مررتُ بكريم» تعني بخيلاً، وأنت في هذا وذاك إنّما تقصِدُ التهكّمَ والسّخرية أو التّمليح والتظرّف، تبعًا لِلْمقام الذي تقول فيه ذلك. و«أسَد» في المثال الأول، و«كريم» في المثال الثاني، استعارتان، يقال في إجرائهما:

نُزّل الجُبْنُ منزلةَ الشّجاعة، ونُزّل البخلُ منزلةَ الكرَم، ثم شبّه الجبانُ بالأسَد، والبخيلُ بالكريم، ووجْهُ الشّبه هو «الشجاعة» أوّلًا، و«الجُود» ثانيًا، ثم استُعير اسمُ الأسَد لِلْجَبان، واسمُ الكريم للبخيل. **ويتوقّف القَصْد في أمثال هاتين الاستعارتين على مُراد المتكلّم؛ فإن قصَد إلى التهكّم بالشّخص الذي قيلت فيه الاستعارةُ والاستهزاء به فهي تهكّمية، وإن قصَد إلى مُداعبة السّامعين وإدخالِ البهجة إلى قلوبهم فهي تمليحية. والاستعارةُ في المثالين عِنادية؛ لِعَدم تأتّي اجتماع الطّرفين في كلّ منهما في شيءٍ واحد.**

وقد جاءت الاستعارةُ التهكّمية في كتاب الله جلّ وعلا، ومن أمثلتها هناك قولُه سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي «أنذرهم». فقد نُزّل الإنذارُ، وهو الإخبارُ بِما يُظهِر تَرَحَ المخبَرِ به، منزلةَ التبشير، وهو الإخبار بما يُظهر فرَحَ المخبَرِ به، أو نُزّل التّضادُّ بين الإنذار والتّبشير منزلةَ التّناسب بينهما، ثمّ شبّه الإنذارُ بالتّبشير بجامع إدخال السّرور إلى النّفس في كلٍّ، وإن كان ذلك على سبيل التّنزيل في المشبّه، وبعد تناسي التّشبيه وادّعاء أنّ المشبّه فرْدٌ من أفراد المشبّه به استُعير اسمُ «التّبشير» للإنذار، ثم استُعير «بشّرْ» لـ«أنذِرْ» تبعًا لاستعارة المَصْدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التهكّمية. وهذه الاستعارةُ عنادية كما هو واضح. وتأمّل روْعَةَ الاستعارة التهكّمية هذه في قوله سبحانه: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾. في هذه الآية الكريمة نُزّل التضادّ بين الهِداية، التي هي الدّلالةُ بشيء من اللّطف والرّحمة، والسَّحْب بعنف، منزلةَ التناسب، ثمّ شبّه السَّحْبُ بعُنفٍ بالهِداية بجامع الخير والفائدة في كلٍّ، وبعْدَ التناسي والادّعاء، استُعير اسمُ الهِداية للسَّحْب بعُنْف، ثم استُعير «اهدوا» لـ«اسْحَبوا بِعُنْف» تبعًا لاستعارةِ المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التهكُّمية العِنادية.

والحَظْ سِخرَها أيضًا في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾. أي السّفيهُ الضّال. وكذا في قوله سبحانه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾. ففي الآية الأولى نُزّل التضادُّ بين الحِلْم والرُّشْد، والسَّفَه والضّلال، منزلةَ التناسب، ثمّ شُبّه السَّفَهُ والضّلال بالحِلْم والرّشد بجامع حُسْن الخلق في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اسمُ الحِلْمْ للسّفه والرّشد للضّلال، ثم استُعير «الحَلِيم الرّشيد» للسّفيهِ الضّالّ، على سبيل الاستعارة التهكّمية العِنادية.

ويقال مثل هذا في الآية الثانية. والله أعلم.

ثانيًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للجامع:

يعني الجامعُ في الفنّ الاستعاريّ الشيءَ الّذي يشترك فيه طرفا الاستعارة، ويُسمّى «جامعًا» لأنه يجمعُ المشبّهَ مع أفراد المشبّه به تحت مفهومه، ويُدْخِله في جِنْسه ادّعاءً وتخييلاً. **وينبغي أن يكون على ذكرٍ منكَ أنّ الجامع يكون في المُستعار منه أقوى منه في المستعار له؛ لأنّ بناءَ الاستعارة على المبالغة في التشبيه وإلحاقِ المشبّه بما هو أكملُ في وجه الشبه.**

وعلى الجُمْلةِ فالجامعُ مَفْهومٌ يجمع بين المشبّه وأفرادِ المشبّه به، وتنقسم الاستعارةُ تبعًا له على أربعة أقسام:

الدّاخلية، غير الدّاخلية ـ العامّية، الخاصيّة. وإليكَ تفصيلَ القول في كلّ منها:

١ ـ الاستعارةُ الداخلية:

هي الّتي يكون فيها «الجامعُ» داخِلاً في مفهومي الطّرفين، كما في استعارةِ التّقطيع للتّفريق في قوله سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾، وههنا استُعير التّقطيعُ، الموضوع أصْلاً لإزالة الاجتماع بين الأشياء المتّصلة، لتفريقِ الجَماعة. والجامِعُ «إزالةُ الاجتماع». ولمّا كانت «إزالةُ الاجتماع» داخلةً في مفهومِ «التّقطيع» ومفهومِ «التّفريق» كانت الاستعارة داخليةً.

ولعلّ في مقدورك الآنَ أن تتلمّس مدلولَها في استعارة «الفَيَضان» لانبثاقِ الفَجْر في قول البحتريّ:

يتراكَمُونَ على الأسنّةِ في الوغى   كالفَجْرِ «فاضَ» على نُجومِ الغَيْهبِ

حيث إنّ الجامعَ هنا هو «الانـدِياحُ»، وهـو داخلٌ في مفـهوم «الانبِثاق» ومفهومِ «الفَيْضان».

وعن الاستعارةِ الداخلية يقول عبدُ القاهر: «وهو أن يُرى معنى الكلمةِ المستعارة موجودًا في المستعار له من حيث عمومُ جِنْسه على الحقيقة، إلّا أنّ لذلك الجنس خصائصَ ومراتب في الفضيلة والنّقص والقوّة والضّعف فأنت تستعيرُ لفْظَ الأفضل لِما هو دونه، ومِثالُه استعارةُ الطّيرانِ لِغَيْر ذي الجَناح إذا أردتَ السّرعة، وانقضاضِ الكواكب للفَرَس إذا أسرع في حركته من علوّ، والسّباحةِ له إذا عدا عدْوًا كان حالُه فيه شبيهًا بحالةِ السّابح في الماء». ويسمّي الشيخُ هذا الضّرْب «الاستعارةَ القريبةَ من الحقيقة».

٢ ـ الاستعارة غير الداخلية:

وهي أن يكون الجامعُ غيرَ داخلٍ في مفهومَي الطّرفين؛ كاستعارة «الدُّرَر» لـ«الكواكب» في قولكَ: «بدَتْ لنا دُرَرُ السّماء» بجامع «اللّمعان»، واستعارةِ «الشّمس» لـ«الوَجْه المتهلّل» في قولِكَ: «أبصَرْتُ شَمْسًا في الإِيوان» بجامع «التهلّل»، واستعارةِ «البَحْر» لـ«الجواد» في قولكَ: «فاضَ علينا بَحْرُ الرجال في عطائه»، بجامعِ الإفاضة في كلّ. وجليّ أن اللّمعانَ عارضٌ للدّرر لا داخلٌ في مفهومها، والتهلّلَ عارضٌ للشمس، والإفاضةَ عارضةٌ للبحر.

٣ ـ الاستعارة العاميّة:

وهي المتداولةُ بين المتكلّمين، التي يسهُلُ إدراكُ «الجامع» فيها على العامّة، كاستعارة اسْمِ «الأسَد» لـ«الشجاع» في قولك: «رأيتُ أسدًا يتقدّم الأبطالَ»، فالجامعُ هنا وهو «الجرأةُ» أمرٌ ظاهر يدرِكه العامّةُ. وكاستعارةِ «الثّريا» لِغُرّة المُهْر في قول الشاعر:

وأدهم يستَمِدُّ اللّيلُ مِنهُ   وتطلُعُ بينَ عَينَيْهِ الثُّريّا

فالجامعُ هنا، وهو البياضُ، أمرٌ ظاهرٌ في متناول كلّ واحدٍ تقريبًا.

٤ ـ الاستعارة الخاصّية:

وهي الغريبةُ الّتي لا يكون الجامعُ فيها ظاهرًا، ولا يتأتّى إدراكُه إلّا للخاصّة الّذين أوتوا ذهنًا ثاقبًا وبصَرًا في إدراك المعاني. كاستعارة «النّور» لـ«البيان والحُجّة» الكاشفة في الحقّ في قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾. فالجامعُ هنا، وهو حالةٌ نفسيّة للإنسان تنشأ عن الأمرَيْن النّور والحجّة، مِمّا يصعُبُ إدراكُه. قال عبدُ القاهر: «فليس الشّبهُ الحاصِلُ من «النّور». في البيان والحُجّة ونحوهما، إلّا أنّ القلْبَ إذا وردَتْ عليه الحجّةُ صار في حالةٍ شبيهةٍ بحال البصَر إذا صادفَ النّورَ ووجِّهت طلائعُه نحوه، وجال في مصارِفه وانتشر، وانبثّ في المسافة التي يسافرُ طرْفُ الإنسان فيها».

وكاستعارة «الصّراط» لـ«الدّين» في قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ومنه في الشّعر قولُ كُثَيِّر يمدحُ عبدَ العزيزِ بنَ مروانَ:

غَمْرُ الرِّداءِ إذا تبسَّم ضاحِكًا غَلِقَتْ لِضِحْكَتِهِ رِقابُ المَالِ

شبّه الشاعرُ «المعروفَ» بـ«الرّداء» بجامع السّتر وصيانة الْعِرْض في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعارَ اسْمَ الرّداء لـ«العطاء». وأضاف إلى الرّداء لفظ «غمْر» ليكون قرينةً على عدم إرادة المعنى الوَضْعيّ للرّداء؛ لأنّ لفظ «غَمْر»صفة للمال بمعنى «كثير». والاستعارةُ خاصيّةٌ؛ لأنّ الجامع فيها غيرُ ظاهر.

تغريبُ الاستعارة المبتذَلة:

في مُستطاعِ المتكلّم الحاذق أن يعْمِد إلى الاستعارة العامّيّة المبتذَلة فيتصرّف فيها بعضَ تصرّف يُخْرجها من الابتذال إلى الغَرابة يكسوها ثوبًا من الطّرافة والجِدّة والرّوعة. كالّذي فعل كُثَيِّر عَزّة في قوله:

ولمّا قَضَيْنا مِنْ مِنًى كلَّ حَاجةٍ ومسَّحَ بالأرْكانِ مَنْ هُوَ ماسِحُ
وشُدّتْ على دُهْمِ المهاري رِحالُنا ولَمْ ينظرِ الغادي الّذي هوَ رائِحُ
أخذْنا بأطْرافِ الأحاديثِ بيْنَنا وسَالَتْ بأعناقِ المَطِيّ الأباطِحُ

والشّاهدُ قولُ الشّاعر «سالتْ بأعناق المَطِيّ الأباطحُ»، فقد شبّه سَيْر المطيّ في الأباطح سيْرًا حثيثًا في لِينٍ وسَلاسةٍ بِسَيلان الماء في هذه الأباطح، والجامعُ في هذا واضِحٌ، ثم استعارَ «سَيلانَ الماء» للسّير الّذي له هذه الصّفات، ثم استعار «سالَتْ» لـ«سارت» تبعًا لاستعارة المَصْدر للمصدر. والاستعارةُ هنا عامّية مبتَذلةٌ يشترك في إدراكها الخاصّةُ والعامّة، ولكنّه تصرّف فيها حين أسندَ الفِعْلَ «سالت» إلى الأباطح، وهو في الأصْل لـ«المَطِيّ»، فأفاد هذا الإسنادُ أنّ الأباطحَ قد امتلأت بالإبِل إلى درجةٍ تُخيِّل للرّائي أنّ الأباطحَ هي الّتي تسيل استنادًا إلى مبدأٍ مشهور يقول: «إنّ نِسْبةَ فِعْل الحَالّ إلى المَحَلّ تُشْعِر بشيوع الحَالّ في المحلّ»، حتى لكأنّ كلّ جزء من الأباطح سائر. وقد أُضيف إلى هذا عنصرٌ آخر من عناصر تغريب الاستعارة، هو إشراكُ الأعناق في السّير بأنْ أدخل عليها حرفَ الجرّ «الباء» المفيد لِمُلابسة الفعل لها. فالأباطحُ سَالَتْ، لكنها لم تسِلْ بماءٍ، بل بـ«أعناق المَطِيّ»؛ أي إنّ أعناقَ المطيّ سائرةٌ أيضًا. وهكذا فقد أُضيف إلى الاستعارة العامّية مجازان عقليّان: صَريحٌ واضحٌ وهو إسناد فعل السَّيَلان إلى الأباطح، وهو يُشْعِر بامتلاءِ الأباطح بأعناق المطيّ، ومقدَّرٌ محصَّل من الكلام، وهو إسنادُ هذا الفعل إلى الأعناق المُشْعِر بِسَيْر الأعناق أيضًا، وذلك لأنّ الأباطِحَ في سَيْرها ملابسةٌ لأعناق المطيّ. وبإضافة هذَيْن المجازين إلى الاستعارة العامّيّة غدَتْ غريبةً تَحْفِل بعناصر الرَّوْعة والجِدّة والطّرافة.

ولكي تكونَ على بيّنةٍ من الأمر أَمْعِنِ النّظرَ في قول ابن المُعْتزّ:

سَالتْ عليه شِعابُ الحيِّ حين دعا   أنــصــارَهُ بــوجــوهٍ كــالــدّنــانــيــرِ

ثالثًا: تقسيم الاستعارة تبعًا للطّرفين والجامع:

يقسم البلاغيون الاستعارةَ من وجهة النّظر إلى المستعار منه والمستعار له والجامع على ستة أقسام:

١ ـ استعارة محسوسٍ لمحسوس والجامعُ حِسّي، كما في قوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾. ألقى السَّامِرِيُّ شيئًا من التُربة أخَذَه من موطىء فَرس جِبريلَ عليه السّلامُ، في النّار، فظهرت له صورةٌ كصورة العِجْل. وهكذا فقد شُبّهت الصّورةُ التي سبكتْها نارُ السامريّ بابن البقرة بجامعِ الشّكل والصّوت في كلٍّ، ثم استُعير لفظ المشبّه به للمشبّه على سبيل الاستعارة. وواضحٌ ههنا أنه استُعير محسوسٌ «ولد البقرة ـ العِجْل» لِمَحْسوس «الحيوان الذي سبَكَتْه نارُ السامريّ»، والجامعُ حِسّي هو الشّكْل والخُوار.

وكقوله سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾، فقد شُبّه تدافعُهُم بتَلاطُم المَوْج بجامع الاضطراب في كلّ، ثم استُعير لفظ المشبه به «تلاطم الموج» للمشبّه «التدافع»، ثم استُعير «يموج» لـ«يتدافع» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر. وكلّ من المستعار منه والمستعار له والجامع حسّي.

٢ ـ استعارة محسوسٍ لمحسوسٍ والجامعُ عقليّ، كقوله سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾. معنى «نَسْلَخُ» هنا نُزيلُ ضوءَ النهار من مكان اللّيل. والمستعارُ منه «السَّلْخ» ـ أي إزالة الجلد عن الشّاة المذبوحة ـ حسّي. والمستعار لهُ، وهو إزالة ضوء النّهار عن الليل، حسّي أيضًا. والجامعُ بين الاثنينِ ترتُّبُ أمرٍ على آخر بحصوله بَعْدَه في كلّ (ترتّب ظهورِ اللّحم على السَّلْخ، وترتُّب حصولِ الظّلْمة على إزالة ضوءِ النّهار عن موضع ظَلمة الليل)، وهو أمرٌ عقليّ.

ويُقال في إجراء هذه الاستعارة:

شبّه إزالةُ ضوءِ النّهار عن موضع الظّلمة بسَلْخِ الجلد عن لحْم الشّاة بجامع ترتُّب شيء على شيء، ثم استُعير لفظُ المشبّه به «السَّلْخ» للمشبّه «إزالة الضوء»، ثمّ استُعير «نَسْلخ» لـ«نُزِيل» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر.

ومِثْلُه قولُ المُصْطفى ﷺ: «إيّاكُمْ وخَضْراءَ الدِّمَن». قال عبدُ القاهر: «القَصْدُ شَبَهٌ عَقْليٌّ بين المرأةِ الحَسْناء في المَنْبِت السُّوء وبينَ تلك النّابتة على الدّمنَة، وهو حُسْنُ الظّاهر في رأي العَيْن مع فساد الباطن». ولن يغيب عنكَ أنّ في الحديث صورةً لاستعارة محسوسٍ لِمَحْسوس والجامع عقليّ.

٣ ـ استعارة محسوسٍ لِمَحْسوس والجامعُ مختلف، حسّي وعقليّ، كقولكَ: «رأيتُ بدْرًا يقْسِمُ للشعراء أُعطياتِهم»، تريد شخصًا كالبدر في حُسْن الطّلْعَة وعُلوّ القدْر. فالمستعارُ منه «البَدْر» والمستعارُ له «الشّخص» حِسّيّان. والجامعُ بعضُه حِسّي «حُسْن الطّلْعة» وبعضُه عقليّ «علُوّ القدْر». وكقولكَ: «رأيتُ نَجْمَ المجلسِ» تريد شخصًا كالنّجم في الضيّاء والرّفعة. ففيه استعارةُ محسوسٍ «النّجم» لِمَحْسوسٍ «الشّخص»، والجامعُ بعضُه حِسّيٌّ «الضّياء» وبعضُه عقليّ «الرِّفْعة».

٤ ـ استعارة معقولٍ لِمَعقول والجامعُ عَقْلِيّ، كقوله سبحانه حكايةً عن قول الكُفّار يومَ القيامة: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾. فالمستعار منه «الرّقاد» أي النّوم عقليّ، والمستعار له «الموت» عقليّ؛ والجامع، وهو عدَمُ ظهورِ الفعل الاختياريّ، عقليّ أيضًا. وإليكَ إجراءَ الاستعارة في هذا المثال:

شبّه «الموتُ» بـ«الرّقاد» بجامع عدَمِ ظهور الأفعال الاختياريّة في

كلّ، وبعد التناسي والادّعاء استُعير اسمُ «الرّقاد» لـ«الموت».

٥ ـ استعارة محسوس لمعقولٍ والجامعُ عقليّ، كقوله سبحانه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾. أي: أَبِنِ الأمرَ إبانةً لا تنمحي كما لا يلتئم صَدْعُ الزجاج. فالمستعارُ منه «كسر الزجاجة» حِسّيّ مُشاهَد؛ والمستعار له «التّبليغ» عقلي، والجامع بينهما شدّةُ التّأثير، وهو أمر عقليّ. وكقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾. أي البيان والحُجّة الكاشفة عن الحقّ المزيلة للشكّ. ومنه استعارة الصّراط ـ أي الطّريق ـ للدِّين في قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي الدين القويم.

٦ ـ استعارة معقولٍ لِمَحْسوس والجامع عقليّ، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي لمّا كثُرَ كثرةً بالغة. فالمستعار له «كثرة الماء» حسّي، والمستعار منه «التكبُّر أو التّعالي» عقليّ، والجامعُ بينهما «مجاوزة الاعتدال» عقليّ.

رابعًا: تقسيم الاستعارة تبعًا لذِكْر أحدِ طرفَيْها:

قلنا فيما تقدّم إن الاستعارة ضرْبٌ من التشبيه ذُكِر أحدُ طرفيه وحُذِف الآخر. ومن هذه الوجهة تنقسمُ الاستعارة على:

التصريحية، المكنية:

وإليكَ القولَ فيهما مفصّلاً:

الاستعارةُ التصريحيّة:

هي لفظُ المشبَّه به المستعارُ للمشبّهِ المَحْذوفِ، كلفظ «القمر» في قول البُحْتُرِيّ:

يـؤدّونَ الـتَّـحِـيّـةَ مِـنْ بَـعـيـدٍ   إلـى قَـمَـرٍ مِـنَ الإيـوانِ بـادِ

فـ«القمر» هنا هو لفظُ المشبّه به المستعارُ للمشبّه المحذوف «الممدوح»، وعلى هذا فهو استعارة تصريحية.

وكلَفْظِ «الشّمس» في قول شوقيّ يرثي سَعْدَ زَغْلول:

شيَّعوا الشّمسَ ومالوا بِضُحاها وانحنى الشَّرْقُ عليها فبكاها

فـ«الشمس» هي لفظُ المشبه به المستعارُ للمشبّه المحذوف «سعد زغلول»، إذْ شبّه الشاعرُ المرثيَ بالشّمس بجامع الضِّياء ونَباهة الشأْن والحاجةِ إلى الشيء، ثم حذف المشبّه، واستعارَ لفظ المشبه به، على سبيل الاستعارة التصريحية.

والملاحَظُ في المِثالين هو التّصريحُ بالمشبّه به المستعارِ وحذْفُ المشبّه، وهذا مبعثُ تسمية هذا الضَّرْب «الاستعارةَ التصريحية».

ونسوق لكَ ههنا طائفةً من الاستعاراتِ التصريحية التي نبيّن لكَ كيفيةَ إجرائها:

١ ـ قال الشّاعرُ يصِفُ مجلسَ شَرابٍ تَسْقي القومَ فيه حسْناءُ فاتنة:

ترنَّحَ الشَّرْبُ واغتالتْ حلومَهُمُ شَمْسٌ ترجّلُ فيهِمْ ثُمَّ ترْتَحِلُ

شبّه الحسْناء بـ«الشّمس» بجامع الحُسْن، وبعْدَ التناسي والادّعاء استعارَ «الشّمسَ» لـ«الحسناء»، ثم حذف المستعارَ له وأبقى المستعارَ على سبيل الاستعارة التصريحية.

٢ ـ قال المتنبّي وقد لَقِيَهُ ممدُوحُه فعانقَه:

فلَمْ أرَ قَبْلي مَنْ مشى البَحْرُ نحْوَه ولا رَجُلاً قامتْ تُعَانِقُهُ الأُسْدُ

في صدْر البيت شبّه المتنبّي ممدوحَه بـ«البَحْر» بجامع الإفاضة في كلٍّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعار لفظَ المشبَّهِ بهِ للمشبَّه، ثم حذفَ المستعارَ له وصرّح بلفظ المستعار منه، على سبيل الاستعارة التّصريحية. وفي لفظ «الأُسْد» في عجُزِ البيت استعارةٌ تصريحية.

٣ ـ وقال المتنبّي أيضًا:

تعرّضَ لِي السَّحابُ، وقد قَفَلْنا فقُلْتُ: إليكَ، إنَّ مَعِي السَّحَابا

شبَّه المتنبّي مَنْ كان معه بـ«السَّحاب» بجامع الإفاضة وغَزارة العطاء في كلٍّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعار اسمَ المشبّه به للمشبّه، ثم حذف المشبّهَ وصرّح بلفظ المشبه به، على سبيل الاستعارة التصريحية.

٤ ـ قال الشاعر:

بَكَتْ لُؤلؤًا رَطْبًا ففاضَتْ مَدامِعي عَقِيقًا فصارَ الكُلُّ في نَحْرِها عِقْدا

شبّه الشّاعر أوّلاً دمعَها باللُّؤلؤ بجامع البياض والتألّق في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعار لفظَ المشبّه به للمشبه، ثم حذف المشبه وصرّح بلفظ المشبه به، على سبيل الاستعارة التّصريحية. وشبّه ثانيًا دمعَه بالعَقِيق، بجامع الحُمْرةِ في كلٍّ (لأنه أرادَ أن يقول إنّه بكى دَمًا بعد نُضوبِ الدّمع)، وبعد التّناسي والادّعاء استعار اسمَ المشبه به للمشبه، ثم حذف المشبّه وصرّح بلفظ المشبّه به، على سبيل الاستعارة التّصريحية.

وبعدَ هذا التّطْوافِ في رِحاب الاستعارة التصريحية غدا من الميسورِ عليكَ أن تتذكّر دائمًا أنّ الاستعارة التّصريحيّة هي:

«لفظُ المشبَّه بِهِ المذكورُ المستعارُ للمشبّه المحذوف».

الاستعارة التصريحية تبعًا لِلّفظ المستعار:

لا يكون اللّفظُ المستعارُ في الاستعارة التّصريحية ذا طبيعةٍ واحدة؛ فقد يكون اسمَ جِنْس غيرَ مشتقّ، وقد يكون أحدَ المشتقّات المعروفة. وعلى الجُملة فإنّ الاستعارة التّصريحية من وِجهة لفظ المشبّه به المستعارِ على ضَرْبين:

أصليّة وتبعية.

وإليكَ مفصَّلَ القول في كلّ منهما:

١ ـ الاستعارة الأصليّة:

هي الّتي يكون اللّفظُ المستعارُ فيها اسمَ جِنْسٍ غيرَ مشتقّ، ويُراد باسم الجنس المَاهِيّةُ الّتي تصلح لأن تدلّ على كثيرين، دون مراعاة وصْفٍ معيّن في دِلالتها.

واسْمُ الجِنس هذا أنواعٌ؛ فقد يكون حقيقيًا، بمعنى أنه يدلّ حقيقةً على كلّ فردٍ من أفراد مدلوله، كلَفْظ «أسد» في قولكَ: «رأيتُ أسَدًا يتصدّرُ المَجْلِسَ» أي رجلاً باسلاً. وقد يكون تأويليًا، بمعنى أنه يدلّ من خلال التأويل على كلّ فرْدٍ من أفراد مدلوله. ويريدون به كلّ عَلَم اشتهر بِصِفةٍ وعُرِف بها، كلفظ «حاتِم» في قولِكَ: «رأيتُ حاتِمَ بَلَدِنَا»، تريد رجلاً كريمًا من بلدك. فأصْلُ «حاتم» أنّه عَلَمٌ على ذاتٍ معروفة هي «حاتِم الطّائيّ»، ذلك الجواد الذي عاش في الجاهلية ولكن تُؤُوّل فيه فصار اسم جِنْسٍ يُطْلقونه على أية ذات متّصفة بالجُود والكرَم. ثمّ قد يكون اسْمُ الجنس اسْمَ عَيْنٍ، كلفظ «القمر» في قولكَ: «رأيتُ قمرًا في قَصْره»، أي رجلاً وضيءَ الوجه عليّ المنزلة. أو اسمَ معنى، أي مصدرًا، كلفظ «القَتْل» في قولكَ: «أزعجني قتْلُ زيدٍ أخاه»، أي إذلاله إذلالاً شديدًا.

وفي كلّ الأمثلة التي قدّمْنا جرَتِ الاستعارةُ في تشبيهٍ مباشرٍ بين مشبّه ومشبّه به، ولمّا كان لفظُ المشبّه به هو المستعار مباشرة سُمّيت الاستعارة «أصليّة»؛ لأنّ التّشبيهَ فيها أصْليّ، تمييزًا لها عن الاستعارة «التّبعية» التي تَتْبع الأصْلية وتُبنى عليها.

وإليكَ طائفةً من صُوَر الاستعارة الأصْلية لتكون على بيّنةٍ من الأمر:

١ ـ قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، في هذه الآية الكريمة استعارتان تصريحيّتان، أصليّتان: الظّلمات، النّور.

ففي الأولى شُبِّهت «الضَّلالاتُ» بـ«الظّلُمات» بجامع عدم الاهتداء في كلٍّ، وبعد التّناسي والادّعاء، استُعير لفظُ المشبه به «الظّلمات» للمشبّه «الضلالات» على سبيل الاستعارة التّصريحية الأصْلية. ومبعثُ كونها تصريحيةً أنّ لفظ المشبه به «الظّلمات» هو المستعارُ ههنا للمشبّه المحذوف، أمّا مبعثُ كونِها أصليةً فهو أنّ المستعارَ اسمُ جنسٍ غير مشتق «الظّلمة».

وفي الثانية شُبِّهت «الهِداية» بـ «النّور» بجامع الاهتداء في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير لفظُ المشبّه به «النور» للمشبه «الهداية» على سبيل الاستعارة التّصريحيّة الأصليّة. وهي تصريحيةٌ للتصريح فيها بلفظ المشبّه به المستعار للمشبه المحذوف؛ وأصليّة لكون اللّفظ المستعار اسمَ جنسٍ دالًّا على عَيْن.

٢ ـ قال البُحْتُرِيُّ:

يُـؤدّونَ الـتـحـيّـةَ مِـنْ بَـعـيـدٍ ... إلـى «قَـمَـرٍ» مِـنَ الإيـوانِ بَـادِ

شبّه ممدوحَه بـ«القمر» بجامع الضّياء والرِّفعة في كلّ، وبعد التّناسي والادعاء استُعير لفظ المشبّه به «القمر» للمشبّه «الممدوح» على سبيل الاستعارة التّصريحيّة الأصليّة. ولن يغيب عنك تحصيلُ السبب.

٣ ـ قال الشاعر:

حـولَ أغـشـاشِـهـا عـلـى الأشْـجـارِ ... قـدْ سَـمِـعْـنَ «الـقِـيـانَ» وهـي تـغـنّـي

شبّه الأطيارَ المغرّدةَ بـ«القِيان» بجامع حُسْن الصّوت في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير لفظُ المشبّه به «القِيان» للمشبّه «الأَطْيار» على سبيل الاستعارة التصريحيّة الأصليّة.

٤ ـ قال الشاعر:

يا ابنَ الكَواكب مِنْ أَئِمّةِ هاشمٍ والرُّجَّحِ الأحْسَابِ والأحْلامِ

شبّه آباءَ ممدوحه بـ«الكواكب» بجامع الضّياء والرُّفعة في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعار لفظَ المشبه به «الكواكب» للمشبه «الرّجال» على سبيل الاستعارة التّصريحية الأصلية.

وهكذا يستقرّ في فَهمِك أنّ الاستعارةَ الأصْليّة هي:

تِلكَ الاستعارةُ التي يكون اللّفظُ المستعارُ فيها أصْلِيًا يكون هو نفسه مشبّهًا به مستعارًا للمشبّه المحذوف، وليس لفظًا آخرَ مشتقًّا منه وتابعًا له.

٢ ـ الاستعارة التّبعيّة:

هي الّتي يكون اللّفظُ المستعارُ فيها تابعًا لاستعارةِ معنًى يَسْبِقه؛ أي فعلاً أو اسْمًا مشتقًا أو حَرفًا. وتُسمّى تبعيّةً لأنّ جريان الاستعارة في الفِعْل والمشتقّات والحروف يكون تبعًا لِجَرَيانها في المصادر. وإليكَ تفصيلَ الأمر:

* الاستعارة في الفعل:

ينطوي الفِعْلُ ـ كما هو معلوم ـ على مادّةٍ هي حروفه الدّالّة على حدَثٍ معيّن، وعلى صِيغةٍ هي الهيئةُ الدّالّة على زمان معيّن، كصِيغة الماضي والمضارع. ويتبع هذا أن تكون الاستعارةُ في الفِعْل على ضربَيْنِ: استعارة في مدلول مادّة الفعل أي الحَدَث، واستعارة في مدلول صِيغة الفعل وهو الزّمان:

ومن أمثلة الاستعارة في الحَدَث هذه الصُّور:

١ ـ قال سبحانه: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾. في قوله «يحيي»

استعارة؛ حيث شبّه تزيينَ الأرض بالنبات وبَعْثَ النّشاط فيها بالإحياء، بجامع الحُسْن والنّفع في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللفظُ الدّالُ على المشبّه به «الإحياء» للمشبّه «التزيين»، ثم استُعير «يُحْيي» لـ«يُزَيِّن» على سبيل الاستعارة التصريحيّة التبعيّة. أمّا كونُها تصريحيّةً فللتصريح فيها بلفظ المشبَّه به المستعار للمشبّه المحذوف، وأمّا كونها تبعية فلأنّ الاستعارة فيها جرَتْ في الفعل تبعًا لجرَيانها في المَصْدرِ، كما بيّنّا.

٢ ـ قال البحتري يصف قصرًا:

مَلأَتْ جوانِبُهُ الفضاءَ و«عانَقَتْ» شُرُفاتُه قِطَعَ السّحابِ المُمْطِرِ

في قوله «عانَقَتْ» استعارة؛ حيث شبّه الشّاعرُ الملامسة بـ«المعانقة» بجامع الاتّصال في كلٍّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللفظُ الدّالّ على المشبه به «المعانقة» للمشبه «الملامسة»، ثم استُعير «عانق» لـ«لامَسَ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعية. وهي تصريحيّةٌ لأنّه صرّح فيها بالمشبه به، وتبعيةٌ لأنّ استعارة الفعل جاءت تبعًا لاستعارة المصدر.

٣ ـ قال المتنبي:

«غاضَ» الوفاءُ فمَا تَلْقاهُ في عِدَةٍ وأعوز الصّدقُ في الأَخْبارِ والقَسَمِ

في قوله «غاضَ» استعارةٌ؛ حيث شبّه المتنبّي اضمحلالَ الوفاء بين الناس بـ«غَيْض» الماء أي نَقْصِه، بجامع التّناقص في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظ الدّالُ على المشبه به «الغَيْض» للمشبّه «الاضمحلال»، ثم استُعير «غاض» لـ«اضمحلّ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة الأصْلية التبعية.

ومن أمثلة الاستعارة في الزّمان هذه الصُّوَر:

١ ـ قال سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي «يأتي». ففي قوله «أتى» استعارة تُجْرَى على هذا النّحو:

شُبِّه الإتيانُ في المستقبل بالإتيان في الماضي، بجامع تحقُّق الوقوع وتأكُّده في كلٍّ، ثم استُعير اللّفظُ الدّالّ على المشبه به «الإتيان في الماضي» للمشبّه «الإتيان في المستقبل»، ثم استُعير «أتى» لـ«يأتي» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة. وهي تصريحيّةٌ للتّصريح فيها بالمشبّه به المستعار للمشبّه المحذوف، وتبعيةٌ لأنّ استعارةَ الفعل إنما جاءت تبعًا لاستعارة المصدر.

٢ ـ قال سبحانه حِكايةً لقول إبراهيم عليه السّلامُ لابنه إسماعيلَ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ على معنى «رأيتُ». فقد شُبّهت الرؤيةُ الماضية بالرّؤية الحاضرة بجامع استحضار الصّورة العجيبةِ في كلّ، وهي صورةُ ذَبح إبراهيمَ عليه السّلامُ لابنه إسماعيلَ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظ الدّالّ على المشبه به «الرؤية الحاضرة» للمشبه «الرؤية الماضية»، ثم استُعير «أرى» لـ«رأيتُ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة.

٣ ـ قال قيسُ بنُ المَكْشُوح المُرادي من قصيدةٍ يذكر فيها قَتْلَهُ رستمَ قائدَ الفُرْس:

فلَمّا أن رأيتُ الخَيلَ جالَتْ قَصَدْتُ لِمَوْقفِ المَلِكِ الهُمامِ
فأَضربُ رأسَه فهوىٰ صَرِيعًا بِسَيْفٍ لا أفلَّ ولا كَهامِ

يصِفُ الشّاعرُ واقعةَ حَرْبٍ جرت في الماضي، وكان مقتضى الحال أن يستخدم الفعلَ الماضي في وصْفِ ما حدث، لكنه أراد أن

يستحضر الصّورةَ الرائعةَ الّتي تصوّر ضَرْبَه لهذا القائد تصويرًا يمثّل الحدَثَ كأنه يجْري أمامَ العيْن، فاستخدم لذلك صِيغةَ الحاضر «أَضْرِبُ». وفي هذا الفعل استعارةٌ تجري على هذا النّحو:

شبّه الضَّرْبَ الماضي بالضّرب الحاضر بجامع استحضار الصّورة المُذهِشة في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظ الدّالّ على المشبه به «الضرب الحاضر» للمشبّه «الضرب الماضي» ثمّ استُعير «أَضْرِبُ» لـ«ضربْتُ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعيّة.

**** الاستعارة في المشتقات:**

المشتقّاتُ هي اسْمُ الفاعِلِ، واسمُ المفعول، والصّفةُ المشبَّهة، وأفعلُ التّفضيل، واسْما الزّمان والمكان، واسمُ الآلة. وإليك صُوَرًا للاستعارة في كلّ منها:

- فالاستعارة في اسم الفاعل كقولكَ: «تركْتُه لهادِمِ اللّذاتِ»، أي مُذهِبُها وهو الموتُ. ففي قولكَ «هادم» استعارة؛ حيث شُبِّه «الإِذْهابُ» بـ«الهَدْم» بجامع الإزالة في كلّ، وبعد التناسي والادّعاء استُعير اللّفظُ الدّالّ على المشبه به «الهَدْم» للمشبّه «الإذهاب»، ثم استُعير «هادم» لـ«مُذْهِب» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعية. وهي تصريحيّةٌ للتّصريح فيها بالمشبه به، وتبعيّة لأنّ استعارةَ اسم الفاعل «هادم» جاءت تبعًا لاستعارة المصدر. وكقولكَ: «حُكِمَ على قاتِلِكَ بالسِّجْن» أي ضارِبك ضَرْبًا مبرِّحًا.

- وفي اسمْ المفعول كقولِكَ: «رأيتُ حَصِيدَ سَيْفِكَ»، أي مَخصُودَه على معنى مقتوله. ففي قولِك «حصيد» استعارة، حيث شُبّه القَتْلُ بالحَصْد بجامع الاستئصال والإبادة في كلّ، وبعد التّناسي

والادّعاء استُعير اللفظ الدّال على المشبه به «الحَصْد» للمشبّه «القَتْل»، ثم استُعير «حَصِيد» بمعنى محصود لـ «قَتِيل» بمعنى مقتول، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعية. ومثلُه قولُ المصطفى ﷺ: «وهل يكبّ الناسَ على وجوهِهِم يومَ القيامةِ إلّا حَصَائدُ ألسنتِهِمْ» أي محصودات ألسنتهم.

- وفي الصّفة المشبّهة كقولكَ: «رأيتُ عزيزَ القومِ» مشيرًا إلى ذَليلِهم. ففي قولكَ «عزيز» في هذا السياق استعارةٌ تجري على هذا النحو: نُزّل التضادُّ بين الذّلّ والعِزّ منزلةَ التّناسب بينهما، ثم شُبّه الذلُّ بالعِزّ بجامع الأبّهة في كلّ، وإن كانت في المشبّه على سبيل الادّعاء، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظُ الدّالّ على المشبه به «العِزّ» للمشبه «الذّلّ»، ثم استُعيرت الصّفةُ المشبّهة «عزيز» لـ«الذّليل» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعية التهكّمية. وكقولك: «رأيتُ حسَنَ الوجهِ» مشيرًا إلى قَبيحِه.

- وفي اسمِ التّفضيل كقولِ الشاعر:

ولَئِنْ نَطَقْتُ بشُكْرِ بِرّك مُفْصِحًا فلِسانُ حَالي بالشّكايةِ أَنْطَقُ

في قوله «أنطق» استعارة، إجراؤها هكذا:

شُبّهت دِلالةُ الحال بالنّطق بجامع إيضاح المعنى وإيصاله إلى الذّهن في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظُ الدّالّ على المشبه به «النّطق» للمشبّه «الدّلالة»، ثم استُعير أَفْعَلُ التفضيل «أَنْطَقُ» لـ «أَدَلّ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعية.

ومثلُه قولُ أبي العتاهية يرثي:

وكانتْ في حَياتِكَ لِي عِظاتٌ وأنتَ اليومَ أوعظُ مِنكَ حَيّا

ففي قوله «أوعظ» استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة يسلُك إجراؤها مَسْلكَ سابقتها.

ـ وفي اسمي الزّمان والمَكان كقولكَ: «هذا مَقْتَلُ زيدٍ» تشير إلى زمانِ ضَرْبه ضربًا شديدًا، أو مكانه. شُبّه الضّربُ الشّديد بالقتل بجامع الإيلام في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظُ الدّالّ على المشبه به «القَتْل» للمشبّه «الضّرب الشّديد»، ثم استُعير اسم الزّمان أو اسم المكان «مَقْتَل» لـ «زمان الضّرْبِ الشّديد أو مكانه» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ومثالُها في الذّكر الحكيم قوله سبحانه: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾أي: من موضع موتنا «القبر».

ـ وفي اسم الآلة كقولِكَ: «رأيتُ مِفْتَاحَ فلانٍ»، تريد الشخصَ الّذي يُوصِل إليه. ففي قولك «مفتاح» استعارةٌ، إذ شبّهتَ تيسير الوصول إلى ذلك الشخص بالفَتْح بجامع سهولة الوصول إلى كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استُعير اللّفظ الدالّ على المشبه به «الفَتْح» للمشبّه «تيسير الوصول»، ثم استُعير اسمُ الآلة «مِفْتاح» لـ «مُيَسِّر الوصول» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ونَحْسَبُكَ الآنَ تردّد معنا:

إنّ الاستعارةَ في المشتقّات تبعيةٌ، لجَرَيانها في المَصادر أولًا؛ لأنّ المصدرَ هو المعنى «القائم بالذّات» وهو أسْبقُ في الاعتبار وأولىٰ.

***** الاستعارة في الحَرْف:**

تحدُث الاستعارةُ في الأحرف، حيث نلحظ اتّخاذَ الحَرْف معنًى غير معناه الأصليّ. وإليكَ أمثلةً لاستعارةِ الحَرْف:

ـ قال سبحانه: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾. اللاّم في هذه الآية مستعمَلةٌ في غير التَعليل، الذي يعني ترتُّبَ ما بعْدَها على ما قبْلَها. فقد التقطه آلُ فِرْعونَ ليكون حبيبًا وسرورًا لهم لا لِيكونَ عدُوًّا وحزَنا. ولكنْ لمّا كانت النّتيجةُ المترتّبة على الالتقاط العداوةَ والحَزَنَ، لا المحبّة والسّرور، شُبِّهت العَداوةُ والحزَنُ المترتّبان على الالتقاط الفعليّ بالمحبّة والسّرور المترتّبين على الالتقاط فيما كان يأمَلُ آلُ فرعون، ثم استُعمِلت فيه اللاّم تجوّزًا. وتُجرى الاستعارةُ هكذا:

شبّه العداوةَ والحَزَن المترتّبين على الالتقاط فعلاً بالعِلّة الحقيقية الّتي هي المحبةُ والسّرور، والجامع بين الاثنين أنّ كلاّ منهما مترتّبٌ على الالتقاط، فسرى هذا التّشبيهُ إلى تشبيه ترتّبِ العَداوةِ والحزَنِ على الالتقاط بترتّب المحبّة والسّرور بجامعِ مُطْلَق ترتّب شيء على شيء. ثمّ استُعيرت اللاّم الموضوعةُ لترتّب العلّةِ الحقيقية (المحبّة والسّرور) لترتّب غير العِلّة الحقيقية (العداوة والحزَن) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ـ قال سبحانه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾. أصْلُ «في» أنّه حرْفٌ موضوعٌ لتلبّس الظّرْف بالمظروف حقيقةً، ومن ثمّ فإنّ «في» في الآية مستعملةٌ في غير ما وُضِعتْ له؛ لأنّ ما بعْدَها لا يصلُح ظرْفًا لِما قبلها حقيقةً، ولكنْ لمّا كانت جذوع النّخل متمكّنةً من المصلوبين تمكّنَ الظّرفِ من المظروف، شُبِّهت الجذوعُ بالظّرف الحقيقيّ في هذا التمكّن، ثم استُعير لها لفظُ «في» تجوّزًا. وإجراء الاستعارة في هذه الآية يمضي هكذا:

شُبِّهتِ الجُذوعُ المستعلىٰ عليها بالظَّرْفِ الحقيقيّ بجامع التمكّن في كلّ، فسرىٰ هذا التشبيهُ إلى تشبيه تلبُّسِ الجذوعِ بالمصلوبين بتلبُّسِ

الظّرف بالمظروف الحقيقيّيْن بجامع مطْلَقِ التمكّن في كلّ، ثم استُعير اللّفظ الدّالّ على المشبه به «في» للمشبّه «تلبّس الجذوع المستعلى عليها بالمستعلي» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ـ وتقول حين تُسأل عن حالِكَ: «أنا في خيرٍ، الحَمْدُ لله». ففي لفظ «في» ههنا استعارة. ذلك أنّ المعنى الوَضْعيّ لـ «في» هو تلبُّس الظّرْف بالمظروف حقيقةً. ولعلّكَ لاحظْتَ أنه مستعمَلٌ هنا في غير ما وُضِع له، لأنّ ما بعده لا يصلح ظرفًا لِما قبله. ولكنْ لمّا كان الخيرُ متمكّنًا منك تمكّنَ الظّرْف من المظروف الحقيقيّين شُبّه الخيرُ بالظّرف الحقيقيّ في هذا التمكّن، واستُعمل فيه لفظ «في» تجوّزًا؛ وإجراء هذه الاستعارة هكذا:

شُبّه الخيرُ بالظّرف الحقيقيّ بجامع التمكّن في كلّ، فسرى هذا التّشبيه إلى تشبيهِ تلبّس الخَيْر بك بتَلبُّس الظّرف بالمظروف الحقيقيين بجامع مُطْلَق تمكّن شيء من شيء، ثم استُعير «في»الموضوع للمشبه به «تلبُس الظّرف بالمظروف الحقيقيين» للمشبّه «تلبّس الخير بك» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

بقي عليكَ أن تعلم:

أنّ الاستعارةَ في الحَرْف سُمّيت تبعيّةً؛ لأنّها تابعةٌ لتشبيه، كما سمّيت تصريحيةً؛ لأنه صُرّح فيها بالحَرْف المنقول من المشبه به إلى المشبه..

قرينة الاستعارة التبعية:

أسلَفْنا أنّ القرينةَ في الاستعارة مؤشّرٌ دِلاليّ ملفوظٌ أو ملحوظ، يحدّد كونَ الكلمة مستعارةً من مدلولها الأصليّ لمدلولٍ آخر بينه وبين الأوّل علاقة تشابه. وفي مقدورنا القولُ إنّ قرينةَ الاستعارة التبعية ترجع في الأعمّ الأغلب إلى:

١ـ الفاعل، كقولِكَ: «نطَقَتِ الحالُ بكذا»؛ فإنّك تستدلّ على أنّ «نطَق» هنا مستعملٌ استعمالاً مجازيًا من خلال الفاعل «الحال»؛ ذلك لأنّ الحال لا تنطِق نُطْقًا حقيقيًا. ولا بدّ من أن تكون «نطَق» هنا بمعنى «دلّ». ومنه في الذّكر الحكيم قولُه سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، فالفاعل «الماء»يدلّنا على أنّ «طغى» هنا معناه «كثُر كثرةً جاوزتِ الحدَّ».

٢ـ نائب الفاعل، كقوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾فقد دلّ نائبُ الفاعل ﴿ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ على أنّ «ضُرِبتْ» هنا استعارةَ تبعيّة بمعنى «حُكِم عليهم»؛ لأنّ الذلّة والمَسْكنة لا تُضرَبان كما تُضرَب الخيمةُ بلْ يُحْكَم بهما على المعاقَب.

٣ـ المفعول كقول ابن المعتزّ:

جُمِعَ الحَقُّ لنا في إمامٍ قتلَ البُخْلَ وأَحْيا السّماحا

فقد دلّ المفعول «البُخْل» و «السّماحا» على أنّ «قَتَل» هنا استعارةٌ تبعية بمعنى «أزال» و «أَحْيا» استعارةٌ تبعية بمعنى «أكثر».

٤ـ المجرور كقوله سبحانه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾فقد دلّ المجرورُ «العذاب» على أنّ «بشّر» هنا استعارةٌ تبعية لـ «أَنذرْ»؛ لأنّ التبشير الحقيقيّ لا يتعلّق بالعذاب. ومن ثَمّ فإنّ ذِكْر العذاب قرينةٌ على أنّ «بشّر» استعارةٌ تبعيّة تهكّمية.

الاستعارة التصريحية تبعًا للمُلائم:

لعلّكَ لاحظْتَ من تتبّع أمثلة الاستعارة أنها قائمةٌ على ادّعاء كون المشبّه من جِنْس المشبّه به وفردًا من أفراده. ويحدث في التعبير الاستعاريّ أن يُذْكَر ما يُقوّي هذا الادّعاءَ أو يُضعِفُه تبعًا للمعنى المذكور وانتمائه إمّا إلى المشبّه وإمّا إلى المشبه به. ومختصرُ القولِ أنّ

الاستعارة التصريحية تبعًا لِذِكْر ملائم أحد الطّرفين (المشبه والمشبه به) وعدمِ ذِكْره، على ثلاثة أضرب: مرشَّحة، مجرَّدة، مُطْلقة.

وسيأتيك كلٌّ منها على نحوٍ يوضح السبيلَ إن شاء الله.

*** الاستعارة المرشَّحة:**

هي الّتي تُقرَن بمعنًى ملائمٍ للمستعار منه «المشبّه به» فيزيد ذلك من تناسي المعنى الأصْليّ وإيهامِ أنّ هذا الادّعاء المجازيّ إنما هو حقيقة. ومن أمثلتها:

١ـ قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾. استُعير «الاشتراءُ» لـ «الاختيار»، ثمّ استُعير «اشتروا» لـ «اختاروا»، ثم فُرّع على هذه الاستعارة التّبعيّة شيءٌ يلائم المستعارَ منه ويعزّز حقيقتَه، وهو «الرّبح والتّجارة» ترشيحًا للاستعارة وتقوية لها.

٢ـ قال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. استُعير «الجَناح» لـ «الجانب»، ورشّحت الاستعارةُ بذِكْر ملائم المستعار منه وهو قوله: «اخفِضْ»، وهو من أوصافِ الجناح الحقيقيّ. والاستعارة مرشّحة.

٣ـ قال البُحْتُرِيّ يعتذر ليعقوبَ بنِ أحمدَ:

ولمّا نَبَتْ بي الأرْضُ عُذْتُ إليكُمُ أَمُــتُّ بِــحَــبْــلِ الــوُدِّ وهُــوَ رِمــامُ

استعار «الحَبْلَ» لعلاقة الودّ ورِباط المحبّة، ثم وصف هذا الحبلَ بأنه «رِمامٌ» أي بالٍ، ترشيحًا للاستعارة بإضافة ما يقوّي ادّعاءَ أنّ علاقة الودّ هذه حبلٌ حقيقيّ.

٤ـ قال المتنبيّ:

كبّرتُ حَوْلَ ديارِهِمْ لـمّا بَدَتْ منها الشّموسُ وليسَ فيها المَشْرِقُ

استعار «الشمّسَ» للرّجال، ثم أضاف لهذه الاستعارة ما يقوّي دعوى أنهم شموسٌ حقيقيّةٌ، وهو المَشْرق والتّكبير؛ إذ يفيدان أنه حين رأى هذه الشموسَ تطلُع من غير المشرِقِ أخذ يكبّر شأن المُسْلم عندما تلوحُ له آيةٌ من آيات الله، وفي هذه الإضافة ترشيحٌ للاستعارة وتقوية لها.

بقي عليك أن تعلم:

أن الترشيح يعني التّربيةَ والتّقوية، وأنّ هذه الاستعارة سُمّيت مرشَّحة لأنّها مقرونةٌ بما يبعدها عن الحقيقة ويقوّي فيها دعوى الاتّحاد بين الطّرفين.

وعن سِحْر هذا الضّرْب من الاستعارة وخِلابته قال الزّمخشريُّ:

«هذا من الصّفة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذّرْوةَ العُليا، وهو أنْ تُساق كلمةٌ مساقَ المَجاز ثم تُقفَى بأشكالٍ لها وأخوات إذا تلاحقْنَ لم ترَ كلامًا أحسنَ منه دِيباجةً وأكثر ماء ورَوْنقًا، وهو المجازُ المرشَّح».

**** الاستعارة المجرّدة:**

هي التي تُقرَن بمعنًى ملائم للمستعار له «المشبّه»، فيُضْعِف ذلك ادّعاءَ الاتّحاد بين الطّرفين ويذكِّر المتلقّيَ بأنه إزاءَ مجازٍ.

ومن أمثلتها:

١ـ قال كُثَيِّر عَزّةَ يمدح:

غَمْرُ الرِّداءِ إذا تبسّم ضاحِكًا ... غَلِقَتْ لِضِحْكَتِه رِقابُ المَال

غَمْرُ الرّداء معناه كثير العطاء، وقد استعار كُثَيِّر «الرّداء» لـ «العطاء»؛ لأنه يصون عِرْضَ صاحبه كما يصون الرّداء ما يُلقى عليه. ثمّ أتى بملائم المستعار لهُ «العطاء» وهو وصْفُه بـ «الغَمْر» أي الكثير،

تجريدًا للاستعارة، أي إِضعافًا لادّعاء اتّحاد المستعار منه والمستعار له، وتذكيرًا بأنّ الأمرَ لا يعدو دائرةَ المجاز.

٢ـ قال البحتريّ:

يـؤدّونَ الـتّـحـيّـةَ مِـنْ بـعـيـدٍ   إلـى قَـمَـرٍ مِـنَ الإيـوانِ بـادِ

استعار «القمرَ» لـ «الإنسان الجميل»، ثمَّ أتى بملائم المستعار له «الإنسان»، وهو كونه مُطِلاًّ من القَصْر، تجريدًا للاستعارة؛ أي إِضعافًا لادّعاء اتحاد الطّرفين، وتذكيرًا بأنّ الأمرَ لا يعدو المجاز.

٣ـ قال الشاعرُ العبّاسيّ سعيدُ بنُ حُمَيْد:

وَعَـدَ «الـبَـدْرُ» بـالـزِّيـارة لَـيْـلاً   فـإذا مـا وفَـى قَـضَـيْـتُ نُـذُوري

استعار «البدر» للمحبوبة ثم ذَكر ملائمَ المستعار له «المحبوبة»، وهو الزّيارة والوفاء بالوعْد، إذْ هما من شأن الإنسان، تجريدًا للاستعارة.

٤ـ قال الشاعر:

يا ابنَ الكَواكِب من أَئِمّةِ هاشِم   والـرُّجَّـحِ الأَحْـسـابِ والأَحْـلامِ

استعار «الكواكبَ» للرّجال، ثم أتى بملائم المستعار له «الرّجال»، وهو كونهم من أئمة هاشم ورجّح الأحساب والأحلام، تجريدًا للاستعارة.

بقي عليك أن تعلم:

أنّ التجريدَ يعني النّزْعَ، وأنّ هذه الاستعارةَ سُمّيت مجرّدةً؛ لتجرّدها عمّا يقوّي فيها ادّعاءَ الاتّحاد بين الطرفين.

اجتماع التّرشيح والتّجريد في استعارة واحدة:

يحدُث أن يجتمع التّرشيحُ والتّجريد في استعارةٍ واحدة، فيُضفي

ذلك على الصّورة شيئًا من التعقيد والرّوعة، يتأتّى في المقام الأوّل من مضاعفة حَيْرة العقل في إدراك المُراد على نحْوٍ محدَّد، حتى إذا استبان في النهاية أنّ درجة الإغماض بقيتْ كما هي بعد التّقوية بالتّرشيح والإضعاف بالتّجريد، حدَث له شيءٌ من البهجة. تمثّل ذلك في قول زهير:

لدى أسَدٍ شاكي السِّلاح مقذَّفٍ لـهُ لِـبَـدٌ أظْـفـارُهُ لَـمْ تُـقَـلَّـمِ

شاكي السلاح تامُّهُ. واللِّبَد: جمع لِبْدة، وهي شعَرُ الأسَد المتلبّدُ على منكبيه. وههنا استعار الشاعرُ «الأسد» للرّجل الجريء، ثم أتى بملائم المستعار له «الرّجل»، وهو قولُه «شاكي السّلاح» تجريدًا للاستعارة، وبملائم المستعار منه «الأسَد»، وهو قوله «له لِبَد» ترشيحًا للاستعارة.

ومنه أيضًا قولُ الشاعر:

رَمتْني بِسَهْم ريشُهُ الكُحْلُ لم يَضِرْ ظَواهِرَ جِلْدي، وهو لِلْقلبِ جارحُ

استعار «السّهمَ» للطّرْف بجامع شدّة التأثير وقوّة الفَتْك في كلّ، ثم أتى بملائم المستعار له «الطّرْف» وهو الكُحل، تجريدًا للاستعارة، وبملائم المستعار منه «السّهم» وهو «رِيشُه» ترشيحًا للاستعارة.

الاستعارة المُطْلقة:

هي الّتي لا تُقرن بشيء من ملائمات أحَد الطّرفين. وإليكَ أمثلةً لها:

١ـ قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾. استُعير «الأخذُ» لإبطال الحواسّ بجامع توقّف الانتفاع في كلّ، ثم استُعير «أَخَذَ» لـ «أَبْطَل» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التصريحية التّبعية، ولأنّه لم يُؤتَ بملائمٍ لأيّ من الطّرفين كانت الاستعارةُ مطلقةً.

٢ـ قال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ استُعير «النَّزْعُ» لـ «الإزالة»، ثم استُعير «نَزَع» لـ «أزالَ» تبعًا لاستعارة المصدر للمصدر، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية. ولأنّه لم يُؤتَ بملائمٍ لأيّ من الطرفين كانت الاستعارة مطلقةً.

٣ـ قال المتنبّي:

يا بَدْرُ يا بحْرُ يا غمامةُ يا لَيْثَ الشَّرى، يا حمامُ، يا رَجُلُ

استعار «البَدْر» و «البَحْر» و «الغمامة» و «ليث الشّرى» و الحِمام» أي الموت للممدوح. والقرينةُ في كلّ من هذه الاستعارات أداةُ النّداء. ولأنّ أيًا من هذه الاستعارات لم يُقرَن بملائمٍ لأيّ من الطّرفين كانت هذه الاستعاراتُ مطلقةً.

ويضمّ البلاغيون إلى الاستعارة المطلقة ما اجتمع فيها ترشيحٌ وتجريد كالبيتين اللّذين أسلفنا القولَ فيهما، وتعبيرُ علماء البلاغة عن ذلك هو: إنّهما تتعارضانِ فتتساقطان، فكأن لا ترشيح ولا تجريد. ومن ذلك قولُ بشّار:

أَتَتْني الشَّمْسُ زائرةً ولَمْ تَكُ تَبْرَحُ الفَلَكا

استعار «الشّمس» للمحبوبة، ثم أتى بملائم المستعار له «المحبوبة» وهو الزّيارة، إذ هي شأنٌ بشريّ، وبملازم المستعار منه «الشّمس»، وهو عدم مغادرة الفلك، وهو خصوصية للشّمس.

بقي أن تعلم أنّ تسميةَ هذه الاستعارة «مطلقةً» راجعةٌ إلى كونها مطلقةً عن التقييد بما يلائم أحد الطّرفين.

ولكَ أن تتساءل: أيُّ هذه الاستعارات الثلاث أبلغُ؟

من غير العسير أن يدرِكَ المتلقّي أنّ التّرشيحَ، الذي يتمثّل في ذكر ملائم المستعار منه، أبلغُ من سِواه؛ لأنّه يقوّي دعوى الاتّحاد بين

الطّرفين، ويخيّل للمتلقّي أن المشبّه هو المشبّه به تمامًا. وعلى هذا فالاستعارة الترشيحية في قول ابن المعتزّ:

أَثْـمَـرتْ أغْـصـانُ راحَـتِـهِ بـجِـنـانِ الـخُـلْـدِ عُـنّـابًـا

أبلغُ من الاستعارات المطلقة في قوله:

فأمطَرَتْ لؤلؤًا من نَرْجِسٍ وسَقَتْ وردًا وعضّتْ على العُنّابِ بالبَرَدِ

ففي الأولى ادّعاء أنّ المستعار له هو المستعار منه بِلَحْمه ودَمِه، كما يقولون، وليس في استعارات البيت الثاني شيءٌ من ذلك.

على أنّ الإطلاق يأتي في المنزلة الثانية، وهو أبلغ من التجريد؛ لأنّ التجريدَ إضْعافٌ لدعوى الاتّحاد بين الطّرفين، وفيه محدِّد دِلاليّ يظلّ يقول لكَ: أنتَ أمامَ مَجازٍ لا حقيقة، والمستعار له ملحقٌ إلحاقًا بالمستعار منه.

الاستعارة المَكْنيّة

أسلَفنا أنّ الاستعارة من حيثُ ذِكْرُ أحد طرفيها قِسْمانِ: تصريحية، ومكنية. وقد فصّلنا الحديثَ في التّصريحية، وههنا مجالُ الحديث عن الاستعارة المكنية.

الاستعارةُ المكنية في مذهب جَمْهرة علماء البيان هي:

لفظُ المشبّه به المستعارُ في النفس للمشبّه، والمحذوفُ المدلول عليه بذِكْر شيءٍ من لوازمه وخواصّه.

وهاك صُوَرًا تُوضِح هذا الضّربَ، مع بيان إجراء الاستعارة فيها:

١ـ قال أبو ذُؤَيب الهُذَليّ:

وإذا المَنِيّةُ أنشَبَتْ أظْفارَها   ألفَيْتَ كلَّ تَميمةٍ لا تنفَعُ

أراد الشّاعر تصويرَ حتميّة الموت وبيانَ أنه قضاءُ الله الذي لا مردّ له. فدفع به عُمْقُ الإحساس بِوَطْأةِ الحِمام والرّغبةُ في توصيل هذا الإحساس إلى الآخرين إلى تشبيه المنيّة بالسَّبُع في اغتيال النّفوس، وبعدَ تناسي التّشبيه وادّعاء أن المشبّه فرْدٌ من أفراد المشبه به استعار في نفسه لفظ «السَّبُع» للمنية، ثم حذَفه ودلّ عليه بذِكْر بعض خواصّه وهو «الأظفار»، التي أثبتها للمشبه «المنية» على سبيل الاستعارة المكنية.

٢ـ قال الشاعر:

الرّيحُ تحسدني عليك ـ ولَمْ أخَلْها في العِدَا
لمّا هَمَمْتُ بقُبلةٍ   ردّتْ على الوجهِ الرِّدا

في قوله «الريح تحسدني» استعارةٌ؛ إذ شبّه الرّيحَ بإنسان، وبعد التناسي والادّعاء استعار في نفسه لفظ «الإنسان» للريح، ثم حذَفه ودلّ عليه بذكر بعض خواصّه وهو «الحسد» الذي أثبته للمشبه «الرّيح» على سبيل الاستعارة المكنية.

٣ـ قال محمّد بن وُهَيب:

وحارَبَني فيهِ رَيْبُ الزّمانِ   كأنّ الزمانَ له عاشِقُ

في قوله: «حاربني رَيْبُ الزّمان» استعارةٌ؛ إذ شبّه ريبَ الزمان بإنسان، وبعد التّناسي والادّعاء استعار في نفسه لفظ «الإنسان» لريب الزمان، ثم حذفه ودلّ عليه بذكر بعض خواصّه وهو «المُحاربة» الّتي أثبتها للمشبه «ريب الزمان» على سبيل الاستعارة المكنية.

٤ـ قال أبو العَتَاهِية يهنّىء المَهْدِيَّ بالخِلافة:

أتتْهُ الخلافةُ مُنقادةً   إليهِ تُجَرِّر أذْيالَها

شبّه الخلافةَ بغادةٍ ترفل بالثياب وتجرّ وراءها فَضْلَ إزارها، وبعد تناسي التّشبيه وادّعاء أنّ المشبّه فرْدٌ من أفراد المشبه به استعار في نفسه لفظ «الغادة» للخِلافة، ثم حذَفه ودلّ عليه بذِكْر بعض خواصّه، وهو «جرّ الذيل»، الذي أثبته للمشبه «الخِلافة» على سبيل الاستعارة المكنية.

ونحْسَبُ أنّك قد لاحظْتَ في كلّ الأمثلة المتقدّمة أن لفظَ المشبه به محذوفٌ، ومَكْنيّ عنه بلازم من لوازمه، ومن هنا سُمّيت هذه الاستعارة «مَكْنيةً» لأنّه لا يُصرَّحُ فيها بذكر المشبه به، بل يُكْنى عنه بذِكْر شيء من خواصّه ولوازمه.

قرينة الاستعارة المَكْنية:

أسلَفْنا أنّ وظيفة القرينة في الاستعارة أنها تَصْرِف ذهنَ المتلقّي

عن المعنى الوَضعيّ للفظ المستعار، وتدفعه إلى المعنى المجازيّ. ونُضيف هنا أنّ قرينة الاستعارة المَكْنية هي إِثْباتُ لازِم المشبّه به المحذوف للمشبّه المذكور. تأمّلْ قولَ المتنبّي في تضاعيف قصيدته في «الحُمّى»:

أَبِنْتَ الدَّهرِ عِنْدي كلُّ بِنْتٍ   فكيفَ وَصَلْتِ أنتِ مِنَ الزِّحامِ

أراد المتنبّي أن يصوّر حَمْلَ الدّهر عليه وقذْفَه بالأَرْزاء والنّكبات، وأنه يَفْجَؤُه كلّ يوم بِهَمٍّ جديد، فشبّه «الدّهْرَ» بـ «الرّجل»، بجامع الإنجاب في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعارَ في نفسه لفظَ «الرّجل» للدّهر، ثمّ حذفه ودلّ عليه بذِكْر بعض خواصّه وهو «بِنْت»، التي أثبتها للمشبّه «الدّهر» على سبيل الاستعارة المكنية. والذي دلّنا على هذه الاستعارة إنّما هو إثباتُ لازم المشبه به المحذوف «بنت» للمشبّه المذكور «الدّهر»؛ ومن ثَمّ فإنّ هذا الإثبات الدّالَ هو قرينةُ هذه الاستعارة المكنية.

وننبّه هنا أيضًا على أنّ البلاغيين يُسمّون إثباتَ لازم المشبه به المحذوف للمشبه المذكور ـ أو قرينة المكنية ـ «الاستعارة التخييلية». أمّا كونُها استعارةً فلأنّ اللاّزمَ المذكور ـ بِنْت في المثال السابق ـ استُعير للمشبّه، وأمّا كونُها تخييليةً فلأنّ ذلك اللاّزم لما نُقِل واستُعمل مع المشبَّه خَيّل للسّامع أنّ المشبّه من جنس المشبّه به.

تقسيماتُ الاستعارة المكنية:

ما تقدّم من تقسيمات الاستعارة التّصريحية على أصْليّة وتبعيّة، ثمّ على مرشّحة ومجرّدة ومُطْلقة، ينطبق أيضًا على الاستعارة المكنيّة. ولن يصعُبَ عليكَ تبيُّنُ ذلك إن شاء الله، لكنّنا نقدّم إليكَ مِثالاً لكلّ حالةٍ لتكونَ مَعالِمَ في طريق تحصيلِكَ جليّةَ الأمْر:

١ـ فالاستعارة المكنيّة الأصْلية كاستعارة اسْمِ الجِنْس «الإنسان» في قول الشاعر الذي تقدّم القولُ فيه:

الـرِّيـحُ تـحـسـدنـي عَـلَـيْـكِ ولَـمْ أخَـلْـهـا فـي الـعِـدا

إذ المستعارُ هو لفظُ «الإنسان» المحذوفُ والمرموز إليه بشيء من لوازمه، وهو «الحسَد».

٢ـ والاستعارة المكنية التبعية كقولك: «يُعْجِبني إراقةُ الضّاربِ دمَ الباغي». ويقولون في إِجْرائها: شبّه الضَّرْبَ الأليم بالقَتْل بجامع الإيذاءِ الشديد في كلّ، وبعد التّناسي والادّعاء استعارَ في نفسه القتْلَ للضّرْب الشديد، واشتقّ من القَتْل «قاتِل» لـ «ضارب ضَرْبًا شديدًا»، ثمّ حذَفَه ودلّ عليه بلازمه وهو «الإراقةُ» على سبيل الاستعارة المكنيّة التبعيّة.

٣ـ والاستعارة المكنيّة المرشّحة كقولِ تَأَبَّطَ شَرًا يتحدّث عن سَيْفه:

إذا هـزّهُ فـي عَـظْـمِ قِـرْنٍ تـهـلّـلَـتْ نَـواجِـذُ أَفْـواهِ الـمَـنـايـا الـضَّـواحِـكِ

فقد شبّه المنايا بأُناسٍ، وبعد التّناسي والادّعاء استعار في نفسه «النّاس» للمنايا، ثمّ حذف المشبه به، ودلّ عليه بذكر بعض خواصّه وهو «الأفواه» التي أثبتها للمشبّه على سبيل الاستعارة المكنية. وإثباتُ لازم المشبه به «الأفواه» للمشبه «المنايا» استعارةٌ تخييلية. وقوله «نواجذ» ترشيحٌ لهذه الاستعارة؛ أي تقويةٌ لادّعاء الاتّحاد بين الطرفين.

٤ـ الاستعارة المكنية المجرّدة كقولكَ: «نَطَقتِ الحالُ الواضحةُ بِكَذا». شُبّهت الحالُ بإنسان، وبعد التّناسي والادّعاء استعرْتَ في نفسك الإنسانَ للحال، ثم حذفْتَه ودلَلْتَ عليه بذِكْر شيءٍ من خواصّه «النطق». وإثباتُ النّطْق للحال استعارةٌ تخييلية. ووصْفُ الحال بالوضوح «تجريد»؛ لأنه من خواصّ المستعار له.

٥ـ الاستعارة المكنيّة المطلقة، كقول زُهَير ينفّر من الحرب:

فتُغْلِلْ لكُمْ ما لا تُغِلُّ لِأَهْلِها قُرًى بالعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ

شبّه زهيرُ الحرْبَ بالمَزْرعة بجامع الإنتاج في كلّ، ثم استعار في نفسه لفظَ المشبه به «المزرعة» للمشبه «الحَرْب» ثم حذَفه ودلّ عليه بذِكْر بعضٍ من خواصّه وهو «تُغْلِل»، فإنه من خواصّ المزرعة، على سبيل الاستعارة المكنية.

وإثباتُ «الإغلال» للحَرْب استعارةٌ تخييليّة، وهو قرينة هذه الاستعارة طبعًا. والاستعارةُ مُطْلقةٌ لعدم ذِكْر ملائم لأيّ من الطرفين.

محسِّنات الاستعارة:

وضع البلاغيون شروطًا لا غنى عنها لتحظى الاستعارة بالطّلاوة والقبول. وهي:

١ـ إحرازُ شروط حُسْن التشبيه، ومن ذلك:

أـ وفاء التشبيه بالغرض المُراد منه، كقولك تحسّن صورةَ الشَّيْب عند صديق: «رأيتُ بياضَ البازِيّ»، وكقولِكَ تقبّح صورةَ سَواد الشعْر عند آخر: «رأيتُ سَوادَ الغُراب». فالتّشبيه في الاستعارتين تحقّق الغرضُ المرادُ منه؛ فبياضُ البازيّ شيءٌ مُستحسَنٌ في أذواق الناس، وسَوادُ الغُراب شيء مُستقبَح، واختيارُ كلّ منهما مشبهًا به يفي بالغرض. وقد حسُنت الاستعارةُ في الموضعين لتحقيق تشبيهِها الغرضَ المنشود.

ب ـ غرابة وجه الشّبه وطرافته، كقولكَ في الشّمس: «رأيتُ مرآةً في كفّ أشلّ». ومصدرُ حُسْنِ الاستعارة هنا كَوْنُ وجْهِ الشّبه بين الشمس والمِرآة في كفّ الأشلّ غريبًا طريفًا.

جـ ـ قوّة التّشابه بين الطّرفين إلى حدّ يخيّل الاتّحادَ بينهما، كقولكَ: «وجذتُ الموتَ في لِقاء فلانٍ»، أي شِدّةً بالغةً كالموت في الصّعوبة. وكقولكَ: «في قلبه ظُلْمةٌ»، أي شُبْهَةٌ كالظّلمة في السواد. وكلّما قوي التشابهُ بين الطّرفين حسّن لك الاستعارة.

٢ـ التّباعد عن الحقيقة باستخدام التّرشيح، كقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾. وكقول أهلِ المدينة في المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام: «طلَع البَدْرُ علينا». ففي الآية الكريمة باعدتْ معاني الرّبح والتّجارة المشبّهَ وهو «اختاروا» عن الحقيقة، فحسّن ذلك الاستعارةَ.

وفي قول الأنصار باعد الفِعْلُ «طلَع» المشبَّهَ، وهو المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام، عن الحقيقة وحسّن الاستعارةَ، فكأنّ المصطفى عليه الصّلاة والسّلام بَدْرٌ حقيقيٌ يطلُع ويُضيء ويُنير وليس بشرًا رسولاً، وأين البدرُ منه؟!

٣ـ تجنّب ذكْر ما يدلّ على التّشبيه، كقولكَ في فتاةٍ حسناء: «رأيتُ البدرَ في الإيوان». فليس في كلامك ما يومىء إلى المشبه.

٤ـ سهولة تحصيل وجه الشّبه ليتيسّر انتقالُ الذّهن من المستعار منه إلى المستعار له. فلا يحسُنُ أن تقولَ: «رأيتُ نَخْلةً» تريد حَبْلاً بجامع الطّول؛ لخفاء وجه الشّبه، في حين يحسُنُ قولُك: «رأيتُ نخلةً في بيتِ الجيران»، تريد رجلاً طويلاً، لِتأتّي إدراك وجه الشبه.

أسئلة وإجاباتها حول الاستعارة وأنواعها وقرينتها:

أولًا: أَجْرِ الاستعارةَ، وبيّن نوعَها وقرينتَها فيما يأتي:

١ ـ عضّنا الدّهر بِنَابِهْ ليت ما حلّ بِنَا بِهْ

٢ ـ قال سبحانه: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٣ ـ تقول لرجلٍ عَيٍّ لا يُحْسِن الخَطابة: «يا قسّ بن سَاعِدة».

٤ ـ قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

٥ ـ نثرتَهُمُ فوقَ الأُحَيْدِبِ نَثْرةً كمَا نُثِرتْ فوقَ العَروسِ الدَّراهِمُ

٦ ـ قال سبحانه: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

٧ ـ لَسْنا وإنْ أَحْسابُنا كَرُمَتْ يومًا على الأَحْسابِ نتَّكِلُ

٨ ـ قال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾.

٩ ـ قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

١٠ ـ أَتَتْهُ الخِلافةُ مُنقادةً إليهِ تجرّرُ أذيالَها

١١ ـ مَنْ كان مَرْعى عَزْمِهِ وهُمومِهِ روضَ الأماني لم يَزَلْ مهزولا

١٢ ـ بكَتْ لؤلؤًا رَطْبًا ففاضَتْ مدامعي عَقيقًا فصارَ الكُلّ في نَحْرِها عِقدا

ـ الإجابات:

١ ـ في قوله «عضّنا» استعارةٌ تصريحية تبعية مرشّحة؛ حيث شبّه إيلامَ الدهر وعنَتَه وما يواجه الإنسانَ فيه من المصائب بالعَضّ، بجامع «شدّة التأثير في كلّ»، وبعد تناسي التّشبيه وادّعاء أنّ المشبّه فَرْدٌ من أفراد المشبه به استُعير اللّفظ الدّال على المشبه به «العضّ» للمشبه، ثم اشتُقّ من «العضّ» بمعنى الإيلام الفعلُ «عضّ» بمعنى آلم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينةُ لفظ «الدّهر»؛ لاستحالة صدور العضّ عنه، ولفظُ النّاب ترشيح. ويَصِحّ أن تقولَ إنّ في «عضّنا»

استعارةً مكنية أصلية مرشّحة؛ حيث شُبّه الدّهر بحيوان مفترس بجامع «الأذى في كلّ»، ثم استُعير الحيوانُ للدّهر، ثمّ حُذِف ودُلّ عليه بلازمه وهو «العضّ». والقرينةُ إثبات العضّ للدهر، و «الناب» ترشيح.

٢ـ نُزّل التّضادّ بين الهِدايةِ التي هي الدِّلالةُ برِفْق والدّفع العنيف منزلةَ التّناسب، ثمّ نُزّل الدفعُ العنيفُ إلى جهنّم منزلةَ الهِداية إلى الخير على سبيل التهكّم، ثم شُبّه الدّفع العنيف بالهداية بجامع ما يترتّب على كلّ من النفع، وإن كان هذا النفع ادّعائيًا في المشبه، ثم استُعيرت الهدايةُ للدّفع العنيف، واشتُقّ منها الفعل «اهدوهم» بمعنى ادفعوهم بعُنْف على سبيل الاستعارة التّبعيّة التهكّميّة، والقرينة هي المجرور بـ «إلى».

٣ـ نُزّل التّضادُ بين «العِيّ» و «الفَصاحة» منزلةَ التّناسب، ثمّ نُزّل الشخص «العَيّ» منزلةَ الفصيح تهكّمًا أو تظرّفًا، ثم شُبّه الرّجل العَيّ بِقُسّ بجامع الفصاحة في كلّ، وهي ادّعائية في المشبه، ثم استُعير لفظُ المشبه به للمشبّه على سبيل الاستعارة التّصريحية الأصليّة التهكُّميّة. والقرينةُ حاليةٌ لأنّ الشخصَ الذي تناديه غير قُسّ.

٤ـ في قوله سبحانه: ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ﴾ استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، حيث شبّه الضّلالَ الّذي زعموا أنه فيه بالظّرف الحقيقيّ بجامع التمكّن في كلّ، فسرى هذا التّشبيهُ إلى تشبيه تلبّس الضّلال به بتلبّس الظّرف بالمظروف الحقيقيَّين بجامع مطلق تلبّس شيء بشيء، ثم استُعيرت «في» الموضوعةُ لتلبّس الظّرْف بالمظروف الحقيقيين لتلبّس الضّلال به، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة، والقرينةُ هي المجرور بـ «في».

٥ـ في قوله «نثرتَهم» استعارة تصريحية تبعية، حيث شُبّه إسْقاطُ الأعداء وتبديدُ جثثهم فوق الجَبَل بنَثْر الدّراهم على العَروس بجامع «البَعْثَرة في كلّ»، ثم أستُعير النّثرُ للإسْقاط المبعثَر، واشتُقّ من النّثر الفِعْل «نثَر» بمعنى أَسْقط على نحْوٍ مبعثَرٍ على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية الداخلية. والقرينةُ المفعولُ الضّمير «هم» في قوله: «نثرتهم».

٦ـ في قوله «اشتعل» استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، حيث شُبّه ظهور الشّيب وانتشارُه باشتعال النّار بجامع البياض في كلّ، ثم استُعير الاشتعالُ للظّهور البَيِّن، واشتُقّ من الاشتعال الفِعْل «اشتعل» بمعنى ظهر على نحو واضح، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينةُ الفاعل «الرأس».

٧ـ في قوله «على الأَخساب» استعارةٌ تصريحية تبعية، حيث شبّهت الأحسابُ بمُستعلَى حقيقيّ بجامع الاستقرار في كلّ، فسرى هذا التّشبيهُ إلى تشبيه ارتباطِهم بالأحسابِ بارتباطِ المستعلَى بالمستعلي الحقيقيين بجامع مطْلقِ استعلاء شيء لشيءٍ، ثم استُعيرت «على» الموضوعةُ لاعتلاء المستعلي المستعلىٰ الحقيقيين لارتباطهم بالأحساب، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة. والقرينة هي المجرور بـ «على».

٨ـ في قوله «نَقْذِف» استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، حيث شُبّه ردُّ الباطل بالحُجج الدّامغة بالقَذْف بشيء صُلْب بجامع «الإبعاد» في كلّ، ثم استُعير «القَذْف» لـ «الردّ» ثمّ اشتُقّ منه «نَقْذِف» بمعنى «نَرُدّ» على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة. والقرينة المجرور بـ «الباء».

ويصِحّ أن يُقال أيضًا إنّ في «الحقّ» استعارة مكنية؛ حيث شبّه الحقّ بقطعة من حديد أو نحوه بجامع شدّة التّأثير في كلّ، ثم استُعير اللفْظُ الدالّ على المشبه به «قطعة الحديد أو نحوه» للمشبه، ثمّ حُذِف ودُلّ عليه بلازمه، وهو القذف، على سبيل الاستعارة المكنية. والقرينةُ إضافةُ القَذْف ونِسْبتُه إلى الحقّ. وهي استعارة تخييليّة.

٩ـ في قوله سبحانه: ﴿ٱلْعَمَىٰ﴾ استعارةٌ تصريحية أصليّة، حيث شبّه الضّلال بـ «العَمى» بجامع عدم الاهتداء إلى الخير في كلّ، ثمّ استُعير «العمى» لـ «الضّلال» على سبيل الاستعارة التّصريحة الأصليّة.

١٠ ـ في قوله «أتتْهُ الخِلافةُ» استعارةٌ مكنيةٌ أصليّة مرشّحة؛ حيث شبّه الخِلافةَ بغادةٍ حسْناء بجامع الجَمال في كلّ، ثم استعار لفظ

المشبه به للمشبه، ثم حذَفه ودلّ عليه بلازمه وهو «الإتْيان» على سبيل الاستعارة المكنية الأصلية. والقرينةُ إثباتُ الإتيان للخلافة، وهو استعارةٌ تخييليّة. وقوله «منقادةً» و «تجرّر أذيالها» ترشيح لهذه الاستعارة.

١١ـ في كلٍّ من «عَزْمِه» و «همومه» استعارة مكنية أصلية مرشّحة، حيث شبه كلاًّ منهما بالماشية بجامع الانقياد في كلّ، ثم استعار اللّفظ الدالّ عِلى المشبه به للمشبه، ثم حذَفه ودلّ بشيء من لوازمه وهو «مَرْعى» على سبيل الاستعارة المكنية الأصليّة. والقرينةُ إثبات «المرعى» للعَزْم والهموم، وهو استعارة تخييليّة.

وقوله «رَوْضُ الأماني» و «مهزولاً» ترشيحٌ للاستعارة؛ إذ هما من توابع المشبه به «الماشية».

١٢ـ في قوله «لؤلؤًا» استعارةٌ تصريحيّة أصليّة مرشّحة، حيث شبّه دمعَ محبوبته باللؤلؤ بجامع البياض في كلّ، ثم استُعير اللّؤلؤ للدّمع على سبيل الاستعارة التصريحيّة الأصليّة. والقرينةُ قوله «بَكَتْ». وقوله «في نَحْرِها عِقْدا» ترشيحٌ لهذه الاستعارة؛ لأنه من توابع المشبه به.

ثانيًا: حدّد في الاستعارات الآتية الجامعَ بين الطّرفين، ثمّ حوّل كلاًّ منها إلى تشبيه:

١ ـ قال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.

٢ ـ قال سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

٣ ـ استخفّه رُمّانُ الصُّدور.

٤ ـ زُرْتُ أَيْكَ الحبيب.

٥ ـ جاءنا ابنُ النّيِّرين.

٦ ـ اغترفْنا العِلْمَ من بَحْرٍ فيّاض.

٧ ـ رمَتْني بِسَهْم ريشُهُ الكُحْلُ.

٨ ـ رأيتُ قرآنًا يمشي على الأرض.
٩ ـ زرْتُ حاتِمًا (تريد بخيلاً).
١٠ ـ مَسَحتِ اللّؤلؤ عن مآقيها.

ـ الإجابة:

١ـ النَّجْدُ ـ لغةً ـ الطّريقُ الواضح المرتفع البيّن لكلّ أحد. والنَّجْدانِ هنا طريقا الخير والشرّ. استعار النَّجْدين لِطَريقَي الخير والشرّ في الحياة، والجامع الوضوح والانكشاف. تقول في التشبيه: وهدَيْناه طريقَ الخَيْرِ والشرّ واضِحَين كالنَّجْدين.

٢ ـ استعار الصّراطَ المستقيم ـ أي الطَريق الذي لا عوَج فيه ـ للدّين الحنيف، بجامع الوصول إلى الغاية الشريفة دون تعثّر. وتقول في التّشبيه: اهْدنا الدّين القويم الواضحَ كالصّراط المستقيم.

٣ ـ المرادُ برُمّان الصّدور هنا «النُّهود». استعار الرمّان للنهود بجامع الشّكل والصّورة. تقول في التشبيه: استخفّه نهودٌ كالرمّان.

٤ ـ الأيْكُ هو الشّجر الملتفُّ الذي تأوي إليه الأطيار، شبّه به بيتَ الحبيب، والجامعُ هو الإيواء في كلّ. والتشبيهُ فيهما أن تقول: زرْتُ بيتَ الحبيب الذي هو كالأيْكِ.

٥ ـ الجامع بين الطّرفين هو «الرِّفْعةُ والإشراق». والتّشبيهُ فيهما أن يقال: جاءنا ابنُ الأبَوَيْن الكريمين الشبيهين بالنيِّرين.

٦ ـ الجامع بين الطّرفين «الغزارة والعُمْق». والتّشبيه فيهما أن يُقال: اغترفْنا العِلْمَ من عالمٍ غزير العِلْم كبَحْرٍ فيّاضٍ.

٧ ـ الجامع بين الطّرفين «شدّة التّأثير والفتْك». والتّشبيهُ فيهما أن يقال: رَمَتْني بطَرْفٍ كالسَّهْمِ.

٨ ـ الجامع بين الطّرفين «حِفْظ كلامِ الله سبحانه». وطريق التشبيه

فيهما أن يقال: رأيتُ إنسانًا حافظًا كتابَ الله كأنّه القرآن. وقد وُصِف أصحابُ المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام بأنّ كلًا منهم كان قرآنًا يمشي على الأرض.

٩ـ الجامع بين الطّرفين الكرَمُ على سبيل التهكّم. وطريق التّشبيه فيهما أن يقال: زُرْتُ رجلًا كريمًا كحاتم.

١٠ـ الجامع بين الطّرفين: «البياضُ والشّكل». وطريق التّشبيه فيهما أن يقال: «مسَحَتْ عن عينيها دمعًا كاللؤلؤ.

المجاز المرسل

عرفتَ قبلُ أنّ المجاز مفردٌ ومركّب، وأنّ المفرد تبعًا للعلاقة ضَرْبانِ: الاستعارة، والمجاز المُرْسَل. وقد تحدّثنا عن الاستعارةْ فيما مضى، وههنا مجالُ القول في المجاز المرسل، قَسِيم الاستعارة.

يُعرّف البلاغيون **المجازَ المرسل** بأنه:

الكلمةُ المستعملةُ في غيرِ ما وضِعَتْ له لِعلاقةِ غير المُشابهة، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الوَضْعيّ.

وإليكَ صُوَرًا لهذا المجاز توضح لك السبيلَ:

١ـ قال سبحانه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾. معلومٌ أنّ إيتاء الأموال في مثل هذه الحال لا يكون إلّا بعد البلوغ، ولا يُتَم بعد البلوغ. ومعنى هذا أنّ كلمة «اليتامى» في هذا السّياق تعني «البالغين» الّذين يجوز إعطاؤُهم أموالَهم للتصرّف بها. وبيانُ الأمر أنهم كانوا فيما مضى «يتامى»، أمّا وقتَ الخطاب فإنهم «بالغون» تجاوزوا مرحلةَ اليُتْم. وهكذا فالذّكرُ الحكيم سمّاهم بوَصفٍ كان لهم؛ أي إنّ استعمال كلمة «اليتيم» ـ وهو: مَنْ مات أبوه صغيرًا ـ في «البالغ» كما حدث هنا، استعمالٌ مجازيّ، سوّغه علاقةٌ بين المعنى الحقيقي لـ «اليتيم» والمعنى المجازيّ؛ هي أنّ البالغ كان فيما مضى يتيمًا. والّذي دلّنا على أنّ المرادَ بـ «اليتيم» هنا «البالغ» هو الفعل «آتوا»؛ ذلك أنه أمرٌ بِدَفْع الأموال إليهم، وذلك لا يكون إلّا وهم بالغون. ويسمّي البلاغيون مثلَ كلمة «اليتامى» هنا، الّتي استُعملت في غير ما وضعَتْ له لِعلاقة غير

المشابهة، مَجازًا مُرْسَلاً. والعلاقةُ في هذا المثال هي «اعتبار ما كانوا عليه»؛ أي إنّ الذي سوّغ استعمالَ «اليتامى» في «البالغين» هو ما كانوا عليه قبلُ من اليُتمِ. والقرينةُ الّتي منعت إرادة المعنى الوَضعيّ هي الفعل «آتوا».

٢ـ قال سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾. فإنّ شيئًا من تأمّلِ الآية الكريمة يُوصِلُك إلى إدراك أنّ كلمة «رزقًا» مستعملةٌ هنا في غير معناها الوضعيّ، إذ هي مستعملةٌ بمعنى «غيثًا» لأنّ ما ينزل من السّماء هو «الغيثُ» وليس الرزقَ. ومسوّغ هذا الاستعمال علاقةٌ بين الرزق والغيث، هي كون الرّزق مسبّبًا عن الغيث. والقرينةُ التي صرفت الذهنَ عن المعنى الحقيقيّ للرّزق ودلّت على أنّ معناه هنا «الغيث» هي الفعل «ينزّل»؛ إذ المعهودُ تنزيلُ «الغيث» لا الرّزق.

وعلى الجُملةِ فإنّ البلاغيين يقولون في مثل هذا السّياق إنّ كلمة «رزقًا» مجازٌ مرْسَل علاقته المُسبّبة، والقرينةُ هي الفعل «ينزّل».

٣ـ قال الشاعر:

مـا كُـلّ مـا يـتـمـنّـى الـمـرءُ يُـدرِكُـهُ   تجري الرّياحُ بِما لا تشتهي السّفُنُ

تأمّلُ عَجُز البيت يجعلك تلْحَظُ أنّ كلمة «السّفن» مستعملةٌ في غير ما وُضِعَتْ له؛ لأنّ الاشتهاء لا يُسْنَد إلى السّفن إلّا إذا كان للسّفن معنى آخر. والأمر كذلك؛ إذ تعني السّفنُ هنا «ركّاب السفن». ومسوّغ هذا الاستعمال علاقةٌ بين الدّلالة الوضعية للسّفن ودِلالتِها السّياقية هنا؛ وهي كونُ السّفن محلاً لهؤلاء الرّكّاب. وجليّ أنّ هذه العلاقة ليست هي المشابهة، وإذًا لكان المجازُ هنا استعارة. وقرينة المجاز هنا قوله «تشتهي».

وهكذا يُقال إنّ «السّفن» مجازٌ مرْسَل علاقتُه المحَلّية، إذ أُطْلِق

اسمُ المَحَلّ «السّفن» وأُريد الحَالّ «الرّكاب»، والقرينةُ إسنادُ الاشتهاء إليها سلبًا.

علاقاتُ المجاز المرسل:

تعقّب البيانيون التجوّزاتِ اللّغويّةَ في نطاق ما يُسمّى «المجازَ المرسل»، وتبينوا أنّ علاقات هذا الفنّ البياني مرْسَلةٌ غيرُ مقيّدة بعلاقة واحدة، ولكنّهم وقفوا عند أشهرها وأكثرها ورودًا في أساليب العرب. ومن ذلك:

١ ـ **السّبَبية**: وهي كونُ المعنى الوضعيّ (الأوّل) للفظ المذكور سببًا للمعنى المجازيّ الّذي يأتي عليه في السّياق. وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الشيء باسم سببه، كقولِكَ «رَعَتِ المَاشِيَةُ الغيثَ» أي النبات. و«الغيثُ» مجاز مرسلٌ علاقته السّببيّة؛ إذ إن المعنى الوضعيّ للغيث «المطر» سببٌ للمعنى المجازيّ «النّبات». وقرينةُ المجاز قولُه «رَعَت»؛ لأنّ الغيث لا يُرعى.

ومنه في الذّكر الحكيم قولُه سبحانه: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾. «اليَدُ» هنا مجازٌ مرسَلٌ بمعنى «القُدْرة» علاقتُه السّببيّة؛ وذلك لأن أكثر ما يظهر سلطانُ القدرة في اليد. والقرينةُ قوله سبحانه: ﴿فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾، فلا معنى أن تكون اليَدُ بمعناها الحقيقيّ فوق أيدٍ أخرى.

ومن هذا القبيل قولُ الشاعر:

لــهُ أَيَــادٍ عــلــيَّ سَــابِــغَــةٌ أَعــدُّ مِــنْــهــا ولا أُعَــدِّدهــا

«أيادٍ» أي أفضال. وهي مجاز مرسلٌ علاقته السّببيّة، فقد سمّى الشيءَ باسْم سببه «اليد». والقرينةُ قولُه «عليّ»، ووَصْفُها بـ «السّبوغ».

٢ ـ **المُسَبِّبية**: وهي كونُ المعنى الوَضْعيّ للفْظ المذكور مسبّبًا عن المعنى المجازيّ، وهذه العلاقة تسوّغ تسميةَ الشيء باسم مُسَبِّبه كقوله

سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾. ومعنى «نارًا» هنا «مالاً» تتسبّب عنه النار فالعلاقة المسبَّبيّةُ، والقرينةُ قولُه «يأكلون». وكقوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾؛ إذ معنى «رزقًا» هنا غيثًا يتسبّب عنه الرّزق. وكقول الشاعر:

شَرِبْتُ الإثـمَ حتّى ضلّ عَقْلي ... كـذاكَ الإثـمُ تـذْهَبُ بـالـعُـقُـولِ

فـ «الإثمُ» هنا الخَمْرُ الّتي يتسبّب عنها الإثم. فالقرينة هي المُسَّبَّبيّةِ، والعلاقةُ قولُه «شرِبْتُ»؛ لأنّ الإثـمَ لا يُشْرَب، بل الّذي يُشْرَبُ هو الخمر الّتي يتسبَّبُ عنها الإثم.

٣ ـ **اللّازِميّة**: وهي كونُ المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور لازمًا للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسمية الشيء باسم لازمه، كقولك: «طلعَ الضَّوْءُ»، أي الشّمسُ. فالضّوء هنا مجازٌ مرْسَل علاقتُه اللّازمية؛ لأنّه لازمٌ للشّمس، إذ يوجد عند وجودها. ومعنى هذا أنّك سمَّيْتَ الشّمسَ باسم لازمها «الضّوء». والقرينةُ قولُك «طلَع». وكقولك: «نَظَرْتُ إلى الحرارة»، أي النار. ففي «الحرارة» مجازٌ مرسلٌ علاقته اللّازميّة؛ حيث توجد الحرارةُ عند وجود النّار. والقرينةُ قولك «نظرْتُ»؛ لأنّه لا يُنظر إلى الحرارة.

٤ ـ **المَلْزومية**: وهي كون المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور ملزومًا للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الشيء باسم ملزومه، كقولكَ: «ملأتِ الشّمْسُ الغُرْفَةَ»، أي الضّوء. ففي «الشّمس» هنا مجازٌ مرْسَلٌ علاقتُه المَلْزوميّة، حيث سمّي اللّازم «الضّوء» باسم ملزومِهِ «الشّمس». والقرينةُ قوله «ملأت». وكقولك: «دخلَتْ علينا الشّمسُ من النافذة»، أي ضوءُ الشمس.

٥ ـ **الكُلّيّة**: وهي كونُ المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور كُلًّا

للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الجزء باسم كُلّه، كقوله سبحانه: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾، أي أنامِلَهم. ففي «أصابعهم» مجازٌ مرسَلٌ علاقته الكلّية؛ حيث سُمّي الجزء «الأنامل» باسم كلّه «الأصابع». والقرينةُ حاليّةٌ هي استحالةُ إدخال الإِصْبَع كلّها في الأُذُن. وكقولك: «شرِبْتُ ماءَ الفُرات»، أي شيئًا من ماء الفرات. ففي «ماء» هنا مجازٌ مرسَل علاقته الكلّية، حيث سُمّي الجزءُ «ما يشْرَبُه الإنسانُ» باسم كلّه «ماء الفرات». والقرينة هي «شَرِبْتُ».

٦ـ **الجُزئية**: وهي كونُ المعنى الوَضعيّ للّفظ المذكور جزءًا للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقة سوّغت تسمية «الكلّ» باسم جُزئه، كقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي عَبْدٍ مؤمن. ففي «رقبة» مجازٌ مرسَل علاقتُه الجُزئية؛ حيث سُمّي الكلُّ «العبدُ المؤمن» باسم جزئه «الرّقبة». والقرينةُ قوله: «فتحرير»؛ لأنّ التحرير يتناول الإنسان كلّه. وكقولِك «نشَرَ الحاكمُ عيونَه في المدينةِ»، أي جواسيسه. ففي «عيونه» مجازٌ مرسل علاقته الجزئية حيث سُمّي «الكلّ» أي الجاسوس، باسْمِ جُزئه «العَيْن». والقرينةُ قوله «نشر»؛ لاستحالة نَشْر العيون وخذَها.

٧ـ **الحَالّية**: وهي كونُ المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور حالًّا في المعنى المجازيّ، وهذه العلاقة تسوّغ تسميةَ المَحَلّ باسم الحَالّ فيه، كقوله سبحانه: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. أي الجنّة التي تحلّ فيها الرّحمة. فلفظ «رَحْمة» مجازٌ مرْسَل علاقتُه الحالّية؛ حيث سمّي المَحَلُّ «الجنّة» باسْم الحالّ فيه «الرّحمة». والقرينة قوله سبحانه: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. وكقوله سبحانه: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: لباسكم. ففي «زينتكم» مجازٌ مرْسَل علاقته الحالّية؛ حيث سُمّي المحلّ «اللّباس» باسم الحالّ فيه «الزّينة». والقرينةُ قوله «خُذوا».

٨ ـ **المَحَلِّية**: وهي كونُ المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور محَلاً للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقة تسوّغ تسميةَ الحالّ باسم محلّه، كقوله سبحانه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي أهْلَ نادِيهِ. ونادي القوم في الوَضْع اللغويّ مجتمعُهم ومنتداهم الذي يجتمعون فيه. فلفظُ «ناديه» مجازٌ مرسل علاقته المحلِّية؛ حيث سمِّي الحالُّ «أهل النّادي» باسم المَحلّ «النّادي». والقرينةُ قوله «فلْيَدْعُ»؛ لأنّ النادي بمعناه الوضْعيّ لا يُنادى. وكقوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ أي ألسنتهم. فلفظ أفواههم مجازٌ مرسل علاقته المحلّية، حيث سُمّي الحالُّ «اللّسان» باسْم محلّه «الفم»، والقرينةُ «يقولون»؛ لأنّ القول لا يكون إلّا باللّسان.

٩ ـ **الآلِيّة**: وهي كونُ المعنى الوَضعيّ للّفظ المذكورة آلةً للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الأثرَ النّاتج باسم آلته، كقوله سبحانه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ﴾، أي اجعَلْ لي **ذِكْرًا حسَنًا**. ففي «لِسان» مجازٌ مرسَل علاقتُه الآلية؛ حيث سُمّي الأثرُ الناتج «الذّكر الحسَن» باسم آلته «اللّسان»، فاللّسانُ آلةُ الذّكرِ الحسَن. والقرينة قوله «في الآخرين»؛ إذ اللّسانُ الحقيقيّ لا يبقى فيما يأتي من الأمم. وكقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: بِلُغتك.

١٩ ـ **اعتبار ما كان**، وهي كونُ المعنى الوضعيّ للفّظ المذكور صورةً أو حالةً كان عليها المعنى المجازيّ فيما مضى، وهذه العلاقة تسوغ تسميةَ الشيء باسم ما كان عليه، كقوله سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، أي البالغين فلفظُ «اليتامى» في هذا السّياق مجازٌ مرْسَلٌ علاقته اعتبارُ ما كان؛ حيث سُميّ «البالغ» باسْم ما كان عليه «اليتيم»، والقرينةُ قولُه «آتوا» كما أسلفنا. وكقولكَ: «لَبِسْنا صُوفًا»، أي لباسًا من صُوف. فلفظ «صوفًا» مجازٌ مرْسَل علاقته اعتبارُ ما كان؛ حيث سمِّي الشيء «اللّباس» باسْم ما كان عليه «الصّوف»، والقرينةُ «لَبِسْنا»؛ لاستحالة لُبس الصّوف.

١١ ـ **اعتبار ما يكون**، وهي كون المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور حالةً سيكون عليها المعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الشيء باسْم ما سيكون عليه في المستقبل، كقوله سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، أي عِنَبًا سيكون خَمْرًا. فلفظ «خمْرًا» هنا مجازٌ مرْسَلٌ علاقته اعتبارُ ما يكون؛ حيث سُمّي «العنب» باسم ما سيكون عليه «الخمر». وقرينةُ المجاز «أَعْصِر»؛ إذا الخَمْرُ عصير، وهو لا يُعْصَر. وكقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، أي وليدًا سيكون رجلاً فاجرًا كفّارًا. فلفظُ «فاجرًا» مجازٌ مرْسَل علاقتُه اعتبارُ ما سيكون؛ حيث سُمّي «الوليدُ» ساعةَ الوِلادة باسْم ما يكون عليه «الرّجل الفاجر». والقرينةُ «ولا يلِدوا»؛ لأن الوليد لا يكون منذ ولادته فاجرًا كفّارًا.

١٢ ـ **المُجاورة**: وهي كونُ المعنى الوضْعيّ للّفظ المذكور مجاورًا للمعنى المجازيّ، وهذه العلاقةُ تسوّغ تسميةَ الشيء باسم مجاوِرِهِ، كقولكَ: «لمْ يبقَ فِي الرّاويةِ ماءٌ»، أي في القِرْبة. الرّاوية في الوضْعِ اللّغويّ هي الدّابة التي يُستقى عليها. ولفظُ «الرّاويةُ» هنا مجاز مرسل علاقتُه المجاورة؛ حيث سُمّيت «القِرْبة» باسْم مجاوِرِها «الدّابة»؛ لمجاورة القِربة للدّابة عند الحَمْل. والقرينةُ «في»؛ لأنّ الدّابة لا تكون وعاءً للماء. ومثلُ ذلك قولُ الشاعر:

فشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأصمِّ ثِيابَهُ ليسَ الكريمُ على القَنا بِمُحرَّمِ

بمعنى شَكَكْتُ جِسْمَه. فلفظُ «ثيابه» مجازٌ مرْسَل علاقتُه المجاورة. حيث سُمّي الجسمُ باسم مجاوِرِه «الثّياب». والقرينةُ «شككتُ»؛ لأنّ الشكّ الذي معناه الطّعْنُ لا يكون للثّياب بل للأجسام.

١٣ ـ **العُموم**: وهي كَونُ المعنى الوضعيّ للّفظ المذكور عامًّا يُراد منه معنى خاصّ، وهذه العلاقة تسوّغ تسميةَ الخاصّ باسم العامّ،

كما في قوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ أي يحسدون محمّدًا عليه الصّلاةُ والسّلام. فلفظُ «النّاس» مجازٌ مرسَل علاقتُه العُموم، حيث سُمّي الخاصّ «محمّد» عليه الصّلاةُ والسّلام باسم العامّ «الناس». والقرينة حالية. وكقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، أي قال لهم نُعَيْمُ بنُ مسعود الأَشْجَعيّ؛ فلفظُ «الناس» مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه العموم، حيث سمّي الخاصُّ «نعيم بن مسعود» باسم العامّ «النّاس»، والقرينة حالية.

١٤ ـ **الخصوص**: وهي كونُ المعنى الوَضْعيّ للّفظ المذكور خاصًا يُراد منه عامّ، كإطلاق اسْم الشّخص: «تميم، تغلب، ربيعة... إلخ» على القبيلة قبل أن يغْلِبَ عليها ويشيع.

١٥ ـ **التعلُّق الاشتقاقيّ**، وهي إقامةُ صِيغةٍ مقامَ أخرى شرْطَ انتمائهما إلى مادّةٍ واحدةٍ. ومن أنواعه:

ـ إطلاقُ المصدر على اسم المفعول، كقوله سبحانه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، أيْ مصنوعَهُ. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾، أيْ مَعْلُومه. فكلٌّ من «صُنْع» و«عِلْم» مجازٌ مرسَل علاقته التعلّقُ الاشتقاقيّ بين المصدر واسم المفعول.

ـ إطلاقُ اسْم الفاعل على المصدر، كقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي تكذيبٌ.

ـ إطلاقُ اسْم الفاعل على اسم المفعول، كقوله سبحانه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي لا مَعْصومَ، والله أعلمُ بمراده.

ـ إطلاقُ اسْم المفعول على اسم الفاعل، كقوله سبحانه: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾، أي ساترًا.

وما نحْسَبُ أننا في حاجةٍ إلى التّنبيه عليه هنا هو أنّ علاقات المجاز المرسل كثيرةٌ كثرة بالغة، ولم نُثْبِت منها فيما تقدّم سوى

المتداوَل في الاستعمال العربيّ، ولا يعِزّ على الفَطِن أن يتبيّين أنواعًا أُخَر لهذه العلاقات.

ولن يغيب عنكَ بعد الآن - إن شاء الله - أنّ المجاز المُرْسَل هو:

أن تجوزَ بالكلمة موضعَها في أصْل الوضع وتنقلَها عن دِلالتها الوضعيّة إلى دِلالةٍ أخرى مجازية لِصِلةٍ أو مُلابَسةٍ بين المعنى الذي نقلْتَها إليه والمعنى الذي نقلْتَها عنه غيرِ المشابهة، مع قرينةٍ مانعة من إرادة المعنى الوضْعيّ. وأن الإرسالَ هو الإطْلاق وعدَمُ التقييد، وسمّي ما نحن فيه «مجازًا مُرْسلًا» لإطلاقِ علاقاته وتعدّدها.

أسئلة وإجاباتها حول المجاز المرسل (١):

- حدِّد المجازَ المُرْسَلَ، وأوضح العلاقةَ الّتي قام عليها فيما يأتي:

١ - إنّ الـعَـدوَّ وإنْ تـقـادمَ عَـهْـدُهُ فـالحِقْدُ باقٍ في الصّدورِ مُغيَّبُ
٢ - وكنْتَ إذا كفٌّ أتتْكَ عدِيمة تُرجِّي نَوالاً مِن سَحابِكَ بُلَّتِ
٣ - وإنْ حلَفَتْ لا ينقضُ النّأيُ عَهْدَها فليسَ لِمَخْضوبِ البَنان يمينُ
٤ - بلادي، وإن جارتْ عَلَيَّ، عزيزةٌ وقَومي، وإنْ ضَنُّوا عَلَيَّ، كِرامُ
٥ - قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.
٦ - فَهِمْتُ الكتابَ أبَرَّ الكُتُبْ فسَمْعًا لِأَمْرِ أميرِ العَرَبْ
٧ - قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾.
٨ - يَبيتُ بِمَنْجاةٍ من اللّومِ بَيْتُها إذا ما بيوتٌ بالمَلامةِ حُلَّتِ
٩ - قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.
١٠ - غرَسْتُ الورْدَ في البستانِ.

- الإجابات:

١ - في قوله «الصّدور» مجازٌ مرسلٌ علاقته المحلّية؛ لأنّ الصّدور محَلّ القلوبِ الّتي يستوطِنُها الحِقْدُ، والقرينةُ قولُه: «والحقد باق في الصّدور».

٢ - في قوله «كفّ» مجازٌ مرْسَلٌ علاقتُه الجزئية؛ لأنّ الكفّ جزءُ الشّخص. والقرينة قوله: «أتَتْك»، فإنّ الإتيان لا يتأتّى من الكفّ.

٣ - في قوله «البَنان» مجازٌ مرسلٌ علاقته الجزئية؛ إذ أراد

المرأةَ، والبنانُ جزؤها، والقرينةُ قولُه «يمين»؛ لاستحالةِ إضافة اليمين إلى البَنان. وكذا في قوله «يمين» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه السّببيّة؛ إذ أراد: ليس لها وفاءٌ. واليمينُ سببُ الوفاء. والقرينة حاليّة.

٤ ـ في قوله «بلادي» مجازٌ مرسلٌ علاقته «المحلّية»؛ إذ أراد: أهل بلادي، والقرينةُ قولُه «وإن جارت عليّ» والجَوْرُ لا يصدر عن البلاد.

٥ ـ في قوله «بيمينه» مجازٌ مرسلٌ علاقته «المَحَلّيّة»؛ إذ المرادُ: مَطْوِيّاتٌ بقوّته وقُدْرتِه. والقرينةُ إضافةُ اليمين إلى البارىء سبحانه، وهو مستحيل.

٦ ـ في قوله «الكتاب»، أي المكتوب، مجازٌ مرسلٌ علاقته «المحلّية»؛ إذ المُراد: المعاني الّتي تضمّنها الكتاب. والقرينةُ قولُه «فَهِمْتُ»؛ فما يُفهم هو المعاني، وليس النّقوش. وقد تكون العلاقة «المجاورة»؛ إذ المكتوبُ دالّ على معناه، والدّال والمدلول متجاوران.

٧ ـ في قوله «القتلى» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه «اعتبار ما سيكون»؛ إذ المُراد فيمن سيُقتَلون. والقرينة حالية.

٨ ـ في قوله: «بيتها» مجازٌ مرسلٌ علاقته «المحلّية»؛ إذ المرادُ: شخص هذه المرأة. والقرينة نَفْيُ اللّوم، ولا يُتصوّر نَفْيُ اللّوم لغير الإنسان.

٩ ـ في قوله «أيديهم» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه «الجزئية»؛ إذ المُراد: بما قدّموا هم. والقرينةُ حالية.

١٠ ـ في قوله «الوَرْد» مجازٌ مرسلٌ علاقته «اعتبارُ ما سيكون»؛ إذ المُرادُ: غرَسْتُ بذورَ الورد. والقرينةُ قولُه «غرستُ» فالورد لا يُغرَس.

أسئلة وإجاباتها حول المجاز المرسل(٢):

ـ حدّد المجازَ المرسلَ، وأوضح العلاقةَ التي قام عليها فيما يأتي:

١ ـ قال سبحانه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾.

٢ ـ كذلك يعادي العِلْمَ جَهَلةُ النّاسِ.

٣ ـ قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾.

٤ ـ قامتِ البَلَدُ وقعَدَتْ لهذا النبأ.

٥ ـ قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

٦ ـ مَنْ يركبُ البحرَ لا يخشى الغرق.

٧ ـ كفى بالمَرْءِ عيْبًا أن تَراهُ   لـه وَجْـهٌ ولـيـسَ لَـهُ لِـسـانُ

٨ ـ قرأتُ شِعْرَ العربِ.

٩ ـ شربْنا الزّبيبَ.

١٠ ـ قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦ﴾.

ـ الإجابات:

١ ـ في قوله «أهلكناها» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه «المُسبّبية»؛ إذ المُرادُ: أردنا إهلاكَها، والقرينةُ حالية.

٢ ـ في قوله «العِلم» مجازٌ مرسَل علاقتُه «الحالّية»؛ إذ المُرادُ: أهل العلم. والقرينة قوله: «يعادي».

٣ ـ في قوله «الأنهار» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه «المحلّية»؛ إذ المراد: مِياهُها. والقرينةُ قوله «تجري».

٤ ـ في قوله «البلد» مجازٌ مرسَلٌ علاقته «المحلّية»؛ إذ المرادُ: أهل البلد. والقرينة قوله «قامَتْ وقعدت».

٥ ـ في قوله «قرأت» مجازٌ مرسلٌ علاقته «المسبّبية»؛ إذ المرادُ: أردتُ القراءةَ. فالقراءة مسبَّبة عن الإرادة. والقرينةُ قولُه: «فاستعذ بالله»؛ ذلك أنّ الاستعاذةَ تكون قبل القراءة.

٦ ـ في قوله: «البَحْر» مجازٌ مرسَلٌ علاقته «المحلّية»؛ إذ المرادُ: السّفينة، والقرينة قولُه «يركب».

٧ ـ في قوله «لِسان» مجازٌ مرسَلٌ علاقته «الآلية»؛ إذ المرادُ؛ الفصاحةُ والبيان. واللّسان آلةُ ذلك. والقرينة حاليّة.

٨ ـ في قوله «شِعْر» مجازٌ مرسلٌ علاقتُه «الكلّيّة»؛ إذ المرادُ: شيئًا من شِعْر العرب. والقرين قوله: «قرأتُ»، إذ يستحيل أن تقرأ شعرَ العربِ كلّه.

٩ ـ في قوله «الزّبيب» مجازٌ مرسلٌ علاقته «اعتبار ما كان» إذ المُرادُ: عصيرُه. والقرينةُ قولُه «شربتُ»؛ إذ الزبيبُ بدِلالته الحقيقية لا يُشرب.

١٠ ـ في قوله سبحانه «عِلْمِه» مجاز مرسل علاقته التعلّق الاشتقاقيّ؛ إذ المراد: مَعْلومُهُ.

المجازُ المُرَكَّب

أسلَفْنا أنّ المجازَ ضَرْبانِ: مُفردٌ ومركّب. وقد بسطنا القول في ضربي المجاز المفرد؛ الاستعارة والمجاز المرسل، وههنا مَنْدوحةٌ للحديث عن المجاز المرْكّب.

تعريف المجاز المركّب:

يحدّد علماءُ البيان هذا الضّربَ من المجاز بأنّه:

التركيبُ المستعملُ في غير معناه الوَضْعيّ، لِعلاقةٍ بين المعنى الوضعيّ والمعنى المجازيّ، مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الوضعيّ.

وهو تبعًا للعلاقة نوعان:

١ ـ مجازٌ مركّبٌ علاقتُه المشابهةُ، ويُسمّى «التّمثيل أو الاستعارة التّمثيلية».

٢ ـ مجازٌ مركّب علاقتُه غيرُ المشابهة، ويسمّى «المجاز المركّب المرسل».

وإليكَ توضيحًا للضّربين تكون بعْدَه على بيّنةٍ من الأمر، إن شاء الله.

أولًا ـ الاستعارةُ التّمثيليّة:

وهي ـ كما تقدّم قبل قليل ـ تركيبٌ يستعمِلُه المتكلّمُ في غير

معناه الوَضعيّ لِعلاقة المُشابهة، مع قرينةٍ مانعة من إرادة المعنى الوضعيّ.

ومن صُوَر هذه الاستعارة:

١ ـ قال سبحانه: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾. لهذا الكلام الربّانيّ معنَيانِ: وَضعيّ غيرُ مرادٍ وهو أنّهم أَلقوا الميثاقَ وراء ظهورهم، ومجازيّ مراد، وهو أنّهم أهملوا الميثاقَ ولم يُقيموا له وزنًا. ويُفضي تأمّلُ التركيب إلى أنه مستعملٌ في دِلالته المجازيّة لا الوضعيّة، تدلّ على ذلك قرينةُ أنهم لم يُمسِكوا بالمِيثاق ويُلقوا به وراء ظهورهم حقيقةً. ومؤدّى هذا كلّه أنّ التركيبَ استعارةٌ تُجرى على هذا النّحو: شبّهت هيئةُ مَنْ أُخِذ عليهم الميثاقُ فأهملوه بهيئةِ مَنْ كان معه شيء تافه تمامًا فطرَحه وراء ظهره. والجامعُ هيئةُ شيءٍ يُهمَل احتقارًا لِشأنه، ثم استُعير التّركيبُ الخاصّ بالمشبّه به للمشبّه على سبيل الاستعارة التّمثيليّة.

٢ ـ يُذْكَرُ أنّ الوليدَ بنَ يزيدَ ـ الخليفة الأمويّ ـ بُويع بالخلافة وبلغه أنّ مروانَ بنَ محمّد متردّدٌ في شأن مُبايعته، فأرسل إليه الوليدُ يقول: «. . . أمّا بعدُ فإني أراكَ تقدّم رِجْلاً وتؤخّر أخرى، فإذا أتاك كتابي فاعتمِدْ على أيّهما شئتَ والسّلام». والشّاهدُ قولُه: «أراك تقدّم رِجْلاً وتؤخّر أخرى». فالمعنى الوضعيُّ لهذا التركيب هو: رؤيةُ مروانَ يقدّم رِجْلَه تارةً ويؤخّرها تارة أخرى. وهذا المعنى غيرُ مراد؛ لأنّ الوليد لم يرَ مروانَ يقدّم رِجلاً تارةً ويؤخّرها أُخرى حقيقةً، بل كلُّ ما في الأمر أنه مستيقِنٌ من تردّده وحَيْرته في بَيْعته. وعلى هذا فالتركيبُ مستعمل في غير معناه الوضعيّ، وهو من ثَمّ استعارةٌ تُجرى على هذا النّحو: شُبِّهتْ هيئةُ مروانَ في تردّده بين أن يبايع وبين أنَ يمتنع عن المُبايعة بهيئةِ رجلٍ أراد السّفر إلى ناحيةٍ فتارةً يعْزِم على الذّهاب فيقدّم

رِجْلاً، وتارةً يعْدِل عن الأمر فيؤخّرها. والجامعُ هيئةُ الإقدامِ تارةً والإحجامِ أخرى. ثم استُعير التّركيبُ الخاصّ بالمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التّمثيليّة.

٣ ـ قال الشاعر:

إذا جاء مُوسى وألْقى العَصا فَقَدْ بَطَل السِّحْرُ والسّاحِرُ

هذا مثَلٌ تقولُه العربُ لِمَن يضؤُل شأنُه عند وجود مَنْ هو أجَلّ شأنًا منه. وهو تركيبٌ استُعمل في غير معناه الوضعيّ لِعلاقة المشابهة. أي إنّ فيه استعارةً تمثdليّة تُجرى هكذا: شُبِّهت هيئةُ مَنْ يضؤل شأنه عند وجود الأجلّ شأنًا بهيئةِ قومِ فرعونَ الّذين أخفقوا وبطَلَ سِحْرُهم عندما ألقى موسى عصاه. والجامعُ هيئةُ ضآلةِ الشيء الحقير عند وجود الشيء الخطير. ثم استُعير التّركيبُ الخاصّ بالمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التّمثيليّة. والقرينةُ حاليّة؛ لأنّ حالةَ الشّخصِ المَقولِ فيه المثَلُ تختلف عن المعنى الوضعيّ لهذا البيت (التركيب).

٤ ـ قال المتنبي:

ومَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرًّا به المَاءَ الزّلالا

مثَلٌ يُضرب لِمَن يسيء تقديرَ الشيء القيّم. وإجراءُ الاستعارة فيه على هذا النّحو: شبّه المتنبّي هيئةَ من أساؤوا تقديرَ شِعْره الرّائع بهيئة المريض الّذي يجِدُ الماءَ مُرّا تعافُه النفسُ، والجامعُ هيئةُ افتقادِ أداةِ الحُكْم الصّائب على جمال الأشياء، ثم استُعير التّركيب الخاصّ بالمشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية. والقرينةُ حاليّة؛ لأنّ حالة مَنْ قال فيهم المتنبّي هذا البيتَ تختلف عن المعنى الوضعيّ له.

٥ ـ قال الشاعر:

ومَنْ مَلَكَ البِلادَ بِغَيْر حَرْبٍ يهونُ علَيْهِ تَسليمُ البِلادِ

مثَلٌ يُضرب لِمَن يفرّط بأمرٍ مهمّ لم يجْهَد في الحصول عليه، كحال ابنٍ يفرّط فيما ورِثَه عن والده. وإجراءُ الاستعارة فيه هكذا: شبّه الشّاعرُ هيئةَ مَنْ يفرّط بأمرٍ مهمّ لم يجهد في الحصول عليه بهيئة رجلٍ مَلك البلادَ دون عَناءٍ وقتال فهانَ عليه التّنازلُ عنها للآخرين. والجامعُ هيئةُ التّفريط فيما لا يُتْعَب في تحصيله في كلّ. ثم استُعير التّركيب الخاصّ بالمشبه به للمشبه، على سبيل الاستعارة التّمثيليّة. والقرينةُ حاليّة.

بقي أن تعلم أنّ الاستعارةَ التمثيليّة حين يَشِيعُ استعمالُها وتتردّد على ألسنة المتكلّمين تُسمّى «مثَلًا»؛ ويترتّب على هذا أنّ الأمثالَ السائرةَ جميعًا من قبيل الاستعارة التمثيلية التي لاكَتْها الألسنُ.

ثانيًا ـ المجازُ المركّب المرْسَلُ:

ويحدّده البلاغيون بأنّه: تركيبٌ يستعمِلُه المتكلّمُ في غير معناه الوَضْعيّ لِعلاقةٍ غيرِ المُشابهة، مع قرينةٍ مانعة من إرادة المعنى الوَضْعيّ.

وهو على أنواع، منها:

١ ـ التّراكيب الخبريّة المستعمَلة في المعاني الإنشائيّة لأغراضٍ منها:

أ ـ التحسّر والتحزّن كما في قوله سبحانه حِكايةً عن أمّ مَرْيَمَ: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾. قوله سبحانه: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ جملةٌ خبرية استُعمِلت في الإنشاء بمعنى التحسّر والتّحزّن على فَوات مأمولٍ لها هو المولودُ الذّكَر. والعلاقةُ بين المعنى الوَضْعيّ (الإفادةُ بأنّ المولودَ الّذي وضعتْه أنثى) والمعنى المجازيّ (إظهار التحسّر والتّحزن) هي اللّزوم؛ إذ يلزَمُ من إخبارها بأنّها وضعتْ أنثى لا ذَكرًا

مثلما كانت تأمَلُ إظهارُ تحسُّرِها وأَساها. والقرينةُ هي مقام الخِطاب؛ لأنّ القائلة تعْلَمُ يقينًا أن الله سبحانه عليمٌ بِما وضَعَتْ. وعلى الجملة فنحن إزاءَ تركيبِ استُعمِل في غير معناه الوضعي لعلاقة غير المشابهة.

ومنه قول الشاعر:

ذهبَ الشّابُ فمَا لَهُ مِنْ عَوْدةٍ   وأتى المَشِيبُ فأينَ عنهَ المَهْرَبُ

ب ـ إظهار الضّعف كما في قوله سبحانه حِكايةً عن زَكَرِيّا عليه السّلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾. قوله سبحانه: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ جملتانِ خبريّتان استُعمِلتا في معنًى إنشائي هو إظهارُ الضّعف. والعلاقةُ هي اللّزوم؛ إذ يلزم من إخبار زكريا عليه السّلامُ بِوَهْنِ عَظْمه واشتعالِ رأسه بالشّيب إظهارُ ضَعفِه. والقرينةُ خِطابُ من يعلم بالأمر علمَ اليقين. والتركيبان من قبيل المجاز المركّب المُرْسَل.

ومنه قول الشاعر:

ربِّ، إنّي لا أستطِيعُ اضطِبارا   فاعْفُ عنّي يا مَنْ يُقيلُ العِثَارا

ج ـ إظهار البهجة والسّرور كقولِ الشّاعر يذكر الدّيارَ الحِجازيّة:

هِيَ نَجْدٌ ورَامةٌ والكَثِيبُ   خَشْخِشِ العِيسَ، فالمَزارُ قريبُ
وزَرُودٌ بَدَتْ وهاتِيكَ سَلْعٌ   وقِبابٌ ومَعْهدٌ وشَعوبُ

فالتّراكيب الخبريّة هنا مستعملةٌ في معنى إنشائيّ هو التّعبير عن الفرح بقرب الوصول إلى دار الحبيب.

د ـ الدّعاء كقول الشاعر:

سَقى مُزْنُ السّحابِ إذا استهلّتْ   مَصارعَ فِتْيةٍ بالجُوزَجانِ

وقول الشاعر[1] في تهنئة صديقٍ تزوّج:

مـحـمّـدُ، أنـتَ صَـديـقٌ ودودْ فـدُمـتَ بِـخَـيْـرٍ طَـوالَ الـعُـهـودْ
رعـى الـلّـهُ ربّـيَ هـذا الـزّواجْ ونِـلْـتَ الأمـانـي بِـدارِ الـسُّـعـودْ

فجُملتا «رعَى الله» و«نِلْتَ الأماني» خبريّتان استُعمِلتا في الإنشاء بمعنى الدّعاء والتضرّع إلى المولى - جلّ وعلا - أن يرعى هذا الزّواجَ، وأن ينال الصّديقُ الأمانيَ بِدار السَّعْد. والعلاقةُ اللّزوم؛ إذ يلزَمُ من الإخبار في هذا المقام معنى الدُّعاء. والقرينةُ حاليّة.

٢ ـ التّراكيبُ الإنشائيّة الخارجة عن معانيها الأصليّة، كقول المصطفى عليه الصّلاة والسّلام: «مَنْ كذَب عليَّ متعمِّدًا فليتبوَّأْ مقْعَدَه من النّار». على معنى «يتبوّأُ». والعلاقةُ السَّبَبيّة؛ إذ إنّ إنشاء المتكلّم هذه الجملة سببٌ لإخباره بما تتضمّنه. جاء في شرح البُخاريّ للعَيْنيّ: «فَلْيتبوّأْ أمرٌ من التبوُّؤ، وهو اتّخاذُ المباءة والمنزِل، وظاهرُه أمرٌ، ومعناه خبر».

(١) عيسى العاكوب.

أسئلة وإجاباتها حول المجاز المركَّب بقسمَيه

ـ حدِّد أنواعَ المجاز المركَّب واشرحْها فيما يأتي:

١ ـ تُغنّي في الطّاحون (تقول هذا لِمَنْ ينصَح إنسانًا لا يسْمَع نُصْحَه).

٢ ـ تَصرَّمتْ مِنّا أُوَيْقاتُ الصِّبا ولَمْ نجِدْ مِنَ المَشيبِ مَهْرَبا

٣ ـ إنّ الأفاعي وإنْ لانَتْ مَلامِسُها عندَ التقلّب في أنيابِها العَطَبُ

٤ ـ أحشَفًا وسوءَ كِيلَةٍ (تقوله لِمَنْ يَظْلِمُ من ناحيتين).

٥ ـ وَحِيدٌ مِنَ الخِلّانِ في كلِّ بَلْدَةٍ إذا عظُمَ المَطْلوبُ قلَّ المُساعِدُ

٦ ـ تقول لصديقٍ يحتال للحصول على شيءٍ خفيٍّ ومتوارٍ تحتَ شيء ظاهر: «لِأَمْرٍ ما جدَعَ قصيرٌ أنْفَه».

٧ ـ وفي تعَبٍ مَنْ يحسدُ الشّمسَ ضَوْءَها ويَجْهَدُ أن يأتي لَها بِضَريبِ

٨ ـ ولَيْسَ يصِحّ في الأذهان شيءٌ إذا احتاجَ النّهارُ إلى دليلِ

٩ ـ الشّمسُ لا تُخفَى بِالغِرْبال (تُقال لِمَنْ يتستّر على أمرٍ واضح).

١٠ ـ وبينَنا، لو رَعَيْتُمْ ذاكَ، مَعْرفةٌ إنّ المَعارفَ في أهْلِ النُّهى ذِمَمُ

ـ الإجابات:

١ ـ في هذا المركَّب استعارةٌ تمثيليّة، فقد شُبّهت هيئةُ من يُتعِب نفسَه في نُصْح إنسانٍ لا يستجيب له بهيئةِ شخصٍ يغنّي في الطّاحون بجامع الإتيان بالشيء في غير محلّه أو عدمِ الفائدة في كلّ، واستُعير المركَّب الدّال على هيئةِ المشبّه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التّمثيليّة، والقرينةُ حاليّة.

٢ ـ في هذا البيت مجازٌ مرسَلٌ مركّب من استعمال الخبَر في

الإنشاء، وعلاقتُه «السّببية»؛ إذ إن هذا الكلامَ سببٌ للتحسّر؛ أو المَلْزومية؛ لأنّ الإخبار بهذا يستلزِم التحسّر والقرينةُ حالية.

٣ ـ في هذا البيت استعارة تمثيلية؛ فقد شبّه هيئةَ مَنْ يخدع النّاسَ بِمَغسول حديثه ثم يعود فيضرّهم، بهيئةِ الأفاعي اللّينة المَلْمَس المُذْهِبةَ للأنفس، بجامع هيئة شيء ليّن الملمس شديد الأذى، ثم استُعير المركَّبُ الدّالّ على هيئة المشبه به لهيئة المشبّه على سبيل الاستعارة التّمثيليّة، والقرينة حاليّة.

٤ ـ في هذا المركَّب استعارة تمثيلية؛ فقد شُبّهت هيئةُ مَنْ يَظْلِم من ناحيتين بهيئةِ رجلٍ باع آخرَ تمْرًا رديئًا وناقِصَ الكيل، بجامع الغُبْن من وجهَيْن في كلّ، واستُعير المركَّب الدّالّ على هيئة المشبه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التّمثيلية، والقرينة حاليّة.

٥ ـ في هذا البيت مجازٌ مرسَلٌ مركَّب من استعمال الخبر في الإنشاء، علاقتُه السّبَبِية أو المَلْزوميّة؛ لأن الإخبار بمِثْل هذا يسبِّب التحسّرَ لِفَقْد الخِلّان، أو يستلزم التحسّر لفقدهم. والقرينة حالية.

٦ ـ في هذا المركّب استعارةٌ تمثيليّة، فقد شبِّهت هيئةُ الصّديق الّذي يحتال للحصول على شيء مستتِرٍ يُخفيه عن النّاس بهيئة ذلك الرّجل المعروف في التاريخ العربي «قَصِير» حين جَدَع أنفَه ليأخذَ بثأر جَذِيمةَ بنِ الأَبرش من الزَّبّاء بجامع الاحتيال في كلّ، واستُعير المركَّب الدّالّ على هيئة المشبّه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التّمثيليّة. والقرينة حالية.

٧ ـ في هذا البيت استعارةٌ تمثيلية؛ فقد شُبّهت هيئةُ مَنْ علا قومَه وفاقَهم بهيئةِ الشّمس لا نظيرَ لها بين الكواكب، بجامع هيئة الشيء يعلو فيفوق كلَّ ما سِواه على نَحْوٍ لا يُطْمَع في مُماثلته،

واستُعير المركَّب الدّالّ على هيئة المشبه به لهيئة المشبّه على طريق الاستعارة التمثيلية. والقرينة حالية.

٨ - في هذا البيت استعارةٌ تمثيليّة؛ فقد شُبِّهت هيئةُ من يُنْكِر فضلَ ذوي الفَضْل رغْمَ وضوحه بهيئة من يبتغي دليلاً على وجود النّهار، بجامع هيئة ذي الجَهْل المُطْبِق، واستُعير المركَّب الدّالُّ على هيئة المشبه به لهيئة المشبّه على طريق الاستعارة التّمثيليّة. والقرينة حاليّة.

٩ - في هذا المركَّب استعارةٌ تمثيليّة، فقد شُبِّهت هيئةُ من يُخفي أمرًا واضحًا جليًا ظانّا عدمَ معرفةِ الناس إيَّاه بهيئة مَنْ يحاول إخفاءَ ضياء الشّمس بالغِرْبال بجامع إخفاء ما لا يخفى، ثم استُعير المركَّب الدّالّ على هيئة المشبه به لهيئة المشبه على طريق الاستعارة التّمثيليّة والقرينة حالية.

١٠ - في هذا المركّب مجازٌ مرسَلٌ مركّب من استعمالِ الخبر في معنى التّوبيخ والتقريع، والعلاقةُ فيه السببيّة أو الملزوميّة؛ إذ إنْ مِثْلَ هذا القول يسبّب التّوبيخَ، أو يستلزمه. والقرينةُ حاليّة؛ ذلك أنّ الشاعر في مقام التّوبيخ.

المجازُ العقليّ

ثمّة ضربٌ آخر من المَجاز يُدعى المجازَ العقليّ أو الحُكْميّ، أو المجاز في الإثبات، أو الإسناد المجازيّ. وتُفيد هذه التسمياتُ أنّ هذا الضّرْب يجري في الحُكْم أو الإثبات أو الإسناد. والحُكْم والإثباتُ والإسنادُ تدلّ على شيء واحِدٍ هو نِسْبةُ شيء إلى شيء كقولك: «اجتهدَ محمّدٌ»، فإنّك تنسبُ فعْلَ الاجتهاد إلى محمّد. وقولك: «العِلْمُ مفيدٌ»، فإنّك تنسبُ الفائدةَ إلى العِلم. ولديك في هذين المِثالين مُثْبَتٌ له هو «محمّد» و«العِلم»، ومُثْبَتٌ هو «الاجتهادُ» و«الإفادةُ»، وإثباتٌ أو حُكْمٌ أو إسْنادٌ هو نِسْبةُ المثبت للمثبت له.

وإثباتُ الشّيء للشّيء يكون حقيقيًا كأن تقول: «ربِحَ محمّدٌ في تجارته»؛ فإنّ نسبة الرّبح إلى محمّد نسبةٌ حقيقيّةٌ؛ لأنّ محمدًا يستحقّ أن يُثْبَت له الرّبح. ويكون الإثباتُ مجازيًّا كقولكَ: «رَبِحَتْ تجارةُ محمّدٍ»؛ فإنّ نسبة الرّبح إلى التّجارة نسبةٌ غيرُ حقيقية والعقلُ لا يقول بها؛ أيّ إنها نِسْبةٌ مجازيّة. وهي نسبةٌ مجازيّة؛ لأنّه لم يُثْبَت بها الشيءُ لِصاحبه الحقيقيّ، بل أُثبِتَ لشيءٍ آخر. فحقُّ إثباتِ الرّبح أن يكون لِمُحمّدٍ لا للتجارة، وإذا حصل إثباتُ الشّيء لغير ما هو له على الحقيقة سمّي ذلك: إثباتًا مجازيًا؛ لأنه تُجوِّز فيه، أو مجازًا حُكْميًا لتعلّقِه بالحُكم، أو إسنادًا مجازيًا، لأنّ الإسناد تُجوِّز به. وسُمّي على الأشْهَر: «مجازًا عَقْليًا». أما كونُه «مجازًا» فلأنه أُسْنِد فيه الشّيءُ إلى غيرِ ما هو له، أي تُجوِّز فيه مِمّا هو له إلى غير ما هوَ لَهُ. وأمّا كونُه

«عقليًا» فلأنّ الإثباتَ قد حصَل فيه من جِهة العقل لا من جهة اللّغة؛ فإن الحُكْمَ بأنّ الرّبح فِعْلٌ لِمحمّد لا للتّجارة، وأنّ إثباتَه للتّجارة فيه تجوّزٌ، مَأْخَذُه العَقْلُ، فهو القاضي فيه الحاكمُ عليه بالصّحة والكذب.

بقي أن تعْلَمَ أنّ الّذي سوّغ إسنادَ الرّبح إلى التّجارة لا إلى محمّد هو عَلاقةٌ أو مُلابَسةٌ بين التّجارة وبين محمّد، أي بين الفاعل المجازيّ والفاعل الحقيقي.

وإليكَ هَذيْن المثالَيْن المُوضِحين لتكون على واضحِ من أمرك:

- قال جميلُ بُثَيْنةَ:

وشيَّبَ أيّامُ الفِراقِ مَفارقي وأَنْشَزْنَ نفسي فوقَ حيثُ تكونُ

وقالَ الصَّلَتانُ العَبْدِيّ:

أشابَ الصَّغيرَ وأَفْنى الكبيـ ـرَ كَرُّ الغَداةِ ومرُّ العَشِيْ

اسمَعْ ما يقول عبدُ القاهر معلّقًا على هذين البيتين:

«المجازُ واقعٌ في إثباتِ الشّيبِ فعلاً للأيّام ولِكَرّ اللّيالي، وهو الذي أُزيلَ عن موضعه الّذي ينبغي أن يكون فيه؛ لأنّ مِنْ حقّ هذا الإثبات - أعني إثباتَ الشّيب فِعْلاً - أن يكون فيه؛ لأنّ مِنْ حقّ هذا الإثبات - أعني إثباتَ الشّيب فِعْلاً - أن لا يكون إلّا مع أسْماءِ الله تعالى، فليس يصِحّ وجودُ الشّيب فِعْلاً لغير القديم سبحانه، وقد وجّه في البيتين - كما ترى - إلى الأيّام وكرّ اللّيالي، وذلك ما لا يُثْبَت له فِعْلٌ بوجهِ لا الشّيب، ولا غير الشّيب. وهكذا إذا قلْتَ: «سرّني الخبَرُ» و«سرّني لقاؤُكَ» فالمجازُ في الإثبات دون المثبت».

ومهما يكنْ، فعَلَيْكَ أن تكون على دِراية من أنّ هذا الضّرب «المجاز العقليّ» موقوفٌ على الإثباتِ أو الإسناد؛ أي إنه لا يكون إلّا في الجُملة المفيدة لا الكلمة المفردة، وأنّ مسوّغه مُلابَسةٌ أو علاقة بين المُثْبَتِ له الحقيقيّ والمثبت له المجازيّ. كما قدّمنا. والإثباتُ والإسنادُ

شيءٌ واحِدٌ كما عرَفْتَ، ومن هنا قالوا في تعريف المجاز العقليّ:

هو إِسْنادُ الفِعْلِ أو ما في مَعْناه إلى غيرِ ما هو لَهُ؛ لِعلاقةٍ مع قرينةٍ مانعة من إرادة الإسناد الحقيقيّ.

ومِنْ حقّك المَعْلومِ علينا أن نزيدَك عِلْمًا بأمور:

١ ـ أنّ «ما في معنى الفعل» في التعريف يعني: «اسْمَ الفاعل، واسْمَ المفعول، والمَصْدر، والصّفة المشبّهة».

٢ ـ أن «غير ما هو له» يُراد به إسنادُ الفِعْل أو ما في معناه إلى شيءٍ ليس مِنْ حقّه أن يُسْنَد إليه، لأنه ليس وصْفًا له.

٣ ـ أنّ العلاقةَ الّتي تُجيز الإسنادَ المجازيّ قد تكون: «الزّمانية، أو المكانيّة، أو السّببيّة، أو المصدريّة، أو المفعوليّة، أو الفاعليّة. وهي أشهر علاقات هذا الضّرب.

وإليكَ تفصيلَ القولِ في أشْهرِ صُوَر الإسناد المجازيّ الّذي تجيزه العلاقاتُ في المجاز العقليّ:

١ ـ الإسنادُ إلى الزّمان، كقولِكَ: «نهارُ فلانٍ صَائمٌ وليلُهُ قائمٌ». أُسْنِد الصّومُ الّذي هو فِعْلٌ للإنسان إلى النّهار، والنّهارُ لَمْ يَصُمْ بل وقع فيه الصّومُ؛ وأُسْنِد القيامُ الذي هو فِعْلٌ للإنسان إلى اللّيل، واللّيلُ لم يقُمْ بل وقع فيه القيام. وإسنادُ الصّيامِ للنّهار والقِيامِ للّيل مجازٌ عقليّ علاقته الزمانية.

ومن هذا القبيل قول الشاعر:

هي الأمورُ كما شاهدتها دُوَلٌ ... مَنْ سرَّه زَمَنٌ ساءته أزْمَانُ

أُسْنِد السُّرورُ والإساءةُ إلى الزّمان، والزّمانُ لا يَسُرّ ولا يُسِيء، بل يقع فيه السّرورُ والإساءةُ ومِثْلُ هذا الإسنادِ مجازٌ عقليّ علاقتُه الزّمانيّة.

٢ ـ الإِسْناد إلى المكان، كقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾. أُسْنِد الجَرْيُ الّذي هو فِعْلٌ للماء إلى الأنهار، والأنهارُ لا تجري بل هي أمكنةُ جرَيَانِ الماء. ومِثْلُ هذا الإسناد عقليّ علاقتُه المكانيّة.

ونظيرُ هذا قولُ الشّاعر:

مَلَكْنا فكانَ العَفْوُ مِنّا سَجِيّةً فلَمّا ملَكْتُمْ سَالَ بالدّمِ أَبْطَحُ

الأَبْطَحُ في اللّغة مَسِيلُ الماء الواسِعُ، وههنا أسند الشّاعرُ السَّيَلانَ الّذي هو فِعْلٌ للدّم إلى الأبطح، والأبطح لا يسيل بل يسيلُ الدّمُ فيه. وقد أراد الشّاعرُ المُبالغة في تصوير كثْرةِ الدّم فجعل الأبطحَ هو الّذي يسيل كأنّه تحوّل دَمًا صِرْفًا. وهو بهذا تَجاوَز في الإسناد، فأسندَ الفِعْلَ إلى المكان الذي يقَعُ فيه، وهذا مجازٌ عقليّ علاقتُه المكانيّة.

٣ ـ الإسنادُ إلى السّبب، كقوله سبحانه: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. أُسْنِد البِناءُ إلى هَامانَ وزيرِ فِرْعَوْنَ، وهامانُ لا يبني بل يأمُرُ العمّالَ بالبناء فهو سببٌ للبناء. وإسنادُ الفعل إلى السبب مجازٌ عقليّ علاقتُه السببيّة.

ومِنْ هذا قولُ عبد الملِك بن مَرْوانَ: «شيَّبني صُعودُ المَنَابِر». أَسْنَدَ الإشابةَ إلى صُعودِ المنابر، وهذا إسنادٌ للفعل إلى غير فاعله، فصُعود المنابر لا يُشِيبُ، بل هو سببٌ للتفكير والقلَق والعَنَت ومن ثَمّ الشيب. والقائلُ هنا أسندَ الفِعْلَ إلى سببه، ومِثْلُ هذا مجازٌ عقليّ علاقتُه السّببية.

٤ ـ الإسنادُ إلى المصدر، كقول أبي فِراسٍ الحَمْدانيّ:

سيَذْكُرُني قومي إذا جَدَّ جِدُّهمْ وفي اللّيلةِ الظّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

أسندَ الفعلَ جدّ الذي هو فِعْلٌ لِلجادّ (الشخص) إلى المصدر

«الجِدّ». والجِدّ لا يَجِدّ، بل الّذي يجِدّ هو الجادّ، إذ أصْلُ الكلام: جَدّ الجادُّ جِدًا. وصَنِيعهُ هذا مجازٌ عقليّ علاقتُه المصدريّة.

ونظير هذا قول الشاعر:

قدْ عزَّ عِزُّ الألى لا يبْخَلونَ على أوْطانِهِمْ بالدَّمِ الغَالي إذا طُلِبا

أسندَ الفِعْلَ عزّ، الّذي هو فِعْلٌ للإنسان، إلى العِزّ الّذي هو مصدر، فالعِزّ لا يعِزّ بل يعزّ الإنسانُ، وإسنادُ الفعلِ إلى مصدره مجازٌ عقليّ علاقتُه المصدريّة.

٥ ـ إسنادُ ما بُنِي للفاعل إلى المفعول، كقوله سبحانه: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مَرْضِيّة. أُسْنِد اسْمُ الفاعلِ «رَاضِيَةٍ» إلى ضمير المفعول «عيشة»، أي إنه أُسْنِد اسْمُ الفاعلِ إلى المفعول، وهذا مجازٌ عقليّ علاقتُه المفعوليّة. ومِثْلُه قولُه سبحانه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أي: مَدْفوق. أُسْنِد اسمُ الفاعل «دافق» إلى الضّمير العائد على المفعول «ماء» وهذا مجازٌ عقليّ علاقته المفعولية.

٦ ـ إسنادُ ما بُنِي للمفعول إلى الفاعل، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ أي آتٍ لا مَأْتِيّ، وإسنادُ ما بُني للمفعول إلى الفاعل، أو استعمالُ اسْمِ المفعول في موضع اسم الفاعل، مجاز عقليّ، علاقته الفاعلية.

ومثلُه قولُه سبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي: سَاتِرًا. أُسْنِد اسمُ المفعول «مستورًا» إلى ضمير الفاعل «الحِجاب»، والحِجاب ساترٌ لا مستور، وإسنادُ ما بُنِي للمفعول إلى الفاعل، أو استعمالُ اسْمِ المفعول في موضع اسمِ الفاعل، مجازٌ عقليّ، علاقتُه الفاعلية.

وعليكَ بعد هذا أن تعْرِف ما نحن ذاكروه لكَ:

١ ـ كثرة مجيء المجاز العقليّ في القرآن الكريم كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾. أسند الزّيادة الّتي هي فِعْلُ الله

سبحانه إلى الآيات الّتي هي السّبب. ومِثْلُ هذا التّركيب مجازٌ عقليّ علاقتُه السّببية. وقوله سبحانه عن فرعون: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾. أسند التذبيح الّذي هو فِعْلُ الجيش إلى فِرْعَوْنَ الّذي هو السّبب؛ لأنه الآمِرُ بذلك. ومِثْلُ هذا مجازٌ عقليّ علاقتُه السببية. وقوله سبحانه: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾. أسند فِعْلَ الإشابة إلى الزّمان على سبيل المجاز العقليّ ذي العلاقة الزّمانيّة.

٢ ـ مجيء المجاز العقليّ في الإنشاء على غرار مجيئه في الخبَر، ومنه قولُه سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ففي إسنادِ بناء الصَّرْح إلى هَامانَ الّذي هو السّبب مجازٌ عقليّ علاقتُه السّببية. ومعلومٌ لديك أنّ الأمْرَ أحَدُ أساليب الإنشاء. ونظيرُ ذلك قوله سبحانه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾؟ فقد جاء المجاز العقليّ في الاستفهام.

٣ ـ يقع المجازُ العقليّ في «النّسبة الإضافية» وقوعَه في الإسناد، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ على معنى قِراءة الفَجْر. ونِسْبةُ القراءة، الّتي هي فِعْل القارىء، إلى الفَجْر الّذي هو زمانُها، مجازٌ عقليّ، علاقتُه الزّمانيّة. وقلْ مِثْلَ هذا في: «مَكْرِ اللّيلِ» و«جَرْي الأنهارِ» و«غُرابِ البَيْنِ».

٤ ـ يحدّد نوعُ العلاقة في بعض صُوَر المجاز على النحو الآتي:

أ ـ تكون العلاقةُ «مفعولية» عند إسناد الفِعْل المبنيّ للفاعل، أو اسم الفاعل، إلى المفعول. وكذا عند استعمال اسم الفاعل في موضع اسم المفعول.

ب ـ تكون العلاقة «فاعِليّة» عند إسناد الفعل المبنيّ للمجهول، أو اسم المفعول، إلى الفاعل. وكذا عند استعمال اسم المفعول في موضع اسم الفاعل.

٥ ـ قرينة المجاز العقليّ على ضَرْبين:

١ ـ لفظية، كأن تقولَ: «شيّبتْني هُودٌ وأخواتُها، شيّبَني ما يتوعّدُ المشركين فيها». فقد ذكرْتَ القرينةَ وهي قولك: «ما يتوعّد المشركين» فقد بُيّن الفاعلُ الحقيقي للإشابة.

٢ ـ معنوية أساسُها استحالةُ قيام المُسند بالمسند إليه المذكور معه، إمّا من ناحية العَقْل كقولكَ: «محبّتُك جاءتْ بي إليكَ»؛ فإنّ إسناد المجيء إلى المحبّة مستحيلٌ عقلاً. وإما من ناحية العادة كقولِكَ: «هزَمَ الأميرُ الجُنْدَ»، فالعادةُ تَحْكُم باستحالةِ هَزْم الأميرِ وحْدَه الجندَ.

جماليّات المجاز العقليّ:

المجاز العقليّ ضَربٌ من التصوير البيانيّ شائعٌ في أساليب البيان العالي، التي تُستخدم فيها مفرداتُ اللّغة استخدامًا تتجاوز فيه حدودُها المعجمية الصّارمة، مِمّا يوسّع آفاقها، ويجعلها قادرةً على توصيل المعاني الدّقيقة والوفاء بمقاصد المتكلّمين، في ضروبٍ من الكلام قادرةٍ على تنشيط نفس المتلقّي، وإثارةِ حِسّه ومخيّلته، وإعمال عقله في ملاحظة مظاهر التجاوز في الإسناد. واسْمَعْ ـ رَعاكَ اللّهُ ـ ما يقول الشّيخ عبدُ القاهر عن هذا الضّرب: «هذا الضّربُ من المجاز، على حِدَتِه، كنزٌ من كُنوز البلاغة، ومادّةُ الشّاعرِ المُفْلِق والكاتبِ البليغِ الإبداعِ والإحسان والاتّساع في طرق البيان، ولا يعرّنّك من أمره أنّك ترى الرجلَ يقول: «أتى بي الشّوقُ إلى لقائك، وسار بي الحنينُ إلى رؤيتِك، وأَقْدَمني بلدَك حقٌّ لي على إنسانٍ»، وأشباه ذلك مما تجِدُه لشهرته يجري مجرى الحقيقة، فليس هو كذلك، بل يدِقّ ويلطف حتّى يأتيك بالبِدْعة والنادرة».

أسئلة وإجاباتها حول المجاز العقليّ:

ـ حدّد المجازَ العقليَّ في كلٍّ مِمّا يأتي وبيّن علاقتَه:

١ـ أبا المِسْكِ أرجو منكَ نَصْرًا على العِدا وآمُلُ عِزًّا يَخْضِبُ البِيضَ بالدَّمِ
ويومًا يغيظُ الحاسدينَ وحالةً أُقيم الشَّقا فيها مقامَ التنعُّمِ

٢ ـ ستُبدي لكَ الأيّامُ ما كنتَ جاهِلاً ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ

٣ ـ قال سبحانهُ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾.

٤ ـ وكلُّ امرئٍ يُولي الجميلَ محبَّبٌ وكلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طيِّبُ

٥ ـ جمعتْنا العُطْلةُ في بيت أحمدَ.

٦ ـ كلّما أنبتَ الزَّمانُ قَناةً ركّبَ المَرْءُ لِلْقناةِ سِنانا

٧ ـ تكادُ عطاياه يُجَنُّ جُنونُها إذا لَمْ يعوِّذْها بِرُقْيةِ طالبِ

٨ ـ قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٩ ـ بَنَتِ الحكومةُ الجامعاتِ.

١٠ ـ ازدحمتِ الشّوارعُ بالمارّة.

ـ الإجابة:

١ ـ في قوله «عزّا يَخْضِب» مجازٌ عقليّ علاقتُه السّببيّة؛ إذ أسندَ خَضْبَ السّيوف بالدّم إلى العزّ، والعِزّ لا يخْضِب، بل هو سبب القوة وجمع الفرسان الّذين يخضبون سيوفَهم بدِماء الأعداء. وفي قوله: «يومًا يغيظ الحاسدين» مجازٌ عقليّ علاقتُه الزّمانية؛ إذ أسندَ إغاظةَ الحاسدين إلى اليوم، واليومُ لا يَغيظُ بل هو زمانُ الإغاظة.

٢ ـ في قوله «ستُبدي لك الأيّامُ» مجازٌ عقليّ علاقتُه الزّمانية. إذ

أسندَ الإبداءَ إلى الأيّام، والأيّامُ لا تُبدي، بل هي زمانُ الإبداء.

٣ ـ في قوله سبحانه: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، بمعنى لا معصوم، مجازٌ عقليّ علاقتُه المفعولية، إذ أُسند فيه اسمُ الفاعل «عاصم» إلى المفعول.

٤ ـ في قوله «مكان يُنبِتُ العزّ» مجازٌ عقليّ علاقته المكانية، إذ أسندَ إنباتَ العِزّ إلى المكان، والمكانُ لا يُنبِت العزّ، بل هو مكان إنباته.

٥ ـ في قوله: «جمعتْنا العطلةُ» مجازٌ عقليّ علاقتُه الزمانية؛ إذ أسندَ الجمْعَ إلى العطلة، والعطلةُ لا تجمع بل يحصُل الجمعُ فيها.

٦ ـ في قوله: «أنْبَتَ الزمانُ قناةً» مجاز عقلي علاقتُه الزمانية، إذ أسند الإنباتَ إلى الزّمان، والزّمان لا يُنبِت بل يُنبَتُ فيه.

٧ ـ في قوله: «يُجَنّ جنونُها» مجازٌ عقليّ علاقتُه المصدرية، إذ أسند الفعلَ إلى مصدره.

٨ ـ في قوله سبحانه: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ بمعنى مأمونا، مجازٌ عقليّ علاقتُه المفعوليّة، إذ أُسنِدَ فيه اسمُ الفاعل «آمن» إلى المفعول «الحرم».

٩ ـ في هذا التركيب مجازٌ عقليّ علاقته السّببية، إذ أُسند بناءُ الجامعاتِ إلى الحكومة، والحكومةُ لا تبني، بل هي السّبب الآمِرُ بالبناء.

١٠ ـ في هذا التّركيب مجازٌ عقليٌّ علاقتُه المكانيّة، إذ أُسند الازدحامُ إلى الشّوارع، والشّوارعُ لا تزدحم إذ هي الأماكنُ التي يحدث فيها الازدحام.

أسئلة تُطْلَب إجاباتها:

حددّ المجازَ العقليّ فيما يأتي وبيِّن علاقته:

١ ـ أَعُمَيْرُ، إنَّ أباكَ غيَّرَ رأسَه مرُّ اللّيالي واختلافُ الأعْصُرِ
٢ ـ يُغنّي كمَا صدَحَتْ أيكةٌ وقد نبَّه الصّبحُ أطْيارَها
٣ ـ والهَمُّ يخترمُ الجسيمَ نَحافةً ويُشيبُ ناصِيَةَ الصَّبيِّ ويُهْرِمُ
٤ ـ دع المكارِمَ لا ترْحَلْ لبُغْيتِها واقعُدْ فإنّك أنتَ الطّاعِمُ الكاسِي
٥ ـ قَدْ لُمْتِنا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرى ونِمْتِ، ومَا لَيْلُ المُحِبّ بِنَائم
٦ ـ إذا المَرْءُ لم يحتَلْ وقد جَدَّ جِدُّهُ أضاعَ وقاسى أمرَه وهو مُدْبِرُ
٧ ـ فَبِتُّ كأنّي سَاوَرَتْني ضَئيلةٌ مِنَ الرُّقْشِ في أنيابِها السُّمُّ نَاقِعُ
٨ ـ صَحِب الناسُ قبْلَنا ذا الزّمانا وعَناهُمْ مِنْ أمْرِه مَا عَنانا
وتولّوا بغُصَّةٍ كلُّهمْ مِنْهُ ـ وإنْ سرَّ بعْضَهم أحْيَانا

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثالث:

فنّ الكِناية

ويتضمّن:

- في تعريف الكناية.
- أمثلة للكناية.
- أقسام الكِناية من حيثُ طبيعةُ مدلولها:

أولًا: الكِناية التي يُراد بها صفة.

ثانيًا: الكِناية التي يُراد بها موصوف.

ثالثًا: الكناية التي يُراد بها نِسْبة.

- أقسام الكِناية تبعًا للوسائط:

١ - التّعريض.

٢ - التّلْويح.

٣ - الرّمز.

٤ - الإيماء أو الإشارة.

- جماليّات الأسلوب الكنائيّ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فنّ الكنـايـة

في تعريف الكناية:

الكِنايةُ ـ لُغةً ـ مصْدرُ كَنَيْتُ عن كذا بكذا، أَكْنِي وأكنو؛ تكلّمتُ بما يُستدَلّ به عليه. وتعني أيضًا أن تتكلّم بشيءٍ وأنت تريد غيره، كما قال العربيّ:

وإنّـي لأَكْـنـو عَـنْ قَـدورٍ بِـغَـيْـرِهـا   وأُغْـرِبُ أحـيـانًـا بـهـا وأُصـارِحُ

ويُفهم من البيت على الجملة أنّ الكِناية هي الكلامُ على الشيء على نحوٍ غير مباشر، إذ هي عَكْسُ الإعراب بمعنى الإيضاح، وعكْسُ المصارحة.

وهي في الاصطلاح البلاغيّ:

لفظٌ أُريدَ به لازِمُ معناه الوَضْعِيّ معَ جوازِ إرادة ذلك المعنى مع لازمِهِ.

وإليكَ الأمثلةَ التي تجعلك على جليّة من الأمر إن شاء الله.

١ ـ تقول عن أحدهم: «فلانٌ لا يستقِرّ لِسانُه في فِيه». حيث يُفهَم من عدَم استقرار اللّسان أمرانِ: الأولُ حركةُ اللّسان واضطرابه وأنه لا يهدأ البَتَّةَ. وهذا هو المعنى الوَضْعيّ المحصَّل من الدّلالة المباشرة للألفاظ. والثاني أنّ هذا الرّجل مِهْذارٌ كثيرُ الكلام، وهذا المعنى عَقَلَهُ السّامعُ من المعنى الأوّل على سبيل الاستدلال والاستنتاج، وهو غرضُك الّذي تريد أن تُفْصِح عنه. وجليّ لكَ أنّ

المعنى الثّاني المُراد لازمٌ للمعنى الأوّل ومتّصِلٌ به ومحصِّلةٌ له. وفي مثل هذه الحال نقول إنّ قولَه «لا يستقِرّ لِسانُه» كنايةٌ؛ إذ هو لفظ أُريد به لازِمُ معناه الوَضْعيّ وليس هذا المعنى، مع جواز إرادة ذلك المعنى الأول.

٢ ـ تقولُ عن المصطفى عليه الصّلاةُ والسلام: «كأنّه خُلِق كما يشاءُ»، حيث يُفهَم من هذا التّعبير أمران: شَبَه أن يكون قد خُلِق كما يريد، وهو المعنى الوَضْعيّ. والثّاني لازِمٌ للأوّل وهو بُرْؤه ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ من العيوب، والثّاني هو المُرادُ لا الأول، مع جواز إرادة الأوّل مع لازمه. قال حسّانُ في الرّسول الكريم عليه الصّلاةُ والسّلام:

خُلِقْتَ مبرَّأً مِنْ كلِّ عَيْبٍ كأنّكَ قَدْ خُلِقْتَ كما تشاءُ

٣ ـ قال جرير:

وتقولُ بَوْزَعُ قَدْ دبَبْتَ على العَصا هلاّ هَزِئْتِ بِغَيْرِنا يا بَوْزَعُ

حزّ في نفس الشاعر أن تقول له فتاةٌ: «دببتَ على العصا» وعدّ ذلك استهزاءً به. ومرجِعُ ذلك أنّ تعبير «دببتَ على العصا» يُفيد معنيين: الأوّل الّذي يدلّ عليه ظاهرُ اللّفظ وهو كونه يتوكّأ على العصا، والثاني يُفْهَم من المعنى الأول على سبيل الاستدلال، وهو أنه شيخٌ طاعِنٌ في السّنّ لم تُبقِ له السّنونَ ما يجعل أعينَ الحِسان تجتليه وتلاحقه. وهذا المعنى لازِمٌ للأول وهو الّذي أرادتْه القائلةُ وأقَضّ مضْجَع الشاعر. فقولُها «دببتَ على العصا» إذًا كنايةٌ عن كونه شيخًا كبيرًا، مع جواز إرادة المعنى الوَضْعيّ.

٤ ـ وفي الذّكر الحكيم قولُه سبحانه عن المسيح وأمّه عليهما السّلام: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾. إذ يُفهَم من تعبير «يأكلان الطّعام» أمران: تناول الطّعام وهو ما يقوم به كلّ الناس، وهذا هو

المعنى الوضعي للتّعبير. ثم لازِمُ هذا المعنى وهو «قضاءُ الحاجة». وهو المُراد هنا، لا المعنى الأول؛ إذ يدلّ السّياقُ ـ والله سبحانه أعلم بمُراده ـ على الإشارة إلى كونهما بَشَرًا بذِكْر خاصّةٍ من خاصّيات البشَر، وهو «قضاء الحاجة». فهٰهنا إذًا كنايةٌ عن صِفة البشرية بِذِكْر ملزومها «قضاء الحاجة»، مع جواز إرادة الدّلالة الأولى كما لا يخفى عليك.

فرقُ ما بينَ الكِناية والمجاز:

تخالِفُ الكنايةُ المجازَ في أنّه تجوز فيها إرادةُ المعنى الوضعيّ مع إرادة لازمِهِ كما تراءى لكَ في الأمثلة المتقدّمة؛ ولا يجوز في المجاز إرادةُ المعنى الوضعيّ؛ لوجود القرينة الصّارفة عن إرادته. لكنّ إرادةَ المعنى الوضعيّ مع لازمِهِ الجائزةَ جوازًا في الكناية تمتنِعُ أحيانًا لخُصوص الموضوع، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كناية عن الاستيلاء والمُلْك، وقوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ كناية عن قوّة التمكّن وتمام القدرة. فالمعنى الوضعيّ لـ «الاستواء» و«الطّيّ باليمين» ممتنعٌ لِخُصوص الموضوع، واتّصال الأمر بالذّات العلية، ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

أقسام الكِناية من حيثُ طبيعةُ مدلولها:

تنقسم الكِنايةُ من حيث الشيء المدلول عليه (المَكْنيّ عنه) على ثلاثة أقسام:

أوّلًا ـ الكناية التي يُراد بها صِفةٌ من الصّفات المعنوية كالجُود والشّجاعة، والسؤدد، والنّبل.. إلخ. والكيفيةُ الّتي يأتي عليها هذا الضّرْبُ في الكلام هو أنْ يذكرَ المتكلّم موصوفًا وينسبُ إليه صفةً غيرَ مرادةٍ في ذاتها ولكن يُستدَلُّ منها على صِفةٍ أخرى هي الّتي يريدها المتكلّم. وكِنايةُ الصّفة هذه ضربان:

١ ـ **قريبةٌ** ينتقل ذهن المتلقّي فيها من المعنى الوضعيّ إلى المعنى المُراد مباشرةً دون وسيط. وسمّيت قريبةً لِقَصَر زمن إدراك المراد منها بسبب انتفاء الوسائط. وتأتي الكنايةُ القريبةُ على إحدى حالين:

● **واضحة** يسْهُل انتقالُ الذّهن منها إلى المُراد بها، كقولكَ: «عنترةُ طويلُ النّجاد». النّجاد حَمائلُ السّيف. تلحظ هنا أنّ المتكلّمَ ذكر موصوفًا هو «عنترة» ثم نسَب إليه صِفةً هي «طول النِّجاد». لكنّ هذه الصفة غيرُ مرادة في ذاتها، بل المراد صفةٌ أخرى تتوارى خلفها هي «طولُ القامة». فإنّ طولَ النّجاد يستلزم طولَ القامة. ويقولون: «سُعْدى نؤومُ الضُّحى»، يريدون أنّها مدلّلةٌ مُترفةٌ، لديها من يخدُمها ويقوم بأمر بيتها. ولعلّك تلحظ أنّ المتكلّم جاء هنا بموصوف هو «سُعْدى» ونسب إليه صفةً هي «نَوْمُ الضّحى». وهذه الصّفة غيرُ مرادةٍ، بل تستلزم صفةً أخرى هي التي يُريدها المتكلّمُ وهي «الترفّه والتنعّم». واسمع ما يقول شاعرُ العرب:

أَبَتِ الرَّوادِفُ والثُّدِيُّ لِقُمْصِها   مسَّ البُطونِ وأنْ تَمَسَّ ظُهورا

كنَى عن ضَخامة عَجيزتِها ونُهودِ ثَدْييها بابتعاد قميصها عن جسَدِها دُبُرًا وقُبُلًا. والكِناية في كلّ ما قدمناه قريبة وواضحة.

● **خفيّة** لا ينتقل الذّهنُ منها إلى المُراد بها إلّا مع شيء من التأمّل والتفكّر، كقول العرب: «فلانٌ عَريضُ القَفا» كنايةً عن أنه «أبْلَهُ»؛ فإنّ عَرْض القَفا على نحوٍ مُفْرط مَعْلَمُ بَلاهة، في الذّهنية العربية، ومن هنا نفى طَرَفَةُ عن نفسه هذه الصفةَ حين قال:

أنا الرّجلُ الضَّرْبُ الّذي تَعْرِفونَه   خِشاشٌ كرَأْسِ الحَيّةِ المُتَوقِّدِ

الضَّرْبُ: الرّجلُ المَاضي، المستعِدّ لِلمُلِمّات، الخفيف اللّحم، والخِشاش كذلك.

وجليّ أنّ المتكلّم ذكَر موصوفًا «فلان» ونسب إليه صِفةَ «عُرْض

القَفا»، وهي صِفةٌ غيرُ مُرادةٍ، بل المُراد لازمُها وهو «البَلاهة». وانتقال الذهن من عَرْض القَفا إلى البَلاهة لا يحصل إلّا مع شيء من التأمّل؛ لأنّ فيه نوعَ خفاء.

وتقول العربُ: «فلانٌ غليظُ القَلْبِ» كنايةً عن أنّه جافٍ غليظ فَظّ؛ فإنّ غِلَظ القَلْب مَعْلَمُ جَفْوةٍ وقَساوة، في التصّور العربيّ. قال سبحانه في خِطاب المُصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾. وبَيِّنٌ أن الانتقال من غِلَظ القَلْب إلى الجَفْوة والفَظاظة يحتاج إلى شيء من التأمّل.

٢ ـ **بعيدةٌ** ينتقل الذّهنُ فيها من المعنى الأصْليّ إلى المعنى المُراد بوسيطٍ أو وسائط. وسُمّيت بعيدةً لِبُعْدِ زَمَن إدراك المُراد منها. ومِنْ أمثلتها:

ـ قولُهم: «فلانٌ كَثِيرُ الرَّمادِ»؛ كنايةً عن أنّه جَواد. وأنت ترى المتكلّم ذكَرَ موصوفًا هو «فلان»، ونسَب إليه صِفةً هي «كَثْرةُ الرّماد»، لكنّ هذه الصّفةَ غيرُ مرادة، بل المُراد لازمُها وهو «الجود». ولا ينتقل الذهنُ من «كثرة الرماد» إلى «الجود» حتى يمرّ بعدّة محطات:

كثرةُ إحراق الحَطَب ← كثرةُ الطَّبْخِ ← كثرةُ الأكَلَة ← كثرةُ الضِّيفان ← «الجُود».

ـ وقول الشاعر:

ومَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنّي جَبانُ الكَلْبِ مهزولُ الفَصِيلِ

الفَصِيلُ ولَدُ الناقة. والشّاهِدُ قولُه «إنّي جبانُ الكَلْبِ، مهزولُ الفصيلِ». إذ كنى بِهذين المعنيين عن جودِه وكثرة قِراه للأضياف. ووسائطُ الذّهنِ في الانتقال من المعنى الوضعيّ لـ «جُبْن الكَلْبِ». إلى المعنى المُراد «الجُود» كثيرةٌ، هي: تأديب الكَلْب ← استمرار ما يوجب

نُباحَهُ وهو مشاهدتُه الوجوهَ الجديدةَ دائمًا ⟵ كون صاحبه مَزارًا للناسِ⟵ كون صاحبِه يَقْرِي الأضيافَ ⟵ «الجود». وكذا الشأنُ في قولِه «مهزول الفصيل».

ثانيًا ـ الكِناية الّتي يُراد بها موصوف. وكيفيّتُها أنْ يذْكُرَ المتكلّمُ صِفةً خاصّةً بموصوف، فينتقل الذّهن من تلك الصّفة إلى المتحقّق بها المتخصّص بها أكثر من غيره. كقولكَ: «جاء هادِمُ اللّذّاتِ ومُفرّقُ الجَماعات» كنايةً عن المَوْت. وأنتَ هنا تذكر صِفة «هَدْم اللّذات»، وهي خاصّةٌ بموصوفٍ غيرِ مذكور «الموت». وذِهْنُ المتلقّي ينتقلُ من «هدْمِ اللّذات» إلى «الموت» بِيُسْر؛ لاختصاصه بهذه الصّفة ولتداول النّاس مِثْلَ هذا المعنى. وكذا الأمرُ في «تفريق الجماعات». وكلّما تخصّص الموصوفُ غيرُ المذكور بالصّفة المذكورةِ واشتهر بها سَهُلَ انتقالُ الذّهن من الصّفة إلى صاحبها المتفرّد بها، على حدّ ما يقول الشاعر العربيّ:

إذا القومُ قالوا: مَنْ فتًى، خِلْتُ أنّني عُنِيتُ، فلَمْ أكْسَلْ، ولم أتَبلّدِ

وتأتي كنايةُ الموصوف على نوعين:

١ ـ الكنايةُ بمعنًى واحد، بأنْ تختصّ صفةٌ واحدة بموصوفٍ معيّن، فتُذْكَر تلك الصّفة لِيتوصّل بها إلى ذلك الموصوف؛ مثل «مَجَامِع الأَضْغان» كنايةً عن «القلوب» في قول الشاعر:

الضّارِبينَ بِكُلِّ أبْيَضَ مِخْذَمٍ والطّاعنينَ مَجامِعَ الأَضْغانِ

المِخْذَم: القاطع. الضِّغْن: الحِقْد. ومجامِعُ الأضغان معنًى واحِدٌ من حيث إنّ مدلوله جنس واحد هو القلوب.

ومن هذا القبيل قولُ البحتريّ:

فأَتْبَعْتُها أخرى فأَضْلَلْتُ نَصْلَها بِحيثُ يكونُ اللُّبُّ والرّعْبُ والحِقْدُ

فالمكان الذي يكون فيه العقلُ والخوفُ والضّغينة هو «القلب».

وكونه مكان اللّب والرّعب والحقد معنًى واحد من حيث إنّ مدلوله جنس واحد هو «القلب».

ومن الكناية بمعنًى واحد قولُهم: «مَخْضوبُ البَنَان» كنايةً عن المرأة، و«هادِم اللذّات» كنايةً عن الموت، و«دار الإقامة» كناية عن الآخرة.

٢ ـ الكِنايةُ بجُمْلة معانٍ، بأنْ تختصّ عدّةُ صِفاتٍ مجتمعةً بموصوف معيَّن، فتُذكَر تلك الصّفاتُ لِيُستدلّ منها على ذلك الموصوف، كقولِهم كنايةً عن الإنسان: «إنّه حَيٌّ مستوي القامةِ عَريضُ الأظفار». ومجموعُ هذه الأوصاف الثلاثة هو المختصّ بالإنسان، وليس كلّ واحد منها.

ومن هذا القبيل قوله سبحانه في الذّكر الحكيم: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ كنايةً عن السّفينة، وقوله سبحانه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ كنايةً عن الإناث. وقد ذكرَتْ كلّ مِنَ الآيتين أمرين: الألْواح والدُسُر، وهما معنيان أو شيئان، ثم التنشئة في الحِلْية وعدَم الإبانة في الخِصام.

وفارقُ ما بين النّوعين أنّ الصّفة الواحدة المذكورة قادرةٌ على إحضارِ الموصوف في الذّهن في النّوع الأول، وأنّ جملةَ صفاتٍ لا غنى عنها لإحضار الموصوف في النّوع الثاني.

ثالثًا ـ الكِناية الّتي يُراد بها نِسْبة أي إثباتُ أمْرٍ لآخرَ أو نفيه عنه. وكيفيّتُها أنْ يُصرّح بالموصوف والصّفة ولا يُصرَّح بالنّسبة بينهما، بل يصرَّح بِنِسبةٍ أخرى تستلزم هذه النسبةَ؛ أي إنّ النّسبة المقصودة تتوارى وراءَ النّسبة المذكورة. واسْمَعْ ما يقول عبدُ القاهر في هذا الشأن: «إنهم يرومون وصْفَ الرّجل ومدْحَهُ وإثباتَ معنًى من المعاني

الشريفة له فيدَعُون التّصريحَ بذلك، ويَكْنون عن جعْلِها فيه بِجَعْلِها في شيء يشتمِلُ عليه، ويلتبِسُ به، ويتوصّلون في الجُملة إلى ما أرادوا من الإثباتِ لا مِنْ الجهة الظّاهرةِ المعروفة، بل من طريقٍ يخفى ومَسْلكٍ يدِقّ».

وإليكَ الأمثلةَ الموضحة لهذا الضَّرْب:

١ ـ قال الشَّنفرىٰ يصِفُ امرأةً بالنّزاهة والعِفّة:

يَبيتُ بِمَنْجاةٍ من اللّومِ بَيْتُها إذا مَا بُيُوتٌ بالمَلامةِ حُلّتِ

قوله: «يبيتُ بمنجاةٍ من اللّوم بيتُها» كنايةٌ، حيث صرّح بالموصوف «المرأة» المعبّر عنها بضَمير الغائب في «بيتها»، وبالصّفة وهي «نَفْيُ اللّوم» ولم يصرِّح بالنسبة بينهما، بل صَرَّح بنسبةٍ أخرى هي «نَفْيُ اللّوم عن بيتها» فاستُدِلّ بهذه النسبة على نسبة أخرى هي المُرادة وهي «نفْيُ اللّوم عنها». وهكذا كنى بنفي اللّوم عن بيتها عن «نفي اللّومِ عنها». وكذا الشأنُ في قوله «إذا ما بيوتٌ بالمَلامة حُلَّتِ»، حيث كنى عن اتّصاف ساكنيها بالمَلامة ونِسبة المَلامة إلى أصحاب البيوت (النّساء الأخريات).

٢ ـ قال زِيادُ الأَعْجَمُ يمدح عبدَ الله بنَ الحَشْرَج والي نَيْسَابُور:

إنّ السَّماحةَ والمُروءةَ والنّدى في قُبّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحَشْرجِ

صرّح الشّاعرُ بالموصوف «ابن الحَشْرج» وبمجموعةِ صفاتٍ «السّماحة والمُروءة والنّدى»، ولم يصرّح بالنّسبة بين هذه الصّفات والموصوف، بل صرّح بنسبةٍ أخرى هي «كون السّماحة والمروءة والنّدى في قبّة ضُرِبَتْ عليه»، وهذه النّسبةُ تستلزم النسبةَ المُرادة، وهي نسبةُ هذه الصّفات إلى ابن الحَشْرَج من حيث وجودُها في قُبّةٍ ضُرِبَتْ عليه، وضرورة قيامها بِمَحَلٍّ صالح.

٣ ـ قال أبو نُواس يمدح الخَصِيبَ:

فَمَا جازَةُ جُودٌ ولا حَلّ دونَه ولكِنْ يَسِيرُ الجُودُ حيثُ يَسيرُ

صرّح بنسبةٍ هي «سَيْرُ الجُودِ في المكان الذي يسير فيه الممدوحُ» فاستُدِلّ من ذلك على النّسبة المرادة، وهي نِسْبةُ الجود إليه.

والكِناية التي يُراد بها نِسْبةٌ نوعان:

ـ ما يُذْكَرُ فيه صاحِبُ النّسبة المرادة كما في قول الشاعر:

اليُمْنُ يتْبَعُ ظِلَّهُ والمَجْدُ يمْشي في رِكابِهْ

فصاحِبُ النّسبة مذكورٌ في الكلام معبّرٌ عنه بالضّمير في «ظلّه» و«ركابه». إذ يُستفاد من تَبَع اليُمْن لِظلّه اختصاصُه به. وكذا الشأنُ في المَجْد؛ إذ يُفْهَم من مَشْيِه في رِكابه اختصاصُه به. وفي كِلْتا الحالين يُراد بالكناية نسبةٌ: نسبة اليُمْنِ والمَجْد إليه.

٢ ـ ما لا يُذْكَرُ فيه صاحِبُ النّسبة المرادة، كما في قول المصطفى ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِم المسلمونَ من لِسانه ويده...». ففيه نَفْيُ صِفةِ الإسلام عن المُؤذي، وهو غيرُ مذكورٍ في الكلام. ونظيرُه قولُكَ لِصَديقٍ خذَلَك في موقفٍ: «الصَّديقُ عندَ الضِّيقِ»؛ ففيه نَفْي صِفة الصّداقة عنه وهو غيرُ مذكورٍ في الكلام.

أقسامُ الكناية تبعًا للوسائط:

تنقسم الكنايةُ تبعًا للوسائطِ على أربعة أقسام:

١ ـ **التعريض**: وهو ـ لُغةً ـ خِلافُ التّصريح؛ واصطِلاحًا إطلاقُ الكلام والإشارةُ به إلى معنًى آخر يُفهَم من السّياق. كما تقول لِمَنْ يؤذي: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِم المسلمون من لسانه ويده...». فالمعنى الصريحُ للحديث حَصْرُ الإسلامِ فيمن لا يؤذي، ويلزم منه نَفْيُ الإسلامِ

عن كلّ مؤذٍ، ومن بَيْنِ هذا الكلّ مخاطبُك. وكقولِكَ لِمَنْ تجاوز حدّه: «رَحِم الله امرأً عرَفَ حدَّه فوقفَ عِنْدَه». كناية من قبيل التّعريض بأنّ صاحبَك لم يَعْرِف حدَّه، ولم يقف عنده. ومنه قول الشّاعر:

تمنّى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهُما وهَلْ أنا إلّا مِنْ ربيعَةَ أَوْ مُضَرْ

قولُه: «وهَلْ أنا إلّا منْ ربيعةَ أو مُضَر» كنايةٌ من قبيل التّعريض بأنّه لن يعيش، يدلّ على ذلك مطلعُ البيت.

٢ ـ **التّلويح**: وهو ـ لُغةً ـ أن تُشيرَ إلى غيرِك مِنْ بعيد؛ واصْطِلاحًا كنايةٌ كثُرَتْ فيها الوسائطُ بين اللّازم والمَلْزوم، كقول الشاعر:

ومَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنّي جَبَانُ الكَلْبِ مهزولُ الفَصِيلِ

كنى بجُبْن الكَلْب وهُزال الفَصيل عن جوده، لكنّ بين المعنيين عددًا من الوسائط عرَفْتَها قبلُ. ومثلُه قولُ الآخر:

وكَلْبُكَ آنَسُ بالزّائرينَ مِنَ الأُمِّ بِابْنَتِها الزّائرهْ

٣ ـ **الرّمز**: وهو ـ لُغةً ـ أن تشير إلى قريبٍ منكَ خفيةً بِشَفةٍ أو حاجبٍ؛ واصطِلاحًا كِنايةٌ قلَّتْ وسائطُها مع خفاء اللّزوم. كقول الشاعر:

عَرِيضُ القَفا مِيزانُه في شِمالِه قد انحصَّ منْ حَسْبِ القَراريطِ شارِبُهْ

في البيت ثلاثُ كِنايات سَلَكت جميعًا طرقَ الرّمز لِقلّة الوسائط مع خفاء اللّزوم: عريضُ القَفا كِنايةٌ عن بَلاهته؛ و«مِيزانه في شِماله» كنايةٌ عن عدَم الضّبْطِ والإحكام، و«انْحَصّ مِنْ حَسْب القراريط شارِبُه» كِنايةٌ عن انشغالِه بالتّوافه الّتي لا ينشغِلُ بها ذَوُو الهِمَم.

٤ ـ **الإيماء أو الإشارة**: وهو كِنايةٌ قلَّتْ وسائطُها مع وضوح اللّزوم. كقول الشَّنفَرىٰ يذكر امرأةً:

لقد أعْجَبَتْني لا سَقُوطًا قِناعُها   إذا مَا مَشَتْ ولا بِذاتِ تَلَفُّتِ

كنى بِعَدم سُقوط قِناعها عن حَيائها وخَفَرِها وتصاوِنها. واللّزوم بيّنٌ بين عدَم سقوط القِناع والحياء. وكذا كنى بِعَدَم تلفّتها عن عفّتها ورزانتها ووقارها. وكقول البحتريّ:

أوَمَا رأيتَ المَجْدَ ألقى رَحْلَهُ   في آلِ طَلْحَةَ ثمّ لم يتحوَّلِ؟

أراد أنّ المجدَ أقام في خِيام آل طلحة ولم يرحل عنها، فكنى بإثبات المَجْد لخيام آل طلحة عن إثبات المجد لهم؛ ذلك أنّ المجد صفةٌ، أي معنًى قائمٌ بغيره، والخِيامُ لا تصلُح محَلاً لها، واللّزوم واضح.

وتسميةُ هذا الضّرْب من الكِناية «إيماءً» أو «إشارةً» إنّما تشير إلى وضوح الدّلالة وظهورِها فيه؛ لأنّ الإيماء إشارةٌ واضحةٌ إلى القريبِ منكَ، والإشارة موضوعةٌ للدّلالة على المَحْسوس الذي هو أمرٌ ظاهر.

ونَحْسَبُك الآنَ عرفتَ على نحوٍ لا تحتاج معه إلى مزيدِ إيضاح أنّ:

الكِنايةَ لفظٌ لا يُراد به ظاهرُ معناه الّذي وضَعَتْهُ له اللّغةُ، بل معنًى آخر لازِمٌ لمعناه الظّاهرِ ومستَنتَجٌ منه مع جواز قَصْد المعنى الظّاهر مع لازمه، وأنّ اللّفظ الكِنائيّ قد يكون صِفةً تستلزم صِفةً أخرى هي المُرادة، أو صِفَةً تستلزِم موصوفًا هو المُراد، أو نسبةً تستلزم نسبةً أخرى هي المُرادة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

جماليّاتُ الأسلوبِ الكِنائي وبلاغتُه

الكِنايةُ إحدى طرائقِ التّعبير الّتي اهتدى إليها الإنسانُ لتوصيل انفعاله بالأشياء إلى الآخرين. ويمتاز هذا الأسلوبُ بقدرة تعبيرية عالية تجعل البلغاءَ يُؤثِرونه على غيره من الأساليب ويزيّنون به كلامَهم، كما يحظى بسُلطانٍ كبير على نفوس المتلقّين؛ لما ينطوي عليه من قدرةٍ على تحريكِ الذّهن ومضاعفة فعاليته في تحصيل المُراد من الكلام، ومن ثم إمتاعه ببهجة الكَشْف والتعرّف. ونسوق لكَ ههنا شيئًا مِمّا أبدعته قرائحُ أفْذاذِ البُلغاء بشأن جماليّات هذا الأسلوب:

١ ـ تجويدُ الصورة التي يخرج فيها المعنى على نحو يشدّ إليه النّفوسَ ويجذِب إليه الأفهام. وفي هذا المعنى يقول عبدُ القاهر: «سبيلُ المعاني أن ترى الواحدَ منها غُفلاً سَاذَجًا عاميًا موجودًا في كلام النّاس، ثمّ تراه نفسَه وقد عمَد إليه البصيرُ بشأن البلاغة وإحداثِ الصُّوَر في المعاني فيصنعُ فيه ما يصْنَع الصَّنَع الحاذِق حتّى يُغْرِب في الصَّنْعة ويدِقّ في العَمَل ويُبدِع في الصّياغة». فشتّانَ ما بين أن تقول: «احذَرُوا ثورةَ فلانٍ وغضَبه وصَوْلتَه» وأن يقول الفرزدقُ في المعنى نفسه:

إذا مالِكٌ أَلْقى العِمامَةَ فاحْذَرُوا   بَوادِرَ كَفَّيْ مالِكٍ حِينَ يَغْضَبُ

٢ ـ تأكيدُ المعنى وتقريرُه وإثباته من الوِجهة الّتي تبعث طمأنينة النّفس وبَرْدَ اليقين. قال عبدُ القاهر: «ليس المعنى إذا قلْنا إنّ الكناية أبلغُ من التّصريح أنّك لمّا كنيتَ عن المعنى زِدْتَ في ذاته، بل المعنى

أنّك زِدْتَ في إثباته فجَعَلْتَه أبلغَ وآكدَ وأشدّ». وفضْلَ إثباتِ المعنى بالكناية على إثباته بغيرها أنّ الكنايةَ تقدّم لك المعنى مقرونًا بِدَليلِهِ الذي لا يخطىء وبرهانِه الّذي ينفي عنه كلّ شكّ. يقول عبدُ القاهر: «أمّا الكنايةُ فإنّ السّبب في أنْ كان للإثبات بها مَزِيّةٌ لا تكون للتّصريح أنّ كلّ عاقِلٍ يَعْلَم إذا رجع إلى نفسه أنّ إثباتَ الصّفة بإثباتِ دليلِها وإيجابَها بِمَا هو شاهِدٌ في وجودها آكدُ وأبلغُ في الدّعوى من أن تجيء إليها فتُثبتها هكذا سَاذجًا غُفْلاً».

٣ ـ تحصيلُ المعنى مِنْ معنًى آخر مِمّا يضاعف ابتهاجَ العَقْل بالكَشْف والتعرّف بعد طُول بحْثٍ وتشوّق. قال عبدُ القاهر: «ومِنَ المَرْكُوزِ في الطِّباعِ والرّاسخ في غرائز العقول أنه متى أُريد الدّلالةُ على معنًى فتُرِك أن يصرَّح به ويذكر باللّفظ الّذي هو له في اللّغة، وعُمِد إلى معنًى آخر فأُشيرَ به إليه وجُعِل دليلاً عليه كان لِلكلام بذلك حُسْنٌ ومَزِيّةٌ لا يكونان إذا لم يُصْنَع ذلك وذُكِر بلفظه صريحًا».

٤ ـ التّلطّف في عَرْض المعاني الّتي يَنْبو عنها الذّوقُ ويستكرِهها السَّمْع. قال سبحانه في النّهي عن أخْذِ المُهور مع بيان السّبب: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾. وقال سبحانه كنايةً عمّا يَحْرُم إتيانُه في الحَجّ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

٥ ـ التعّبير عن المُراد دونَ خوف اللاّئمة. قال امرُؤُ القَيْس كِنايةً عن المرأة الجميلة:

وبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها تمتّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِها غيرَ مُعْجَلِ

وقال حُمَيْدُ بنُ ثَوْر مكنيًا عن صاحبته بالسَّرْحة حين سُدّ عليه سبيلُ التّصريح بِاسْمها:

أبىٰ اللّـهُ إلّا أنّ سَرْحَةَ مالِكٍ   على كُلّ أَفنانِ العِضاهِ تَرُوقُ
فَيَا طِيبَ رَيّاها وبَرْدَ خِلالِها   إذا حَانَ مِنْ حامي النَّهارِ وَدِيقُ

٦ ـ تصويرُ دقائق المعاني ومكنونات الصّدور مِمّا يَعْجِز عنه التصريح. قال البحتريّ يذكر فَتْكه بالذئب:

فَأَتْبَعْتُها أخرى فأَضلَلْتُ نَصْلَها   بحيثُ يكونُ اللّبُّ والرُّعْبُ والحِقْدُ

كنى عن «القَلْب» بكونه مكانَ اللّبّ والرّعب والحقد. قال ابنُ سِنان في بلاغة هذه الكِناية: «أرادَ القَلْبَ فلم يعبِّر عنه باسمه الموضوع له، وعدَل إلى الكِناية عنه بما يكون اللّبُّ والرّعبُ والحقد، وكان ذلك أحسنَ؛ لأنّه إذا ذكَرَه بهذه الكِنايات كان قد دلّ على شرَفِه وتميّزه على جميع الجَسَد بِكَوْن هذه الأشياء فيه، وأنه أصاب هذا المَرْمى في أشْرَف موضعٍ منه. ولو قال أصبْتُه في قلْبه لم يكن من ذلك دِلالةٌ على أنّ القلْبَ أشرفُ أعضاء الجسَد».

أسئلة وإجاباتها حول الكناية:

ـ حدّد نوعَ الكِناية تبعًا للمَكْنيّ عنه وتبعًا للوسائط فيما يأتي:

١ ـ وإنْ حَلَفَتْ لا ينقُضُ النأيُ عهدَها فليسَ لِمَخضوبِ البَنانِ يَمِينُ
٢ ـ وكلبُكَ آنسُ بالزّائرينَ مِنَ الأمِّ بابنَتِها الزّائرهْ
٣ ـ قال الحجّاج: «إنّ أميرَ المؤمنينَ نثَرَ كِنانتَه عُودًا عُودًا فوجدني أمرَّها عُودًا وأصْلَبَها مَكْسَرًا فرَماكم بي. واللّهِ لأخزِمنَّكمْ حَزْمَ السَّلَمةِ ولأضرِبنّكمْ ضَرْبَ غرائب الإبِل».
٤ ـ لا يرفعُ الضّيفُ عَينًا في منازِلنا إلّا إلى ضاحِكٍ منّا ومُبْتَسِمِ
٥ ـ تقول الّتي مِنْ بيتِها خفَّ مَحْمَلي عَزيزٌ علَيْنا أن نَراكَ تَسِيرُ
٦ ـ ذلك فارِسٌ لا يَشقّ له غُبارٌ.
٧ ـ لا يَنْزِلُ المَجْدُ إلّا في منازِلِنا كالنّومِ ليس له مأوى سوى المُقَلِ
٨ ـ سَعَةُ صَدْرِك أطمعتِ الناسَ بك.
٩ ـ فأَتبعتُها أخرى فأضْلَلْتُ نَصْلَها بحيثُ يكون اللّبُّ والرّعبُ والحِقْدُ
١٠ ـ أبَيْنَ فمَا يَزُرْنَ سِوى كريمٍ وحَسْبُكَ أنْ يَزُرْنَ أبا سعَيدِ

ـ الإجابات:

١ ـ في قوله: «مخضوب البَنان» كِنايةٌ عن موصوف، وهي المرأة؛ فَخِضاب البَنان من صِفاتها الخاصّة بها، هذه الكنايةُ من نوع الإيماء؛ لقلّة الوسائط ووضوح الدّلالة.

٢ ـ في قوله: «آنسُ بالزّائرين من الأمّ بابنتها» كنايةٌ عن صِفة هي الكرَم؛ فاستئناسُ الكلب بالزّائرين يستلزم معرفةَ هؤلاء الزّائرين، وهذه المعرفةُ دليلُ اتّصال مشاهدته إيّاهم على نحوِ متّصل، وهذا دليلٌ على

أنّ بيتَ الممدوح مزارُ الضّيفان وملتقى طُلّاب الحاجات. وهذا دليلُ ما قصد إليه الشّاعرُ من إحسان الممدوح وسَعة جُوده واتصال فضْله. ولِبُعْد المسافة بين أُنس الكَلْب بالزائرين وكرَم الممدوح كانت هذه الكنايةُ من نوع «التلويح».

٣ ـ في قوله: «نثر كنانته. . . فرماكم بي» كنايةٌ عن صفة هي التّنقيب والتّفتيش عمّا هو أصلحُ حتّى العثور عليه ورميهم به، وهي من نوع «التّلويح»؛ لِبُعْد المسافة بين الأفعال التي ذكرها والمعنى المراد.

٤ ـ في هذا البيت كنايةٌ عن صِفة هي كرَم قوم الشاعر وعشيرته، إذ يستلزم الضَّحِكُ والبشاشةُ في وجه الضّيف الاحتفاءَ به، وهذا معْلَمُ كرَمٍ وجود. وهذه الكناية من نوع «الإيماء»؛ لِقِلّة الوسائط ووضوح الدّلالة.

٥ ـ في قوله: «من بيتها خفّ مَحْمَلي» كنايةٌ عن موصوفٍ، هي امرأته؛ ذلك أنّ راحلةَ العربيّ إنما تخِفّ من بيته هو في العادة. وهذه الكناية من نوع «الإيماء»؛ لِقلّة الوسائط ووضوح الدّلالة.

٦ ـ في قولهم: «لا يُشَقّ له غُبار» كنايةٌ عن صِفةٍ هي السّبْقُ والتّقدم؛ إذ يعني ذلك أنه يسْبِق منافسيه في حَلْبة السّباق إلى درجة أنّ الغُبار الّذي يثيره جوادُه يسْكُن ولا تبقى له بقية عندما يأتي الفارس الآخر فيشقّها، أي إنّ بينه وبين الفرسان الآخرين مسافة. وهي من نوع «الرّمز» لِقِلّة الوسائط وخفاء اللّزوم نسبيًا.

٧ ـ في قوله: «لا يَنْزِل المَجْدُ إلّا في منازلنا» كنايةٌ عن نِسْبةٍ، وهي إثباتُ المَجْد لهم؛ فإنّ عدمَ نزول المَجْد إلّا في منازلهم، وضرورةَ قيام المَجْد بأناسٍ، يستلزمان قيامَه بهم. وهي من نوع «الإيماء» لِقِلّة الوسائط ووضوح الدلالة.

٨ ـ في قوله: «سَعةُ صَدْرك» كنايةٌ عن صِفةٍ هي الحِلْم، فإنّ سَعَة الصّدر تستلزم أن يكون الإنسانُ غاضًا الطَّرْفَ عن الزلاّت متجاهلاً الإساءات. وهي من نوع «الإيماء» لِقِلّة الوسائط ووضوح الدّلالة.

٩ ـ في قوله: «بحيثُ يكونُ اللّبّ والرّعب والحِقدُ» كنايةٌ عن موصوف هو «القَلْب»؛ فإنّ القلب هو موطنُ العقل والهَلَع والضّغينة.

١٠ ـ في عجُزِ البيت كنايةٌ عن صفة، هي كرم أبي سعيد، وهي من نوع «الإيماء».

أسئلة حول الكِناية تُطلَب الإجابة عنها على غرار ما تقدّم:

ـ حدّد نوعَ الكناية تبعًا للمكنيّ عنه وتبعًا للوسائط فيما يأتي:

١ ـ وأَقْبَلَتْ يومَ جَدَّ البَيْنُ في حُلَلٍ   سُودٍ تعضّ بنانَ النّادمِ الحَصِرِ
٢ ـ فمَا جازهُ جُودٌ ولا حَلَّ دونَه   ولكنْ يَصِيرُ الجودُ حيثُ يصيرُ
٣ ـ أُريدُ بسْطةَ كَفٍّ أستعينُ بها   على قَضاءِ حُقوقٍ للعُلا قِبَلي
٤ ـ أفنى تِلادي وما جمَّعْتُ من نَشَبٍ   قَرْعُ القَواقيزِ أفواهَ الأباريقِ
٥ ـ أشدُّ ما يزعِجُ المرءَ إساءةٌ أَتتْه مِمّن وَلَدَتْه أُمّه.
٦ ـ فصبّحَهُمْ وبُسْطُهُمُ حَريرٌ   ومَسّاهم وبُسْطُهُمُ تُرابُ
٧ ـ ولَمّا شَرِبْناها ودَبَّ دَبيبُها   إلى موطنِ الأسرارِ قلتُ لها قِفي
٨ ـ النّاسُ للنّاسِ مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرٍ   بَعْضٌ لِبَعْضٍ، وإنْ لم يشعُروا خَدَمُ
٩ ـ تقول عن متوفًّى: «استوفى طعامَه وشرابَه».
١٠ ـ قال زهير يمدح:
تَراهُ إذا ما جِئْتَه مُتَهلّلاً   كأنّكَ تُعطيهِ الّذي أنتَ سَائِلُهْ
١١ ـ تقولُ العامّةُ عن شخصٍ وَرِعٍ: «لا يدوسُ النّملةَ».
١٢ ـ أحمدُ مِلْءُ إهابِه الكرَم. الإهاب: الجِلْد.

١٣ ـ قال ابنُ باقِلّاني (بائع فول):

أنا ابنُ الّذي لا تنزِلُ الدَّهْرَ قِدْرُه   وإنْ نَـزَلَـتْ يـومًـا فـسـوفَ تَـعُـودُ

١٤ ـ قال الشاعر يصف كلْبَ أحدهم:

يكاد إذا ما أبصرَ الضَّيْفَ مُقْبِلاً   يُـكَـلِّـمُـه مِـنْ حُـبّـه وهْـوَ أعْـجَـمُ

١٥ ـ قال سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الكتابُ الثالث

علمُ البديع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الأوّل

المحسّنات المعنويّة

ويتضمّن:

١ ـ المطابقة
٢ ـ المقابلة
٣ ـ مراعاة النظير
٤ ـ الإرصاد
٥ ـ المشاكلة
٦ ـ المزاوجة
٧ ـ العكس
٨ ـ التورية
٩ ـ الاستخدام
١٠ ـ الطيّ والنشر
١١ ـ الجمع
١٢ ـ التفريق
١٣ ـ التقسيم
١٤ ـ الجمع مع التفريق
١٥ ـ الجمع مع التقسيم
١٦ ـ التجريد
١٧ ـ المبالغة
١٨ ـ المَذْهب الكلاميّ
١٩ ـ حُسْنُ التعليل
٢٠ ـ التفريع
٢١ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذمّ
٢٢ ـ تأكيد الذمّ بما يشبه المدح
٢٣ ـ الاستتباع
٢٤ ـ الإدماج
٢٥ ـ التوجيه
٢٦ ـ الهَزْل الذي يُراد به الجِدّ
٢٧ ـ تجاهل العارف
٢٨ ـ القول بالموجب
٢٩ ـ الاطّراد
٣٠ ـ الأسلوبُ الحكيم
٣١ ـ تشابه الأطراف
٣٢ ـ موافقة اللّفظ للمعنى
٣٣ ـ حُسْنُ الابتداء
٣٤ ـ حُسْن الختام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

البديعُ لُغةً واصطِلاحًا:

البَدِيعُ ـ لُغةً ـ المُخْتَرَعُ، المُوجَدُ على غير مثال سابق. وهو من بدَع الشيءَ، إذا أنشأه وبدأه. إذ تقول العَربُ: «بدَعَ الرَّكِيّةَ»، إذا استنبطها وأحدثها. والرّكيةُ البئرُ، ورَكِيٌّ بديعٌ أي حديثة الحَفر. ويأتي بمعنى «مُبْدِع» كما في قوله سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي منشئُهما على غيرِ مثال سابق. ويُلْمَح في هذا الاستخدام القرآنيّ معنى الإعجاب والإدهاش والإبهاج؛ فمن شأن إبداع السّموات والأرض على غيرِ مثال أن يُثيرَ لدى الإنسان إحساسَ الجَلال والجَمال.

وفي الاصطلاح البلاغيّ البديعُ هو:

عِلْمٌ يُعرَفُ فيه وجوُهُ تحسين الكلام، بعد رِعاية المطابقةِ لِمُقتضى الحَال، ووُضوحِ الدّلالة على المعنى المراد.

ونعيدُ إلى ذهنِك ما قدّمنا من أنّ عِلْمَيْ المعاني والبيان إنّما يبحثانِ في صميم المعنى المراد؛ إذ يتناول عِلْمُ المعاني المعنى من وجهة مطابقته لمقتضى الحال، أي من وِجهة الأوضاع الّتي تجعل المعنى يظفرُ بأقصى درجاتِ الموافقة لِلْحال التي يُقال فيها والمخاطب الذي يوجَّه إليه. ويتناولُ علمُ البيان المعنى من وِجهة توصيله للمتلقّي على صُوَرٍ متفاوتة في وضوحِ دِلالتها عليه.

أمّا علمُ البديع ـ الذي نحن في صدده ـ فيتولّى دراسةَ المعنى أو اللّفظ من حيث صياغتُها على أنحاءٍ خاصّة تُبهج العَقْلَ وتنعِشُ النفسَ

وتثير الحِسّ الجماليّ عند الإنسان، فهو يدرس جماليّات الأداء أو الصّياغة، أو وجوه تحسين الكلام.

والمحسّنات البديعية (أو الجماليّات) على قسمين:

١ ـ المحسّنات المعنوية، وهي الّتي يكون التجميلُ بها راجعًا إلى المعنى أصْلًا، وإن تبع ذلك تجميلُ اللّفظ فإنّه غيرُ مقصود.

٢ ـ المحسّنات اللّفظية، وهي الّتي يكون التجميلُ بها راجعًا إلى اللّفظ أصلًا، وإن تبع ذلك تجميلُ المعنى فإنّه غير مقصود.

ولا ينبغي أن يغيب عن الذّهن أنّ استخدام هذه المحسّنات، بخاصّةٍ اللّفظيّة منها، يُحَدِّده مطلبُ توصيل الفكرة وبيان المعنى وجاذبية الصّورة الكلامية، كما لا ينبغي أن يُجعَل الإتيانُ بمثل هذه الجماليات هدَفًا يرمي إليه المتكلّم ويضعُه نُصْبَ عينيه قبلَ كلّ هدف آخر.

وقد حدّد عبدُ القاهر الجُرجانيّ الكيفيةَ المثلى لاستثمار هذه الجماليّات وتحقيق الغاية المنشودة منها إذ قال: «ولعَمْري، لن تجدَ أيْمَنَ طائِرًا، وأحسنَ أوّلًا، وآخِرًا، وأهدى إلى الإحسانِ وأجلبَ للاستحسان، من أن تُرْسِل المعانيَ على سَجِيّتها، وتدَعَها تطلبُ لأنفسها الألفاظَ؛ فإنّها إذا تُرِكَتْ وما تريدُ لم تكتسِ إلّا ما يليقُ بها، ولمْ تلبسْ من المعارض إلّا ما يزيّنها».

وإليكَ القولَ المفصّل في كلّ من هذين الضّربين:

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحسّنات المعنوية:

ومن أنواعها الكثيرة:

١ ـ المُطابقة:

وتُسمّى الطِّباقَ والتّضادّ. وتعني في الاصطلاح البلاغيّ:

أن يجمعَ المتكلِّم في كلامه بين لفظَين يتنافى وجودُ مَعْنَيَيْهِما معًا في شيءٍ واحدٍ في وقتٍ واحد، أي أن يجمع في كلامٍ واحد معنَيين متقابلين.

واللّفظان المتطابقان إمّا من نوع واحد من أنواع الكلمة (اسْمين، فعلين، حَرْفين)، وإمّا من نوعين مختلفين.

فمثالُ ما نوعُهما واحدٌ وهو اسْمٌ قوله سبحانه: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾.

فالجمعُ بين الأَيْقاظِ والرّقود في كلامٍ واحد مطابقةٌ؛ لأنّ اليَقظة ضدّ الرّقود، وهما من نوع الاسم.

ومِثالُ ما نوعُهما واحدٌ وهو فِعْلٌ قوله سبحانه: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾. فالجمع بين «يُحيي» و«يُميت» مطابقةٌ؛ لأنّ الحياةَ ضدّ الموت، وكلّ منهما فعل. ومثال ما نوعُهما واحِدٌ هو حرْفٌ قوله سبحانه: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾. فالجمعُ بين «اللاّم في لها» و«على» في «عليها» مطابقةٌ؛ لأنّ في «اللاّم» معنى المنفعة، وفي «على» معنى التضرّر. إذ إنّ مؤدّى الآية الكريمة لا ينتفع بطاعتِها ولا يتضرّر بمعصيتها أحدٌ غيرُها.

أما مطابقةُ اللّفظين المختلفين في النّوع فكقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾. فالجَمْعُ بين «يُضلل» و«هاد» مطابقةٌ؛ لأنّ الضّلال ضدّ الهداية، واللّفظ الأولُ فِعْلٌ، والثّاني اسم. وكقوله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ فالجمعُ بين «مَيْتًا» و«أحييناه» مطابقةٌ؛ لأنّ الموتَ ضِدّ الحياة، والأوّلُ اسْمٌ، والثّاني فعل.

وكذا فإنّ الطِّباق ضربان:

١ ـ طباق إيجاب، وهو أن يُجْمَع بين لفظين تضادّ معنياهما وكلٌّ منهما مُثْبَت؛ كالأمثلة السابقة.

٢ ـ طباق سَلْب، وهو أن يُجمع بين فِعْلَيْ مصدرٍ واحدٍ أحدُهما مُثْبَتٌ والآخر منفيّ، أو أحدُهما أمرٌ والآخر نَهْي. ومثال الأول قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. فالجمعُ بين «لا يعلمون» و«يعلمون» مطابقةٌ، لأنّ مَعْنَيي اللّفظين تقابلا بالإيجاب والسّلْب. ومثالُ الثاني قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

على أنّ التّقابل بين المعنيين من حيث درجةُ وضوحه ضَرْبانِ:

أ ـ واضح ظاهِرٌ للعِيان، كقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ وكالأمثلة المتقدّمة.

ب ـ خفيّ يقتضي شيئًا من التّفطّن، كقوله سبحانه: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾. فقوله سبحانه: ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ له معنيان: ظاهرٌ لا يقابل معنى الإغراق، وخفيٌّ يقابل معنى «الإغراق»، وهو «الإحراق». فكأنّ الكلام يمضي هكذا: أُغرِقوا فأُحْرِقوا. وكقوله سبحانه: ﴿أَشِدَّآءُ

عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾. فالرّحمة لا تقابل الشدّةَ، لكنّ الرّحْمةَ مسبّبةٌ عن اللّين الّذي هو ضدّ الشدّة.

وأصْلُ التّطابق في اللّغة التّساوي، وهو هنا تساوٍ في الضِّدِّيَّة؛ فكأنك تذهب إلى أنّ الضدَّ المساوي في الضدّية لـ«أضحك» إنما هو «أبكى»، والضدّ المساوي في الضدّية لـ«أبيض» هو «أسود».

جماليّاتُ المطابقة:

يخيَّل إلينا أنّ جمالية هذا المحسّن البديعيّ راجعةٌ في بعض النّواحي إلى أنّه يجمع الأضدادَ، ويلُمّ شَتاتَ المتنافرات في موضع واحد، فيُحدث في الذّهن ضرْبًا من الانتقال السّريع بين الضدّ وضدّه والشيء ومقابله. وحين يتحقّق للإدراك هذه الإحاطةُ بالمتباعدات في الواقع، على هذا النحو السّريع وعلى هذه الصورة التي يتجاورُ فيهَا الماءُ والنارُ والأبيضُ والأسود، يأنسُ شيئًا من البهجة والرّضا. ويبدو أنّ المُتباعدات في المعنى أقدرُ من غيرها على تنشيط الفعاليّة الإدراكية. كما يتأتّى شيءٌ من هذه الجمالية من التعجّب والإدهاش اللّذين يحدُثانِ للذّهن عند إدراك الأفعال المتضادّة المنسوبة إلى فاعل واحد. تلمَسُ ذلك جَلِيًّا في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾. كما تتراءى لك أثارةٌ منه في قول المتنبّي:

يا أعدلَ النّاسِ إلّا في مُعاملتي ... فيكَ الخِصَامُ وأنتَ الخَصْمُ والحَكَمُ

فالقدرةُ على إحداثِ هذه الأفعال المتباعدة شيءٌ عُجابٌ يثير في ذهن المتلقّي الاندهاشَ والاستغرابَ والتساؤل. وعلى الجُملة فإنّ في جِبِلّة الإنسان حُبًّا لرؤية المتباعدات في الحَياة متجاوراتٍ في رِحاب اللّغة.

٢ ـ المُقابَلَة:

ويريد منها البلاغيون:

أن يُؤتى بمعنَيَينِ متوافقين أو عدّة مَعانٍ متوافقة، ثم يُؤتى بِمُقابِلاتٍ لها على ترتيبها.

وتكون المقابلة من حيث عددُ المتقابلات:

١ ـ بين معنيَين، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾. حيث أُتي بالضَّحك الموصوفِ بالقِلّة، أولاً، ثم أُتي بما يقابلهما تمامًا: البكاء الموصوف بالكثرة. وكما في قول المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام: «عليكِ بالرِّفْقِ يا عائشةُ؛ فإنّه ما كان في شيء إلّا زانَه ولا نُزِع من شيء إلاّ شانَه».

ومنه في الشعر قول النّابغة الجَعْديّ:

فتًى تمَّ فيهِ ما يسُرُّ صَديقَهُ على أنّ فيهِ ما يَسُوءُ الأعادِيا

٢ ـ بين ثلاثة معانٍ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾. والتقابل واضح.

ومنه في الشعر للمتنبي:

ما أحسنَ الدّينَ والدُّنيا إذا اجتمعا وأقبح الكُفْرَ والإفلاسَ بالرَّجُلِ

أتى بالحُسْن والدّين والثّراء المفهوم من «إقبال الدّنيا»، ثم أتى بما يقابلها على التّرتيب: القُبح والكُفر والإفلاس.

٣ ـ بين أربعة معانٍ كما في قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾، أتى أولًا بالإعطاء والاتّقاء والتّصديق واليُسْر، ثم أتى بما يقابلها على التّرتيب: البُخْل والاستغناء والتكذيب

والعُسْر. أمّا كيف يكون «استغنى» مقابلًا لـ«اتّقى»، فإنّ معنى «استغنى» زَهِد فيما عند ربّه فلم يراقبه أي لم يتّقه. أو استغنى بمتاع الدّنيا عن نعيم الجنّة، فلم يتّق الله في عمله.

٤ ـ بين خمسة معانٍ كما في قول المتنبّي:

أزورُهمْ وسَوادُ اللّيلِ يَشفعُ لي وأنثني وبَياضُ الصُّبحِ يُغْري بي

أتى بالزّيارة، والسّواد، واللّيل، والشفاعة له، ثم أتى بما يقابلها على التّرتيب: الانثناء بمعنى الرجوع، والبياض، والصّبح، والإغراء به.

٥ ـ بين ستّة معانٍ، كما يتجلّى لكَ في قول الشاعر:

على رَأْسِ عَبْدٍ تاجُ عِزٍّ يَزينُهُ وفي رِجْلِ حُرٍّ قَيْدُ ذُلٍّ يَشِينُهُ

والمقابلة هنا أوضح من أن يفتّش عنها.

جماليّاتُ المُقابلة:

يبدو أنّ جمالية هذا المحسّن البديعي تعتمد في جانبٍ منها على ما في التّطابق من جماليّات أشرنا إليها. فإنّ المقابلة ضربٌ من المطابقة، ولا تختلف عنها إلّا في الكَمّ. ففي المقابلة يكون التّقابل بين معنيين على الأقل، أمّا في الطّباق فلا تكون إلّا بين معنى واحد ومُقابِلِه. ويُضاف إلى ذلك جماليةٌ أخرى هي «تحقيق التوقُّع»؛ فإنّ المتلقّي حين يدرِكُ التّقابلَ بين المعنيين الأوّلَيْنِ في المقابلة يُعِدّ نفسَه لتلقّي تقابلٍ آخر، فإذا ما تحقّق له ذلك أحسّ بشيء من المُتْعة هي المتعةُ الّتي نأنسُها عندما تتحقَّق توقّعاتُنا. كما تنطوي المقابلةُ على قدرةٍ فائقة على تمييز الأشياء وبيانها. تأمّل هذا التّعبيرَ الدّقيق عن التّحوّل الذي عاشته الأمّةُ بين مرحلتين:

يا أُمّةً كان قُبْحُ الجَوْرِ يُسْخِطُها دَهْرًا فأصْبَحَ حُسْنُ العَدْلِ يُرضِيها

وكذا فإنّنا لا نملِك إلّا أن نعجب بأولئك الّذين يقدرون على التّصرّف بمفردات اللّغة والإتيان بها متناظرةً متقابلةً على هذا النّحو الانتقائيّ الّذي يشي بالقصد، ويُنبىء عن حِسٍّ جماليّ راقٍ.

٣ ـ مراعاة النّظير:

وتُسمّى التّناسبَ والتّوفيق والائتلاف والتّلفيق. وهي عند البلاغيين:

أن يَجمعَ المتكلّمُ بين أمرين متناسِبَين أو أمورٍ متناسبة لا على جهة التّضاد.

ومن مراعاة النّظير بين أمْرَين قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. فإنّ ثمّة تناسبًا بين السّمع والبصر، من وِجهة أنّ كلًّا منهما فعلُ حاسّةٍ من الحواسّ الخمس. ويلحظ الذّهن نوعَ تآلفٍ وتقارب بين «السّميع» و«البصير» لا يحصُل لو كان اللّفظ الثّاني «الخبير» مثلاً.

ومن مراعاة النّظير بين أكثر من أمرين قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾. فإنّ معنى «اشتروا» هنا «اختاروا» لكنّ مجيىء معنى الاشتراء صبغَ العبارة كلّها بصبغته، ومن ثم جاء بعد ذلك حديثُ الرّبح والتّجارة؛ مراعاةً للنّظير «الاشتراء». وإذا وضعنا في الحسبان أنّ استعمال ألفاظ الاشتراء والرّبح هو هنا استعمالٌ مجازيّ مجتلَب لا حقيقيّ تفرضه اللّغة بمعانيها الدّقيقة أدركْنا الجماليةَ التي يحقّقها استخدامُ معانٍ تنتمي إلى بيئة واحدة أو حِرْفة واحدة. فكأنّ إبقاءَ الذّهن في مِنطقةٍ واحدة من مناطق المفردات، أو استخدام معجم الأشياء المتقاربة في الواقع، أمرٌ محبّبٌ إلى النّفس.

ويُدْخَل في مراعاة النظير ما يسمّيه بعضُهم «تشابه الأطراف». وهو أن يختم المتكلّم كلامَه بِمَا يناسب أوّلَه في المعنى، كما في قوله سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ

﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾. وجليّ أنّ «اللّطيف» يناسب كونَ البارئ - جلّ وعلا - غيرَ مدرَكٍ بالأبصار، وأنّ «الخبيرَ» يناسب كونَه مُدرِكًا للأبصار؛ لأنّ إدراكَ الشيء يستلزم الخبرةَ به.

ويلحق بهذا المحسّن ما يُسمّيه بعضُهم «إيهام التّناسب». وهو إيرادُ لفظين أو أكثر يكون لأحدهما معنيانِ: أحدُهما غيرُ مناسبٍ لمعنى سابقِهِ أو سابقاته، لكنّه المعنى المقصود في السّياق، والآخر مناسب لمعنى سابقِهِ أو سابقاته لكنّه غير مقصود في السّياق. ومثالُه المشهور قوله سبحانه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾. فالنَّجمُ - هنا - النّباتُ الّذي ينجُم أي يظهر من الأرض لا ساق له، وهو المقابلُ للشّجر الذي له سَاقٌ. لكنّ للنّجمِ معنى آخر معروفًا «الكوكب».

وعلى هذا فأنتَ أمامَ صورتين لِمُراعاة النظير: الشّمس والقمر وهُما متناسبان، والنّجم والشجر وهما متناسبان أيضًا. لكنّ في «النجم» مع الشّمس والقمر مراعاةً للنّظير لا من حيثُ معناه في هذا السّياق «النّبات العديم السّاق»، بل من حيث معناه غيرُ المُراد هنا «الكوكب». ومن ثَمّ يسمّون هذه الصورةَ «إيهام التّناسب»؛ لأنها توهِمُ التّناسبَ ولا تناسب.

جماليّات مراعاة النّظير:

أبرزُ عناصر هذه الجماليّة هو الانسجامُ والتّساوُق والتّناغم، وهي أمورٌ لا يشكّ أحدٌ في انتمائها إلى الجَمال وإيقاظِها الحسَّ الجماليّ. ونَحْسَبُ أيضًا أنّ هذا الفنّ البديعيّ يُضفي على الكلام مظهرًا من مظاهر القوة والمتانة؛ فإنّ المعاني المتناسبة يعزِّزُ بعضُها دِلالةَ بعضٍ وينمّيها ويشدّ أَزْرَها. ويشي استخدامُ هذا الفنّ بقَدْرٍ عالٍ من الوعي

واليقظة عند المنشىء، الذي استطاعَ أن يأتي بكلامٍ تربطُ بين أجزائه شَبَكةٌ معقّدة من العلاقات.

٤ ـ الإِرْصاد:

ويُسمّيه بعضُهم التّسهيمَ. والإرصاد ـ لُغةً ـ نَصْبُ الرّقيب في الطّريق. والتّسهيم جَعْلُ البُرْد ذا خطوطٍ مستوية كأنها السّهام.

أمّا في الاصطلاح فالإرصادُ هو:

أن يُجعل قبلَ الفاصلة «من الفقرة النثرية» أو القافية «من البيت الشعريّ» ما يدلّ عليها إذا عُرِف الرّويّ.

وإليكَ أمثلةً لهذا المحسِّن البديعيّ:

أ ـ من الإرصاد في الفقرة قولُه سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾. فالسّامع، بعد الوقوف على قوله سبحانه: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ ﴾ وبعد الاطّلاع على ما تقدّم، سيعرف أنّ الفاصِلةَ هي «الكفور». وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾. فإنّ السّامع إذا وقف على قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾، بعد الإحاطة بما تقدّم، عرفَ أنّ الفاصلة هي «يظلمون».

ب ـ ومِنَ الإرصاد في البيت قولُ زُهَيْر:

سَئِمْتُ تكاليفَ الحَياةِ ومَنْ يَعِشْ   ثَمانينَ حَوْلًا لا أبا لَكَ يَسْأَمِ

فإنّ السّامع، إذا وقف على قوله «ومن يعش»... بعد أن أحاط بما تقدّم، سيعرف لا محالةَ أنّ القافية هي «يسأم».

وقول البحتريّ:

أبكِيكُما دَمْعًا ولَوْ أنّي على   قَدْرِ الجوى أبكي بَكيْتُكُما دَمَا

إذ تعبّر العربُ عن حزنها الشّديد بقولها: فلان يبكي دمًا لا دمعًا.

وقول الآخر:

أَحَلّتْ دَمِي مِنْ غيرِ جُرْمٍ وحرّمَتْ   بِلا سَبَبٍ يومَ اللّقاءِ كَلامي
فليسَ الّذي حلّلْتِهِ بِمُحَلَّلٍ   وليس الذي حرَّمْتِه بِحرَامِ

فالسّامع الذي عرف الرويّ الذي يُبنى عليه البيتُ، وعرف الكلام السّابقَ، لن يجد عُسْرًا في تعرّف القافية.

ومن هذا القبيل ضربٌ لا يُحتاج فيه إلى معرفة الرويّ كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

جماليات الإرصاد:

تنهض جماليّةُ الإرصاد ـ فيما يبدو لنا ـ على إثبات مؤشّرٍ دِلاليّ في صدْر الكلام يُومِىء إلى آخره، ويُسْهِم في تحديده. فإذا ما توقّع المتلقّي الكلامَ اللاّحق بناءً على إدراكه للسّابق، ثم صحّ له توقّعُه وتحقّق حَدْسُهُ، أدركتْه لا مَحالةَ حالٌ من الرضا والبهجة، هي حال مَنْ توقّع فأصابَ، وتفرّس فصَحّ تفرّسُه. يؤيّد مذهبَنا ذلك المبدأُ البلاغيّ العربيّ: «خيرُ الكلامِ ما دلّ بعضُه على بعضٍ». ولأمرٍ من هذا القبيل افتخر ابنُ نُباتة السّعْدِيّ:

خُذْها إذا أُنْشِدَتْ في القومِ مِنْ طَرَبٍ   صُدورُها عُرِفَتْ مِنها قَوافيها
ينسى لها الرّاكبُ العَجْلانُ حاجتَه   ويُصْبِحُ الحاسدُ الغضبانُ يَطْويها

٥ ـ المشاكلة:

وهي ـ لُغةً ـ المُماثلة والمُشابهة. أما في الاصطلاح فهي:

أن يعبِّر عن شيءٍ بلفظ غيرِه لوقوعه في صُحْبته.

ومِثالُها في الذّكر الحكيم قولُه سبحانه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾. أي: ولا أعلم ما عندك. حيث أطلق «النّفس» على الذّات العَليّة؛ لوقوعها في صحبة «نفسي». وقوله سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾. فالجزاء على السّيئة ليس بسيّئة حقيقةً؛ لكنّه سُمّي سَيّئةً ابتغاءَ المُشاكلة اللّفظيّة. ومنه قولُ المصطفى عليه الصّلاةُ والسلام: «إنّ اللّهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا». أي لا يقطعُ عنكم أفضالَه حتّى تملّوا مسألته.

ومن أمثلتها الشّعريّة ما يُذْكَر أنّ أصحابًا لأبي الرَّقَعْمَع أرسلوا إليه يدعونه إلى الصَّبوح في يومٍ بارد، ويسألونه عن الطّعام الذي يريده ليصنعوه له، وقد كان فقيرًا لا يمتلك كِسوة تقيه البردَ، فكتب إليهم قائلاً:

أصحابُنا قصَدُوا الصَّبوحَ بِسُحْرَة   وأتى رسولُهُمُ إليَّ خَصِيصا
قالوا: اقترحْ شيئًا نُجِدْ لكَ طَبْخَهُ   قلتُ: اطبُخوا لِي جُبَّةً وقَمِيصا

قوله: «اطبخوا» معناه «خِيطوا»، وقد ذكر «الخِياطة» بلفظ «الطّبخ» لوقوعها في صُحبة طَبْخ الطّعام.

ومِمّا فيه «مشاكلةٌ» أيضًا قولُ الشّاعر:

مَنْ مُبْلِغٌ أَفْناءَ يَعْرُبَ كلّها   أنّي بَنَيْتُ الجارَ قبلَ المَنزِلِ

أي: اخترتُ الجار. ذكر «اختار» بلفظ «بنى» لوقوعه في صحبة بناء المنزل.

وقول عَمْرو بن كُلثوم:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحَدٌ عَلَيْنا   فنَجْهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهِلِينا

أي: نردّ بِعُنْف. ذكر «نردّ بعنف» بلفظ «نجهل» لوقوعه في صُحْبة الجهل.

جماليّاتُ المشاكلة:

مبعث الجمالية في المشاكلة، فيما يلوح لنا، أنّها تُبرِز سلطانَ بعض الألفاظ في السّياق على نحوٍ تستدعي فيه مشاكلاتِها اللّفظية وإن كانت بِمَعانٍ أُخَر. ويضاف إلى هذا أنّ المتلقّي حين يتوهّم أولاً أنّ مدلولَ الكلمة المَأتيّ بها للمشاكلة هو مدلولُ الكلمة الأولى نفسُه، ثم يبدو له بعد حين أنّه أمامَ مدلولٍ آخر عبَّر عنه بلفظ غيرِه، استجابةً لداعي المشاكلة، تدرِكُه بَهجةُ التعرّف ولذّةُ الاكتشاف. ولن يغيب عنك ما قُلْنا من أنّ في النّفوس ظَمَأً لرؤية المُتماثلات في مَعْرِضٍ واحد.

ولِشيءٍ من هذا القبيل استحسَنتِ الخَنْساءُ مجاراةَ أخيها لأبيها فقالت:

جارى أباهُ فأقْبَلا وهُما ... يتَعاوَرانِ مُلاءةَ الفَخْرِ

٦ ـ المُزاوَجة:

وهي ـ لُغةً ـ أن يُقْرَن بين الشيئَيْنِ. أمّا في الاصطلاح البلاغيّ فتعني:

أن تزاوِجَ بين معنَيَيْنِ في الشّرْط والجزاء بأن ترتّب على كلّ منهما معنًى هو الّذي رُتِّب على الآخر.

وإليكَ الأمثلةَ الموضحةَ لهذا المحسِّن البديعيّ:

قال البحتريّ:

إذا ما نهى النّاهي فلَجَّ بِيَ الهوى ... أَصَاخَتْ إلى الوَاشي فلَجَّ بها الهَجْرُ

أي: إذا دعاني العاذلُ إلى تَرْكِ حبّها فازدادَ حبّي لها استمَعَتْ هي إلى النمّام فازدادَ هَجْرُها لي.

فقد زاوَج بين نَهْيِ النّاهي وإصاختِها إلى الواشي في الشّرط والجزاء في أنْ رتّب على الثّاني المعنى الذي رتّبه على الأول «اللّجاج».

وقال الشاعر:

إذا اخْتَرَبَتْ يومًا ففَاضَتْ دِماؤُها تذكَّرتِ القُرْبى ففاضَتْ دُموعُها

زاوَجَ بين الاحتِراب وتذكُّر القُربى في الشرط والجزاء بترتيب «الفَيْض» عليهما.

وقال آخر:

إذا مَا بَدَتْ فازدادَ منها جمالُها نَظَرْتُ لها فازدادَ مِنّي غرامُها

زاوَجَ بين بُدُوِّها أي ظهورها وبين نظرِه إليها في الشّرط والجزاء بترتيب «ازدياد شيءٍ على كلّ منهما».

جماليّات المزاوجة:

مبعثُ الجماليّةِ في هذا الضّرب هو التّشابكُ الملحوظ في المعاني؛ ذلك أنّ الشّرْط أساسًا هو توقّف حُصول شيءٍ على شيء آخر؛ فهو شكْلٌ عالٍ من أشكال التلازم، فإذا أُضيف إلى ذلك رِباطٌ آخر بين الشّرط وجوابه، وهو ترتُّبُ معنًى واحدٍ على كلٍّ منهما، تضاعفَ ترابُط الكلام. يأنسُ ذلك مُنْشِد أيٍّ من الأبيات السّابقة؛ إذ ليس في مقدوره أن يتوقَّف حتّى يأتي على آخر البيت. يُضاف إلى هذا طبعًا ما يمكن أن نسمّيه «ثَراءَ الدّلالة»؛ إذ تكون الدّلالةُ الّتي يحصل عليها المتلقّي من جُملةٍ كالجمل الشّرْطية في الأبيات السابقة مضاعفةً؛ حيث أفاد كلّ بيتٍ منها عِدّةَ إفادات.

٧ ـ العكْسُ:

ويسمّى التبديل. ويعني عند البلاغيين:

أن يُقدِّم جُزءً من الكلامِ على جزءٍ آخر، ثمّ يؤخِّر المقدَّمُ ويُقدِّم المؤخر.

ويأتي العَكْسُ في مواقع متعدّدة من الجمل:

١ ـ أن يقع بين أحَدِ طرفي الجملة وما أُضيف إليه ذلك الطرفُ، كقولهم: «عاداتُ السّاداتِ ساداتُ العاداتِ». بمعنى أنّ عاداتِ أفاضل النّاس هي سيّدةُ العادات. فالعاداتُ مبتدأ وهو أحد الطرفين في الجملة. والسّاداتُ مضافٌ إليه ذلك الطرف. وجَليّ أنّ العَكْس هنا وقع بين طَرَف الجملة وما أضيف إليه، حيث قَدّم أولاً العاداتِ على السّادات (المبتدأ على المضاف إليه) ثمّ عكَس فقدّم السّاداتِ على العادات (المضاف إليه على المبتدأ). ومنه قولُ المتنبّي:

أرى كُلَّ ذي مُلْكٍ إليكَ مَصِيرُهُ كـأنّـكَ بَـحْـرٌ والـمُـلـوكُ جـداولُ
إذا أمطرَتْ مِنهُمْ ومِنْكَ سَحابةٌ فَـوابِـلُـهـمْ طَـلٌّ وطـلُّـكَ وابِـلُ

٢ ـ أن يقع بين متعلّقي فعلين في جملتين، كقوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾. فالحَيّ والمَيّت متعلّقان بالفعل «يخرج»، وقد قُدّم أولاً «الحيّ» على «الميّت»، ثمّ عُكِس فقُدّم «الميّت» على «الحيّ».

ومنه قولُ شاعر الحَماسة:

رَمَىٰ الـحِـدْثـانُ نِـسْـوَةَ آلِ حَـرْبٍ بِـأَمْـرٍ قـدْ سَـمَـدْنَ لَـهُ سُـمُـودا
فـردّ شُـعُـورَهُـنَّ الـسُّـودَ بِـيـضًـا وردّ وجـوهَـهُـنّ الـبِـيـضَ سُـودا

الحِدْثانُ: نُوَبُ الدّهر ومصائبُه. سَمَدْن له: غَفَلْن عنه. والشاهِدُ في البيت الثّاني إذَ السُّودُ والبيضُ معمولانِ للفعل «ردّ»، وقد قدّم أولًا السّودَ على البِيض، ثم عَكَس فقدّم البِيضَ على السّود.

٣ ـ أن يقع بين لفظين في طرفي الجملتين، كقوله سبحانه: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. «هُنّ» و«هُمْ» لفظانِ واقعان في طرفي الجملتين (المسند إليه، المسند)، وقد قدّم أولاً «هُنّ» على «هُم»، ثمّ عكَس فقدّم

«هم» على «هنّ». وكقوله سبحانه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾. ويقول الحسَنُ البَصْرِيُّ رضي الله عنه: «إنّ مَنْ خوّفك حتّى تلْقى الأمْنَ خيرٌ مِمّن آمنَك حتّى تلقى الخوفَ».

ومنه في الشعر قولُ المتنبّي:

فلاَ مَجْدَ في الدُّنيا لِمَنْ قلَّ مالُهُ ولا مالَ في الدّنيا لِمَنْ قلَّ مجْدُهُ

جماليّاتُ العكس:

لا مُواربةَ في أنّ هذا الفنّ البديعيّ يساعد على جلاء الفِكَر وتصوير دقائق المعاني، ويحقّق جماليّةَ التقابل بين المعاني. ففي البيت السّابق يُطالعك هذا التّقابل بين: فلا مجْدَ/ فلا مالَ - لِمَنْ قلّ مالُه/ لمن قلّ مجدُه. وفي نماذجه العالية يُكْسِب الكلامَ موسيقيةً واضحةً قائمة على تشابه المُتباعدين وتشابه المتقاربين. تلحظ هذا جليًا من الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾. وفي مقدورنا أن نقولَ إنّ هذا المُحَسِّن يبرز الطّاقة التّعبيرية العالية للألفاظِ حين تُنسّق تنسيقًا خاصًّا، كما يُنبىء عن قدرة المتكلّم على تقديمِ أكبرِ قدْرٍ من الدّلالةِ باستخدام الصُّورة اللّفظية نفسِها.

٨ - التَّوْرِية:

وتُسمّى الإيهامَ والتخييل. والتّوريةُ - لُغةً - مصدرُ ورّى الشيءَ أي: أخفاه، أو ورّى عنه أي: أراده وأظهر غيره. وكأنها مستمدةٌ من جَعْلِ الشيء وراءَ. وهي في الاصطلاح البلاغيّ:

أن يُذْكَر لفظٌ له معنيان: قريبٌ دِلالةُ اللّفظ عليه ظاهرةٌ لكثرة استعماله، وبعيدٌ دِلالةُ اللّفظِ عليه خفيّةٌ لقلّة استعماله فيه، ويُراد البعيدُ اعتمادًا على قرينةٍ.

ومن التّورية قولُ سِراج الدِّين الورّاق:

أصونُ أديمَ وَجْهي عن أُناسٍ ... لِقاءُ المَوْتِ عِندَهُمْ الأديبُ
وربُّ الشِّعْرِ عِندَهُمُ بَغيضٌ ... ولَوْ وافى بِهِ لَهُمُ «حَبيبُ»

فلفظُ «حبيب» له معنيان قريبٌ غيرُ مرادٍ وهو «محبوب»، وبعيدٌ هو المُرادُ وهو «حَبيبُ بنُ أَوْسٍ الطائيّ المعروف بأبي تمّام». والدّالّ على أنّ المراد هو المعنى الثاني البعيد قرينةٌ خفية تشير إليه ولا تُظهره، وهي أنّ سياق الكلام يستدعي أن يكون المعنى: إنهم يبغضون الشاعرَ ولو كان أحدَ الفُحُول كحبيبِ بن أوس، شاعرِ زمانه.

وقول الشّاعر يصِف شِعْرًا:

أَبياتُ شِعْرِكَ كالقُصورِ ... ولا قُصورَ بِها يَعوقْ
ومِنَ العَجائِبِ لَفْظُها ... حُرٌّ ومَعْناها «رَقيقْ»

فلفظ «رقيق» هنا له معنيان: قريبٌ غيرُ مراد وهو «عَبْد»، وتُومىء إلى هذا المعنى قرينةُ وصْف اللّفظ بأنّه حُرّ؛ فما يقابل «الحُرّ» هو «العَبْد»؛ وبعيدٌ مُرادٌ وهو «لطيف»، وهو من صفات المعاني الشّعرية.

وسَمَّوا هذا الضّرْبَ إيهامًا وتخييلاً، لأنّ أوّل ما يتبادر إلى ذهن المتلقّي عند إطلاق اللّفظ هو معناه القريب، فيتوهّم أو يخيَّل إليه أنّ المتكلِّم إنما أراد هذا المعنى القريبَ.

وتأتي التورية على أربعة أضرب:

١ ـ مُجرَّدةٌ لا تُقْرَن بملائم المعنى القريب، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾. فلفظ «استوى» له معنيان: قريبٌ غير مراد هو «استقرّ في المكان»، وبعيدٌ مُراد هو «استولى». ولم يُقْرَن بها شيء مِمّا يلائم المعنى القريب الذي هو الاستقرار. ومنه قول أبي بَكْرٍ رضي الله عنه حين سُئل عن المصطفى عليه الصّلاةُ

والسّلام حين الهجرة فقيل له: مَنْ هذا؟ فأجابَ: «هادٍ يَهْديني»، قصَدَ هادِيًا يهديني إلى الإسلام، غير أنه ورّى عن ذلك بما يُفهم من الكلام لأوّل وَهْلةٍ وهو «دليلُ الطّريق». ولم يُقْرَن بالتّورية شيءٌ مِمّا يلائم هذا المعنى القريب.

٢ ـ مرشَّحة تُقرَن بملائم المعنى القريب، كقوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾. الأيدي جمعُ يَدٍ. وهي تحتمل هنا معنيين: قريب هو «الجَارِحة»، وقد قُرِن بما يلائمه وهو البِناءُ، لكنّ هذا المعنى غيرُ مرادٍ. وبعيد وهو «القدرة»، وهو المراد. وسُمِّيت «مرشَّحةً» لاقترانها بما يُرشّح المعنى القريبَ أو يقوّيه ويُميل الذهنَ إليه.

ومنه قول الشاعر:

حمَلْناهُمْ طُرًّا على الدُّهْمِ بعدَما ... خَلَعْنا عليهِمْ بالطِّعانِ مَلابِسا

لِلَفظِ «الدُّهم» معنيان: قريبٌ غيرُ مراد وهو «الخيول السّود»؛ وبعيدٌ مُراد هو «قيود الحديد». أي قيّدوهم بقيود الحَديد. ورشّح التّوريةَ بذِكْر ملائم المعنى القريب وهو «الحَمْلُ» الذي يومىء إلى الخَيْل.

٣ ـ مبيَّنة تُقرَن بملائم المعنى البعيد، كقول الشّاعر:

يا مَنْ رآني بالهُمومِ مُطَوَّقا ... وظَلِلْتُ مِنْ فَقْدي غُصونًا في شجونْ

أَتلُومُني في عِظَمِ نَوْحِيَ والبُكا ... شأنُ المطوَّقِ أن ينوحَ على غصونْ

لِلّفظ «مطوّقا» معنيان: قريبٌ غيرُ مرادٍ وهو «مُحاط العُنُق»، وبعيدٌ مُرادٌ وهو «الحَمامة». فقد شبّه نفسَه بالحمامة، وبيّن المعنى المورّى عنه «الحمامة» حين صرّح بِذِكْره في قوله في البيت الثاني «شأن المطوّق...». وسُمِّيت «مبيَّنةً» لأنّ المعنى المورّى عنه كان خفِيًّا فبيِّن بذِكْر ملائمه.

٤ ـ مُهيّأة: وهي الّتي يتوقّف وقوعُ التورية في لفظها على لفظٍ

قبلَه أو لفظٍ بعْدَه، أو الّتي تكون في لفظين يهيّىء كلٌّ منهما التوريةَ في الآخر.

وإليكَ أمثلةَ هذه الأقسام الثلاثة:

- فالأولُ كقول ابن سَناءِ المُلْك يمدح المُظَفّر صاحبَ حَماة:

وردُكَ فِينا مِنْ سَمِيّكَ سُنّةٌ فأظْهَرْتَ ذاكَ الفَرْضَ من ذلك النَّدْبِ

ففي كلّ من «الفَرْض» و«النَّدْب» تورِيةٌ، إذ يُحتمَل أن يريد الشاعرُ المعنى القريبَ غير المراد وهو حُكْمان شرعيّان، ويُحتمل أن يريد المعنى البعيدَ المُراد، وهو أنَّ الفرْضَ هو العَطاء، والنَّدْبَ هو الرّجل السّريع في قضاء الحوائج. ولولا ذكرُ «السُّنّة» قبلَهما لما تهيّأتِ التّوريةُ، ولا فُهِم من الفَرْض والنّدب الحُكْمانِ الشرعيّان.

- والثاني كقول الشاعر:

لولا التّطيّرُ بالخِلافِ وأنّهمْ قالوا: مَريضٌ لا يعودُ مريضا
لقَضَيْتُ نَحْبي في جَنابِكَ خِدْمةً لأكونَ «مَنْدوبًا» قضى مَفْرُوضا

فإن «المندوب» يحتمل أن يكون اسمَ مفعول من ندَبَ الميّتَ: إذا بكاه، وهو المعنى البعيد الذي قصده الناظمُ وورّى عنه، ويحتمل أن يكون خلاف المفروض، وهذا هو المعنى القريب المورّى به. وذِكْرُ المفروض بعده هو الذي هيّأه للتورية.

- والثّالث كقول عُمَر بن أبي ربيعة:

أيُّها المُنكِحُ الثُّرَيّا سُهَيلاً عَمْرَكَ اللَّهَ كيفَ يَلْتَقِيانِ؟
هِيَ شامِيّةٌ إذا ما استقلّتْ وسُهَيلٌ إذا استقلّ يَماني

ففي لفظتي «الثّريا وسهيل» تورية؛ إذ يُحتمل أن يريد الشّاعرُ نجْمَ الثّريّا ونَجْمَ سهيل المعروفين، وهذا هو المعنى القريب غير المُراد، ويُحتمل أن يريدَ الثّريا بِنْتَ عليّ بن عبدِ الله الأمويةَ وسُهَيْلَ بنَ

عبدِ الرّحمٰن بن عوف، وهذا هو المعنى البعيدُ المراد. وذِكْرُ «الثّريا» هو الذي نبّه المتلقّي لِسُهَيلِ النّجم المعروف، وكلّ من الاثنين صالح للتورية.

جماليّاتُ التّورية:

لفتت جماليّةُ التّورية انتباهَ البلاغيين العرب فقال عنها الزَّمَخْشَرِيُّ: «ولا ترى بابًا في البيان أدقَّ، وألطفَ من هذا الباب ولا أعونَ على تعاطي تأويل المشبهات من كلام الله وكلام رسوله وكلام صحابته رضي الله عنهم أجمعين».

وفي مُستطاعِنا القولُ إنّ التورية فنٌّ يفتح بابَ التأويل ويفسحُ المجالَ للتفسيرات المتعدّدة؛ لأنّ الطّاقة الدّلالية للألفاظ تُستغَلّ في التّورية خيرَ استغلال.

وكثيرًا ما تُستخدَم التّوريةُ في مواقفَ عمليّةٍ سبيلاً لتخليص المتكلّم مِمّا يَخشى عواقبَه وينأى بنفسه عنه. ولا جدالَ في أنّ استخدامَ التورية على النّحو المطلوب قَصْرٌ على الأذكياء وأهل الفَطانة والبَصَر بدقائق المعاني وبدائع الاستعمالات اللغوية.

٩ ـ الاستخدام:

ويريد به البلاغيّون:

أن يُذكَر في الكلام لفظٌ ذو معنيين يُراد به أحدُ هذين المعنيين، ثمّ يُعَاد عليه ضَميرٌ أو إشارةٌ بِمَعْناه الآخر، أو يُعاد عليه ضميرانِ يُراد بثانيهما غيرُ ما يُراد بالأوّل.

فالأولُ ـ وهو الّذي يراد باللّفظ فيه أحدُ معنييه وبضميره معناه الآخر ـ كقوله سبحانه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾. لفظُ «الشّهر» هنا له معنيان: الهلال، وأيّام رمضان. وقد أُريد بلفظه الصّريح معناه الأوّل «الهِلال»، وأُريد بضميره العائد إليه «الهاء في يصُمْه» أيام رمضان.

ومِثْله قولُ الشاعر:

تـالـلَّـهِ، مـا ذُكِـرَ الـعَـقِـيـقُ وأهـلُـهُ   إلّا وأَجْـراهُ الـغَـرامُ بـمِـحْـجَـري

لفظُ «العقيق» له معنيان: الوادي القريبُ من مدينة الرّسول عليه الصّلاةُ والسّلام، والحَجَرُ الكريم ذو اللّون الأحمر. وقد أراد باسْمه الصّريح معناه الأوّل «الوادي»، وبالضّمير العائد إليه «الهاء في أَجْراه» معناه الثاني، أي الدَّم المشبَّه بالعقيق؛ إذ تقول العربُ: بكى فلانٌ عقيقًا أي دَمًا أحمرَ كالعقيق.

وقول الشاعر:

رَحَـلْـتُـمْ بـالـغَـداةِ فـبِـتُّ شَـوْقًـا   أُسـائِـلُ عـنـكُـمُ فـي كـلِّ نـادِ
أُراعي **الـنَّـجْـمَ** في سَيْري إليكُمْ   ويَـرْعـاهُ مِـنَ الـبَـيْـدا جَـوادي

ذكر «النّجمَ» أولًا بمعنى «الكوكب»، ثمّ أعاد إليه ضميرَه «الهاء في يَرْعاه» بمعناه الآخر «النّبات الّذي لا سَاقَ له»، على سبيل الاستخدام.

والثّاني - وهو أن يُراد بأحَد ضميرَيْه أحَدُ المعنيين، وبالضّمير الآخر المعنى الآخر - كقول البحتريّ:

فَسَقى **الغَضى** والسَّاكِنيهِ وإِنْ هُمُ   شَـبُّـوه بـيـنَ جـوانـحٍ وقُـلـوبِ

الغضى: شجر معروف، ووادٍ في نَجْد. وقد ذُكِر بلفظه الصّريح أولًا بمعنى «الشّجر»، وأُعيد إليه ضميرُه الأوّلُ في «السَّاكنيه» بمعنى الوادي النَّجْديّ، ثمّ أعيد إليه ضميرُه الثاني في «شبّوه» بمعنى النّار الحاصلة من شجرة الغضى.

جماليّات الاستخدام:

نَحْسَبُ أنّ ما قلناه عن جمالية التّورية ينسحب على هذا الفنّ البديعيّ، وإن كان ينفرد بجماليةٍ أخرى هي جماليةُ التعرُّفِ المتتابع؛

فإنّ المتلقّي يقف أمامَ دِلالة اللّفظ الذي جرى فيه الاستخدامُ موقفَ غيرِ المستيقِن، ثم يأخذ في تعرّف هذه الدّلالة على نحوٍ محدّد كلّما تقدّم في النصّ. وفيه أيضًا جماليةُ التعجيب؛ فإنّ قدرةَ المتكلّم على استثمار المعاني المتعدّدة لِلّفظ الواحد شيءٌ يثير دهشةَ المتلقّي وينال إعجابَه. بقي أن نقول إنَّ تسمية «الاستِخْدام» راجعةٌ إلى استخدامِ الألفاظِ في معانيها المختلفة.

١٠ ـ الطَّيّ والنّشر:

ويُراد به:

أنْ يُذكَر متعدّدٌ مفصَّلٌ أو مُجمَل، ثمّ يُذكَر ما لِكُلٍّ مِنْ آحادِه دون تعيين، اعتمادًا على قدرة المتلقّي على أن يردّ إلى كلٍّ ما يليقُ به لوضوح الحال.

فالمفصَّلُ منه يتّخذ صورتين:

١ ـ أنّ يأتي النّشرُ وفقَ التّرتيب الّذي عليه الطّيّ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. ذكر المتعدّدَ مفصَّلاً وهو «اللّيل والنّهار»، ثم ذكر المعنى المتّصلَ باللّيل وهو «السُّكون فيه لأنّه وقتُ نومٍ وراحة»، والمعنى المتّصل بالنّهار وهو «ابتغاء الرّزق فيه من الله سبحانه لأنه وقتُ كَدّ وعمَل». أي إنّ النّشرَ فيه على ترتيب الطيّ. ومنه في الشعر قول الشاعر:

فِعْلُ المُدامِ ولَوْنُها ومَذاقُها ... في مُقْلَتَيْهِ ووَجْنَتَيْهِ وَرِيقِهِ

ذكر المتعدّد مفصَّلاً وهو «فِعْلُ المُدام أي السُّكْرُ ولونُها ومذاقها»، ثم ذكرَ ما يتّصل بكلٍّ منها على الترتيب الّذي عليه المتعدّد: المُقْلتانِ للسُّكر، الوَجْنَتانِ لِلّون، الرّيق، للمذاق. أي إنّ النَّشرَ على ترتيب الطيّ.

٢ ـ أن يأتي النّشرُ على خِلاف التّرتيب الّذي عليه الطيّ، كما في قوله سبحانه: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾. ذكرَ المتعدّد مفصّلاً «إظلام اللّيل وإنارة النهار» ثم ذكر ما يتّصل بكلٍّ منهما على خلاف الترتيب: ابتغاء الفَضْل للثّاني، وعلم الحساب للأوّل.

ومنه في الشّعر قول الشاعر:

ولَحْظُهُ ومُحَيَّاهُ وقَامَتُهُ بَدْرُ الدُّجا وقضيبُ البانِ والرّاحُ

ذكر المتعدّد مفصّلاً «اللّحظ والمُحَيّا والقامة»، ثمّ ذكر ما يتّصل بكلّ منها على خلاف التّرتيب الّذي عليه المتعدّد: بَدْرُ الدّجا للمحيّا، وقضيبُ البان للقامة، والرّاحُ لِلّحظ؛ بمعنى أن عيني الحبيب تُسْكِران.

أمّا المُجمل فهو أن يُذكَر المتعدّد على نحوٍ مُجْمَل، ثم يذكر ما لكلّ واحدٍ من آحاده، كما في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾. فقد ذكر المتعدّد مُجْمَلاً وهو «الواو في قالوا»، فالذين قالوا هم اليهود والنّصارى، ثم ذكر ما يتّصل بكلّ منهما في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾. ومفصّلُ الكلام هكذا: قالتِ اليهودُ: لن يدخل الجنّةَ إلّا من كان يهوديّا، وقالتِ النّصارى: لن يدخل الجنّةَ إلّا من كان نَصْرانيّا.

جماليّاتُ الطّيّ والنّشر:

من جماليّات هذا الفنّ البديعي أنّه يُضاعِفُ فعاليّةَ الذّهن، إذ ينثر أمامه مجموعةَ أشياء يتّصل بكلّ منها شيء، لكنّه يُبهِم عليه أوّلَ الأمر نسبةَ الشيء إلى أَصْله، فيدعه يلهث وراءَ هذه المعرفة، حتّى إذا استطاع الذّهنُ تحصيلَ العلاقة بين كلّ فرد من أفراد المتعدّد والشيء المتّصل به أدركَتْه بَهْجةُ التعرّف ولذّةُ التوصّل. والأمر هنا لا يختلف

كثيرًا عمّا يحدُث عندما يرى أحدُنا ابنَيْنِ لا يعْرِفُهما لِصَديقين من أصدقائه، ثم يأخذ في التفرّس والتعرّف إلى أن يستطيع نِسْبَةَ كلّ منهما إلى صديقٍ من أصدقائه، فإذا أفلح في ذلك أدركتْه نَشْوةٌ خاصّة.

١١ ـ الجَمْعُ:

ويعني في شِرْعة البلاغيين:

أن يجمع المتكلّمُ في كلامه بين شيئين فأكثرَ في حُكْمٍ واحد.

وإليكَ أمثلةَ ذلك:

فمن الجَمْع بين اثنين قولُه سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. إذ جمع بين «المال» و«البنين» في حُكْم واحد هو كونُهما زينةَ الحياة الدّنيا. وقوله سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

ومن الجمع بين أكثرَ من اثنين قولُه سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾. ومنه في الشّعر قولُ أبي العتاهية:

إنّ الشَّبابَ والفَراغَ والجِدَهْ مَفْسَدةٌ لِلْمَرءِ أيُّ مَفْسَدَهْ

الجِدَة: الثَّراءُ. وقد جمع بين «الشّباب والفراغ والجِدة» في كونها مُفْسِدةً للإنسان.

وينتمي إلى هذا قولُ الشّاعر:

آراؤكُمْ ووجُوهُكُمْ وسُيوفُكُمْ في الحَادِثاتِ إذا دَجَوْنَ نُجومُ

جماليّات الجمع:

تنهض جماليةُ فنّ «الجَمْع» على تحديد النّاحية التي يشترك فيها

شيئان أو مجموعةُ أشياء مختلفة؛ إذ ما من شكّ في أنّ الذّهنَ عندما يتلقّى أمثلةً كالأمثلة السّابقة يَنْشَط في إدراك الوَجْه الذي تجتمع فيه الأشياءُ المتباينة. فما هو معروفٌ في عملية الإدراك أنّ الذّهن يقف عند المتعاطفات وقفة عادية كأن يسمعَ الإنسانُ هذه العبارةَ: الخَيْلُ واللّيلُ والبيداءُ أشياءُ مختلفة. فالحُكْم الواحدُ الذي اشتركت فيه ضعيفٌ. أمّا عندما يتلقّى بيتَ المتنبّي الّذي يجمع سبعةَ أشياءَ في حُكْمٍ واحد في قوله:

الخيلُ واللّيلُ والبَيْداءُ تَعْرِفُني　　والسَّيْفُ والرُّمْحُ والقِرْطاسُ والقَلَمُ

فإنّه يأخذ لا محالةَ في تأمّل هذا الوجه الذي اشتركت فيه هذه الأشياء، وكيف اشتركت فيه.

١٢ ـ التّفريق:

ويعني في الاصطلاح البلاغيّ:

أن يُفرّق المتكلّمُ بين أمْرَيْنِ مِنْ جِنْسٍ واحد في معنًى يختلفانِ فيه.

وهاكَ أمثلةً له:

قال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾. فقد فرّق بين أمرين من جِنْس واحد «البحرين» في الطّعْم؛ فإنّ أحدَهما «عَذْبٌ فُراتٌ سائغٌ شرابُه» والآخر «مِلْحٌ أُجاج».

ومنه في الشّعر قولُ الشّاعر:

ما نَوالُ الغَمامِ وقْتَ رَبيعٍ　　كَنَوالِ الأميرِ وقْتَ سَخاءِ
فَنَوالُ الأميرِ بَدْرَةُ عَيْنٍ　　ونَوالُ الغَمام قَطْرةُ ماءِ

البَدْرةُ: كيسٌ فيه عشَرةُ آلاف درهم. والعَيْن: المالُ. أتى الشّاعر

بأمرين من جِنْسٍ واحدٍ «النوالَيْن»؛ إذ هما من جِنْس العطاء، ثمّ فرّق بينهما في المنزلة بِجَعْل نوال الأمير يرجَحُ نوالَ الغمام.

وقول الآخر:

مَـــنْ قَـــاسَ جَـــدْواكَ يَـــوْمًـــا بـالـسُّـحْـبِ أخـطـأَ مَـدْحَـكْ
الـسُّـحْـبُ تُـعْـطـي وتَـبْـكـي وأنـتَ تُـعْـطِـي وتَـضْـحَـكْ

جماليّات التفريق:

أساسُ الجمالِ في هذا الفنّ أنه يعرّف المتلقّيَ وجهَ اختلافٍ بين شيئين يَحْسَبُ لأوّلِ وَهْلةٍ أنهما متّفقان، كما ينبِّه في جانب المنشىء على براعةٍ في تلمّس عنصرِ اختلافٍ في المتآلفات، ثم تقديم البرهان على ذلك.

١٣ ـ التّقسيم:

ويُراد به:

أن يُذْكَرُ مُتَعدّدٌ، ثم يُضاف إلى كلٍّ من آحادِه ما يخصُّه على جهة التّعيين.

ومن أمثلتِه الموضحة:

قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. ذكر المتعدّدَ «ثمود وعاد» ثم أضاف إلى ثمودَ ما يخصّهم على جهة التّعيين «إهلاكهم بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية».

ومن نماذجه الرفيعة في الشّعر قولُ أبي تمّام:

فما هُوَ إلّا الوَحْيُ أو حَدُّ مُرْهَفٍ تُـمِيلُ ظُباهُ أَخْـدَعـيْ كـلِّ مـائـلِ
فـهـذا دَواءُ الـدّاءِ مِـنْ كـلّ عـالِـم وهـذا دَواءُ الـدّاءِ مـن كـلِّ جـاهِـلِ

يقول: ثَمّةَ دواءانِ لانحراف السّلوك عند البشر لا ثالثَ لهما: الإشارةُ أو حدُّ السّيف الّذي يقّوم اعوجاجَ المتكبّر والمُصَعّر الخدّ. فالوَحْيُ أو الإشارة دَواءُ العالِم؛ إذ تكفيه الإشارةُ وتُجزِئُه الإلْماعةُ. وحدُّ السّيف دواء الجاهلِ الطّائش؛ إذ لا ينفع معه إلّا قَطْعُ العنق. وجليّ أنّه ذكرَ المتعدّد «الوحي - حدّ السيف»، ثم أضاف إلى الوَحْي ما يخصّه على جهة التّعيين «كونه دواءَ العالِم»، وأضاف إلى حدّ السّيف ما يخصّه على جهة اليقين «كونه دواءَ داءِ الجاهِل».

ويُطْلِق البلاغيون مصطلحَ التقسيم على صُورتين أخريين أيضًا:

١ - استيفاء أقسام الشيء، كما في قوله سبحانه: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾. وكقوله سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾.

ومنه في الشّعر قولُ أبي تمّام في الإفشِين عندما أُحْرِق:

صلّى لَها حَيًّا وكانَ وقودَها ... مَيْتًا ويَدْخُلُها مع الفُجّارِ

وقوله أيضًا:

إن يَعْلَموا الخَيْرَ يُخفوه وإنْ عَلِمُوا ... شرًا أذاعُوا، وإنْ لمْ يعلموا كذَبُوا

٢ - ذِكْر أحوالِ الشيء مضافًا إلى كلّ منها ما يليق بها، كقوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ ذكر أحوالَ هؤلاء القوم وأضاف إلى كلّ حالٍ ما يليق بها فجعل حالَ التذلّل منهم موجّهةً إلى المؤمنين، وحال العزّة موجّهةً إلى الكافرين، والجهاد منهم في سبيل الله.

ومنه في الشعر قولُ المتنبّي:

سَأَطْلُبُ حَقّي بالقَنا وَمَشَايِخٍ كأنّهُمُو مِنْ طُولِ ما التَثَمُوا مُرْدُ
ثِقالٌ إذا لاقَوا، خِفافٌ إذا دُعُوا كَثيرٌ إذا شَدُّوا، قَلِيلٌ إذا عُدّوا

ذكر أحوالَ المشايخ، وأضاف إلى كلّ حالٍ ما يناسبها؛ فجعلهم ثِقالاً عند لقاء العدوّ، سِراعًا عند الدّعوة إلى أمْرٍ مهمّ، كثيرين عندما يشدّون؛ لِقيام الواحد منهم مقام العدد الكبير.

جماليات التقسيم:

تتمثّل في التقسيم جماليةُ الجَمْع بين شيئين أو أكثر في حُكْمٍ من الأحكام، ثم بيان ما يخصّ كلّاً واحدٍ منها على انفراد مما يتّصل بذلك الحُكْم العامّ. ومعلومٌ أنّ الأشياء تشترك في الأحكام العامّة وتتباين في الجزئيات الدقيقة؛ فإذا عُرِض على الذهن حُكْمٌ يشمل شيئين أو أكثر، ثم أُضيف إلى كلّ شيءٍ الوجهُ الخاصّ الذي أَذِن بالمشاركة في المعنى العامّ، أحسّ المتلقّي بشيء من البهجة. كما يشِفّ في بعض صُوَره عن جمالية الإحاطة بجزئيات الفكرة وعَرْضِ الصّوَر المختلفة التي يكون عليها الشيءُ. وفي النفس البشرية مَيْلٌ واضحٌ إلى الإلمامِ بجزئيّات الشيء، وإدراكِ وجوه التباين بين المتقاربات.

١٤ ـ الجمع مع التفريق:

ويعني ذلك عند البلاغيين:

أن يجمعَ المتكلّمُ بين شيئين في حُكْمٍ واحد، ثمّ يفرّق بين جِهَتَي إدخالِهما.

وإليك الأمثلةَ الموضحة:

قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾. جمع بين اللّيل والنهار في حُكْم واحدٍ هو جَعْلُهما آيتين، ثمّ فرّق بين جِهَتَي إدخالِهما في هذا الحُكْم: اللّيلُ مُظْلِمٌ والنهارُ مضيء.

وقال سبحانه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾. كلاهما مخلوق؛ لكنّ إبليسَ مخلوقٌ من النّار، وآدمَ ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ مخلوقٌ من تراب.

ومنه في الشّعر قولُ رشيد الدّين الوَطْوَاط:

فوَجْهُكَ كالنّار في ضَوْئِها وقَلْبِيَ كالنّار في حَرِّها

جمع الشّاعرُ بين وجه الحبيب وقلْبِه في مُشابهةِ كلّ منهما للنّار، ثمّ فرّق بينهما في أن جعلَ مشابهةَ الوَجْه للنّار في الضّياء والإشراق، ومشابهةَ القَلْبِ للنّار في الحرارة والاحتراق.

١٥ ـ الجَمْعُ مع التقسيم:

وهو عند البلاغيين:

أن يجمع المتكلّمُ شيئين أو أكثرَ في حُكْم واحد، ثمّ يقسّم ما جمَع أو يُقسّم متعدّدًا ثم يجمَعُ أفرادَه في حُكْم واحد.

١ ـ فالجمعُ الّذي يتلوه التّقسيم كقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. فقد جمع بين الأنفس حالَ الموتِ والأنفسِ حالَ المنام في حُكْمٍ واحد هو توفّي الله إيّاها، ثم قسّم بينها في إمساكِ الأنفس التي قضى عليها الموتَ، وإرسالِ الأنفس الأخرى، أي تَرْكها.

ومنهُ في الشّعر قولُ المتنبّي يمدحُ سَيْفَ الدّولة حين غزا خَرْشَنَةَ في أرض الرُّوم:

حتّى أقامَ على أرْباضِ خَرْشَنةٍ تشقى بِهِ الرُّومُ والصُّلْبانُ والبِيَعُ
للسَّبْيِ ما نَكَحُوا، والقَتْلِ ما وَلَدُوا والنَّهْبِ ما جَمَعُوا والنّارِ ما زَرَعُوا

الأرباضُ جَمْعُ رَبَض: ما حولَ المدينة. جمع المتنبّي في هذين البيتين إشقاءَ الرّوم بالممدوح، ثمّ قسّم هذا الشقاء: نساؤهم تُسْبى، أولادُهم تُقتَل، أموالهم تُنهَب، مزروعاتُهم تُحْرَق.

٢ ـ والتّقسيمُ الّذي يتْلوه الجمْعُ كقول حسّانَ بنِ ثابت رضي الله تعالى عنه:

قَـوْمٌ إذا حَـارَبُـوا ضَـرّوا عـدوَّهُـمُ   أو حاوَلُوا النّفْعَ في أشياعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيّةٌ تِلْكَ منهـمْ غيـرُ مُحْدَثةٍ   إنّ الخَلائقَ، فاعْلَمْ، شرُّها البِدَعُ

الأشياعُ: الأنصار. والسّجيّةُ: الخُلُق والطّبيعة. والبِدَع: الأمورُ المبتدَعة المُحْدَثة. قسّم أولاً فذكر ضررَ الممدوحين لعدوّهم ونفعَهم لِصِديقهم، ثم جمعَ بين الأمرين تحتَ حُكْمٍ واحدٍ وهو كونهما سجيةً وطبْعًا.

ومن هذا الضّرْب قولُ الشاعر:

لـوْ أنَّ مـا أنـتُـمُ فـيـه يَـدُومُ لـكُـمْ   ظـنَـنْـتُ مـا أنـا فـيـهِ دائـمًـا أبَـدا
لـكـنْ رأيـتُ الـلّـيـالـي غَـيْـرَ تـاركـةٍ   ما سرَّ مِنْ حَـادِثٍ أو ساءَ مطَّرِدا
فـقَـدْ سَـكَـنْـتُ إلـى أنّـي وأنّـكُـمُ   سَنَسْتَجِدُّ خِلافَ الحالتَيْنِ غَدا

فقولُه في البيت الثّالث «خِلاف الحالتين» جَمْعٌ لِما قسّمه في البيت الأول: ما أنتم فيه من سرور، ما أنا فيه من سوء.

١٦ ـ التّجريد:

التجريد ـ لُغةً ـ إزالةُ الشيء عن غيره. أما في الاصطلاح البلاغيّ فهو:

أن يُنتزَعَ من شيءٍ مدّعَى كمالُه في صِفةٍ من الصفات شيءٌ آخر مِثلُه في هذه الصّفة.

والباعثُ على استخدام هذا الفنّ البديعيّ إفادةُ المبالغة في اتّصاف شيءٍ بصفةٍ من الصّفات، بادّعاء كمالِ الصّفة فيه إلى حدٍّ يصحّ معه أن يُنتزَع منه موصوفٌ آخر متّصفٌ بتلك الصّفة.

ويأتي هذا الفنّ على صُوَرٍ مختلفة، منها:

١ ـ ما يكون باستخدام «مِنْ» التجريدية، كأن تقول: «لِي من فلانٍ صَديقٌ حميمٌ». أي اكتملت صِفةُ الصّداقة في فلان حتّى صَحّ أن يُستخلَص منه صديقٌ آخر مثلُه في الصّداقة. وكأن تقول: «لي من الصّبْرِ خيرُ مُعين». أي اكتملت صِفةُ الإعانة في الصّبر حتّى صحّ أن تَستخلِص منه مُعِينًا آخرَ مثلَه في الإعانة. ومنه في الشعر قولُ المَعَرّيّ:

ماجَتْ نُمَيْرٌ فهَاجَتْ مِنكَ ذا لِبَدِ والـلّـيْـثُ أفْـتَـكُ أفعـالًا مـن الـنَّـمِـرِ

هاجَتْ مِنكَ ذا لِبَدٍ، أي: أثارَتْ منكَ أسَدًا ذا لِبَدٍ.

وكذا قولُ الآخر:

ترى مِنْهُمُو الأُسْدَ الغِضَابَ إذا سَطَوا وتـنـظُـرُ مِـنْـهُـمْ فـي الـلّـقـاءِ بُـدُورا

٢ ـ ما يكون باستخدام «الباء» التجريدية الدّاخلةِ على المنتزَع منه، كأن تقول: «لئِنْ أسَأتَ إلى فلانٍ لتُسيئَنَّ به إلى خَصْم عنيد». بالغْتَ في وصْفِهِ بالخُصومة حتّى انتزعْتَ منه خَصْمًا عنيدًا. وكقولهم: «لئن سَألْتَ فلانًا لتسألنّ به البحرَ». بالغوا في وصْفِه بالسّماحة حتّى انتزعوا منه بَحْرًا فيها.

٣ ـ ما يكون باستخدامِ باء المَعِيّة الدّاخلةِ على المنتزَع، كقول الشّاعر:

وشَوْهاءَ تعدو بِي إلى صَارِخِ الوغى بِـمُـسْـتَـلْـئِـم مِـثْـلِ الـفَـنِـيـقِ الـمُـرحَّـلِ

شوهاء: فرسٌ طويلة رائعة، أو متّسعة الشّدْقِين والمَنخَرَيْن. صارخ الوغى: المستغيث في الحرب. المستلئم: لابسُ اللّأمَة، أي

الدّرع. والفَنِيقُ: فحْلُ الإبل المُكْرَم عند أهله. المرحَّل: البعيرُ عليه رَحْلُه. بالغ في وصْفِ نفسه بالاستعداد للحَرْب، حتى انتزعَ من نفسه شخصًا آخر مستعِدًا للحَرْب «مستلئم».

٤ ـ ما يكون باستخدام «في» الدّاخلة على المنتزَع منه، كما في قوله سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: في جَهَنّم فَجَهَنّمُ هي دار الخُلْد، لكن انتُزع منها دارٌ أخرى مثلُها، وجُعِلت مُعَدَّةً في جهنّم للكفّار؛ تهويلاً لأمرِها ومبالغةً في وصْفِها بالشدّة:

٥ ـ ما يكون دون استخدام حرفٍ، كقوله سبحانه: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾. فقد وصفهم بدرجةٍ عالية من الإنكار والعدوان حتّى انتزعَ منهم قادةً للكُفر. ومنه في الشّعر قولُ قَتادَةَ بنِ مَسْلَمة الحَنَفيّ:

فَلَئِنْ بَقِيتُ لأَرْحَلَنَّ بِغَزْوةٍ تَحْوي الغنائمَ أو يَموتَ كريمُ

عنى بالكريم «نفسَه»؛ فلم يَقُلْ أو أموتَ، بل انتزع من نفسه كريمًا للمبالغة في وصْفِ نفسِه بالكرَم.

٦ ـ ما يكون بطريق الكِناية، كما في قول الأعشى:

يا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِيَّ وَلا يَشْرَبُ كأسًا بكَفِّ مَنْ بَخِلاَ

وصف الممدوحَ بأنّه خيرُ مَنْ يركب المَطِيَّ، وهذا معنى معروف عند العرب، ثم بالغ في اتّصافه بالكرَم بقوله إنّه لا يشْرَب كأسَ المُدام إلّا بكَفِّ كريمٍ، وما دام لا يَشْرَبُ إلّا بِكفّه هو كعادة الناس، فإنّه هو هذا الكريم. وهكذا فقد انتزع من الممدوح جَوادًا يشْرَب هو (أي الممدوح) بِكفّه. وهذا من إطلاقِ المَلْزوم (الشّرْبُ بكَفّ الكريم) وإرادةِ اللاّزم (كونه كريمًا)، أي من الكناية.

٧ ـ ما يكون بِمُخاطبة الإنسانِ نفسَه؛ وذلك بأن ينتزِع من نفسه

شخصًا آخرَ مِثْلَه في الصّفة الّتي سِيق لها الكلامُ، ثم يخاطبه كما في قول المتنبّي:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيها ولا مَالُ فَلْيُسعِدِ النُّطْقُ إنْ لَمْ يُسْعِدِ الحَالُ

جرّد من نفسه شخصًا آخرَ مِثْلَه في الصّفة الّتي سِيق لها الكلامُ ثم خاطبه.

ومِنْ نماذجه الممتازة قولُ ابنِ عَبْدِ ربِّه يخاطِبُ نفسَه:

يا عَاجِزًا ليسَ يَعْفُو حِينَ يَقْتَدِرُ ولا يُقَضَى لَهُ مِنْ عَيْشِهِ وَطَرُ
عَايِنْ بِقَلْبِكَ إنّ العَيْنَ غافِلَةٌ عَنِ الحقيقةِ واعْلَمْ أنّها سَقَرُ
يا مَنْ تلهّى وشَيْبُ الرّأسِ يَنْدُبُه ماذا الّذي بعدَ شَيْبِ الرّأسِ تَنْتظِرُ

وبشأنِ طبيعة هذا الفنّ ونشأته في الكلام العربيّ يقول أبو عليّ الفارسيّ: «إنّ العربَ تعتقدُ أنّ في الإنسان معنًى كامِنًا فيه كأنّه حقيقتُه ومحصولُه، فتُخرِج ذلك المعنى إلى ألفاظِها مجرَّدًا عن الإنسان كأنه غيرُه وهو هو بِعَيْنِه، كقولِهِمْ: «لئن لَقِيتَ فُلانًا لتلقَيَنَّ به الأسَدَ، ولئن سألتَه لتسألنّ مِنه البَحْرَ»، وهو عينُه الأسَدُ والبحرُ لا أنّ هناك شيئًا منفصِلاً عنه أو متميزًا منه.. وعلى هذا النّمط كونُ الإنسانِ يخاطب نفسَه حتّى كأنّه يُقاوِل غيرَه».

جماليّاتُ التجريد:

تتمثّل في التّجريد جماليةُ المُبالغةِ المستساغة وتأكيدِ المعنى على نحوٍ تألفه النّفسُ. تأمّلْ ذلك في قوله سبحانه: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾. وإنّك لتجدُ كبيرَ اختلافٍ بين هذه الطّريقة لتأدية المعنى وبين أن تقولَ في المعنى نفسه: رسولُ الله أسْوةٌ حسَنةٌ لكم. وجهنّمُ دارُ الخُلْدِ للكافرين. فكأنّ المتكلّمَ يَلْحظُ في التّجريد تَضَخُّمَ صِفةٍ في الشيء إلى حدٍّ يلغي كلَّ

صفاته الأُخَر فتكون شخصيتُه هي هذه الصّفة أو مِثالاً أو صُورةً مثلى لهذه الصّفة. أمّا التّجريدُ في مخاطبة الإنسان نفسَه فيُتيح للمرء تصويرَ داخليّته بكلّ ما يعتمِلُ فيها وإجراءَ الأوصاف المقصودة دون تحرّج؛ لأنّه يوجّه الخطابَ إلى غيره فيكون أعذَرَ وأخفّ التزامًا بما يقول. اسْمَعْ ما يقولُ ابنُ عَبْدِ ربّه مخاطبًا قَلْبَه لتكون على بيّنةٍ من الأمر:

أقولُ لِقَلْبي كُلّما ضامَهُ الأسَا   إذا ما أُتيتَ العِزَّ فاصبِرْ على الذُّلّ
بِرَأْيِكَ لا رَأْيِي تعرّضْتَ لِلْهوى   وأَمْرِكَ لا أَمْرِي وفِعْلِكَ لا فِعْلي
وجَدْتَ الهوى نَصْلاً من الموت مُغْمَدًا   فَجَرّدْتَه ثمّ اتّكأتَ على النَّصْلِ
فإن تكُ مقتولاً على غَيْرِ رِيبةٍ   فأنتَ الّذي عرّضْتَ نفسَكَ لِلْقَتْلِ

جعل الشّاعرُ قلبَه الّذي بين جنبَيْه شخصًا آخرَ نَسَب إليه أفعالاً يصعُب على الإنسان أن ينسبها إلى نفسِه مباشرةً، حتّى لكأنّ هذا الفنّ البديعيّ يترُكُ للمتكلّم متَّسَعًا للتّعبير عن أشْجانِ الذّات وهواجس الضّمير.

١٧ ـ المُبالغة:

المُبالغةُ ـ لُغةً ـ الاجتهادُ في الأمْرِ وعدَمُ التّقصير فيه. وهي في الاصطلاح البلاغيّ:

أنْ يدّعيَ المُتكلّمُ أنّ وَصْفًا منَ الأوصاف بلَغَ من الشّدّة أو الضّعفِ حَدًّا مُستبعَدًا أو مُستحيلاً.

ويحصرها البلاغيّون في أنواع ثلاثة:

١ ـ التّبليغ، وذلك حين يكون المدّعَىٰ مُمْكِنًا في العقل وفي العادة، كما في قوله سبحانه: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾. فوجودُ الظّلمات الّتي أطبق بعضُها على بعْضٍ واشتدادُها إلى حدّ لا تكاد تُرى فيه اليَدُ حين تُخرَج أمرٌ مُمْكِنٌ عقلاً

وعادةً. ومنه في الشّعر قولُ الشّاعر في وَصْفِ فَرَس:

إذا مَا سَابَقَتْها الرِّيحُ فَرّتْ وأَلْقَتْ في يَدِ الرِّيحِ التُّرابا

فهذه السّرعةُ للفرَس من الممكن عَقْلاً وعادَة. ومثلُه قولُ المتنبّي في وصف فرسه:

وأصْرَعُ أيَّ الوَحْشِ قفّيتُهُ بِهِ وأنزِلُ عنه مِثْلَه حِينَ أركَبُ

أي أُدرِك بهذا الجَواد أيّ وَحْشٍ ألحقُه به، وحين أنزِلُ عنه تكون حالُه كحالِهِ حين امتطيتُه أوّلَ الأمرِ من النّشاط والقوّة وعدَمِ التعرّق.

ومن هذا القبيل الأبياتُ المنسوبةُ إلى حَمْدُونةَ الأندلسيّة تصِف وَاديًا مُمْرِعًا جرى فيه الماءُ السَّلْسَل:

وقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضاءِ وادٍ سَقاهُ مُضاعَفُ الغَيْثِ العَميمِ

حَلَلْنا دَوْحَهُ فَحَنا علَيْنا حُنُوَّ المُرْضِعاتِ على الفَطِيمِ

يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ العَذارى فتَلْمِسُ جانبَ العِقْدِ النَّظيمِ

فتلألؤُ حَصا الوادي إلى الحدّ الّذي يَرُوع الفتاةَ ذاتَ العِقْد ظانّةً أنّ عِقْدَها قد انفرطَ أمرٌ ممكنٌ عَقْلاً وعادة.

٢ ـ الإغراق، وذلك حين يكون المُدّعى ممكِنًا عَقْلاً لا عادةً، كقولِ عَمْرِو بن الأَيْهَم التّغلبيّ:

ونُكْرِمُ جَارَنا مادامَ فِينَا ونُتْبِعُه الكَرامةَ حيثُ مالا

فقد ادّعى أنّ إكرامَه لِجارِه يظلّ يلاحِق هذا الجارَ أنّى سار. وهذا من الممكنِ عقلاً والممتنعِ عادةً. ومنه قولُ المتنبّي:

كَفى بِجِسْمِي نُحُولاً أنّني رَجُلٌ لولا مُخاطَبَتِي إيّاك لَمْ تَرَني

٣ ـ الغُلُوّ، وذلك حين يكون المُدّعى مستحيلاً عَقْلاً وعادةً وهو على ضربين: مقبول ومردود.

والمقبولُ أنواعٌ ثلاثة:

١ ـ ما اقترنَ به ما يقرّبه إلى الإمكان، مثل «يَكادُ» في قوله سبحانه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾. فغيرُ معقولٍ ـ عند البشَرِ طَبْعًا ـ وغيرُ مُعتادٍ أنْ يضيء الزيتُ دون أن تمسّه النّار، لكنّ الّذي قرّبه إلى الإمكان ـ في نظر البَشَر طبعًا ـ لفظُ «يكاد» الّذي يدلّ على أنّ الأمرَ المُدّعى لم يكن، ولكنّه قاربَ أن يكون مبالغةً.

ومنه في الشّعر قولُ البحتريّ في الرّبيع:

أتاكَ الرَّبيعُ الطّلْقُ يَختالُ ضَاحِكًا ... مِنَ الحُسْنِ حتّى كادَ أَنْ يتكلّما

٢ ـ ما جمَّله حُسْنُ تخييل، كقول المتنبّي يمدحُ بَدْرَ بنَ عَمّار ويصِفُ الخيلَ:

أَقْبَلْتَ تَبْسِمُ والجِيادُ عَوابِسٌ ... يَخْبُبْنَ بالحَلَقِ المُضاعَفِ والقَنا

عقَدَتْ سَنابِكُها علَيْها عِثْيَرًا ... لو تَبْتَغي عَنَقًا عليهِ لأمْكَنا

السّنابك: جمْعُ سُنْبُك وهو طرَفُ الحافر. والعِثْيَرُ: الغبار. والعَنَق: السّيرُ السّريع. والشّاهِدُ أنّ الشّاعر ادّعى أنّ حوافرَ الخيل أثارت الغبارَ فوق رؤوسِها حتّى صار أرضًا يمكن أن تسير عليها هذه الخيل. وهذا ممتنعٌ عقلاً وعادةً، لكنّ ما انطوى عليه من تخييلٍ حسَنٍ جعلَه مقبولاً. ومنشأُ هذا التّخييل الحَسنِ ادّعاؤه كثرةَ الغُبار وتكاثفه إلى حدّ صار فيه كالأرض المعلّقة في الهواء. ومثلُه قولُ ابنِ عَبْدِ رَبّهِ يصِفُ محبوبَته بدّقة الخَصْر:

يا مَنْ تَقَطّعَ خَصْرُهُ مِنْ رِقّةٍ ... ما بَالُ قَلْبِكَ لا يكونُ رَقِيقَا

٣ ـ ما أُخرج مُخْرجَ الهَزْل والخَلاعة، كقول الشاعر:

أَسْكَرُ بالأمْسِ إنْ عَزَمْتُ على الشُّـ ... ـرْبِ غَدًا إنّ ذا مِنَ العَجَبِ

ادّعى أنّ الشّوقَ إلى الشُّرْب قد بلغَ منه مبلغًا عظيمًا حتّى إنه

صار يسْكَر قبلَ يومين من الموعد الّذي حدّده للشُرْب. وذلك مُحالٌ عَقْلاً وعادةً، لكنّ تقديمَه في سِياق الهَزْل والخَلاعة جعلَه مقبولاً. ويقولون على سبيلِ الظَّرْف: «فلانٌ يَسْكَرُ على الرّائحة».

ومِثْله قولُ الشاعر:

ومرَّ بِفِكْري خَاطِرًا فجَرَحْتُهُ ولَمْ أرَ خَلْقًا قطُّ يَجْرَحُهُ الفِكْرُ

ادّعى أنّ حبيبه من الرّقّة إلى حدّ أنّ مجرّدَ مرورِه بِفِكْره وتذكّره إيّاه جرَحَه، وهذا مُحالٌ عقلاً وعادةً، لكنّ الّذي سوّغَه إتيانُه على سبيل الخَلاعة والتظرّف.

أما الغلُوّ المردود فهو ما ليس ممكنًا لا في العَقْل ولا في العادة، وليس بين الأنواع الثلاثة للمقبول. ومثالُه قولُ أبي نُواسٍ يمدح الرَّشيدَ:

وأَخَفْتَ أهْلَ الشِّرْكِ حتّى إنّهُ لَتَخافُكَ النُّطَفُ الّتي لم تُخْلَقِ

ادّعى إخافةَ الرشيد أهلَ الشّرك مَن وُجِدَ منهم على ظهر البسيطة ومَن لم يوجد، ثمّ غالى في ذلك حتى جعله يُخِيف النُّطَفَ الّتي لم تُخْلَق أصْلاً. وهذا غلوّ مردود؛ لأنه لا ينطوي على شيء من مسوّغات القبول السابقة.

جماليّات المبالغة:

النفوسُ أطوعُ لِلْوَهْم منها للعقل. وقد قال بهذا نفَرٌ من قدماء الفلاسفة. ويبدو أنّ محدوديّة المعرفة البشرية تجعل الإنسانَ منفعِلاً دائمًا بالغريبِ الطّريف الجديد. وما عالَمُ المُبالغات عن هذا ببعيد. إذ يعْرِفُ كلٌّ منّا كيف يُسَرّ الصِّغارُ أيّما سُرورٍ بِصُوَر المبالغات والتّجاوزات، ثم يضعُفُ ذلك عندَهم كلّما قوي سلطانُ العقل. والمبالغةُ في الشّعر تختلف عنها في النّثر، فالشّعرُ أقاويلُ مخيّلة، والنّثرُ في جمهوره أقاويلُ تلتمس الإقناعَ، والشّعرُ يتوجّه إلى الوَهْم، والنّثرُ يتوجّه إلى العقل.

١٨ ـ المَذهب الكلاميّ:

ويراد به اتّباعُ طريقةِ علماء الكلام والتّوحيد في إثبات أصول الدّين بالبراهين العقلية القاطعة. ويقول البلاغيون في تعريفه:

أن يُدلّل المتكلِّمُ على مطلوبه بمقدّماتٍ يستلزِمُ التسليمُ بها التسليمَ بهذا المطلوب.

وخيرُ شواهدِ هذا الفنّ البديعيّ ما جاء في الذّكر الحكيم من مثل قوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. ويُقال في توضيح ذلك: فسادُ السّمٰواتِ والأرض ـ أي خروجُهما على النّظام الّذي هما عليه ـ يستلزِمُ تعدُّدَ الآلهةِ. ولمّا كان اللازم (وهو فسادُهما) باطِلاً، فإنّ الملزومَ (تعدّد الآلهة) باطِلٌ أيضًا. فيُقال في تمام الدّليل بعد الآية الكريمة: لكنّهما لم تَفْسُدا فليس فيهما آلهةٌ غير الله. وهكذا فإنّ التّسليم بالمقدّمات يستلزِمُ التّسليمَ بالمطلوب. ومثل هذه الآية أيضًا قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. وتمام الدّليل:

وكلُّ ما هو أهونُ عليه أَدْخَلُ تحت الإمكان؛ فالإعادةُ ممكنة. وكذلك قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾. تمامُ الدّليلِ: إنّ بَعْثَكم أهونُ عليه سبحانه من خلْقِكم مِنْ تُرابٍ، وكلُّ ما هو أهونُ عليه أدخلُ تحت الإمكان. ومنه قولُ المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام: «لو تعلمونَ ما أعْلَمُ لَضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكيتُم كثيرًا». أي: ولكنكم ضحِكْتُم كثيرًا وبكينُم قليلاً، فأنتم لا تعلمون.

ومن أمثلتِه الرّائعةِ في الشّعر قولُ نابغةِ ذُبيَانَ يعتذر إلى النُّعمانِ بن المُنذِر:

خَلَفْتُ فلَمْ أترُكْ لنفْسِكَ رِيبَةً وليسَ وراءَ الله لِلْمَرْءِ مَطْلَبُ
لَئِنْ كنتَ قدْ بُلِّغْتَ عنّي وِشَايةً لَمُبْلِغُكَ الوَاشي أغشُّ وأكذَبُ
ولكِنَّني كُنْتُ امرأً لِيَ جانبٌ مِنَ الأرضِ فيه مُسْتَرادٌ ومَذْهَبُ
مُلُوكٌ وإخوانٌ إذا ما مَدَحْتُهمْ أُحَكَّمُ في أمْوالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ في قَوْمٍ أراكَ اصطفيتَّهم فلمْ تَرَهُمْ في مَدْحِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

مرادُ الشّاعر أن يستلّ غضبَ مليكه عليه؛ إذ كان النّابغةُ قد مدحَ آلَ جفنة الغسّانيين في الشّام فأثار ذلك غضبَ النّعمان. ويمضي القياسُ في الأبيات هكذا: حَالي مع الغَساسِنة كَحالِ شُعرائِك معَكَ: أحسنتَ إلى شعرائِك فمدحُوكَ فلَمْ ترَهُمْ في مدْحِهم لك أذْنَبُوا، وأحسنَ إليّ الغساسنةُ فمدحتُهم، ومن ثَمّ مدْحي لِمَنْ أحسنَ إليّ ليس بذنبٍ.

جماليّاتُ المذهب الكلاميّ:

جماليةُ المذهبِ الكلاميّ هي جماليةُ الادّعاء الّذي ينصُرُه الدّليلُ، وهي إحدى وسائل التأثير الّتي يستخدمُها المتكلّم فيكونُ له بها سلطانٌ قويٌّ على متلقّي كلامه. وقدرةُ هذا الفنّ على إحداث الانفعالاتِ والاستجاباتِ عجيبةٌ، فكَمْ دائنٍ صارَ به مَدِينًا، وكَمْ سَهلٍ من السَّخائم، وأثارَ من العظائم، وأَغَلّ من الغنائم؟! وفي مقدورِنا القولُ إنّ استخدامه في الشّعر يُضفي عليه رَوْعةً وجَلالاً؛ إذ يجمع بين التخييلِ الّذي يقوم عليه الشّعر والإقناعِ الّذي تتوسّلُه الخَطابةُ والنثْرُ.

١٩ ـ حُسْن التّعليل:

ويريد به البلاغيون:

أن يُدَّعى لِوَصْفٍ على جِهةِ التظرّف عِلّةٌ مناسِبةٌ ليست له حقيقةٌ.

على أنّ الوصف أو الأمرَ الّذي تدَّعي له العلَّةَ التخييلية الطّريفة نوعان:

١ ـ أن يكون هذا الوصفُ ثابتًا حقًّا فيُراد بيانُ علّتِه.

٢ ـ أن يكون غيرَ ثابتٍ، فيُراد إثباتُه بعِلّةٍ مُدّعاةٍ ادّعاءً.

وإليك تفصيلَ القول في النّوعين:

الأوّلُ، الثّابتُ الّذي يُراد بيانُ علّته، نوعان:

أ ـ ما لا يظهرُ له عِلّةٌ في العَادةِ ـ ومنه قولُ أبي هِلالٍ العَسْكَرِيّ:

زعَمَ البنفسَجُ أنّهُ كَعِذارِهِ حُسْنًا فسَلُّوا مِنْ قَفاهُ لِسانَهُ

خروجُ ورقةِ البنفسجِ إلى الخلْف ظاهرةٌ طبيعية ثابتة، ولا عِلّة لها في الظاهر على الأقَلّ لكنّ الشاعر علّلَها بتعليلٍ تخييليّ لطيف هو أنّ البنفسَج اغترّ بجماله فزعم أنّه في الحُسْن كعِذار الحبيب كذِبًا وافتراءً، وكانت عقوبتَه أنْ سُلّ لِسانُه من قَفاه.

ومن هذا القبيل قولُ الصُّوليّ:

الرِّيحُ تَحْسدُني عَلَيْـ ـكِ، ولَمْ أَخَلْها في العِدا

لَمَّا هَمَمْتُ بِقُبْلَةٍ رَدَّت على الوَجْهِ الرِّدا

وقولُ الآخر:

يا خدودَ الوَرْدِ في إخْجالِها قدْ علَتْها حُمْرةٌ مُكْتسبَهْ

اغْتَرَبْنا أنتِ مِنْ بِجّانةٍ وأنا مُغْتَرِبٌ من قرطبَهْ

ب ـ ما يظهرُ له عِلّة غير العِلّة التخييلية المذكورة، ومثاله قول المتنبّي يمدح:

ما بِهِ قتْلُ أعادِيه ولكِنْ يتّقي إخْلافَ ما ترجُو الذّئابُ

فمَبْعثُ قتْلِ الممدوحِ أعادِيه على الحقيقة قَصْدُه دفْعَ ضررِهم وإبعادَ شرورهم، لكنّ الشّاعر نفى هذا العلّةَ الحقيقية، وادّعى علّة أخرى على سبيلِ التظرّف هي أنّ ممدوحَه حريصٌ على تحقيق رجاء

الذّئاب في اتّساع رزقِها بأكْلِ لحوم مَنْ يفتِك بهم من الأعداء.

ومن هذا القبيل قولُ ابن المعتزّ:

قالوا اشتَكَتْ عينُهُ فقُلْتُ لهُمْ: مِنْ كثرةِ القَتلِ نالَها الوَصَبُ
حُمرتُها مِنْ دِماءِ مَنْ قَتَلَتْ والدّمُ في النَّصْلِ شاهِدٌ عَجَبُ

فاحمرارُ عينِ الحبيب وصْفٌ ثابت، وعِلّته الحقيقية «الالتهاب»، لكنّ الشاعر ادّعى أنّ مبعثَ احمرارِها إنما هو دِماءُ مَنْ قتلتْهم هذه العين، فهذه العين سَيفٌ بتّار يُزهقِ الأرواحَ، ولا أحدَ يردّ شهادةَ الدم على السّيف.

والثاني، الوصفُ غيرُ الثابتِ المُراد إثباتُه، نوعان أيضًا:

١ ـ مُمْكِن، كقول مُسْلِمِ بن الوليد:

يا وَاشِيًا حَسُنَتْ فِينا إساءتُهُ نجّى حِذارُكَ إنْساني مِنَ الغَرَقِ

استحسانُ إساءةِ الواشي أمرٌ ينكِرُه الناسُ، فهو وصْفٌ غيرُ ثابت لكنّه ممكن. وقد أراد الشاعرُ أن يثبتَه بعِلّة تخييلية لَطيفةٍ فادّعى أنّه استحْسنَ إساءةَ الواشي؛ لأنّ خَشْيَتَه شَماتةَ الواشي وشعورَه بِمُصابِه منعتْه من البُكاء، فنجّى ذلك إنسانَ عينه من الغرَق في بَحْرِ الدَّمْع.

٢ ـ غيرُ ممكن كقولِ الشاعر:

لَوْ لَمْ تكنْ نِيّةُ الجَوْزاءِ خِدْمتَهُ لَمَا رأيتَ عَلَيْها عَقْدَ مُنْتَطِقِ

نيّةُ الجَوزاءِ خدمةَ الممدوح وصْفٌ غيرُ ثابت وغيرُ ممكن أيضًا؛ لأنّ النيّة لا تكون إلّا ممّن عقَلَ وأدرك. وقد أراد الشاعرُ إثباتَ هذه النيّةَ بعِلّةٍ تخييلية لطيفة هي كونُ الجوزاء منتطِقةً، أي شادّةَ النِّطاقَ على وسَطِها، كحال الخادم.

ومِثْله قولُ الآخر:

لَوْ لَمْ يكُنْ أُقْحُوانًا ثَغْرُ مَبْسِمِها ما كانَ يزْدادُ طِيبًا سَاعةَ السَّحَرِ

جماليّاتُ التعليل الحسن:

يؤكّد الشيخُ عبدُ القاهر جماليةَ هذا الفنّ البديعيّ، ويرى أنّ هذه الجمالية تتضاعف حين يأتي حسن التعليل في قالَبِ التشبيهات. يقول عبدُ القاهر:

«وينبغي أن تعْلَمَ أنّ باب التشبيهات قد حَظِي من هذه الطريقة بِضَرْبٍ من السِّحْر لا تأتي الصّفةُ على غَرابته، ولا يبلغُ البيانُ كُنْهَ ما نالَه من اللُّطْف والظَّرْف، فإنّه قد بلغ حدًّا يَرُدّ العَزُوفَ في طِباع الغَزَلِ، ويُلْهي الثّكْلان عن الثُّكْلِ، وينفُثُ في عُقَد الوَحْشةِ، وينشُدُ ما ضلّ عنكَ من المسَرّة، ويشهَدُ للشّعر بِما يُطيل لِسانَه في الفَخْر، ويُبين جملةَ ما لِلْبيان من القُدْرة والقَدْر».

ويمثّل الشيخُ لاجتماع حُسْنِ التّعليل مع التشبيه وما يتأتّى عن ذلك من سِحْرٍ وخِلابةٍ بهذه المُقابلةِ الرّائعة بين الوَرْد والنَّرْجِس لابن الرُّوميّ، نُثبتُها لكَ بِتَمامها لِرَوْعتِها:

خَجِلَتْ خُدودُ الوَرْدِ مِنْ تَفْضيلِهِ ... خَجَلًا تورُّدُها علَيْهِ شاهدُ
لَمْ يَخْجَلِ الوَرْدُ المُورَّدُ لونُهُ ... إلّا وناحِلُهُ الفضيلةَ عانِدُ
لِلنَّرْجِسِ الفضْلُ المُبينُ وإنْ أبى ... آبٍ وحادَ عنِ الطّريقةِ حائِدُ
فَضْلُ القَضِيّةِ أنْ هذا قائِدٌ ... زَهَرَ الرّياضِ وأنّ هذا طاردُ
شتّانَ بينَ اثنَيْنِ: هذا موْعِدٌ ... بِتَسَلُّبِ الدّنيا وهذا واعِدُ
ينهى النّديمَ عنِ القبيحِ بِلَحْظِهِ ... وعلى المُدامةِ والسّماعِ مُساعِدُ
اطْلُبْ بِعَفْوِكَ في المِلاحِ سَمِيَّهُ ... أبَدًا فإنّكَ لا محالةَ واجِدُ
والوَرْدُ إنْ فكّرتَ فَرْدٌ في اسْمِهِ ... ما في المِلاحِ لَهُ سَمِيٌّ واحِدُ
هذي النّجومُ هي الّتي رَبَّتْهُما ... بِحَيا السّحابِ كما يُربّي الوالِدُ
فانظُرْ إلى الأخَوَيْنِ مَنْ أدْناهُما ... شَبَهًا بِوالِدِه فذاكَ الماجِدُ
أينَ الخدودُ مِنَ العُيونِ نَفاسَةً ... ورِئاسَةً لولا القِياسُ الفاسِدُ

بقيَ أن نقول إن البلاغيين يُلحقون بحسن التعليل ما يُبنى على الشك، ولم يجعلوه من حسن التّعليل؛ لأنّ بين الأمرين اختلافًا أساسُه أنّ حُسْن التّعليل قائمٌ على الادّعاء والإصرار، والشكّ ينافي ذلك ويعارضه. وقد جعلوا منه قولَ أبي تمام:

رُبّا شَفَعتْ رِيحُ الصَّبا لِرياضِها إلى الغَيْثِ حتّى جادَها وهو هامِعُ
كأنّ السّحابَ الغُرَّ غيّبْنَ تحتَها حَبيبًا فَمَا تَرقَا لَهُنّ مدامِعُ

٢٠ ـ التفريع:

ويعني في علم البديع:

أنْ يُثبَت لِمُتعلَّقِ أمرٍ حُكْمٌ بعد إثباتِ ذلك الحُكْمِ لِمُتعلّقٍ له آخرَ على وجْهٍ يُشْعِر بالتفريع والتّعقيب.

وإليكَ نماذجَه الموضحة:

ـ قال الكُمَيتُ بنُ زَيْدٍ الأسَدِي يمدحُ أهلَ البيت:

أحلامُكُمْ لِسَقامِ الجَهْلِ شافِيةٌ كما دِماؤكُمْ تَشْفي مِنَ الكَلَبِ

فالدّماء متعلَّقهم الثّاني (لأنّها دِماؤهم)، والأحلام متعلَّقهم الأول. (أحلامُهم). وهكذا أثبتَ لِمتعلّقهم الثّاني (الدّماء) حُكْمًا هو أنّها تشفي من الكَلَب بعد أن أثبتَ ذلك الحُكْمَ لمتعلّقهم الأول (أحلامهم) حين أثبت لها أنها تَشْفي من سقام الجهل. فكأنّه فرّع من وصْفِهم بشِفاء أحلامِهم سقامَ الجهل وصْفَهم بشِفاء دمائهم من داء الكَلَب. وشِفاءُ دمائهم من الكلَب كِنايةٌ عن أنهم مُلوكٌ؛ إذ تزعم العربُ أنّ أنجع دواءٍ للكلَب شُرْبُ دَمِ الملوك.

ومن التّفريع قولُ الشّاعر:

فاضَتْ يَداه بالنُّضارِ كَما فاضَتْ ظُباهُ في الوَغى بدَمِ

وقول الشريف الرّضِيّ:

إذا فاتَ شيءٌ سَمْعَهُ دلَّ أنفُهُ   وإنْ فاتَ عَيْنَيهِ رأى بالمَسامِعِ

وقول ابن المعتزّ:

كَلامُهُ أخْدَعُ مِنْ لَحْظِهِ   ووَعْدُهُ أكْذَبُ مِنْ طَيْفِهِ

٢١ ـ تأكيدُ المَدْحِ بما يشْبِهُ الذمَّ:

وهو أنْ يعمِدَ المتكلّمُ إلى تأكيد المَدْح باعتماد أسلوبٍ يوهِمُ بأنه أراد الذّمَّ.

وهو على ضربين:

الأول،وهو أبلغُهما، وطريقتُه أن يُستثنى من صِفةِ دمٌ مَنفيّةٍ عن الشيء صفةُ مدْحٍ بتقدير دخول صِفةِ المَدْح في صفة الذّمّ. ومثالُه المشهورُ قولُ النّابغة الذّبيانيّ:

ولا عيْبَ فيهِمْ غيرَ أنّ سُيوفَهم   بِهِنّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائبِ

الفُلول جمْعُ فَلّ هو الثّلْم يصيب حدَّ السّيف. وقِراعُ الكتائب تضاربُ الجيوش عند الالتحام. أراد أن يقول: إنهم بريئون من المعايب تمامًا إلّا إن كان هناك مَنْ يعُدّ تثلّمَ السّيوف بسبب قتال الأعداء عيبًا. ولأنه لا أحدَ يعُدّ ذلك عيبًا فإنّ براءتهم من العيوب أمرٌ محقّق. وقد تحقّق تأكيدُ المدح من وجهتين:

١ ـ أنّ هذه الطريقة لتأكيد المدْح تتّخذ شكلَ تأكيد الشيء بإقامة الدّليل عليه. فقد دلّل على نفي العيب عنهم بتعليق وجوده على وجود شيءٍ لا يكون. والمعلّقُ على المُحال محالٌ كما يقول المناطقة. فالتأكيدُ هنا كتأكيد نفي دخول الكافرين الجنّةَ في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾. وكما تقول لأحدِهم: لا تنجحُ حتّى تطلعَ الشّمسُ من المغرِب.

٢ ـ أنّ أصْل الاستثناء في العربية كونُ المستثنى منه مشتمِلاً على المستثنى على تقدير السّكوت عنه، وهكذا فإنّ ذِكْر أداة الاستثناء (إلّا، غير، سوى... إلخ) قبل ذكر المستثنى يُوحي للمتلقّي قبل النّطق بالمستثنى أنَّ الآتي مستثنًى من المَدْح السابق ويُراد به إثباتُ ذمٍّ، فإذا عُكِس التّوقعُ وجاءت بعد الأداة صفةُ مَدْح ازداد المَدْحُ تأكيدًا؛ لِما في ذلك من المَدْح على المدح، والإشعارِ بأنّ المتكّلم لَمْ يجد صفةَ ذَمٍّ حتّى يستثنيها فاضطُرّ إلى استثناءِ صفةِ مَدْح. ومثاله قول الشّاعر:

ولا عيبَ في معروفِه غيرَ أنّه ... يُبيِّنُ عجزَ الشّاكرينَ عن الشُّكْرِ

ويجعلون منه قوله سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾.

الثاني، وطريقتُه أن يُثبَت لشيءٍ صفةُ مَدْح تُعقَب بأداةِ استثناء تليها صفةُ مدْحٍ أخرى. ومثالُه قولُ المصطفى علَيه الصّلاة والسلام: «أنا أفصَحُ العرَبِ بَيْدَ أنّي من قريشٍ». بَيْدَ بمعنى غير. ويتأتى تأكيدُ المدْح هنا من الوجه الثاني الذي ذُكِر قبلُ؛ وهو أنّ ذكر أداة الاستثناء قبل ذكر المستثنى يوحي للمتلقّي قبل النّطق بالمستثنى أنّ الآتي مستثنًى من المَدْح السّابق، ويُراد به إثباتُ صفةِ ذمّ، فعندما يُعْكَس التوقّعُ وتجيء بعد الأداةِ صفةُ مدْحٍ أخرى يزداد المدحُ تأكيدًا؛ لِما في ذلك من المدحِ على المدْح، والإشعارِ بأنّ المتكلّم لم يجد صفةَ ذمّ فاضطُرّ إلى استثناء صفة مدح.

ومنه في الشّعر قولُ النّابغة الجَعْدِيّ:

فتًى كَمُلَتْ أخلاقُهُ غيرَ أنّه ... جَوادٌ فما يُبْقي من المَالِ باقِيًا

ويعامِلُ البلاغيون الاستدراكَ المفهوم من لفظ «لكنْ» ـ في باب

تأكيد المَدْح بِما يشبه الذمّ ـ معاملةَ الاستثناء. ومن ذلك قولُ بديع الزّمان الهَمَذانيّ:

هـوَ الـبَـدْرُ إلّا أنّـه الـبَـحْـرُ زاخِـرًا   سِـوى أنّـهُ الـضِّـرْغَـامُ لـكـنّـه الـوَبْـلُ

فقوله: «إلاّ أنّه البحر...» و «سوى أنّه الضّرغام» استثناءان على غِرار «بَيْدَ أنّي من قريش»، وقولُه «لكنّه الوَبْلُ» استدراكٌ يفيد الفائدةَ المحصَّلةَ من الاستثناء في هذا الباب، أي تأكيد المدح بما يشبه الذمّ. وكذا قول الشّاعر:

وجُـوهٌ كـأزهـارِ الـرِّيـاضِ نَـضَـارةً   ولـكـنّـهـا يـومَ الـهِـيـاجِ صُـخـورُ

جماليّاتُ هذا الأسلوب:

هذه الطريقة لتأكيد الشيء بما يُشْبِه نقيضَه ذاتُ سلطان كبير على نفس المتلقّي؛ إذ يستعِدُّ ذهنُه بعد سَماع أداة الاستثناء أو الاستدراك لتلقّي معنًى مخالف لِما سبَق، كما هو المعهود في الاستثناء المعتاد، لكنّه يُباغَت بتأكيدٍ للمعنى السّابق وإثباتٍ له فيُحْبَط توقّعُهُ، مِمّا يستدعي تنبُّهًا عاليًا. ويتفَنّن المبدعون عادةً في تخيّر الصّفة المستثناة المؤكِّدة للمعنى المستثنى منه، ويتنافسُ في ذلك المتنافسون. وفي بيت النّابغة السّابق خيرُ بيانٍ لهذا. ولا يغيبُ عنّا أيضًا أنّ في الاستثناء والاستدراكِ ضرْبًا من الإيقاظ والتّنبيه، فإذا أُضيف إليه «إحباطُ التوقّع» الّذي تعتمده هذه الطريقة، أدركْنا أيّ فعلٍ يفعلُه هذا الأسلوب في ذهن المتلقّي.

٢٢ ـ تأكيد الذمّ بِما يشْبِهُ المدْحَ:

وهو انتهاجُ المتكلّم عَكْسَ النّهج السّابق، بأن يقْصد تأكيدَ الذم باعتمادِ أسلوبٍ يوهِمُ المدحَ. ويأتي على ضربين:

* **الأول:** أن يُستثنى من صِفةِ مدْحٍ منفيّة عن الشيء صِفةُ ذمٍّ له، بتقدير دخول صفة الذّم في صفةِ المَدْح، كقولكَ: «لا خيرَ في

فلانٍ غيرَ أنه يجاهِرُ بالنّفاق». فقد استثنَيْتَ من صِفة مدحٍ منفيّة عن فلان «لا خيرَ فيه» صفةَ ذمّ له «مجاهرته بالنّفاق» وبذلك تكون قد أكّدتَ الذمَّ من الوِجهتين اللّتين يؤكّد بهما النّوعُ الأول من تأكيد المدح بما يشبه الذمّ. ومنه قول الشاعر:

خَلا مِنَ الفَضْلِ غيرَ أنّي أراهُ في الحُمقِ لا يُجارىٰ

* **الثاني**: أن يُثبَت لشيء صفةُ ذمّ تُعقَّب بأداة استثناء تليها صفةُ ذمّ أخرى لذلك الشيء كقولك: «فلانٌ حَسودٌ غيرَ أنّه لا يملِكُ نفسَه عند الغَضَب». ومنه قول الشّاعر:

هو الكَلْبُ إلّا أنّ فيهِ مَلالَةً وسُوءَ مُراعاةٍ وما ذاكَ في الكَلْبِ

وقول الآخر:

لَئيمُ الطِّباعِ سِوى أنّهُ جَبانٌ يَهُونُ عليهِ الهَوانُ

ويفيدُ هذا الضّربُ تأكيدَ الذمّ من الوَجْه الذي أُكِّد فيه المدحُ في الضّرب الثّاني من «تأكيد المدح بما يشبه الذّم».

وشأنُ الاستدراكِ في هذا المحسِّن البديعيّ كشأنِ الاستثناء على ما عرفْتَ في الفنّ السابق.

٢٣ ـ الاستتباع:

ويريد منه البلاغيون:

أن يُمدَح بشيءٍ على وجهٍ يستتبعُ المدْحَ بشيءٍ آخر.

وإليكَ أمثلةً منه:

ـ قال المتنبي يمدحُ:

نَهَبْتَ مِنَ الأعمارِ ما لَوْ حَوَيْتَهُ لَهُنِّئَتِ الدّنيا بأنّك خالِدُ

مدَحه بأنّه غايةٌ في الشجاعة والبَأس؛ إذ كثُر قتْلاه إلى درجة أنّه

لو اجتمعتْ له أعمارُهم التي كان يمكن أنه يعيشوها لَخُلِّد في الدنيا. وجاء المدْحُ على طريقة استبعَتْ مدْحَه بكونه سببًا لِصَلاح الدّنيا ونظامها، حيث جعل الدّنيا تُهنَّأ بخُلودِه، ولا يمكن أن تُهنّأ الدّنيا بشيء إلّا إذا كان فيه صلاحَها.

ومنه قول الشاعر:

ألا أيُّـهـا الـمَـالُ الّـذي قـدْ أَبَـادَهُ تـسـلَّ فـهـذا فِـعْـلُـه فـي الـكَـتـائـبِ

فقد مدحه بأنّه مُبيدٌ للمال بتوزيعه على المعتفين والمحتاجين على وجهٍ استتبعَ مدْحَه بكونه شجاعًا مبيدًا لكتائب الأعداء. وقد ضاعف جماليةَ البيت إشعارُ الشاعر بأنّ المالَ متضايِقٌ ممّا فعل به الممدوحُ، ثم تعزيته بدعوته إلى التأسّي بحال كتائب الأعداء، كما قال أبو نُواس يمدح:

بُـحَّ صَـوْتُ الـمَـالِ مِـمّـا يـشـكُـو مِـنْـك ويـنـوحُ

ومنه قول الشاعر:

سَمْحُ البَدِيهةِ ليس يُمْسِكُ لفظَه فـكـأنّـمـا ألـفـاظُـه مِـنْ مـالِـهِ

ورأى بعضُ البلاغيين أنّه قد يأتي في الذمّ، وجعلوا من ذلك قولَ الشّاعر في قاضٍ لم يقبلْ شهادتَه برؤية هِلال الفِطْر:

أتـرى الـقـاضِـيَ أعـمـى أم تـراهُ يـتـعـامـىٰ
سَـرَقَ الـعِـيـدَ كـأنّ الـ ـعِـيـدَ أمـوالُ الـيَـتـامـى

جماليّات الاستتباع:

تتأتّى جماليةُ الاستتباع من أنه يعطيكَ الفائدة من حيث تتوهّم أنْ لا فائدة. فثمّة لَطافةٌ في تقديم المدح أو الهجاء المسْتَتْبَعَيْن، فإذا كان الذّهن قد تلقّى المعنى الأولَ الّذي جاءه واضحًا لا لَبْس فيه بشيء من الراحة والاطمئنانِ وعدم التّمحيص، فإنّ المعنى الثاني يأتيه هكذا على

استحياءٍ ويستدعي منه تنشيطًا للإدراك أكثرَ من ذلك الذي استخدمه في إدراك المعنى الأول. ويتفنّنُ البلغاءُ عادةً في الوجه الذي يتأتّى فيه أن يستتبعَ المدْحُ بشيء المدحَ بشيء آخر. ونُعيدك إلى ما قال أحدُ البلاغيين العرب عن بيت أبي الطّيّب المتنبّي الذي استشهدنا به أولًا: «في البيتِ وَجْهانِ آخران من المدْح، وأحدُهما: أنّه نهَبَ الأعمارَ دون الأموالِ، كما هو مقتضى علوّ الهمّة، وذلك مفهومٌ من تخصيصِ الأعمارِ بالذّكْر والإعراضِ عن الأموال مع أنّ النّهب بها أَلْيَقُ... والثّاني: أنّه لم يكنْ ظالِمًا في قتْلِهم؛ لأنه لم يقصِدْ بذلك إلّا صلاحَ الدّنيا وأهِلها، وإلّا لما كان للدّنيا سرورٌ بخُلودِه».

٢٤ ـ الإدماج:

الإدماجُ ـ لُغةً ـ اللّفُّ والإدخالُ، من قولِ العرب: أدمجَ الشيءَ في ثوبه، إذا لفّه فيه. أمّا في الاصطلاح البلاغيّ فهو:

أن يُضمِّن المتكلِّمُ كلامَه، الّذي ساقه لِمعنًى، معنىً آخَر لم يصرّح به.

ومنهُ قولُ المتنبّي يصِف تطاولَ اللّيل عليه:

أُقلِّبُ فِيهِ أجْفَانِي كأنّي أعُدُّ بِها على الدّهْرِ الذُّنوبَا

كلامُ الشاعر مَسُوقٌ أصْلًا لبيان طول اللّيلِ الذي بات يقلّب فيه أجفانَه، لكنّه ضمّن كلامَه الّذي ساقه لهذا الغرض معنًى آخر لم يصرّح به هو «شكوى الدهر وتعداد إساءاته للشاعر». ويقول البلاغيون إنّ هذا المعنى الثاني لا ينبغي أن يصرَّح به ولا يكون فى الكلام ما يدلّ على أنّه مسوقٌ لأجله. ومنه قولُ ابن المعتزّ في الخيريّ:

قد نفَضَ العاشِقونَ ما صَنَع الـ ـهَجْرُ بألْوانِهِمْ على وَرَقِهْ

غايةُ الشاعر من كلامه وصفُ الخيري بالصُّفْرة، لكنه أدمج الغزَل في هذا الوصفِ، أي ضمّنه معنًى من معاني الغزل.

وكذا قولُ ابنِ نُباتة:

ولا بُدَّ لي مِنْ جَهْلَةٍ في وِصَالِهِ فَمَنْ لِي بِخِلٍّ أُودِعُ الحِلْمَ عِنْدَهُ

ساق الشاعرُ كلامَه للغَزَل، لكنّه ضمّنه معنًى آخر لم يصرّح به وهو الفخرُ بأنّه حَليم؛ إذ إنّ بحثه عن خِلّ صالح يودِعُ الحِلْمَ عنده يستلزم أنّه حليم وأنّه حريص على الحِلْم يودعه عند مَنْ يأتمِنُه عليه ثمّ يعود إليه؛ فإنّ الودائعَ تُستعاد.

ويُقال في جماليّة هذا المحسّن البديعيّ ما قلناه في «الاستتباع»؛ ذلك أنه لا يختلِفُ عن الاستتباعِ إلّا في شموله المَدْحَ وغيرَه، في حين يُقْصَر الاستتباعُ على المدْح، المشهور من البلاغيين.

٢٥ ـ التوجيه:

ويُسمّيه بعضُهم «مُحْتمِلَ الضِّدَّيْنِ». والتوجيهُ في المصطلح البلاغيّ هو:

أن يأتي المتكلِّمُ بكَلام يحتمِلُ مَعْنَيَيْنِ متضادَّيْنِ، كمديحٍ وهجاء، أو دعاءٍ للمخاطَبِ أو دعاءٍ عليه؛ لِيبلُغَ غرضَه الّذي يريده بما لا يُمْسَكُ عليه.

وإليكَ أمثلتَه الموضحة لتكونَ على بيِّنةٍ من الأمر:

قال بشّارُ في خَيّاط أعورَ اسمُه عَمْرو كان قد خاط له قَباءً:

خَاطَ لِي عَمْرٌو قَبَاءْ لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءُ

قُلْ لِمَنْ يَعْرِفُ هذا أَمَدِيحٌ أم هِجَاءُ؟

القَباء: ضربٌ من الثِّياب. وقد أخفى الشاعرُ مرادَه، فلم يُعْرَف تمامًا: أيتمنّى أن تُسوّى العوراءُ بالصّحيحه فيكونَ ذلك دُعاءً له بالإبصار التّام، أم أن تسوّى الصحيحةُ بالعَوْراء، فيكونَ ذلك دعاءً عليه بأن يُكَفّ بصَره.

ـ ومنه قول الشاعر:

كُلَّما لاحَ وجهُهُ بِمَكانٍ كثُرَتْ زحْمَةُ العُيونِ إلَيْهِ

فإنّ كثرةِ تزاحم أعين الخلْق لرؤية إنسانٍ قد تعني الإعجابَ به، أو الاحتقارَ له.

وينتمي إلى هذا ما حكَوا أنّ محمّدَ بن حَزم هنّأ الحسَن بنَ سَهْلٍ، الوزير العبّاسي المشهور، بتزويج ابنته «بُوران» للخليفةِ المأمون، فأثابَ الحسَنُ المهنّئين خلا محمَّدًا هذا، فكَتب إليه محمّد: إن أنتَ تمادَيْتَ في حِرْماني قلْتُ فيكَ بيتًا لا يُعْرَف أهو مدْحٌ أم ذمّ، فاستحضَرَه الحسنُ وسأله فأقرّ، فقال الحسَنُ: لا أعطيكَ أو تفعلَ.

فقال:

بَارَكَ اللّهُ لِلْحَسَنْ ولِبُورَانَ في الخَتَنْ

يا إمامَ الهُدى ظَفِرْ تَ، ولكِنْ بِبِنْتِ مَنْ؟

فلمْ يدْرِ: «بِبِنْتِ مَنْ» في العَظَمة وعلوّ الشأن أم في الضَّعَة والدناءة. فالتّساؤل يحتمِلُ المعنيين. ويقال إنّ الحسَنَ استحسن صنيعَه.

جماليّات التّوجيه:

جليّ أنّ هذا الفنّ البديعيّ يشدّ المتلقّي؛ لأنّه لا يقدّم من محدّدات الدّلالة ما يُطَمئِن الذّهنَ إلى معنًى بعينه، بل يدَعُه يلوُب في حَيْرة البَحْث عن الدّلالة الحقيقية. وينطوي أيضًا على التعجّب المُتأتّي من إحساس المتلقّي بأنّ المنشيء قادرٌ على عَرْض كلام يَشْرَكُهُ هو في معرفة مفرداته لكنّه يجهلُ المرادَ من مركَّبه. وفي جِبِلّة الإنسان حُبّ للألغاز والمُبْهَمات.

٢٦ ـ الهَزْلُ الّذي يُراد به الجِدُّ:

وهو ـ كما تدلّ تسميته ـ **أن يذْكُرَ المتكلّمُ الأمرَ على سبيل اللّعِبِ والمُباسَطَةِ ويقصِدَ به أمرًا صحيحًا.**

ومن أمثلته:

- قال أبو نُواس:

إذا ما تَـمِـيـمِـيٌّ أتـاكَ مُـفـاخـرًا   فقُلْ عَدِّ عَنْ ذا، كَيْفَ أكْلُكَ للضَّبّ؟

أراد أن يقول: دعْكَ من هذا التّفاخر وخبّرْني عن شيء أنتَ به أعلَمُ وهو: كيف تأكلُ الضَّبَّ. فإثباتُ معرفة المخاطب أكْلَ الضبّ يستلزم أنه وَضِيعٌ محتقرٌ ولا شأنَ له بالفخر. فظاهرُ الكلام مِزاحٌ وهَزْلٌ وباطنُه جِدٌّ، عكْسُ ما يكون عليه الأمر في التهكّم. ومعلَومٌ أنّ نفسَ الشريف تعافُ الضبَّ وتكرهه.

- وقال ابن نُباتة:

سَلَبَتْ مَحَاسِنُكَ الغَزالَ صِفاتِهِ   حتّى تحيّرَ كلُّ ظَبْيٍ فِيكا
لَـكَ جِـيـدُهُ ولِـحـاظُـه ونِـفـارُه   وكـذا نـظـيـرُ قُـرونِـه لِأبـيـكـا

أثبتَ لمخاطَبِه كلَّ محاسن الغزال في الجيد والعينين والنّفار، حتى إنّه أثبت لأبيه ما يشبه قرونَ الغزال، وظاهر ذلك المِزاحُ والهزْلُ، لكنّ الشّاعر قصدَ إلى هجائه بإثبات ما يشبه قرونَ الغزال لأبيه.

جماليات هذا الفنّ:

هذا المحسِّنُ البديعيّ يمكّن المتكلِّمَ من عَرْض مُراده في قالب لا يؤاخَذ عليه ولا يُتَبيَّن أثرُ الإساءة فيه؛ فقد جُبِلت النّفوس على قبول الأشياء ما دامت في إطار الهَزْل والدُّعابة والتعابث. وهو مسْلكٌ دقيق من مسالك الكلام لا يجوِّد فيه إلّا الأفذاذُ البُصَراء بمآخذ القول ودقائق التّعبير.

٢٧ ـ تجاهُل العارفِ:

وهو أن يسألَ المتكلِّمُ عن أمرٍ يعرِفُه حقيقةً متظاهِرًا بالجَهْلِ؛ لغايةٍ في نفسه. وقد سمّاه السّكاكيُّ: «سَوْقَ المعلومِ مَساقَ المجهولِ

لِنُكْتَةٍ»؛ لأنه يتحاشى إطلاقَ اسْمِ «التجاهل» على ما يرِدُ من أمثلةٍ لهذا الأسلوب في الذِّكر الحكيم.

ويستخدِمُ المتكلّمُ هذا الفنّ لغايات كثيرة ـ منها:

١ ـ قصْدُ التّوبيخ، كما في قول لَيلى بنت طَرِيفٍ ترثي أخاها الوليدَ حين قتلَه القائدُ العبّاسيّ يزيدُ بن مَزْيَدٍ الشّيبانيّ:

أيا شَجرَ الخابورِ، مالَكَ مُورِقًا كأنّكَ لَمْ تجزَعْ على ابْنِ طَرِيفِ

الخابورُ نهْرٌ في شماليّ سوريا يرفد الفراتَ، وتنمو على ضفّتيه الأشجار. مورقًا: ذا وَرَق. سؤالُ الشاعرة شجرَ الخابور عن استمرار إيراقه بعدَ مقْتَلِ أخيها يُراد منه التّوبيخ على عدم استجابته للحادث الجلَل والمُصاب العظيم، على عادة أهل الرّثاء في إشْراك عناصر الطبيعة في الحزن على المتوفّى، مبالغةً في تعظيمه.

٢ ـ قصْدُ المبالغة في المَدْح، كما في قول بشّار من قصيدة مشهورة يتغزّل فيها بصاحبته:

إنْسِيَّةٌ جِنّيّةٌ أَوْ بينَ ذاكَ أشَدُّ أمْرًا

وكما في قول البحتريّ:

أَلَمْعُ بَرْقٍ سَرى أم ضَوءُ مِصْباحِ أم ابتسامتُها بالمَنْظَرِ الضّاحِي

المنظر الضّاحي: الوجه المشرق.

٣ ـ قصْدُ المبالغة في الذّمّ كقول زُهَير بن أبي سُلْمى:

ومَا أدْري وسَوْفَ إخالُ أدْري أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِساءُ

يريد: أَرِجالٌ آلُ حِصْن أم نساء؛ فالقوم: الرّجال.

٤ ـ التدلُّه في الحُبّ، كما في قول الحُسَين بن عبد الله الغريبي:

بِاللّهِ يا ظَبَياتِ القَاعِ قُلْنَ لنا: لَيْلايَ مِنكنّ أَمْ لَيلى من البَشَرِ؟

القاع: المستوي من الأرض.

وقول الآخر:

بِـالـلّـهِ يـا نَـسَـمـاتِ الـرَّنـدِ والـبَـانِ   مِنْ نَجْدِ جِئتُنَّ أَمْ مِنْ رَوْضِ غَسّانِ

الرَّنْد: شجرٌ طيّب الرائحة. والبَان شجرٌ معروف باعتدال أغصانه.

٥ ـ التحقير، كما في قوله سبحانه حِكايةً عن الكفار: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾، كأنّهم لم يعْرِفوا منه إلّا أنّه «رجل».

٦ ـ التّعريض، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾. قال الزّمخشريُّ في تفسير هذه الآية الكريمة: «وهذا من كلامِ المُنصِفِ الّذي كلُّ مَنْ سَمِعَه من مُوالٍ أو مُشاقّ قال لِمَنْ خُوطِب به: قد أنصفَك صاحِبُك. وفي دَرْجِه بعدَ تَقْدِمةِ ما قدّم مِنَ التقرير البليغِ دِلالةٌ غيرُ خفيّة على مَنْ هو من الفريقين على الهدى ومَنْ هو في الضّلال المبين. ولكن التّعريض والتّورية أمضىٰ بالمُجادِل إلى الغرَض وأهجمُ به على الغلَبة مع قلّة شغْبِ الخَصْم وفلِّ شوكته بالهوينا، ونحْوُه قولُ الرّجل لصاحبه: عَلِمَ الله الصّادقَ منّي ومِنْكَ وإنْ أحَدَنا لكاذبٌ». ومنه قولُ حسّان بن ثابت يخاطبُ أبا سُفيانَ بن الحارث الّذي كان هجّا المصطفى عليه الصّلاة والسّلام.

أَتَـهْـجُـوهُ ولَـسْـتَ لَـهُ بِـكُـفْءٍ   فـشَـرُّكُـمـا لِـخَـيْـرِكُـمـا الـفِـداءُ

٧ ـ الإيناس، حين يكون المقامُ مقامَ جَلالٍ ورَهْبة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

والحقّ أن أغراضَ التّجاهل لا يأتي عليها الحصْرُ.

جماليّات هذا الفنّ:

لعلّكَ تبيّنتَ أنّ المتكلّم يسوقُ المعلومَ مساقَ غيره ليبلغ مراده مِنْ وجهةٍ تُثبت المعنى المرادَ من مدْح أو ذمّ أو سوى ذَيْنِك. ومرجعُ تأكيدِ المعنى وإثباتِه في هذا الضّرْب إظهارُ المتكلّم أنّه تحرّى الدّقةَ والتمسَ الحقيقةَ فوجد الأمرَ على ما وصَف. وحُكْمُ من تطمئِنّ إلى حِياده ونزاهتِه أكثرُ تأثيرًا في نفسِكَ من حُكْم ذلك الّذي يكون حكَمًا وخَصْمًا في الوقت نفسه. كما يقول الشخصُ لآخر: «الناسُ يتّهمونكَ بالحُمْقِ» فيشتدّ نكيرُه لذلكَ، لكنّه يكون أقلَّ شغَبًا ورفْضًا حين يقول ثانيةً: «الناسُ يقولون لا أنا». فيكون ذلك أثبتَ.

٢٨ ـ القول بالموجب:

ويأتي على ضربين:

١ ـ أن يتضمّن كلامُ غيرِكَ صِفةً لشيءٍ مرتّبًا عليها حُكْمٌ لذلك الشيء، فتعمِدُ أنتَ إلى إثبات تلكَ الصِّفةِ لشيءٍ آخر دون أن تتعرّض لثبوتِ ذلك الحُكْم لذلك «الغير» أو نفيه عنه. كما في قوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. في هذا الآية الكريمة تضمّن قولُ المنافقين صفتين: الأعزّ كنايةً عن فريق المنافقين؛ والأذلّ كنايةً عن فريق المؤمنين. وصفةُ الأعزّ هذه رُتّب عليها حُكْمٌ وهو إخراج الأعزّ الأذلَّ من المدينة، بمعنى أن يخرِج المنافقون المؤمنين منها. فردّ سبحانه بإزالة صِفة الأعزّيّة عن المنافقين وإثباتِها لغيرهم: لله ولرسوله وللمؤمنين، دون تعرّض لثبوتِ حُكْم الإخراج للموصوفين بالعزّة أو نفْيِه عنهم. ومِثاله أن يقول أحدُهم: «هزَمَ الأغنياءُ الفقراءَ» فتقول أنتَ: الغنيّ هو الله، أو الفقيرُ الشيطان.

٢ ـ حَمْلُ لفظٍ وقعَ في كلامِ غيرِك على خلاف مُرادِه على أن

يكون هذا اللّفظُ محتمِلاً للمعنى الّذي حوّلته إليه وذلك بذِكْر متعلَّقه.

ومنه قول الشاعر:

قُلْتُ: ثَقَّلْتُ إذْ أتَيْتُ مِرارًا   قال: ثَقّلْتَ كاهِلي بالأيادي

ثقّلتُ: أثقلتُ عليكَ بتحميلي إياكَ أكثرَ مِمّا تُطيق بالإتيان مرةً إثر مرة. لكنّ صاحبه حمَل هذا اللّفظَ «ثقّل» على غير مراده الذي ذكرناه؛ إذ أراد به أنّه أنعمَ عليه وتفضّل إلى حدّ صار فيه مَدِينًا له. وقد فُهِم ذلك من ذِكْر متعلّقه وهو قولُه: «كاهِلي بالأيادي».

ومنه قولُ الشّاعر:

وقالوا قدْ صَفَتْ مِنّا قلوبٌ   لقَدْ صَدَقوا ولكِنْ مِنْ وِدادي

صفاءُ القلوب في قولهم يعني «إخلاصَها»، وفي قوله هو في عجُز البيت «خُلُوّها» من الوِداد. ودليلُ ذلك متعلَّقُ الفِعْل وهو «من ودادي»؛ فإنّ المناسب للجارّ والمجرور هنا «صفا» بمعنى «خلا» أي: خلتِ القلوبُ من الوداد.

٢٩ ـ الاطّراد:

الاطّراد ـ لُغةً ـ التّتابُعُ في اتّساقٍ وانتظام. ويعني في اصطلاح البلاغيين:

أن تأتي باسم الممدوح ـ أو غيره ـ وآبائه على ترتيب الوِلادة دون تكلّف في السّبْك.

وهاكَ أمثلةً له:

ـ قال الشاعر:

إنْ يقْتلوكَ فقَدْ ثَلَلْتَ عُروشَهُمْ   بِعُتيبَةَ بن الحَارِثِ بن شِهابِ

أراد: إن فَرِحوا بقتْلِك وافتخروا بصنيعهم فقد هدمْتَ صرحَ

عزّهم بقَتْلِ رئيسهم عتيبة بن الحارث بن شهاب. وقد توالت الأسماءُ ـ كما ترى ـ بيُسْرٍ وتدفّق كأنّها الماءُ السلسل.

ـ قال دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة:

قَتَلْنا بِعَبْدِ الله خيْرَ لِداتِهِ ذُؤابَ بْنَ أَسْماءَ بْنِ زَيْدِ بْنِ قَارِبِ

وتروي الأخبارُ أنّ عبدَ الملِك بنَ مروان عندما سمِعَه قال: «لولا القافيةُ لبلغَ به آدمَ».

ونسوقُ لك ما قال أحدُهم في نَسَبِ الإمام الشّافِعيّ:

مُحمّدٌ إِدْرِيسُ عَبّاسٌ ومِنْ بَعْدِهُمْ عُثْمانُ إِبْنُ شَافِعْ
وسَائبٌ إِبْنُ عُبَيْدٍ سَابِعٌ عَبْدُ يزيدَ ثامِنٌ والتّاسِعْ
هاشِمٌ المولُودُ إبْنُ المطَّلِبْ عَبْدُ مَنافٍ لِلْجَمِيعِ تابِعْ

ويجعلون من ذلك قولَ المصطفى عليه الصّلاة والسلام: «الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسُفُ بنُ يعقوبَ بْنِ إسحاقَ بْنِ إبراهيمَ».

وتقومُ جماليةُ «الاطّراد» على ما ينطوي عليه تسلسلُ الأسماء من توافقٍ وانسجام واتّساق؛ ومعلومٌ أنّ الانسيابيّةَ والرّشاقة والسّلاسة ملامِحُ جمالية لا خلاف بشأنها. كما تَشِفّ نماذجُه العالية عن براعةِ المنشِىء وامتلاكِه ناصيةَ القول وتذليلة الصّعْبَ من الألفاظ، وعلى الجملة تكشِف عن قدرةٍ على «تأليف المتنافرات».

٣٠ ـ الأسلوبُ الحكيم:

ويعني عند البلاغيين:

أنْ تتلقّى المخاطبَ بغير ما يترقّبُه، وتصرِفَ حديثَه إلى وِجْهةٍ أخرى لم يقصِدْها.

وله صورتان:

١ ـ أن تتناسى سؤالَ المخاطَب وتُجيب عن سؤالٍ لم يسألْه. كالّذي يَرْوُونَ من أنّ الحَجّاج بنَ يوسُف قال لِلقَبَعْثَرِيّ متوعّدًا: «لأَحْمِلَنّكَ على الأَدْهَم»، يقصِدُ الحجّاجُ: «أقيّدُك بقَيْدِ الحديد الأسود، وهو من معاني الأدهم. فقال القبعثريّ: «مِثْلُ الأميرِ يَحْمِلُ على الأَدْهَمِ والأَشْهَبِ». أي: على الفَرس الأسود والفرس الأبيض. فظنّ الحجّاجُ أنّه لم يفهم ما أراد، فقال: «أردْتُ الحَديدَ». فقال القبعثرِيّ: «لأَنْ يكونَ حَدِيدًا خيْرٌ من أن يكون بليدًا». أي: لأن يكون فرسًا خفِيفًا رشيقًا خيرٌ من أن يكون بَليدًا متباطئًا رَذْلًا. وقد أراد القبعثرِيّ بذلك تخطئةَ الحجّاج وإفهامَه أنّ الأَوْلىٰ به الوَعْدُ لا الوعيد.

ومنه قول الشاعر:

طَلَبْتُ مِنْهُ دِرْهَمًا يَوْمًا فأظْهرَ العَجَبْ
وقالَ ذا مِنْ فِضّةٍ يُصْنَعُ لا مِنَ الذَّهَبْ

طلبَ من صاحبه دِرْهمًا فتناسى الصاحبُ سؤالَه وصرفَ الحديث إلى معنًى آخر لم يسأله عنه، وهو أنّ الدّرْهمَ مصنوعٌ من الفِضّة لا من الذهب.

وقول الآخر:

ولقَدْ أتيْتُ لِصاحبي فَسَأَلْتُهُ في قَرْضِ دِينارٍ لِأَمْرٍ كانا
فأجَابَني: واللّهِ، داري ما حَوَتْ عَيْنًا، فقُلْتُ له: ولا إنسانا

للعَيْنِ في اللّغة معانٍ كثيرة، منها الدِّينارُ والواحِدُ من النّاس، فلعلّه أراد ما في داري أحد. والإنسانُ: إنسانُ العين.

٢ ـ أن تحمِلَ كلامَ المتكلّم على غير ما يقصِدُ، تنبيهًا على أنّ الأحْرى به أن يقصِدَ المعنى الّذي قصدته أنت، كقوله سبحانه:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾. سألوا المُصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام عن ماهِيّةِ ما ينفقون وحقيقتِه فأُجيبوا ببيان طُرُق توزيع المال؛ تنبيهًا لهم على أنّ تحديدَ جِهاتِ الإنفاق هو ما ينبغي أن يسألوا عنه.

وكقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾. سأل الصحابةُ الرسولَ الكريم عليه الصّلاة والسّلام عن الأهلّة من حيث بَدْؤُها صَغيرةً ثمّ تزايدُها إلى أن يتكامل نورُها، ثمّ تتضاءل حتّى لا تُرى. فصُرِفوا عن هذه المسألة الفَلَكية الدّقيقة ببيان أنّ الأهِلّة وسائلُ لمعرفةِ الأوقات في المعاملات والعادات؛ تنبيهًا لهم على أنّ الأهمّ لهم هو هذا.

ومن ذلك ما يُذْكَر أنّ خالدَ بن الوليد حين توجّه لفَتْح الحِيرة لقِي رجلًا من أهلها من ذوي الخِبْرة، فسأله خالدُ: فِيمَ أنتَ؟ - قال: في ثيابي، قال خالد: فعَلامَ أنت؟ - فقال: على الأرض. قال خالد: كَمْ سِنُّكَ؟ - فقال: اثنتانِ وثلاثون. فقال خالد: أسأُلُكَ عن شيءٍ وتُجيبني بغيره، فقال: إنما أجبتُك عمّا سألتَ.

جماليّاتُ الأسلوب الحَكيم:

يشِفّ الأسلوبُ الحكيم، كما يفيد عنوانُه، عن ذكاءٍ عالٍ وقدرة فائقة على التصرّف السّريع وتغيير وِجهة الحديث. فالمخاطبُ الّذي يجِد نفسَه على نحْوٍ مفاجىء أمامَ أمرٍ يُضايقُه أو يُحْرِجه يجد لنفسه مُنصرَفًا يكون فيه في منأًى عن ذلك. وكذا، يُمكّن هذا الأسلوبُ المجيبَ من توصيل قصْدهِ على نحْوٍ لا يُسيء فيه إلى السائل. ولا يسبقُ في هذه الحَلْبةِ إلّا الأذكياءُ اللّمّاحون الّذين يعرفون مخارِجَ القول ومَوالِجَه.

٣١ ـ تشابُهُ الأطْرافِ:

ويأتي على ضربين:

١ ـ تشابه الأطراف معنًى ـ **وهو أن يُنهي المتكلّمُ كلامَه بمعنًى يناسِب المعنى الذي ابتدأ به**، كقول الشّاعر:

ألـذُّ مِنَ السِّحْرِ الحَلالِ حديثُهُ   وأَعـذَبُ مِنْ ماءِ الغَمامَةِ ريقُهُ

بدأ البيتَ باللّذة، وأنهاه بالرّيق، وبين البَدْء والخِتام تناسبٌ في المعنى؛ إذ كثيرًا ما تحدّث الشعراءُ عن التلذّذ بالرّيق، كما قال كعْبُ بن زهير:

تجْلُو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسَمَتْ   كـأنّـه مُـنْـهَـلٌ بِـالـرّاحِ مَـعْـلُـولُ

جعل ريقَها كأنّه قد مُزِج بالخمرة مرّةً إثر مرّة.

٢ ـ تشابه الأطراف لفظًا ـ وهو نوعان:

أ ـ بَدْءُ النّاثر الجملةَ اللاّحقة بكلمةٍ هي تكرارٌ لآخر كلمةٍ في الجملة السّابقة، وبَدْءُ الشّاعر عجُزَ البيت بكلمةٍ هي تكرارٌ لآخر كلمة في صَدرِه. ومن الأول قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾. ومثاله في الشعر قول أبي تمام:

هوًى كان خَلْسًا إنّ مِنْ أبردِ الهوى   هوًى جُلْتُ في أفيائِه وهْوَ خَامِلُ

ب ـ تكرارُ الشّاعر قافيةَ كلّ بيتٍ في مطلعِ البيت الذي يليه، كما في قول الشاعر:

رَمَتْني وسِتْرُ اللّهِ بيني وبينَها   عَـشِـيّـةَ آرامِ الـكِـنـاسِ رَمِـيـمُ

رَميمُ الّتي قالتْ لجيرانِ بيتِها: ضَـمِـنْـتُ لـكُـمْ ألّا يـزال يَـهِـيـمُ

ومن هذا القبيل قولُ ليلى الأخْيَليّة:

إذا نـزَلَ الـحَـجّـاجُ أرْضًـا مَـريـضـةً   تـتـبّـعَ أقـصـى دائِـهـا فـشَـفَـاهـا

شَفاها مِنَ الدّاءِ العُضالِ الّذي بها غُـلامٌ إذا هَـزَّ الـقَـنـاةَ سَـقـاهـا
سَقاها فروّاها بِشُرْبِ سِجالِها دماء رجالٍ حيثُ مالَ حشاها

جماليّات هذا الفنّ:

يتراءى لنا أنّ جمالية هذا الفنّ البديعيّ إنما ترجع إلى ما يُسمّيه النقدُ العربيّ «شِدّة الأسْرِ»؛ أي تماسك الأجزاء وقوة الحَبْك. فتكرار المعنى الّذي ابتُدىء بهِ وتكرارُ اللّفظ الذي انتهت به العبارةُ في مطْلَع اللاّحقة ينصُرُ مبدأَ شِدّة الأسْر ومتانة الخَلْق. وممّا يزيد جماليةَ هذا الفنّ أنّ المعنى أو اللّفظ لا يتكرّر بالدّلالة نفسها التي جاء عليها أوّلَ مرة، بل يأتي ومعَه دِلالةٌ توسّع مفهومه وتوضح جوانبَ منه، كأنّ المتلقّي أمام ما يمكن تسميتُه «الإفادة التّدريجية». تأمّل ذلك جليًا في الآية الكريمة من سورة النّور: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾. وتلحظُ ههنا المصباحَ الأوّل منكّرًا في حين أنّ الثّاني معرّفٌ ومحدّدٌ بأنّه في زجاجة، وكذا الحالُ مع الزّجاجة... وفرقٌ كبيرٌ بين الإتيان بالكلام وَفْقَ الصّيغة القرآنية وبين أن يُقال مثلاً: كمِشكاةٍ فيها مِصْباحٌ في زجاجةٍ كأنّها كوكبٌ درّيّ. ونحسب أنّ تكرارَ الكلمةِ في صورة المسند إليه «المصباحُ كذا... الزجاجةُ كذا...» يجعل المتلقّي أكثرَ تيقّظًا لإدراك الكلام؛ إذ ثمّةَ فارقٌ بين الخبَر والصّفة في طبيعةِ كلّ منهما؛ فالخبَرُ يُفيد تجديدَ الإفادة، والصّفةُ تَبْيينٌ لأمرٍ موجود، يقول عبدُ القاهر: «الخبرُ إثباتٌ في الوقْتِ للمعنى، والصّفةُ تبيينٌ وتوضيحٌ وتخصيصٌ بأمرٍ قد ثبت واستقرّ وعُرِف».

٣٢ ـ موافقة اللّفظ للمعنى:

وهي أن تكون صورةُ الكلام ملائمةً لمضمونه؛ فالمضامينُ التّي

تُشِعّها النّفسُ وهي في حالِ الانقباض والشدّة يُعَبَّر عنها بألفاظٍ توحي أصواتُها بجِواء الشّدّة والصّخب والقوّة، وترسُمُ ظِلالاً للغَلَبة والبَأس والتفجّر؛ وخلافُ ذلك المضامينُ الّتي تنبعث عن النفْس وهي في حالٍ من الانبساط والاسترخاء والهدوء، فمثلُ هذه المضامين يعبّر عنها بجَرْسٍ هادىء ورنين فاتر. ولا نجانبُ المنطقَ حين نقول إنّ البلغاء لا يقصِدون إلى هذا التوافق بين الصّورة المعنوية والصّورة اللّفظية قصْدًا، بل إنّ الشّحَناتِ الانفعالية الّتي تتلجلج في النّفس تختار وسائطَها التّعبيرية المناسبة لها. وإليكَ صورةً لفظية لنوعين من الانفعال. في موضوع الحَماسة الّذي تتلظّى فيه النفسُ وتقذِفُ الشّرار اللاّهب يقول عَمْرُو بنُ الإِطْنابَة:

أبَتْ لِي هِمّتي، وأبى بَلائي ... وأَخْذِي الحمدَ بالثّمن الربيحِ
وإقْدامي على المكروهِ نَفْسي ... وضَربي هامةَ البَطَلِ المُشِيحِ
وقولي كلّما جَشأتْ وجَاشت: ... مكانَك تُحْمَدِي أو تستريحي

وفي موضوع الفخر الّذي تتأزّم معه نفسُ الشّاعر ويَحْمىٰ وَطِيسُها يقول حسّانُ رضي الله عنه.

وأبقىٰ لَنا مَرُّ الحُروبِ ورُزْؤها ... سُيوفًا وأَدْراعًا وجَمْعًا عَرَمْرَما
إذا اغبَرَّ آفاقُ السّماءِ وأَمْحَلَتْ ... كأنّ عليها ثَوْبَ عَصْبٍ مُسَهَّما
حسِبْتَ قُدورَ الصّادِ حولَ بيُوتِنا ... قَنابِلَ دُهْمًا في المَحلَّةِ صُيَّما
لنَا حاضِرٌ فَعْمٌ وبادٍ كأنّهُ ... شَماريخُ رَضْوى عِزّةً وتكرُّما

لن يصعب عليك ـ فيما نحسبُ ـ تلمُّسُ هذا التواؤم والتوافق بين مضمون الكلام في المثالين وبين صورته اللّفظية، حتى لكأنّ ألفاظَ الشّاعرَيْن مقاتِلون أشدّاءُ أعَدّوا للحَرْب عدّتَها، ومضَوا يخضدون شوكةَ العدوّ ويستأصِلون شأفَتَه.

ومقابلُ الصّورة اللّفظية المُجَلْجِلة الصّاخبة المُرْعدة في المثالين

السّابقين، نتركَ لك أن تتأمّل مشهدًا آخر مختلفًا تمامًا. اقرأ هذه الأبياتَ المنسوبة إلى حَمْدُونةَ الأندلسية تصِف واديًا ظليلاً جرى الماءُ في قاعه فتلألأ حَصاه كالعِقْد:

وقانا لَفْحةَ الرَّمْضاءِ وادٍ سَقاهُ مضاعَفُ الغَيْثِ العَمِيمِ
حلَلْنا دَوْحَهُ فحَنا علَيْنا حُنُوّ المُرْضِعاتِ على الفَطِيمِ
يَرُوعُ حَصاهُ حَالِيَةَ العَذارى فتَلْمِسُ جانِبَ العِقْدِ النَّظِيمِ

وتأمّل قولَ بشّار يتغزّل:

يا لَيْلَتي تزدادُ نُكْرا مِنْ حُبِّ مَنْ أحبَبْتُ بِكْرا
حَوْراءُ إنْ نظَرَتْ إليْـ ـكَ سقَتْكَ بالعَيْنَيْنِ خَمْرا
وكأنَّ تحْتَ لِسانِها هَاروتَ ينفُثُ فيه سِحْرا

تغيرتِ الصّورة تمامًا عمّا كانت عليه، وجاءت اللّغة منسجمةً والمضامينَ الّتي حملتْها. ويُرجِعُ عبدُ القاهر عدَمَ التوافق بين المعاني والألفاظ إلى قَصْد الأديب زُخْرفَ القول والصَّنعةَ الكلامية دون إقامة أيّ وزْنٍ لتوصيل التّجربة وعناصرها المضمونية إلى المتلقّي. ويرى عبدُ القاهر أنّ أهمّ ما ينبغي أن يحرِص عليه الأديبُ هو أن يدَعَ المعانيَ تختارُ الصّورةَ اللّفظية الّتي تناسبها؛ ذلك أنّ «المعاني إذا أُرْسِلَتْ على سجيّتها، وتُرِكَتْ وما تُريد، طلبتْ لأنفسِها الألفاظَ، ولم تكتسِ إلّا ما يليقُ بها». والقاعدةُ البلاغية الّتي عليها أبْناءُ العرب وفصحاؤهم يوضِحها قولُ العربيّ البدويّ حين سُئِل: ما هذه البلاغةُ فيكم؟ فقال: «شيءٌ تَجِيش به صدورُنا فتقذِفُه على ألسنتنا».

٣٣ ـ حُسْن الابتداء:

وهو أن يتضمّن مطلَعُ الكلام من عناصر الحُسْن والرّوعةِ ما يشدّ انتباهَ المتلقّي ويخلُب لُبَّه ويمتلك قِيادَه. ذلك أنّ المطلَع أوّلُ ما يلقى

المتلقّي من الكلام، وإذ يكون منشغِلاً باهتمامٍ آخر أو في حالٍ من الخُمول والاسترخاء، فإنه محتاجٌ في الكلام المقدَّم له إلى ما ينتزعه من شاغِله السّابق وينشّط لديه حِسّ الجَمال والجَلال فيحيا من الكلام المعروض عليه إلي نهايته بِوَقْع الاندفاعهِ الأولى. ويقول البلاغيون إنّ أحسنَ الابتداءات ما اشتمل على إشارة لطيفةٍ إلى المقصود، ويَدْعون ذلك «براعةَ الاستهلال». ويجعلون منه قولَ المتنبّي في تهنئة سيف الدّولة بشفائه من مرضٍ ألمَّ به:

المَجْدُ عُوفِيَ إذْ عُوفِيتَ والكَرَمُ   وزلّ عنكَ إلى أعدائِك الألَمُ

تلحظُ ههنا أنّ أبا الطّيب قد أومأ إلى غرضه منذ البدء. ومِثْلُ هذا الصّنيع يُعِدّ ذهنَ المتلقّي لِما سيأتي من الكلام، ويزداد انفعالُ المتلقّي عندما تصدقُ توقُّعاته في الكلام الآتي، ويأتيه الأديبُ بإشاراتٍ تنتمي إلى الغرض نفسه.

ومثلُه قولُ أَشْجَعَ السُّلَمِيّ يهنّىء ببناءِ قَصْر:

قَصْرٌ عَلَيْكَ تحِيَّةٌ وسَلامُ   خلعَتْ عليكَ جَمالَها الأيّامُ

وقول أبي تمّام في مُبْتَدأ قصيدةِ رثاء:

كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأمْرُ   فليسَ لِعَيْنٍ لمْ يَفِضْ ماؤها عُذْرُ

وقول الشاعر في رثاء عزيز(*):

بان العَزاءُ وهَدَّ الخَطْبُ أفئِدةً   مُذْ قِيلَ إنّ حُسامَ الحَقِّ قَدْ غُمِدا

وقوله في مفتتح تهنئةٍ لصديق اسمُه «سيف المرّيّ»:

بِابْنِ مُرّيّ امتشِقْ سَيْفًا يصولُ   مِنْ نَداه جادَكَ الغَيْثُ الهَطُولُ

(*) عيسى العاكوب.

٣٤ ـ حُسْن الخِتام:

وهو أن يُنهي المتكلِّمُ كلامَه بما هو قادرٌ على أن يهزّ نفسَ المتلقّي، ويحرّك طبعَه، ويثير خيالَه. فإنّ ختامَ الكلام آخِرُ ما تسمعه الأذنُ ويَعِيه الإدراكُ، فإن كان حسَنًا هفَتْ إليه النّفوسُ، واستلذّه السّمع واستجاده الطبعُ، وأدام انطباع الاستحسانِ أمدًا طويلاً. وقاعدتُهم الذهبية في هذا الشأن: «خيرُ الكلامِ ما أنتَ فيه حتّى تدعَه»؛ أي يستبيك ويستبدّ بك ما دمتَ في غَمْرة تأمّله حتى تنصرف عنه إلى غيره. ويذهب البلاغيون إلى أنّ أروعَه ما شفّ عن انتهاء الكلام حتّى لا يبقى للنّفس تشوُّفٌ إلى ما وراءه، ويسمّون ذلك: «براعةَ المُقْطَع»، يريدون خاتمة الكلام. ومِمّن اهتمّ بمقاطع قصائدِه اهتمامًا بالغًا الشّاعرُ الكبير المرحوم عُمَر أبو ريشة. فلا تخلو قصيدةٌ من قصائده من أثرٍ من آثار حُسْن المَقْطَع. تأمّلْ ذلك في هذا القصيدة الّتي يشكون فيها مِمّا آل إليه العرب:

رَبِّ طوّقتَ مَغانينا جَلالًا وجَمالا
ونشرتَ الخيرَ فيهنَّ يَمِينًا وشِمالا
وتجلّيتَ عليهِنَّ صَليبًا وهِلالا
ربِّ هذي جنّةُ الدّنيا عَبيرًا وظِلالا
كيفَ نَمْشي في رُباها الخُضْرِ تِيهًا واختيالا
وجِراحُ الذُلِّ نُخْفِيها عن العزِّ احتيالا
رُدَّها قفراءَ إن شئْتَ ومَوِّجْها رِمالا
نحنُ نهواها على الجَذْبِ إذا أعطتْ رِجالا

فالبيت الأخير ـ كما ترى ـ جاء مكثّفًا مركّزًا كأنّه الصّرخة التي لا تُبقي ولا تذَر، كما أنّ امتلاءه بالدّلالة وقوة حَبْكِه تجعل حِفْظه أمرًا ميسورًا، وإن كان ذلك صفةً للقصيدة كلّها. وإليكَ شاعريةَ عُمَر مرةً أخرى:

سِيري كما شاءَ التجنّي   واشفِي غليلَكِ واطمئنّي
ما أنتِ يا دنيا وما   أبقيتِ للأحلامِ منّي
تَطْوينَ بالإغراءِ أيّـ   ـامي وأطويها تَمَنّي
أنا في نديِّكِ أسألُ السُّـ   ـمّارَ عن كأسي ودَنّي
غنّيتُ حبَّكِ وانتشيْـ   ـتُ وكمْ فتًى بعدي يُغنّي
واصَيْحةَ الحُلُمِ الأخيـ   ـرِ إذا تفتّح عنه جَفْني

ومِمّا قال الشّاعر في ختام رسالةٍ إلى صديق[1]:

إذا اشتدّ الحِسابُ على كَفورٍ   وبُرِّزَتِ الجَحيمُ لِكُلّ خَطْبِ
كسَاكم ذو الجلال ثِيابَ عزٍّ   وجنّبَكمُ صَعائبَ كلّ صَعْبِ

وقال أيضًا في ختامِ قصيدةٍ مُهداةٍ إلى الثائرين على الاحتلال الصّهيوني في غزّة:

سَيقولُ الزّمانُ قَوْلةَ حقٍّ   يَتَمَلّاها عاشِقًا مُسْتهامًا
فوقَ هذي الشّطآنِ مَرّ صِحابٌ   دوَّخوا الأرضَ أشعَلوها ضِراما
عوّدوا الصّخرَ أن يَسُوقَ المَنايا   عوّدوا البَذْرَ أن يذوبَ غَراما

---

(١) عيسى العاكوب.

أسئلة وإجاباتها حول المحسّنات المنعوية (١):

- حدّد نوعَ المحسّن البديعيّ المعنويّ فيما يأتي:

١ ـ صُلْبُ العَصا بالضّرْبِ قد أذماها ... تـــوَدُّ أنَّ الله قـــد أفــنـــاهـــا

٢ ـ لَئِنْ ساءني أن نِلْتِني بِمَساءةٍ ... لـقَـدْ سرّني أنّي خَـطَـرْتُ بِبالِـكِ

٣ ـ قال أحدُهم يصِف إبلاً هزيلةً:

كالقِسِيّ المُعَطَّفاتِ بل الأسْـ ... ـهـمِ مـبـرّيـةً بـلِ الأوتـارِ

٤ ـ ولِـلْـغـزالـةِ شـيءٌ مـن تـلـفُّـتـهِ ... ونـورُها مِنْ ضِيا خدّيهِ مكتَسَبُ

٥ ـ أفنى جيوشَ العِدا غزْوًا فلستَ ترى ... سـوى قـتـيـلٍ ومـأسـورٍ ومُـنـهَـزمِ

٦ ـ الدّهرُ يَصْمُتُ وهو أبلغُ ناطقٍ ... مـن مُـوجِـزٍ نَـدْسٍ ومِـنْ ثَـرْثـارِ

٧ ـ ولا عيبَ فيهمْ غيرَ أنّ ذوي النّدى ... خِـسَـاسٌ إذا قِـيـسـوا بِـهِـمْ وَلِـئـامُ

٨ ـ قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾.

٩ ـ على رَأسِ عَبْدٍ تاجُ عِزٍّ يَزِينُه ... وفـي رِجْـلِ حُـرٍّ قَـيْـدُ ذُلٍّ يَـشِـيـنُـهُ

١٠ ـ رأى جسدي والدّمعَ والقَلْبَ والحشا ... فـأضـنـى وأفـنـى واسـتـمـالَ وتـيَّـمـا

ـ الإجابات:

١ ـ في قوله «بالضّرْب» توريةٌ؛ إذ هو لفظٌ مشترَكٌ بين الضّرْبِ بالعَصا وهو المعنى القريب، الّذي لم يَرِدْه، والسَّيْرِ في الأرض، الّذي هو المعنى البعيد المقصود.

٢ ـ في هذا البيت طِباقٌ بين ساءني وسرّني.

٣ ـ في هذا البيت مراعاةُ النّظير؛ فإنّ البحتريّ وصف الإبلَ بالنّحول، فقادتْه مراعاةُ النّظير إلى تشبيهها بأشياءَ متناسبة: القِسِيّ، الأسهم المَبْرِيّة، الأوتار.

٤ ـ في البييت استخدام؛ إذ استخدم لفظ «الغَزالة» أولًا بمعنى الحيوان المعروف، ثم أعادَ عليه الضّميرَ بمعنى «الشّمس». إذ الغزالةُ اسمٌ للشّمس.

٥ ـ في البيت تقسيمٌ؛ إذ أتى على ذِكْر كلّ أقسام جيش العدوّ بتعداد الأقسام الثلاثة.

٦ ـ في البيت طِباقٌ بين «يَصْمُت» و «ناطق» وبين «مُوجِز» و «ثرثار».

٧ ـ في البيت تأكيدُ المَدْح بما يشبه الذمّ، إذ استثنى من صفةِ ذمّ منفيةٍ صفةَ مدْح لهم.

٨ ـ في قوله سبحانه «جَرَحْتم» توريةٌ؛ فلهذه الكلمة معنيان قريبٌ غيرُ مراد بمعنى شقّ بعضَ بدنه، وبعيدٌ مرادٌ بمعنى «اكتسبتم الذنوبَ»، من جرَح الرّجلُ فهو جارِح، أي اكتسبَ.

٩ ـ في البيث مقابلةٌ بين ستّة أشياء وستة أشياء أُخَر: على وفي ـ رَأْس ورِجْل ـ عَبْد وحُرّ ـ تاج وقيد ـ عِزّ وذلّ ـ يَزِين ويَشِين.

١٠ ـ في البيت لفّ ونشْرٌ؛ إذ ذكر أربعة أشياء ثم أتى بما يتصل بها على التّرتيب.

أسئلة وإجاباتها حول المحسّنات المعنوية (٢):

ـ حدّد نوعَ المحسِّن البديعيّ المعنويّ فيما يأتي:

١ ـ فلا الجُودُ يُفني المالَ والجَدُّ مُقْبِلٌ ولا البُخْلُ يُبْقي المال والجَدُّ مُدْبِرُ

٢ ـ آراؤه وعَطَاياهُ ونِعْمَتُه وعَفْوُهُ رحمةٌ للنّاسِ كُلِّهِم

٣ ـ رَحِمَ الله مَنْ تصدّق مِن فضلٍ، أو آس من كَفافٍ، أو آثرَ من قوتٍ.

٤ ـ يا قومُ كَمْ مِنْ عاتقٍ عانِسٍ ممدوحةِ الأوصافِ في الأَنْدِيهْ

٥ ـ رأى العَقيقَ فأجْرى ذاكَ ناظِرُه   متيّمٌ لجّ في الأشواقِ خاطِرُه
٦ ـ يا سَيّدًا حازَ لُطفًا   لَهُ البَرايا عَبِيدُ
أنتَ الحُسَيْنُ ولكنْ   جَفاكَ فِينا يَزِيدُ
٧ ـ فواعَجبًا كيفَ اتّفقْنا فنَاصِحٌ   وَفِيٌّ ومَطْوِيٌّ على الغِلّ غادِرُ
٨ ـ ما زُلْزِلَتْ مِصْرُ مِنْ كَيْدٍ أَلَمّ بها   لكنّها رَقَصَتْ مِنْ عَدْلِكم طَرَبا
٩ ـ أُراعي النّجْمَ في سَيْري إليكُمْ   ويَرْعاه مِنَ البَيْدا جَوادي
١٠ ـ مَنْ مبلغٌ أفناءَ يعْرُبَ كلَّها   أنّي بَنَيْتُ الجارَ قبلَ المَنْزِلِ

الإجابات:

١ ـ في البيت مقابلةٌ بين الجود والبخل، ويُفني ويُبقي، ومقبل ومُدْبِر.

٢ ـ في البيت جَمْعٌ؛ إذ جمع بين عدّة أشياء في حُكْم واحِد.

٣ ـ في العبارة تقسيم؛ إذ استوفى طبقاتِ النّاس فيما يتّصل بهذا الأمر.

٤ ـ في هذا البيت توريةٌ؛ فإنّ من يسمع ذِكْرَ العاتق والعانس يحسب إنّ المراد هو المعنى والقريب وهو «البِكْر»، لكن الشّاعر ما أراد هذا بل أراد المعنى البعيد وهو الخمر.

٥ ـ في البيت استخدام؛ إذا استخدم «العقيق» أولًا بمعنى الوادي المعروف في بلاد الحجاز، ثم أعاد عليه اسمَ الإشارة بمعنًى آخر له وهو الحجر المعروف، والعرب تشبه الدّموعَ به.

٦ ـ في قوله «يزيد» توريةٌ؛ فإنّ من يسمع هذا اللّفظ أوّلًا يحسب أنّ المراد هو المعنى القريب أي يزيد بن معاوية، وقد رشّح لذلك إيرادُ اسم الحُسَين، لكنّ هذا غيرُ مرادٍ، بل المرادُ المعنى البعيد وهو «يزداد».

٧ ـ في البيت مقابلةٌ بين «ناصحٍ وفيّ» و «مَطويّ على الغِلّ غادرٍ».

٨ ـ في البيت حسْنُ التّعليل؛ إذ جعل عِلّة زِلزال مضرَ الطّربُ لِعَذْل الممدوح.

٩ ـ في البيت استخدام؛ إذا استخدم «النّجمَ» أولًا بمعنى الكوكب، وأعاد عليه الضّمير في «يرعاه» بمعنى «النّبات الذي لا سَاقَ له».

١٠ ـ في قوله «بنيتُ» مشاكلة؛ فقد عبّر عن اختيار الجار بالبناء مُشاكلةً لبِناء الدار.

أسئلة وإجاباتها حول المحسّنات المعنوية (٣):

ـ حدّد نوعَ المحسّن البديعيّ المعنويّ فيما يأتي:

١ ـ كأنّ الثُّرَيّا عُلِّقتْ في جَبِينهِ ... وفي خدّه الشِّعْرىٰ وفي وجْهِه البَدْرُ

٢ ـ أبكيكُما دَمْعًا ولَوْ أنّي على ... قَدْرِ الجَوى أبكي بكيتُكما دَما

٣ ـ إنْ تلقَني لا ترى غيري بناظِرةٍ ... تنسَ السّلاحَ وتَعْرِفْ جبهةَ الأسدِ

٤ ـ حَماةُ في بَهجتِها جَنّهْ ... وهيَ مِنَ الغمِّ لنا جُنّهْ

لا تيأسُوا من رحمةِ الله فقد ... رأيتُمُ العاصِيَ في الجَنّهْ

٥ ـ قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾.

٦ ـ أودعَ رجلٌ بعضَ القضاة أموالًا فادّعى القاضي ضياعَها، فقال ابنُ دُويدة يخاطبه:

إن قالَ قد ضَاعتْ فيصدقُ إنّها ... ضَاعتْ ولكنْ مِنْه يَغني لَوْ تَعِي

أو قال قدْ وقعتْ فيصدقُ إنّها ... وقعتْ، ولكن منه أحسنَ موقِعِ

٧ ـ إذا احتربتْ يومًا ففاضَتْ دماؤها ... تذكّرتِ القُربى ففاضتْ دموعُها

٨ ـ إذا ما تَمِيميٌّ أتاكَ مُفاخِرًا ... فقلْ عَدِّ عن ذا كيفَ أكلُكَ للضّبِّ

٩ ـ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

١٠ ـ نهبْتَ منَ الأعمارِ ما لَوْ حويتَهُ لـهُـنِّـئـتِ الـدّنـيـا بـأنّـكَ خـالـدُ

الإجابات:

١ ـ في البيت مراعاةُ النّظير، إذ إنّه جمع أشياء متناسبة لا على جهة التّضادّ، وهي: الثُّريّا، والشِّعْرى، والبدر.

٢ ـ في البيت إرصاد؛ إذ جعل قبلَ القافية ما يدلّ عليها حين يُعرف الرويّ.

٣ ـ في البيت تجريدٌ على طريق الكناية؛ فقد كنى عن نفسه بالأسد.

٤ ـ قوله «العاصي» توريةٌ مرشّحة؛ إذ إنّ المعنى القريبَ غيرَ المراد هو «العاصي» من العِصْيان، وقد رشّح ذلك ذِكْرُ الرّحمةِ في البيت الأول، أمّا المعنى البعيدُ المُراد فهو «نهر العاصي» وهو نهر معروف يمرّ بمدينة حَماة السّوريّة.

٥ ـ في الآية الكريمة المذهبُ الكلامي؛ إذ تمامُ الكلام: الإعادةُ أهونُ من البَدْء، والأهونُ أدخلُ في الإمكان، فالإعادةُ أدخلُ في الإمكان من البدء.

٦ ـ في البيت الأسلوبُ الحكيم؛ إذ حمل لفظتَي «ضاعَتْ» و «وقَعَتْ» الواقعتين في قول القاضي على معنًى آخر يحتمله اللّفظ.

٧ ـ في البيت المزاوجةُ؛ إذ زاوجَ بين احتربت وتذكّرت الواقعتين في الشّرط والجزاء، ورتّب على كلّ منهما أمرًا هو فيضانُ الدّماء وفيضان الدموع.

٨ ـ في البيت هَزْلٌ يُراد به الجِدّ؛ فمعنى العَجُز: تباعدْ عن هذا التّفاخر وخبِّرني كيف تأكل الضّبّ، ولا مجال للمفاخرة لِمَن يأكلهُ؛ لأنّ عِلْيَةَ القوم تعافه.

٩ ـ في الآية الكريمة تجاهلُ العارف؛ لِقَصْدِ التّعريض بهم وبيانِ أنّهم على ضَلال، وذلك من وِجهةٍ تحُدُّ من نِفارهم وتدعُهم أقربَ إلى تأمّل حالهم.

١٠ ـ في البيت استتباع فقد مدحه بالشّجاعة بأن كثّر مَنْ قتلَهم كثرةً بالغة إلى حدّ أنّه لو ورِث أعمارَهم لخُلّد في الدّنيا، وقد أتى بذلك على نحوٍ استتبع مدْحَه بكونه سببًا لصلاح الدّنيا ونظامها بأن نّبه على أنّ الدّنيا تُهنّأ بخلوده، ولا يكون ذلك إلّا حين يكون مُصْلِحًا.

أسئلة عن المحسّنات المعنوية تُطلب إجاباتها على غرار ما تقدّم:

ـ حدّد نوعَ المحسّن البديعيّ المعنويّ فيما يأتي:

١ ـ كيف أسْلو وأنتِ حِقْفٌ وغصْنُ وغَـزالٌ، لـحـظًـا وقَـدًّا ورِدْفًـا

٢ ـ أيُّـهـا الـسّـائـلُ قـومًـا مـا لَـهُـم فـي الـخـيـرِ مـذهـبْ

اتْـرِكِ الـنّـاسَ جـمـيـعًـا (وإلـى ربِّـك فـارغـبْ)

٣ ـ وردُ الـخُـدودِ أرقُّ مـن وردِ الـرّيـاضِ وأنـعَـمُ

هـذاكَ تـنـشـقُـه الأنـو فُ، وذا يـقـبّـلُـهُ الـفَـمُ

٤ ـ قومٌ إذا حاربوا ضرُّوا عدوَّهُمُ أو حاولُوا النفعَ في أشياعِهِمْ نَفَعوا

٥ ـ تـكـادُ قِسِيُّـهُ مِـنْ غـيـرِ رَامٍ تُـمَـكّـنُ فـي قـلـوبِـهِـمُ الـنّـبـالا

٦ ـ لَـئـيـمُ الـطّـبـاعِ سـوى أنّـهُ جَـبـانٌ يَـهُـونُ عـلـيـهِ الـهَـوانُ

٧ ـ سَمْحُ البديهةِ ليس يُمْسِكُ لفظَهُ فـكـأنّـمـا ألـفـاظُـهُ مِـنْ مـالِـهِ

٨ ـ سُئل أحدُ العمّال: ماذا ادّخرتَ في المال؟ فقال: لا شيءَ يعادل الصّحّة.

٩ ـ إذا ما غَضِبْنا غَضْبَةً مُضَرِيّةً هتَكْنا حِجابَ الشّمسِ أوْ قَطَرَتْ دَمَا

١٠ ـ سقى اللّهُ منهُ دارَ سَلْمى بِرَيّةٍ على أنّ سَلْمى ليس يشفى سَقيمُها

ولو حمّلَتْني السِّرَّ سَلْمى حمَلْتُه وهَلْ يَحْمِلُ الأسْرارَ إلّا كَتومُها

مِنَ العربيّاتِ البَوادي، ولم تكنْ تُلَوِّحُها حُمّى دِمَشْقَ ومُومُها

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المبحث الثاني:

المحسّنات اللّفظيّة

ويتضمّن:

١ ـ الجِناس.

٢ ـ ردّ العَجُز على الصّدر.

٣ ـ السَّجْع.

٤ ـ الموازنة.

٥ ـ القلْب.

٦ ـ التشريع.

٧ ـ لزوم ما لا يلزم.

٨ ـ المُواربة.

٩ ـ تآلف الألفاظ..

١٠ ـ التسميط.

١١ ـ الاكتفاء.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحسّناتُ اللّفظيّة:

هي جماليّاتٌ لفظيّة يحقّقها تركيبٌ خاصّ للألفاظ وعلاقاتٌ مرسومة على نحو دقيق بين أصوات الكلمات وأَجْراس الحروف. ويستطيع المبدعون في النثر والشعر أن يستغلّوها خيرَ استغلال في إحداث الاستجابة الفنّية المنشودة من المتلقّي. ولا يعدم البيانُ العالي لمَسَاتٍ من خِلابة المحسّنات اللّفظية وسِحْر الأداء المتميز. وقد وضع العلّامةُ عبد القاهر الجرجانّي معيارًا دقيقًا لا يحسُنُ المحسِّنُ اللّفظي إلّا معه. فهو يقول: «لا يحسُنُ هذا النوعُ إلّا إذا كانت الألفاظُ تابعةً للمعاني؛ فإنّ المعاني إذا أُرسِلت على سجيّتها، وتُركتْ وما تريد، طلبتْ لأنفسها الألفاظَ ولمْ تكتسِ إلّا ما يليقُ بها، فإذا كان خلافَ ذلك كان كما قال أبو الطيّب:

إذا لَمْ تُشاهِدْ غيْرَ حُسْنِ شِياتِها وأعضائِها، فالحُسْنُ عنكَ مُغَيَّبُ

وقد يقعُ في كلام بعض المتأخّرين ما حمَل صاحبَه فَرْطُ شغَفهِ بأمورٍ ترجع إلى ما له اسمُ البديع، على أنْ نسِي أنّه يتكلّم ليُفْهِم، ويقول لِيُبين، ويخيَّل إليه أنه إذا جمع عِدّةً من أقسام البديع في بيتٍ فلا ضَيْرَ أن يقع ما عناه في عمياءَ وأن يجعل السامعَ يتخبّط خبطَ عشواء».

وسيأتيكَ حديثُ هذه المحسّنات اللّفظية على نحْوِ تَقَرُّ به عينُك، إن شاء الله.

١ ـ الجِناسُ:

ويُقال له التّجْنيس، والتجانُس، والمُجانسة. والجناسُ ـ لُغةً ـ مصدرُ جَانسَ الشيءُ الشيءَ: شَاكلَه وطابقَه في الجِنْس. ويعني في الاصطلاح البلاغيّ:

أن يتّفق اللّفظانِ في وَجْهٍ منَ الوجوه الّتي ستُذْكَرُ بعدُ، مع اختلاف المعنى.

وهو نوعان: تامّ، وغير تامّ.

الجناس التامّ:

يكونُ الجِناس تامًا عندما يتّفق اللّفظانِ في أربعة أشياء: نوعِ الحروف ـ عددها ـ هيئتها ـ ترتيبها. كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾. فقد اتفقت لفظتا «ساعة» في الأشياء المذكورةِ مع تباين مَعْنَيَيْهما؛ إذ السّاعةُ الأولى «القِيامةُ» والثانية «السّاعةُ من الوقت».

وهٰذا الجناسُ التّامّ على ثلاثة أنواع:

مُماثِل ـ مُسْتَوفىً مركّب.

أ ـ المماثل، وهو ما اتّفق فيه اللّفظان في نوع الكلمة: أن يكونا اسمَيْن، أو فعلَيْن أو حرفين. فالاسمانِ كقول أبي تمّام:

فَأَصْبَحَتْ غُرَرُ الأيّامِ مُشْرِقَةً   بالنّصرِ تَضْحَكُ مِنْ أيّامِكَ الغُرَرِ

الغُرَر الأولى بمعنى البَياض والإشراق، والثانية بمعنى الشّرَف والكرم. وهما اسمان.

وكقول الآخر:

حَدَقُ الآجَالِ آجَالُ   والهوى لِلْمَرْءِ قَتّالُ

آجالُ الأولى جمع «إِجْل» وهو القَطِيع من بقر الوَحْش. والثّانية حمعُ «أَجَل» وهو أمَدُ العُمْر. وهما اسمان.

والفِعْلانِ كقولكَ: «فلانٌ يَضْرِبُ في البيداءِ فلا يَضِلُّ، ويضربُ في الهَيْجاءِ فلا يَكِلُّ». يضرب الأولى بمعنى يقطع المسافةَ، والثانية بمعنى يحْمِل على الأعداء. وهما فعلان.

والحَرْفانِ كقولكَ: «تَذَرّعْ بالصّبْرِ تظفرْ به». الباءُ الأولى للتّعدية والثانية للتسمية. وهما حرفان.

ب ـ المُستوفىٰ. وهو ما اختلف فيه اللّفظانِ في نوع الكلمة: أن يكون أحدُهما اسْمًا والآخرُ فعلاً، أو أحدُهما اسمًا والآخرُ حرفًا، أو أحدُهما فعلاً والآخرُ حرفًا.

ـ فالاسمُ والفعلُ كقول أبي تمّام:

ما ماتَ مِنْ كرَمِ الزّمانِ فإنّه يَحْيا لدى يَحْيى بنِ عَبدِ اللّهِ

«يحيا» فعل مضارعٌ من الحَياة، و «يحيى» اسمُ الممدوح.

وقول الآخر:

إذا رماكَ الدّهرُ في مَعْشَرٍ قدْ أجْمَعَ النّاسُ على بُغْضِهِمْ

فدَارِهِمْ ما دمتَ في دَارِهِمْ وأَرْضِهِمْ ما دمتَ في أرضِهِمْ

«دَارِهِمْ» الأولى فعلُ أمر من المُداراة، والثّانية اسمٌ لما يُسْكَن من المكان. وكذا الحلُ في «أَرْضِهِمْ»؛ فالأولى فعلُ أمرٍ من الإرضاء، والثّانية اسم للبسيطة في ذلك المكان.

ـ والاسمُ والحرْفُ كقولهم: «رُبَّ رَجُلٍ شرِبَ رُبَّ رَجُلٍ آخر». «رُبّ» الأولى حَرفَ، والثانية اسمٌ لعصير العنب.

ـ والفِعْلُ والحرْفُ كقولكَ: «علا محمّدٌ عليه الصّلاةُ والسّلام

على جميع الأنام». «عَلا» فعلٌ ماضٍ بمعنى ارتفع، و «على» حرف جَرّ.

ج ـ المركّب، وهو ما كان فيه كلا اللّفظين أو أحدُهما مركّبًا.

ـ فالأوّلُ كقول الشاعر:

فَلَمْ تُضِعِ الأعادي قَدْرَ شاني ولا قالوا: فُلانٌ قَدْ رَشاني

اللّفظُ الأولُ مركّب من القَدْر والشأن. والثّاني مركَّبٌ من قَدْ «الحَرْفيّة» والفعل المشتقّ من الرّشوة. ويسمّون هذا النوعَ «الجناس الملفّق».

والثاني ـ وهو ما كان فيه أحدُ اللّفظين مركّبًا ـ ثلاثةُ أنواع: مَرْفُوّ ـ متشابه ـ مفروق.

أ ـ المَرْفُوّ، وهو ما كان لفظُه المركَّبُ مركَّبًا من كلمةٍ وجزءِ كلمة، كقولهم: «أهذا مُصَابٌ أمْ طَعْمُ صَابٍ». اللّفظُ الأول مفردٌ، والثّاني مركَّبٌ من كلمة مستقلّة هي «صَاب» أي العَلْقَم، ومن جزءِ كلمةٍ وهو «الميم» من طَعْم.

ب ـ المتشابه، وهو ما كان مركَّبُهُ مركّبًا من كلمتين، مع اتّفاق اللّفظين في الرّسْم، كقول أبي الفَتْح البُسْتِيّ:

إذا مَلِكٌ لَمْ يَكُنْ ذا هِبَهْ فَدَعْهُ فَدَوْلَتُهُ ذاهِبَهْ

الأوّل مركَّب من كلمتين (ذا + هِبَة) أي صاحب عطيّة. وقد اتّفق اللّفظانِ في الرَّسْم. ومثلُه قولُهم: «يا مغرورُ، أَمْسِكْ، وَقِسْ يومَكَ بِأَمْسِكَ»، الأول بمعنى كُفَّ عن الشيء. والثاني مركَّبٌ من كلمتين (أمْسِ + كاف الخطاب). وقد اتّفقا في الرّسْم.

ج ـ المفروق، وهو ما كان مركّبُه مركّبًا من كلمتين، مع اختلاف اللّفظين في الرّسم، كقول البُسْتِيّ:

كـلُّـكُـمْ قـد أخـذَ الـجـا مَ، ولا جـــامَ لـنــا
مــا الــذي ضــرّ مــديــرَ الــجــامِ لَــوْ جــامَـلَـنــا

الجام: كأس الشراب. والمدير: ساقي الخمرة. وجاملنا: عاملنا بالجميل. فاللفظ الأول مركب من جام + لنا، والثاني مفرد. وسمّي هذا مفروقًا، لافتراق اللفظين في صورة الكتابة.

الجناس غير التّام:

يكون الجناس غير تامّ عندما يختلف اللفظان المتجانسان في واحد من الأشياء الأربعة السّابقة: نوع الحروف ـ عددها ـ هيئتها ـ ترتيبها.

تقسيمات الجناس غير التام:

للجناس غير التامّ عدة تقسيمات تبعًا للعنصر الذي حصل فيه الاختلاف بين اللفظين، هي الآتية:

أولًا : أقسام الجناس غير التام تبعًا للاختلاف في نوع الحروف:

وينقسم من هذه الوجهة على نوعين: مضارع ولاحق.

أ ـ المضارع، وهو ما كان حرفاه المختلفان متقاربين في المخرج، ويكونان في أول اللفظ، أو في وسطه، أو في آخره.

ـ فالأول كقول الحريري: «بيني وبين كِنّي ليلٌ دامِس وطريق طامِس». فالدّال في «دامِس» والطّاء في «طامس» مختلفان في النّوع، لكنّهما متقاربان في المخرج، لصدورهما عن اللسان.

ـ والثاني كقوله سبحانه: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾. الهاء والهمزة مختلفان في النوع متقاربان في المخرج، حرفان حلْقِيّان.

ـ والثالث، كقول المصطفى عليه الصّلاة والسّلام: «الخيلُ معقودٌ

في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة». اللام والراء مختلفان نوعًا متقاربان مخرجًا؛ لسانيّان.

ب ـ اللاحق، وهو ما كان حرفان المختلفان متباعدين في المخرج، ويكونان في أول اللفظ، أو في وسطه، أو في آخره.

فالأول كقوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾. الهاء واللام متباعدان في المخرج، الأول حلْقيّ، والثاني لسانيّ.

والثاني كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾. بين هاء شهيد والدّال والأولى في شديد تباعد في المخرج، إذ الأولى حلقية والثانية لسانيّة.

والثالث كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ الراء والنون متباعدانِ نسبيًا.

لا يجوز أن يتجاوز اختلاف اللفظين حرفًا واحدًا.

ثانيًا: أقسام الجناس غير التام تبعًا للاختلاف في عدد الحروف:

عندما يختلف اللفظان في عدد الحروف بأن يزيد أحدهما على الآخر في حرف يسمّى الجناس «ناقصًا»؛ لنقصان أحد اللفظين عن الآخر. وينقسم من هذه الوجهة على ثلاثة أنواع: مطرَّف ـ مكتَنَف ـ مذيَّل.

أ ـ المطرَّف، وهو ما كانت الزيادة فيه في أوّل اللفظ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾. زيدت الميم في أول اللفظ الثاني.

ب ـ المكتنَف، وهو ما كانت الزيادة فيه في وسط اللفظ كقولهم: «جَدّي جَهْدي» الجَد: الحظّ، والجهد التعب والكدح. زيدت الهاء وسَطًا في الثاني.

ج ـ المذيَّل، وهو ما كانت الزّيادةُ فيه في آخر اللّفظ، كقول أبي تمّام:

يَمُدُّونَ مِنْ أيْدٍ عَوَاصٍ عَواصِمٍ تَصُولُ بأسْيافٍ قَواضٍ قَواضِبِ

عَواصٍ: جمعُ عَاصية من العِصْيان. عَواصِم: جمعُ عاصمة من العِصْمة. أراد: عاصِياتٍ على الأعداء عاصماتٍ للأولياء. قَواضٍ: جمعُ قاضية أي مُهْلِكة. قَواضب: جمعُ قاضِبةٍ أي قاطعةٍ مُهْلِكة. وقد زيدت ميمٌ في «عَواصِم» وباءٌ في «قواضِب». وكِلْتا الزّيادتين جاءت في الآخر. ومثلُه قولُ الخَنْساء ترثي أخاها صَخْرًا:

إنّ البُكاءَ هُوَ الشّفاءُ مِنَ الجَوى بينَ الجَوَانِحْ

بين «الجوى» و «الجوانح» جِناسٌ مذيَّل؛ لزيادة الثاني عن الأوّل بحرفين في آخره.

ثالثًا: أقسامُ الجِناس غير التّامّ تبعًا للاختلاف في هيئة الحروف:

وينقسم من هذه الوِجْهة على نوعين: مُحَرّف ـ مُصَحَّف.

أ ـ المُحَرَّف، وهو ما اختلف فيه اللّفظانِ في الحركات والسَّكَنات، كقول الشاعر:

الجَدُّ في الجِدِّ والحِرْمَانُ في الكَسَلِ فانصَبْ تُصِبْ عَنْ قريبٍ غايةَ الأمَلِ

فبين «الجَدّ» بمعنى الحظّ و «الجِدّ» بمعنى الاجتهاد جناسٌ محرَّف؛ لاختلافهما في الهيئة؛ الأوّل بِفَتْح الجيم، والثاني بكسرها. وسُمّي كذلك لانحراف إحدى الهيئتين عن الأخرى.

ب ـ المصحّف، وهو ما اختلف فيه اللّفظانِ نَقْطًا إلى حدّ أنّه لو أُزيل إعْجامُ أحَدِهما (نَقْطِه) أو كليهما لم يميَّز أحدُهما من الآخر، كقول أبي نواس:

مِنْ بَحْرِ شِعْرِكَ أَغْتَرِفْ وبِفَيْضِ عِلْمِكَ أَعْتَرِفْ

فإنّ بين «أغترف» و «أعترف» جناسٌ مصحّف؛ إذ لا خلافَ بين

الاثنين إلّا بالنّقْطِ، بحيث لو أزيل عنهما لم يتميّز أحدُهما عن الآخر. وقد سُمّي بذلك لتشابه اللّفظين في الخطّ؛ لأنّ التّصحيفَ هو التّشابه خَطّاً.

رابعًا: أقسامُ الجِناس غير التامّ تبعًا للاختلاف في ترتيب الحروف:

حين يختلف ترتيبُ حروف اللّفظين المتجانسين يُسمّى ذلك «جناسَ القَلْب». وينقسم من هذه الوجهة على أربعة أنواع: قَلْب كلٍّ، قَلْب جُزء - مجنَّح - مستوٍ.

أ - القَلْبُ الكُلّيّ، وهو ما انعكس فيه الترتيبُ تمامًا، كقول الشاعر:

حُسَامُكَ فِيهِ لِلأحْبابِ فَتْحُ ورُمحُكَ فيهِ لِلأعداءِ حَتْفُ

بين «فَتْح» و «حَتْف» جناسُ قَلْبٍ كلّي؛ لانعكاس الحروف كلّها، إذ إنّ «حَتْف» مقلوبُ «فتح».

ب - القَلْب الجزئيّ، وهو ما انعكس فيه التّرتيب جزئيّا، كقول المصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام؛ «اللّهمَّ استُرْ عَوْراتِنا، وآمِنْ رَوْعاتِنا». فبين «عَوْراتِنا» و «رَوْعاتِنا» قَلْبٌ جزئي؛ لأنّ انعكاس التّرتيب فيه جزئيّ. وكقول بعضهم: «رَحِمَ الله امرأً أمسَكَ ما بينَ فَكّيهِ وأطلقَ ما بين كفَّيْهِ».

ج - المجنّح، وهو ما كان فيه أحدُ اللّفظين المتجانسين في أول البيت والآخر في آخره، كأنّ البيتَ ذو جناحين، وذلك كقول الشاعر:

قَدْ لاحَ أَنْوارُ الهُدى مِنْ كَفِّهِ في كلّ حال

جاء «لاح» في أوّل الصّدْر و «حال» في آخر العَجُز.

د ـ المُسْتوي، وهو ما كان اللّفظَ فيه بحيث لو عُكِس وبُدىء بحرفِه الأخير إلى الأول لم يتغيّر، كقوله سبحانه: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾، إذ يمكن أن تعكسَ التّركيبَ وتبدأ من الكاف في «فَلَك» ويكون الكلام هو هو. ومثلُه ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. ويسمّى أيضًا «ما لا يستحيل بالانعكاس».

جماليّات الجناس:

يبدو للمتأمّل أنَّ جماليّة الجناس راجعةٌ قبل كلّ شيء إلى أنّه يُعيد على ذهن المتلقّي الصورةَ اللّفظيّة نفسَها مع اختلاف الدّلالة، وهكذا تُحصَّل الفائدة من حيث لا تُتوقَّع، ويعيش المتلقّي لحظةَ اندهاش واستغراب. وما أجملَ ما قال عبدُ القاهر عن جماليّات هذا الفنّ البديعيّ وشروط تحقّق هذه الجمالية: «لا يَحسُنُ تجانسُ اللّفظين إلّا إذا كان موقعُ معنييها من العَقْل موقعًا حيمدًا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمًى بعيدًا، أتراكَ استضعفْتَ تجنيسَ أبي تمّام في قوله:

ذهبَتْ بِمَذْهَبِه السَّماحةُ فالْتَوَتْ   فيهِ الظُّنونُ: أَمَذْهَبٌ أم مُذْهَبُ

واستحسنتَ تجنيسَ القائل: حتّى نَجا مِنْ خَوْفِهِ وما نَجا، وقولَ المُحْدَث:

ناظِراهُ فِيما جَنى ناظِراهُ   أَوْدَعانِي أَمُتْ بِما أَوْدَعاني

لأمرٍ يرجع إلى اللّفظ، أم لأنّك رأيتَ الفائدةَ ضعفتْ في الأول وقويتْ في الثّاني، ورأيتَك لم يزدْكَ بِمَذْهَب ومُذْهَب على أن أسمعَك حروفًا مكرَّرةً تروم لها فائدةً فلا تجدُها إلّا مجهولةً منكرة، ورأيتَ الآخرَ قدْ أعادَ عليكَ اللّفظَ كأنّه يخدعُكَ عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهِمكَ كأنّه لم يزدْكَ وقد أحسنَ الزّيادةَ ووفّاها، فبهذه السّريرة صار التّجنيس، وخُصوصًا المُستوفى منه المتّفق في الصّورة، من حِلَى الشّعر ومذكورًا في أقسام البديع.

وإليك مخططًا بأنواع الجناس:

أولًا ـ الجناس التامّ ←

- مماثل (ما اتّفق فيه اللّفظانِ في نوع الكلمة) ـ ويكون اللّفظانِ: ←
  - اسمَيْنِ
  - فِعْلَيْنِ
  - حرفين
- مستوفى (ما اختلف فيه اللّفظانِ في نوع الكلمة) ـ ويكون اللّفظانِ: ←
  - ١ ـ اسمًا وفعلًا.
  - ٢ ـ اسمًا وحرفًا.
  - ٣ ـ فعلًا وحرفًا.
- مركّب (كِلاَ اللفظين أو أحدُهما مركّب):
  - ١ ـ ما كِلا لفظَيْه مركَّبٌ
  - ٢ ـ ما أحدُ لفظَيْه مركَّبٌ ←
    - مَرْفُوّ (مركَّبُهُ مركّبٌ من كلمتين وجزء كلمة).
    - متشابه (مركَّبُهُ مركّب من كلمتين، واللّفظان متفقان رَسْمًا).
    - مفروق (مركَّبُهُ مركّب من كلمتين، واللّفظانِ مختلفان رَسْمًا).

ثانيًا ـ الجناس غير التام: ←

- ١ ـ على أساس اختلاف نوع الحروف ←
  - مضارع (حرفاه المختلفان متقاربان في المخرج) ويكونان في:
    - ١ ـ أوّل اللّفظ.
    - ٢ ـ وسْط اللّفظ.
    - ٣ ـ آخر اللّفظ.
  - لاحق (حرفاه المختلفان متباعدان في المخرج) ـ ويكونان في:
    - ١ ـ أوّل اللّفظ.
    - ٢ ـ وسْط اللفظ.
    - ٣ ـ آخر اللفظ.

(تابع) الجناس غير التام:

٢ ـ على أساس اختلاف عدد الحروف «الجناس الناقص»:

- مطرَّف (زيادتُه في أوّل اللّفظ)
- مكتنَف (زيادته في وسط اللفظ).
- مذَيَّل (زيادته في آخر اللفظ).

٣ ـ على أساس اختلاف هيئة الحروف:

- محرَّف (ما اختلف لفظاه في الحركات والسَّكَنات).
- مُصحَّف (ما اختلف لفظاه في النَّقْط).

٤ ـ على أساس اختلاف ترتيب الحروف «جناس القَلْب»:

- قَلْب كلّي
- قلب جزئي
- مجنَّح
- مُسْتوٍ

٢ ـ ردّ العَجُز على الصَّدْر:

ويأتي في النّثر وفي النّظم:

أ ـ أمّا في النّثر فهو أن يُجعَل أحدُ اللّفظين المكرّرين، أو المتجانسين لفظًا لا معنى، أو الملحقين بالمتجانسين ـ وهما اللّذان يجمعهما الاشتقاقُ أو شِبْهُ الاشتقاق ـ في أول الفقرة والآخر في آخرها. وإليكَ الأمثلة:

ـ فالمكرَّرانِ كقوله سبحانه: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـٰهُ﴾.
جعل أحدَ اللّفظين المكرَّرين في أول الفقرة والثاني في آخرها.

ـ والمتجانسانِ مِثْلُ: «سَائِلُ اللّئيمِ يرجِعُ ودمعُهُ سائلٌ». **الأوّلُ** من السّؤال، والثّاني من السَّيلان.

ـ والمُلحقان بالمتجانسين اشتقاقًا كقوله سبحانه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾. فاللّفظان المذكوران يلتقيان في مصدرٍ واحد هو «الغُفران».

والملحقانِ بالمتجانسين بشبه اشتقاقٍ كقوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾؛ فإنّ بين «قال» و «القَالِين» شِبْهُ اشتقاقٍ، من حيث الحروفُ الأصليّة وهي القافُ واللّام، وإن كانا من مصدرين مختلفين مدلولاً: القَوْلُ، القِلىٰ بمعنى البغض.

ب ـ **وأمّا في النّظْم** فهو أن يكون أحدُ اللّفظين المكرَّرين، أو المتجانسين لفظًا لا معنى، أو الملحقين بالمتجانسين، في آخرِ البيت، والآخر في مستهلّ البيت، أو في حَشْو الصَّدْر، أو في آخر الصّدر، أو في مستهلّ العَجزِ. فأنتَ إذًا أمامَ ستّ عشرةَ حالًا، هاكَ أمثلتَها:

١ ـ مثالُ المكرَّرين أحدُهما في آخر البيت والثّاني في مستهلّه قولُ الشّاعر

سَريعٌ إلى ابْنِ العَمّ يَلْطِمُ وجْهَهُ وليسَ إلى داعي النَّدى **بِسَريعِ**

٢ ـ ومثالُ المكرّرين أحدُهما في آخر البيت والثّاني في حشْو الصدر قولُ الشاعر:

تمتَّعْ مِنْ شَمِيمِ **عَرارِ** نَجْدٍ فما بعدَ العَشِيّةِ مِنْ **عَرارِ**

٣ ـ ومثالُ المكرّرين أحدُهما في آخر البيت والثاني في آخر الصَّدر قولُ الشاعر:

وَمَنْ كانَ بالبِيضِ الكَواعِبِ **مُغرَمًا** فَما زِلْتُ بالبِيضِ القَواضِبِ **مُغرَمَا**

٤ ـ ومثالُ المكرّرين أحدُهما في آخر البيت والثاني في مستهلّ العجز قولُ ذي الرُّمّة:

وإنْ لَـمْ يـكُـنْ إلّا مُـعَـرَّجَ سـاعـةٍ **قَـلـيـلاً** فـإنّـي نـافـعٌ لِـي **قـلـيـلُـهـا**

٥ ـ ومثالُ المتجانسين أحدُهما في آخر البيت والثّاني في مستهلّ الصّدر قولُ القاضي الأَرَّجانيّ:

دَعـانـي مِـنْ مَـلامِـكُـمـا سَـفـاهـا فـدَاعـي الـشّـوْقِ قـبـلَـكُـمـا **دَعـانـي**

الّذي في آخر البيت بمعنى «حَضّني»، والّذي في مُسْتَهلّ الصّدر بمعنى «اتْرُكاني».

٦ ـ ومثالُ المتجانسين أحدُهما في آخر البيت والثّاني في حشو الصّدر قول الثّعالبيّ:

وإذا **البَـلابِـلُ** أفـصَـحَـتْ بِـلُـغـاتِـهـا فَـانْـفِ **البَـلابِـلَ** بـاحـتِـسَـاءِ **بـلابِـلِ**

الّذي في آخر البيت جمْعُ بُلبُلة بمعنى إبريق الخمر، والّذي في حشو الصّدر جمْعُ بُلْبُل، الطّائر المعروف، والّذي في حَشْو العجز جمْعُ بَلْبَال بمعنى الهَمّ. أي: انفِ الهمومَ واطردْها.

٧ ـ ومثالُ المتجانسين أحدُهما في آخر البيت والثاني في آخر الصّدر قولُ الحريريّ:

فـمَـشْـغـوفٌ بـآيـاتِ **الـمَـثـانـي** ومـفـتُـونٌ بِـرَنّـات **الـمَـثـانـي**

الّذي في آخر البيت بمعنى أوتار المزامير الّتي ضُمّ طاقٌ منها إلى طاق، والثّاني الّذي في آخر الصّدر بمعنى القرآن. ورنّاتُ المَثاني: نغماتها.

٨ ـ ومثالُ المتجانسين أحدُهما في آخر البيت والثاني في مستَهلّ العجز قولُ الأَرَّجانيّ:

أمَّلْتُهُمْ ثمّ تأمّلْتُهُمْ فلاحَ لي أن ليسَ فيهِمْ فَلاحْ

الّذي في آخر البيت بمعنى فوز ونجاح، والّذي في مستهلّ العجز مؤلّفٌ من الفاء والفعل «لاحَ» بمعنى ظهر.

٩ ـ ومثالُ الملحقين بالمتجانسين اشتقاقًا وأحدُهما في آخر البيت والآخر في مستهلّ الصّدر قولُ الشاعر:

ضَرائِبُ أبدَعْتَها في السَّماحِ فلَسْنا نرى لكَ فيها ضَرِيبا

الّذي في آخر البيت بمعنى «المَثِيل» والّذي في مستهلّ الصّدر جمعُ ضَرِيبة بمعنى طَبيعة وسَجيّة، ويجمعهما الاشتقاقُ من الضّرب.

١٠ ـ ومثالُ الملحقَيْن بالمتجانسين اشتقاقًا وأحدُهما في آخر البيت والآخر في حشْو الصّدر قولُ امرىء القيس:

إذا المرءُ لم يَخْزُنْ عليهِ لِسانَه فليسَ على شَيءٍ سِواهُ بخَزّانِ

١١ ـ ومثال الملحقين بالمتجانسين اشتقاقًا وأحدُهما في آخر البيت والآخر في آخر الصّدر قول أبي عُيَيْنة المُهَلَّبيّ:

فدَعِ الوَعِيدَ فما وعِيدُكَ ضائري أَطَنينُ أجنحةِ الذُّبابِ يَضيرُ

فضائر ويضير ممّا يجمعهما الاشتقاقُ.

١٢ ـ ومثالُ الملحقين بالمتجانسين اشتقاقًا وأحدُهما في آخر البيت والآخر في صدر العجز قول أبي تمّام في مَرْثِية محمّد بن نَهْشَل عندما استُشهِد:

وقدْ كانتِ البِيضُ القوَاضِبُ في الوغى بَواتِرَ وهْيَ الآنَ مِنْ بعدهِ بُتْرُ

بَواتِر أي قواطع لِحُسْنِ استعماله إيّاها، وبُتْر جمع أبتر أيْ لم يبقَ بعده من يستعملُها استعمالَهَ.

١٣ ـ ومثالُ الملحقين بالمتجانسين اللّذين يجمعهما شِبْهُ اشتقاق وأحدُهما في آخر البيت والآخر في مستهَلّ الصّدر قولُ الحريريّ:

ولاحَ يَلْحى على جَرْي العِنانِ إلى مَلْهًى فَسُحْقًا لَهُ مِنْ لائحٍ **لاحِ**

الذي في آخر البيت اسمُ فاعل من لَحاه بمعنى أبعدَه، والّذي في مستهلّ الصّدر ماضي يلوح بمعنى ظهر.

١٤ ـ ومثالُ الملحقين بالمتجانسين اللّذين يجمعهما شِبْهُ اشتقاق وأحدُهما في آخر البيت والآخر في حشو الصّدر قولُ أبي العَلاء:

لَوِ **اختَصَرتُمْ** مِنَ الإحْسانِ زُرتُكُمُ والعَذْبُ يُهْجَرُ للإفراطِ في **الخَصَرِ**

أراد: لم أزرْكُم لِكثرة ما تفضّلْتُم عليّ؛ إذ يعاف النّاسُ الماءَ العَذْبَ حين تشتد برودته. فالخَصَرُ: البرودة، و «اختصرتمُ» بمعنى قلّلْتُم.

١٥ ـ ومثالُ الملحقين بالمتجانسين اللّذين يجمعهما شِبْهُ الاشتقاق وأحدُهما في آخر البيت والآخرُ في آخر الصّدْر قول الحَريريّ:

ومُضْطَلِعٍ بِتَلْخيصِ **المعَاني** ومُطَّلِعٍ إلى تَخْليصِ **عَاني**

الّذي في آخر البيت من عنا يَعْنو إذا أُسِر، فالعاني الأسير. والّذي في آخر الصّدر من عنى يَعْني بمعنى قصد.

١٦ ـ ومثالُ الملحقين بالمتجانسين اللّذين يجمعهما شِبْهُ الاشتقاق وأحدُهما في آخر البيت والآخرُ في مستهَلّ العجز قول الشاعر:

لَعَمْري، لقَدْ كانَ الثُّريّا مكانَه **ثراءً** فأَضحى الآنَ مثواه في **الثّرى**

الثّري: التّراب، وأصْلُ ألفه ياء. والثراء من الثّرْوَة، أصْلُ ألفه واو.

٣ ـ السَّجْعُ:

السَّجْعُ ـ لُغةً ـ ترديدُ الصّوت من قولِهم: سَجَعتِ الحَمامةُ إذا ردّدتْ صوتَها، أو سَجَعتِ النّاقةُ إذا أطْربَتْ في حَنِينها. وفي الاصطلاح البلاغيّ هو:

توافقُ الفاصِلَتَيْنِ منَ النّثر على حَرْفٍ واحدٍ في الآخر.

الفاصِلةُ آخرُ كلمةٍ من جُملةٍ مُقارِنةٍ لجملةٍ أخرى. وتُسمّى كلٌّ من هاتين الجملتين «قَرينة» لمقارنتها الأخرى، وقد تُسمى «فِقْرة».

ويأتي السّجْعُ على ثلاثة أنواع: مطرَّف، ومرصَّع، ومتواز. وإليكَ تفصيلَ القول فيها:

١ ـ **السَّجْعُ المطرَّف**، وهو ما اختلفت فاصلتاه في الوزن واتفقتا في الحرف الأخير أو الطَّرَف، كقوله سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

«وقارا» فاصلةُ القرينةِ الأولى، و «أطوارا» فاصلةُ القرينة الثّانية، وقد اختلفتا في الوزن؛ إذ إنّ أولاهما «القافَ» متحرّكٌ وثاني ثانيتها «الطّاء» ساكن.

٢ ـ **السَّجْعُ المُرَصَّع**، وهو ما اتفقت فيه ألفاظُ القرينتين أو أكثرها في الوزْن والتّقْفِية، كقول الحَريريّ: «فهوَ يَطْبَعُ الأسْجاعَ بجواهرِ لفظِهِ، ويقرَعُ الأسماعَ بزواجِر وَعْظِه». وكقول الهَمَذانيّ: «إنَّ بعدَ الكَدَرِ صَفْوًا وبعْدَ المَطَرِ صَحْوًا». وقد سُمِّي كذلك لأنّ ما يُصنَع بالقرينتين من تقابل ألفاظِهما يُشْبِه ترصيعَ العِقْدِ الّذي هو جَعْلُ إحدى اللؤلؤتين مقابلةً للأخرى.

٣ ـ **السَّجْعُ المتوازي**، وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان وزْنًا وتقفيةً مع اختلاف ما عداهما في: ١ ـ الوزن والتّقفية. ٢ ـ في الوزن فقط. ٣ ـ في التقفية فقط.

الأول كقوله سبحانه: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ فقد اتفقت الفاصلتان وزنًا وتقفيةً، واختلفت «سُرُر» و «أكواب» وزنًا وتقفيةً. الثاني كقوله سبحانه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾. اتفقت الفاصلتان وزنًا وتقفيةً، واختلفت «المرسلات» و «العاصفات» وزنًا فقط. والثالث كقولهم:

«حَصَل الناطِقُ والصَّامِتُ، وهلَكَ الحاسِدُ والشّامتُ». أي وُجِد عندي النّاطقُ وهو العَبِيدُ، والصّامتُ كالخيل ونحوها في الحيوان. وقد اختلف ما عدا الفاصلتين تقفيةً فقط.

وتجدُر ملاحظةُ الآتي فيما يتّصل بهذا المُحَسِّن البديعيّ:

١ ـ يحدث أن يُغيِّر تصريفُ الكلمة تطلُّبًا للسّجْع، كما قال المصطفى عليه الصّلاة والسّلام في تَعْويذةٍ لابن ابنته: «أُعِيذُكَ بكَلِماتِ الله التّامة، مِن كلّ شيطانٍ وهامّة، ومن كُلِّ عَيْنٍ لامّة». وأصْلُ «لامّة» مُلِمَّةٌ؛ لأنها اسمُ فاعل من الرُّباعيّ «أَلَمّ»، فعُبِّر عنها بـ «لامّة» لموافقة ما قبلَها. وكما قال عليه الصَّلاةُ والسّلام للنساء: «انصرِفْنَ مَأْزُوراتٍ غيرَ مأجورات»، إذ الأصلُ: «مَوْزُوراتٍ» لاشتقاقها من الوِزْر، لكنّه جاء بها كذلك لتوافقَ مأجورات. وهذا معْلَمُ اهتمام قويّ باختيار اللّغة وانتقاء الألفاظ؛ ابتغاءَ تحقيق قدْرٍ عالٍ من الجمالية.

٢ ـ يرى نفرٌ من العُلماء خُلُوَّ القرآن الكريم من السّجع، ويُسمّون هذا الّذي يُظَنّ أنّه سَجْعٌ فيه «فواصِلَ» يستريح الكلامُ إليها. قال الباقِلاّنيّ: «ولو كان الّذي في القرآن سَجْعًا لكان مذمومًا؛ لأنّ السّجْعَ إذا تفاوتت أوزانُه واختلفتْ طرقُهُ كان قبيحًا من الكلام. والسّجْعُ منهجٌ مرتّبٌ وطريق مضبوط متى أَخَلّ به المتكلِّمُ نُسِب إلى الخُروج عن الفصاحة، وهذا الّذي يُظَنُّ به أنّه سجْعٌ قد علمنا أنّ بعضَه متقارِبُ الفواصلِ، متداني المقاطع، وبعضه مما يمتدّ حتى يتضاعف طولُه، وتَرِدُ الفاصِلةُ على ذلك الوزْن الأول بعد كلام كثير، وهذا من السَّجْع غيرُ محمود». وجليّ أنّ الباقِلاّنيّ ينفي السّجْعَ عن الذّكْرِ الحكيم لسببٍ أساسيّ هو أنّ السَّجْعَ ضَرْبٌ من الصَّنْعة الكلامية يضطرّ قاصِدَه إلى أنْ يجعل المعنى تابعًا للّفظ، وهذا نَقْصٌ في الكلام كبير. كما أنه يدلّل على أنّ ما جاء في القرآن الكريم مِمّا يقرُب أن يكون

سَجْعًا يخرج عن قوانين السّجع في الكلام العاديّ ويطول التّباعدُ بين رؤوس الآياتِ أحيانًا ممّا يخالِف شروطَ السَّجْع الحسَن. ونقول ههنا ـ ومن الله العِصْمة ـ إنّ ما جاء في الذّكْرِ الحكيم على طريق السَّجْع ليس فيه شيءٌ من تبعيّة لِلّفظ البتّةَ، فهذا شأنٌ بَشَرِيّ صِرْفٌ يتنزّه كلامُ الله سبحانه عنه.

٣ ـ يكون السّجْعُ في النثر أساسًا، وقد يأتي في النّظْم، كقول أبي صَخْرٍ الهُذَليّ:

سُــودٌ ذوائِـبُـهـا بِـيـضٌ تـرائِـبُـهـا مَحْضٌ ضَرائِبُها صِيغَتْ مِنَ الكَرمِ

وقول الخَنْساء:

حَامي الحقيقةِ مَحْمودُ الخليْقةِ مَهْـ ـدِيُّ الـطّـريـقــةِ نَـفّـاعٌ وضَـرّارُ
جـوّابُ قَـاصِـيــةٍ جَـرّارُ نـاصِـيــةٍ عَـقّـادُ أَلْـوِيَـةٍ لِـلْـخَـيـلِ جـرّارُ

وعلى هذا القول يكون من السَّجْع ما يُعْرَف بـ «التّشطير»؛ وهو أن يُجعل كلٌّ من شطري البيت سَجْعةً (مؤلّفة من قرينتين) مخالفة لأختها، كقول الشاعر:

تَـدْبِـيـرُ مُـعْـتـصِـمٍ، بِـاللّـهِ مُـنْـتـقِـمٍ لِـلّـهِ مُـرْتَـغِـبٍ، فـي الـلّـهِ مُـرْتَـقِـبِ
سَجْعةٌ مَبْنِيّةٌ على الميم سَجّعة مبينة على الباء

المُرْتَغِبُ في الله: الرّاغبُ بِما يُدْنيه من رضوانه. المُرْتَقِب: المنتظِر الثواب، والخائف من العقاب.

جماليّات السّجع وشروط تحقيقها:

أحسنُ السَّجْع ما تساوتْ قرائنُه في عدد الكلمات، كقوله سبحانه: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾. ثم ما طالت قرينته الثانية، كقوله سبحانه: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾. ثم ما طالت قرينته الثالثة، كقوله سبحانه:

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾. ولا يحسُنُ الإتيان بقرينةٍ أقصرَ من سابقتها؛ لأنّ جمالية السّجْع ترجع أساسًا إلى التوافق والتوقّع، فإذا أعدّت القرينةُ الأولى الذّهنَ لِتلقّي قرينةٍ لها الطّولُ نفسُه، ثم جاءت هذه القرينةُ أقصرَ كثيرًا من الأولى أُحْبِط التوقّعُ، وخاب أملُ الذّهن في تلقّي عبارةٍ ثانية أو ثالثة على طولٍ أَلِفَهُ واستعدّ له. وحالُ الذّهن في هذا الإحباط تشبهُ حالَ ذهن الماشي على الدَّرَج صُعودًا أو هُبوطًا، وقد أعدّ قدَمَه لِتقعَ على مسافةٍ معيّنة أَلِفَتْها وانتظمتْ وَفْقًا لها، فإذا ما صادفتْ قدمُه حجَرًا أو شيئًا قبلَ أن تبلغَ قرارَها أو أمدَها الّذي استعدّتْ له، أحسّ بكثيرٍ من الضّيق والامتِعاض؛ لأنّ توقّعَه أُحبِط، وانشدادَ أعصابِه الّذي ينتظر الإرخاءَ بعد مسافةٍ محدّدة لم يُتَح له الأمدُ المكانيُّ المنشود.

ونحسَبُ أيضًا أنّ مجيء الفواصل القرآنية متفقةً وزنًا وتقفيةً ينشّط القارىءَ أو السّامع ويبهِجُه، وينعِشُ آليةَ الإدراك لدَيْه فيتلقّى المعنى القرآنيَّ وهو يقِظٌ نشِطٌ واعٍ. وشتّانَ ما بينَ متَلَقٍّ منصرِفٍ تمامًا عن موضوعه منشغلٍ بغيره ومتَلَقٍ شُدَّ انتباهُه وأوقِظ إدراكُه وازداد وعْيُه لموضوعه. ونحسَبُ أيضًا أنّ الثّراءَ الفنّي المتمثّل في الإكثار من تجانسِ الفواصل وتساوي القرائن في التّنزيل المكّيّ بخاصةٍ مِمّا أسهم في تحريك النفوس الغافلةِ العاتِية، وهزِّ الطِّباع الآبِيةِ، وانتزع الغِشاوةَ عن قلوبِ مَنْ أعرَضُوا عن ذِكْر الله، فكان أن رقّتْ هذه القلوبُ، وانصقلت تلك الوِجْداناتُ وصارت تربةً كريمةً انغرِس فيها هُدَى الله سبحانه وشِرْعةُ رسولِه عليه الصّلاةُ والسلام.

بقِي أن تعلم ـ شرحَ اللّهُ صدْرَكَ ـ أنّ السّجْعَ ضربٌ من الزّينة لا يتأتّى هكذا بمجرّد الظّفَر بلفظتين متشابهتين وزنًا وتقفيةً. ` تحصل الجماليةُ المرتقبة من السَّجْع حتى يُراعي الآتي:

١ ـ أن تتحلّى المفرداتُ بالرّشاقةِ والأناْةِ وروعَةِ الجَرْس والخفّة على السّمع.

٢ ـ أن تنقاد الألفاظُ للمعاني، وتفرِض الصّورةُ المعنويّةُ الصورةَ اللّفظية التي تناسبُها، حتّى لا يكون السّجْعُ مجرّد زيادةٍ في اللّفظ أو نقصان فيه.

٣ ـ أن تكون المعاني الحاصِلةُ عند التركيب مألوفةً غيرَ مستنكرة؛ أي لم يجتلبْها تطلُّبُ السّجْعِ.

٤ ـ أن تستقِلّ كلُّ قرينة من القرينتين بدِلالتها الخاصّة بها، وإلّا كان السّجْعُ تكرارًا عديمَ الفائدة.

٥ ـ أن تتناسب القرينتانِ في الطّول؛ حتى يتمّ التناغُم والانسجام، ولا يُخْبَط توقّعُ المتلقّي.

٦ ـ ينبغي أن تظلّ فواصل القرائن مُسَكّنةً؛ إذ لا يتمّ التوافقُ في كلّ الصّوَر إلّا بالوَقْف والسّكون، ففي قولهم: «ما أبعدَ ما فاتْ، وأقربَ ما هُو آتْ» يكون اعتمادُ التّسكين في التاءين شرْطًا لتحقيق السّجْع؛ لأنّ التاء الأولى مفتوحةٌ، والثّانية منوّنةٌ مكسورة.

٤ ـ الموازنة:

المُوازنةُ ـ لُغةً ـ مصْدرُ الفعل وازنَ بين الشيئين إذا سوّى بينهما. وهي في الاصطلاح البلاغيّ:

تَساوي الفاصِلَتَين في الوزْن دون التّقفية.

ومثالُها قولُه سبحانه: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾. فلفظا «مصفوفة» و «مبثوثة» متساويانِ وزْنًا لا تقفية.

وإذا تساوت الفاصلتان وزْنًا لا تقفيةً وساوتْ ألفاظُ القرينةِ أو

أكثرُ ألفاظِها مقابلاتِها في القرينة الأخرى في الوزْن أيضًا خُصَّ هذا الضَّرْبُ باسْم «المماثلة». ومن تساوي الفاصلتين وأكثرِ ألفاظ القرينتين قولُه سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. وقولُ أبي تمّام يصِف النّساءَ بِسَعَة العَيْنَين وطول القَدّ:

مهَا الوَحْشِ إلّا أنّ هاتا أوانِسُ قنَا الخَطِّ إلّا أنّ تِلكَ ذوابِلُ

والمَهَا جمْعُ مَهاةٍ: البقرةُ الوحشية. والخَطّ موضِعٌ تُنسب إليه الرّمَاح المستقيمة.

ومن توافق الفاصلتين وكلّ كلمات القرينتين وزْنًا لا تقفيةً قولُ أبي تمّام:

فأَحْجَم لمّا لم يَجِدْ فيك مَطْمَعًا وأقدمَ لَمّا لَمْ يَجِدْ عنك مَهْرَبا

ومن توافق الفاصلتين وكلّ كلمات القرينتين وزْنًا وتقفية قولي من قصيدةٍ أخاطب بها مدينةَ غزّة المجاهدة:

كيفَ صُغْتِ مِنَ القُلوبِ سِهامًا كيفَ سُقْتِ مِنَ العُيونِ سِماما

السِّمام: السُّم.

وتحقّق الموازنةُ موسيقيةً عالية، أساسُها التّناظرُ الإيقاعيّ في مواضعَ محدّدة، ويُضفي ذلك على الكلام رَوْعةً وبَهاء. وتتفوّق المماثلة في هذا الميدان؛ لاعتمادها التّناظرَ التّام بين أجزاء القرينتين.

٥ ـ القلْبُ:

وهو أن يأتي الكلامُ على نَحْوٍ تستطيعُ أن تقرأه معكوسًا دون أن يتغيّر المعنى.

وشرْطُه أن يكون جيّدَ السَّبْك منسجِمَ المعاني لا أثرَ فيه للكُلْفة، ويأتي في النّثر والنّظْم. أمّا في النّثر فمِثالُه قولُه سبحانه:

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ وقولُه سبحانه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ والحَرْفُ المشدّد في حُكْم المخفّف.

وأمّا في النّظم فكقولِ القاضي الأَرَّجانيّ:

مَـوَدّتُـهُ تَـدومُ لِـكُـلِّ هَـوْلٍ وهَـلْ كُـلٌّ مـودّتُـهُ تَـدومُ

ففي مقدورك أن تقرأ هذا البيتَ معكوسًا دون أن يتغيّر المعنى.

٦ ـ التشريع:

وقد يُسمّى «التوشيح» و «ذا القافيتين» ويعني:

أن يُبنى البيتُ على قافيتين يصِحُّ المعنى عند الوقوف على كلّ منهما.

ومنه قولُ الحَريريّ:

يـا خَـاطِـبَ الـدّنـيـا الـدّنـيّـةَ، إنّـهـا شَــرَكُ الــرّدى وقَــرارةُ الأكْــدارِ
دارٌ متى مـا أضْـحَـكَـتْ فـي يَـوْمِـهـا أبـكَـتْ غـدًا بُـعْـدًا لَـهـا مـنْ دارِ
غـاراتُـهـا لا تَـنْـقَـضـي وأَسِـيـرُهـا لا يُـفْـتـدى بـجَـلائـلِ الأخْـطـارِ

هذه الأبياتُ منظومةٌ على البحر الكامل وقافيتها «داري ـ طاري»، وفي مقدورنا أن نقف على قافيتها الأولى «كَرْدى ـ كَتْغَدا ـ يُفتدى»، فيكون عندنا أبياتٌ منظومة على مجزوء الكامل:

يا خاطبَ الدّنيا الدّنيّةَ إنّها شَرَكُ الرّدى
دارٌ متى ما أضحكتْ في يومِها أبكَتْ غدا
غاراتُها لا تنقضي وأسيرُها لا يُفتدى

وقول الآخر:

اِسْلَمْ ودُمْتَ على الحَوادثِ ما رَسا رُكْـنَـا ثَـبـيـرٍ أو هِـضـابُ حِـراءِ
ونَـلِ الـمُـرادَ مُـمَـكَّـنًـا مـنـهُ عـلـى رُغْـمِ الـدّهُـورِ وفُـزْ بِـطُـولِ بَـقـاءِ

هذان البيتان منظومان على البحر الكامل أيضًا وعلى قافية «رائي»، وفي المُستطاع الوقوفُ على القافية الأوّلى «بيرِ ـ هُورِ»، فيكون عندنا بيتانِ منظومان على مجزوء الكامل:

إسْـلَـمْ ودُمْـتَ عـلَـى الـحَـوا دِثِ مـا رَسَـا رُكْـنَـا ثَـبـيـرِ
ونَـلِ الـمُـرادَ مُـمَـكَّـنَـا مِـنْـهُ عـلـى رُغْـمِ الـدُّهـورِ

جماليّات التشريع:

تتمثّل جماليةُ التشريع فيما يطلُع به على النّفس من مفاجأةٍ وإدهاشٍ؛ فالنّفسُ الّتي توهَمَتِ انتهاءَ البيت عندَ القافية الأولى واطمأنّتْ إلى ذلك واستسلمتْ له، تُفاجأ باتّساعِ الميدان واتّصال الكَلم مِمّا يَعْصِف بها ويُباغِتها، ويبعث فيها النّشاطَ والبَهْجة. هذا إلى أنّ الدّلالة الإضافية بعد انتهاء القافية الأولى تحتلّ من النفس محَلاً خاصًا؛ لأنّها حصّلَتْها من حيث لا تَحْتَسِبُ، ولأنّ تلقّي هذه الفائدة الإضافية حدَث بعدَ استعدادٍ وأُهْبةٍ ناتجين عن المُباغتة.

ولا شكّ في أنّ قدرة الشاعر على إنشاء مثل هذا الشعر المركّب ستكونُ محلّ إعجابٍ وتقدير من المتلقّي.

٧ ـ لُزوم ما لا يَلْزَم:

ويُسمّى أيضًا «الإلزام» و «الإعنات» و «الشديد». ويعني ذلك عند البلاغيين:

أن يَلْزمَ المُنشىءُ قبْلَ الرّويّ في الشّعر، وقبْلَ الفاصلةِ في النّثر، شيئًا ليسَ بلازمٍ في السَّجْع.

والّذي يلزم في السّجع هو مجيءُ الفاصلتين على حرف واحد في الآخر. أما لزومُ ما لا يلزم فيُلتَزَم فيه شيءٌ أكثر من ذلك. ففي

النثر تتساوى الحروف الّتي قبل آخر الفاصلة، وفي النظم تتساوى الحروف التي قبل الرويّ.

ومنه في النثر قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾. فالرّاء بمكان حرفِ الرّويّ، ومجيءُ الهاءِ قبلَها في الفاصلتين لزومٌ لِما لا يلزم؛ لِصحّة السّجْع دون هذه الهاء. ومن هذا القبيل قولُ عربيةٍ تتحدّث عن زوجِها المتوفّى: «فضمّني ضَمّة، وشمّني شَمّة، فليتني مِتُّ ثَمّة». قال البلاغيون: هذا من الكلام الحُلْو في باب اللّزوم ولا كُلْفةَ عليه، وهكذا فليكن.

ومنه في الشّعر قولُ شاعرِ الحَماسة:

إنَّ الّتي زعمَتْ فؤادَك مَلَّها ... خُلِقتْ هَواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لهَا
بيضاءُ باكرَها النّعيمُ فصَاغَها ... بِلَباقَةٍ فَأَدقَّها وأجلَّها
حجَبَتْ تحيّتَها فقلْتُ لِصاحبي ... ما كان أكثرَها لَنا وأقلَّها
وإذا وجَدْتُ لَها وَساوِسَ سَلْوةٍ ... شفَعَ الضّميرُ إلى الفؤادِ فسَلَّها

فقد لزِم قبل الرّويّ «الهاء» حرفَ اللاّم، وهو زيادةٌ على اللاّزِم الّذي هو بناءُ الأبيات على رويّ الهاء.

ومنه أيضًا قولُ الفَرَزْدق:

منَعَ الحَياةَ من الرِّجالِ ونفْعَها ... حَدَقٌ تُقلِّبُها النّساءُ مِراضُ
وكأنّ أفئِدةَ الرّجال إذا رأوا ... حَدَقَ النّساءِ لِنَبْلِها أَغْراضُ

الحَدَق المِراض: الأعينُ الناعسة. الأغراض: الأهدافُ الّتي يضعونها لِتَرْشق بالنّبال وسواها، شبّه أفئدةَ الرجال بها. هذا وقد صنع أبو العَلاء المعرّيّ من ذلك ديوانًا كاملاً سمّاه «اللُّزوميّات»؛ أي الّتي لزِم فيها ما لا يلزم.

٨ ـ المُواربة:

المُواربةُ ـ لُغةً ـ المُداهاة والمُخاتلة والمُراوغة. أمّا عند البلاغيين فهي:

أن يجعل المُنشىء كلامَه على نحوٍ يمكّنه من تغيير معناه بتحريفٍ أو تصحيفٍ أو غيرهما؛ لكيلا يُلامَ.

ومثالُه التقليديّ قولُ أبي نُواس يخاطب الخليفةَ الرّشيد:

لَقَدْ ضاعَ شِعْري على بابِكُمْ   كَما ضاعَ عِقْدٌ على خالِصهْ

فلمّا أنكر عليه الرّشيدُ ذلك قال أبو نُواس: لَمْ أقُلْ إلّا:

لَقَدْ ضاءَ شِعْري على بابِكُمْ   كما ضاءَ عِقْدٌ على خالصهْ

وجليّ أن أبا نُواس هيّأ كلامَه على نحوٍ يستطيع فيه أن يغيّر دِلالتَه بتغيير بسيط في صُورته اللفْظية، وقد أعدّ لذلك باختيار حرفين حَلْقيين (العين والهمزة) يسهل إيهامُ المتلقّي أنه أراد أحدَهما ولم يُرِد الآخر.

وخيرُ ما في هذا الضّرب دِلالتُه على قدْرة المنشىء وامتلاكِه زمامَ اللّغة. ويبدو أنّ في النفس ميلاً إلى هذا الصنيع، الّذي يومىء إلى أثارَةٍ من الظَّرْف والدُّعابة، ومن ثَمّ يحفظ النّاسُ أمثلتَه ويردّدونها في مجالسهم إلى اليوم.

٩ ـ تآلفُ الألفاظ:

وهو أن يختار المنشىءُ ألفاظَ عباراتِه من قَبيلٍ واحد في الغَرابة ونَحْوِها.

ومنه قولُه سبحانه: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾. التّاءُ أغربُ حروف القسم، و «تفتأ» أغربُ أفعالِ الاستمرار. وفي الآية الكريمة

أيضًا محسّنٌ آخر هو التّجانُس الاستهلاليّ؛ فالكلماتُ الثّلاث الأُوَل تبدأ بالتاء. واللاّفتُ للنظر أيضًا تقاربُ الكلمات الأربع في الطّول والوزْن، وتوقّفُ النّطْق عند كلّ واحدة منها؛ إذ ليس بينها ما يَدْمِج الكلماتِ بعضها ببعض كالتّنوين و «أل» التّعريف. ويُحدِث هذا شيئًا من الإجهاد والعَنَتِ لآليّة النّطْق بخاصّةٍ مع ابتداء الكلمات الثلاث الأُوَل بحرف التّاء وتتابع فعلين اثنين. وترسُمُ صعوبةُ نُطْقِ هذه الكلمات الأربع صورةَ المشقّة الّتي يجدها والدٌ يَفْقِد ابنًا عزيزًا، حتّى إنها تُوحي تمامًا بالحال الصّعْبة الّتي سيكون عليها يعقوبُ عليه السّلام، تلكَ الّتي يوضحها تمامُ الآية ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾. وتأمّلْ هذه الكلمةَ «حَرَضًا» الّتي ترسُم - هي نفسها - تلكَ الحالَ الصّعْبة؛ و «الحَرَضُ» المُضنىٰ مَرَضًا وسُقْمًا. وعلى الجملة فقد اختيرت ألفاظُ الآية الكريمة من مستوى واحدٍ في الغرابة.

ومنه في الشّعر قولُ بشّار في جاريته «رَبَابة»:

رَبَابَةُ رَبَّةُ البَيْتِ تَصُبُّ الخَلَّ في الزَّيْتِ
لَهَا عَشْرُ دَجاجاتٍ ودِيكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

فالألفاظُ هنا من وادٍ واحد في البَساطة والسُّهولة والتدفّق والوضوح.

١٠ - التّسميط:

ويعني عند البلاغيين:

أن يجعل الشّاعرُ بيتَه على أربعة أقسامٍ، ثلاثةٌ على سَجْع واحد، بخلاف قافية البيت.

وقد اشتقّوا تسميةَ هذا الفنّ من السِّمْط الّذي هو خيْطُ العِقد، إذ

نزّلوا سَجَعاتِ الأجزاء منزلةَ حبّ العقد، وقافيةَ البيت بمنزلة السِّمْط الّذي يجمع حبّ العِقْدِ ويربطه.

ومنه قولُ مَرْوانَ بن أبي حَفْصة:

هُمُ القومُ، إنْ قالوا أصابوا، وإنْ دُعُوا أجابُوا، وإنْ أعطَوا أطابُوا، وأجزلُوا

وواضحٌ أنه جعل بيتَه على أربعة أقسام، ثلاثةٌ منها على سَجْعٍ واحد: أصابوا، أجابوا، أطابوا، بخلاف قافية البيت التي جاءت هكذا «أجزلوا».

وقولُ جَنوب الهُذَليّة:

وحَــزْبٍ وردْتَ وثَـغْـرٍ سـددْتَ وعِلْـجٍ شـددْتَ عـليـهِ الـحِبـالا
ومـالٍ حَـوَيْـتَ وخَيْـلٍ حَمَيْـتَ وضـيـفٍ قَـرَيْـتَ يـخـافُ الـوَكـالا

وقول الآخر:

في ثَغْـرِهِ لَعَسٌ في خَـدِّه قَبَسٌ فـي قـدِّهِ مَـيَسٌ في جِسْمِه تَرَفُ

١١ ـ الاكتفاء:

وهو: أن يستغنيَ الشّاعرُ عن ذكر شيءٍ تاركًا أمْرَ تحصيله لعقل المتلقّي.

ومنه قول الشاعر:

يــا لائــمِــي فــي هَــواهــا أفــرطْــتَ فــي الـلَّـوْمِ جَـهْـلا
مــا يَــعْــلَــمُ الــشَّــوْقَ إلّا ولا الــصَّــبــابــةَ إلّا

أي: ما يعلمُ الشّوقَ إلّا مَنْ يكابدُه، ولا الصّبابة إلّا من يُعانيها. يدلّ على هذا كلامُ العرب في هذا الشأن.

ومثلُه قولُ الآخر:

ضَلُّوا عنِ الماءِ لمّا أنْ سَرَوا سَحَرًا قومي فظَلُّوا حَيارى يَلْهثون ظَما

والـلَّـهُ أكـرمَـنـي بـالـمَـاءِ بـعـدَهُـمُـو   فقلْتُ: يا ليتَ قومي يعلمونَ بِما

والتتمّة من الآية الكريمة هي: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾.

أسئلة وإجاباتُها حولَ المحسّنات اللّفظية:

حدّد نوعَ المحسِّن البديعيّ اللّفظي فيما يأتي:

١ ـ عـضّـنـا الـدّهـرُ بِـنـابِـهْ   لَـيْـتَ مـا حـلّ بِـنـا بِـهْ

٢ ـ وسَمّيتُهُ يحيىٰ لِيَحْيا فلمْ يكنْ   إلـى ردّ أمـرِ الـلّـهِ فـيـهِ سَـبـيـلُ

٣ ـ إلـى حَـتْـفي سَـعـى قـدَمـي   أرى قـدَمـي أراقَ دَمِـي

٤ ـ قال المُصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام: «اللّهمَّ أَعْطِ مُنفِقًا خَلَفًا وأعطِ مُمسِكًا تَلَفًا».

٥ ـ قد بُلينا في عَصرِنا بأُناسٍ   يَـظْـلِـمـونَ الأنـامَ ظُـلْـمًـا عَـمّـا
يـأكـلـونَ الـتُّـراثَ أكْـلاً لَـمّـا   ويُـحِـبُّـونَ الـمـالَ حُـبًّـا جَـمّـا

٦ ـ أشـكُـو وأشـكُـرُ فِـعْـلَـه   فـاعـجَـبْ لِـشَـاكٍ مـنـهُ شـاكِـرْ

٧ ـ يَـسـارٌ مِـنْ سجيّتِـهـا الـمَـنـايـا   ويُـمـنـى مِـنْ عـطـيّـتِـهـا الـيَـسـارُ

٨ـ كنْ كيفَ شئتَ عن الهوى لا أنتهي   حتّى تعودَ لِيَ الحياةُ وأنتَ هِي

٩ ـ قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

١٠ ـ ليتَهمْ سَمّوهُ باسْمٍ سِوى ذا   إنّـمـا الـتّـشـريـعُ ديـنٌ قـويـمُ

١١ـ فَحَوْضُ عَذْلِكَ عَذْبٌ مُغْدِقٌ خَصِرٌ   ورَوْضُ فَضْلِكَ رَحْبٌ مُونِقٌ خَضُرُ

١٢ـ قال المُصطفى عليه الصّلاةُ والسّلام؛ «اللّهمّ، إنّي أدرأُ بكَ في نُحورِهمْ، وأعوذُ بكَ من شرورِهمْ».

ـ الإجابات:

١ ـ في البيت جناسٌ تامٌ بين «بِنابِهِ» الأولى حيث المُرادُ أحدُ أنياب الأسنان و «بِنابِهِ» الثانية المركّبة من «بِنا» و «بِهِ».

٢ ـ فيه جناسٌ تامّ مستوفًى بين «يحيى» اسْمِ العَلَم و «يحيا» الفِعْل من الحياة.

٣ ـ فيه جِناس تامّ بين «أرى قَدَمي» بمعنى ألحظُ قدمي و «أراقَ + دَمِي»؛ أي أهدَر دمي.

٤ ـ فيه سَجْعٌ مرصّع؛ إذ إنّ إحدى الفقرتين مِثلُ الثّانية وزنًا وتقفيةً.

٥ ـ في البيت الثّاني اقتباسٌ من الذّكر الحَكيم من سورة الفجر ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.

٦ ـ فيه جناسٌ ناقص للاختلاف في العدد بين «شاكٍ» و «شاكر».

٧ ـ فيه ردّ العَجُز على الصّدر: لفظانِ متفقان لفظًا ومعنى أحدُهما في آخر العجز والثاني في مطلع الصدر «يسار».

٨ ـ فيه جناسٌ تامّ ومفروق بين «أنتهي» و «أنتَ هِي»؛ فقد تشابه الرّكْنانِ لفظًا لا خَطًا.

٩ ـ فيه جناسٌ مضارِعٌ بين «شهيد» و «شديد».

١٠ ـ فيه تشريعٌ؛ إذ إنّ هذا البيت مبنيّ على قافيتين، حيث يمكن أن يُحذف منه في آخر الصدر (سوى ذا) وفي آخري العجر (قويمُ)، ليتحوّل من المديد إلى مجزوء الرمل.

١١ ـ فيه سَجْعٌ مرصّع باتّفاقِ ألفاظ الصّدر مع نظائرها في العجز وزنًا ورويًا.

١٢ ـ فيه سَجْعٌ متوازٍ، إذ اتفقت الفقرتان في الفاصلتين.

أسئلةٌ عن المحسّنات اللّفظية تُطلَبُ إجاباتها على غرار ما تقدّم:

ـ حدّدْ نوعَ المحسّن البديعيّ اللّفظي فيما يأتي:

١ ـ بقيتَ لنا تجودُ مدى الليالي فإنّك ما بقيتَ لنا بَقينا

٢ ـ فلَمْ تَضعِ الأعادي قدْرَ شَاني ولا قالوا فلانٌ قَدْ رَشاني

٣ ـ ودارِهِمْ مادُمْتَ في دارِهِمْ وأرْضِهِمْ ما دمْتَ في أرضِهِمْ

٤ ـ كنتُ أطمعُ في تجريبِكَ، ومطايا الجَهْلِ تجري بِكَ

٥ ـ قالَ لي: إنَّ رقيبي سَيِّىءُ الخُلْقِ فَدَارِهْ
قُلتُ: دَعْني، وجْهُك «الجَنّـ ـةُ حُفَّتْ بالمكارِهْ.

٦ ـ سَلْ طائرًا صَدَعَ الفؤادَ بسُحْرةٍ أتراه غَرّدَ صَادِعًا أو صادِها

٧ ـ وهَنَ العظمُ بالبعادِ فهبْ لي ربِّ باللّطفِ من لدنْكَ وليّا

٨ ـ فَهِمْتُ كتابَكَ يا سيّدي فَهِمْتُ ولا عَجبٌ أنْ أهيما

٩ ـ جئتُ من حلبَ بِبَلَح.

١٠ ـ مودّتُهُ تدومُ لكلّ هَوْلِ وهلْ كلٌّ مودّتُهُ تدومُ

١١ ـ لاخابَ مَنْ استخار، ولا نَدِمَ من استشار ـ ما ماتَ مَنْ أحْيا عِلْما، ولا افتقر من ملَك حِلْما ـ سِرْ بي فَسِرْ بي اشتاقوا إليّ.

١٢ ـ قال المصطفى عليه الصّلاة والسلام: «عليكم بالأبكار؛ فإنّهنّ أشدُّ حُبّا، وأقلُّ خَبِّا». والخَبّ: الخداع والغش والخبث.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أهمّ المصادر والمراجع المعتمدة في تأليف الكتاب

أولًا : المصادر:

١ ـ الإتقان في علوم القرآن — جلال الدين السيوطي
٢ ـ أسرار البلاغة — عبد القاهر الجرجاني، تحقيق هـ. ريتر
٣ ـ إعجاز القرآن — الباقلّانيّ
٤ ـ الإيضاح في علوم البلاغة — الخطيب القزويني
٥ ـ البديع — ابن المعتز
٦ ـ بديع القرآن — ابن أبي الإصبع، تحقيق حفني محمد شرف
٧ ـ تحرير التحبير — ابن أبي الإصبع
٨ ـ التلخيص في علوم البلاغة — الخطيب القزويني، شرح عبد الرحمٰن البرقوقي
٩ ـ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الخطّابيّ والرّمانيّ والجرجانيّ
١٠ ـ الجُمان في تشبيهات القرآن — ابن ناقيا
١١ ـ الخصائص — ابن جنّي
١٢ ـ سِرّ الفصاحة — ابن سنان الخفاجي
١٣ ـ الطّراز — يحيى بن حمزة العلويّ
١٤ ـ الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن — ابن قيم الجوزيّة
١٥ ـ الكشّاف — الزمخشري
١٦ ـ المثل السائر — ضياء الدين بن الأثير

١٧ ـ مختصَر المعاني سعد الدين التفتازانيّ

١٨ ـ مفتاح العلوم السكاكيّ

١٩ ـ الموازنة بين أبي تمام والبحتري الآمديّ

٢٠ ـ نقد الشعر قدامة بن جعفر

٢١ ـ نقد النثر منسوب إلى قدامة بن جعفر

٢٢ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه القاضي عليّ بن عبد العزيز الجْرجانيّ

ثانيًا: المراجع:

١ ـ أثر النُّحاة في البحث البلاغيّ عبد القادر حسين

٢ ـ البلاغة العربية في ثوبها الجديد بكري شيخ أمين

٣ ـ البيان العربي بدوي طبانة

٤ ـ التصوير البيانيّ محمد أبو موسى

٥ ـ جواهر البلاغة أحمد الهاشمي

٦ ـ دلالات التراكيب محمد أبو موسى

٧ ـ فنّ البلاغة عبد القادر حسين

٧ ـ في البلاغة العربية

(علم المعاني ـ البيان ـ البديع) عبد العزيز عتيق

٩ ـ المنهاج الواضح حامد عوني

١٠ ـ من بلاغة النظم العربي عبد العزيز عبد المعطي عرفة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تم تدقيق الكتاب علمياً من قبل :

الدكتور	الدكتور	الدكتور
أحمد زياد محبك	عصام قصبجي	محمد التونجي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com